رواية

رالف إليسون

مكتبة 964

الرجل اللامرئيّ



ترجمة: أسامة منزلجي

الرجل اللا مرئيّ



اسم المؤلف: رالف إليسون

Author: **Ralph Ellison**

عنوان الكتاب: الرجل اللا مرئيّ

Title: **Invisible Man**

ترجمة: أسامة منزلجي

Translated by: **Osama Menzlchi**

الناشر: دار المدى

P.C.: **Al–Mada**

الطبعة الأولى: 2021

First Edition: **2021**



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نؤاس – محلة 102 – شارع 13 – بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

+ 964 (0) 780 808 0800 — + 964 (0) 770 2799 999 — + 964 (0) 790 1919 290

بيروت: بشامون – شارع المدارس

Beirut: Bchamoun - Schools Street

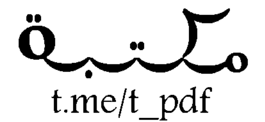
+ 961 706 15017 — + 961 175 2617 — + 961 175 2616

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

Damascus: Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street

+ 963 11 232 2275 — + 963 11 232 2276 — + 963 11 232 2289

ص.ب: 8272



رالف إليسون

الرجل اللا مرئيّ

ترجمة : أسامة منزلجي



إهداء المؤلِّف

إلى أيدا

نبذة

ربما تُعتبَر رواية «*الرجل اللا مرئي*» أشهر رواية تتناول وضع السود في أميركا؛ فهي لا تناقش فقط أوضاع السود الجائرة، بل الصراعات السياسية بين الأحزاب السوداء والقيادات المتنازعة والخيانات التي تتعرض لها قضية السود في أميركا أيضاً. صدرت الرواية عام 1952، وفي عام 1953 نالت الجائزة الوطنية للأدب.

مؤلف الرواية رالف إليسون (1913–1994) روائي وناقد أدبي أميركي. رواية «*الرجل اللا مرئي*» هي أشهر إنتاج له. له مجموعات من المقالات الأدبية والسياسية كان ينشرها في النيويورك تايمز.



هتف القبطان ديلانو، بدهشة وألم مطّردين «لقد نجوتَ، لقد نجوتَ: ما الذي رمى بهذا الظل عليك؟»

هرمن ملفيل، من قصة «**بينيتو تشيرينو**»

«هاري: أؤكد لك أنكَ لا تنظر إليّ أنا،

أنك لا تبتسم لي، نظراتك الحميمة لا تُجرِّمني أنا،

بل ذلك الشخص الآخر، إذا اعتقدتَ أنني شخص: فانهش في تلك الجثّة...»

ت. س إليوت، من «**التئام شمل العائلة**»

هذه الرواية

صدرت هذه الرواية كأول عمل أدبي للكاتب رالف إليسون (1913–1994) عام 1952، وفي العام التالي فازت بجائزة الكتاب الوطنيّ، وفيها يتعرَّض الكاتب لقضايا اجتماعيّة وفكريّة واجهت المجتمع الأميركيّ الأسود في أوائل القرن العشرين، بما فيها النزعة الوطنيّة السوداء، والعلاقة بين الهُويّة السوداء والماركسيّة، وسياسات الإصلاح العرقيّة عند المناضِل بوكر تي. واشنطن، وقضايا الهُويّة الفرديّة والهويّة الشخصيّة أيضاً. تأثّر إليسون في هذه الرواية بكلٍ من ت. س إليوت، ووليم فوكنر وكافكا، وإرنست هيمنغواي. من أعمال إليسون الأخرى «Shadow and Act» و«Juneteenth».

توطئة

أنا إنسانٌ غير مرئيّ. كلا، لستُ شبحاً من تلك الأشباح التي تسكن إدغار ألن بو؛ ولستُ أحد تشكيلاتك السينمائية الهوليووديّة الهلاميّة. أنا إنسان ملموس، من لحم وعِظام، وأنسجة وسوائل - ويمكن القول أيضاً إنني أمتلك عقلاً. أنا غير مرئيّ، أتفهم، لمجرد أنَّ الناس يرفضون أنْ يروني. وكالرؤوس التي بلا أجساد التي تراها أحياناً فِي العروض الثانوية في السيرك، أبدو كأنني مُحاط بمرايا من زجاج قاسٍ، مُشوّه. عندما يقتربون مني لا يرون إلا ما يُحيط بي، أي أنفسهم، أو قِطعاً من مخيلتهم - في الحقيقة أنهم يرون كل شيء وأيّ شيء إلا أنا.

وكوني غير مرئيّ لا يعود بالضبط إلى حادث كيميائي حيوي وقع لبشرتي. إنَّ هذا النوع من الاختفاء الذي أُشير إليه يحدث بسبب حَوَلٍ من نوعٍ معيَّن يحدث لعيون الذين أتصل بهم. إنها مسألة تتعلّق بتكوين عيونهم *الداخليّة*، تلك العيون التي ينظرون بها من خلال عيونهم الماديّة إلى الواقع. أنا لا أتذمَّر، ولا أحتجّ. فمن التميُّز ألا تكون مرئياً، على الرغم من أنه يُرهِق الأعصاب. ودائماً ما يرتطم بك أصحاب النظر الضعيف أيضاً. أو ينتابك الشك أيضاً في أنك موجود حقاً. تتساءل ما إذا كنتَ مجرد شبح في أذهان الآخرين. فلنقُل، شكلاً في كابوس يُحاول النائم بكل قِواه أنْ يُدمره. عندما تشعر هكذا، بدافع الاستياء، تبدأ ترتطم بدورك بالناس. ودعني أعترف لك، أنك تشعر هكذا في أغلب الأحيان. تتوجّع من شدّة الحاجة إلى إقناع نفسك بأنك موجود حقاً في العالم الواقعي، بأنك جزءٌ من كل الأصوات والآلام، وتضرب قبضتيّ يديك معاً، وتلعن وتسبّ لكي تجعلهم يرونك. ولكن للأسف، نادراً ما تنجح المحاولة.

ذات ليلة ارتطمتُ مُصادفة بأحد الرجال، وربما بسبب اقتراب حلول الظلام رآني ورماني بنعتٍ مُهين. فوثبتُ عليه، وأمسكت به من معطفه ومن طيتيّ السترة وطالبته بالاعتذار. كان رجلاً طويل القامة وأشقر، وعندما قرّبتُ وجهي من وجهه نظر إليّ بغطرسة من عينيه الزرقاوين ولعنني، ولسعتْ أنفاسه الحارة وجهي وهو يُصارع. فجذبتُ ذقنه نحو الأسفل بحركة حادة فوق قمة رأسي ورحتُ أنطحه، كما رأيتُ الهنود الغربيين يفعلون، وشعرتُ بلحمه يتمزق والدم يتدفق، وصرخت «اعتذر! اعتذر!»، لكنه استمر يلعن ويُصارع، وأخذت أكرر النطح إلى أنْ سقط بقوة على رُكبتيه وهو ينزف بغزارة. ورفسته باستمرار في ثورة مسعورة لأنه ما انفك يرميني بالسباب على الرغم من أنَّ شفتيه كانتا تزبدان بالدم. آه نعم، كم ركلته! وفي خضم نوبة شجاعتي أخرجت سكيني وتأهبت لحزّ عنقه، هناك تحت عمود النور وسط الشارع المُقفِر، وأنا أمسِك به من ياقته بيد، وأفتح السكين بأسناني – وإذا بي أتبيَّن أنَّ الرجل لم *يرني*، في الحقيقة؛ أنه، حسب عِلمه، وسط كابوس يسير على قدمين! أوقفتُ السكين، ومزّقتُ الهواء وأنا أبعده عني، وتركته يسقط على أرض الشارع. أمعنتُ النظر إليه عندما طعنتْ أضواءُ سيارة مارة جسد الظلام. إنه يستلقي هناك يتأوه على الإسفلت؛ رجل كاد يُقتَل بيد شبح. وتميَّزتُ غيظاً. شعرتُ معاً بالاشمئزاز وبالخزي. كنتُ أشبه بسكّير، أترنّح على ساقين واهنتين. ثم شعرت بالمرح. لقد قفز شيء من رأس هذا الرجل المغفّل وضربه حتى كاد يودي بحياته. وبدأتُ أضحك من هذا الاكتشاف المجنون. هل استيقظ عند شفا الموت؟ هل حرّره الموت من أجل حياة يقِظة؟ لكنني لم أتوقف طويلاً عند هذا. وفررتُ داخل الظلام، ضاحكاً بصوت مرتفع إلى درجة أنني خشيتُ أنْ أُصاب بفتق. وفي اليوم التالي رأيت صورته في صحيفة *الديلي نيوز*، تحت تعليق يقول إنه «تعرَّضَ لهجوم». يا للأحمق المسكين، يا للأحمق الأعمى المسكين، قلت هذا لنفسي بتعاطفٍ صادق، لقد تعرَّضَ لهجوم من شخص غير مرئيّ!

في الغالب أنا لستُ عنيفاً بشكل صريح (على الرغم من أنني لم أختر كما فعلتُ ذات مرة إنكار العنف الذي اتسمت به حياتي بتجاهله)، وأتذكّر أنني غير مرئيّ فأمشي بخُطى هادئة كي لا أوقظ النائمين. أحياناً من الأفضل

ألا نوقظهم؛ هناك أشياء قليلة في العالم تعادل في خطورتها السائرين في أثناء نومهم. لكنني تعلمت في الوقت المناسب أنَّه من الممكن الاستمرار في مكافحتهم من دون أنْ يعلموا. على سبيل المثال، إنني أخوض حرباً مع شركة النور والطاقة المُحتكرة منذ مدة. إنني أستفيد من خدمتهم من دون أنْ أدفع لهم أي شيء، وليس لهم عِلم بهذا. أوه، إنهم يعتقدون أنَّ هناك تسرّباً في الطاقة، لكنهم لا يعلمون أين. كل ما يعرفون هو أنه وَفقاً للمقياس الرئيس عندهم في محطة الطاقة هناك كمٌّ هائلٌ من التيار المجاني يختفي في مكان ما من غابة هارلم. النكتة، طبعاً، هي أنني لا أُقيم في حي هارلم وإنما في منطقة حدودية. وقبل بضعة أعوام (قبل أنْ أكتشف ميزة كوني غير مرئيّ) خضتُ روتين عمليّةِ تسديدِ تكلفةِ الخدمةِ ودفع مبلغ ضخم. لكنني لن أفعل بعد الآن. لقد تخليتُ عن هذا كله، وعن شقتي، وعاداتي القديمة كلها في الحياة: وذلك اعتماداً على الافتراض المُضلل القائل إنني، كغيري من الرجال، مرئيّ. والآن، وقد بتُّ أعي أنني غير مرئيّ، أعيش من دون دفع قيمة إيجار في مبنى يُؤجَّر حصراً للبيض، في قِطاع من القبو أوصدَ ونُسيَ في القرن التاسع عشر، وهو ما اكتشفتُ وأنا أحاول أنْ أهرب تحت جنح الظلام من راس المُدمِّر[1] Ras the Destroyer. لكنني أستبقُ كثيراً أحداث القصة، ربما حتى النهاية، على الرغم من أنَّ النهاية تقع في البداية وتستبق أشياء كثيرة.

المهم هنا هو أنني عثرتُ على مأوى – أو حفرة في الأرض، اختر ما شئت. ولكن لا تُسرع إلى الاستنتاج أنه لأنني أُسمّي مأواي «حفرة» فهذا يعني أنه رطب وبارد كالقبر؛ فهناك الكثير من الحفر الباردة والحفر الدافئة. وحفرتي دافئة. وتذكَّر أنَّ الدبّ ينسحب إلى حفرته لقضاء فصل الشتاء ويعيش فيها حتى حلول فصل الربيع؛ ثم يخرج متمهلاً مثل صوص عيد الفصح بعد أنْ يكسر قشرته. إنني أقول هذا كله لكي أطمئنك إلى أنَّه ليس صحيحاً الافتراض أنني ميِّت لأنني غير مرئيّ وأعيش في حفرة. إنني لست ميتاً ولا في حالة حيوية كامنة. سمِّني جاك الدب، لأنني في حالة من السُبات.

1- راس المُدمِّر: هو لقب رئيس جماعة ثورية من السود تدعو إلى إنشاء دولة مُستقلة للأميركيين السود. – المترجم

إنَّ حفرتي دافئة ويغمرها الضوء. نعم، **مغمور** بالضوء. إنني أشك في وجود بقعة أسطع ضياءً في نيويورك كلها من حفرتي هذه، ولا أستثني من ذلك برودواي. أو مبنى الإمباير ستيت في ليلة حالمة للمُصوِّر. لكنني بهذا أستغلُّك. فهاتان البقعتان هما من أشدّ ما في حضارتنا كلها ظلاماً - عُذراً، بل *ثقافتنا* كلها (والفرق مهمّ، كما سمعت) - وهذا قد يبدو أشبه بالخداع، أو التناقُض، ولكن هكذا (أعني، بالتناقُض) يسير العالم: ليس كانطلاقة السهم، بل بخط البومارانغ[2] الملتوي. (حذارِ من أولئك الذين يتحدثون عن مسار التاريخ *اللولبي*؛ إنهم يُعدّون قذيفة البومارانغ. فاستعد بقلنسوة). أعلم هذا؛ لقد تلقّيت كثيراً من ضرب البومارانغ على رأسي حتى أصبح في استطاعتي أنْ أرى الظلام في النور. وأنا أحب النور. لعلك سترى أنّه من الغريب أنْ يحتاج رجل لا مرئيّ إلى النور، أنْ يرغب في النور، أنْ يحب النور. ولكن ربما السبب هو ***بالذات*** لأنني غير مرئي. إنّ النور يؤكّد حقيقتي، يُعطي شهادة ميلادٍ لشكلي. وقد أخبرتني فتاة جميلة ذات مرة عن كابوس يراودها باستمرار ويتراءى لها فيه أنها مستلقية وسط غرفة فسيحة مظلمة وتشعر بوجهها يتمدد إلى أنْ يملأ الغرفة بأكملها، وتُصبح كتلة لا شكل لها بينما عيناها ترتفعان كهلام صفراوي على طول المدخنة. وهكذا هو حالي. من دون نور أنا مجرد شخص غير مرئيّ، ولكن أيضاً من دون شكل؛ وأنْ تنسى أنَّ لك شكلاً معناه أنْ تعيش الموت. أنا نفسي، بعد عشرين عاماً من الوجود، لم أُصبح حياً إلى أن اكتشفت أنني غير مرئيّ.

لهذا أخوضُ معركتي مع شركة النور والطاقة المُحتكرة. أعني أنه السبب الأعمق: إنها تسمح لي بأنْ أشعر بحياتي الحيوية. إنني أحاربها أيضاً لأنها أخذتِ الكثير من مالي قبل أنْ أتعلَّم كيف أحمي نفسي. في حفرتي في القبو هناك بالضبط 1,369 لمبة نور. لقد مددتُ أسلاك الكهرباء عبر السقف كله، في كل بوصة منه. ليس بلمبات النيون، بل بالنوع القديم، الأكثر تكلفة، النمط الخيطيّ. بعملية تخريب، كما تعلم. لقد باشرتُ تواً مد الأسلاك على الجدار كله. كان جامع خردة أعرفه، واسع المخيلة، قد زوّدني بالأسلاك

2- البومارانغ هي قطعة خشب معقوفة يتخذها هنود أستراليا كقذيفة يرشقون بها هدفاً ثم تعود هذه القطعة إلى قاذفها بفعل أسلوب تشكيلها الخاص. - المترجم

وبالمقابس. لا ينبغي أنْ يقف في طريق حاجتنا إلى النور والمزيد من النور الساطع إعصار أو فيضان. إنَّ الحقيقة هي النور والنور هو الحقيقة. وعندما أنتهي من تغطية الجدران الأربعة، سوف أباشر بالأرضية. ولا أعلم كيف سيتم ذلك. ولكن عندما تعيش حياة طويلة وأنت غير مرئيّ كما حصل معي تنمي براعة معيَّنة. سوف أحلّ المشكلة. وربما أخترع أداة من أجل وضع ركوة القهوة على النار وأنا مستلق على السرير، بل وأخترع أداة من أجل تدفئة سريري - كالشخص الذي رأيت في إحدى المجلات المُصوّرة وصنع أداة لكي يُدفئ حذاءه! وعلى الرغم من أنني غير مرئيّ، فإنني أنتمي إلى التراث الأميركي العظيم لصنّاع الأحذية. وذلك يربطني بصِلة القُربى مع فورد، وأديسون وفرانكلين. سمِّني، بما أنني صاحب نظرية وتصوُّر، «سمكرياً - مفكِّراً». نعم، سوف أُدفئ حذائي؛ إنه في حاجة إلى ذلك، فهو في المعتاد مملوء بالثقوب. سوف أفعل هذا وأكثر.

الآن لديّ راديو - فونوغراف؛ وأُخطط لحيازة خمسة. إنَّ حفرتي يسودها حزن سمعيّ معيَّن، وعندما ستنطلق الموسيقى أريد أنْ *أشعر* بذبذباتها، ليس بأذني فقط بل بكامل جسمي أيضاً. أودّ أنْ أسمع خمسة تسجيلات للوي آرمسترونغ وهو يعزف ويغني «ماذا جنيتُ حتى أصبح أسود وحزيناً؟» - كله في وقت واحد. في هذه الأيام أحياناً أستمع إلى لوي وأنا أتناول مرطبات بعد الأكل المفضلة لديّ من مثلجات الفانيليا مع مشروب الجن. أصبّ المشروب الأحمر فوق الركام الأبيض، وأراقبه يتلألأ ويرتفع البخار بينما لوي يثني تلك الآلة الموسيقية العسكرية ويحولها إلى شعاع من الضجيج الغنائي. ربّما أحب لوي آرمسترونغ لأنه يجعل من كونه غير مرئيّ قصيدة شِعرية. أعتقد ذلك لأنه لا يعي أنه غير مرئيّ. ووعيي الخاص بظاهرة الاختفاء يُساعدني على فهم موسيقاه. وذات مرة عندما طلبتُ سيجارة، أعطاني بعض المازحين سيجارة من الحشيش، وعندما رجعتُ إلى المنزل أشعلتها وجلستُ أستمع إلى فونوغرافي. كانت أُمسية من نوع غريب. إنَّ ظاهرة الاختفاء، دعني أشرح هذا، تمنح المرء حسّاً مختلفاً قليلاً بالزمن، لا يمشي أبداً على الإيقاع. أحياناً يتقدَّم وتارة يتأخر. وبدل تدفُّق الزمن السريع والدقيق، يعي مطبّاته، تلك النقاط التي يتوقف عندها الزمن أو يقفز

إلى الأمام. ويضغط على الكوابح ويتلفّت حوله. هذا ما يسمع بغموض في موسيقى لوي.

ذات مرة شاهدت ملاكماً محترفاً يقاتل رجلاً قروياً. كان الملاكم سريعاً ودقيقاً بصورة مذهلة. كان جسمه دفقاً عنيفاً من الحركة المنتظمة والسريعة. ضرب القروي مئة مرة فيما القروي يرفع ذراعيه في حالة من الدهشة والذهول. ولكن إذا بالقروي فجأة يتنقل في المكان بقفازه المُضحك، ويُسدد ضربة واحدة ويُطيح بالدقة، وبالسرعة وبحركة القدمين ببرودة مؤخرة حفّار آبار. وبدأتْ أموال المراهنة تنهال. وفاز الأقلّ حظاً. إنَّ الأمر ببساطة هو أنَّ القروي تلاعب بإحساس خصمه بالزمن. وهكذا وتحت تأثير سيجارة الحشيش اكتشفتُ طريقة تحليليّة جديدة للإصغاء إلى الموسيقى. وظهرت الأصوات غير المسموعة، وبرز كل خطٍ نغميّ وحده، خارج كل ما تبقّى، وقال ما لديه، وانتظر بصبر الأصوات الأخرى لتتكلَّم. وفي تلك الليلة وجدتني أسمع ليس في الزمان فقط، ولكن في المكان أيضاً. ليس أني ولجتُ الموسيقى فقط، بل هبطتُ أيضاً، كما فعل دانتي، إلى أعماقها. *وتحت عذوبة الإيقاع الحار كان هناك إيقاع أشدّ بطئاً وكهفٌ ولجته ونظرتُ في أرجائه وسمعتُ امرأة عجوزاً تغني لحناً روحانياً زاخراً بالحزن العاطفي كطائر الفلامنكو، وتحت ذلك كمِنَ مستوى أشدّ انخفاضاً رأيتُ عليه فتاة جميلة بلون العاج تناشد بصوت يُشبه صوت أمي وهي واقفة أمام مجموعة من مُلاك العبيد يسعون وراء جسدها العاري، وتحت ذلك وجدتُ مستوى أشد انخفاضاً وإيقاعاً أسرع وسمعت أحدهم يصرخ:*

«إخوتي وأخواتي، عنوان خطبتي هذا الصباح هو «سواد السواد»»

فتجيب جمهرة من الأصوات: «ذلك السواد شديد السواد، يا أخي، شديد السواد...»

«في البدء...»

يصرخون «في البداية الأولى»

«... كان السواد...»

«بشّر به...»

«... والشمس...»

«الشمس، يا رب...»

«... كانت حمراء بلون الدم...»

«حمراء...»

يصرخ الواعظ «والآن أضحت سوداء...»

«دموية...»

«أنا قلت سوداء...»

«بشّر بها، يا أخي...»

«... وليست سوداء...»

«حمراء، يا رب، حمراء: قال إنها حمراء!»

«آمين، يا أخي...»

«الأسود سينال منك...»

«نعم، سيفعل...»

«... والأسود لن يفعل...»

«كلا، لن يفعل!»

«سيفعل...»

«سوف يفعل، يا رب...»

«... ولن يفعل»

«هللويا...»

«... سوف يضعك، المجد، المجد، أوه يا ربي، في بطن الحوت»

«بشّر به، يا أخي العزيز...»

«... ويجعلك تغوي...»

«الله الطيب العظيم!»

«العمة العجوز نيللي!»

«الأسود سيجعلك...»

«أسود...»

«... أو الأسود لن يجعلك»

وعند هذه النقطة تصاعد هدير ترومبون خشبي في وجهي «اخرج من هنا، أيها الأحمق! أأنت مستعد لارتكاب فعل الخيانة؟»

وأسرعت بالابتعاد، وأنا أسمع مغنية الروحانيات العجوز تئنّ «اذهب والعن إلهك، أيها الفتى، ومُتْ»

توقفت واستفسرتُ منها، سألتها ما الخطب.

قالت «لقد أحببتُ سيدي حباً جماً، يا بنيّ»

قلت «كان ينبغي أنْ تكرهيه»

قالت «لقد وهبني أبناء عديدين، ولأنني أحببتُ أبنائي تعلّمتُ أنْ أحبَّ أباهم على الرغم من أنني كرهته أيضاً»

قلت «أنا أيضاً عرفتُ التناقُض، ولهذا أنا هنا»

«ماذا قلت؟»

«لا شيء، كلمة لا تفسّر الأمر. لِمَ تئنين؟»

قالت «إنني أئنُّ هكذا لأنه مات»

«إذاً أخبريني، مَنْ ذا الذي يضحك في الطابق العُلوي؟»

«إنهم أبنائي. إنهم سعداء»

قلت «نعم، أستطيع أنْ أفهم هذا أيضاً»

«أنا أيضاً أضحك، لكنني أئنّ أيضاً. لقد وعدَ بتحريرنا لكنه لم يستطع أنْ يُنفّذ وعده. ومع ذلك أحببته...»

«أحببته؟ تعنين...»

«أوه نعم، لكنني أحببتُ أكثر شيئاً آخر»

«ما هو؟»

«الحرية»

قلت «الحرية. لعلَّ الحرية تكمن في الكراهية»

«كلا، يا بنيّ، بل في الحب. لقد أحببته وأعطيته السُمّ فذبلَ كتفاحة أصابها الصقيع. لم يتمكن الأولاد من تمزيقه إرباً بسكاكينهم المصنوعة يدوياً»

قلت «ثمة خطأ ارتُكِبَ في مكان ما. أنا مُشوَّش». ووددتُ لو أنني قلت أشياء أخرى، لكنَّ الضحك في الطابق العُلوي أصبح عالياً جداً وأشبه بالعويل بالنسبة إليّ وحاولتُ أنْ أبتعد عنه، لكنني لم أستطع. وفي اللحظة التي هممتُ بالرحيل شعرتُ بأنني شعرت برغبة مُلحّة في سؤالها عن تعريفها للحرية ورجعت. كانت جالسة ورأسها بين يديها، تئن بصوت خافت؛ كان وجهها البنيّ الشبيه بالجلد المدبوغ مفعماً بالحزن.

سألت في زاوية عقلي «أيتها العجوز، ما هي تلك الحرية التي تحبينها إلى هذه الدرجة؟»

بدت عليها الدهشة، ثم الاستغراق في التفكير، ثم الحيرة. «أنا لم أنسَ، يا ولدي. إنَّ كل شيء مُختلط في ذهني. أولاً أعتقد أنه يعني أمراً، ثم أعتقد أنه أمر آخر. إنه يسبّب لي الدوار. أعتقد الآن أنه ليس إلا معرفة أنْ أقول ما يدور في ذهني. لكنه أمر صعب، يا بنيّ. لقد وقعت معي أمور كثيرة خلال فترة قصيرة من الزمن. وكأنني مُصابة بالحمى. وكلما بدأتُ أمشي أُصاب بالدوار وأقع. أو إذا لم يحدث هذا، فإنه يقع للأولاد؛ إنهم يضحكون ويريدون أنْ يقتلوا البيض. إنهم يشعرون بالمرارة، هذا هو حالهم...»

«ولكن ماذا عن الحرية؟»

«دعني وشأني، يا بنيّ؛ رأسي يؤلمني!»

غادرتها، شاعراً أنا نفسي بالدوار. ولم أبتعد كثيراً.

فجأة ظهر أحد الأبناء، ضخم الجثّة طويل القامة وسدّد لي لكمة.

صرختُ «ما خطبك، يا رجل؟»

«لقد جعلتني أبكي!»

قلت، متفادياً لكمة، «ولكن كيف؟»

«لطرحك عليها تلك الأسئلة، هذا هو السبب. اخرج من هنا وابتعد، وفي المرة التالية إذا كان لديك أسئلة تطرحها، اطرحها على نفسك!»

قبض عليّ كأنني حجر بارد، وأطبقت أصابعه على حنجرتي إلى أنْ حسبتُ أنني سأختنق قبل أنْ يُحررني أخيراً. رحتُ أتعثّر مذهولاً، والموسيقى تضرب مسعورة في أُذنيّ. كانت الدنيا ظلاماً. صفا ذهني وأخذت أتجول على طول ممر ضيق، مُعتقداً أنني أسمع وقع أقدام مُسرعة خلفي. كنتُ متألماً، وانتابتني رغبة عميقة في السكينة، في السلام والهدوء، وشعرتُ بأنني لن أستطيع أنْ أُحققها. لسبب واحد، هو أنَّ هدير آلة الترومبيت كان يضجّ في رأسي والإيقاع كان محموماً جداً. وبدأت دمدمة قرع طبول تضرب كنبض القلب تعلو على نفير الترومبيت، وتملأ أُذنيّ. ورغبتُ في جرعة ماء وسمعته يتدفق خلال الأنابيب الفرعية التي لمستها أصابعي وأنا أتحسّس طريقي، لكنني لم أتمكن من التوقّف لأبحث بسبب وقع الخطى الذي يلحق بي.

هتفت «هيه، راس. أهذا أنت، أيها المُدمِّر؟ راينهارت؟»

لا جواب، فقط وقع الأقدام المُنتظم خلفي. وحاولتُ مرة أنْ أعبر الشارع، لكنَّ سيارة مُسرعة ضربتني، وكشطتْ قطعة من جلد ساقي وهي تندفع مارة.

ثم خرجت سالماً من ذلك بصورة ما، ناهضاً على عجل من جحيم الضجيج هذا لأسمع لوي آرمسترونغ يقول ببراءة:

ماذا فعلتُ

لأولد أسود

وحزيناً؟

في أول الأمر خفت؛ إنَّ تلك الموسيقى المألوفة تطلّبت القيام بعمل، من النوع الذي لا أقدر عليه، ومع ذلك لو أنني تلكّأت هناك تحت السطح لحاولت أنْ أقوم بعمل ما. وعلى الرغم من ذلك، أصبحت أعلم الآن أنَّ قليلين فقط يُصغون حقاً إلى تلك الموسيقى. جلستُ على حافة الكرسي وأنا أنضح عرقاً، وكأنَّ كل مصباح من مصابيحي الـ1369 أصاب كل

شخص باستسقاء الإضاءة[3] في مشهدٍ منفرد للدرجة الثالثة تحت إشراف راس ورانيهارت[4]. كان شيئاً مُرهِقاً - وكأنني حبستُ أنفاسي من دون انقطاع على مدى ساعة تحت تأثير الصفاء المُرعب الذي يأتي من أيام الجوع الشديد. ومع ذلك، كانت تجربة مُرضية بصورة غريبة بالنسبة إلى رجل غير مرئي أنْ يسمع صوت الصمت. لقد اكتشفتُ قِوى القهر المُستترة في كياني - وكأنما ليس في استطاعتي أنْ أُجيب بـ «نعم» لإلحاحها. لكنني منذ ذلك الحين لم أُدخّن الحشيش؛ ليس لأنه ممنوع، بل لأنه تكفي رؤية ما في الزوايا (وهذا أمر غير مُستغرب إذا كنتَ غير مرئيّ). أما سماع ما يصدر عنها فأمر لا يُطاق؛ إنه يُثبط الفعل. وعلى الرغم من الأخ جاك وفترة الأخوّة الحزينة والضائعة، فإنني لا أؤمن إلا بالفعل.

أعطنا تعريفاً، من فضلك: السبات الشتوي هو استعداد سرّي لعمل أكثر علانيّة.

ثم إنَّ المخدرات تُدمِّر تماماً إحساس المرء بالزمن. وإذا حدث هذا، قد أنسى أنْ أتمشّى ذات صباح مُشرق وبسبب دجاجة قد تدهسني حافلة برتقالية وصفراء، أو مُصابة بالصفراء! أو قد أنسى أنْ أغادر جُحري عندما تحين لحظة العمل.

في هذه الأثناء أستمتع بحياتي مع تمنيات شركة الكهرباء والطاقة الاحتكارية. وبما أنك لن تراني أبداً حتى من أقرب نقطة تواصُل معي، وبما أنك، حتماً، لن تُصدق أنني موجود، لن يهم إنْ علِمتَ أنني أخذتُ فرعاً من خط الطاقة الكهربائية المؤدي إلى المبنى ومددته إلى جُحري في الأرض. وقبل ذلك كنتُ أعيش في الظلام الذي كنتُ أُلاحَق وأنا فيه، أما الآن فأصبحتُ أرى. لقد أنرتُ السواد في مقدرتي على الرؤية - والعكس بالعكس. وهكذا أعزفُ الموسيقى اللامرئية لعزلتي. التصريح الأخير لا يبدو دقيقاً، أليس كذلك؟ لكنه دقيق؛ إنك تسمع تلك الموسيقى ببساطة

3- استسقاء الأضواء: التهاب يُصيب عيون الذين يتعرضون للأضواء في مجال التصوير السينمائي. - المترجم

4- سوف نعلم لاحقاً أنَّ راس ورانيهارت يمثّلان عند إليسون الشيء ونقيضه، النعم واللا، الأبيض والأسود، الموالاة والمُعارضة... - المترجم

لأنَّ الموسيقى تُسمَع ونادراً ما تُشاهَد، إلا عبر العازفين. فهل يمكن لهذا الإكراه على تلوين اللارؤية هذه باللونين الأبيض والأسود أنْ يكون بذلك حافزاً لصنع موسيقى اللارؤية؟ لكنني خطيب، مُحرِّض الغوغاء – أهذا أنا؟ قد كنتُ كذلك، وقد أعود كذلك. مَنْ يدري؟ ليس كل مرض يؤدي إلى الموت، ولا اللارؤية.

أكاد أسمعك تقول، «يا له من ابن حرام فظيع، لا يشعر بالمسؤولية!» وأنت على صواب. إنني أوافقك على الفور. إنني أحد أشد المخلوقات افتقاراً إلى الحس بالمسؤولية قاطبة. وانعدام الحس بالمسؤولية يشكل جزءاً من كوني لا مرئياً؛ كيفما نظرتَ إلى الأمر، إنه إنكار. ولكن عمَّن أنا مسؤول، ولِمَ ينبغي أنْ أكون كذلك، وأنت ترفض أنْ تراني؟ وانتظر ريثما ترى إلى أي مدى أنا غير مسؤول حقاً. إنَّ المسؤولية تقوم على أساس التعرُّف، والتعرُّف هو شكلٌ من الموافقة. خذ على سبيل المثال الرجل الذي كدتُ أقتله: مَنْ كان مسؤولاً عن جريمة القتل الوشيكة تلك – أنا؟ لا أعتقد ذلك، وأنا أرفضها. لا أقبلها. لا يمكنك اتّهامي بها. إنه هو الذي ارتطم بي. هو الذي *أهانني أنا*. أما كان عليه، ضماناً لسلامته الشخصية، أنْ يتعرَّف على هذياني، على «خطري المُحتَمَل»؟ دعنا نقول إنه كان ضائعاً في عالم حالم. ولكن أليس هو الذي كان يتحكّم في ذلك العالم الحالم – الذي هو، ويا للأسف، حقيقيّ بكل معنى الكلمة! – أوَليس هو الذي استبعدني عن ذلك العالم؟ ولو أنه صرخ يستدعي رجل شرطة، أما كان اعتبرني المُسيء؟ نعم، نعم، نعم! دعني أتفق معك، أنا كنتُ الطرف غير المسؤول؛ لأنه كان ينبغي أنْ أشهر سكيني لأحمي مصالح المجتمع العليا. ذات يوم سوف يُسبب لنا هذا النوع من الحماقة مشكلة مأساوية. إنّ كل الحالمين والسائرين في نومهم يجب أنْ يدفعوا الثمن، وحتى الضحية غير المرئية مسؤولة عن مصير الجميع. لكنني تهرّبتُ من المسؤولية؛ وقعت في شبكة من الأفكار المتضاربة التي تضجُّ داخل رأسي. لقد كنتُ جباناً...

ولكن ما الذي ارتكبته *أنا* حتى أُصبح حزيناً هكذا؟ اصبر معي.

-1-

يعود الأمر إلى زمن ماضٍ بعيد، يُقارب العشرين عاماً. لطالما كنتُ أبحث طوال حياتي عن شيء ما، وأينما ذهبتُ يُحاول أحدهم أنْ يشرح لي ما هو. وكنتُ أقبل أجوبتهم أيضاً، على الرغم من أنها كانت في الغالب متناقضة بل وتناقض نفسها. كنتُ ساذجاً. كنتُ أبحث عن ذاتي وأطرح على كل شخص، ما عدا نفسي، أسئلة لا يمكن لأحد، غيري، أنْ يعرف إجاباتها. وقد استغرق مني وقتاً طويلاً والكثير من الإحباط المؤلِم لتوقعاتي التوصُّل إلى الإدراك الذي يبدو أنَّ كل شخص آخر يعرفه بالفِطرة: أنني لست إلا نفسي. ولكن كان عليَّ أولاً أنْ أكتشف أنني رجل غير مرئيّ!

ومع ذلك أنا لستُ مسخ الطبيعة، أو التاريخ. كنتُ كياناً مُحتمَلاً، وقبل خمسة وثمانين عاماً كانت الأشياء الأخرى متساوية (أو غير متساوية). أنا لستُ خجلاً من جدودي لأنهم كانوا عبيداً. ولست خجلاً من نفسي لأنني في وقت من الأوقات شعرتُ بالخجل. قبل نحو خمسة وثمانين عاماً قيل لهم إنهم أصبحوا أحراراً، ومتحدين مع الآخرين في بلدنا في كل ما يتناسب مع المصلحة العامة، وأيضاً، في كل شأن اجتماعي، منفصلين كأصابع اليد. وصدقوا. وابتهجوا. وبقوا في مكانهم، وعملوا عملاً شاقاً، وأنجبوا والدي لكي يفعل الشيء نفسه. لكنَّ جدي هو المختار. كان عجوزاً غريب الأطوار، وقيل لي إنني أسير على خُطاه. وهو الذي كان يُثير المشاكل. وعلى فراش احتضاره نادى على والدي وقال، «يا بنيّ، بعد رحيلي أريد منك أنْ تواصل الكفاح. أنا لم أخبرك هذا من قبل، لكنَّ حياتنا حرب وقد كنتُ خائناً طوال

حياتي، جاسوساً في بلد العدو وأنا أُعيد مسدسي في عملية إعادة البناء[5]. عِش ورأسك في فم الأسد. أريد منك أنْ تتغلب عليهم بالرضوخ لمطالبهم، وانسفهم بالابتسامات الواسعة، ووافقهم حتى الموت والدمار، دعهم يبتلعونك إلى أنْ يتقيأوا أو ينفجروا». لقد اعتقدوا أنَّ العجوز جُنَّ. لقد كان أشد الرجال خنوعاً. واندفع الأبناء الأصغر سناً خارج الغرفة، وأُسدِلتِ الستائر وأُخفِضَ لهب المصباح حتى بدأ يُبقبق على الفتيل كتنفُّس العجوز. وهمس بقسوة «علِّم هذا لأولادك»؛ ثم لفظ آخر أنفاسه.

لكنَّ رعب أهلي من كلماته الأخيرة كان أشدّ من رعبهم من احتضاره. وكأنه لم يمُتْ قط، لقد أثارت كلماته الكثير من القلق. وشدّدوا على تحذيري من أنني يجب أنْ أنسى ما قال، والحق، أنَّ هذه هي المرة الأولى التي يُذكَر فيها الأمر خارج نطاق العائلة. ولكن كان له أثر هائل عليّ. ولم أفهم قط معنى ما قال. لقد كان جدي عجوزاً هادئاً لم يُثِر في حياته أية مشكلة، لكنه على فراش موته نعت نفسه بالخائن والجاسوس، وتحدّث عن خنوعه بوصفه نشاطاً خطراً. وبقي ذلك في مؤخرة رأسي لغزاً دائماً بلا حل. وكلما تحسنت أحوالي أتذكّر جدّي وأشعر بالذنب وبالاضطراب. وكأنني أحمل معي نصيحته رُغماً عني. وما زاد الطين بلّة أنَّ الجميع أحبّوني بسبب ذلك. ومدحني أنصع الرجال بياضاً في البلدة. كانوا يعتبرونني مثالاً للسلوك المرغوب – تماماً كما كان جدّي. وما حيَّرني هو أنَّ العجوز اعتبر ذلك *خيانة*. وعندما كنتُ أتلقّى مديحاً على سلوكي أشعر بالذنب بأنني بصورة ما أقوم بعمل هو في الحقيقة ضد رغبات البيض من الناس، وبأنهم لو فهموا الأمر لرغبوا في العكس، وبأنني يجب أنْ أكون نكداً وخسيساً، بأنَّ ذلك سيكون ما يريدون حقاً، على الرغم من أنهم خُدِعوا واعتقدوا أنهم أرادوا مني أنْ أتصرّف كما فعلت. وهذا جعلني أخاف من أنْ يأتي يوم يعتبرونني فيه خائناً وأضيع. ولكنَّ خوفي كان أكبر من أنْ أتصرّف بأية طريقة مختلفة لأنهم لم يحبوا ذلك على الإطلاق. لقد كانت كلمات العجوز أشبه باللعنة. وفي يوم تخرّجي ألقيتُ خطبة بيَّنتُ فيها أنَّ المهانة هي سرّ، أو بالأحرى،

5– المقصود هنا بإعادة البناء ما حدث بعد انتهاء الحرب الأهلية الأميركية عندما أُعيد تنظيم الجنوب وضمّه من جديد إلى الاتحاد الفدرالي الأميركي. – المترجم

جوهر التقدُّم. (هذا لا يعني أنني كنت أؤمن بذلك - كيف يمكنني أنْ أفعل، وأنا أتذكّر جدّي؟ - بل آمنتُ فقط بأنه ناجع) وكان نجاحاً واسعاً. مدحني الجميع ودُعيتُ لإلقاء خطاب أمام جمعٍ من صفوة المواطنين البيض. وكان انتصاراً لمجتمعنا كله.

حدث ذلك في الصالة الرئيسة في الفندق الكبير. وعندما وصلتُ إلى هناك اكتشفتُ أنه مناسبة لاجتماع المدخنين، وقيل لي إنه بما أنني موجود هناك في كل الأحوال فيمكنني أيضاً أنْ أشارك في مباراة ملاكمة جماعية سوف يُقيمها بعض من رفاقي في المدرسة كجزء من الترفيه. وكانت المباراة تأتي أولاً.

كان الحضور يتألّف من عليّة أهالي البلدة بملابس السهرة الرسمية، ينكبّون بنهم على طعام المائدة المفتوحة، ويجرعون البيرة والويسكي ويُدخنون السيجار الضخم. كانت غرفة كبيرة ذات سقف عال. وقد رُتبَت الكراسي بصفوف منتظمة حول ثلاثة جوانب من حلقة ملاكمة متحركة. أما الجانب الرابع فكان خالياً، عبارة عن مساحة خالية لامعة من الأرض الصقيلة. وبالمناسبة، كانت لدي بعض الشكوك حول الملاكمة الجماعية. ليس من قبيل كراهية هذا النوع من القتال، بل لأنني لم أكن آبه كثيراً لأقراني الآخرين المُشاركين. لقد كانوا أشدّاء وليس لديهم لعنة جدّ تُقلق راحة بالهم. وكانت شدّتهم لا تخفى على أحد. ثم إنني شككت في أنَّ المشاركة في ملاكمة جماعية قد تنتقص من مهابة خطبتي. وفي أيام ما قبل كوني غير مرئيّ تلك تخيّلت نفسي نسخة مُحتملة من بوكر تي. واشنطن[6]. لكنَّ الآخرين أيضاً لم يكونوا يأبهون لي، وكانوا تسعة. وشعرت بتفوقي عليهم على طريقتي، ولم أُحب الطريقة التي احتشدنا بها معاً داخل مصعد الخدم. وهم لم يُحبوا وجودي معهم. في الحقيقة، بينما الطوابق المُضاءة تومضُ مجتازة المصعد تبادلنا بعض الكلمات حول أنّ اشتراكي في القتال قد تسبّب في إقصاء أحد أصدقائهم من المباراة.

خرجنا من المصعد واجتزنا ردهة ذات زخرفة معقدة ومنها إلى غرفة

6- بوكر تي. واشنطن (1856-1915): عالِم تربوي وكاتب أميركي أسود. - المترجم

انتظار وطُلِبَ منا أنْ نرتدي ملابس القتال. وأُعطيَ كل منا قفاز ملاكمة وقادونا إلى قاعة ذات مرايا كبيرة، ولجناها ونحن نتلفّت حولنا بحذر ونتهامس، خشية أنْ يسمعونا بالمصادفة عبر ضجيج المكان. كان الجو ضبابياً من دخان السيجار. وكان الويسكي قد بدأ يُعطي مفعوله. وصُدمتُ إذ رأيت بعضاً من أهم الشخصيات في البلدة يترنحون من السُكر. كلهم كانوا حاضرين - أصحاب مصارف، محامون، قُضاة، أطباء، رؤساء المطافي، معلمون، وتجار. بل وأحد أشد القساوسة عصريّة. وكان هناك أمر يجري في المقدمة لم نتمكن من رؤيته. كان عزفٌ على آلة الكلارينيت يُرسل ذبذباته بحسّية والرجال واقفون ويميلون بشوق إلى الأمام. كنا مجموعة صغيرة ضيّقة، متلازمة معاً، والأجزاء العليا العارية من أجسادنا تتلامس وتلمع بعرَق الترقُّب؛ في حين في المقدمة كان حماس الشخصيات المهمة يزداد حول أمر ما كنا لا نزال لا نعرفه. وفجأة سمعت مدير المدرسة، الذي كان قد طلب مني الحضور، يصرخ، «استخدموا حِيلكم، يا سادة! استخدموا حيلكم الصغيرة!»

اندفعنا إلى مقدمة القاعة، كانت أشدّ عبقاً برائحة التبغ والويسكي. ثم دُفعنا إلى أماكننا. وكدتُ أُبلل ملابسي الداخلية. كان بحر من الوجوه، بعضها عِدائيّ، وبعضها مسرور، يكتنفنا، وفي المركز، ومواجهتنا، وقفت شقراء رائعة الجمال - عارية تماماً. ران صمتٌ مُطبق. شعرت بهبّة ريح باردة قوية تصدمني. حاولتُ أنْ أتراجع، لكنهم كانوا خلفي ومن حولي. بعض الشبان وقفوا برؤوس منكسة، يرتجفون. شعرت بموجة من الإحساس الشديد بالذنب وبالخوف. اصطكت أسناني، وانكمش جلدي، وارتطمت رُكبتاي. ومع ذلك شعرت بانجذاب قويّ ونظرتُ رُغماً عني. لو أنَّ ثَمَنَ النظر هو العمى، لنظرت. كان الشعر أصفر اللون كشعر دمية سيرك صغيرة وبدينة، والوجه مُثقلاً بمساحيق التجميل، وكأنما ليشكّل قناعاً تجريدياً، والعينان غائرتين وتحيط بهما هالة من زُرقة البرد، بلون مؤخرة سعدان. شعرت برغبة في البصق عليها بينما عيناي تستعرضان ببطء جسدها. كان ثدياها متماسكين ومستديرين كقباب معبد هندي شرقي، ووقفتُ قريباً جداً لأرى نسيج البشرة الصافية وحبات العرق تشبه اللآلئ تتلألأ كحبات الندى

حول برعميّ حلمتيها المنتصبين والورديين. وأردتُ في الوقت نفسه أنْ أركض خارج المكان، أنْ تنشق الأرض وتبتلعني، أو أنْ أذهب إليها وأدثّرها بجسمي درءاً لعينيّ وعيون الآخرين؛ أنْ أتحسّس فخذيها الناعمين، لأداعبها وأدمّرها، لأحبّها وأغتالها، لأختبئ منها، وأيضاً لأمسّد حيث يُشكّلُ فخذاها تحت العلم الأميركي الصغير الموشوم على بطنها حرف V كبيراً. وخُيّل إليّ أنه من بين كل الموجودين في المكان لم تر إلا أنا بعينيها المُجرّدتين.

ثم بدأتْ ترقص، بحركات حسيّة بطيئة؛ ودخان مئة سيجار يتشبث بها كأرقّ غلالة. بدتْ أشبه بفتاة – طائر شقراء تدثرها خُمُر تنادي عليّ من السطح الغاضب لبحر رمادي ومُهدِّد. ونُقِلتُ. ثم وعيتُ عزف الكلارينيت ووجود الشخصيات المهمة التي تهتف لها. بعضهم هدَّدونا إذا نظرنا وآخرون إذا لم ننظر. إلى اليمين رأيت أحد الفتية يُصاب بالإغماء. والآن قبض أحد الرجال على إبريق فضيّ من الطاولة واندفع إلى الأمام ورشّه بمياه مُثلّجة وأوقفه وأجبر اثنين منا على دعمه بينما رأسه يتدلى ويُصدر أنيناً من بين شفتيه الغليظتين المُزرقّتين. وبدأ فتى آخر يتوسل كي يذهب إلى المنزل. كان أضخمهم جثة في المجموعة، يرتدي زيَّ قتال أحمر قانٍ شديد الضيق بحيث لا يُخفي الانتصاب البارز منه كاستجابةٍ لأنين الكلارينيت المنخفض والموحي. وحاول أنْ يستر نفسه بقفاز الملاكمة.

طوال الوقت كانت الشقراء تواصل الرقص، تبتسم بوهن للشخصيات البارزة التي تراقبها بافتتان، وتبتسم بوهن من خوفنا. ولاحظت أنَّ أحد التجار يُتابعها بشبق، وقد ارتخت شفتاه وبدأ يُريِّل. كان ضخم الجثة يزيّن مقدمة قميصه بدبابيس من الأحجار الكريمة وقد انتفخ بالكرش الواسع تحته، وكلما تمايلت الشقراء بوركيها المتموّجين مرَّر يده خلال الشعر الخفيف على رأسه الأصلع، وتلوّى بكرشه بحركة بطيئة وداعرة، رافعاً ذراعيه، ومتخذاً وقفة خرقاء كأنه حيوان باندا سكران. هذا المخلوق كان غائباً تماماً عن الوعي. وتسارع إيقاع الموسيقى. وبينما الراقصة تترنح مع تعبير منفصل على وجهها، بدأ الرجال يمدون أيديهم ليلمسوها. ورأيتُ أصابعهم السمينة تغوص في اللحم اللين. وحاول آخرون أنْ يمنعوهم وبدأتْ هي تدور حول المكان في دوائر جميلة، وهم يلاحقونها، منزلقين

ومتسللين على الأرضية الصقيلة. كان جنوناً. وتحطمت الكراسي، وأُريق المشروب، وهم يركضون خلفها يضحكون ويصرخون. وأمسكوا بها حالما وصلت إلى أحد الأبواب، ورفعوها عن الأرض، ورموا بها عالياً كما يفعل فتية الجامعة إلى السديم، ورأيتُ على شفتيها الحمراوين بابتسامتهما الثابتة رعباً وفي عينيها اشمئزازاً، يُشبه رعبي وذاك الذي رأيته في بعض من الفتية الآخرين. وبينما أنا أراقب، رموا بها عالياً مرتين وبدا أنَّ ثدييها قد تسطحا في وجه الهواء وأنَّ ساقيها تباعدا بجموح وهي تدور لولبياً. وساعدها بعض الأشخاص الأكثر جدية على الفرار، وقفزتُ واقفاً عن الأرض واندفعت إلى غرفة الانتظار مع باقي الفتية.

كان البعض لا يزال يبكي بهستيريا. ولكن بينما كنا نحاول أنْ نغادر مُنِعنا وأُمِرنا بالعودة إلى الحلبة. ولم يكن في وسعنا إلا أنْ نفعل ما أُمرنا به. وارتقينا نحن العشرة من تحت الحبال وسمحنا لهم بعصب عيوننا بشرائط عريضة من القماش الأبيض. وبدا أنَّ أحد الرجال شعر بقليل من الشفقة وحاول أنْ يُشيع بيننا المرح ونحن واقفون وظهورنا تستند إلى الحبال. حاول بعضنا أنْ يبتسم. قال أحد الرجال «أترون ذلك الفتى هناك؟ أريد منكم أنْ تركضوا نحو الجرس وتضربوا به بطنه. فإذا لم تتمكنوا من ذلك فسوف أعاقبكم. لا تعجبني نظرته». وقيل الكلام نفسه لكل منا. ووضِعَت العُصابات على عيوننا. وحتى عندئذٍ كنتُ أراجع خطابي. كانت كل كلمة في ذهني كلهب ساطع. وشعرت بالقماش يضغط على مكانه، وتجهّمت لكي يرتخي عندما أزيل التجهُّم.

أما الآن فشعرتُ بنوبة مفاجئة من رعب العمى. لم أكنْ متعوداً على الظلام. وكأنما وجدتني فجأة في غرفة مظلمة مملوءة بأفواه سامّة من القطن. استطعتُ أنْ أسمع الأصوات المكبوتة تصرخ باستمرار تطالب ببدء مباراة الملاكمة الجماعية.

«هيا ابدؤوا!»

«اتركوني على ذلك الزنجي الضخم!»

أصختُ سمعي لكي أميِّز صوت مدير المدرسة، كأنما لأعتصر بعض الأمان من رنينه المألوف قليلاً.

صرخ أحدهم «اتركوني على أبناء القحبة السودِ أولئك!»
صرخ آخر «كلا، جاكسون، كلا! فليساعدني أحدكم على الإمساك بجاك»
صرخ الأول «أريد أنْ أصل إلى ذلك الزنجي ذي لون الزنجبيل. مزّقوه إرباً»

وقفتُ مُستنداً إلى الحبل وأنا أرتجف. ذلك أنني في تلك الأيام كنتُ ما يُسمّى بلون الزنجبيل، وبدا من صوته أنه على استعداد لسحقي بين أسنانه كقطعة هشة من بسكويت الزنجبيل.

كان ثمة صِراع محتدم يدور. فالكراسي كانت تزاح من أماكنها وسمعت أصوات نخر من بذل مجهود هائل. أردتُ أنْ أنظر، أنْ أرى برغبة أقوى مما انتابني في أي وقت من حياتي. لكنَّ العُصابة كانت مُحكمة الشدّ كجرَب كثيف يُغضّن الجلد وعندما رفعتُ يديّ بقفّازيهما لأزيح طبقات القماش الأبيض جانباً صرخ صوت، «أوه، كلا لن تفعل، يا ابن الحرام الأسود! اترك هذا وشأنه!»

هدر أحدهم خارقاً الصمت المُفاجئ «اقرع الجرس قبل أنْ يقتل جاكسون الزنجي!»، وسمعت الجرس يُقرَع وحفيف وقع أقدام تتقدّم.

ضرب قفّاز رأسي. درتُ حول نفسي، وأنا أضرب بعنف لدى مرور شخصٍ، وشعرتُ بتموُّج الارتطام يمتد على طول ذراعي وحتى كتفي. ثم بدا كأنَّ الفتية التسعة كلهم انقضّوا عليّ دفعة واحدة. وانهال الضرب عليّ من كل جانب ورحت أُسدد اللكمات باذلاً أقصى جهدي. وأُصِبت بالكثير من الضربات حتى تساءلت إنْ كنتُ الشخص الوحيد مَعصوب العينين في الحلبة، أو إنْ كان الرجل المدعو جاكسون لم ينجح في النيل مني.

لم أعد أستطيع أنْ أتحكّم في حركاتي وأنا مَعصوب العينين. لم تعد لدي كرامة. كنتُ أتعثّر في المكان كطفل صغير أو كرجل ثمل. كان الدخان قد أضحى أشدّ كثافة ومع كل ضربة بدا أنه يلسع رئتيّ ويُقيِّدهما. أصبح لعابي كصمغ حار مُرّ. ارتطم قفّاز برأسي، مالئاً فمي بالدم الحارّ. كان في كل مكان. ولم أُميِّز إنْ كانت الرطوبة التي أحسستُ بها على جسمي عرقاً أم دماً. وسُدِّدتْ ضربة إلى مُؤخر عنقي. وشعرت بأنّه أُطيحَ بي، وارتطم

رأسي بالأرض. وامتلأ العالم الأسود من خلف العصابة بخطوط من الضوء الأزرق. انكببتُ على وجهي، متظاهراً بأنني هُزِمت، لكنني شعرتُ بأيدٍ تقبض عليّ وتنخعني لأقف على قدميّ. «استمر، أيها الفتى الأسود! اضرب!». كانت ذراعاي ثقيلتين كالرصاص، ورأسي يؤلمني من عنف الضربات. ونجحت في تلمُّس طريقي إلى الحبال وتمسكت بها، محاولاً أنْ أستردّ أنفاسي. استقرّ قفّاز على منتصف جسمي وأُطيح بي من جديد، شاعراً كأنَّ الدخان أصبح سكيناً مغروزاً في أحشائي. وراحت السيقان من حولي تدفعني إلى هذه الجهة وتلك، وأخيراً انتصبتُ واقفاً واكتشفتُ أنَّ في استطاعتي أنْ أرى الأشكال السوداء، المُسربلة بالعَرق، تتهادى في الجو العبق بالدخان الأزرق كراقصين سكارى يتمايلون على إيقاع صوت الضربات المكتوم السريع كقرع الطبول.

قاتلَ كلُّ واحد بعنف. كانت فوضى شاملة. كل شخص قاتل كل شخص آخر. ولم يستمر القتال الجماعي طويلاً. اثنان، ثلاثة، أربعة قاتلوا واحداً، ثم انتقلوا إلى قتال كلٍ منهم الآخر، وهم أنفسهم تعرَّضوا للهجوم. وراحت الضربات توجَّه إلى ما تحت الحزام وإلى الكلية، بقفاز منفلت أو مُثبَّت، ولما أصبحت عيناي شبه مفتوحتين لم يعد هناك الكثير من الرعب. صرتُ أتحرك بحرص، متفادياً الضربات، على الرغم من أنها لم تكن كثيرة، أقاتلُ مُنتقلاً من مجموعة إلى مجموعة. كان الفتية يتحسسون طريقهم كالعميان، كسرطانات حذرة تربض لتحمي منتصف أجسادها، ويبتلعون رؤوسهم بين أكتافهم، وأيديهم ممدودة أمامهم، وقبضاتهم تختبر الهواء الممتلئ بالدخان كمجسّات لها قبضات لحلازين فائقة الحساسية. في إحدى الزوايا لمحت فتى يضرب الهواء بعنف وسمعته يصرخ من شدة الألم عندما ارتطمت يده بقوة بقائم الحلبة. رأيته للحظة يميل ممسكاً بيده، ومن ثم يهبط إلى أسفل لأنَّ إحدى اللكمات أصابت رأسه غير المحمي. وتلاعبت بإحدى المجموعات ضد أخرى، متسللاً ومُسدداً لكمة ثم مبتعداً لأدفع الآخرين إلى المعمعة ويتلقوا الضربات العمياء المُسدَّدة إليّ. كان الدخان مؤلماً ولم تكن هناك جولات منفصلة، ولا أجراس تُقرَع بعد كل ثلاث دقائق لإراحتنا من الإرهاق. وأخذت الغرفة تدور من حولي، في دوامة من الأضواء،

والدخان، والأجساد المسربلة بالعرق تكتنفها وجوه بيضاء متوترة. نزفتُ من أنفي وفمي، وانتثر الدم على صدري.

وظل الرجال يزعقون، «اضربه بقوة، أيها الفتى الأسود! أخرِج أحشاءه!»

«سدِّدْ له ضربة من تحت إلى فوق! اقتله! اقتل ذلك الفتى الضخم!»

تظاهرتُ بالسقوط، ورأيتُ أحد الفتية يسقط كتلة واحدة إلى جواري وكأننا صُرِعنا بضربة واحدة، رأيتُ قدماً تنتعل حذاءً رياضياً تضرب عورته عندما تعثَّر به الاثنان اللذان طرحاه أرضاً. تدحرجتُ مبتعداً، شاعراً بشيءٍ من الغثيان.

كلما كان قتالنا يشتد كان يزداد تهديد الرجال لنا. ومع ذلك، كنتُ قد بدأتُ أقلق من جديد على خطابي. كيف سيكون؟ هل سيعترفون بمقدرتي؟ ماذا سيمنحونني؟

كنتُ أقاتل بضربات آليّة عندما لاحظتُ فجأة أنَّ الفتية يُغادرون الحلبة واحداً إثر الآخر. دُهِشت، وتولاني الرعب، كأنني تُرِكتُ وحدي مع خطر مجهول. ثم فهمت. لقد دبَّر الفتية الأمر فيما بينهم. فالعادة تحكم على الرجلين الباقيين في الحلبة أنْ يتلاكما على نيل الجائزة. اكتشفتُ هذا بعد فوات الأوان. وعندما قُرِعَ الجرس قفز الرجلان بالسترة الرسمية إلى الحلبة وأزالا العِصابة. فوجدتني وجهاً لوجه مع تاتلوك، أضخم المجموعة. شعرتُ بهيجان الاشمئزاز في معدتي. وما إنْ كفَّ الجرس عن الرنين في أُذنيّ حتى قُرِعَ من جديد ورأيته يتقدَّم مني بسرعة. ولما لم تكن لدي أدنى فكرة عما ينبغي أنْ أفعل سدَّدتُ إلى أنفه ضربة قوية. تابع تقدّمه، جالباً معه عنف العرق البائت الحادّ والزنخ. كان وجهه حالك السواد، وحدهما عيناه كانتا مُفعمتين بكراهيتي وتتوهجان برعبٍ محموم مما حدث لنا جميعاً. وانتابني القلق. كنتُ أرغب في إلقاء خطابي وها هو يقترب مني كأنه ينوي أنْ ينتزعه مني. وضربته مراراً وتكراراً، متلقياً لكماته كما تأتيني. ثم بحافز مُفاجئ ضربته ضربة خفيفة عندما تشابكنا، وهمست، «تظاهرْ بأنني صرعتُك، وبهذا تنال الجائزة»

همس بصوت أجشّ «سوف أخرقك»

«من أجل هؤلاء؟»

«بل من أجلي *أنا*، يا ابن القحبة!»

كانوا يصرخون بنا كي ننفصل وأطاح بي تاتلوك وجعلني أدور نصف دورة حول نفسي بضربة واحدة، وبينما آلة تصوير تتمايل منسابة في مشهد متحرك، رأيتُ الوجوه الحمراء النابحة تربض متوترة تحت سحابة من الدخان الأزرق – الرمادي. تمايل العالم لبرهة، منحلاً، متدفقاً، ثم صفا رأسي وكان تاتلوك يقفز أمامي. وذلك الشبح المُرفرف أمام عينيّ كان يده اليُسرى. ثم عندما سقطتُ نحو الأمام، وارتطم رأسي بكتفه الرطب، همست:

«سوف أزيده خمسة دولارات أخرى»

«اذهب إلى الجحيم!»

لكنَّ عضلاته تراخت قليلاً تحت ضغط ثقلي وقلت لاهثاً «سبعة؟»

قال، وهو يمزقني تحت منطقة القلب، «أعطها لأمك».

بينما كنتُ لا أزال أتمسّك به نطحته ثم ابتعدت. وشعرتُ كأنني أتلقّى وابلاً من اللكمات. وقاتلتُ بيأس تام. ورغبتُ في أنْ أُلقي خطابي أكثر من أي شيء في العالم، لأنني شعرتُ بأنَّ أولئك الرجال وحدهم قادرون على تقدير طاقتي حقاً، والآن ها هو هذا المهرج يُدمر الفرص المُتاحة لي كلها. وبدأتُ عندئذٍ أقاتل بعناية، متقدماً لألكمه من ثم أتراجع من جديد بأقصى سرعة. ثم سدّدتُ إليه ضربة محظوظة إلى ذقنه ونلتُ منه أيضاً – إلى أنْ سمعت صوتاً عالياً يزعق، «أنا أراهن على الفتى الضخم»

لدى سماعي هذا، كدتُ أفقد حذري. كنتُ مُبلبلاً: هل أحاول أنْ أفوز على الرغم من ذلك الصوت؟ ألن يكون ذلك ضد مصلحة خطابي، واللحظة غير مناسبة للمهانة، لمقاومة الاستسلام؟ وجعلتْ ضربةٌ تلقيتُها على رأسي وأنا أقفز متراقصاً عيني اليُمنى تجحظ كعفريت العلبة وتأكّدتْ ورطتي. عندما سقطت اصطبغ المكان باللون الأحمر. كانت سقطة كما في حلم، تراخى جسمي وأصبح نيّقاً لا يقرِّر أين يستقر، إلى أنْ نفد صبر الأرض والتقينا بارتطام قوي. بعد ذلك بلحظة استعدتُ وعيي. وقال صوت مُنوِّم «خمسة» بتشديد. واستلقيتُ هناك، أراقب بقعة ضبابية حمراء داكنة من دمي تأخذ شكل فراشة، تتلألأ وتغوص في العالم الرمادي القذر لأرض الحلبة.

عندما وصل الصوت بنبرة ممطوطة إلى الرقم «عشرة» رفعوني وجرّوني إلى أحد الكراسي. جلستُ دائخاً. كانت عيني تؤلمني وتتورَّم مع كل نبضة من نبضات قلبي القوية وتساءلت إنْ كان سيُسمح لي الآن بإلقاء خطابي. كنتُ أتفصّد عرقاً، وفمي لا يزال ينزف. ثم وضعونا صفاً واحداً على طول الجدار. تجاهلني باقي الفتية وهم يُهنئون تاتلوك ويقدّرون المبلغ الذي سينالون. وأحد الفتية كان يتألّم من يده المسحوقة. ونظرتُ إلى المقدمة، فرأيتُ خدماً يجمعون أجزاء الحلبة القابلة للطيّ ويضعون بساطاً مربّع الشكل صغيراً في المساحة المُحاطة بالكراسي. وفكّرت، لعلي سأقف على البساط لكي أُلقي خطابي.

ثم نادى القيم على الحفل علينا «تعالوا إلى هنا يا شباب واستلموا نقودكم»

تقدمنا مسرعين إلى حيث رجال يضحكون ويتحدثون وهم على كراسيهم، ينتظرون. حينئذٍ بدا الجميع ودودين.

قال الرجل «ها هي على البساط». رأيتُ البساط مغطى بالقطع النقدية من كل الأحجام وبضعة أوراق مالية مُجعّدة. ولكن ما أثارني هو القِطع الذهبيّة، الموزّعة هنا وهناك على البساط.

قال الرجل «يا شباب، كلها لكم. إنها لكم بقدر ما تجمعون»

قال رجل أشقر، وهو يغمز لي بعينه سراً «هذا صحيح، يا سامبو»

ارتجفتُ من شدة الفرح، ناسياً ألمي. قلت في نفسي، سوف أحصل على القطع الذهبية والأوراق النقدية. سوف أستخدم يديّ الاثنتين. وسوف أرتمي بجسمي على الفتية القريبين مني لأمنعهم من الحصول على الذهب.

أمرنا الرجل «انزلوا وتحلقوا حول البساط الآن، وحذار أنْ يلمسه أي منكم إلى أنْ أُعطي الإشارة»

سمعت أحدهم يقول «سيكون هذا مشهداً ممتعاً»

وكما أُمِرنا، تحلّقنا حول البساط على رُكبنا. ورفع الرجل يده المُرقّشة ببطء ونحن نتابعها بعيوننا إلى أعلى.

ثم قال الرجل «استعدوا، ابدؤوا!»

اندفعت بقوة نحو قطعة نقد صفراء ملقاة على التصميم الأزرق من السجادة، ولمستها وأنا أصرخ من الدهشة لكي أنضم إلى أولئك الذين نهضوا من حولي. حاولت بشكل مسعور أنْ أُبعِد يدي لكنني لم أستطع. كانت هناك قوة عنيفة، حارة، تتغلغل في جسدي، وتهزني كجرذ مبتل. كانت السجادة مُكهربة. ووقف شعر رأسي مُنتصباً وأنا أحاول أنْ أتحرر. وقفزت عضلاتي، وارتجفت أعصابي، والتفّت حول نفسها. لكنني وجدتُ أنَّ ذلك لم يردع باقي الفتية. كان بعضهم يتراجعون ويتلقّفون القطع النقدية التي تقفز جرّاء تلوّي الآخرين من الألم. وضجّ الرجال فوقنا ونحن نكافح.

هتف أحدهم كببغاء بصوت يشبه آلة نفخ نحاسية، «خذها، اللعنة، خذها! هيا، خذها!»

أسرعت بالزحف حول الأرضية، وأنا أجمع القطع النقدية، محاولاً تجنّب القطع النحاسية وأجمع الأوراق الخضراء والقطع الذهبية. تجاهلت الصدمة بالضحك، وأنا أجمع القطع النقدية بسرعة، واكتشفت أنَّ في استطاعتي أنْ أحتوي التيار الكهربائي - هذا تناقُض، لكنَّ العملية نجحت. ثم بدأ الرجال يدفعوننا نحو البساط. ضحكنا بارتباك ونحن نكافح لنتملّص من بين أيديهم ونستمر في جمع القطع. كنا كلنا مبللين وأجسادنا زلقة ومن الصعب إمساكنا. وفجأة رأيت أحد الفتية يُرفَع في الهواء، يتلألأ بالعرق ككلب بحر السيرك، وسقط، واستقرّ ظهره الأسود كله على البساط المُكهرَب، وسمعته يصرخ ورأيته يرقص بالمعنى الحرفي للكلمة على ظهره، ومرفقاه يضربان الأرض بحركاتٍ مسعورة، وعضلاته ترتعش كلحم حصان يقرصه عدد كبير من الذباب. وعندما تدحرج أخيراً مبتعداً، كان وجهه رمادي اللون ولم يوقفه أحد عندما فرّ من الأرض وسط هدير الضحك.

قال المسؤول عن العرض «خذ النقود، إنها نقود أميركية جيدة!»

وأخذنا ننتزعها ونقبض عليها، ننتزعها ونقبض عليها. وهذه المرة حرصت على ألا أقترب كثيراً من البساط، وعندما شعرت بالأنفاس الحارة الممتزجة بالويسكي تهبط عليّ كسحابة من الروائح الكريهة مددتُ يدي وقبضتُ على ساق كرسي يجلس عليه أحدهم وتمسكت به بشدة.

«اتركه، أيها الزنجي! اتركه!»

تهادى الوجه الضخم نحو الأسفل مقترباً من وجهي وهو يحاول أنْ يدفعني ليُحررني. لكنّ جسمه كان زلقاً وشديد السُكر. كان السيد كولكورد الذي يمتلك سلسلة من دور السينما و«مرابع التسلية». وكلما أمسك بي أنزلق منفلتاً من بين يديه. وتحول الأمر إلى صراع حقيقيّ. وكنتُ أخشى البساط أكثر من خشيتي الرجل السكران، لذلك بقيتُ متمسكاً، مندهشاً من نفسي برهة بمحاولتي طرحه هو على البساط. وكم كانت دهشتي كبيرة عندما وجدتني أنفّذ الفكرة فعلاً. حاولت ألا أكون واضحاً، ومع ذلك عندما قبضت على ساقه، في محاولة لطرحه أرضاً عن الكرسي، نهضَ واقفاً وهو يهدر بالضحك، ثم نظر برصانة في عينيّ مباشرة، وضربني بوحشية على صدري. انفلتت ساق الكرسي من يدي وشعرت بأنني أبتعد وأتدحرج. وكأنني أتدحرج على سرير من الجمر المشتعل. وكأنما سيمر قرنٌ من الزمان قبل أنْ أتحرر، قرن سُفِعت خلاله على امتداد أعمق مستويات جسمي حتى الأنفاس المخيفة داخلي والأنفاس سُفِعَتْ وارتفعت حرارتها حتى درجة الانفجار. وقلت في نفسي وأنا أتدحرج، سوف ينتهي كل شيء في ومضة واحدة. سوف ينتهي كل شيء في ومضة واحدة.

ولكن ليس بعد، فالرجال على الجانب المقابل كانوا ينتظرون، بوجوه حُمر منتفخة كأنما من تأثير سكتة دماغية وهم يميلون إلى الأمام من كراسيهم. وعندما رأيت أصابعهم تقترب مني تدحرجت مبتعداً ككرة قدم مرتبكة عن رؤوس أصابع المتلقّي، عائداً إلى الجمر. هذه المرة أسعدني الحظ وجعلت البساط ينزلق عن مكانه وسمعت القطع النقدية ترتطم بالأرض والفتية يهرعون لالتقاطها ومسؤول العرض يهتف، «حسن، يا شباب، انتهى العرض. اذهبوا وارتدوا ملابسكم واحصلوا على نقودكم»

كنتُ رخواً كخرقة تجفيف الأطباق. وشعرتُ كأنَّ ظهري تلقّى الضرب بالأسلاك.

بعد أنْ ارتدينا ملابسنا دخل علينا مسؤول العرض وأعطى كلاً منا خمسة دولارات، ما عدا تاتلوك، الذي حصل على عشرة لأنه آخر من

تبقّى على الحلبة. ثم أمرنا بالمغادرة. قلت في نفسي، لن تُتاح لي الفرصة لإلقاء خطابي. وبينما كنت أخرج إلى الزقاق المُعتِم يائساً استوقفني أحدهم وطلب مني أنْ أعود. رجعت إلى غرفة العرض، حيث كان الرجال يُعيدون ترتيب كراسيهم ويجتمعون في حلقات لتبادل الأحاديث.

قرع مسؤول العرض على الطاولة طلباً للهدوء. قال «أيها السادة، كدنا ننسى جزءاً مهماً من البرنامج. وهو جزء جادّ جداً، أيها السادة. لقد جلبنا فتى إلى هنا لكي يُلقي خطاباً أعدّه بنفسه في حفل تخرجه بالأمس...»

«مرحى!»

«لقد قيل لي إنه أذكى طالب عندكم في غرينوود. وقيل لي إنه يعرف من الكلمات الكبيرة أكثر مما يحتويه قاموس الجيب»

وازداد التصفيق والضحك.

«إذن الآن، أيها السادة، أريد منكم أنْ تولوه انتباهكم»

عندما واجهتهم كانوا لا يزالون يضحكون، كان فمي جافاً، وعيني تنبض. بدأتُ ببطء، ولكن من الواضح أنَّ حنجرتي كانت متوترة، لأنهم بدؤوا يصرخون، «أعلى! أعلى!»

صرخت «إننا معشر الجيل الشاب نمجّد حكمة ذلك القائد العظيم والتربوي، الذي أول مَنْ نطق بهذه الكلمات الملتهبة بالحكمة: «سفينة تاهت في خضم البحر على مدى أيام وفجأة شاهدت سفينة صديقة. وعلى سارية تلك السفينة المنكوبة رُفعت راية مكتوب عليها: «ماء، ماء؛ إننا نموت من شدة العطش!» فجاء الرد من السفينة الصديقة: «أنزلوا دلوكم من حيث أنتم». وبعد أنْ فهم القبطان أخيراً العبارة، أنزل إلى السفينة المنكوبة دلوه، وعاد إليه مملوءاً بالماء العذب من نبع نهر الأمازون. وها أنا أُكرر ما قال، وأنقل كلماته إلى أبناء جنسي الذين يعملون على تحسين أوضاعهم في أرض أجنبية، أو الذين يستخفّون بأهمية تطوير علاقات وديّة مع الرجل الأبيض الجنوبي، جاره الأقرب، أقول: «أنزلوا دلاءكم من حيث أنتم» – أنزلوها من أجل عقد الصداقة بكل وسيلة رجولية مع كل الشعوب من كل الأجناس ممّن يُحيطون بنا...»

تكلمتُ بنبرة آليّة وبحميّة قوية إلى درجة أنني لم أدرك أنَّ الرجال كانوا لا

يزالون يتكلمون ويضحكون إلى أنْ جفّ فمي، المملوء بالدم بسبب الجرح، حتى كدتُ أختنق به. سعلت، رغبة مني في أنْ أتوقف وأذهب إلى إحدى تلك المبصقات النحاسية الطويلة، المملوءة بالرمل، لكي أبصق فيها، لكنَّ حفنة من الرجال، خاصة مدير المدرسة، كانوا يُنصتون وكنت خائفاً. لذلك ابتلعت الدم، واللعاب وكل شيء، وتابعت. (كم كنت أتمتّع بطاقات على التحمُّل في تلك الأيام! وأية حماسة! أي إيمان في صحّة الأشياء!) وعلى الرغم من الألم تكلّمت بصوت أعلى. ومع ذلك ظلوا يتحدثون وظلوا يضحكون وكأنَّهم صُمٌّ بوجود قطع من القطن في آذانهم القذرة. وهكذا رحت أتكلّم بتوكيد انفعالي أكبر. سددتُ أُذنيّ وابتلعتُ الدم حتى أُصبتُ بالغثيان. بدا الخطاب أطول مئة مرة من طوله الأصلي، لكنني لم أستطع أنْ أُسقِط منه كلمة واحدة. كان يجب أنْ يُقال كل شيء، كل فرق محفوظ غيباً وُضِعَ في الحسبان، ونُفِّذَ. وهذا ليس كل شيء. فكلما نطقت كلمة من ثلاثة مقاطع أو أكثر كانت مجموعة من الأصوات تصرخ طالبة تكرارها. استخدمتُ عبارة «المسؤولية الاجتماعية» فصرخوا:

«ما هذه الكلمة التي قلتها، يا ولد؟»

قلت «المسؤولية الاجتماعية»

«ماذا؟»

«المسؤولية...»

«أعلى»

«... الاجتماعية»

«أكثر»

«مسؤو...»

«أعِدْ!»

«– ؤولية»

ضجّت القاعة بهدير الضحك إلى أنْ ارتكبتُ، بلا شك، بسبب اضطراري إلى ابتلاع دمي، خطأً وصرخت بعبارة لطالما رأيت الصحف والدوريات تشجبها، وسمعت مناظرات حولها في السر.

«المساواة....»

صرخوا «ماذا؟»

«... الاجتماعية»

علِقَ الضحك كما الدخان في السكون المفاجئ. فتحت عينيّ، محتاراً. امتلأت القاعة بأصوات تدل على الاستياء. واندفع المدير المسؤول إلى الأمام. وصرخوا في وجهي بعبارات عِدائية. لكنني لم أفهم.

صرخ رجل بشارب صغير جافّ يجلس في الصف الأمامي، «قُل هذا ببطء، يا ولد!»

«ما هو يا سيدي؟»

«الذي قلته!»

قلت «المسؤولية الاجتماعية، يا سيدي»

قال، بلطف، «أنت لا تتذاكى، أليس كذلك، يا ولد؟»

«كلا، يا سيدي»

«أأنت متأكد من أنَّ إيراد كلمة «المساواة» حدث خطأً؟»

قلت «أوه، نعم، سيدي. كنتُ أبتلع الدم»

«حسن، ينبغي أنْ تتكلّم ببطء أكثر لكي نفهم. نحن نريد أنْ نُنصفك، ولكن يجب أنْ تعرف مركزك طوال الوقت. حسن، والآن، أكمل خطابك»

شعرت بالخوف. أردتُ أنْ أغادر لكنني أردتُ أيضاً أنْ أتكلّم وخشيتُ أنْ يطرحوني أرضاً.

قلت «شكراً لك، سيدي»، مُستأنفاً من حيث توقفت، وتركتهم يتجاهلونني كما فعلوا من قبل.

ولكن عندما انتهيت كان هناك تصفيق حارّ. وقد دُهِشت إذ رأيتُ مدير المدرسة يتقدّم حاملاً حزمة ملفوفة بمنديل ورقيّ أبيض اللون، ويومئ برأسه طالباً الصمت، ويُخاطب الرجال:

«أيها السادة، كما ترون أنا لم أبالغ في مديح الفتى. لقد ألقى خطاباً جيداً وذات يوم سوف يقود شعبه على الدروب الصحيحة. ولستُ مُضطراً

إلى أنْ أخبركم بأنَّ هذا أمرٌ مهم في هذه الأيام وهذا العصر. إنَّ هذا الفتى ذكيٌّ، صالح، وعلى سبيل تشجيعه للسير في الاتجاه الصحيح، باسم الهيئة التعليمية أودّ أنْ أقدم له جائزة على شكل هذه...»

سكت، ليزيل المنديل الورقي ويكشف عن حقيبة أوراق من جلد العجل اللامع.

«... على شكل هذه الصناعة الممتازة من محلات شاد ويتمور».

ثم قال، يُخاطبني، «أيها الفتى، خذ هذه الجائزة وحافظ عليها. اعتبرها وساماً من الهيئة الإدارية. احفظها. استمر في التطور كما أنت وذات يوم سوف تمتلئ بالأوراق المهمة التي سوف تساعد على تشكيل مصير شعبك»

بلغ تأثّري درجة عجزتُ عندها عن التعبير عن شُكري. تدلّى خيطٌ من اللعاب المُدمّى على شكل قارّة لم تُكتَشَف وسقط على الجلد المدبوغ فقمت على عجل بمسحه. وشعرت بأنني شخصية مهمة لم أحلم قط في بلوغها.

قيل لي «افتحها وانظر ماذا في داخلها»

ارتجفت أصابعي، وأذعنت، وأنا أشمّ رائحة الجلد المدبوغ الجديد فوجدتُ في داخلها وثيقة تبدو رسمية. كانت منحة دراسية إلى جامعة الولاية الخاصة بالزنوج. امتلأت عيناي بالدموع وركضت بطريقة خرقاء مغادراً المكان.

كنتُ مغموراً بالفرح؛ حتى إنني لم آبه عندما اكتشفت أنَّ قطع الذهب التي زاحمتُ لنيلها كانت مجرد قطع نحاسية لا قيمة لها تُعلن عن نوع معين من السيارات.

عندما وصلتُ المنزل فرح الجميع. وفي اليوم التالي جاء الجيران ليهنئوني. بل لقد شعرت بأنني آمن من جدّي، الذي كانت لعنته وهو على فراش الموت تُفسد عليّ في المعتاد متعة الانتصار. وقفتُ تحت صورته الفوتوغرافية وحقيبة أوراقي في يدي وابتسمت بانتصار لوجه الفلاح الأسود المتبلِّد الذي يحمله، فتنني الوجه. وكأنَّ العينين تلاحقانني أينما اتجهت.

في ليلة ذلك اليوم حلمت بأنني معه في سيرك، وأنه يرفض أنْ يضحك

على أداء المهرجين مهما فعلوا. ولاحقاً أمرني بأنْ أفتح حقيبة أوراقي وأقرأ عليه ما في داخلها ففعلت، ووجدتُ أنه مغلّف رسمي ممهور بختم الولاية؛ وفي داخل المغلف وجدتُ مغلّفاً آخر ثم آخر، وشعرتُ بأنني سأسقط من شدة الإرهاق. قال «هذه لك. والآن افتح هذا المغلّف» ففعلت وفيه وجدتُ وثيقة عليها نقش محفور تحتوي رسالة قصيرة بأحرف من ذهب.

قال جدّي «اقرأها. بصوت مرتفع»

قرأت مع تنغيم «إلى مَنْ يهمّه الأمر. اجعلوا هذا الفتى الزنجي يركض»

استيقظتُ مع ضحك ابنة الرجل العجوز يرنُّ في أُذنيّ.

(كان حلماً سأتذكّره وسوف يراودني من جديد على مدى سنين بعد ذلك. ولكن في ذلك الوقت لم أتوصل إلى مغزاه. كان عليّ أولاً أنْ ألتحق بالجامعة)

-2-

كانت جامعة جميلة؛ أبنيتها قديمة ومكسوة بتعريش الكرمة ودروبها ملتوية بصورة انسيابيّة، تحدّها سياجات وورود برية تُبهر الأبصار تحت أشعة شمس الصيف. كانت أزهار صريمة الجدي والويستريا القرمزية المتدلية ثقيلة من الأشجار والمغنوليا البيضاء تمتزج روائحها العطرة في الهواء المملوء مع طنين النحل. إنني كثيراً ما أتذكّرها، هنا وأنا في جُحري: كيف كان العشب يُصبح أخضر اللون في الربيع وكيف ترفرف الطيور الطنانة أذيالها وتغرد، ويسطع نور القمر على الأبنية، وكيف يضج ناقوس برج الكنيسة بطنينه مُعلناً عن الساعات القصيرة الثمينة؛ وكيف تتنزه الفتيات بأثوابهن الصيفية البرّاقة على المرج كثيف العشب. كم من مرة، هنا في الليل، أغمضتُ عينيّ، ومشيت على طول الطريق المُحرَّمة الملتوية مارة من أمام مهاجع الفتيات، ومن أمام قاعة برج الساعة، بنوافذها المتوهجة بالضوء الدافئ، ومن أمام كوخ مادة الاقتصاد الوطني العملي الأبيض الصغير، والأنصع بياضاً تحت ضوء القمر، وعلى الطريق المنحدرة والملتوية الموازية لمحطة الطاقة السوداء بمحركاتها التي تضج بإيقاعاتها وتهز الأرض في الظلام، ونوافذها الحمراء جراء وهج الفرن، أو إلى حيث الطريق تُصبح جسراً يمر من فوق حوض نهر جاف، تتشابك فيه أكمات الكرمة المتسلقة؛ الجسر ذو كتل الخشب البدائية، المُخصص للقاء المُحبّين، لكنه عذريّ ولم يعرفه العشّاق؛ وإلى الأمام على الطريق، مروراً بالأبنية، ذات الشرفات الجنوبية التي يبلغ طولها نصف مبنى في المدينة، إلى الشارع المفاجئ المتشعّب، المُقفر من الأبنية، والطيور، أو العشب، حيث ينعطف نحو مصحّة المجانين.

إنني دائماً أصل إلى تلك المسافة وأفتح عينيّ. وينكسر السحر وأحاول

أنْ أرى من جديد الأرانب، المُدجّنة جداً من عدم تعرّضها للصيد، تلهو بين سياجات الشجيرات وعلى طول الطريق. وأرى الشوك القرمزي والفضي ينمو بين الزجاج المكسور والحجارة الحارة بفعل الشمس، والنمل يتحرك بعصبية في رتل واحد، وأستدير وأعود إلى الطريق الملتوية مروراً بالمستشفى، حيث في الليل توزع الطالبات الممرضات المرحات في بعض الأجنحة شيئاً ثميناً أكثر بكثير من الأقراص على الفتية المحظوظين العارفين؛ وأتوقف في الكنيسة. ومن ثم إذا بالفصل يُصبح فجأة شتاءً، والقمر مرتفعاً والنواقيس في البرج تقرع وجوقة جهورية من آلات الترومبون تؤدي كورال عيد الميلاد؛ ويُهيمنُ على ذلك كله سكون وألم وكأنَّ العالم برمّته كان وحشة. وأقفُ وأُصغي تحت القمر المُعلَّق عالياً في السماء، أسمعُ كورال «إلهنا حصن جبار»، يُعزَف طليّاً بفخامة على أربع آلات ترومبون، ومن ثم أسمع الأرغن. يطفو الهدير عائماً فوق كل شيء، صافياً كالليل، سلساً، رائقاً، وموحشاً. وأقفُ كأنني أنتظر جواباً وأرى بعين عقلي الأكواخ مُحاطة بحقول جرداء خلف دروب من الطمي الأحمر، وخلف درب معيّن ثمة نهر، ينساب بطيئاً ومغطى بطحالب صفراء أكثر منها خضراء في سكونها الآسن؛ ماراً بمزيد من الحقول الخالية، إلى الأكواخ المنكمشة بفعل الشمس عند تقاطع سكة الحديد حيث يزور الجنود المُعاقون العاهرات، يعرجون على السكك بعكازات وعصي؛ أحياناً كانوا يدفعون مقطوعي السيقان والأفخاذ على كرسي متحرك أحمر اللون. وأحياناً أصغي لأسمع إنْ كانت الموسيقى تصل إلى تلك المسافة، لكنني لا أتذكّر إلا الضحك الثمل لعاهرات حزانى، حزانى. وأقفُ في الدائرة حيث تلتقي ثلاثة دروب بالقرب من التمثال، حيث كنا نتدرب كل أربعة معاً على طول الإسفلت الأملس وندور وندخل الكنيسة في أيام الآحاد، بملابس مكوية، وأحذية مُلمّعة وعقول ملجومة، وعيون عمياء كعيون الأناس الآليين أمام الزوار والموظفين الرسميين على منصّة الاستعراض المنخفضة، المطلية بالكلس.

لقد مرَّ وقتٌ طويل جداً وها أنا هنا أتساءل وأنا غير مرئيّ إنْ كان هذا قد وقع فعلاً. ثم أرى بعين عقلي التمثال البرونزي لمؤسس الجامعة، رمز الأب البارد، بيديه الممدودتين بإيماء رفع الخِمار الذي يرفرفُ بتضاعيفه المعدنية،

القاسية، عن وجه عبد راكع بوضعيّةٍ تحبس الأنفاس؛ وأنا واقف مرتبك، غير قادر على التيقُّن إنْ كان الخِمار قد رُفِعَ حقّاً، أو أُرخيَ بتصميم أكبر على الوجه؛ ما إذا كنتُ أشهد رؤيا أم أنه عمى أكثر إمعاناً. وبينما أنا أحدق، أسمع حفيف أجنحة وأرى أمامي سرباً من طيور الزرزور، وعندما أنظر من جديد، أرى الوجه البرونزي، الذي تنظر عيناه الخاليتان إلى عالمٍ لم أشهده قط، يسيل بالطباشير المائعة - مُثيراً المزيد من الغموض الذي حيَّر عقلي: لِمَ يبدو التمثال المُلوَّث بقذارة الطيور أقوى سطوة من التمثال النظيف؟

آه، ما أبهى مساحة الحرم الكبيرة الخضراء، آه، ما أجمل الأغاني الهادئة عند الغسق. آه، ما أرقّ القمر وهو يُقبِّل برج الكنيسة ويفيض على الليالي العطِرة، آه، يا لجلال البوق الذي يُطلقُ نفيره في الصباح، آه، ما أفخم قرع الطبول الذي يوقِّع خطوتنا العسكرية عند الظهيرة - أي شيء حقيقيّ، وصلب، أكثر من حلمٍ ممتع، يُجزي الوقت؟ إذ كيف يمكن أنْ يكون حقيقياً إذا كنتُ الآن غير مرئيّ؟ فإنْ كان حقيقياً، فكيف أستطيع أنْ أتذكّر أنه لا توجد في كل تلك الجزيرة من الخُضرة إلا نافورة واحدة مكسورة، ومتآكلة وجافة؟ لِمَ لا يهطل أي مطر خلال ذكرياتي، ولا يتردد صداه، أو ينقع الطبقة الجافة القاسية للماضي الذي لا يزال حديث العهد؟ لِمَ أتذكّر، بدل عبق بذور تنبجس في الربيع، فقط المحتوى الأصفر للصهريج يسيل على عشب المرج الميت؟ لِمَ؟ وكيف؟ كيف ولِمَ؟

ونما العشب ونبتت الأوراق الخضراء على أفنان الأشجار ومُلئت الجادات بالظل والفيء بثقة كثقة أصحاب الملايين القادمين من الشمال في يوم المؤسسين في كل ربيع. وما أفخم وصولهم! يأتون مبتسمين، متفحّصين، مُشجِّعين، يتحدثون همساً، يُلقون خُطباً على مسامع آذان وجوهنا السوداء والصفراء المُصغية بانتباه شديد - وكل منهم يترك شيكاً كبيراً لدى مغادرته. إنني مُقتنع بأنها نِتاج سِحر مرهف، كيمياء ضياء القمر؛ مدرسة أرض يباب مُرصّعة بالأزهار، الصخور غارقة، الرياح الجافة مُستترة، والجداجد التائهة تسقسق للفراشات الصفراء.

وآه، آه، آه، من أصحاب الملايين المُكدّسة!

كانوا كلهم يشكلون جزءاً من تلك الحياة الأخرى التي هي ميتة حتى إنني لا أتذكّرهم كلهم. (كان الزمن موجوداً كما كنتُ أنا، ولكن لا ذلك الزمن ولا ذاك «الأنا» موجودان الآن) لكنني أتذكر ما يلي: مع اقتراب نهاية سنة الأحداث الدراسية عملتُ عنده سائقاً على مدى الأسبوع الذي مكث خلاله في الجامعة. وجه ورديّ كوجه القديس نيقولاس تعلوه كثّة من الشعر الأبيض الحريري. سلوكه سهل، غير رسمي، حتى معي. من أهالي بوسطن، يدخّن السيجار، وراوية حكايات زنجية مهذّبة، وصاحب مصرف داهية، وعالِم، ومخرج ماهر، وخيِّر، أمضى أربعين عاماً يحمل عبء الرجل الأبيض، وأمضى ستين عاماً رمزاً للتقاليد العظيمة.

كنا منطلقين بالسيارة، والمحرك القوي يهدر ويملأني بالفخر وبالقلق. كانت السيارة تفوح برائحة النعناع وبدخان السيجار. وكان الطلاب يرفعون أنظارهم إلينا ويبتسمون باهتمام لدى مرورنا ببطء. كنتُ قد أتيت تواً من تناول وجبة الطعام وأميل إلى الأمام لأكبتَ تجشؤاً، فضغطتُ مُصادفة على زر على المقود فخرج التجشؤ عالياً مع نفير صارخ يهز الأعصاب. فالتفت السائرون على الطريق وحدّقوا.

قلت، وقد انتابني القلق خشية أنْ يقدِّم ضدي تقريراً للدكتور بليدسو، الرئيس، الذي كان سيمنعني من قيادة السيارة بعد ذلك، «أنا في غاية الأسف، يا سيدي»

«لا بأس على الإطلاق. على الإطلاق»

«إلى أين سأوصلك، يا سيدي؟»

«دعني أفكر...»

من خلال مرآة النظر إلى الخلف رأيته ينظر في ساعة يده الشديدة الرقّة، ثم يُعيدها إلى جيب صدرته ذات المربعات. كان قميصه من الحرير الناعم، مُزيّناً بربطة عنق مُنقّطة بالأزرق والأبيض. وكان سلوكه أرستقراطياً، وحركاته أنيقة ومهذبة.

قال «ما زال الوقت مبكّراً للانتقال إلى المرحلة التالية. فلنقُل فقط قُدْ. إلى أينما تشاء».

«هل شاهدت حرم الجامعة كله، يا سيدي؟»

«نعم، أعتقد ذلك. إنني أحد المؤسسين الأصليين، كما تعلم»

«يا سلام! لم أكن أعلم هذا، يا سيدي. إذن سوف أُضطر إلى انتقاء أحد الطرقات»

طبعاً كنتُ أعلم أنه أحد المؤسسين، لكنني علمتُ أيضاً أنَّ مديح الأثرياء البيض بمنزلة مغامرة. فقد ينفحني إكرامية كبيرة، أو بذلة، أو منحة دراسية في العام التالي.

«إلى أي مكان آخر تشاء. إنَّ الحرَم هو جزء من حياتي وأنا أعرف حياتي معرفة جيدة»

«نعم، يا سيدي»

كان لا يزال يبتسم.

سرعان ما أضحت أرض الحرم الخضراء بأبنيتها المكسوة بعريشة الكرمة خلفنا. وانسابت السيارة على الطريق. تساءلتُ، كيف كان الحرم جزءاً من حياته. وكيف يعرف المرء حياته «جيداً»؟

«أيها الشاب، أنت جزء من مؤسسة رائعة. إنها حلم رائع أصبح واقعاً...»

قلت «نعم، يا سيدي»

«إنني أشعر بأنني محظوظ لأنَّ لي صِلة بها مثلك من دون أدنى شك. لقد أتيت إلى هنا قبل سنين عديدة، عندما كان حرمك الجميل مجرد أرض جرداء. لم تكن تنمو فيه أشجار، ولا أزهار، ولا أرض زراعية خصبة. كان ذلك قبل سنين عديدة قبل أنْ تولد..»

أصغيت مفتوناً، وعيناي مُثبّتتان على الخط الأبيض الذي يقسم الطريق السريعة بينما أفكاري تحاول أنْ تنساب عائدة إلى الفترة التي يتحدث عنها.

«حتى والداك كانا صغيرين. كانت العبودية قد انتهت حديثاً، ولم يكن قومك يعلمون في أي اتجاه يسيرون، ويجب أنْ أعترف بأنَّه حتى العديد من أفراد قومي لم يعلموا في أي اتجاه يسيرون. لكنَّ المؤسس الأكبر لجامعتكم كان يعلم. كان صديقي وكنتُ أؤمن برؤيته. إلى درجة أنني لا أعرف أحياناً إنْ كانت تلك رؤيته أم رؤيتي...»

أخذ يُقهقه بصوت خافت، وتشكلتِ التجاعيد حول زاويتي عينيه.

«لكنها طبعاً كانت رؤيته؛ أنا فقط مُساعد. أتيتُ معه لأرى الأرض الجرداء وأقوم بما في استطاعتي للمساعدة. وشاء حظي السعيد أنْ أعود في كل فصل ربيع وألاحظ التغييرات التي تطرأ على مرّ السنين. وكان ذلك يُسعدني ويُرضيني أكثر من عملي نفسه. لقد كان حظاً سعيداً حقاً»

كان صوته ناضجاً ومفعماً بمعنى أعمق من مقدرتي على سبره. وكما ذكرت أعلاه، ظهرتْ صور عتيقة وباهتة اللون لأيام المدرسة الأولى في المكتبة العامة عبر شاشة عقلي، وعادت إلى الحياة على فترات وبصورة مقاطع – صور فوتوغرافية لرجال ونساء في عربات خيل يجرها بغل وثور، يرتدون السواد، ملابسهم مُغبرّة، يبدون كأنهم بلا شخصيات متميزة، رعاع من السود كأنهم ينتظرون، ينظرون بوجوه خالية من التعبير، وبينهم التشكيلة الحتمية لرجال ونساء من البيض على امتداد أميال، بلا ملامح، لافتين للنظر، أنيقين وواثقين من أنفسهم. حتى ذلك الحين، وعلى الرغم من استطاعتي أنْ أتعرَّف على المؤسِّس والدكتور بليدسو بينهم، لم تبدُ الأشكال الظاهرة في الصور الفوتوغرافية أنها حيّة حقاً، بل كانت أقرب إلى الإشارات أو الرموز التي يجدها المرء على الصفحات الأخيرة من القاموس... أما الآن فشعرتُ بأنني أتقاسم الإنجاز العظيم، وبينما السيارة تقفز تحت ضغط قدمي، أتطابق مع الرجل الثريّ الذي يسرد ذكرياته على المقعد الخلفي...

كرر قائلاً «إنه حظ سعيد وآمل أنْ لا يقلّ حظك عنه سعادة»

قلت، وقد سرّني أنه تمنى لي حظاً سعيداً، «نعم، يا سيدي. شكراً لك، يا سيدي»

ولكن في الوقت نفسه انتابتني الحيرة: كيف يمكن لحظ أي شخص أنْ يكون ***سعيداً***؟ لطالما اعتقدتُ أنَّ الحظ يكون مؤلماً. فلا أحد ممن أعرفهم يمكن وصفه بسعيد – ولا حتى وودريدج، الذي دفعنا إلى قراءة المسرحيات الإغريقية.

حينئذٍ كنا قد أصبحنا خارج نطاق ملاك أراضي الجامعة بكثير وفجأة قررت أنْ أخرج عن مسار الطريق السريعة، وأنتقل إلى درب يبدو غير

مطروق. لم يكن هناك أشجار وكان الهواء براقاً. وعلى طول الدرب توهجت الشمس بقسوة على اللافتة القصديرية المُثبّتة في إحدى الحظائر. استقام شخص وحيد كان منحنياً فوق مِعزَقة على منحدر التل بحركة مُرهقة ولوّح بيده، وبدا أقرب إلى شبح أمام صفحة السماء منه إلى رجل.

سمعت من خلف ظهري «كم قطعنا من مسافة؟»

«حوالي ميل، يا سيدي»

قال «أنا لا أتذكّر هذا المكان»

لم أُجِب. كنتُ أفكّر في الشخص الأول الذي أتى على ذِكر أي شيء عن الحظ في حضوري، جدّي. لم يكن يقترن بأي شيء سعيد وكنتُ قد حاولت أنْ أنساه. والآن، وأنا أركبُ هذه السيارة القوية مع هذا الرجل الأبيض الذي كان شديد السرور بما أطلقَ عليه حظّه. أحسست بالرعب. كان جديراً بجدّي أنْ يُسمّي هذا خيانة ولم أفهم كيف يمكن أنْ يكون كذلك. وفجأة نما لدي إحساس بالذنب لإدراكي أنَّ الرجل الأبيض يمكن أنْ يعتقد ذلك أيضاً. ماذا سيعتقد؟ هل كان يعلم أنَّ الزنوج أمثال جدّي قد تحرّروا في زمنٍ سابق لتأسيس الكليّة؟

لدى اقترابنا من درب فرعية رأيت زوجاً من الثيران مربوطاً إلى عربة مكسورة، كان السائق الزريّ يغفو على المقعد تحت فيء أكمة من الأشجار.

سألتُ عبر كتفيّ «أرأيتَ هذا، يا سيدي؟»

«ما هذا؟»

«إنه زوج من الثيران، يا سيدي»

قال وهو ينظر خلفه «أوه! كلا، لا أستطيع أنْ أراه بسبب الأشجار. إنها أشجار غزيرة»

«أنا آسف، يا سيدي. سوف أعود»

قال «كلا، ليس بالأمر الجلل. تقدَّم»

تابعت القيادة، متذكّراً وجه الرجل النائم، النحيل، الجائع. كان من نوع الرجال البيض الذين أخشاهم. امتدت الحقول البنيّة واسعاً حتى الأفق. غاص

سربٌ من الطيور، ودار، ثم حلّقَ عالياً وابتعد معاً كأنه مُتصل بعضه ببعض بخيوط خفيّة. تراقصت أمواج من الحرارة فوق غطاء المُحرِّك. وغرّدت أُطُر الدواليب على الطريق السريعة. وأخيراً تغلّبتُ على خوفي وسألته:

«سيدي، ما الذي أثار اهتمامك بالجامعة؟»

قال، متأملاً، رافعاً صوته، «أعتقد أنَّ السبب هو أنني شعرت حتى وأنا شاب صغير بأنَّ مصير قومي متصل برباط وثيق بمصيري. أتفهم؟»

قلت، خجلاً من اعترافي، «ليس بوضوح تام، يا سيدي»

«هل درستَ إمرسون؟»

«إمرسون، يا سيدي؟»

«رالف والدو إمرسون»

شعرتُ بالإحراج لأنني لم أفعل. «ليس بعد، يا سيدي. لم نصل إليه بعد»

«ألم تفعل؟» قالها مع نبرة دهشة. «حسن، لا بأس. أنا من نيو إنغلند، مثل إمرسون. يجب أنْ تتعرف عليه، لأنه كان ذا تأثير مهمّ على قومك. لقد كان له تأثير على مصيرك. نعم، ربما هذا ما أعني. لديّ إحساس بأنَّ قومك كانوا بصورة ما مرتبطين بمصيري. إنَّ ما حدث لك مرتبط بما يمكن أنْ يحدث لي...»

أبطأت سرعة السيارة، أحاول أنْ أفهم. ومن خلال الزجاج رأيتُه يُحدّق إلى الرماد الطويل لسيجاره، وهو يحمله برقّة بين أصابعه النحيلة، المُشذّبة.

«نعم، أنت قَدَري، أيها الشاب. أنت وحدك تستطيع أنْ تشرح لي حقيقة الأمر. أتفهم؟»

«*أعتقد* أنني أفهم، يا سيدي»

«أعني أنه عليك يعتمد نتاج السنين التي أمضيتها في مساعدة جامعتك. تلك كانت مهمتي في الحياة، وليس عملي المصرفي وأبحاثي، بل تنظيمي المباشر للحياة الإنسانية»

الآن أراه يميل نحو المقعد الأمامي، وهو يتكلّم بكثافة لم تكن من قبل. كان صعباً عليّ ألا أدير عينيّ عن الطريق السريعة لكي أواجهه.

قال، ولم يعد يبدو أنه يراني، بل يتكلّم مع نفسه، «هناك سبب آخر، أكثر أهمية، وشغفاً، وأيضاً، نعم، أكثر قدسية من الأسباب الأخرى كلها. نعم، أكثر قدسية من الأسباب الأخرى كلها. إنها فتاة، ابنتي. كانت مخلوقاً أشدّ نُدرة، وجمالاً، ونقاءً، ومثاليّة ورهافة من أشدّ أحلام أي شاعر جموحاً. أكاد لا أُصدق أنها من لحمي ودمي. كان جمالها منبع أنقى مياه الحياة، وعندما تنظر إليها تشرب وتشرب وتشرب ولا ترتوي... كانت مخلوقة نادرة، مثالية، عملاً فنياً من أنقاها. زهرة رقيقة تتفتح في ضياء القمر السائل. طبيعتها لا تمتّ إلى هذا العالم بصلة، شخصية أقرب إلى إحدى شخصيات الكتاب المقدس، بهيّة وفخمة. كنتُ لا أكاد أُصدق أنها من صُلبي...»

وفجأة أخذ يفتش في أرجاء جيبه الواسع ودفع شيئاً عبر المقعد الخلفي، مُثيراً دهشتي.

«خذ، أيها الشاب، إنك تُدين بالكثير من حظك الحسن في الانتساب إلى تلك الجامعة إليها»

نظرت إلى الصورة المُنمنمة بإطار الألمنيوم المحفور. كدتُ أُسقطها. رأيتُ امرأة شابة ذات تقاطيع رقيقة كالحلم تنظر إليّ. قلت في نفسي، إنها فائقة الجمال، جميلة إلى درجة أنني لم أدر هل أعبِّر عن إعجابي كما شعرت به أم أكتفي بالتصرُّف بأدب. ومع ذلك بدا أنني تذكّرتها، أو تذكرت أحداً يُشبهها، من الماضي. ثم أدركتُ أنَّ الثوب الهفهاف بقماشه الناعم الرقيق هو الذي أوحى بذلك؛ واليوم، لو أنها ترتدي أحد الأثواب العصرية الأنيقة، الجيدة الصنع، النحيلة، العقيمة، الانسيابية المزخرفة، ومُكيَّفة الهواء التي تراها في المجلات النسائية، لبدتْ عادية كقطعة غالية الثمن من الأحجار الكريمة مقطوعة آلياً وخالية من الحياة مثلها. لكنني قاسمته بعضاً من حماسه.

قال بحزن «لقد كانت شديدة النقاء ولم تتحمل الحياة، بل مفرطة النقاء والطيبة والجمال. كنا مُبحرين معاً، نطوف العالم، أنا وهي فقط، عندما أصابها المرض في إيطاليا. في أول الأمر لم أولِ الأمر أهمية وتابعنا الرحلة عبر جبال الألب. وعندما وصلنا ميونيخ كانت قد بدأتْ تذوي. وبينما كنا نحضر حفلاً في إحدى السفارات انهارت. ولم يتمكن أفضل ما توصل إليه

العِلم في مجال الطب من إنقاذها. كانت عودة موحشة، رحلة مريرة. ولم أبرأ منها قط. لم أغفر لنفسي قط. وكل ما أنجزته منذ وفاتها كان بمنزلة نُصُب أقمتُه لذكراها»

لزم الصمت، ناظراً بعينيه الزرقاوين إلى ما بعد الحقول الممتدة بعيداً تحت الشمس. أعدتُ الرسم المُنمنم، متسائلاً ما الذي دفعه إلى فتح قلبه لي. كان ذلك شيئاً لم أفعله قط؛ كان أمراً خطراً. أولاً، يكون خطراً إذا شعرتَ هكذا حيال أي شيء، لأنك حينئذٍ لن تفهم وسوف يأتي شيء ما أو شخص ما ويأخذه منك؛ ثم يكون خطراً لأنَّ لا أحد سيفهمك وسوف يكتفون بالضحك جميعاً ويعتقدون أنك مجنون.

«إذن، كما ترى، أيها الشاب، أنت متورط في حياتي بصورة حميمة، على الرغم من أنك لم ترني قط من قبل. مُقدر لك أنْ تُحقق حلماً كبيراً وأنْ يُنصَب لك تمثال جميل. فإذا أصبحت مزارعاً ناجحاً، أو طاهياً، أو واعظاً، أو طبيباً، أو مغنياً، أو عاملاً يدوياً – أو مهما أصبحت، وحتى إذا فشلت، فأنت قَدَري. ويجب أنْ تكتب لي وتُخبرني عن النتيجة»

ارتحت عندما رأيته يبتسم عبر المرآة. انتابتني مشاعر مختلطة. أكان يخدعني؟ أكان يحدثني كأنني شخصية في كتاب فقط ليرى ردّة فعلي؟ أم أيُعقَل، وقد أخافتني هذه الفكرة، أنَّ هذا الثري مُصاب بمسّ من الجنون؟ كيف يمكن لي أنْ أُخبره عن قَدَره **هو**؟ رفع رأسه فتلاقت عيوننا برهة في المرآة، ثم أطرقتُ عينيّ أمام الخيط الأبيض المُبهِر الذي يقسم الطريق السريعة.

كانت الأشجار التي تحفّ بالطريق كثيفة الأوراق وباسقة. وانعطفنا. حلّقت أسراب السلوى عالياً وفوق الحقول، بنيّة، بنيّة، تنساب منخفضة، وتمتزج.

سمعته يقول «أتعدني بأنْ تُخبرني عن قدَري؟»

«سيدي؟»

«أتعدني؟»

سألته مُحرجاً «*الآن*، يا سيدي؟»

«الأمر متوقف عليك. الآن، إنْ شئت»

لزمت الصمت. كان صوته جديّاً، متطلباً. ولم أجد جواباً. هدر المُحرّك. ارتطمت حشرة على حاجب الريح، تاركة لطخة مخاطية، صفراء.

«لا أعرف الآن، يا سيدي. هذه فقط سنتي الدراسية الأولى...»

«ولكن ستخبرني عندما تعرف؟»

«سوف أحاول، يا سيدي»

«عظيم»

عندما ألقيتُ نظرة سريعة إلى المرآة كان يبتسم من جديد. أردتُ أنْ أسأله إنْ كان كونه ثرياً ومشهوراً ويُساعد في إدارة جامعة حتى تُصبح ما هي عليه، ليس كافياً؛ لكنني خفت أنْ أفعل.

قال «ما رأيك في فكرتي، أيها الشاب؟»

«لا أعلم، يا سيدي. أنا فقط أعتقد أنك تحصل على ما تبحث عنه. لأنني إذا فشلت أو تركت الجامعة، فلن يكون ذلك في نظري بسببك. لأنك ساهمت في إنشاء الجامعة»

«وتعتقد أنَّ هذا كاف؟»

«نعم، يا سيدي. هذا ما يُخبرنا به الرئيس. أنت لديك ما لديك، وقد حصلت عليه بمجهودك، ويجب أنْ نرتفع بالطريقة نفسها»

«لكنَّ هذا مجرد جزء من الأمر، أيها الشاب. أنا أملك الثروة وأحظى بالسمعة الطيبة والمهابة – هذا كله صحيح. لكنّ صاحبك المؤسِّس الكبير يمتلك أكثر من ذلك، إنَّ عشرات الآلاف من الأرواح تعتمد على أفكاره وعلى أفعاله. وما أنجزه أثّر على جنسك كله. وبطريقة ما، هو يتمتع بسلطة ملك، أو إله، بمعنى ما. وهذا، كما صرت أؤمن، أشدّ أهميّة من عملي، لأنَّ الذين يعتمدون عليك أكثر عدداً. *أنت* مهم لأنكَ إذا فشلت فقد خذلني شخص واحد، واحد متخلف؛ من قبل لم يكن هذا بالأمر المهم جداً، أما الآن فأنا أتقدم في السن وأصبح شيئاً مهماً جداً...»

قلت في نفسي، متسائلاً عن فحوى الأمر، لكنك لا تعرف حتى اسمي.

«... أعتقد أنه صعب عليك أنْ تفهم سبب اهتمامي بهذا. ولكن كلما تطورتَ يجب أنْ تتذكر أنني معتمد عليك لأعرف مصيري. فمن خلالك وخلال أقرانك من الطلاب أصبحُ، فلنقُل، ثلاثمائة أستاذ مدرسة، وسبعمائة عامل يدوي مُدرَّب، وثمانمائة مزارع ماهر، وما إلى ذلك. وبهذه الطريقة أستطيع أنْ أراقب عبر الشخصيات الحيّة إلى أي مدى استثمرت أموالي، ووقتي، وآمالي، بصورة مُثمرة. وأنشئ نُصباً تذكارياً حياً لابنتي. أتفهم؟ أستطيع أنْ أرى الثمار التي تُنتجها الأرض التي حوّلها المؤسس العظيم من طمي عقيم إلى تربة خصبة»

سكتَ صوتُه ورأيتُ خيطين من الدخان الأزرق الفاتح ينسابان عبر صفحة المرآة وسمعت القداحة الكهربائية تصدر طقّة وهي تعاد إلى مكانها في خلفية مقعدي.

قلت «أعتقد أنني أصبحت أفهمك بصورة أفضل الآن، يا سيدي»

«هذا عظيم، يا فتى»

«هل أستمر في هذا الاتجاه، يا سيدي؟»

قال، وهو يطل على الريف «حتماً. أنا لم أشاهد هذه المنطقة من قبل. إنها جديدة عليّ»

سرت على طول الخط الأبيض بشبه جدية، مفكراً فيما قال. ثم بينما كنا نرتقي تلاً هبّت علينا نفحة من الريح الحارقة كأننا كنا نقترب من الصحراء. كادت أنفاسي تنقطع وملت وشغّلت المروحة، وسمعت الهدير المفاجئ.

قال عندما ملأ نسيم خفيف فضاء السيارة، «شكراً لك»

كنا نمر عندئذٍ بمجموعة من الأكواخ والكبائن الخشبية، المطلية بالأبيض وشوّهتها أحوال الطقس. ألواح من الخشب عذّبتها أشعة الشمس تمتد على الأسقف كمجموعة من أوراق اللعب المُشبّعة بالماء نُشِرَتْ لتجفّ. والمنازل تتألف من غرفتين مربّعتين مرتبطتين معاً بأرض وسقف مشتركين وبينهما رواق مسقوف. ولدى مرورنا كان في استطاعتنا أنْ نشاهد الحقول البعيدة. أوقفت السيارة بأمر متحمس منه أمام منزل بعيد عن البقية.

«أذاك كوخ من خشب؟»

كان عبارة عن كابينة قديمة شقوقه مملوءة بطمي أبيض بلون الطباشير، تُغطي سطحه ألواح جديدة من الخشب. وفجأة شعرتُ بالأسف لأنني تخبّطت على هذا الدرب. تعرّفتُ على المكان حالما رأيتُ مجموعة الأطفال بملابس جديدة قاسية يلعبون بالقرب من سياج متهالك.

قلت «نعم، يا سيدي. إنها كابينة من خشب»

كانت كابينة تيم تروبْلود، المُحاصِص[7] الذي جلب العار على المجتمع الأسود. وقبل ذلك ببضعة أشهر كان قد أثار الكثير من السخط في المدرسة، والآن لم يعُد اسمه يُذكَر إلا همساً. وحتى قبل ذلك كان نادراً ما يقترب من حرم الجامعة لكنه كان محبوباً كعاملٍ مُجدّ يعمل على تلبية حاجات عائلته، وكراوٍ للحكايات القديمة مع حسٍ فكه وسِحر بثّت فيهم الحياة. وكان أيضاً صاحب صوت صادح جميل، وأحياناً عندما كان يقوم بعض الضيوف البيض المميزين بزيارة الجامعة كان يأتي بمُصاحبة أعضاء رباعي غناء ريفيّ ليغني ما يسميه المسؤولون «أغانيهم الروحية البدائية» وكنا نجتمع في الكنيسة في أمسيات أيام الآحاد. كنا نشعر بالحرج من الأغاني الدنيوية التي كانوا يؤدونها، ولكن بما أنَّ الزوار كانوا مُهابين لم نجرؤ على الضحك على الأصوات الحيوانية الكئيبة، الفظّة، العالية، التي كان يُصدرها جيم تروبلود وهو يقود الرباعي. هذا كله مرَّ الآن مع عاره، وما كان من ناحية مسؤولي الجامعة موقفاً ينمّ عن امتعاض خُفِّفَ بالتسامُح، تحول إلى امتعاض قويّ بالكراهية. لم أفهم خلال الأيام التي سبقت كوني لا مرئيّاً أنَّ كراهيتهم، وكراهيتي أنا أيضاً، كانت مشحونة بالخوف. كم كرهنا كلنا في الجامعة أصحاب الأحزمة السوداء، «الفلاحين»، في خلال تلك الأيام! كنا نحاول أنْ نرفع من مستواهم، وكانوا هم، مثل تروبلود، قد فعلوا كل ما في وسعهم لجرنا إلى أسفل.

قال السيد نورتن، ناظراً عبر الامتداد الأجرد، القاسي، للفناء حيث امرأتان ترتديان ثوبين جديدين بمربعات بيضاء وزرقاء، تغسلان ملابس داخل قدر من حديد، «يبدو قديماً جداً». كان القدر ملوّثاً بالسخام واللهب الخفيف

7- المُحاصص: مزارع يستغل الأرض لمصلحة المالك مقابل جزء من المحصول. – المترجم

الذي يلعق جوانبه يظهر وردياً فاتحاً ويحفّ بالسواد، كلهب في الصباح الباكر. كانت المرأتان تتحركان بإرهاق وجلاء يدلان على حمل متقدِّم.

قلت «هو كذلك، يا سيدي. هذا والكوخان الآخران تبدو كأنها مبنية في زمن العبودية»

«أحقاً! لم أكن لأصدق أنها تستطيع أنْ تصمد كل تلك المدة. منذ زمن العبودية!»

«هذا صحيح، يا سيدي. والعائلة البيضاء التي ملكت الأرض عندما كانت المزرعة ما زالت تُقيم في المدينة»

قال «نعم، أعلم أنَّ العديد من العائلات العريقة ما زالت موجودة. والأفراد أيضاً، والأرومة الإنسانية ما زالت موجودة، على الرغم من أنها تنحلّ. أما هذه الكبائن!» بدا مندهشاً ومرتبكاً.

«أتعتقد أنَّ هاتين المرأتين تعرفان أي شيء عن عمر هذا المكان وتاريخه؟ الأكبر سناً تبدو أنها تعرف»

«أشك في هذا، يا سيدي. إنهما – إنهما لا تبدوان ذكيتين جداً»

قال، بعد أنْ أبعد السيجار، «ذكيتان؟»، ثم سأل بارتياب، «أتعني أنهما سترفضان التحدث إليّ؟»

«نعم، يا سيدي. هذا ما أعني»

«ولِمَ لا؟»

لم أرغب في شرح الأمر. شعرت بالخجل، لكنه أحسّ بأنني أعلم شيئاً فأخذ يلحّ عليّ.

«لن يُعجبك كلامي، يا سيدي. ولكن لا أعتقد أنْ تينك المرأتين سوف تقبلان التحدث معنا»

«نستطيع أنْ نبرر ذلك بأننا من الجامعة. طبعاً ستتحدثان معنا حينئذٍ. يمكنك أنْ تخبرهما مَنْ أنا»

قلت «حاضر، يا سيدي، ولكنهم يكرهوننا في الجامعة. إنهم لا يذهبون إلى هناك...»

«ماذا!»

«كلا، يا سيدي»

«وأولئك الأطفال الذين عند السياج هناك؟»

«هم أيضاً لن يفعلوا، يا سيدي»

«ولكن لِمَ؟»

«لا أعلم حقاً، يا سيدي. ولكن هناك الكثير من الناس يرفضون الكلام. أعتقد أنهم غارقون في الجهل. إنهم غير مهتمين»

«لكنني لا أصدق هذا»

كان الأطفال قد توقفوا عن اللعب وأخذوا ينظرون إلى السيارة في صمت، وأذرعهم خلف ظهورهم وملابسهم الجديدة ذات المقاس الكبير مشدودة فوق بطونهم الصغيرة البارزة كأنهم أيضاً حبالى.

«وماذا عن زوجيهما؟»

تردّدتُ. لِمَ يجد هذا أمراً غريباً جداً؟

قلت «إنه يكرهنا، يا سيدي»

«تقول هو؛ أليست المرأتان كلتاهما متزوجتين؟»

حبستُ أنفاسي. لقد ارتكبتُ خطأً. قلت على مضض «الأكبر سناً متزوجة، يا سيدي»

«وماذا حدث لزوج الصغيرة»

«إنها ليست متزوجة – أعني –... أنا –»

«ما الأمر، أيها الشاب؟ أتعرف هؤلاء القوم؟»

«معرفة سطحية، يا سيدي. لقد دار بعض الحديث عنهما في حرم الجامعة قبل وقت قصير»

«أي حديث؟»

«في الواقع، إنَّ الصغيرة هي ابنة الكبيرة...»

«ثم؟»

«في الواقع، يا سيدي، يُقال... في الواقع... أعني يقولون إنَّ الابنة ليس لديها زوج»

«آه، فهمت. ولكن هذا ليس بالأمر المُستغرَب. أنا أفهم أنَّ قومك – لا عليك! أهذا كل شيء؟»

«حسن، يا سيدي...»

«نعم، ماذا أيضاً؟»

«يقولون إنَّ والدها هو الذي فعل ذلك»

«ماذا!»

«نعم، يا سيدي... هو الذي تسبّب في حملها»

سمعت شهيقه الحاد، كبالون أخذ يُنفّس فجأة. احمرّ وجهه. كنتُ مُضطرباً، شاعراً بالخجل من حال المرأتين وبالخوف من كوني أكثرتُ من الكلام وآذيت مشاعره الحسّاسة.

أخيراً سأل «وهل قام أحد من الجامعة بالتحقيق في القضية؟»

قلت «نعم، يا سيدي»

«وماذا اكتشف؟»

«أنَّ الأمر صحيح – كما يقولون»

«ولكن كيف برّر ذلك الـ – الـ – ذلك الشيء الشنيع؟»

استرخى على المقعد، ويداه تشدان على رُكبتيه، وشحب لون براجمه. أشاح ببصره بعيداً إلى إسفلت الطريق العامة المتوهج من شدة الحرارة. وددتُ لو نرجع إلى الجانب المقابل من الخط الأبيض، عائدين إلى الامتداد الأخضر الهادئ لحرم الجامعة.

«هل يُقال إنَّ الرجل ضاجع زوجته وابنته؟»

«نعم، يا سيدي»

«وإنه والد **كلا** الطِفلين؟»

«نعم، يا سيدي»

«كلا، كلا، كلا!»

قالها وكأنه يُعاني من ألم مُبرح. نظرتُ إليه بجديّة. ماذا حدث؟ ماذا قلت؟

«ليس هذا! كلا...» قال، بما يُشبه الرعب.

رأيتُ الشمس ترسل لظاها على الملابس الزرقاء الجديدة ثم ظهر رجل من خلف الكابينة؛ حذاؤه مسفوع بأشعة الشمس وجديد ويتحرك بسهولة على التربة الحارة. كان قميئاً وأشاع في الفناء جواً من الألفة جديراً بأنْ يسمح له بأنْ يمشي في أشد الأماكن المظلمة حلكة باليقين نفسه. اقترب وقال شيئاً للمرأتين وهو يُهوي نفسه بمنديل أزرق مزين بالرسوم. ولكن بدا أنهما تنظران إليه بتجهّم، دون أنْ تتكلما، أو تنظرا باتجاهه.

سأل السيد نورتن «أهذا هو الرجل؟»

«هو، يا سيدي. أعتقد ذلك»

صرخ «اخرج! يجب أنْ أتحدث معه»

لم أتمكن من الإتيان بحركة. دُهِشتُ وشعرت بالخوف وبالامتعاض مما يمكن أنْ يقول لتروبلود وامرأتيه، والأسئلة التي يمكن أنْ يطرح. لِمَ لا يدعهم وشأنهم!

«أسرِعْ!»

ترجلتُ من السيارة وفتحت الباب الخلفي. خرج وعبر الطريق مُسرعاً تقريباً إلى الفناء، وكأنّ عجلة مُلحّة تدفعه لم أفهمها. وفجأة رأيت المرأتين تلتفتان وتهربان بخطى مسعورة إلى خلف المنزل، بلا تحفّظ وبحركات ثقيلة. هرعتُ وراءه، عندما رأيتُ أنه توقف عندما وصل إلى الرجل والأطفال. ران عليهم الصمت، وتجهّمت وجوههم، ورقّت قسماتها وأضحت سلبية، وخلَت عيونهم من التعبير وأضحت خادعة. كانوا يربضون خلف عيونهم في انتظار أنْ يتكلّم – حالما لاحظتُ هذا كنتُ أرتجف خلفَ عينيّ. ومع اقترابي رأيتُ ما لم أره من السيارة: كان للرجل ندب على وجنته اليُمنى، وكأنما تلقّى ضربة من مطرقة على وجهه. كان الجرح حديث العهد ورطباً وبين وقت وآخر يرفع منديله ليُبعد البعوض.

تلعثم السيد نورتن «أنا، أنا – يجب أنْ أتحدث معك!»

قال السيد جيم تروبلود من دون دهشة أو انتظار، «حسن، يا سيدي»

«أصحيح... أعني أحقاً؟»

سأل تروبلود، وكنت أشيح ببصري، «**سيدي؟**»

انفجر قائلاً «لقد نجوتَ، ولكن أصحيح...؟»

قال المزارع، وجبينه معقود من الحيرة، «**سيدي؟**»

قلت «أنا آسف، سيدي، ولكن لا أعتقد أنه يفهم ما تقول»

تجاهلني، مُحدّقاً إلى وجه تروبلود كأنه يقرأ فيه رسالة لم أفهمها.

صرخ «فعلتها وخرجتَ سالماً!» وعيناه الزرقاوان تُطلقان على الوجه الأسود ما يُشبه قذائف من الحسد والسُخط. نظر تروبلود بعجز إليّ. فأشحت ببصري. لم أفهم أكثر مما فهم.

«لقد نظرتَ إلى العماء ولم تُدمَّر»

«كلا يا سيدي! أنا بأحسن حال»

«أحقاً؟ ألا تشعر باضطراب داخلي، أو بحاجة إلى طرح النظرة المُهينة؟»

«سيدي؟»

«أجبني!»

قال تروبلود مضطرباً «أنا على ما يرام، يا سيدي، وعيناي على ما يرام، أيضاً. وعندما أشعر بالألم في بطني أشرب بعض الصودا فيزول»

قال، وهو يتلفّت حوله بحماس ويتجه بسرعة إلى حيث يرمي الرواق المكشوف موجة من الظل، «كلا، كلا، كلا! هيا بنا إلى حيث الظل». تبعناه. وضع المزارع يده على كتفي، لكنني أبعدتُها، لعلمي أنه ليس في استطاعتي أنْ أشرح أي شيء. جلسنا في الرواق المسقوف على شكل نصف دائرة. كانت الأرض المُحيطة بالرواق قاسية وبيضاء حيث تُرمى مياه الغسل منذ وقت طويل.

سأل السيد نورتن «كيف تشعر الآن؟ ربما أستطيع أنْ أقدم المساعدة»

«وضعنا ليس سيئاً، يا سيدي. قبل أنْ يسمعوا بما حصل لنا هنا لم أستطع أنْ أحصل على أية مساعدة من أحد. أما الآن فكثير من الناس أصبحوا فضوليين ويريدون تقديم المساعدة. حتى أصحاب المناصب الكبيرة في الجامعة هناك فوق التل، ولكن هناك تركيز على الأمر! لقد عرضوا أنْ يُخرجونا من الولاية، وأنْ يسددوا التكاليف كلها ويدفعوا مئة دولار تعيننا

على الاستقرار. لكنَّ الإقامة هنا تعجبنا فرفضتُ طلبهم. ثم أرسلوا شخصاً إلى هنا، ضخم الجثة، قال إذا لم أغادر فسوف يُطلقون أيدي البيض عليّ. وكدتُ أجنّ وانتابني الخوف. إنَّ الأشخاص هناك في الجامعة يستقوون بالأبيض وهذا يُخيفني. ولكن عندما جاؤوا إلى هنا أول مرة اعتقدتُ أنهم اختلفوا عما كانوا عليه فوق هناك قبل زمن طويل عندما ذهبت لأبحث عن كتاب لأتعلّم كيف أتعامل مع محاصيلي. ذلك كان عندما كان لي منزلي الخاص. حسبتُ أنهم كانوا يُحاولون أنْ يساعدوني، على أساس أنَّ لدي امرأتين حاملتين في وقت واحد.

«لكنني جُننت عندما اكتشفتُ أنهم يحاولون أنْ يتخلصوا منا لأنهم قالوا إننا نسبِّب لهم العار. نعم يا سيدي، جُننت. لذلك ذهبتُ لأقابل السيد بيوكانن، الرئيس، وأخبرته عن الأمر فأعطاني رسالة موجّهة إلى الشريف وطلب مني أنْ أعطيها إياه. ففعلت، كما أمرني. ذهبتُ إلى مركز السجن وأعطيتُ الشريف باربور الرسالة فطلب مني أنْ أحكي له ما حدث، فحكيت له فاستدعى المزيد من الرجال وجعلوني أُعيد الحكاية. أرادوا أنْ يسمعوا عن الفتاة مرات عدة وقدموا لي طعاماً وشراباً وبعض التبغ. ودُهِشت، لأنني كنتُ خائفاً وتوقعت شيئاً مختلفاً. في الحقيقة، أعتقد أنه لا يوجد رجل ملون في المقاطعة حظي باهتمام البيض بقدر ما حظيت. وأخيراً طلبوا مني ألا أقلق، وبأنهم سوف يبلغون الجامعة بأنني سأبقى حيث أنا. والزنوج المهمون لم يزعجوني أيضاً. أريد أنْ أقول إنه مهما كان الزنجي شخصية كبيرة، يمكن للبيض دائماً أنْ يُخسفوا به الأرض. لقد وقف البيض إلى جانبي. وأصبح البيض يترددون إلى هنا ليتفقدونا ويتحدثوا معنا. وكان بعضهم ضخام الجثة أيضاً، من الجامعة الكبرى البعيدة. وطرحوا عليّ العديد من الأسئلة عنْ رأيي في بعض الأشياء، وعن عائلتي وأطفالي، ودوَّنوا ذلك كله في دفتر. لكنَّ أفضل شيء، يا سيدي، هو أنه أصبح لدي من العمل أكثر من أي وقت مضى...»

أصبح يتكلَّم راغباً، بنوع من الرضا ومن دون أي أثر للتردُّد أو للخجل. وأصغى إليه العجوز مع تعبير الحيرة على وجهه وهو يحمل شمعة غير مشتعلة بأصابعه الرقيقة.

قال المزارع «الأحوال جيدة جداً الآن، وكلما فكّرتُ كم كان الجو بارداً وفي الأوقات العصيبة التي مررنا بها تُصيبني القشعريرة»

رأيته يعضّ على كتلة من مُضغة التبغ. رنَّ شيء على أرض الرواق المسقوف فالتقطته، ورحتُ أحدّقُ إليه بين حين وآخر. كان تفاحة حمراء قاسية مدموغة بقطعة من القصدير.

«في الواقع، يا سيدي، كان الجو بارداً ولم يكن لدينا الكثير من وقود للمدفأة. فقط خشب، ولا فحم. وحاولت أنْ أحصل على عون ولكن رفض الجميع أنْ يُساعدوني ولم أتمكن من الحصول على عمل أو أي شيء. وكنا نعاني البرد واضطررنا إلى النوم كلنا معاً؛ أنا، والعجوز والفتاة. هكذا بدأ الأمر، يا سيدي»

تنحنح، ولمعت عيناه واتخذ صوته نبرة عميقة، رصينة، كأنه سبقَ أنْ حكى الحكايات مرات عديدة. وتكاثرت الحشرات والبعوض حول جرحه.

قال «هكذا كان الحال. أنا على جانب والعجوز على الجانب الآخر والفتاة في الوسط. والظلام دامس، حالك. حالك كقعر دلو من القار. وكان الأطفال ينامون كلهم معاً على سريرهم في الزاوية. وكنتُ آخر من يأوي إلى النوم، لأنني كنتُ أُفكر في وسيلة للحصول على بعض الطعام لليوم التالي وفي الفتاة والفتى الشاب الذي بدأ يحوم حولها. لم يعجبني وأصبحت أفكر كثيراً في هذا الأمر إلى أنْ قررتُ أنْ أُحذّره لكي يبتعد عن الفتاة. كان الظلام حالكاً وسمعت أحد الأطفال يتمتم في نومه وكان آخر عيدان الوقود يستقر في الموقد ورائحة دهن اللحم تُصبح باردة ولا تزال عالقة في الهواء كشحم اللحم عندما يوضَع في طبق بارد من دبس السكر. وفكّرتُ في الفتاة وذلك الفتى وأنا أشعر بذراعيها إلى جواري وأسمع غطيط العجوز كالأنين والتأوّه على الجانب المقابل. كنتُ قلقاً على أفراد عائلتي، كيف سيأكلون وما إلى ذلك، وفكّرتُ عندما كانت الفتاة طفلة كالأطفال النائمين في الزاوية وكيف كانت تفضّلني على العجوز. وها هم، يتنفسون معاً في الظلام. لم أكن أشاهدهم إلا بعين عقلي، كما أعرفهم. رأيتهم بعين عقلي كلهم، واحداً واحداً. الفتاة تشبه كثيراً العجوز عندما

كانت شابة وقابلتها للمرة الأولى، لكنها أجمل. كما تعلم، لقد كان جنس قومنا أجمل في الماضي...

«على أية حال، كنتُ أسمعهم يتنفسون وعلى الرغم من أنني لم أكن أنام إلا أنَّ ذلك كان يجعلني أنعس. ثم سمعتُ الفتاة تقول «أبي»، بصوت ناعم ومنخفض في نومها ونظرت، أحاول أنْ أرى إنْ كانت لا تزال يقظة. ولكن كل ما استطعت أنْ أفعل هو أنْ أشمّ رائحتها وأشعر بأنفاسها على يدي عندما اقتربت لألمسها. قالتها بنعومة شديدة حتى إنني لم أكن متيقناً من أنني سمعتُ أي شيء، لذلك لبثت هناك أُصغي. وكأنني سمعت طائر المساء يُنادي، وقلت في نفسي، ابتعد عنها، سوف أضرب العجوز ويل عندما أعثر عليه. ثم سمعت ساعة المدرسة تدق أربع مرات، بنغمة موحِشة.

«ثم رحتُ أفكر في الوقت الذي غادرت المزرعة لكي أُقيم في موبايل وفي فتاة كنت قد قابلتها. حينئذٍ كنتُ شاباً صغيراً – مثل ذلك الشاب الذي لدينا هنا. وعشنا في منزل من طابقين على ضفاف النهر، وليلاً في أوقات الصيف كنا نستلقي على السرير ونتحدث، وبعد أنْ تستغرق في النوم أبقى أنا يقظاً أنظر إلى الأضواء التي ينبعثُ انعكاسها من الماء وأُصغي إلى أصوات القوارب وهي تتقدم. كانت تحمل موسيقيِّين على متنها، وأحياناً كنتُ أوقظها لكي تستمع إلى الموسيقى وهي تتقدم على طول النهر. كنتُ أستلقي هناك ويرين الهدوء وأسمعها قادمة من مكان بعيد، بعيد جداً. كأنك تخرج لصيد طائر السلوى فيهبط عليك الظلام وتسمع كبير الطيور يصفّر محاولاً أنْ يجمع أسراب الطيور معاً، وهو يقترب منك ببطء ويُصفّر برقّة لأنه يعلم أنك تكمن له في مكان ما مع بندقيتك. ومع ذلك عليه أنْ يجمعها، لذلك يواظب على المجيء. إنَّ كبار الطيور تشبه الرجل الصالح الذي عليه أنْ يؤدي واجبه.

«هكذا كانت القوارب تبدو وهي تقترب منك من بعيد. أولاً يقترب أحدها منك عندما تكاد تستغرق في النوم ويبدو كأنّه شخص يضربك ببطء بمعول كبير لامع. ترى طرفه المُدبب يقترب منك، ببطء شديد، ولا تستطيع أنْ تتفاداه؛ ولكن حالما يوشك أنْ يضربك تكتشف أنه لا وجود لأي معول بل هو شخص ما يكسر زجاجات صغيرة متعدّدة الألوان. ومع

ذلك لا يتوقّف عن الاقتراب منك. ويظل يقترب. ثم تسمعه قريباً جداً، كما لو أنك تقترب من نافذة في الطابق الثاني وتنظر إلى أسفل إلى عربة خيل مملوءة بالبطيخ الأحمر وترى إحدى ثمار البطيخ الرطيبة تنفلق واسعاً ويسيل عصيرها البارد والحلو فوق باقي الثمار الخضراء وكأنها كانت في انتظارك أنت بالذات، فترى مدى احمرارها ونُضجها ورطابتها وكل بذورها السوداء اللامعة وكل شيء. وتسمع الدواليب الجانبية تُصدر طرطشة وكأنها لا تريد أنْ توقظ أحداً؛ ونستلقي، أنا والفتاة، وكأننا من الأغنياء وأولئك الفتية على متن القوارب يعزفون أنغاماً عذبة كنبيذ براندي الخوخ الطيب. ثم تمر القوارب وترحل معها الأضواء عن النافذة وتتلاشى الأنغام الموسيقية. وكأنك تراقب فتاة بثوب أحمر وتضع قبعة واسعة من القش في أثناء مرورها على الطريق والأشجار تصطف على الجانبين، وهي ممتلئة ويانعة وأذيال ثوبها تتمايل لأنها تعلم أنك تراقبها وأنت *تعلم* أنها تعلم، وتكتفي بالوقوف هناك تراقب إلى أنْ تبتعد ولا ترى إلا قمّة قبعتها الحمراء ومن ثم تختفي هذه وتعلم أنها اختفت انحدرت خلف التل - لقد رأيتُ فتاةً مثلها ذات مرّة. كل ما كنتُ أسمع حينئذٍ هو تنفّس فتاة موبايل تلك - اسمها مارغريت - وهي إلى جواري، وربما عندئذٍ قالت، «أبي، أما زلت يقظاً؟» فأنخرُ «أه - هاه» وغلبني النعاس»- ثم قال جيم تروبلود «أيها السيدان، أنا أحبّ أنْ أتذكر الأيام التي أمضيتها في موبايل.

«هكذا كنتُ أشعر عندما قالت ماتي لو «أبي»، وأدركتُ أنها لابد تحلم بشخص ما من الأسلوب الذي نطقتها به وكدتُ أُجنّ وأنا أتساءل إنْ كان هو ذلك الفتى. أصغيتُ إليها وهي تغمغم قليلاً وحاولتُ أنْ أتبيَّن إنْ كانت تهتف باسمه، لكنها لم تفعل، وأتذكّر أنه يُقال إنَّه إذا وضعتَ يد الشخص الذي يتكلّم في نومه في مياه دافئة فسوف يُكرر ما قال، لكنَّ الماء كان شديد البرودة وعلى أية حال ما كنتُ لأفعل ذلك. لكنني أدركُ أنها أضحت امرأة الآن، عندما أشعر بها تتقلّب وتتلوى وتحفّ بي وترمي بذراعها حول عنقي، إلى حيث لا يصل الغطاء وأشعر بالبرد. ثم قالت شيئاً لم أتبيّنه، كما تفعل امرأة ترغب في مضايقة الرجل وإثارته. عندئذٍ علِمتُ أنها قد نضجت وتساءلت كم مرة حدث معها ذلك وإنْ كان مع ذلك الفتى الوضيع. أبعدتُ

ذراعها وكانت ناعمة، لكنها لم تستيقظ، فناديتها، لكنها أيضاً لم تستيقظ. ثم أدرتُ لها ظهري وحاولتُ أنْ أبتعد، على الرغم من عدم وجود حيِّز كاف وبقيتُ أشعر بها تلمسني، وتلتصق بي. ثم يبدو أنني بدأتُ أحلَم. ويجب أنْ أخبركما عن ذلك الحلم»

نظرتُ إلى السيد نورتن ونهضتُ واقفاً، معتقداً أنَّ الوقت بات مناسباً للمغادرة؛ لكنه كان مُصغياً لتروبلود باهتمام بالغ ولم يرني، فجلستُ من جديد، وأنا ألعن المزارع في سرّي. اللعنة على حلمه!

«أنا لا أتذكّره بوضوح تام، لكنني أتذكّر أنني كنتُ أبحث عن بعض اللحم المدهن. أذهب إلى القوم البيض في المدينة فيرشدونني إلى السيد برودناكس ليعطيني إياه. في الواقع، هو يُقيم فوق تل وأنا أرتقي إلى هناك، ويخيَّل إليّ أنه أعلى تل في العالم. وكلما أرتقي يبدو أنَّ منزل السيد برودناكس يرتفع أكثر. ولكن في نهاية المطاف أصل إلى هناك. وأنا من فرط التعب والقلق بحيث أعجز عن الوصول إلى الرجل. وأدخل من الباب الأمامي! أعلم أنَّ هذا سلوك خاطئ، ولكن ليس بيدي حيلة. أدخل وأقفُ في قاعة رحبة ممتلئة بالشموع المُضاءة والأثاث اللامع والصور المعلّقة على الجدران، والأرض مكسوة بشيء ناعم. لكنني لا أرى أحداً. لذلك أنادي اسمه، ولكن لا أحد يأتي ولا أتلقّى أي جواب. أرى باباً فألجه وأجدني في غرفة نوم بيضاء فسيحة، كالتي سبق أنْ رأيتها وأنا طفل صغير عندما ذهبتُ إلى المنزل الكبير مع أمي. كان كل شيء في الغرفة أبيض اللون وأنا واقف هناك عالماً أنَّ لا شأن لي هناك، لكنني موجود على أية حال. وهي غرفة خاصة بامرأة. أحاول أنْ أخرج، لكنني لا أجد الباب؛ وتكتنفني رائحة النساء من كل جانب، وتقوى باطراد. ثم أنظر إلى إحدى الزوايا فأرى إحدى الساعات الطويلة القديمة وأسمعها تدق ويُفتح الباب الزجاجي وتخرج منه سيدة بيضاء، ترتدي رداء نوم من الحرير الأبيض ولا شيء غيره، وتنظر إليّ مباشرة. لا أدري ماذا أفعل. أريد أنْ أهرب، لكنّ الباب الوحيد هو داخل الساعة التي تقف فيها – وعلى أية حال، إنني عاجز عن الحركة وهذه الساعة يزداد صخبها، ويُسرع أكثر فأكثر طوال الوقت. وأحاول أنْ أقول شيئاً، لكنني لا أستطيع. ثم تبدأ بالصراخ حتى أشعر كأنني سأُصاب بالصَمم، وعلى الرغم من أنني أرى فمها يتحرك، فإنني

لا *أسمع* شيئاً. ومع ذلك أسمع دقات الساعة وأحاول أنْ أخبرها بأنني لا أزال أبحث عن السيد برودناكس لكنها لا تسمعني. وبدل ذلك تهرع نحوي وتُطبِق على عنقي وتشد محاولة أنْ تُبعدني عن الساعة. ولا أعلم ماذا أفعل. أحاول أنْ أكلمها، وأحاول أنْ أهرب. لكنها تتمسّك بي وأشعر بالخوف يستولي عليّ إلى درجة أنني أرميها على السرير وأحاول أنْ أنفكَّ عنها. وبدا أنَّ تلك المرأة اختفت عن الأنظار، لقد كان ذلك السرير ناعماً جداً، وهو يغوص عميقاً جداً حتى أعتقد أنه سيخنقنا معاً. ثم هووب! فجأة يطير سرب من الإوز الأبيض الصغير خارجاً من السرير كما يُقال إنَّ المرء يرى إذا خرج ليستخرج مالاً مدفوناً. يا الله! وحالما يختفي أسمع باباً يُفتَح وصوت السيد برودناكس يقول: «إنهم مجرد زنوج، دعوهم يفعلونها»

قلت في نفسي، كيف يمكن أنْ يقول هذا لرجال من البيض وهو يعلم أنهم سيقولون إنَّ الزنوج كلهم يفعلون مثل هذه الأمور؟ وأنظر إلى الأرض، وتغشى عينيّ غمامة حمراء من الأسى.

«ولا أستطيع أنْ أتوقف – وكأنما انتابني شعور بأنّ في الأمر خطأ. أنفكّ عن المرأة وأركض نحو ساعة الحائط. في أول الأمر لا أتمكن من فتح الباب، لأنه مكسو بمادة متغضنة تُشبه الخشب الفولاذي. لكنني أفتحه وألجه فإذا داخله حارّ ومظلم. أمشي داخل نفق مظلم، نحو الآلة الذي تُبثّ كل تلك الضجة والحرارة. إنه أشبه بمحطة توليد الطاقة التي يمدّون بها الجامعة. إنها حرارة شديدة وكأنَّ المنزل يحترق، وأنطلقُ راكضاً أحاول أنْ أخرج. أركض وأركض حتى ينبغي أنْ ينالني التعب لكنني لا أتعب بل أشعر بارتياح مُطرد كلما ركضت أكثر، والركض ممتع كأنني أطير وأنا أطير وأنساب وأطفو عالياً فوق المدينة. لكنني لا أزال في *النفق*. ثم على مسافة أمامي أرى نوراً ساطعاً كمصباح على شكل ثمرة قرع مُضاءة فوق مقبرة. ويزداد سطوعها أكثر فأكثر وأعلم أنّه ينبغي أنْ ألحق بها وإلا. وفجأة أجدني أمامها فتنفجر كمصباح كهربائيّ كبير في عينيّ وتلسعني حرارتها في كل مكان. لكنه لم يكن لسعاً، بل كأنني أغرق في بحيرة مياهها العليا حارة وفي العمق تيارات باردة حتى الخدر. وفجأة أجتازها وأشعر بالارتياح لخروجي منها إلى ضوء النهار الممتع من جديد.

«أستيقظ وفي نيتي أنْ أحكي للعجوز عن حلمي المجنون. ويأتي الصباح، وينتشر الضياء، وهأنذا، أنظر مباشرة إلى وجه ماتي لو وهي تضربني وتخربشني وترتجف وترتعش وتبكي كل ذلك في وقت واحد وكأنما تنتابها نوبة عصبية. وأكون من فرط الدهشة حتى أعجز عن الحركة. وتصرخ «أبي، أبي، آه يا أبي» هكذا. وفي الحال أتذكّر العجوز. إنها إلى جوارنا مباشرة تغط وأعجز عن الحركة لأنه يُخيّل إليّ أنني إذا أتيت بأية حركة سأرتكب بذلك إثماً. ويُخيّل إليّ أيضاً أنني إذا لم أتحركْ فلن أرتكب أي إثم، لأنَّ الأمر وقع وأنا نائم – على الرغم من أنّه قد يحدث أحياناً أنْ ينظر الرجل إلى فتاة صغيرة ذات ضفيرة ذيل خنزير وتبدو له عاهرة – ألا يحدث هذا لنا جميعاً؟ على أية حال، أدركُ أنني إذا لم أتحركْ فسوف تراني العجوز. ولم أرغب في أنْ يحدث هذا. لأنَّ ذلك سيكون *أسوأ* من الإثم. وأهمس لماتي لو، أحاول أنْ أجعلها تهدأ وأفكر كيف أخلّص نفسي من ذلك المأزق من دون أنْ أرتكب إثماً، وأكاد أخنقها.

«ولكن حالما يوقِع الرجل نفسه في مثل ذلك المأزق الحرج يعجز عن فعل أي شيء. يفلت الأمر من يده تماماً. وهكذا كان حالي، أحاول أنْ أُفلت من ذنبي قدر استطاعتي، ومع ذلك يجب أنْ أتحركَ *من دون* أنْ أتحركَ. لقد ولجت بسرعة وبات عليّ أنْ أخرجِ. ينبغي أنْ أتحركَ من دون أنْ أتحركَ. وفكَّرت في الأمر ملياً، وعندما تفكِّر بتركيز تكتشف أنْ هذا ما يحدث معي دائماً. هكذا كانت حياتي. ليست هناك إلا طريقة واحدة أعرفها للخروج من المأزق؛ بالسكين. ولكن لم يكن في حوزتي سكين، وإذا رأيتَ تلك الخنازير الصغيرة اخصها في الخريف، وأنت تعلم أنني أعلم أنَّ هذا ثمن باهظ لتجنّب الإثم. كان كل شيء يحدث داخلي وكأنَّ قتالاً يدور. ثم أصبح مجرد التفكير في الورطة التي وقعت فيها يُعذّبني.

«ثم كأنَّ هذا ليس كافياً، فماتي لو لم تعد تستطيع أنْ تتحمل أكثر من ذلك ويجب أنْ تتحركَ. أولاً حاولت أنْ تدفعني بعيداً عنها وأنا أحاول أنْ أثبّتها في مكانها لأتجنّب ارتكاب الإثم. ثم أبتعد عنها وأطلب منها أنْ تسكت وتلزم الصمت كي لا تُوقظ أمها، عندما تتمسكُ بي بقوة. حينئذٍ لم تعد تريد مني أنْ أذهب – ولكي أقول حق الله لقد اكتشفتُ أنني أنا أيضاً لا أريد أنْ

أذهب. أعتقد أنني عندئذٍ، في ذلك الوقت – وعلى الرغم من أنني نادم منذ ذلك الحين – شعرتُ كما شعر ذلك الرجل في برمنغهام، الذي أغلق على نفسه في منزله وأخذ يُطلق النار على رجال الشرطة إلى أنْ أضرموا النار في المنزل وأحرقوه. كنتُ ضائعاً. وكلما تلوينا معاً والتففنا ليتملص كل منا من الآخر، رغبنا أكثر في البقاء حيث نحن. وهكذا كما فعل ذلك الرجل، مكثت؛ كان ينبغي أنْ أخوض القتال حتى النهاية. ربما هو مات، لكنني الآن أعتقد أنه وصل إلى الرضا التام قبل أنْ يرحل. أنا *متيقّن* من أنه لا شيء يُضاهي ما مررتُ به، ولا أستطيع أنْ أعبّر عنه. إنه أشبه بمدمن الخمر عندما يسكر، أو عندما تثور امرأة شديدة التديُّن والورع ويبلغ غضبها منتهاه حتى إنها تخرج من ملابسها، أو كالمهووس بالقمار الذي يظل يُقامر وهو يخسر. إنك تتشبث بالأمر ولا تستطيع منه فكاكاً على الرغم من رغبتك في ذلك»

قلت بصوت مخنوق «سيد نورتن، سيدي، حان وقت العودة إلى الجامعة. سوف تفوتك مواعيدك...»

لم يُزعج نفسه حتى بالنظر إليّ. قال، وهو يلوح بيده منزعجاً، «*أرجوك!*»

بدا أنَّ تروبلود يبتسم ساخراً مني من خلف عينيه وهو يُنقّل نظره بين الرجل الأبيض وبيني وتابع.

«لم أتمكن من الإفلات حتى عندما صرخت كيت. كانت صرخة من النوع الذي يجعل البرودة تسري في دمك. وكأنَّ امرأة تشاهد سرباً من الخيول الجامحة وهو يدهس طفلها وهي عاجزة عن الحركة. كان شعر كيت منتصباً كأنها رأت شبحاً، ورداؤها مفتوحاً وعروق عنقها تكاد تنفجر. وعيناها! يا إلهي، يا لعينيها. أرفع نظري إليها من مكان استلقائي على فراش القش مع ماتي لو، وأنا من فرط الوهن بحيث أعجز عن الحركة. وتصرخ وتلتقط أول غرض يصل إلى متناولها وترميه. بعض تلك الأغراض تُخطئني وبعضها يُصيبني. أغراض صغيرة وأخرى كبيرة. وأحياناً كانت تُصيبني أشياء باردة أو قوية ومؤلمة وتُبللني وترتطم برأسي. وبعضها أصاب الحائط – بووم– ألووم– ألووم!– كطلقات المدفع، وحاولت أنْ أُغطي رأسي. وكيت تقول كلاماً مبهماً، كامرأة أفلت عيارها.

«أقول «انتظري دقيقة، يا كيت. كفى!»

«ثم أسمعها تسكت لحظة وأسمعها تركض عبر أرض الغرفة، فألتفت وأنظر ويا إلهي، إنها تحمل بندقيتي ذات الماسورتين!

«وبينما هي ترغي وتزبد وتُسدد البندقية، تتكلم.

تقول «انهض! انهض!»

أقول «هيه! كلا! كيت!»

«فلتذهب روحك اللعينة إلى الجحيم! انهض وابتعد عن ابنتي!»

«ولكن يا امرأة، كيت، اسمعي...»

«لا تتكلّم، تحرّك!»

«أبعدي هذا الشيء، كيت!»

«لن أُبعده، انهض!»

«إنَّ فيه طلقة، يا امرأة، طلقة!»

«نعم، فيه طلقة!»

«أقول، أبعديه!»

«سوف أنسف روحك وأرسلها إلى الجحيم!»

«سوف تُصيبين ماتي لو!»

«ليس ماتي لو – بل أنت!»

«الطلقة تنتشر، يا كيت. ماتي لو!»

تقلّبت، ونظرت إليّ.

«لقد حذّرتك، يا جيم...»

«كيت، لقد كان حلماً. أصغي...»

«أنت الذي سيُصغي – انهض من هناك!»

تهزّ البندقية فأُغمض عينيّ. ولكن بدل أنْ أسمع هديراً وأرى ومضاً ينسفني، أسمع ماتي لو تصرخ في أذني،

«ماما! أووووو، ماما!»

«وأكاد أنقلب حينئذٍ وكيت تتردّد. تنظر إلى البندقية، ثم تنظر إلينا،

وترتعش قليلاً كأنها أُصيبت بالحمى. وفجأة تُسقِط البندقية، وفوراً! وبسرعة قطة، تستدير وتلتقط شيئاً عن المدفأة. فيُصيبني كأنَّ أحداً طعنني في جنبي برفش حادّ. وأعجز عن التنفّس. وطوال الوقت ترميني وتتكلّم.

«وعندما أرفع نظري، يا إلهي، يا إلهي! إنها تحمل مكواة بيدها!

«أصيح، «لا دماء، كيت. لا تريقي الدماء!»

«تقول «أيها الكلب الوضيع، الأفضل أنْ يُراق على أنْ يفسُد!»

«كلا، كيت. إنَّ الأمور ليست كما تبدو! لا ترتكبي إثم الدم على أساس إثم حلم!»

«اخرس، أيها الزنجي. أنت *فاسد*!»

«لكنني أرى عندئذٍ أنه لا فائدة من اللجوء إلى العقل معها. وأُقرر أنْ أتقبّل كل ما يصدر عنها. ويبدو لي أنَّ كل ما أستطيع أنْ أفعل هو أنْ أتقبّل عقابي. وأقول لنفسي، لعلَّ من الأفضل أنْ تعاني من أجل ذلك. لعلّك تُدين لكيت بعقابها لك. أنت لستَ مُذنباً، لكنها تعتقد أنك كذلك. أنت لا ترغب في أنْ تعاقبك، لكنها تعتقد أنها يجب أنْ تعاقبك. أنت تريد أنْ تنهض، لكنك شديد الوهن ولا تستطيع ذلك.

«وقد كنتُ كذلك فعلاً، كنتُ مُثبّتاً في مكاني كطفل علقت شفته في يد المضخة في فصل الشتاء. كنتُ أشبه بطائر أبو زُريق لسعته الزنابر الصفر فشُلّ – لكنَّ عينيه ما زالتا حيَّتين وتريان كيف تلسع جسمه حتى الموت.

«وكأنني أعود داخل رأسي خلف عينيّ مسافة، وكأنني أقفُ خلف واقٍ من الريح في أثناء هبوب عاصفة. وأنظرُ فأرى كيت تركضُ نحوي جارّة شيئاً خلفها. أحاول أنْ أعرف ما هو من باب الفضول فأرى رداءها يعلق بالمدفأة وتظهر يدها حاملة شيئاً. فأقول لنفسي، إنه مقبض. بمَ يتصل هذا المقبض؟ ثم أراها أمامي مباشرة، ضخمة. فتلوّح بذراعيها كمَنْ يُلوّح بمطرقة وزنها عشرة أرطال وأرى براجم يدها مخدوشة وتدمى، وأرى المطرقة تعلق بردائها وأرى رداءها يرتفع وأرى فخذيها وأرى كم جعل البرد جلدها بلون الصدأ والرماد، وأرى انحناءها واستقامتها وأسمع نخرها وأرى تمايلها وأشمّ رائحة عرقها وأعلم من شكل الخشب اللامع ما الذي تنهال به عليّ. يا

إلهي، نعم! أراها هذه المرة تقبض على اللحاف وترفعه عالياً وتُسقِطه على الأرض. ثم أرى ذلك الفأس يسقط سقوطاً حراً! إنه يلمع، يلمع من الحافة التي كنتُ قد شحذتها قبل بضعة أيام، ويا إلهي، في أعماق نفسي، ومن خلف واقي الريح ذاك، أقول،

«كلا! كيت – يا إلهي، كيت، كلا!!!»

فجأة أصبح صوته عالي النبرة حتى إنني رفعتُ نظري مُجفلاً. بدا بروبلود كأنه ينفذ بنظره مباشرة خلال السيد نورتن، وعيناه كالزجاج. توقف الأطفال عن اللعب كأنهم يشعرون بالذنب، ونظروا إلى أبيهم.

تابع قائلاً «ولعلي كنتُ أنا أيضاً أنزف بفعل أداة تحويل أراها تنزل عليّ. أرى الضوء ينعكس عليها، وأرى وجه كيت مفعماً بالخسّة فأشدّ كتفيّ وأرفع عنقي وأنتظر – كأنني انتظرتُ عشرة ملايين عامٍ تكسر الظهر. ويطول انتظاري حتى إنني أتذكّر كل الأخطاء التي ارتكبتها؛ يطول انتظاري وأفتح عينيّ وأُغمضهما وأفتحهما من جديد، وأراه يسقط. يسقط بسرعة كسقوط كتل الروث من ثور طوله ستة أقدام، وفي أثناء انتظاري أشعر بشيء يجيش داخلي ويتحول إلى ماء. أراه، يا إلهي، نعم! أراه وأشيح برأسي جانباً. لا حيلة لي في ذلك؛ لقد سدّدت كيت جيداً، في هذا الشيء فقط. أتحرك. على الرغم من نيتي أنْ ألزم السكون، أتحرك! ما كان يمكن إلا ليسوع المسيح وحده أنْ يتحرك. وأشعر كأنَّ كامل جانب وجهي قد سُحِقَ تماماً. يضربني كرصاص شديد الحرارة إلى درجة أنه بدل أنْ يحرقني يُخدّرني. إنني مستلقٍ هناك على الأرض، ولكن في داخلي أركض ضمن دوائر ككلب مكسور الظهر، وأعود إلى ذلك الخَدَر وذيلي يتدلى بين ساقيّ. أشعر كأنَّ وجهي قد سُلخ عنه الجلد، ولم يتبقَّ عليه غير العِظام العارية. ولكن هذا هو الجزء الذي لا أفهمه: إنني وسط الألم والخَدَر أشعر بالارتياح. نعم، ولكي أستزيد من هذا الشعور بالارتياح أبدو أنني أركض خارجاً من خلف واقي الريح من جديد وأرتفع إلى حيث تقفُ كيت حاملة الفأس، وأفتح عينيّ وأنتظر. هذه هي الحقيقة. إنني أرغبُ في المزيد وأنتظر. وأراها تُطيح به، وهي تنظر إليّ. وأرى الفأس في الهواء وأحبس أنفاسي، ثم فجأة أراه يتوقف وكأنَّ أحداً اخترقَ السقف وأوقفه، وأرى وجهها يتشنج وأرى الفأس تقع، هذه المرة

خلفها، وتضرب الأرض، وتلفظ كيت بعض القيء وأُغمض عينيّ وأنتظر. أسمعها تئنّ وتتعثّر وهي تخرج من الباب وتسقط من الرواق المسقوف إلى الفناء. ثم أسمعها تتقيّأ كأنها تلفظ أحشاءها كلها. ثم أنظر إلى أسفل وأرى دماً يلوّث ماتي لو كلها. إنه دمي، ووجهي ينزف. وهذا يجعلني أتحرك. أنهض وأتعثّر خارجاً إلى كيت، وأراها تحت شجرة الحور القطني هناك، راكعة على رُكبتيها، وتئنّ.

«ماذا جنيت، يا ربي! ماذا جنيت!»

«كانت تريِّل مادة خضراء وتتقيّأ من جديد، وعندما أقترب لألمسها يزداد الأمر سوءاً. أقفُ هناك ممسكاً بوجهي في محاولة لأمنع تدفق الدم وأتساءل ما الذي يحدث بحق الله. أرفع بصري إلى شمس الصباح وبصورة ما أتوقع أنْ تقصف كالرعد. لكنها مُشرقة والجو صاف وقرص الشمس يرتفع والعصافير تسقسق وأزداد خوفاً كما لو أنَّ صاعقة ضربتني. وأصرخ «ارحمني، يا رب! يا رب، ارحمني!» وأنتظر. ولا يحدث شيء سوى إشراق شمس الصباح الصافي.

«ولكن لا يحدث شيء وأعلم عندئذٍ أنَّ أمراً أسوأ من أي شيء سمعت عنه ينتظرني. ويبدو أنني وقفتُ هناك ساكناً تماماً مدة نصف ساعة. كنتُ واقفاً هناك عندما نهضتْ كيت عن رُكبتيها وعادت إلى داخل المنزل. كان الدم قد لوثّ ملابسي كلها وكان الذباب يُلاحقني، ورجعتُ إلى الداخل لأحاول أنْ أوقف نزيفه.

«عندما رأيتُ ماتي لو متمددة هناك حسبتُ أنها ميتة. فوجهها شاحب ولا تكاد تتنفس، كوجوه الموتى. حاولتُ أنْ أساعدها لكنني لم أتمكن ورفضت كيت أنْ تكلّمني أو حتى أنْ تنظر إليّ؛ وأقول في نفسي لعلها تُخطط من جديد لقتلي، لكنها لا تفعل. وأشعر بدوار شديد وأكتفي بالجلوس هناك وهي تدثّر الصغار وتأخذهم عبر الشارع إلى ويل نيكولز. وأنظر ولا أستطيع أنْ أفعل شيئاً.

«عندما تعود مع امرأة أخرى لتتفحص ماتي لو أكون لا أزال جالساً هناك. ويرفض الجميع أنْ يكلموني على الرغم من أنهم ينظرون إليّ كأنني نوع

جديد من آلات جمع القطن. وأنزعج. أخبرهم كيف أنَّ الأمر وقع في الحلم، لكنهم يوبخونني. عندئذٍ أغادر المنزل مباشرة. وأذهب لأقابل الواعظ وحتى هو لا يُصدقني. ويطردني، ويقول إنني أكثر مَنْ عرف من الناس شراً وإنه يُستحسن أنْ أذهب وأعترف بإثمي وأُحقِّق سلامي مع الرب. أغادر وأحاول أنْ أصلّي، لكنني لا أستطيع. وأفكّر وأُفكّر، إلى أنْ أشعر كأنَّ رأسي يكاد ينفجر، ولكن كيف أنا مُذنب ولستُ مذنباً. وأتوقف عن الأكل والشرب ويُجافيني النوم ليلاً. وأخيراً، ذات ليلة، في الصباح الباكر جداً، أرفع نظري إلى السماء فأرى النجوم وأبدأ بالغناء. لم أكن أنوي ذلك، لم يخطر في بالي، فقط باشرت بالغناء. لا أعلم ما نوعه، أشبه بالترتيل الكنسي، أعتقد. كل ما أعرف هو أنه انتهى بي الأمر إلى غناء البلوز، أغنّي بعض ألحان البلوز في تلك الليلة لم أغنّها من قبل، وبينما كنتُ أغنّي البلوز أُقرر أنه لم يعد لدي إلا نفسي وأنَّ كل ما في استطاعتي أنْ أفعل هو أنْ أدع الأمور تأخذ مجراها. أُقرر أنْ أعود إلى المنزل وأواجه كيت؛ نعم، وأواجه ماتي لو، أيضاً.

«عندما أصل إلى هناك يعتقد الجميع أنني فررت. هناك عدد كبير من النساء مع كيت فأطردهن. وبعد أنْ أطردهن أطلب من الأطفال أنْ يخرجوا ليلعبوا وأوصد الباب وأُخبر كيت وماتي لو عن الحلم وأعبر عن أسفي، لكنَّ ما حدث قد حدث.

«أول ما تقول كيت لي، «لماذا لم ترحل وتدعنا وشأننا؟ ألا يكفي ما سبّبته لي ولهذه الطفلة؟»

«أقول «لن أتركك. أنا رجل والرجل لا يترك عائلته»

«تقول «كلا، أنت لست برجل. لا رجل يفعل ما فعلت»

«أقول «أنا لا أزال رجلاً»

«تقول كيت «وماذا عما فعلت بعد ما حدث؟»

«أقول «*ما الذي* حدث بعد ذلك؟»

«عندما تنجبون أيها السود البغيضون لكي تمارسوا إثمكم الخبيث أمام عينيّ الرب!» (لابد أنها تعلّمت تلك الكلمات من الواعظ)

«أقول «ننجب؟ *مَنْ* الذي يُنجب؟»

«نحن الاثنين. أنا أُنجب وماتي لو تُنجب. كلانا ننجب، أيها الكلب القذر السافل الشرير!»

«هذا الكلام قتلني. وفهمت عندئذٍ لِمَ لم تنظر ماتي لو إليّ ورفضتْ أنْ تكلّم أحداً.

«تقول كيت «إذا مكثتَ فسوف أذهب وأُحضِر العمة كلوي من أجلنا نحن الاثنتين»، وتقول «لا أنوي أنْ أُنجب في الحرام لكي يتفرّج علينا الناس حتى آخر حياتنا، ولا أريد أنْ يحصل هذا لماتي لو»

«والعمة كلوي هي الداية، وقد أثّر عليها هذا الخبر مثلي وأعلم أنني لا أريد منها أنْ تعبث بنسائي. كان ذلك سيضيف إثماً على إثمي. فقلت لكيت، إذا اقتربت العمة كلوي من هذا المنزل فسوف أقتلها، تلك العجوز. وسوف أفعل. هذا آخر الكلام. وأخرج من المنزل وأتركهما وحدهما تبكيان. أردتُ أنْ أنفرد بنفسي من جديد، ولكن لا فائدة من محاولة الهرب من أمرٍ كهذا. إنه يتبعك أينما توجهت. ثم، إذا أردنا الحقيقة، لم يكن هناك مكان ألجأ إليه. ولم تكن لدي رغبة في البكاء!

«ووقعتْ أحداث على الفور. فالزنوج في الجامعة هبطوا ولاحقوني فثار جنوني. وذهبت لأقابل القوم البيض وقدّموا لي المساعدة. هذا ما لا أفهمه. لقد فعلتُ أسوأ ما يمكن أنْ يصدر عن رجل في عائلته وبدل أنْ يطاردوني ويُخرجوني من المقاطعة، أمدُّوني بمساعدة لم يقدِّمها لي أي رجل أسود، مهما كان طيباً. لكنَّ زوجتي وابنتي رفضتا أنْ تكلماني. إنني أفضلُ حالاً بكثير من أي وقت مضى. وعلى الرغم من رفض كيت أنْ تكلّمني فإنها أخذت الملابس الجديدة التي جلبتها لها من المدينة وأصبحت الآن تضع نظارات لطالما تاقت إليها. ولكن ما لم أفهمه كيف قمتُ بأسوأ ما يمكن أنْ يصدر عن رجل في حق عائلته وبدل أنْ تسوء الأمور، تحسّنت. إنَّ زنوج الجامعة لا يُحبونني، لكنَّ البيض يُعاملونني أحسن معاملة»

يا له من مزارع. بينما أصغي إليه كنتُ موزّعاً بين المذلّة والافتتان بحيث إنني، ولكي أُخفف من إحساسي بالعار، ركّزت انتباهي على وجهه المتوتر.

وبتلك الطريقة لم أُضطر إلى النظر إلى السيد نورتن. أما الآن بعد أنْ سكت الصوت جلست أنظر نحو أسفل إلى قدميّ السيد نورتن. وفي الفناء الخارجي كان صوت نسائي خشن يرنّم ترتيلة. وارتفعت أصوات أطفال في حديث مرح. جلستُ منحنياً، أشمّ ذلك العبق الجاف والحادّ للخشب الذي يتلظّى بأشعة الشمس الحارة. حدّقتُ إلى الحذاء المائل أمامي. كان حذاء السيد نورتن أبيض اللون، مع حافة سوداء. كان مصنوعاً حسب الطلب وكان يبدو بجوار حذاء المزارع الغليظ والمحروق بالشمس أشبه بقفاز جميل نحيل بصورة أنيقة وراقية. وأخيراً تنحنح أحدهم فرفعت نظري لأرى السيد نورتن يُحدق بصمت إلى عينيّ جيم تروبلود. أجفلت. كان وجهه خالياً تماماً من أي لون. وعيناه البراقتان تحدِّقان بغضب إلى وجه تروبلود الأسود، وبدا مُخيفاً. ونظر تروبلود إليّ مُستفهماً.

قال مُحرَجاً «أصغ إلى الأطفال، إنهم يغنون «جسر لندن ينهار»»

كان ثمة أمرٌ يجري لم أدركه. كان عليّ أنْ أُبعِد السيد نورتن.

سألتُ «هل أنت بخير، سيدي؟»

نظر إليّ بعينين مُضطربتين. قال «بخير؟»

«نعم، سيدي. أعني أنَّ الوقت قد حان لجلسة بعد الظهيرة»، وهرعت نحوه.

سدّد إليّ نظرة خالية من التعبير.

اقتربت منه. «أأنت واثق من أنك بخير، سيدي؟»

قال تروبلود «لعله الحرّ؟ يجب أنْ تولدَ هنا لتعرف معنى الحرّ الحقيقي»

قال السيد نورتن «لعله الحر. يُستحسن أنْ نذهب»

كان واقفاً بغير ثبات، ولا يزال يُحدق بإمعان بتروبلود. ثم رأيتُه يُخرِج محفظة حمراء من الجلد المراكشي من جيب معطفه. وخرجت معها الصورة المُصغّرة ذات إطار البلاتين، ولكن هذه المرة لم ينظر إليها.

قال، وهو يمد يده بقطعة ورق نقدية، «خذ، خذ هذه من فضلك واشتر للأطفال بعض الدمى بالنيابة عني»

فغر تروبلود فمه، وجحظت عيناه وترقرقت بالدموع وهو يتناول الورقة النقدية بأصابع مرتعشة. كانت ورقة بقيمة مئة دولار.

قال السيد نورتن، همساً «أنا جاهز، أيها الشاب»

تقدّمته إلى السيارة وفتحت الباب. تعثّر قليلاً وهو يستقلها ومددتُ له ذراعي. كان الشحوب لا يزال يعلو وجهه.

قال بنوبة مفاجئة «ابتعد بي عن هذا المكان، بعيداً!»

«حاضر، سيدي»

رأيتُ جيم تروبلود يلوح بيده وأنا أنطلق بالسيارة. قلت في نفسي «يا ابن الحرام. يا ابن الحرام السافل! *أنت* تحصل على مئة دولار!»

عندما أدرتُ اتجاه السيارة ورجعت بها رأيته لا يزال واقفاً في المكان نفسه.

فجأة لمس السيد نورتن كتفي. «يجب أنْ أتناول مشروباً منشّطاً، أيها الشاب؛ قليلاً من الويسكي»

«حاضر، سيدي. هل أنت بخير، سيدي؟»

«أشعر بقليل من الضعف، لكنَّ المُنشط...»

تلاشى صوته. شعرت ببرودة تتشكّل في صدري. إذا وقع له أي مكروه فسوف يُحمّلني الدكتور بليدسو المسؤولية. زدتُ سرعة السيارة، متسائلاً من أين أحصل له على بعض الويسكي. ليس في المدينة، فذلك سوف يستغرق وقتاً طويلاً جداً. ليس هناك إلا مكان واحد، مقهى غولدن داي.

قلت «سوف أحصل لك على بعضه بعد بضع دقائق، سيدي»

قال «بأسرع ما تستطيع»

-3-

رأيتهم مع اقترابنا من الفسحة القصيرة الممتدة بين قضبان سكة الحديد وحانة غولدن داي. في أول الأمر لم أميّزهم. كانوا يترنحون على الطريق السريعة بمجموعة متراخية، سادّين الطريق من الخط الأبيض وحتى الأعشاب البرية المنهكة التي تحفّ بامتداد الإسفلت الحارّ بأشعة الشمس. لعنتهم بصمت. كانوا يسدون الطريق وكان السيد نورتن يشهق طلباً للتنفُّس. وأمام المنحنى المُشعّ اللامع بدوا أشبه بصفّ من السجناء المُوثقين بسلاسل في طريقهم لشق طريق. لكن تلك السلسلة كانت تسير بصف واحد ولا أرى حراساً يمتطون جياداً. ومع اقترابي بدأت أميِّز القمصان الرمادية المحلولة والبناطيل التي يرتديها المحاربون القُدامى. اللعنة! إنهم متجهون إلى غولدن داي.

سمعت من خلفي «قليلاً من المُنشّط»

«دقائق قليلة، سيدي»

أمامنا أرى الشخص الذي يعتقد أنه قارع الطبل الأول يخبّ في المقدمة، يُعطي الأوامر متقدِّماً بحيوية بخطوات واسعة متمايلة، وعصاه التي يرفعها فوق رأسه، ترتفع وتنخفض كأنما على إيقاع الموسيقى. أُبطئ تقدّم السيارة عندما أراه يلتفت ليواجه الرجال، ويرفع العصا إلى مستوى الصدر وهو يُقصِّر من اتساع خطواته. ويستمر الرجال في تجاهله، ويسيرون كتلة واحدة، بعضهم يتبادلون الحديث ضمن مجموعات وآخرون يُكلمون أنفسهم ويومئون بأيديهم.

فجأة، يُشاهد قارع الطبل الأول السيارة فيهزّ عصاه في وجهي. أُطلق

النفير، لدى رؤية الرجال يأخذون جانب الطريق وأتقدَّم بالسيارة ببطء. يتوقف في مكانه، بساقين متشابكتين، ويداه على وركيه، ولكي أتفادى صدمه أضغط على الفرامل.

يندفع قارع الطبل الأول متجاوزاً الرجال نحو السيارة، وأسمع العصا تضرب غطاء السيارة بقوة وهو يتقدّم مني.

«مَن تظن نفسك بحق الجحيم باقتحامك الجيش؟ أعطني كلمة السر. مَن قائد هذه الكتيبة؟ انتم معشر سائقي الشاحنات دائماً أضخم من بنطلوناتكم. أعطني كلمة السر!»

قلت، متذكراً أنني سمعت أنه استجاب لاسم قائده في زمن الحرب. «هذه سيارة الجنرال برشينغ، سيدي». وفجأة تغيّرت النظرة الضارية في عينيه وخطا إلى الخلف وقدَّمَ التحية بدقّة صارمة. ثم، بعد أنْ ألقى نظرة مرتابة على المقعد الخلفي، عوى،

«أين الجنرال؟»

قلت، ملتفتاً لأرى السيد نورتن يرفع هامته عن المقعد، واهناً وشاحبَ الوجه، «ها هو»

«ما الأمر؟ لماذا توقفنا؟»

«الرقيب أوقفنا، سيدي...»

«رقيب؟ أي رقيب؟» واعتدل في جلسته.

قال العسكري المُحنّك، مُقدّماً التحية، «أهذا أنت، جنرال؟ لم أكن أعلم أنك تقوم بتفقّد الخطوط الأمامية هذا اليوم. أنا شديد الأسف، سيدي»

قال السيد نورتن «ماذا...؟»

أسرعتُ بالقول «إنَّ الجنرال في عجلة من أمره»

قال الجندي العتيق «طبعاً. أمامه الكثير ليتفقده. إنَّ الانضباط ضعيف. والمدفعية تُطلق بلا تمييز». ثم هتف للرجال السائرين على طول الطريق، «ابتعدوا عن طريق الجنرال. جنرال برشينغ يشق طريقه. أفسحوا الطريق للجنرال برشينغ!»

تنحّى جانباً وانطلقتُ بالسيارة عبر الخط لكي أتفادى الرجال وبقيت كذلك على الجانب الخطأ وأنا أتوجه إلى غولدن داي.

شهق السيد نورتن من المقعد الخلفي. «مَنْ كان ذلك الرجل؟»

«جندي سابق، سيدي. مقاتل قديم. كلهم من قُدامى المقاتلين، مُصابون باضطراب عقلي»

«ولكن أين مُرافقهم؟»

«لا أرى أحداً، سيدي. على أية حال هم ليسوا مؤذين»

«ومع ذلك، يجب أنْ يكون معهم مُرافق»

كان ينبغي أنْ أوصله إلى هناك وأبتعد به قبل أنْ يصلوا. لقد كان ذلك هو يومهم المُقرَّر لزيارة الفتيات، وسوف يعم الضجيج غولدن داي. وتساءلت أين بقيَّتهم. كان ينبغي أنْ يبلغ عددهم حوالي الخمسين. حسن، سوف أسرع بالدخول وأحصل على الويسكي وأغادر. ولكن ماذا ألَمَّ بالسيد نورتن، لماذا انزعج *إلى تلك الدرجة* بسبب تروبْلود؟ لقد شعرت بالخجل ورغبت أكثر من مرة في الضحك، لكنَّ الأمر أثار اشمئزازه. لعله في حاجة إلى طبيب. لا يهمني، هو لم يطلب طبيباً. اللعنة على ابن الحرام تروبلود.

قلت في نفسي، سوف أهرع إلى الداخل، وأحصل على مقدار إبريق، وأخرج من جديد. وبذلك لن يرى ما يجري في غولدن داي. أنا نفسي لم أكن قد ذهبتُ إلى هناك إلا نادراً مع بعض الرفاق عندما شاع أنَّ بعض الفتيات قد وصلن من نيو أورلينز. وكانت الجامعة قد حاولت أنْ تجعل من غولدن داي مكاناً محترماً، ولكن يبدو أنَّ البيض المحليين قد تدخلوا بصورة ما وفشل الأمر. وأقصى ما استطاعت الجامعة أنْ تفعل هو أنْ تزعج كل طالب يُضبط ذاهباً إلى هناك.

عندما غادرت السيارة وهرعتُ إلى غولدن داي كان مستلقياً كالنائم. أردتُ أنْ أطلب منه نقوداً ولكن قرّرت أنْ أستخدم نقودي الخاصة. توقفتُ عند الباب؛ كان المكان ممتلئاً أصلاً، مزدحماً بقدامى المقاتلين ذوي القمصان الرمادية المحلولة والبناطيل وبنساء بمآزر قطنية مُخططة ومُنشّاة متيبسة، قصيرة وضيقة. كانت رائحة البيرة البائتة تضرب كالهراوة من خلال

ضجيج الأصوات وصندوق الموسيقى. وحالما ولجتُ من الباب قبض رجل ذو وجه خال من التعبير على ذراعي ونظر مباشرة في عينيّ.

قال، وهو يخترقني بنظره، «سوف تقع في الخامسة والنصف»

«ماذا؟»

«الهدنة التامة، والشاملة، نهاية العالم!»

قبل أنْ أتمكن من الإجابة، ابتسمت لي امرأة ضئيلة وممتلئة وأبعدَتْه.

قالت «إنه دورك، يا دوك. لا تدعه يحدث إلا بعد أنْ نرتقي أنا وأنت إلى الطابق العلوي. لماذا يحدث دائماً أنْني أُضطر إلى أخذك؟»

قال «كلا، هذا صحيح. لقد أرسلوا إليّ برقية من باريس هذا الصباح»

«إذن، يا عزيزي، يُستحسن أنْ نسرع أنا وأنت. يجب أنْ أحصّل الكثير من النقود هنا قبل أنْ يحدث ذلك الشيء. اضبط نفسك قليلاً، ألا تستطيع؟»

غمزت لي بعينها وجرّته خلال الحشد نحو الدرَج. وشققتُ طريقي بعصبية نحو البار.

أغلب الرجال كانوا أطباء، ومُحامين، ومعلمين، وعمالاً في المؤسسات الرسمية؛ كان هناك عدد من الطُهاة، وواعظ، ورجل سياسة، وفنان. وأحد المُصابين بالجنون كان طبيباً نفسياً. وكلما رأيتهم أشعر بالاضطراب. كان من المفترض أنهم أعضاء في مهنٍ صبوتُ بصورة مبهمة مراتٍ عدة إلى الالتحاق بها، وعلى الرغم من أنه بدا أنهم لا يرونني لم أُصدق أنهم حقاً مرضى. وأحياناً كان يبدو كأنهم يلعبون معي ومع باقي أعضاء الجامعة لعبة شاملة ومعقّدة، لعبةً الهدفُ منها الضحك ولا أستطيع أنْ ألمَّ بقواعدها وتفاصيلها الدقيقة.

وقف رجلان أمامي مباشرة، أحدهما يتكلّم بجديّة صارمة، «... ويضرب جونسون جيفريز بزاوية خمس وأربعين درجة من قواطعه الجانبية اليسارية السفلى، مُسبّباً السدّ الفوري لكامل المهاد البصري، مُجمّداً إياه كوحدة التجميد من الثلاجة، مُحطماً بذلك جهازه العصبي المُستقل وهازّاً فطيرة الكريما الكبيرة المبنية بالآجر باهتزازات عضلية شديدة التشنج صرعته على

الحافة القصوى لعصعصه، الذي، بدوره، سبّب له جرحاً حاداً في عصبه العاصر وعضلاته، ومن ثم، يا زميلي العزيز، أنهضوه، ورشّوه بالجير الحيّ وحملوه على عربة جرّ. وطبعاً، لم تكن هناك أية وسيلة علاج أخرى ممكنة»

قلت، وأنا أتجاوزه، «عن إذنك»

كان بيغ هالي يقف خلف البار، بشرته شديدة السُمرة تبدو من خلال قميصه المُبلل بالعرق.

«بمَ تأمر، أيها الطالب؟»

«أريد مقدار كأس مزدوجة من الويسكي، يا هالي. ضعه في وعاء عميق لكي أخرج به من هنا من دون أنْ أريقه. إنه من أجل شخص موجود في الخارج»

قال بحنق «اللعنة!»

سألته، مندهشاً للغضب المنبعث من عينيه الدرقيتين، «لماذا؟»

«أنت ما زلت تدرس، أليس كذلك؟»

«طبعاً»

«حسن، إنَّ أولاد الحرام أولئك يحاولون من جديد أنْ يُغلقوا محلي، هذا هو السبب. تستطيع أنْ تشرب هنا حتى يزرقّ وجهك، لكنني لن أبيعك أي شيء تأخذه معك إلى الخارج»

«ولكن لديّ رجلاً مريضاً في السيارة»

«أية سيارة؟ ليست لديك سيارة»

«سيارة الرجل الأبيض. إنني أعمل سائقاً عنده»

«ألست ملتحقاً بالجامعة؟»

«هو من *طاقم* الجامعة»

«حسن، مَنْ المريض؟»

«هو»

«وهو يأنف من الدخول إلى هنا؟ قُل له نحن لا نمارس التمييز العنصري»

«لكنه مريض»

«يستطيع أنْ يموت!»

«إنه شخصية مهمة، يا هالي، قيِّم. إنه ثريّ ومريض وإذا وقع له أي مكروه، فسوف يطردونني»

«لا حيلة لي، أيها الطالب. أحضره إلى الداخل ويستطيع أنْ يبتاع ما يكفي ليسبح فيه. يستطيع أنْ يشرب من زجاجتي الخاصة»

أزال الغطاء عن عبوتين من البيرة بأداة عاجيّة ومرّرهما عبر البار. شعرت باشمئزاز داخلي. لن يقبل السيد نورتن بالدخول إلى هنا. إنه مريض. ثم إنني لا أريد له أنْ يرى المرضى والفتيات. كان الضجيج يزداد عندما شققتُ طريقي إلى الخارج. الحمولة الممتازة، المرافق ذو البذلة البيضاء الذي في المعتاد يُبقي الرجال هادئين اختفى. لم أفهم، ذلك أنه عندما ارتقى إلى الطابق العُلوي لم يكن لديهم أي نزلاء. شققت طريقي إلى الخارج والسيارة. ماذا أقول للسيد نورتن؟ عندما فتحت الباب كان مستلقياً بسكون.

«سيدي، السيد نورتن. إنهم يرفضون أنْ يبيعوني ويسكي لكي أُخرجها إلى هنا». كان شديد السكون.

«سيد نورتن»

كان أشبه بشكل من الطباشير. هززته برفق، شاعراً بالرعب يتسلل إليّ. لم يكن يتنفّس. هززته بعنف، عندما رأيتُ رأسه يميل بصورة غريبة. انفرجت شفتاه، مزرقّتان، وكشفتا عن صف طويل، رقيق، من الأسنان الشبيهة بصورة مذهلة بأسنان حيوان.

«سيدي!»

في نوبة من الذعر هرعت عائداً إلى غولدن داي، مندفعاً خلال الضجيج وكأنه جدار غير مرئيّ.

«هالي! ساعدني، إنه يحتضر!»

حاولتُ أنْ أنفذ ولكن لم يبدُ أنَّ أحداً سمعني. كنتُ مُحتجزاً من كل جانب. كانوا متراصّين.

«هالي!»

التفت مريضان ونظرا إليّ مباشرة، كانت عيونهما قريبة من وجهي.

قال الطويل «ما خطب هذا السيد، يا سيلفستر؟»

قلت «يوجد رجل يحتضر في الخارج!»

قال الآخر «هناك دائماً شخص يحتضر»

«نعم، وأمرٌ جيد أنْ يموت المرء تحت قبّة سماء الله الشاسعة»

«يجب أنْ يحصل على بعض الويسكي!»

قال أحدهما «أوه، هذا أمر مختلف»، وبدآ يشقان طريقاً إلى البار. «كأساً أخيرة برّاقة للقضاء على الحزن. ابعدوا من فضلكم!»

قال هالي «أراكَ عُدت سريعاً، أيها الطالب؟»

«أعطني بعض الويسكي. إنه يموت!»

«لقد قلت لك، أيها الطالب، يجب أنْ تُحضره إلى هنا. يستطيع أنْ يموت، ولكن لديّ فواتير ينبغي تسديدها»

«أرجوك، سوف أذهب إلى السجن»

قال «بل ستذهب إلى الجامعة، فكّر في هذا»

قال ذاك المُسمّى سيلفستر «يُستحسن أنْ تجلب السيد إلى الداخل. تعال، دعنا نساعدك»

صارعنا في طريق العودة بين الحشد. كان لا يزال كما تركته»

«انظر، يا سيلفستر، إنه توماس جيفرسون!»

«كنتُ سأقول هذا، لطالما رغبتُ في إجراء حديث معه»

نظرتُ إليهما معقود اللسان؛ لقد كان الاثنان مجنونين. أم هل كانا يمزحان؟

قلت «ساعدني»

«بكل سرور»

هززته. «سيد نورتن!»

قال أحدهما بحكمة «يُستحسن أنْ نُسرع إذا أراد أنْ يستمتع بمشروبه»

رفعناه. أخذ يترنح بيننا ككيس من الملابس القديمة.

«أسرع!»

بينما نحن نحمله نحو حانة غولدن داي توقف أحد الرجلين فجأة فتدلى رأس السيد نورتن إلى الأسفل، وأخذ شعره الأبيض يكنس التراب.

«أيها السادة، هذا الرجل هو جدّي!»

«لكنه أبيض، واسمه نورتن»

قال الطويل «أنا أعرف جدّي! إنه توماس جيفرسون وأنا حفيده – من فرعه *الزنجي*»

قال، مُحدقاً إلى السيد نورتن، «سيلفستر، أنا أصدق أنكَ على حق. أصدقك حقاً. انظر إلى هذه التقاطيع. إنها تشبه بالضبط تقاطيع وجهك – كأنهما صُبّا في قالب واحد. هل أنت واثق من أنه لم يجلبك إلى العالم وأنت بكامل ملابسك؟»

قال الرجل برصانة «كلا، كلا، ذاك كان والدي»

وأخذ يلعن أباه بعنف ونحن نتقدم من الباب. كان هالي في انتظارنا هناك، وقد توصل بطريقة ما إلى تخفيف ضجيج الحشد وإفساح مكان في مركز الصالة. واقترب الرجال لينظروا إلى السيد نورتن.

«ليُحضر أحدكم كرسياً»

«نعم، دعو مستر إيدي يجلس»

قال أحدهم «هذا ليس مستر إيدي، يا رجل، هذا جون د. روكفلر»

«هذا كرسي للمسيح»

أصدر هالي أمره «ابتعدوا جميعاً. أفسحوا له مجالاً»

اندفع برنسايد، الذي كان يعمل طبيباً، إلى الأمام وقام بفحص نبض السيد نورتن.

«إنه سليم! هذا الرجل نبضه *سليم*! وبدل أنْ ينبض، *يتذبذب*. وهذا أمر خارق. جداً»

قام أحدهم بإبعاده. وظهر هالي مع زجاجة وكأس. «هيا، فليقُم أحدكم بإمالة رأسه إلى الخلف»

وقبل أنْ أتمكن من الإتيان بأية حركة ظهر رجل قصير القامة، تملأه نُدب الجدري، وأمسك برأس السيد نورتن بين يديه، وأماله على طول ذراعه ومن

ثم، نقر بلطف ذقنه كما يفعل حلاق عندما يريد أنْ يحلق ذقنه بالموسى، وقام بحركة سريعة، حادة.

«باو!»

اهتزّ رأس السيد نورتن كجراب ملاكمة تلقّى لكمة. تفجّرت خمسة خطوط حمراء فاتحة اللون على الوجنة البيضاء، متوهجة كالنار، من تحت حجرٍ شفّاف. كدتُ لا أُصدق عينيّ. وددتُ لو أركض. وضحكت امرأة ضحكاً مكبوتاً. ورأيتُ عدداً من الرجال يهرعون نحو الباب.

«كفى، أيها الأحمق الملعون!»

قال ذو ندب الجدري بهدوء «إنها حالة هستيريا»

قال هالي «ابتعد عن الطريق. فليُحضر أحدكم ذلك المرافق الجاسوس من الطابق العُلوي. أحضروه إلى الأسفل هنا، بسرعة!»

همس أحدهم في أذني بصوت خالٍ من التعبير «أرأيت، لقد أخبرتك أنه سيظهر في الخامسة والنصف. وها قد وصل الخالق». كان الرجل ذا الوجه الصارم.

رأيتُ هالي يُميل الزجاجة والبراندي ذو القوام الزيتي يُراقُ في الكأس. ثم أملتُ رأس السيد نورتن إلى الخلف، ووضعت الكأس على شفتيه وصببت. سال خيط رفيع أسمر اللون من زاوية فمه إلى الذقن الرقيق. وفجأة ران السكون على المكان. وشعرتُ بحركة خفيفة على يدي، كصدر طفل عندما يجهش في نهاية نوبة من البكاء. خفق جفنا العينين بعروقهما الرفيعة. سعل. ورأيتُ دفقاً بطيئاً من التورُّد يزحف، ثم ينبجس على عنقه، منتشراً عبر صفحة وجهه.

«ضعه تحت أنفه، أيها الطالب. دعه يشمّه»

حرّكتُ الكأس تحت أنف السيد نورتن. فتح عينيه الزرقاوين الشاحبتين. بدتا الآن واهنتين وسط الدفق الأحمر الذي غسل وجهه. حاول أنْ يعتدل في جلسته، ويده اليُمنى ترفرف نحو ذقنه. اتّسعت عيناه، وهما تنتقلان من وجه إلى آخر. ثم وصلت العينان الرطبتان الثاقبتان إلى وجهي فثبتتا وتعرّفتا عليّ.

قلت «كنتَ غائباً عن الوعي، سيدي»

قال بإرهاق «أين أنا، أيها االشاب؟»

«هذا غولدن داي، سيدي»

«ماذا؟»

أضفتُ على مضض «غولدن داي. نوع من محل للهو والمقامرة»

قال هالي «أعطه الآن جرعة أخرى من البراندي». صببت مقدار جرعة وناولته إياها. شمّها، وأغمض عينيه وكأنه في حيرة، ثم شرب؛ انتفخت وجنتاه كوسادتين صغيرتين؛ كان يشطف فمه.

قال، وقد أضحى أكثر تماسكاً بقليل، «شكراً لك. ما هذا المكان؟»

قال عدد من المرضى دفعة واحدة «الغولدن داي»

تلفّت حوله ببطء، حتى وصل إلى الشرفة، بما عليها من حفر على الخشب وكتابات منقوشة. وكان هناك علمٌ مُعلَّق متراخ فوق الأرضية. تجهّم.

قال «ماذا كان هذا المبنى يُستخدَم في الماضي؟»

شرح هالي قائلاً «كان كنيسة، ثم مصرفاً، ثم مطعماً ومحلاً رائعاً للمقامرة، والآن أصبح *ملكنا*. أعتقد أنَّ أحدهم قال إنه استُخدِمَ أيضاً كسجن»

وقمتِ أنا بالشرح وأنا خائف «لم أستطع أنْ أشتري مشروباً وأحضره إليك في الخارج، سيدي، لذلك اضطررتُ إلى إحضارك إلى هنا»

تلفّت حوله. وتبعت مسار عينيه وذُهلتُ عندما رأيتُ التعبيرات المختلفة على وجوه المرضى وهي تبادله التحديق في صمت. كان بعضهم عدائياً، والبعض الآخر متذللاً، والبعض مرتعباً؛ البعض، الذين فيما بينهم كانوا عنيفين، بدوا الآن خاضعين كالأطفال. وبعضهم بدا مستمتعاً بصورة غريبة.

سأل السيد نورتن «أكلكم مرضى؟»

قال هالي «أنا فقط أُدير المحل. أما هؤلاء الآخرون...»

قال رجل قصير وبدين يبدو عليه الذكاء، «نحن مرضى أرسلونا إلى هنا كنوع من العلاج»، ثم ابتسم، «ولكنهم أرسلوا معنا مرافقاً، ما يُشبه المراقِب، لكي يحرص على فشل العلاج»

أصرّ أحد المحاربين القدامى «أنتم مجانين. وأنا مولِّد للطاقة. جئت إلى هنا لكي أشحن بطارياتي»

قاطع آخر مع إيماءات مسرحية «أنا طالب في قسم التاريخ، يا سيدي. إنّ العالم يتحرك ضمن دوائر كدولاب الروليت. في البدء، كان السواد في القمة، وفي الوسط الحُقَب الزمنية، والبياض يُمسك بالفروق، ولكن قريباً سوف تنشر أثيوبيا أجنحتها النبيلة! ثم تضع نقودك على اللون الأسود!»، ونبَض صوتُه بالانفعال، «وحتى ذلك الحين، لن تبثّ الشمس أية حرارة، وسوف تسكن الثلوج قلب الأرض. بعد عامين من الآن سوف أصبح عجوزاً بحيث لن أتمكن من تحميم أمي الخلاسيّة»، ثم أضاف، وقد بدأ يقفز إلى أعلى وأسفل في انفجار للحنق الشاحب، «تلك العاهرة نصف البيضاء!»

طرفت عينا السيد نورتن واعتدل في جلسته.

قال برنسايد، وهو يقبض على رسغ السيد نورتن، «أنا طبيب، أتسمح بأنْ أقيس نبضك؟»

«لا تولِهِ انتباهك، يا سيد. إنه لم يمارس الطب منذ أعوام. لقد ألقوا القبض عليه متلبساً بتحويل بعض الدم إلى نقود»

صرخ الرجل «لقد فعلتُ ذلك! لقد اكتشفته وجون د. روكفلر سرق الصيغة مني»

قال السيد نورتن «هل قلت السيد روكفلر؟ أنا متأكّد من أنك مخطئ»

صرخ صوت من الشرفة «**ما الذي يحدث في الأسفل؟**». التفتَ الجميع. رأيتُ العملاق الأسود الضخم، الذي لا يرتدي إلا بنطلوناً قصيراً أبيض، يهبط الدرج مترنحاً. كان المسؤول عن الجماعة، ذلك المرافق. الذي لم أره إلا مرتدياً زيّه الرسمي الأبيض المُنشّى بشدّة. في المعتاد كان يتمشى في المكان يوزّع تهديداته على الرجال بسترة المجانين التي دائماً يحملها على ذراعه، وفي المعتاد هم هادئون وخانعون في حضوره. أما الآن فبدوا كأنهم لا يلاحظون وجوده وبدؤوا يُطلقون السباب.

صرخ هالي «كيف تُحافظ على النظام في المكان إذا كنتَ ثملاً؟ تشارلين! تشارلين!»

أجاب صوت امرأة بنكد، مُجفلاً بكل ما أوتي من قوة، من غرفة بعيدة عن الشرفة، «ماذا؟»

«أريد منك أنْ تُعيدي ذلك المتشرد الجاسوس، قاتل المرح، مُحطم الرؤوس إلى الداخل معك وتجعليه يصحو. ثم ألبسيه زيّه الأبيض لينزل إلى هنا ويستعيد النظام. لدينا أناس من البيض في المحل»

ظهرت امرأة على الشرفة، تجرُّ حولها رداءً ورديّ اللون من الصوف. قالت متشدقة «الآن أنتَ أصغ إليّ، يا هالي. أنا امرأة. إذا أردتَ له أنْ يرتدي ملابسه فعليك أنْ تفعل ذلك بنفسك. إنني لا أُلبِسُ إلا رجلاً واحداً وهو موجود في نيو أورلينز»

«لا عليك من هذا، اجعلي ذلك الجاسوس يصحو!»

هدر صوت المسؤول عن الجماعة، «أريد هدوءاً هناك في الأسفل، وإذا كان هناك قوم من البيض، أريد هدوءاً *مُضاعفاً*»

فجأة تصاعد من الرجال زئيرٌ غاضب بالقرب من البار ورأيتهم يندفعون لارتقاء الدّرَج.

«أحضروه!»

«هيا نعلّمه بعض النظام!»

«ابعدوا عن طريقي»

احتل الدّرَج خمسة من الرجال، ورأيتُ العملاق ينحني ويقبض على العمودين في أعلى الدرج، بكلتا يديه، ويستجمع قِواه، وجسمه العاري يلمع وهو ببنطلونه القصير الأبيض. كان الرجل القميء الذي صفع السيد نورتن في المقدمة، وبينما كان يقفز إلى أعلى الدّرج، رأيتُ المُرافق يستعد ثم يرفس، ويُصيب الرجل القميء حالما يصل إلى القمة في الصدر مباشرة، ويُرسله إلى أسفل في حركةِ غوصٍ منعطفة إلى وسط الرجال الذين خلفه. ويستعد المسؤول عن الجماعة لإرسال ساقه من جديد. كان مطلع الدّرَج ضيقاً ولا يستطيع إلا رجل واحد دفعة واحدة أنْ يرتقيه. وبالسرعة نفسها التي اندفعوا يرتقون، رفسهم العملاق إلى حيث كانوا. لوّح بساقه، رافساً إياهم إلى أسفل وكأنَّ ضارب كرة بيسبول يُبعد الذباب. نسيتُ وأنا أتابعه

السيدَ نورتن. كانت حانة غولدن داي تهدر بالضجيج. وظهرت نساء شبه عاريات من الغرف المواجهة للشرفة. وأصدر رجال صيحات الاستنكار وصرخوا كأنهم يُشاهدون مباراة في كرة القدم.

صرخ العملاق وهو يُطيح بأحد الرجال إلى أسفل الدّرَج «أريد نظاماً!»

زعقت امرأة «إنهم يرمون زجاجات المشروب. مشروب أصلي!»

قال أحدهم «هذا نظام لا يرغب فيه»

انهال سيل من الزجاجات والكؤوس ناشرة رذاذ الويسكي لتتهشّم على الشرفة. رأيت المسؤول عن الجماعة ينتصب فجأة واقفاً ويقبض على جبينه، وقد اغتسل وجهه بالويسكي، صرخ «أيييي! أيييي!»، ثم رأيته يرتعش، وقد تصلّب من كاحليه وإلى أعلى. جمد الرجال الذين على الدرج برهة، وهم يُراقبونه. ثم اندفعوا إلى الأمام.

تمسّك المسؤول عن الجماعة بعنف بالدرابزين وهم ينتزعون قدمه من تحته ويهبطون به. أخذ رأسه يرتطم بالدّرَج مُصدراً ما يُشبه سلسلة من الطلقات النارية وهم يركضون ويجرونه من كاحليه، كرجال إطفاء متطوعين يركضون مع خرطوم المياه. اندفع الحشد إلى الأمام. صرخ هالي بالقرب من أُذني. رأيتُ الرجل يُجرّ نحو وسط المحل.

«أعطوا ابن الحرام بعض النظام!»

«أنا هنا في الخامسة والأربعين وهو يُعاملني كأنه والدي!»

قال رجل طويل القامة، وهو يُسدد فردة حذاء إلى رأس المُرافق، «إذن تحب أنْ ترفس، هه؟». قفز اللحم الذي يعلو العين اليُمنى بارزاً كأنه أُصيب بتورّم.

ثم سمعتُ السيد نورتن إلى جواري يهتف «كلا، كلا! لا تفعلوا بعد أنْ أصبح في الأسفل!»

قال أحدهم «أصغوا إلى ما يقول البيض»

«إنه تابع للبيض!»

كان الرجال عندئذٍ ينقضون على مسؤول المجموعة بالأقدام وشعرت

بالحماس إلى درجة أنني رغبتُ في الانضمام إليهم. حتى الفتيات كنّ يصرخن «أوسعوه ضرباً!»، «إنه لا يدفع لي نقوداً أبداً!»، «اقتلوه!»

«أرجوكم، جميعاً، ليس هنا! ليس في محلي!»

«لا يستطيع أحد أنْ يُعبّر عما في نفسه وهو يقوم بعمله!»

«اللعنة، كلا!»

وبصورة ما أبعدوني عن السيد نورتن ووجدتني بجوار الرجل المدعو سيلفستر.

قال «راقب هذا، أيها الطالب. أترى هناك، حيث تنزف أضلعه؟»

أومأت برأسي إيجاباً.

«والآن لا تحرّك عينيك»

راقبتُ البقعة وكأنني مُكره، تحت الضلع السُفلي وفوق عظمة الورك، بينما أخذ سيلفستر يقيس المسافة بعناية بإصبع قدمه الكبيرة ثم رفس كأنه يضرب كرة القدم قبل أنْ تلمس الأرض. أطلقَ مسؤول الجماعة أنينَ حصانٍ جريح.

قال سيلفستر «جرّب، أيها الطالب، إنه أمر ممتع جداً. إنه يُريح. أحياناً أخاف منه إلى درجة أنني أشعر بأنه داخل رأسي»، ثم قال، مُسدداً لمسؤول الجماعة رفسة أخرى، «هكذا!».

بينما كنتُ أراقب، قفز رجل على صدر مسؤول الجماعة بكلتا قدميه ففقد وعيه. وبدؤوا يرشّونه بالبيرة الباردة، لينتعش، ثم يرفسونه حتى يغيب عن الوعي من جديد. وسرعان ما نُقِعَ بالدماء وبالبيرة.

«أصبح ابن الحرام هامداً»

«ارموه إلى الخارج»

«انتظروا لحظة. فليساعدني أحدكم»

وضعوه على البار، مددوه على طوله وذراعاه معقودتان على صدره كأنه جثّة هامدة.

«والآن، فلنشرب!»

انتقل هالي ببطء إلى خلف البار فأخذوا يسبونه.

«عُد إلى هناك واخدمنا، يا كيس الدهن الكبير!»

«أعطني جوداراً!»

«وأنا هنا، يا هادم اللذات!»

«هزّ هذين الوركين الرخوين!»

قال هالي، مُسرعاً إلى تلبية طلباتهم، «حسن، حسن، رويداً. اصبروا حتى ألبي طلباتكم»

أخذ الرجل يتحرك بسرعة كالمهووس، ومسؤول الجماعة مُمدد على البار بلا حراك. بدا أنَّ الحماس جرف بعض الأشخاص الأكثر توازناً أبعد مما ينبغي. بعضهم أخذ يُلقي خُطباً بأعلى صوته ينتقد فيها المستشفى، وحالة الكون. وأحدهم، الذي كان يُسمي نفسه مؤلفاً موسيقياً، أخذ يعزف بقوة المقطوعة الوحيدة العنيفة على آلة البيانو النشاز، ضارباً على لوحة المفاتيح بقبضتيه ومِرفقيه ومُضيفاً تأثيرات أخرى بصوت أجش يئنّ كدبٍ يُعاني. ولمس أحد أكثرهم ثقافة ذراعي. كان في السابق صيدلياً لم يُرَ قط من دون شعار جمعية فاي بيتا كابا.

قال من بين الضجيج الهادر «لقد فقد الرجل السيطرة. أعتقد أنَّه من المُستحسن أنْ تغادر»

قلت «أحاول أنْ أفعل هذا حالما أصل إلى السيد نورتن»

كان السيد نورتن قد اختفى من حيث تركته. اندفعت هنا وهناك خلال الرجال الصاخبين، أهتف باسمه.

عندما عثرت عليه كان تحت الدّرَج. لقد دفعه الرجال المتشاجرون، المترنحون، بصورة ما وانبطح على الكرسي كدُمية عجوز. بدت قسمات وجهه في العتمة حادة وبيضاء وعيناه المُغمضتان مُحددتين بوضوح على الوجه حسن التقاطيع. هتفت باسمه من فوق هدير الرجال، ولم ألقَ جواباً. كان قد غاب عن الوعي من جديد. هززته، برفق، ثم بخشونة، ولكن لم يرفّ له جفن. ثم دفعني أحد الرجال المترنحين عليه وفجأة إذا بكتلة من البياض تلوح على مسافة بوصتين من عينيّ؛ كان فقط وجهه لكنني شعرت بقشعريرة من رعبٍ مُبهم. لم أكن قد اقتربت إلى ذلك الحد من شخص أبيض من

قبل. وكافحت وأنا مرعوب كي أهرب. بدا بعينيه المُغمضتين أكثر تهديداً منه وهما مفتوحتان. كان أشبه بموت أبيض لا شكل له، ظهر أمامي فجأة، موت كان موجوداً هناك طوال الوقت وكشف عن وجهه الآن وسط جنون غولدن داي.

أمر أحد الأصوات «كفّوا عن الصراخ!»، وشعرتُ بمَنْ يُبعدني. كان الرجل البدين والقصير.

أحكمتُ إغلاق فمي، لإدراكي للمرة الأولى أنَّ الصراخ الحادّ صادر من حنجرتي أنا. رأيتُ وجه الرجل يسترخي وهو يرسم لي ابتسامة ساخرة.

صرخ في أُذني «هذا أفضل. إنه مجرد رجل. تذكّر هذا. مجرد رجل!»

أردتُ أنْ أخبره أنَّ السيد نورتن هو أكثر بكثير من هذا، أنه رجل أبيض ثريّ وفي عُهدتي؛ لكنَّ فكرة أنني مسؤول عنه بحد ذاتها كانت فوق طاقتي على صياغتها في كلمات.

قال الرجل، وهو يدفعني نحو قدميّ السيد نورتن، «فلنأخذه إلى الشرفة». تحركتُ بصورة آليّة، وأنا أقبض على الكاحلَين النحيلين بينما رفع هو الرجل الأبيض من تحت إبطيه وسار إلى الخلف من تحت الدّرَج. تدلّى رأس السيد نورتن على صدره وكأنه ثمل أو ميت.

باشر الجندي القديم ارتقاء الدّرَج وما زال يبتسم، مرتقياً خطوة خطوة إلى الخلف. وكنتُ قد بدأتُ أقلق عليه، مُتسائلاً ما إذا كان ثملاً كالبقية، عندما رأيتُ ثلاث فتيات متكئات على الدرابزين يراقبن الشجار يهرعن هابطات ليساعدننا في حمل السيد نورتن إلى أعلى.

هتفت إحداهن «يبدو أنَّ العجوز لم يتحمّل»

«إنه منتشٍ عالٍ كشجر صنوبر جورجيا»

«نعم، أؤكد لك أنَّ الخمر الذي يُقدمه هالي هنا أقوى من قُدرة البيض على شربه»

قال البدين «إنه ليس ثملاً، بل مريض! اذهبي وأعدّي سريراً لم يُستعمَل من قبل لكي يتمدد عليه قليلاً»

«حاضر، يا والدي. هل هناك أية مساعدات صغيرة أخرى أستطيع أنْ أقدمها لك؟»

قال «هذا يكفي»

أسرعت إحدى الفتيات بالارتقاء متقدمة الأخريات. قالت «لقد بُدِّلت أغطية سريري تواً. أحضره إلى هنا»

في غضون بضع دقائق كان السيد نورتن مستلقياً على ثلاثة أرباع سرير، وهو يتنفس بصعوبة. راقبتُ الرجل البدين وهو يميل فوقه بطريقة حِرفيّة ويجس نبضه.

سألتْ إحدى الفتيات «أأنت طبيب؟»

«ليس الآن، أنا مريض. ولكن لديّ بعض المعرفة».

قلت في نفسي، واحد آخر، وأنا أدفعه جانباً بسرعة. «سيكون بخير. دعه يستعيد وعيه لكي أُخرجه من هذا المكان»

قال «لا داعي للقلق. أنا لستُ مثل أولئك الذين في الأسفل، أيها الشاب. لقد كنتُ حقاً طبيباً. ولن أؤذيه. لقد تعرّضَ لصدمة معتدلة من نوع ما»

راقبناه وهو يميل من جديد فوق السيد نورتن، ويجسّ نبضه، ويرفع جفنه.

كرر «إنها صدمة معتدلة»

قالت إحدى الفتيات، وهي تمسّد على مئزرها فوق امتداد بطنها الناعم الحسّي، «إنَّ حانة غولدن داي كافية لتسبب صدمة لأي شخص»

رفعتْ فتاةٌ أخرى شعر السيد نورتن بعيداً عن جبينه وداعبته، مبتسمة بلا معنى. قالت «يبدو ظريفاً. كطفل صغير أبيض»

سألت الفتاة الصغيرة النحيلة «ما معنى طفل عجوز؟»

«هذا هو النوع، طفل **عجوز**»

«أنت فقط تحبين الرجال البيض، يا إدنا. هذا كل شيء»

هزّتْ إدنا رأسها وابتسمتْ كأنها مسرورة بنفسها. «أنا كذلك حتماً. إنني ببساطة أحبهم. والآن هذا، على الرغم من أنه عجوز، يستطيع أنْ يضع حذاءه تحت سريري في أية ليلة»

«كلام فارغ، أما أنا فسوف أقتل عجوزاً مثله»

قالت إدنا «لن تقتليه. ألا تعلمين، يا فتاة، أنَّ أولئك الرجال البيض الأثرياء يتمتعون بغُدد قرد وخصى تيس؟ أولاد الحرام العجائز أولئك لا يشبع شبقهم أبداً. إنهم يريدون العالم بأسره»

نظر الطبيب إليّ وابتسم. قال «أتسمع، ها أنت تتعلم كل شيء عن الغُدد الصمّاء. لقد أخطأتُ عندما قلتُ لك إنه مجرد رجل؛ يبدو الآن أنه إما جزئياً تيس أو جزئياً قرد. ولعله كلاهما»

قالت إدنا «إنها الحقيقة. كان لديّ واحد في شيكاغو –»

قاطعتها الفتاة الأخرى «أنت لم تذهبي إلى شيكاغو قط، يا بنت»

«وما أدراك أنني لم أذهب. قبل عامين... كلام فارغ، أنت لا تعرفين شيئاً. لعلّ ذلك العجوز الأبيض المُلقى هناك يمتلك خصيتيّ حمار!»

نهضَ البدين مع تكشير مفاجئ. قال «بوصفي عالِماً وطبيباً أنا مُضطر إلى الطعن في هذا الكلام. هناك عملية جراحية يجب القيام بها»، ونجح في جعل الفتيات يُغادرن الغرفة.

قال الجندي القديم «لو أنه استعاد وعيه وسمع ذلك الحديث لكان ذلك كافياً لفقدان وعيه من جديد. ثم إنَّ فضولهن العلمي قد يقودهن إلى التحقُّق مما إذا كانتْ لديه فعلاً غُدد حمار. وأخشى أنَّ ذلك سيكون أمراً فاحشاً»

قلت «يجب أنْ أعيده إلى الجامعة»

قال «حسن، سوف أبذل قُصارى جهدي لأساعدك. اذهب وحاول أنْ تجلب بعض قطع الثلج. ولا تقلق»

خرجت إلى الشرفة، ورأيت قمم الرؤوس. كانوا لا يزالون يضجون بالحركة، وصندوق الموسيقى يجأر، والبيانو يضرب أنغامه، وبعيداً في آخر الصالة كان مسؤول الجماعة، المنقوع بالبيرة، مستلقياً كحصان ميت على البار.

باشرت بالهبوط عندما لاحظتُ وجود قالب كبير من الثلج يتلألأ وسط بقايا المشروب المُهمل فأمسكت ببرودته بين يديّ وهرعت عائداً إلى الغرفة.

كان الجندي القديم يُحدق إلى السيد نورتن وهو يتنفّس بإيقاع غير مُنتظم قليلاً.

قال الرجل، بعد أنْ وقف وتناول الثلج، «لقد كنتَ سريعاً»، ثم أضاف، كأنه يُحدث نفسه، «سريعاً بسرعة القلق. ناولني تلك المنشفة النظيفة – هناك، بجوار وعاء الغسل»

ناولته إياها، ورأيته يُدثّر الثلج بها ثم يضعها على وجه السيد نورتن.

قلت «أهو بخير؟»

«سيكون كذلك بعد بضع دقائق. ماذا ألمَّ به؟»

قلت «خرجت به في نزهة بالسيارة»

«وهل وقع لكما حادث أو ما شابه؟»

قلت «كلا، كان يتحدث تواً إلى مزارع فأصيب بضربة شمس... ثم علِقَ مع الرعاع الذين في الأسفل»

«كم عمره؟»

«لا أعلم، لكنه أحد القيّمين...»

قال، وهو يلمس برفق العينين بعروقهما الزرقاء، «من أوائلهم، من دون أدنى شك. قيِّم ذو ضمير»

سألتُ «ما معنى هذا؟»

«لا شيء... ها هو، ها هو ذا يستعيد وعيه»

انتابني حافز للاندفاع إلى خارج الغرفة. خشيتُ مما قد يقوله السيد نورتن لي، من التعبير الذي يمكن أنْ يتجلّى في عينيه. ومع ذلك، خشيتُ أنْ أغادر. لم تقو عيناي على ترك الوجه بجفنيه الخفّاقَين. ثم تحرّك الرأس من طرف إلى طرف تحت الوهج الشاحب للمصباح الكهربائي، وكأنه يُنكِر صوتاً مُلحّاً لا أستطيع سماعه. ثم تباعدت الجفون، كاشفة عن بقع شاحبة من الإبهام الأزرق الذي تجسّد أخيراً على شكل نقاط ثبُتت على الجندي القديم، الذي نظر إليه من دون أنْ يبتسم.

لم يكن أمثالنا ينظرون إلى رجل كالسيد نورتن بتلك الطريقة، فخطوت بسرعة إلى الأمام.

قلت «إنه طبيب حقيقي، سيدي»

قال الجندي القديم «سوف أشرح الأمر. أحضِر كوباً من الماء»

تردّدتُ. فنظر إليّ بحزم. قال «أحضر الماء»، ملتفتاً ليساعد السيد نورتن على الاعتدال في جلوسه.

في الخارج طلبتُ من إدنا كوباً من الماء فقادتني على طول الرواق في الأسفل نحو مطبخٍ صغير، وحصلت عليه من برّاد أخضر اللون عتيق الطراز.

قالت «لدي مشروب جيد، يا صغيري، إذا أردتَ أنْ تعطيه منه»

قلت «هذا سيفيده». ارتعشتْ يداي حتى أنَّ الماء أُريق. وعندما رجعتُ، كان السيد نورتن قد اعتدل في جلسته لا يدعمه أحد، وينخرط في حديث مع الجندي القديم.

قلت، ماداً يدي بالماء، «إليك قليلاً من الماء، سيدي»

أخذه. قال «شكراً لك»

تابع الجندي القديم قائلاً «لا تشرب كثيراً»

قال السيد نورتن «إنَّ تشخصيك يتطابق تماماً مع تشخيص طبيبي المتخصص، وقد ذهبتُ إلى عدة أطباء بارعين قبل أنْ أعثر على مَنْ استطاع تشخيص حالتي. كيف عرفت؟»

قال الجندي القديم «أنا أيضاً كنت متخصصاً»

«ولكن كيف؟ فقط حفنة من الرجال في البلد كله يمتلكون معرفة –»

قال الجندي المحنك «ثم كان أحدهم نزيلاً في شبه مستشفى للمجانين. ولكن ليس في الأمر أي لغز. لقد هربت فترة وجيزة – ذهبتُ إلى فرنسا مع الفيلق الطبي في الجيش وبقيتُ هناك بعد إعلان الهدنة لكي أدرس المهنة وأمارسها»

سأل السيد نورتن «آه، نعم، وكم مكثت في فرنسا؟»

قال «مدة طويلة، كافية لأنسى بعض المبادئ الأساسية التي ما كان ينبغي أنْ أنساها»

قال السيد نورتن «أية مبادئ أساسية؟ ماذا تعني؟»

ابتسم الجندي المُحنك ونصبَ رأسه. «أمور عن الحياة. أمور تعرفها

غالبية الفلاحين وأفراد الشعب دائماً تقريباً بالتجربة، ونادراً ما يحصل ذلك عبر الفكر الواعي...»

قلت للسيد نورتن «عذراً، سيدي، بما أنكَ أصبحت في حال أفضل، ألا ينبغي أنْ نذهب؟»

قال «ليس الآن،». ثم توجّه للطبيب، «لقد أثرتَ اهتمامي. ماذا حدث لك؟».

تلألأتْ قطرة من الماء علقَتْ في أحد جفنيّ عينيه كرقاقة من حجر كريم حيّ. اقتربتُ وجلستُ على أحد الكراسي. اللعنة على هذا الجندي القديم!

سأل الجندي القديم «أمتأكد من أنك ترغب في الإصغاء؟»

«طبعاً»

«إذن على الشاب الصغير أنْ يهبط إلى الطابق السفلي وينتظر...»

وصلني ضجيج الصراخ والتدمير من الأسفل عندما فتحتُ الباب.

قال الرجل البدين «كلا، ربما يجب أنْ تبقى، ربما لو أنّه تناهى إلى سمعي بعض مما سأقوله لك عندما كنتُ طالباً هناك فوق التل، لما أصبحتُ الضحية التي أنا عليها الآن»

أمر السيد نورتن «اجلس، أيها الشاب»، ثم قال للجندي القديم «إذن كنتَ طالباً في الجامعة»

جلستُ من جديد، ينتابني القلق حول الدكتور بليدسو بينما البدين يحكي للسيد نورتن عن التحاقه بالجامعة، ثم كيف أصبح طبيباً وذهب إلى فرنسا في أثناء الحرب العالمية.

قال السيد نورتن «هل كنتَ طبيباً ناجحاً؟»

«كل النجاح. ونفّذتُ عدداً من العمليات الجراحية على الدماغ أكسبتني بعض الشهرة»

«إذن لماذا رجعت؟»

قال الجندي القديم «إنه الحنين»

قال السيد نورتن «إذن ماذا تفعل هنا بحق الله في هذا...؟ وأنت تتمتع بهذه المقدرة...»

قال البدين «إنها القرحة»

«هذا أمر مؤسف حقاً، ولكن كيف تمنعك القرحة من متابعة مسيرتك المهنية؟»

قال الجندي المحنك «ليس هكذا حقاً، بل علِمتُ بالإضافة إلى أمر القرحة أنَّ عملي لا يحقِّق لي الكرامة»

قال السيد نورتن، حالما فُتِحَ الباب، «الآن بدأت المرارة تبدو في صوتك»

مدّتِ امرأة سمراء نحيلة حمراء الشعر رأسها إلى الداخل. قالت، وهي تدخل مترنحة، «كيف حال الرجل الأبيض؟ أراك استعدتَ وعيك أيها الأبيض. أترغب في مشروب؟»

قال الجندي القديم «ليس الآن، هستر. ما زال ضعيفاً قليلاً»

«هذا ما يبدو عليه فعلاً. ولهذا هو في حاجة إلى مشروب. إنه يُضيف بعض الحديد إلى دمه»

«كفى، كفى، هستر»

«أوكيه، أوكيه... ولكن لماذا تبدون جميعاً كأنكم في جنازة؟ ألا تعلمون أنكم في غولدن داي؟» وتمايلت مقتربة مني، تتجشّأ بأناقة وتترنح. «انظروا إليه. لديكم طالب يبدو خائفاً حتى الموت. ورجل أبيض هنا يُعاملكما كأنكما شخصان غريبان. امرحوا جميعاً! سوف أهبط لأجعل هالي يُرسل إليكم بعض الشراب»، وربتتْ على وجنة السيد نورتن في أثناء عبورها ورأيته يتضرج بحُمرة الخجل، «امرحوا، أيها البيض»

ضحك الجندي القديم «أه هاه! أنت تحمرّ خجلاً، وهذا يعني أنك أصبحت أفضل حالاً. لا ترتبك. إنَّ هستر إنسانة عظيمة، مُعالِجة ذات طبيعة كريمة ومهارة عالية، وتمتلك لمسة الشفاء. ولديها طاقة هائلة على التنفيس – ها، ها!»

قلت، يحدوني التوق إلى مغادرة المكان، «أنت حقاً تبدو أحسنَ حالاً، سيدي». لقد فهمتُ كلمات الجندي المحنك ولكن ليس مغزاها، وبدا على السيد نورتن الانزعاج بقدر شعوري به. الشيء الوحيد الذي عرفته هو أنَّ الجندي القديم كان يتصرف مع الرجل الأبيض بحرية لا تجلب إلا المتاعب.

وددتُ لو أُخبر السيد نورتنِ أنَّ الرجل مجنون ومع ذلك استمددتُ رضا مُخيفاً من سماعه يتكلم بتلك الطريقة مع رجل أبيض. مع الفتاة كان الأمر مختلفاً. المرأة في المعتاد تنجو من أمور لا ينجو منها الرجل.

كنتُ مُسربلاً بالقلق، لكنَّ الجندي المحنك تابع الكلام، متجاهلاً المقاطعة.

قال، مُثبّتاً السيد نورتن بعينيه، «استرح، استرح. الساعات كلها عادت إلى الوراء وقِوى الدمار تثور في الأعماق. قد تُدرك فجأة أنكَ كما أنت، وعندئذٍ لن تساوي حياتك حتى جزءاً من مخزون شخص مُفلس. سوف تُلغى، تُثقَب، تُفرَّغ، تُصبح المغناطيس المُدرَك الذي يجذب إليه البراغي المحلولة. فماذا ستفعل حينئذٍ؟ إنَّ مثل أولئك الرجال تجاوزوا الاهتمام بالنقود، ومع مُرافقٍ كالذي في الأسفل، المُلقَى كثورٍ مُنهك، لا يعرفون أي شيء ذا قيمة. وبالنسبة إلى البعض، أنت الأب الأبيض العظيم، وبالنسبة إلى آخرين أنت قاتل الأرواح، ولكن بالنسبة إلى الجميع، أنت فوضى حلّتْ حتى على حانة غولدن داي»

قلتُ، «عمَّ تتكلّم؟» وقلت في نفسي: ***قاتل؟*** لقد أصبح أشد عنفاً من الرجال في الأسفل. ولم أجرؤ على النظر إلى السيد نورتن، الذي أبدى احتجاجاً.

تجهّم الجندي القديم. «إنها قضية لا أستطيع أنْ أواجهها إلا بتجنّبها. يا له من عرض أحمق تماماً، إنَّ هذه الأيدي المُدرّبة بكل حب على الاستخدام البارع للمبضع تتوق إلى مُداعبة زند بندقية»، ثم قال «لقد عدتُ لكي أنقذ الحياة فرفضوني. عشرة رجال مُقنّعين نقلوني إلى خارج المدينة في منتصف الليل وضربوني بالسياط لأنني أنقذت حياةً بشرية. وعاملوني أحطّ معاملة لأنني أمتلك يدين بارعتين والإيمان بأنَّ معرفتي يمكن أنْ تحقّق لي الكرامة – ليس الثروة، بل فقط الكرامة – والحِفاظ على حياة الناس!»

وفجأة ثبّتني بعينيه. «والآن، هل فهمت؟»

قلت «ماذا؟»

«ما سمعت!»

«لا أدري»

«لمَ؟»

قلت «إنني حقاً أعتقد أنه حان وقت المغادرة»

قال مُلتفتاً إلى السيد نورتن «أتعلم، إنه يتمتع بعينين وأذنين وبأنف إفريقيّ مفلطح جيد، لكنه يفشل في فهم أبسط حقائق الحياة. *فهمها*. أتفهم؟ إنَّ الأمر أسوأ من هذا. إنه يُسجل بحواسّه لكنه يُعيقُ عقله. لا شيء له معنى. إنه يستوعب لكنه لا يهضم. إنه منذ الآن – اللهم نجّنا! انظروا! ميّت حيّ! لقد تعلَّم أنْ يكبت ليس مشاعره فقط بل حسّه الإنساني أيضاً. إنه لا مرئيّ، تجسيد حيّ للصورة السلبية، الإنجاز الأمثل لأحلامك، يا سيدي! الإنسان الآليّ!»

بدا الذهول على السيد نورتن.

قال الجندي القديم، وقد هدأ فجأة، «قُلْ لي، ما الذي أثار اهتمامك بالجامعة، يا سيد نورتن؟»

قال السيد نورتن بصوت مهزوز «لقد شعرتُ بدافع إحساسي بدوري المُقدَّر لي، وما زلت أشعر، بأنَّ شعبك مُرتبط، بطريقة مهمة، بمصيري»

قال الجندي القديم «ماذا تعني، بالمصير؟»

«ولَوْ، إنه نجاحي في عملي، طبعاً»

«فهمت. وهل ستتعرّف عليه إذا قابلته؟»

قال السيد نورتن، ساخطاً، «طبعاً سأتعرَّف. لقد رأيته ينمو في كل عام أعود فيها إلى حرم الجامعة»

«الحرَم؟ ولِمَ الحرم؟»

«هناك صُنِعَ مصيري»

انفجر الجندي المحنك بالضحك. «الحرَم، يا له من مصير!» ووقفَ وراح يتمشى حول الغرفة الضيقة، ويضحك. ثم توقف فجأة كما بدأ.

قال «إنك لن تتعرف عليه أبداً، ولكن من المناسب جداً أنكَ أتيتَ إلى غولدن داي مع هذا الشاب»

قال السيد نورتن «لقد أتيت بدافع المرض – أو بالأحرى، هو جلبني»

«طبعاً، لكنكَ أتيت، وهذا مناسب»

قال السيد نورتن بغضب «ماذا تعني؟»

قال الجندي المحنك مع ابتسامة «سوف يقوده ولد صغير. ولكن جديّاً، لأنكما أنتما الاثنين فشلتما في فهم ما يحدث لكما. أنت لا ترى أو تسمع أو تشمّ حقيقة ما ترى – وأنت، تبحث عن المصير! موقف تقليدي! والفتى، هذا الإنسان الآلي، إنه مخلوق من طين المنطقة نفسها ونَظَرُه أقصرُ بكثير من نظرك. يا لكما من مرتبكَين مسكينين، لا أحد منكما يرى الآخر. فبالنسبة إليك هو البطاقة التي تسجل عليها إنجازاتك، إنه شيء وليس مخلوقاً بشرياً؛ طفل، أو حتى أقلّ من ذلك – شيء أسود لا شكل له. وأنت، مع كل ما تتمتع به من قوة، لستَ رجلاً بالنسبة إليه، بل إله، قوة»

نهضَ السيد نورتن واقفاً على الفور، وقال بغضب «فلنذهب، أيها الشاب»

«كلا، اسمع. إنه مؤمن بك كما يؤمن بنبض قلبه. إنه يؤمن بتلك الحِكمة الزائفة الكبرى التي علَّمتِ العبيد والذرائعيين على قدم المساواة، أنَّ البيض على صواب. أنا أستطيع أنْ أُخبرك بمصيره هو. سوف يُنفّذ أوامرك، ولهذا السبب فإنَّ عماه هو مصدر قوته. إنه تابعك، صديقك. تابعك ومصيرك. والآن اهبطا أنتما الاثنين الدّرَج إلى العماء وارحلا من هنا. إنني مشمئز منكما معاً أيها البذاءة المُثيرة للشفقة! اخرجا قبل أنْ أقدِّم لكما معاً معروفاً وأسحق رأسيكما!»

رأيتُ الحركة التي قام بها نحو الإبريق الأبيض الكبير الموضوع في حوض الغسل ووقف حائلاً بينه وبين السيد نورتن، وأنا أقود السيد نورتن بسرعة خلال الباب. وعندما نظرت خلفي، رأيته يتكئ على الجدار ويُصدر صوتاً هو مزيج من الضحك والبكاء.

قال السيد نورتن «أسرع، إنَّ الرجل لا يقلّ جنوناً عن الباقين»

قلت، وقد لاحظت نبرة جديدة في صوته، «نعم، سيدي»

كانت الشرفة قد أضحت صاخبة كما الطابق السفلي. وكانت الفتيات والمحاربون القدامى السكارى يتعثّرون في المكان ويحملون زجاجات المشروب. ولدى اجتيازنا أحد الأبواب المفتوحة رأتنا إدنا فقبضتْ على ذراعي.

سألتْ «إلى أين تأخذ الرجل الأبيض؟»

قلت، وأنا أتخلص منها «سأعود به إلى الجامعة»

قالت «لا تذهب إلى القوم البيض فوق، يا حبيبي». حاولت أنْ أتجاوزها. قالت «أنا لا أكذب. أنا أفضل مدبِّرة منزل يمكن العثور عليها»

ناشدتها «أوكيه، ولكن دعيني وشأني من فضلك. سوف تورطينني في المشاكل»

كنا حينئذٍ نهبط الدرج نحو الرجال المحتشدين فبدأتْ تصرخ «ادفع لي إذن! إنْ كان أرقى مني، فليدفع!»

قبل أنْ أتمكن من إيقافها كانت قد دفعت السيد نورتن، وتعثّرنا معاً بسرعة وسقطنا إلى أسفل الدرج. وقعتُ فوق رجلٍ رماني بنظرة سكّير تعرَّف عليّ بصورة مُبهمة ودفعني بعيداً بقوة. ورأيت السيد نورتن يمر بسرعة وأنا أغوص أكثر داخل الحشد. ومن مكان ما سمعت الفتاة تصرخ وصوت هالي يزعق «هيه! هيه! هيه! كفى!» ثم شعرت بالهواء النقي ووجدتُ أنني بالقرب من الباب فاندفعتُ إلى الخارج ثم توقفت ألهثُ وأستعدّ للعودة من جديد وإحضار السيد نورتن – وإذا بي أسمع هالي يهتف، «أفسحوا الطريق جميعاً!» ورأيته يقود السيد نورتن إلى الباب.

قال، مُحرراً الرجل الأبيض وهازّاً رأسه الضخم «أووف!»

قلت «شكراً لك، هالي» – ولم أزِدْ.

رأيتُ السيد نورتن وقد عاد شحوب وجهه، وتجعّدت بذلته البيضاء، يتداعى ويسقط، ويحفّ رأسه بحاجب السيارة.

«هيه!»

فتحت الباب ورفعته.

قال هالي «اللعنة، اخرجا من جديد. كيف حصل أن جلبت هذا الرجل الأبيض إلى هنا، أيها الطالب؟»

«أهو ميت؟»

قال، متراجعاً بسخط، «ميت! لا يمكن أنْ يموت!»

«ماذا سأفعل، هالي؟»

قال، راكعاً، «ليس في محلي، لا يمكن أنْ يموت»

رفع السيد نورتن نظره. قال بحدّة، «لا أحد مات أو يموت. أبعد يديك!»

وقع هالي إلى الخلف، مندهشاً. «أنا سعيد حقاً. أواثق أنت من أنك بخير؟ حسبتك متّ هذه المرة»

انفجرتُ قائلاً بعصبية «اسكتْ، إكراماً لله! يجب أنْ تكون سعيداً لأنه بخير»

كان جلياً أنّ السيد نورتن بات غاضباً الآن، وقد ظهرت على جبينه بقعة مسلوخة الجلد، وأسرعتُ أتقدّمه نحو السيارة. ركبَ من دون مُساعدةٍ مني، وجلست خلف المقود، أشمّ عبق النعناع ودخان السيجار الحارّ. وفي أثناء قيادتي السيارة لزم الصمت.

-4-

شعرتُ بالمقود تحت يديّ كأنه شيء غريب وأنا أتبع الخط الأبيض على الطريق السريعة. تصاعدت أشعة الحرارة من شمس أواخر فترة بعد الظهيرة من الإسمنت الرمادي، خفّاقة كالأنغام المرهقة لنفير بوقٍ ناءٍ محمولة على متن هواء منتصف الليل الساكن. في المرآة رأيتُ السيد نورتن يُحدّقُ بنظرة خالية من التعبير إلى الحقول الجرداء، بفمٍ صارم، وجبين أبيض مزرقّ في الموقع الذي احتكّ بالحاجب. عندما رأيته شعرتُ بالخوف داخلي يضطرب بارداً وواضحاً. ماذا سيحدث الآن؟ ماذا سيقول المسؤولون في الجامعة؟ تخيّلتُ وجه الدكتور بليدسو عندما سيرى السيد نورتن. فكّرتُ في مشاعر المرح التي ستشيع بين بعض الأشخاص في الوطن إذا ما تم طردي. وتراقص وجهُ تاتلوك بابتسامته العريضة في مخيلتي. ماذا سيظن البيض وهم الذين أرسلوني إلى الجامعة؟ هل السيد نورتن غاضب مني؟ في الغولدن داي بدا فضولياً أكثر مما كان في أي مكان آخر - إلى أنْ بدأ الجندي المحنك يتكلّم بضراوة. اللعنة على تروبلود. هو السبب. لو لم نجلس في الشمس طويلاً لما احتاج السيد نورتن إلى الويسكي ولما كنتُ لجأتُ إلى غولدن داي. ثم ما سبب تصرّف المحاربين القُدامى كما فعلوا مع رجل أبيض في الحانة؟

تجاوزت بالسيارة بوابة حرم الجامعة المبني بالآجر الأحمر مع إحساسٍ من الترقُّب البارد. حتى صفوف المهاجع الأنيقة بدت لي مُهدّدة، وبدتِ المروج الممتدة عِدائيّة كما الطريق السريعة الكالحة بالخط الأبيض الذي يقسمها. أبطأتِ السيارة تقدّمها، كأنما من تلقاء ذاتها، ونحن نتجاوز المُصلّى بأقبيته المنحدرة والمنخفضة. وشعّت الشمس بهدوء خلال ممرات من الأشجار، ترقّشُ ممر السيارة الملتوي. كان الطلاب يتمشّون تحت الظلال،

وأسفل تلٍ من العشب الطريّ نحو امتداد من ملاعب التنس مرصوفة بالآجر الأحمر. وبعيداً أكثر، ثمة لاعبون بملابسهم البيضاء يظهرون بوضوح أمام خلفية من الملاعب الحمراء التي يكتنفها العشب، مشهد مُبهج تغسله أشعة الشمس. خلال تلك البرهة الوجيزة أسمع هتافاً يتعالى. إنَّ ورطتي تُصيبني كالطعنة. وينتابني إحساس بأنني أفقد السيطرة على السيارة وضغطتُ على المكابح وأنا في وسط الطريق، ثم اعتذرتُ وتابعت القيادة. هنا وسط هذه النُضرة الهادئة امتلكتُ الهوية الوحيدة التي عرفتها، وكنتُ أفقدها. خلال تلك اللحظة الوجيزة من العبور وعيتُ الصِلة بين تلك المروج والأبنية وآمالي وأحلامي. أردتُ أنْ أوقف السيارة وأتحدث مع السيد نورتن، أناشده كي يُسامحني على ما شهد؛ أناشده وأبكي أمامه، أذرف دموعاً بلا خجل كما يبكي طفل أمام والديه؛ شاجباً ما شهدنا جميعاً وسمعنا؛ لأطمئنه بأنني أبعد ما أكون عن أي من أولئك القوم الذين قابلناهم، وأنني *أكرههم*، وأؤمن بمبادئ المؤسّس من كل قلبي وروحي، وأنني أؤمن بطيبته وبكياسته بمدّه يد الخير لمساعدة الفقراء، والجهلة وانتشالهم من غياهب الظلام. كنتُ مستعداً أنْ أنفّذ أوامره وأُعلِّم الآخرين أنْ ينهضوا كما يريد منهم، أنْ يكونوا مواطنين مُقتصدين، كيّسين ومستقيمين، يُساهمون في خير كل شيء، يتجنبون كل شيء ما عدا الدرب المستقيم والضيق الذي كان هو المؤسّس قد فتحه أمامنا. ليته فقط لم يغضب مني! ليته يمنحني فرصة أخرى!

ملأتِ الدموع عينيّ، وفاضت الممرات والأبنية وتجمّدتْ برهة بالضباب، تتلألأ كما في الشتاء عندما يتجمّد المطر على العشب والنباتات ويحوّل الحرَم إلى عالم من البياض، يُثقِل الأشجار والشجيرات ويجعلها تنحني بثمار من الكريستال. ثم بومضة من عينيّ، اختفى كل شيء، وعاد واقعُ الحَرّ الآني والنُضرة. ليت في استطاعتي أنْ أجعل السيد نورتن يفهم كم تعني الجامعة بالنسبة إليّ.

قلت «هل أتوقف أمام جناحك، سيدي؟ أم أوصلك إلى مبنى الإدارة؟ قد يكون الدكتور بليدسو قلقاً»

أجاب باقتضاب «بل إلى جناحي، ثم أحْضِر الدكتور بليدسو إليّ»

«حاضر، سيدي»

في المرآة رأيته يربت بحذر على جبينه بمنديل مُجعّد. قال «ويُستحسن أنْ تُرسل إليّ أيضاً طبيب الجامعة»

أوقفتُ السيارة أمام مبنى صغير ذي أعمدة شبيهة بأعمدة منزل صاحب العزبة القديم، وخرج وفتح الباب.

«سيد نورتن، أرجوك، سيدي... أنا آسف... أنا -»

نظر إليّ بصرامة، بعينين ضيّقتين، ولم يقُل شيئاً.

«لم أكن أعلم... أرجوك...»

قال، مُشيحاً بوجهه وهو يتمايل على الممر المُحصّى متقدماً من المبنى، «أرسل الدكتور بليدسو»

رجعتُ إلى السيارة وقُدت ببطء نحو مبنى الإدارة. ولدى مروري لوّحتْ فتاةٌ لي بمرح، بيدها التي تحمل باقة من أزهار البنفسج. وكان أستاذان بلباسٍ رسميّ أسود يتحدثان بلغة مُنمّقة بجوار نافورة مكسورة.

كان الهدوء يسود المبنى. وتخيّلت وأنا أرتقي الدّرَج الدكتور بليدسو، بوجهه الكرويّ والعريض الذي بدا أنه أخذ شكله من الدهن الذي يضغط من الداخل ويمنح شكله وطبيعته العائمة، كما يضغط الهواء على غشاء البالون. كان بعض الأصدقاء يصفونه بـ «صاحب رأس الدلو». أنا لم أفعل. كان لطيفاً معي منذ البداية، ربما بسبب الرسائل التي بعثها مدير الجامعة إليه لدى وصولي. ولكن زيادة على ذلك، كان مثالاً يُحتذى في كل ما صبوت إلى أنْ أكون: ذا نفوذ أسوة بالأثرياء في أنحاء البلد كله؛ يُستشار في مسائل تتعلق بالعرق؛ قائداً لقومه؛ يمتلك ليس سيارة واحدة فقط بل *سيارتيّ* كاديلاك أيضاً، ويتلقى راتباً جيداً ولديه زوجة رقيقة، جميلة وذات بشرة ملساء. وزيادة على ذلك، في حين أنّه أسود وأصلع ويتصف بكل ما يدفع البيض إلى السخرية منه، حاز على السلطة والنفوذ؛ وعلى الرغم من كونه أسود وذا رأس مجعّد، جعل نفسه شخصية أكثر أهمية في العالم من غالبية الرجال البيض الجنوبيين. في استطاعتهم أنْ يضحكوا منه لكنهم لا يستطيعون تجاهله.

قالت الفتاة الجالسة عند طاولة المكتب «إنه يبحث عنك في كل مكان»

عندما دخلت رفع نظره عن الهاتف وقال، «لا عليك، لقد وصل الآن»، ووضع السماعة مكانها. سأل بحماس، «أين السيد نورتن؟ أهو بخير؟»

«نعم، سيدي. لقد تركته في جناحه وأتيت لكي أحملُك إليه. يريد أنْ يراك»

قال، وهو ينهض على عجل ويدور حول طاولة المكتب، «أثمة خطب؟». تردّدتُ في الإجابة.

«أخبرني، أثمة خطب!»

شعرتُ كأنَّ وجيب قلبي الناجم عن الخوف يُعشي بصري.

«ليس الآن، سيدي»

«**الآن**؟ ماذا تقصد؟»

«في الواقع، سيدي، لقد مرَّ بما يُشبه نوبة إغماء»

«أخ، يا ربي! كنتُ أعلم أنَّ خطباً قد وقع. لِمَ لم تتصل بي؟»، وقبض على قبعته، واندفع نحو الباب. «هيا بنا!»

تبعته، محاولاً أنْ أشرح. «لقد تجاوز الأمر الآن، سيدي، والأمر وقع في مكان يقع خارج نطاق الاتصال الهاتفي...»

قال، وهو يتحرك بغضب وهياج، «ولماذا ابتعدتَ به إلى ذلك الحد؟»

«لكنني ذهبتُ إلى حيث أراد أنْ يذهب، سيدي»

«وأين ذاك؟»

قلت مرتعباً «إلى قِطاع العبيد»

«القِطاع! أمجنون أنت، يا فتى! ألم تجد مكاناً أفضل تأخذ إليه القيِّم؟»

«هو الذي طلب ذلك، سيدي»

كنا حينئذٍ نسير على الممشى، في هواء الربيع، ووقفَ لينظر إليّ بسخط، وكأنني أخبرته فجأة أنَّ الأسود أصبح أبيض.

قال، وهو يجلس على المقعد الأمامي إلى جواري، «اللعنة على ما يريد هو. أليس لديك حسّ كالذي منحه الله للكلاب؟ إننا نأخذ أولئك القوم

البيض إلى حيث يريدون، ونُريهم ما يرغبون في رؤيته. ألا تشعر بذلك؟ حسبتُ أنَّ لديك بعض الحسّ السليم»

لدى وصولنا إلى قاعة راب، أوقفتُ السيارة، مرهَقاً ومرتبكاً.

قال «لا تجلس هكذا، تعال معي!»

داخل المبنى مباشرة تلقّيتُ صدمة أخرى. فمع اقترابنا من إحدى المرايا توقف الدكتور بليدسو وسيطر على وجهه الغاضب حتى أضحى كالتمثال، جاعلاً إياه كالقِناع الخالي من التعبير، ولم يترك إلا بريق عينيه يُفشي الانفعال الذي رأيته قبل ذلك بلحظة فقط. نظر برهة بثبات إلى نفسه؛ ثم تقدّم بهدوء على طول الرواق الذي يرين عليه الصمت ومن ثم ارتقى الدرج.

جلست إحدى الطالبات في الجامعة المُختلطة على طاولة جميلة تتكدس عليها المجلات. وأمام نافذة هائلة وُضِعَ حوضٌ مائيٌّ كبيرٌ يحتوي حجارة ملونة ونسخة مُصغّرة من قلعة إقطاعية مُحاطة بأسماك ذهبية كأنها لا تتحرك على الرغم من رفرفة زعانفها المُخرّمة، كتوقّفٍ لحظيّ للزمن يعجّ بالحركة.

قال للفتاة «هل السيد نورتن في غرفته؟»

قالت «نعم سيدي الدكتور بليدسو، سيدي. طلب مني أنْ أدعك تدخل حالما تصل إلى هنا»

توقفت عند الباب وسمعته يتنحنح، ثم يربت برقّة على لوح الباب بقبضة يده.

قال، وقد ارتسمت ابتسامة مُسبقة على شفتيه، «سيد نورتن؟»، وعندما سمعت الإجابة لحقتُ به إلى الداخل.

كانت غرفة فسيحة مُضاءة. جلس السيد نورتن على كرسي مُجنّح ضخم وقد خلع سترته. وكانت على مفرش السرير ملابس بديلة. وفوق الموقد الواسع عُلِّقت لوحة زيتية تمثّل المؤسِّس ينظر من أعلى إليّ بشرود، ودماثة، وحزن، وخلال تلك اللحظة الحارة، بدا خائب الأمل بدرجة عميقة. ثم بدا كأنَّ حجاباً سقط.

قال الدكتور بليدسو «لقد قلقتُ عليك، يا سيدي. كنا نتوقع وصولك لحضور جلسة بعد الظهيرة...»

«والآن أعتقد أنها بدأتْ. الآن –»

فجأة اندفع إلى الأمام. هتف، وفي صوته قلق غريب جدير بجدّة، «سيد نورتن، رأسك! ماذا حدث يا سيدي؟»

كان وجه السيد نورتن جامداً، «إنه لا شيء. مجرد خدش»

استدار الدكتور حول نفسه، وقد تبدى السخط على وجهه. قال «أحضر الطبيب إلى هنا. لِمَ لم تُخبرني بأنّ السيد نورتن مجروح؟»

قلت برقّة، بعد أنْ استدار من جديد، «لقد سبق أنْ اعتنيت به، سيدي»

قال كمن يُدندن «سيد نورتن، *سيد نورتن!* أنا في غاية الأسف، لقد حسبت أنني أرسلتُ معك فتى حريصاً، وعاقلاً! نحن لم يسبق أنْ وقع لدينا أي حادث. قط، ليس خلال السنوات الخمس والسبعين الماضية. أؤكد لك، سيدي، أنه سوف يُعاقَب، أشدّ العقاب!»

قال السيد نورتن بلطف «ولكن لم يقع أي حادث للسيارة، ولا كان الفتى مسؤولاً. يمكنك أنْ تصرفه، لم نعد في حاجة إليه الآن»

فجأة اغرورقت عيناي بالدمع. شعرت بموجة من الامتنان، من كلماته.

قال الدكتور بليدسو «لا تكن رقيقاً، يا سيدي. مع هؤلاء القوم لا ينفع اللطف. ولا ينبغي أنْ ندلِّلهم. أنْ يقع حادث لضيف على هذه الجامعة في أثناء وجوده في عهدة طالب هو من دون أدنى شك خطأ الطالب. هذه إحدى قواعدنا الأشدّ صرامة!»، ثم قال لي: «عُدْ إلى مهجعك وابق فيه حتى إشعار آخر!»

قلت «ولكن لم يكن في يدي حيلة، سيدي، كما قال السيد نورتن...»

قال السيد نورتن مع شبه ابتسام، «سوف أشرح له، أيها الشاب. سوف يتّضح كل شيء»

قلت، عندما وجدتُ أنَّ الدكتور بليدسو ينظر إليّ مع تغيُّر في تعبير وجهه، «شكراً لك، سيدي»

قال «ولكن بعد إعادة التفكير، أريد منك أنْ تكون في الكنيسة هذا المساء، هل فهمت، يا سيد؟»

«حاضر، سيدي»

فتحتُ الباب بيد باردة، فاصطدمتُ بالفتاة التي كانت جالسة على طاولة المكتب لدى دخولنا.

قالت «أنا آسفة، يبدو أنك مجنون مثل صاحب رأس الدلو»

لم أقُل شيئاً وهي تجتازني كما هو متوقَّع. كانت شمس حمراء تنشر أشعتها على الحَرَم وأنا أتوجه إلى مهجعي.

قالت «هلا حملت بالنيابة عني رسالة إلى صديقي؟»

قلت، باذلاً أقصى جهدي لإخفاء توتري وخوفي، «ومَنْ يكون؟»

قالت «جاك ميسون»

«أوكيه، إنه في الغرفة المجاورة لغرفتي»

قالت مع ابتسامة عريضة «هذا عظيم. لقد وضعني العميد على لائحة الخدمة لذلك اشتقتُ إليه بعد ظهيرة هذا اليوم. فقط قُل له إنني قلت إنَّ العشب نضر...»

«ماذا؟»

«العشب نضر. إنها شفرتنا السرية، هو سيفهم»

قلت «العشب نضر»

قالت «بالضبط. شكراً لك، أيها العاشق»

شعرتُ برغبة في السبّ وأنا أراقبها تهرع عائدة إلى داخل المبنى، وأسمع حذاءها ذا الكعب المُسطّح يسحق الممشى المفروش بالحصى. ها هي تلهو بشِفرة سرية سخيفة بينما مصيري يتم تقريره حتى آخر حياتي. العشب نضر وسوف يتقابلان وسوف تعود إلى بيتها وهي حامل، ولكن مع ذلك، مع إحساسٍ بالخزي أقلّ من إحساسي... ليتني عرِفت ماذا يقولان عني... وفجأة خَطَرَتْ لذيّ فكرة وهرعتُ خلفها إلى داخل المبنى وارتقيتُ الدرَج.

في الرواق، كان غبارٌ دقيق يلهو في حزمةٍ من ضوء الشمس، أثارته لدى

مرورها ركضاً. لكنها كانت قد اختفت. كنتُ قد فكّرتُ في أنْ أطلب منها أنْ تسترق السمع عند الباب وتُخبرني ما يُقال. وتخلّيت عن الفكرة؛ لأنه إذا اكتُشِفَ أمرها، فسوف يؤنبني ضميري أيضاً. ثم إنني أخجل من أنْ يعلم أحدٌ بأمر مأزقي، لقد كان سخيفاً إلى درجة لا تُصدَّق. ثم سمعت على طول الرواق الطويل والعريض شخصاً غير مرئي يهبط الدرج بخطى رشيقة ويُغنّي. إنه صوت فتاة عذب، ملؤه الأمل. وأغادر بهدوء وأسرع إلى مهجعي.

أستلقي في غرفتي مُغمض العينين، وأحاول أنْ أفكر. التوتر يقبض على جنبيّ. ثم أسمعُ شخصاً يتقدم على طول الرواق فأجمد في مكاني. هل أرسلوا في طلبي بهذه السرعة؟ وفي مكان قريب فُتِحَ باب ثم أُغلق، وبقيتُ متوتراً كما كنتُ. لمَنْ أستطيع أنْ ألجأ طلباً للمساعدة؟ لم أتذكّر أحداً. ليس هناك مَنْ أستطيع أنْ أشرح له ما حدث في غولدن داي. كان الهدوء يسود داخلي. وموقف الدكتور بليدسو من السيد نورتن مُشوِّش كثيراً. لم أجرؤ على تكرار ما قال، خشية أنْ يُقلل ذلك من فُرصي للبقاء في الجامعة. إنَّ ذلك ليس صحيحاً، لقد أسأتُ الفهم. لا *يمكن* أنْ يكون قد قال ما أعتقدُ أنه قال. ألم أره غالباً يقترب من زوار من البيض وهو يحمل قبعته بيده، وينحني بتواضع واحترام؟ ألم يرفض أنْ يتناول الطعام في قاعة الطعام مع ضيوف من البيض على الجامعة، ولا يدخل إلا بعد أنْ ينتهوا ومن ثم يرفض أنْ يجلس، ويبقى واقفاً، وقبعته في يده، وهو يخطب فيهم بفصاحة، ومن ثم يغادر مع انحناء متواضع؟ ألم يفعل، *ألم* يفعل؟ كم من مرة رأيته وأنا أتلصّص من خلال الباب بين قاعة الطعام والمطبخ، أنا نفسي. أوَلم تكن أنشودته الروحية المُفضّلة هي «عش بتواضُع»؟ وفي الكنيسة في أمسيات أيام الآحاد على الرصيف، ألم يُعلّمنا دائماً أنْ نعيش برضا في موقعنا بألف كلمة واضحة؟ لقد فعل وأنا آمنتُ به. آمنتُ من دون تساؤل بتمثيله الخير الذي كان نتيجة السير على نهج المؤسِّس. كان ذلك توكيدي على الحياة ولم يتمكنوا من طردي بسبب أمرٍ لم أرتكبه. ببساطة لم يتمكنوا. لكنَّ ذلك الجندي المُحنّك! لقد كان من فرط الجنون حتى إنه أفسد العاقلين. لقد حاول أنْ يقلب العالم رأساً على عقب، اللعنة عليه! لقد أثار غضب السيد نورتن. ليس من حقّه أنْ يُخاطب رجلاً أبيض كما فعل، وأنْ أتلقّى العقاب على ذلك...

هزّني أحدهم فانكمشت، كانت ساقاي رطبتين وترتعشان. إنه شريكي في الغرفة.

قال «ما الأمر، يا شريك. هيا بنا نأكل»

نظرتُ إلى وجهه الدالّ على الثقة في النفس؛ كان هو سيُصبح مزارعاً.

قلت مع تنهيد «ليست لدي شهية»

قال «حسن إذن. تستطيع أنْ تحاول أنْ تخدعني ولكن لا تقُل إنني لم أوقظك»

قلت «كلا»

«مَنْ تنتظر، الفتاة ذات المؤخرة الضخمة والوركين بحركتهما السلسة؟»

قلت «كلا»

قال مكشراً «يجب أنْ تكفّ عن هذا، يا شريك؛ سوف يُدمّر صحتك، ويجعل منك أحمق. يجب أنْ تنتقي فتاة وتُريها كيف يرتفع القمر فوق العشب النضر كله النامي على قبر المُؤسس، يا رجل...»

قلت «اذهب إلى الجحيم»

غادر وهو يضحك، فاتحاً الباب على ضجيج العديد من الخطوات القادم من الرواق: إنه وقت العشاء. ضجيج أصوات تغادر. وبدا أنَّ جزءاً من حياتي يتراجع معها داخل المدى الأخضر، بهياج. ثم هدر طرقٌ على الباب فقفزت واقفاً، وطفر قلبي.

أبرز طالب صغير يرتدي زي الطالب المُستجد رأسه من الباب، وهو يهتف «الدكتور بليدسو قال إنه يريد أنْ يراك تحت في راب هول». ثم اختفى قبل أنْ أتمكن من استجوابه، وخطوات قدميه تضرب أرض الرواق هادرة وهو يهرع ليتناول وجبة العشاء قبل أنْ يقرع الجرس الأخير.

عند باب غرفة السيد نورتن وقفتُ ويدي على الأكرة، أتمتم صلاة.

أجاب على طرقي «ادخل، أيها الشاب». كان يرتدي قميصاً جديداً، والضوء يسقط على شعره الأبيض وكأنما على جزّة من الحرير. وكانت خصلة منه ملتصقة على جبينه. كان وحده.

قلت معتذراً «أنا آسف، سيدي، ولكنّ قيل لي إنَّ الدكتور بليدسو يريد أنْ يراني هنا...»

قال «هذا صحيح، لكنَّ الدكتور بليدسو اضطُرَّ إلى المغادرة. سوف تجده في مكتبه بعد اجتماع الكنيسة»

قلت «شكراً لك، سيدي»، واستدرت لأغادر. فتنحنح من خلفي. «أيها الشاب...»

التفتُّ يحدوني الأمل.

«أيها الشاب، لقد شرحتُ للدكتور بليدسو أنك لم تُخطئ. أعتقد أنه تفهّم الوضع»

ارتحت كثيراً إلى درجة أنني للوهلة الأولى لم أره، بشعره الناعم الخفيف، وملابسه البيضاء الجديرة ببابا نويل، إلا من خلال عينين ضبابيتين.

أخيراً نجحت في القول «إنني شاكر لك شكراً جزيلاً، سيدي»

تأمّلني برهة، وهو يُضيِّقُ عينيه قليلاً.

سألتُ «هل تحتاج إليّ هذا المساء، سيدي؟»

«كلا، لن أحتاج إلى السيارة. إنَّ العمل يستغرقني باكراً أكثر مما كنتُ أعتقد. سوف أغادر في وقت متأخّر هذه الليلة»

قلت يحدوني الأمل «في وسعي أنْ أوصلك بالسيارة إلى المحطة، سيدي»

«شكراً لك، لكنَّ الدكتور بليدسو تولّى هذا الأمر فعلاً»

قلت مع خيبة أمل «أوه». كنتُ آمل أنني بخدمتي له حتى آخر الأسبوع قد أستعيد احترامه لي. الآن لم تعُد تلك الفرصة سانحة.

قلت «حسن، آمل أنْ تقوم برحلة ممتعة، سيدي»

قال، وقد ابتسم فجأة، «شكراً لك»

«وربما في زيارتك التالية لنا سوف أتمكن من الإجابة عن بعض من الأسئلة التي طرحتها عليّ بعد ظهيرة هذا اليوم»

ضيَّقَ عينيه «أسئلة؟»

قلت «نعم، سيدي، حول... حول مصيرك»

قال «آه، نعم، نعم»

«وقد قررتُ أنْ أقرأ إمرسون، أيضاً...»

«جيد جداً. إنَّ الاعتماد على النفس هو الفضيلة الأثمن. سوف أصبو باهتمام كبير إلى معرفة دورك في مصيري»، وأشار إليّ نحو الباب. «ولا تنس أنْ ترى الدكتور بليدسو»

غادرتُ وأنا مُطمئن نوعاً ما، ولكن ليس بصورة تامة. كان لا يزال أمامي أنْ أواجه الدكتور بليدسو. وكان عليّ أنْ أحضر اجتماع الكنيسة.

-5-

على ترنيم صلوات العشاء اجتزتُ أرض الحَرَم مع مجموعات من الطلاب، السائرين ببطء، وأصواتهم خافتة في الغسق الرطيب. أتذكّر الكرات المُصفرّة للزجاج المتجمد الذي يُشكّل صوراً جانبية مخرّمة على الحصى والممشى المغطى بأوراق الأشجار والأغصان فوقنا ونحن نتقدم ببطء خلال الغسق المُضطرب بالروائح العطِرة للَّيلك، وصريمة الجدي ورعي الحمام، والإحساس بنُضرة الربيع؛ وأتذكر قهقهات الضحك المفاجئة يتردد إيقاعها عبر عشب الربيع الغضّ - تتصاعد مرحة، وتحوم بعيداً، سلسة، عفويّة، كعزفِ ناي أنثويّ يشبه رنين الجرس، ثم اختفاءها؛ وكأنها أُطلِقَتْ بسرعة وللمرَّة الأخيرة من تحت الرصانة الهادئة للهواء المُشبَّع بالصلاة الذي بات يتذبذب مع قرع نواقيس الكنيسة الوقور. دونغ! دونغ! دونغ! فوق الممشى المُزخرف من حولي، ووقعُ أقدام تغادر شرفات أبنية بعيدة وتتحرك صوب الدروب وفوقها إلى ممرات السيارات المسفلتة المُحدّدة بحجارة مُبيَّضة بالجير، تلك الرسائل السريّة الموجّهة إلى الرجال والنساء، إلى الفِتية والفتيات تتجه بهدوء إلى حيث ينتظر الزوار، ونحن نسير ليس بمزاج العبادة بل المُحاكمة؛ وكأنما حتى هنا في الغسق النقيّ، هنا تحت السماء النيلية العميقة، هنا، الحيّة بطيور السمّامة بطيرانها الدائري والعث المنطلق بسرعة، هنا في حضرة الليل الذي لم يُضئه بعد نور القمر الأحمر بلون الدم من خلف الكنيسة كشمسٍ ساقطة، يفرش إشعاعه ليس على الغسق الحاضر للوطاويط المُسقسقة، ولا على الليل الحاضر للجدجد والسُّبد الأميركي، بل يتركّز كحسير البصر على مكان الاجتماع؛ ونحن نتقدّم بحركات متصلبة، بأعضاء متيبّسة وأصوات صمتت الآن، كأنها في معرض حتى في الظلام، والقمر عين رجل أبيض محتقنة بالدماء.

وأتقدَّم بصرامة أكثر من البقية كلهم مع إحساسٍ بالمثول أمام المحكمة؛ وتذبذب نواقيس الكنيسة يُثير أعماق اضطرابي، يقتربُ أكثر من ذروته مع إحساسٍ بالموت. وأتذكّر الكنيسة بكهوفها الممتدة، طويلة ومنخفضة كأنها ترتفع دمويةً من الأرض كارتفاع القمر؛ يكسوها نبات الكرمة وهي بلون التربة كأنها تنتمي إلى التربة أكثر من انتمائها إلى الإنسان. ويندفع ذهني نحو الراحة بعيداً عن غسق الربيع وعبق عبير الزهور، بعيداً عن المشهد الزمني للصَّلْب إلى المزاج الزمنيّ للولادة؛ من غسق الربيع وصلوات المساء إلى قمر الشتاء العالي، والصافي، والمشرق، والثلج يتلألأ على أشجار الصنوبر القزمة حيث بدل النواقيس، هناك جوقة الأرغن، والترومبون تنشد التراتيل للمسافات التي تكسوها الثلوج، جاعلة من هواء الليل بحراً من المياه الصافية تقفز على اليابسة الناعسة إلى أبعد ما يصل إليه الهدير، على امتداد أميال لا تُحصى، جالبة التوزّع الجديد حتى غولدن داي، بل وحتى دار المجانين. ولكن في حضور الغسق أتقدَّمُ نحو نواقيس ما يُشبه الموت في الهواء العبق بعبير الأزهار، تحت القمر المرتفع.

ألجُ الباب ثم أنتقل إلى الأضواء الخافتة، بصمت، مجتازاً صفوف المقاعد المستقيمة والمُعذّبة، أفتش عن المُخصص لي بينها وراضخاً لألمها. وهناك في أعلى المنصة بما عليها من منبر الوعظ ودرابزين النحاس المصقول اصطفت جوقة الطلاب الأوائل على شكل هرميّ، بوجوه هادئة ومتبلدة فوق لباس رسمي أبيض وأسود؛ وفوقها، وتمتد حتى السقف أنابيب آلة الأرغن العالية، في تسلسل هرميّ غوطيّ من قشرة الذهب الكليلة.

من حولي كان الطلاب يتحركون بوجوم داخل أقنعة رصينة، وأشعر أنني أسمع للتو أصواتاً ترتفع آلياً في أداء أغانٍ يُحبها الزوار. (يُحبونها؟ بل مطلوبة. تُغنّى؟ بل هي إنذار مقبول تحول إلى طقس، وولاء يُتلى سعياً وراء السلام الذي تُشيعه، ولذلك ربما تُحبّه. تُحبّه كما يُحبُ المهزومون رموز هازميهم. هي إيماء قبول، وشروط وُضِعَتْ وقُبِلَتْ على مضض) وهنا جلستُ جامداً، أتذكّر الأمسيات التي أمضيتُها أمام المنصَّة الممتدَّة بخوفٍ وسرور، وبسرور الخوف؛ أتذكّر العِظات الرسمية القصيرة التي أُلقيتْ من المنبر هناك، بنبرات صوت واضحة وسلسة، وبطمأنينة هادئة خالية من ذلك

الانفعال العنيف للوعّاظ الفجّين الذين كانت تعرفهم غالبيتنا في بلداتنا ونخجل منهم بشدة، تلك المناشدات المنطقية التي كانت تصلنا كإقحام منظومةٍ صلبةٍ ورسميةٍ لا تتطلّب أكثر من صفاء فتراتٍ منتظمة، والحركة المُهدهدة لكلماتٍ متعدّدة المقاطع تبثّ فينا الحماسة والعزاء. وأتذكّر، أيضاً، أحاديث المتكلمين الزائرين، وكلّهم توقٌ إلى إبلاغنا عن مدى كوننا محظوظين لأننا نشكل جزءاً من الطقس الرسمي «الشاسع»؛ وكم نحن محظوظون لانتمائنا إلى هذه العائلة التي تحمينا من أولئك الضالين في الجهالة والظلام.

هنا على خشبة هذا المسرح كان يُمارَس الطقس الأسود لهوراشيو ألجر[8] حسب النص الذي وضعه الله، ويأتي أصحاب الملايين ليستعرضوا أنفسهم؛ ليس ليمثّلوا فقط أسطورة طيبتهم، وثروتهم ونجاحهم وقوتهم ونزوعهم إلى عمل الخير وسلطانهم خلف أقنعة كرتونية، بل ليقدموا أيضاً أنفسهم، وتلك الفضائل بشكل محسوس! ليس الحلوى والنبيذ، بل اللحم والدم، حياً ونابضاً بالحياة، ينبض بالحياة حتى وهو مُذلّ، وقديم وذاوٍ (ومَنْ، في مواجهة هذا، لا يؤمن؟ بل حتى يمكن أنْ يشك؟)

وأتذكّر أيضاً، كيف كنا نواجه أولئك الآخرين، الذين وضعوني في جنة عدن هذه، الذين عرفناهم مع أننا لم نكن نعرفهم، الذين كانوا غير مألوفين في ألفتهم، يجرجرون كلماتهم التي يُخاطبوننا بها في الدم والعنف والسخرية والتنازل مع ابتسامات ممطوطة، والذين كانوا ينصحون ويُهددون، ويبثون الرعب بكلمات بريئة وهم يصفون لنا مدى قِصَر حياتنا ومدى جراءة طموحاتنا، والحماقة الهائلة لنزقنا للارتقاء أكثر؛ والذين وهم يتكلمون، أيقظوا داخلي رؤى مُختَلَسة تنبض بالحياة عن تلألؤ زَبَدِ الدم على ذقونهم كعصير تبغهم المألوف، وعلى شِفاههم آثار الحليب المتخثّر لأثداء ضامرة لمليون أم سوداء مُستعبَدة، ومعرفة غادرة وغزيرة لكياننا، ارتوت من نبعنا

8- هوراشيو ألجر (1843–1899): كاتب قصص أميركي للمراهقين. وفيها حاول أنْ يجعل من الصِبية الفقراء والمشردين واليتامى أبطالاً بكفاحهم لكسب عيشهم ومن ثم نجاحهم في الانتقال من الفقر المدقع إلى الغنى الفاحش. وكانت في وقتها تلقى رواجاً واسعاً. – المترجم

والآن تقذف قذارتها علينا. ذلك كان عالمنا، كما وصفوه لنا، وهذا أفقنا وأرضه، وفصوله ومناخه، وربيعه وصيفه، وخريفه وحصاده بعد ألف عام مجهول قادم؛ وهذه فيضاناته وأعاصيره وهي نفسها رعدنا وبرقنا؛ وهذا ما ينبغي أنْ نتقبّله ونحبه ونتقبّله حتى وإنْ لم نكن نحبه. يجب أنْ نتقبّله – حتى في حالة غياب هذه الأشياء، وكان الرجال الذين أنشأوا سكك الحديد وبنوا السفن وأبراج الحجارة، أمام أعيننا، بلحمهم، وكانت أصواتهم مختلفة، غير مُثقلة بخطرٍ بيِّن وكان ابتهاجهم بأغانينا يبدو أصدق، واحترامهم لسعادتنا يتميَّز بلا مبالاة رقيقة وموضوعية. لكنَّ كلمات الآخرين كانت أقوى من سلطة الدولارات المبذولة للخير، وأعمق من الأعمدة المغروزة في التربة بحثاً عن البترول أو الذهب، وأشدّ بثاً للرهبة من المعجزات التي تُعدّ في المختبرات العلمية. لأنَّ أشد كلماتهم براءة كانت أعمالَ عنفٍ كنا نحن المنتمين إلى الجامعة فائقي الحساسية تجاهها على الرغم من أننا لم نتحمّلها.

وهناك على المنصّة أنا أيضاً مشيتُ وناقشتُ، بوجود طالب قائد يوجّه صوتي من أعلى رافدة خشبية وأقصى عارضة، يجعل مقاطع النبرات ترن على الرافدة الأفقية ويتردد صداها مع رنين، ككلمات تُطلَق بين أشجار البريّة، أو داخل بئر ماء بلون الإردواز؛ كان هديراً أكثر منه إحساساً، لعباً على أصداء الأبنية، انقضاضاً على جدران الأذن:

ها! إلى العقيلة بيضاء الشعر في الصف الأخير. ها! الآنسة سوزي، الآنسة سوزي غريشام، هناك في الخلف التي تنظر إلى تلك الطالبة التي تبتسم لذلك الطالب – أصغي إليّ، أنا لص الكلمات الأخرق، أقلِّد جرس الترومبيت والترومبون، أعزف الاهتزازات الأساسية كبوق جهير. هيه! يا خبيرة الأصوات العجوز، يا أصواتاً بلا رسائل، يا ريحاً لا تحمل أخباراً، أصغي إلى نبرة الأحرف الصوتية والأحرف السنّية المفرقعة، إلى الأحرف الحلقيّة الخشنة الدالة على الأسى الأجوف، التي تمتطي الآن منحنى إيقاع الواعظ الذي سمعته قبل زمن بعيد في الكنيسة المعمدانية، التي أضحت الآن مُجرّدة من صورها: لا شموس مُصابة بالنزف، لا أقمار تذرف دمعاً، لا ديدان أرض ترفض اللحم المقدس وترقص في التربة في صباح يوم الفصح. ها! إنجاز الغناء، ها! نجاح مدوٍ، ترتيل، ها! قبول، ها! نهر من

نبرات الكلمات مملوء بانفعالات غارقة، طافية، ها! مع حطام طموحات لم تتحقق وثورات وُلِدتْ ميتة، تجتاح آذانهم، ها! تصطف جامدة أمامي، أعناقٌ مشرئبة وآذان تُصيخ السمع، ها! رذاذ يُغطي السقف وهدير الروافد المُلطخة بالسواد، التصالب الموسمي لذلك الخشب المُعذِّب الناضج في أتون ألف صوت؛ تعزف ها! كأنما على آلة أكسيليفون؛ كلمات تسير بخُطى منتظمة كفرقة من الطلاب، في طول الحَرَم وعرضه، تنفخ أبواق النصر الخالية من البطولات. هيه، آنسة سوزي! رنين الكلمات التي لم تكن كلمات، نغمات زائفة تغني إنجازات لم تُنجَز بعد، تمتطي أجنحة صوتي قادمة إليك، أيتها القيِّمة العجوز، التي كانت تعرف رنين صوت المؤسِّس وتعرف لكنات وصدى وعده؛ إنَّ رأسك العجوز الأشيب يشرئب مع الشبان المُحيطين بك، بعينين مُغمضتين، ووجه منتشٍ، وأنا أرمي رنين الكلام في أنفاسي، خواري، نبعي، ككرات برّاقة الألوان تتراقص فوق دفق من الماء - أصغي، أيتها القيّمة العجوز، برّري الآن هذا الصوت بإيماء توكيد من رأسك العجوز، عيناك المُغمضتان تبتسمان وتتقوسان دلالة المعرفة، يا مَنْ لن تُخدعي بمجرد محتوى الكلمات، ليس بكلماتي، ولا بأولئك المقاتلين ذوي الزغب الذين يُداعبون جفنيك إلى أنْ يُرفرفا بالنشوة لمجرد سماع صدى ضجيج الوعد. وبعد الترتيل والسير قُدُماً، تقبضين على يدي وتغردين بصوت مرتعش «يا فتى، ذات يوم سوف تجعل المؤسِّس يفخر بك!» ها! سوزي غريشام، أيتها الأم غريشام، يا حارسة الصبايا المُثيرات الجالسات على مقاعد المتطهرات اللواتي لم يُشاهدن مياهك المقدسة ليصنعن منها جدولَهن الخاص؛ أنت، يا مَنْ تبقّى من عهد العبيد الذين أحبّهم القائمون على الجامعة لكنهم لم يفهموهم، أيتها العجوز، بسبب العبودية، لكنك تحملين شيئاً دافئاً وحيوياً ودائماً، يا مَنْ لم نكن نخجل منها في جزيرة العار تلك - إليك أنت الجالسة في الصف الأخير أوجّه دفق رنين صوتي، وفيك أفكّر بخجل وندم في أثناء انتظار بدء المراسم.

تحرّك ضيوف الشرف بصمت على المنصة، متوجهين نحو كراسيهم العالية، المحفورة بجوار الدكتور بليدسو بلباقة خادمٍ برأسٍ مهيب. كان،

كبعض الضيوف، يرتدي بنطلوناً مُخططاً ومعطف فراك ذا طية وسترة مزركشة باللون الأسود تعلوها ربطة عنق عريضة وأنيقة. كان ذلك لباسه المنتظم في مثل تلك المناسبات، وعلى الرغم مما يتسم به من أناقة، نجح في الظهور بمظهر المتواضع. بصورة ما، كان بنطلونه واسعاً حتماً عند الرُكبتين والمعطف مترهلاً عند الكتفين. راقبته يبتسم لأحد الضيوف ومن ثم لآخر، وكانوا جميعاً من البيض ما عدا واحداً؛ وعندما رأيته يضع يده على أذرعهم، ويلمس ظهورهم، ويهمس لأحد القيِّمين طويل القامة وبارز العظام الذي بدوره لمس ذراعه بودّ، شعرتُ برعشة تسري في أوصالي. أنا أيضاً كنتُ قد لمستُ في ذلك اليوم رجلاً أبيض وشعرت بأنَّ الأمر كان كارثياً، وأدركتُ حينئذٍ أنه الوحيد بيننا الذي عرفت - اللهم ما عدا الحلاّق أو مربية الأطفال - اللذين في استطاعتهما أنْ يلمسا رجلاً أبيض من دون أنْ ينالهما عقاب. وتذكرتُ أيضاً أنه كلما ارتقى ضيوف من البيض المنصة كان يضع يده عليهم وكأنه يمارس سحراً قوياً. راقبتُ أسنانه تلمع وهو يُصافح يداً بيضاء؛ ثم، بعد أنْ جلس الجميع، توجه إلى مكانه في آخر صف الكراسي.

فوقهم بمقدار عدد من المساطب من وجوه الطلاب، كان عازف الأرغن ينتظر، بعينين تنظران بشكل منحرف إلى الأرغن، ورأسه مستدير على كتفيه، ورأيتُ الدكتور بليدسو، عيناه تحومان عبر الجمهور، وفجأة يلتفت من دون أنْ يُدير رأسه. وكأنه يعطي إيماء إخفاض النغمة بعصا خفيّة. التفتَ عازف الأرغن وأحنى ظهره. تدفّق شلال من الهدير من الأرغن، منتشراً، غليظاً ومُقعقعاً، فوق الكنيسة، ويقوى ببطء. وأخذ عازف الأرغن يستدير ويتلوى على مقعده، وقدماه تطفران تحته وكأنه يرقص على إيقاعات لا صِلة لها على الإطلاق بالهدير الفخم لأرغنه.

وجلس الدكتور بليدسو مع ابتسامة رقيقة من التركيز الداخلي. لكنَّ عينيه كانتا تتحركان بسرعة، أولاً عبر صفوف الطلاب، ثم عبر القسم المحجوز للأساتذة، ونظراته السريعة تحمل تهديداً للجميع. ذلك أنه كان يُطالب بانتباه كل مَنْ يحضر تلك الجلسات. هنا كانت السياسة العامة تُعلَن ببلاغة قصوى. وشعرتُ كأنَّ عينيه تستقرّان على وجهي وهو يستعرض القسم الذي أجلس فيه. نظرتُ إلى الضيوف الجالسين على المنصة بذلك الاسترخاء

المنتبه الذي يُقابلون به دائماً عيوننا المرفوعة إلى أعلى. وتساءلتُ إلى أي واحد منهم سألجأ ليتوسط لي مع الدكتور بليدسو، لكنني كنتُ أعلم في داخلي أنه لا يوجد أحد.

على الرغم من صفوف الشخصيات المهمة المُحيطة به، وعلى الرغم من مظهر الاتّضاع والخنوع الذي جعله يبدو أضأل حجماً من الآخرين (مع أنه كان أضخم جثة)، جعلنا الدكتور بليدسو نشعر بحضوره مع تأثير أكبر بكثير. تذكرتُ الأسطورة التي تحكي كيف جاء إلى الجامعة، وهو صبي حافي القدمين مدفوعاً بحماسه إلى التعليم واجتاز مقاطعتين سيراً على قدميه حاملاً صرّة من الملابس الرثّة؛ وكيف حصل على عمل تقديم فضلات الطعام للخنازير لكنه تحوّل إلى أفضل مَنْ يتخلّص من فضلات الطعام في تاريخ الجامعة؛ وكيف أثار ذلك إعجاب المؤسِّس وجعله الصبي الذي يعمل على خدمة مكتبه. وكان كل منا يعرف حكاية ارتقائه عبر السنين من العمل الشاقّ إلى مركز الرئاسة، وكل منا تمنى في وقت من الأوقات أنْ يذهب سيراً على الأقدام إلى المدرسة أو أنْ يدفع عربة جرّ أو أنْ يؤدي أي عمل آخر يتطلب عزماً وتضحية كبرهانٍ على توقه الشديد إلى تحصيل المعرفة. أتذكّر الإعجاب والخوف اللذين أثارهما في كل شخص في الجامعة؛ وكانت الصور في الصحافة الزنجية معنونة بكلمة «متعلِّم»، بشكل تفجّرٍ كطلقة بندقية، بوجههِ الذي ينظر إليك بثقة تامة في النفس. بالنسبة إلينا كان أكثر من مجرد رئيس جامعة؛ كان قائداً، «رجل دولة» يحمل المشاكل إلى أصحاب المراكز العليا، بل إلى البيت الأبيض؛ وفي الماضي قام بالاتصال برئيس الجمهورية نفسه بشأن ما يحدث في الجامعة. كان قائدنا وساحرنا، الذي أبقى قيمة المنحة عالية، وتمويل المنح الدراسية وافراً والشعبية تتقدّم خلال أقنية الصحافة. كان والدنا الأسود بلون الفحم الذي نخشى.

مع سكون هدير الأرغن، رأيت الفتاة السمراء النحيلة تنهض من دون ضجيج وبالانضباط الصارم لراقصة حديثة، عالياً في الصفوف العليا من الجوقة، وبدأت ترتّل مقطوعة كابيلا. بدأت برقّة، كأنها ترتل لنفسها عن انفعالات في غاية الخصوصية، بنغم ليس موجَّهاً إلى المجتمعين، بل تناهى إلى أسماعهم رُغماً عن إرادتها. وأخذت ترفع صوتها تدريجياً، إلى أنْ

أصبح الصوت يبدو أحياناً قوةً متحررة تسعى إلى ولوجها، إلى اغتصابها، وهزّها، وتحريكها بإيقاع مُنتظم، وكأنه أصبح مصدر وجودها، وليس النسيج المتدفق لخلقها.

رأيتُ الضيوف على المنصة يلتفتون لينظروا خلفهم، ليروا الفتاة السمراء النحيلة بثوب أفراد الجوقة الأبيض تقفُ عالياً أمام خلفية أنابيب الأرغن، وقد أضحتْ هي نفسها أمام أعيننا أنبوباً يُعبِّر عن حزن مكبوح، مضبوط ومُصعَّد، وقد غيَّرت الموسيقى تقاسيم الوجه النحيل والبسيط. لم أفهم الكلمات، بل المزاج العام فقط، الحزين، المُبهم والأثيريّ، للغناء. كان ينبض بالحنين، وبالندم وبالتوبة، وجلستُ وفي حلقي غُصّة بينما كانت الفتاة تغوص ببطء إلى أسفل؛ ليس لكي تجلس بل وهي في حالة انهيار منضبط، وكأنها تحاول أنْ تتوازن، لتُبقي على آخر رمق من نغمتها الختامية بإيقاع مرهف من دماء قلبها، أو بتركيز صوفيّ من كيانها، المُثبّتْ على الصوت عبر السائل المكبوح في عينيها الواسعتين المرفوعتين إلى أعلى.

لم يُصفّق أحد، لم يكن هناك غير استحسان الصمت العميق. تبادلَ الضيوف البيض ابتسامات الاستحسان. وجلستُ أفكر في الاحتمال المُرعب في أنْ أغادر هذا كله، من أنْ أُطرَد؛ متخيلاً عودتي إلى الوطن وتعنيف والديّ لي. نظرتُ إلى المشهد من أعماق يأسي، فرأيتُ المنصة وما عليها من ممثلين وكأنني أنظر من عدسة مُكبّرة بالمقلوب: أشكالاً مُصغّرة كالدُمى تؤدي طقساً لا معنى له. ثمة شخص في الأعلى، فوق رؤوس الطلاب المُصفوفة أمامي الجافة كالطحالب واللزجة كالشحم بالتناوب، يُصدر البلاغات من مِقرأ يُضيئه نور مُعتم. ونهض شخص آخر وأمَّ صلاة. وتكلّم أحدهم. ثم بدأ كل من حولي يرتلون «قُدني، قُدني إلى صخرة أعلى مني». وكأنَّ هدير الصوت يحتوي قوة أشدّ مهابة من صورة المشهد الذي كان بمنزلة النسيج الضامّ الحيّ، شدَّتني إلى الخلف إلى فوريته.

كان أحد الضيوف قد نهضَ واقفاً، رجل يتصف بقُبح صادم؛ بدينٍ، ذو رأس كالكرة على عنق قصير، وأنف شديد الضخامة بالنسبة إلى صفحة الوجه الذي وضع عليه نظارة سوداء العدستين. كان جالساً بجوار الدكتور بليدسو، لكنني كنتُ شديد الاهتمام بالرئيس إلى درجة أنني لم أره حقاً.

كانت عيناي مُثبّتتين فقط على الرجال البيض وعلى الدكتور بليدسو. حتى إنه عندما نهضَ وتقدَّمَ ببطء إلى وسط المنصة، خطر لي أنَّ جزءاً من الدكتور بليدسو نهضَ وتقدَّم، تاركاً جزءه الآخر يبتسم على الكرسي.

وقف أمامنا بارتياح، وياقته البيضاء تومض كرباط بين وجهه الأسود وملابسه القاتمة، تفصل رأسه عن جسمه؛ وعَقدَ ذراعيه القصيرتين أمام برميله، وكأنه نسخة من بوذا صغير أسود. وقف برهة ورأسه الكبير مرفوع، وكأنه يفكّر؛ ثم بدأ يتكلَّم، بصوت يدور ويتذبذب مُعبِّراً عن سروره للسماح له بزيارة الجامعة مرة أخرى بعد مرور سنين عديدة. ولما كان يُلقي عِظاته في مدينة شمالية، فإنه كان قد شاهدها آخر مرة خلال الأيام الختامية للمؤسِّس، عندما كان الدكتور بليدسو هو «الثاني في ترتيب الإدارة». قال ببطء «كم كانت تلك الأيام رائعة. كانت أياماً مجيدة. أياماً ملؤها المعجزات العظيمة»

بينما كان يتكلم شكّل يديه على هيئة قفص بلمس أطراف أصابعه معاً، ثم بدأ بقدميه الصغيرتين المضمومتين يهتز بإيقاع بطيء؛ مائلاً إلى الأمام على رؤوس أصابع قدميه حتى بدا كأنه سيقع، ومن ثم يعود إلى عقبيه، وتلمس الأضواء نظّارته سوداء العدستين حتى بدا أنَّ رأسه طفا منفصلاً عن جسمه لا يربطه به إلا الياقة البيضاء. وتكلَّم وهو مائل إلى أنْ استقرّ الإيقاع.

ثم أخذ يُنعش الحلم في قلوبنا:

قال مُنغّماً نبرة صوته «... هذه الأرض القفر بعد الانعتاق، أرض الظلام والحزن هذه، والجهل والانحطاط، الأرض التي انقلب فيها الأخ على أخيه، والأب على ابنه، والابن على أبيه؛ حيث انقلب السيد على العبد والعبد على السيد؛ حيث كل شيء صراع وظلام، وأرض تتوجّع. إلى هذه الأرض جاء نبيّ متواضع، جاء ببطء كنجار الناصرة المتواضع، عبد وابن عبيد، لا يعرف إلا أمه. لقد وُلِدَ عبداً، لكنه تميَّز منذ البدء بذكاء خارق وبشخصية نبيلة؛ وُلِدَ في الجزء الأسفل من هذه الأرض القفر، التي تركت الحرب عليها ندوبها، ولكن بصورة ما كان ينشر ضياءه أينما عبر. وأنا واثق من أنكم سمعتم عن طفولته المُضطربة، عن حياته النفيسة التي كاد يُدمرها قريب مجنون رشَّ الطفل بمحلول قلوي وذوَت بذوره وكيف، وهو لا يزال طفلاً وليداً، مرَّ على

مدى تسعة أيام بحالة غيبوبة شبيهة بالموت ومن ثم فجأة وبصورة مُعجزة أفاق. حتى لكأنه قام من بين الموتى أو وُلِدَ من جديد.

وهتف، مُشرقاً «آه، يا أصدقائي الصِغار، يا أصدقائي الصغار، إنها حقاً قصة جميلة. وأنا واثق من أنكم سمعتموها مرات عديدة: تذكرون كيف تحصّل على تعليمه الأول عبر الاستجواب البارع لسادته الصغار، بطريقة لم يتوقعها السادة الأكبر سناً قط؛ وكيف تعلَّم الأبجدية وعلَّمَ نفسه بنفسه القراءة وحل طلسم الكلمات السريّة، منتقلاً غريزياً إلى الكتاب المقدس بحِكمته العظمى ليستمد معرفته الأولى. وتعلمون كيف فرَّ هارباً وشقّ طريقه خلال الجبال والوديان إلى معقل المعرفة ذاك وكيف ثابر وعمل بأقصى جهده، ليلاً ونهاراً، بغية الدراسة، أو، كما نقول نحن العجائز، «لكي يحكّ رأسه على جدار الجامعة»، وتعرفون مسيرته المهنية اللامعة، وكيف كان قد بدأ يُصبح تواً خطيباً متنقلاً؛ ثم كيف تخرّج مفلساً وعاد إلى بلده بعد غياب طويل.

«ومن ثم بدأت رحلة كفاحه الأكبر. تخيّلوا، يا أصدقائي الصغار: غيوم الظلام الكثيفة تخيِّم على الأرض، والخوف والحقد يملآن السود والبيض، يرغبون في التقدُّم، لكنَّ كل واحد منهم يخاف الآخر. وسيطر على المنطقة برمّتها توتّر هائل. والجميع مرتبكون بما ينبغي عمله لتبديد الخوف والحقد اللذين جثما على البلاد كشيطان يتحيَّن الفرصة للقفز، وأنتم تعلمون كيف جاء وبيَّن لهم السبيل الصحيح لتحقيق ذلك. آه نعم، يا أصدقائي. أنا واثق من أنكم سمعتموها مراراً وتكراراً؛ عن جهود ذلك الرجل الورع، عن اتّضاعه ورؤياه الساطعة، التي تستمتعون اليوم بثمارها؛ إنه الإسمنت، تحول إلى لحم؛ وحلمه، المُدرَك وسط العراء وظلام العبودية، تحقّق الآن حتى في الهواء الذي نتنفّس، في التناغُم العذب لأصواتكم الممتزجة، في المعرفة التي تتقاسمونها كلكم - بنات وحفيدات، أبناء وأحفاد العبيد - تتقاسمونها في غرف الدرس البراقة وحسنة التجهيز. يجب أنْ تروا هذا العبد، هذا الأرسطو الأسود، يتحرك ببطء، بصبرٍ رقيق، ليس صبر رجل عادي، بل بإيمانٍ ألهمه الله - ترونه يتقدم ببطء وهو يتغلّب على كل عقبة تواجهه. يدع لقيصر ما لقيصر، نعم؛ لكنه كان يسعى بثبات بالنيابة عنكم إلى أفقٍ برّاقٍ تستمتعون به الآن...»

قال، وهو يمد ذراعيه على طولهما أمامه، «إنَّ هذا كله قيل وأُعيد قوله على امتداد البلاد، مُلهِماً شعباً متواضعاً لكنه سريع النمو. لقد سمعتموها وجعلتكم – هذه القصة الحقيقية ذات المغزى الغنيّ، هذه الأمثولة الحيّة عن مجد مُحقَّق ونُبل متواضع – أقول، جعلتكم أحراراً. حتى أنتم الذين جئتم إلى هذا المقام المقدّس فقط في هذا الفصل الدراسي تعرفونها. لقد سمعتم اسمه من آبائكم، لأنه هو الذي قادهم على الطريق، قادهم كقائد عظيم؛ كذلك الربّان العظيم في العصور البائدة الذي قاد شعبه بأمان ودون أذى عبر قاع البحر الأحمر بلون الدم. ويقتفي آباؤكم أثر ذلك الرجل الرائع عبر بحر التحامُل الأسود آمنين خارج أرض الجهل، ويخوضون عواصف الخوف والغضب، هاتفاً، **أطلقوا سراح شعبي**! وعند اللزوم، يهمس بهذا خلال تلك الأوقات عندما يكون اللجوء إلى الهمس أكثر حِكمة. وكان يُسمَع»

أصغيتُ، وظهري يضغط على المقعد القاسي، مُصاباً بالخَدَر، وتُنسَج انفعالاتي بكلماته وكأنما بنَول.

قال «وتذكروا كيف خطَّطَ أعداؤه لقتله إبّان دخوله إحدى الولايات في وقت قِطاف محصول القطن. وكيف خلال رحلته استوقفه رجل غريب لم يتّضح من تقاسيم وجهه المجدورة إنْ كان أسود أم أبيض... يقول البعض إنه كان إغريقياً. والبعض الآخر منغولياً. وآخرون خلاسياً – وغيرهم أيضاً قالوا إنه رجل أبيض ورع بسيط. كائناً مَنْ كان، وكائناً ما كان، وينبغي ألا نحكم بعيداً عن احتمال أنْ يكون مبعوثاً مباشرة من السماء – آه، نعم! – وتذكروا كيف ظهر فجأة، وأجفل المؤسِّس والحصان وهو يهتف بتحذيره، آمراً المؤسِّس أنْ يترك الحصان والعربة في منتصف الطريق ويهرع على الفور إلى كوخ معيَّن، ثم انسحب ببطء مبتعداً، بصمت شديد، يا أصدقائي الشبان، إلى درجة أنَّ المؤسِّس شكَّ في وجوده أصلاً. وتعرفون كيف تابع الرجل العظيم طريقه في الغسق، بعزيمة ولكن بحيرة وهو يقترب من المدينة. كان تائهاً، تائهاً في أحلام يقظته إلى أنْ سمع أول طلق ناري من بندقية، ومن ثم كاد سهمٌ قاتل يخترق جمجمته – آه، نعم! – وتركه مصعوقاً وكأنَّ الحياة غادرته.

«لقد سمعته من شفتيه وهو يحكي كيف استعاد وعيه وكانوا لا يزالون

منكبين عليه يتفحصون نتيجة عملهم القذر وكيف بقي مُمدَّداً يحبسُ نبضات قلبه خشية أنْ يسمعوها وينسوا فشلهم ويُطلقوا عليه *coup de grace* (رصاصة الرحمة)، حسب تعبير الفرنسيين. ها! وأنا واثق من أنَّ كلَّ واحد منكم عاش معه رحلة هروبه»، قال هذا وكأنه ينظر مباشرة إلى عينيّ المتأثّرتين. «استيقظتم مع استيقاظه، وابتهجتم مع ابتهاجه عندما رحلوا من دون أنْ يتسببوا بمزيد من الأذى؛ ونهضتم عندما نهض؛ ورأيتم بعينيه آثار خطواتهم المُثلّمة وخراطيش الطلقات التي سقطتْ على التراب حول مكان سقوط جسده؛ نعم، ودمه البارد، الذي غطاه التراب لكنه ليس مُميتاً. وهرعتم معه يملؤكم الشك إلى الكوخ الذي حدده الرجل الغريب، حيث قابل ذلك الرجل الأسود الذي يبدو معتوهاً... وتذكُرون ذلك العجوز، الذي ضحك الأطفال منه في ساحة المدينة، عجوز، ذو وجه هزلي، ماهر، أبيض الشعر. ومع ذلك كان هو الذي ضمَّدَ جراحكم مع جراح المؤسِّس. هو، العبد العجوز، مُبدياً معرفة مدهشة في مثل تلك الأمور – في *germology and scabology* (*عِلم الجراثيم وعِلم الجرب*[9]) – ها! ها! – كما كان يُسميها، وكم كان ماهراً في استخدام يديه! لأنه حلق شعر رؤوسنا، ونظّفَ جراحنا جيداً بضمادات سُرِقَتْ من منزل قائد العامة بصورة غير متوقعة، ها! وتتذكرون كيف انغمستم عميقاً مع المؤسِّس، القائد، في فن الهروب الأسود، في أول الأمر قادكم، بل في الحقيقة، لقّنكم، ذلك المعتوه ظاهرياً الذي تعلَّم حرفته في ظل العبودية. ورحلتم مع المؤسِّس تحت جنح الظلام، وأنا أعلم هذا. أسرعتم بصمت على طول قاع النهر، يقرصكم البعوض، وينعب في وجوهكم البوم، وتنقض عليكم الخفافيش، وتُخيفكم الأفاعي المُجلجة بين الصخور، وسط الوحل والحمّى، والظلام والتنهد. اختبأتم طوال اليوم التالي في الكوخ حيث نام ثلاثة عشر شخصاً في ثلاث غرف صغيرة، ووقفتم حتى حلَّ الظلام في مدخنة الموقد، ورجعتم وقد سربلكم السخام والرماد – ها! ها! – تحرسكم العجوز التي غفت فوق الموقد الذي يبدو أنه لم يكن مشتعلاً. وقفتم في الظلام وعندما جاؤوا مع كلاب

9- الكلمتان بالإنكليزية لا وجود لهما، وعلم الجراثيم أو البكتريا هو bacteriology. – المترجم

الصيد النابحة حسبوا أنها معتوهة. لكنها كانت تعرف، كانت تعرف! كانت تعرف النار! كانت تعرف النار! كانت تعرف النار المشتعلة التي لا تنطفئ! يا إلهي، نعم!»

أجاب صوت امرأة، دعماً لتكوين رؤاه داخلي، «يا إلهي، نعم!»

«وغادرتم معه في الصباح، مُستترين داخل عربة خيل مملوءة بالقطن، وسط الحمولة، حيث استنشقتم الهواء الحار من خلال ماسورة بندقية الطوارئ؛ والخرطوش، الذي شكراً لله لأنّكم لم تُضطروا إلى استخدامه، بقيَ موجوداً وجاهزاً بين الأصابع الممدودة لأيديكم. وولجتم هذه المدينة معه وخبّأكم أحد الأرستقراطيين الودودين ليلة واحدة، والليلة التالية خبّأكم حدّاد أبيض لا يكنّ أية أحقاد – وهذه تناقضات مُدهشة من تحت الأرض. الهرب، نعم! بمساعدة الذين يعرفونكم والذين لا يعرفونكم. لأنه بالنسبة إلى البعض كان يكفي أنْ يشاهدوه؛ وآخرون ساعدوا حتى دون أنْ يحصل هذا، من البيض والسود. لكنَّ الذين ساعدونا كانوا من قومنا، لأنكم تخصّونهم ولطالما كنا نساعد قومنا. وهكذا، يا أصدقائي الشبان، يا أخواتي وإخوتي، ذهبتم معه، متنقلين بين الأكواخ، ليلاً في أوقات الصباح الباكر، خلال المستنقعات وفوق التلال. سرتم قُدماً، منتقلين من يدٍ سوداء إلى أخرى وبعض أيدي البيض، وكل الأيدي تصوغ حرية المؤسِّس وحريتنا كما تصوغ الأصوات أغنية محسوسة بعمق. وأنتم، كل واحد منكم، كنتم معه. آه، كم تعلمون هذا جيداً، لأنكم أنتم الذين هربتم إلى الحرية. آه، نعم، وأنتم تعرفون القصة»

عندئذٍ رأيته يستريح، وينشر إشراقه عبر الكنيسة، ورأسه الكبير يستدير نحو كل الزوايا كالمنارة، وصوته لا يزال يتردد صداه وأنا أكافح انفعالاتي. وللمرة الأولى يُثير تحريض المؤسِّس حزني، وكأنَّ الحرَم كله يندفع ماراً من أمامي، ويتراجع بسرعة، كتلاشي حلم خلال نوم متقطِّع. وإلى جواري، تغرغرت دموع الطالب بسيل من الدموع المُشوّهة، وقسمات وجهه جامدة وكأنه يتصارع مع نفسه. وكان الرجل البدين يمثّل على الجمهور كله من دون أنْ يُبدي أدنى جهد. بدا متمالكاً تماماً لنفسه، مُختبئاً خلف نظارته السوداء، وحدها قسمات وجهه المتحركة كانت تدل على مأساته اللفظية. ولكزتُ الصبي إلى جواري.

همستُ «مَنْ هذا؟»

رماني بنظرة انزعاج، بل وحنق. قال «إنه المحترم هومر أ. باربي، من شيكاغو»

هنا أراح المتكلِّم ذراعه على المِقرأ والتفت نحو الدكتور بليدسو:

«لقد سمعتم البداية اللامعة للقصة الجميلة، يا أصدقائي الشبان. ولكن تبقى هناك النهاية المؤلمة، ولعلها من جوانب متعددة الجانب الأكثر ثراءً. الوسط الذي عاش فيه هذا الابن الرائع للصباح»

استدار إلى الدكتور بليدسو. «كان يوماً مصيرياً، يا دكتور بليدسو، سيدي، إنْ كان يحق لي أنْ أذكّرك به، لأننا كنا هناك. آه نعم، يا أصدقائي الشبان» قال هذا، مُديراً وجهه ليواجهنا من جديد مع ابتسامةِ فخورٍ حزينة. «لقد عرفته جيداً وأحببته، وكنتُ هناك»

«وتجولنا في عدد من الولايات حمل إليها رسالته. وجاء الناس للاستماع للنبي، واستجابت الحشود الغفيرة. أصحاب التفكير القديم؛ نساء يضعن المآزر ويرتدين أثواباً فضفاضة من الشيت والقطن، ورجال بملابس العمل المُرقّعة؛ بحر من الوجوه المضطربة والمتسائلة تطلّ من تحت قبعات من القش قديمة ومتهرِّئة وقلنسوات رخوة تقي من الشمس. وهناك الذين جاؤوا على متون الثيران والبغال وقطعوا مسافات طويلة سيراً على الأقدام. كان ذلك في شهر أيلول والجو شديد البرودة. ونقل بكلامه السلام والثقة في النفس إلى أرواحهم المُضطربة، ووضع نجماً أمامهم وكنا نتقدَّم نحو مشاهد أخرى، ولا نزال نحمل الرسالة.

«آه، ما أجمل أيام الترحال المتواصل تلك، الأيام المفعمة بالحيوية، أيام الربيع؛ أيام الوعد المتفتح، الذي تغمره أشعة الشمس. آه، نعم، الأيام المجيدة التي تعصى على الوصف وكان المؤسِّسُ يبني خلالها الحلم ليس هنا في هذه الأرض التي كانت حينئذٍ وادياً يباباً فقط، ولكن في أرجاء البلاد كافة أيضاً، غارساً الحلم في قلوب الناس. مُنشئاً أُسس الأمة. ناشراً رسالته التي كانت تسقط كالبذور على الأرض المحروثة، مُضحياً بنفسه، يُحارب أعداءه من كلا العِرقَين ويغفر لهم – آه، نعم، لقد أثّر فيهم، من كلا العِرقَين.

لكنَّ التقدُّم كان زاخراً برسالته، بمهمته الدقيقة؛ وفي خضمّ حماسته، وربما في خضمّ شعوره القاتل بالفخر، تجاهل نصيحة طبيبه. أكاد أرى بعين عقلي الجو المُميت لتلك القاعة المزدحمة؛ المؤسِّسَ وهو يأسر الجمهور بقبضة فصاحته الرقيقة، ويُهدهده، ويُثقّفه؛ وهناك في الأسفل، تتورّد الوجوه المنتشية بتأثير وهج المدفأة الضخمة التي أضحتْ بتوهّجها حمراء قانية؛ نعم، كانت الصفوف المبهورة تقع أسيرة الحقيقة المهيبة لرسالته. وأكاد أسمع الآن، من جديد، الهمهمة الهائلة تسكت حالما يصل صوته إلى نهاية حقبة عظيمة، وأحد المُستمعين، رجل يُجلل رأسه الشيب، يقفز واقفاً على قدميه ويصرخ «احكِ لنا عما ينبغي فعله، يا سيدي! أخبرنا حباً بالله! أخبرنا باسم الابن الذي انتزعوه مني في الأسبوع الفائت!»، وتتعالى الأصوات في أرجاء القاعة، تناشد «أخبرنا، أخبرنا!، وفجأة تُخرس الدموعُ المؤسّسَ»

يهدر صوت العجوز باربي، بالفُجاءة نفسها التي يقوم بها بحركات مشحونة وغير مكتملة حول المنصة ليُعبّر عن كلماته. رحتُ أراقب بافتتان مُشمئز، لمعرفتي بطرف من القصة، لكنَّ جزءاً مني كان ينفر من خاتمته الحزينة الحتمية.

«ويسكت المؤسِّس، ثم يخطو إلى الأمام وعيناه تعبّران عن انفعاله الشديد. وذراعاه مرفوعتان، ويبدأ بالإجابة ثم يترنح. ويعمّ الهرج. فنندفع إلى الأمام ونقوده بعيداً.

«يقفز الجمهور واقفاً من الذُعر. ويسود الرعب والفوضى، وأنين وتنهد. إلى أنْ أسمع، كقصف الرعد، صوت الدكتور بليدسو يصدح كفرقعة سوط مُهيمن بأغنية الأمل. وبينما كنا نُمدّد المؤسِّس على أحد المقاعد ليستريح، أسمع الدكتور بليدسو يوقِّع بضربات عالية على المنصّة المجوّفة، آمراً ليس بالكلمات وإنما بصوته الرائع الجهير والعميق - آه، ولكن ألم يكن مغنياً؟ أليس مغنياً حتى يومنا هذا؟ - ووقفوا، بهدوء، وغنوا معه على الرغم من ترنُّح عملاقهم. غنوا أغانيهم الطويلة السوداء المسربلة بالدم وبالعِظام:

«أي الأمل!

«والمشقّة والألم:

«أي **الإيمان!**

«والتواضُع والسخف:

«أي **التحمُّل!**

«والكفاح المتواصل في الظلام، أي:

«**النصر...**

هتف باربي، وهو يُصفق بيديه، «ها! ها! نغني بيتاً بعد بيت، إلى أنْ ينتعش القائد!» (ويُصفق بيديه)

«خاطبهم -»

(تصفيق!) «يا إلهي، يا إلهي!»

«طمئنهم -» (تصفيق!)

«بأنه -» (تصفيق!)

«كان فقط مُتعباً من بذل جهوده الحثيثة» (تصفيق!) «نعم، ويصرفهم، يُرسل كلاً إلى وِجهته مبتهجاً، بشفتين مزمومتين، ووجهه يعمل بانفعال، وكفّا يديه يتقابلان من دون إحداث أي ضجيج.

«آه، ما أجمل تلك الأيام التي حرث فيها الحقول الشاسعة، وراقب المحاصيل تنمو وتزدهر، أيام الصيف الشابة التي تغمرها أشعة الشمس...»

تنهّد صوت باربي من فرط الحنين. وبينما تنهّد بعمق لم يكن يصدر نفس واحد من جمهور الكنيسة. ثم راقبته يُخرِج منديلاً أبيض ناصعاً، وينزع نظارته القاتمة ويمسح عينيه، ومن خلال النأي المُطرد لعزلتي، راقبتُ الرجال الجالسين على المقاعد الشرفيّة يهزّون ببطء رؤوسهم المفتونة. ثم عاد صوت باربي من جديد، وقد أضحى الآن حراً، كأنه لم يسكت قط، وكأنَّ كلماته، التي تردَّد صداها داخلنا، تابعتْ تدفقها المُنتظَم على الرغم من أنّ منبعها نضب برهة من الزمن:

تابع بحزن عظيم «آه، نعم، يا أصدقائي الشبان، آه، نعم. يمكن لأمل الإنسان أنْ يرسم لوحة باللون الأحمر القاني، يمكن أنْ يحوّل نسراً مُحلّقاً إلى صقر نبيل أو إلى يمامة تئن. آه، نعم!» وهنا صرخ، وأجفلني، «آه نعم!

لكنني *عرفت*، على الرغم من ذلك *الأمل المتألّم، العظيم الذي في داخلي*، **عرفت - عرفت** أنَّ الروح العظيمة تنحدر، تقترب من شتائها الموحِش؛ وأنَّ الشمس العظيمة تنحدر. ففي وقت من الأوقات يبدأ المرء بإدراك هذه الأشياء... ورحتُ أترنّح رازحاً تحت عبء تلك المعرفة الهائل ولعنتُ نفسي لأنني أحمله. لكنَّ حماسة المؤسِّس كانت شديدة - آه، نعم! - إلى درجة أننا بينما كنا ننتقل سريعاً من بلدة ريفية إلى أخرى خلال فصل الصيف المُزدهر المجيد، سرعان ما نسيت. ومن ثم... ومن ثم... ومن... ثم...»

أصغيتُ إلى صوته ينخفض إلى مستوى الهمس؛ وكانت يداه ممدودتين وكأنه يقود فرقة موسيقية في أداء خاتمة لحن عميقة وتنخفض باطراد. ثم ارتفع صوته من جديد، نشطاً، بنبرة شبه طبيعية، وبتسارع:

«أذكُرُ إقلاع القطار، وكيف بدا كأنه يئن وهو يرتقي المنحدر نحو الجبل. كان الجو بارداً. وشكّل الصقيع بالثلج أشكاله على حواف النافذة. وكان صفير القطار طويلاً وموحشاً، وندت تنهيدة من أعماق الجبل.

«في العربة التي كانت تتقدمنا، في الدرجة الممتازة التي خصّصها له رئيس الخط الحديدي نفسه، تمدد القائد متململاً. لقد أصابه مرض مُفاجئ وغامض. وعلِمت على الرغم مما ينتابني من ألم داخلي أنَّ الشمس تنحدر، لأنَّ السماوات نفسها كانت تنقل تلك المعرفة. اندفاع القطار، وقرقعة الدواليب على الفولاذ. أذكرُ كيف نظرت من زجاج النافذة المكسو بالصقيع ورأيتُ نجم الشمال الكبير يلوح في السماء ومن ثم أضعته، وكأنَّ السماء أغمضت عينيها. كان القطار يتلوى على الجبل والقاطرة تتبختر ككلب صيد أسود، متوازية مع العربات الأخيرة المنحنية، تلهث نافثة بخارها الأبيض الشاحب وهي ترتقي بنا إلى أعلى باطراد. وسرعان ما اسودّت السماء، وأضحت خالية من القمر...»

بينما كلمة «القمرررر» يتردد صداها فوق الكنيسة، أرخى ذقنه فوق صدره إلى أن اختفت ياقته البيضاء، وجَعلتْه شكلاً من السواد الكامل المتوازن، وسمعت صرير الهواء وهو يستنشقه.

ثم صاح، ورأسه مرفوع نحو السقف، وصوته يخرج كاملاً من حنجرته،

«وكأنَّ الكواكب نفسها كانت تعلم بأمر حزننا الوشيك. فعلى صفحة ذلك الامتداد العظيم – الشاسع – من السواد القاتم انبجس نجم واحد أشبه بحجر كريم، ورأيته يومض، ثم يتحرك، وينحدر أسفل وجنة تلك السماء السوداء الفاحمة كدمعة وحيدة مترددة...»

هزَّ رأسه بانفعالٍ شديد، وزمَّ شفتيه وهو يئن «مممممممممممم»، ويلتفت نحو الدكتور بليدسو وكأنه لا يراه بوضوح، «وفي تلك اللحظة المصيرية... مممممم، جلست مع رئيسكم العظيم... مممممممممم! كان مُستغرقاً في التأمُّل ونحن ننتظر كلمة رجال العِلم، فقال لي عن ذلك النجم المُحتضِر،

«"باربي، يا صديقي، أرأيت؟»

«فأجبت، «نعم، دكتور، رأيته»

«وشعرنا مُسبقاً بأيدي الحزن الباردة تُطبق على نحورنا. فقلت للدكتور بليدسو، «فلنُصلّ»، وركعنا هناك على الأرض التي تميدُ بنا وكانت كلماتنا أصواتاً تنمّ عن حزن رهيب وأخرس أكثر منها صلاة. وعندئذٍ، ونحن ننهض لنقف على أقدامنا، نترنح مع ميلان ذلك القطار السريع، شاهدنا الطبيب يتقدَّم منا. ونظرنا بأنفاس محبوسة إلى قسمات وجه رجل العِلم الجامدة والخالية من التعبير، وسألنا بلهفة كاملة: «هل تجلب لنا الأمل أم الكارثة؟» وفي التو واللحظة أبلغنا بأنَّ القائد يقترب من نهاية رحلته...

«بعد أنْ قال هذا، انهالت الضربة القاسية وانعقدت ألسنتنا، لكنَّ المؤسِّس كان لا يزال في تلك اللحظة معنا ولا يزال الآمر. ومن بين الفريق المُسافر كله طلب مقابلة ذلك الجالس هناك أمامك، ومقابلتي بوصفي رجل دين. لكنه أراد قبل كل شيء صديقه في استشارات منتصف الليل، رفيقه في خوض معارك عديدة، الذي بقي على امتداد سنوات مُرهِقة ثابتاً في أوقات الهزيمة والنصر.

«حتى الآن أرى الممر المُظلِم يُضاءُ بأضواء مُعتمة والدكتور بليدسو يتمايل وهو يتقدمنا. وعند الباب وقف المُستخدَم والدليل، رجل أسود وآخر أبيض من الجنوب، وكلاهما يبكي. كلاهما يبكي. ولدى دخولنا نظر إلينا،

بعينين مُستسلمتين لكنهما لا تزالان تتوهجان بالنُبل والشجاعة على خلفية وسادته البيضاء؛ ونظر إلى صديقه وابتسم. ابتسم بكل ودّ إلى رفيقه القديم في السلاح، بطله المُخلِص، مُساعده، ذلك المُغني الرائع للأغاني القديمة الذي استجمع طاقته الروحية في خلال أيام اليأس والإحباط، الذي هدهد بألحانه القديمة المألوفة شكوك الحشود ومخاوفها؛ الذي جمع شمل الجهلة، والخائفين والمُشكّكين، الذين كانوا لا يزالون مغلولين بالفقر والعبودية؛ هو، هناك، قائدكم، الذي سكّن روع أطفال العاصفة. وابتسم المؤسِّس وهو ينظر إلى رفيقه. ثم مدَّ يده لصديقه ورفيقه كما أمدّ أنا يدي إليكم، وقال، «اقترب، اقترب»، فتقدّم، إلى أنْ وقف بجوار مضجعه، والضوء ينتشر مائلاً عبر كتفيه وهو يركع إلى جانبه. وامتدت اليد ولمسته برفق وقال، «الآن جاء دورك لتحمل العبء. قُدهم ما تبقّى من الطريق»، وآه، كم كان صراخ ذلك القطار وذلك الألم أكبر من ذرف الدموع!

«عندما وصل القطار إلى قمة الجبل، لم يعُد معنا. وعندما هبط القطار المنحدر كان قد رحل عنا.

«لقد أصبح القطارُ فعلياً قطارَ الحزن. جلس الدكتور بليدسو هناك مُضطرب الذهن ومُثقل القلب. ماذا عليه أنْ يفعل؟ لقد مات القائد وأُلقيَ به في مقدمة القوات كفارس رُميَ على صهوة جواد قائده الذي قُتِلَ في معمعة المعركة - على صهوة جواده المُضطرب وشبه المكسور. آه! ويا له من حيوان عظيم، أسود، نبيل، جاحظ العينين من ضجيج المعارك وترتعشان مُسبقاً بتأثير إحساسه بالخسارة. أية أوامر يجب أنْ يُعطي؟ هل يعود مع عبئه إلى وطنه، إلى حيث بدأت خطوط اللاسلكي الحارة تومض، تتكلّم، تقعقع برسالة التعزية؟ هل يستدير ويحمل الجندي الميت ويهبط به الجبل البارد والغريب إلى بيته في الوادي؟ يعود مع العينين العزيزتين الراكدتين، واليد الصلبة الساكنة، والصوت الرائع الساكت، والقائد البارد؟ يعود إلى الوادي الدافئ، إلى الأراضي النضرة التي لم يعُد في مقدوره أنْ يُضيئها برؤياه المُهلكة؟ هل يقتفي أثر رؤيا قائده على الرغم من أنه هو نفسه رحل الآن؟

«آه، طبعاً أنتم تعرفون الحكاية: كيف حمل الجثمان إلى المدينة الغريبة، والخطاب الذي ألقاه بينما قائده مُسجّى مكشوفاً وكيف عندما انتشر النبأ

الحزين، أُعلِنَ يوم حِداد في المنطقة كلها. آه، وكيف قدِمَ الأغنياء والفقراء، والسود والبيض، والضعفاء والأقوياء، والشبان والشيب، جاؤوا كلهم من أجل الصلاة على روحه – العديد منهم لم يُقدِّر قيمة القائد وخسارته إلا بعد رحيله. وكيف عاد الدكتور بليدسو، بعد انتهاء مهمته، مُواصلاً فترة حِداده مع صديقه الموجود في عربة الأمتعة؛ وكيف جاء الناس ليقدموا عزاءهم في محطات التوقف... كان قطاراً بطيئاً. قطاراً حزيناً. وعلى طول الخط، في الجبل والوادي، وأينما توجهت الخطوط الحديدية على مسارها المصيري، كان الناس يتَّحدون في حزنهم المُشترك، وكانوا، كالخطوط الفولاذية، ثابتين على حزنهم. آه، كم كان رحيلاً مُحزناً!

«وكان الوصول أشدّ حزناً. انظروا معي، يا أصدقائي الشبان، واسمعوا معي: بكاء ونحيب الذين شاركوه جهوده المبذولة. لقد عاد قائدهم العذب إليهم، بارداً كصخرة في سكون الموت الحديدي. هو الذي فارقهم سريعاً، وهو في ذروة رجولته، مُضرم نارهم وتنويرهم، عاد إليهم بارداً، وقد أضحى تواً تمثالاً من البرونز. آه، يا *لليأس*، يا أصدقائي. يا لليأس الأسود لأناس سود! أكاد أراهم الآن؛ يتجولون في أنحاء تلك المنطقة، حيث كل حجر، وطائر، وكل ورقة عشب تحمل ذِكرى ثمينة؛ وكل ذكرى ضربة مطرقة تُعيد إليهم حزنهم الكليل. آه، نعم، إنَّ بعضهم موجود هنا الآن بينكم يُجللهم المشيب، وما زالوا مُكرَّسين لرؤياه، ما زالوا يعملون في كرم العنب. ولكنهم حينئذٍ والتابوت المُجلل بالسواد والمكشوف بينهم – كذكرى لا مفرّ منها – شعروا من جديد بليل العبودية الدامس يجثم من جديد عليهم. شمّوا رائحة عفن الظلام القذر القديم ذاك، رائحة العبودية القديمة، الأسوأ من رائحة الموت القديمة الكريهة. لقد كان نورهم العذب حبيس تابوت مُجلل بالسواد، واختفت شمسهم المهيبة خلف غيمة.

«آه، ويا للعويل الحزين للأبواق الباكية! أكاد أسمعها الآن، من أركان الحَرَم الأربعة، تهدر بإيقاعات من أجل القائد الذي سقط؛ مُعلنة مراراً وتكراراً عن النبأ الحزين، تتداول خبر الرؤيا الحزينة فيما بينها عبر سكون الهواء، وكأنها لا تكاد تصدّقه، لا تفهمه ولا تقبله؛ أبواق تبكي كتلة من النساء الرقيقات يندبن محبوبهن. وجاء الناس ليغنوا الأغاني القديمة وليعبروا عن

حزنهم العصيّ على الكلام. سود، سود، سود! أناس سود بملابس أشدّ سواداً، وشارات الحِداد مُعلّقة على قلوبهم العارية؛ يغنون دون خجل أغاني السود الحزينة، يتحركون متألمين، غامرين السُبُل المنحنية، يبكون ويولولون تحت الأشجار المتدلية الأغصان وغمغماتهم الخافتة تبدو كأنها أنين الرياح في البرية. وأخيراً اجتمعوا على منحدر التل وعلى امتداد نظر العيون الدامعة، وقفوا يغنون ورؤوسهم منكّسة.

«ثم ران الصمت. زُيِّنت حواف الحفرة الوحيدة بأزهار مؤثّرة. وانتظرت حفنة من الأيدي المشدودة بقفازات بيضاء لحمل الحبال الحريرية. يا لرهبة ذلك الصمت. وتُليَت الكلمات الأخيرة. ورُميت زهرة برية واحدة كتحية وداع، تناثرت ببطء، وتطايرت وريقاتها كرقائق الثلج على التابوت الذي يُنزَل على مضض. ويستقر داخل الأرض؛ عائداً إلى التربة العريقة؛ إلى الطمي الأسود البارد... أمنا... نحن كلنا»

عندما سكت باربي كان الصمت شاملاً إلى درجة أنه كان في وسعي أنْ أسمع مولّدات الطاقة النائية عبر الحرَم تنبض في الليل كوجيب قلب فرِح. وفي مكان ما بين الجمهور بدأ صوت امرأة عجوز عويلاً حزيناً؛ مولدَ أغنية حزينة مُرتجلة ماتت قبل أنْ تولد بنشيج.

وقف باربي مرفوع الرأس، وذراعاه جامدتان على جنبيه، وقبضتا يديه مشدودتان كأنهما تكافحان بيأس لضبط النفس. وجلس الدكتور بليدسو ووجهه بين يديه. وإلى جواري تمخَّطَ أحدهم. وتقدّمَ باربي خطوة مترنحة إلى الأمام.

قال «آه، نعم. آه، نعم. آه، نعم. هذا أيضاً جزء من القصة المجيدة. ولكن لا تنظروا إليه كموتٍ، بل كمَولِد. لقد زُرِعَتْ بذرة عظيمة. بذرة استمرت في إعطاء ثمرتها في موسمها بثبات وكأنَّ المُبدِع العظيم قام من جديد. ذلك أنه تبدّى بمعنى ما، إنْ لم يكن باللحم والدم، بالروح. وباللحم أيضاً بصورة ما. إذ ألم يُصبح قائدكم الحالي ممثّله الحيّ، حضوره الجسدي؟ إذا شككتم في هذا انظروا حولكم. يا أصدقائي الشبان، يا أصدقائي الأعزاء الشبان! كيف أُخبركم أي نوع من الرجال هو الذي يقودكم؟ كيف أعبّر لكم إلى أي مدى حافظ على تعهّده للمؤسِّس، وكم كان ممثّله حيّ الضمير؟

«أولاً، يجب أنْ تنظروا إلى الجامعة كما كانت. كانت مؤسسة عظيمة منذ البداية، أؤكد لكم؛ ولكن حينئذٍ كان عدد الأبنية ثمانية، أما الآن فأصبحت عشرين؛ ثم أصبحَت الكليّة خمسين، والآن أصبحت مئتين؛ ثم أصبح مجموع الطلاب بضع مئات، في حين أنكم الآن كما قيل لي تعدّون ثلاثة آلاف. والآن حيث أصبح لديكم طرقات مُسفلتة من أجل السيارات، كانت حينئذٍ دروباً من الحجارة المسحوقة من أجل مرور الثيران وعربات تجرها البغال، وعربات تجرها الخيول. إنَّ الكلمات تعصى عليّ لأخبركم كم تاق قلبي ليعود إلى هذه المؤسسة بعد مرور وقت طويل جداً لأتنقّل بين ثروتها من الأشياء النضرة، وفي أرضها الزراعية المُثمرة وحرَمها العطِر. آه! ونباتاتها الرائعة التي تزوّد بالطاقة منطقة أكبر من مدن عديدة - وكلها شُغِّلَتْ *بأيدٍ سوداء*. وهكذا، يا أصدقائي الشبان، ما زال ضياء المؤسِّس يشع. لقد حافظ قائدكم على وعده ألف ضعف. إنني أمدحه فيما يستحق، لأنه المُهندس المُشارِكُ لتجربة عظيمة ونبيلة. إنه الخليفة المُستحق لصديقه العظيم وليس من قبيل المُصادفة أنَّ قيادته العظيمة والذكية جعلته رجلنا القائد. إنه مثال العظمة التي تستحق نيل إعجابكم. ها أنا أقول لكم، اقتدوا به. فليَصْبُ كل منكم إلى أنْ يسير ذات يوم على خطاه. إنَّ الإنجازات العظيمة لم تتحقق بعد. فنحن ما زلنا شعباً غضّاً، لكننا ننمو بسرعة. إنَّ الأساطير لم تُبتدع بعد. لا تخافوا من حمل أعباء قائدكم، وسوف يكون عمل المؤسِّس أحد الأمجاد العديدة، سيُصبح تاريخ العرق ملحمة من الانتصارات المتراكمة»

وقف باربي الآن وذراعاه ممدودتان، يشع على الجمهور، وجسمه الشبيه بجسم بوذا ساكن كقطعة ضخمة من العقيق اليماني. وشاع في أرجاء الكنيسة كلها الشهيق والنشق. غمغمت أصوات معبّرة عن إعجابها وشعرت أكثر من أي وقت آخر بالضياع. ولبضع دقائق جعلني العجوز باربي أرى الرؤيا وبتُّ الآن أعلم أنَّ مغادرة الحَرَم ستكون أشبه بالانفصال عن اللحم. راقبته يُخفِضُ ذراعيه الآن ويعود إلى كرسيه، بحركة بطيئة ورأسه مشرئب وكأنه يُصغي إلى موسيقى تتناهى عن بُعد. وكنتُ قد أخفضتُ رأسي لكي أمسح عينيّ عندما سمعتُ شهيق الصدمة يرتفع.

رفعتُ بصري، فرأيتُ اثنين من القيمين البيض يتحركان بسرعة عبر

المنصّة إلى حيث تعثّر باربي بساقيّ الدكتور بليدسو. انزلقَ العجوز نحو الأمام على يديه ورُكبتيه بينما أمسكه الرجلان الأبيضان من ذراعيه؛ وهنا عندما وقف رأيت أ-حدهما يمد يده نحو شيء موجود على الأرض ووضعه في يديه. ولم أرَ ذلك الشيء إلا عندما رفع رأسه. ولبرهة سريعة، بين تلك الإيماءة ولمعان نظارته الأكمد، رأيتُ عينيه المُجردتين من النظارة تطرفان. لقد كان هومر أ. باربي أعمى.

قام الدكتور بليدسو بمساعدته على بلوغ كرسيه وهو يتمتم عبارات الاعتذار. وبعد أنْ جلس العجوز مبتسماً، مشى الدكتور بليدسو إلى حافة المنصّة ورفع ذراعيه. أغمضتُ عينيّ عندما سمعت الأنين العميق الذي صدر عنه، والصوت المتصاعد من مجموع الطلاب. هذه المرة كانت موسيقى محسوسة بصدق، ولم تُؤدَّ للضيوف، بل لأجل أنفسهم؛ أغنية مفعمة بالأمل والنشوة. وددتُ لو أندفع إلى خارج المبنى، لكنني لم أجرؤ على فعل ذلك. جلستُ متيبساً ومنتصب القامة، يدعمني المقعد القاسي، معتمداً عليه كاعتمادي على شكل من أشكال الأمل.

لم أعُد أستطيع أنْ أنظر إلى الدكتور بليدسو، لأنَّ العجوز باربي جعلني معاً أشعر بذنبي وأقبله. ذلك أنه على الرغم من أنني لم أقصد ذلك، فإنَّ أي عمل يُعرِّضُ استمرار الحلم للخطر كان عمل خيانة.

لم أُصغِ للمتكلِّم التالي، وكان رجلاً أبيض طويل القامة ظل يربت على عينيه بمنديله ويُكرر عباراته بطريقة انفعاليّة وغير مفهومة. ثم عزفت الفرقة الموسيقية *سيمفونية العالم الجديد* لدفورجاك وكنتُ أسمع طوال الوقت ترتيلة «تهادي واهبطي أيتها العربة المريحة» يتردد صدى مطلعها الرئيس - وكانت الترتيلة الروحية المفضّلة لأمي وأبي. كان تحمّلها فوق طاقتي، وقبل أنْ يبدأ المتكلِّم التالي هرعت أتجاوز عيون الأساتذة والقيمين المُستهجنة، لأخرج إلى الليل.

ردَّد طائرٌ مُحاكٍ نغمةً من مجثمه على يد المؤسِّس التي يُنيرها ضوء القمر، مرفرفاً ذيله المجنون بضوء القمر فوق رأس العبد الراكع أبداً. مشيتُ على طول ممر السيارات الظليل، وسمعته يُغرّد خلفي. توهجت أنوار مصابيح

الشارع متلألئة في حلمِ الحَرَم المُضاء بنور القمر، وكان كل مصدر للضوء يستكين صافياً داخل قفَصِه من الظلال.

كان يمكن أنْ أنتظر حتى نهاية الصلوات، لأنني لم أكن قد ابتعدتُ كثيراً عندما سمعت أنغام الفرقة الموسيقية الخافتة، المُشرقة، تعزف مارشاً، تبعه صدح أصوات بينما خرج الطلاب أرتالاً إلى الليل. توجهتُ مع إحساس بالرعب نحو مبنى الإدارة، وعندما وصلت إليه، وقفت في ممر الباب المُظلم. رفرف عقلي كالعث الذي يحجب مصباح الشارع الذي يرمي ظلالاً على ضفة العشب من تحتي. كنتُ سأحظى بإجراء حديث صحفي حقيقي مع الدكتور بليدسو، وتذكرت خطاب باربي بامتعاض. كنتُ متأكداً من أنَّ الدكتور بليدسو كان سيكون أقلّ تعاطفاً بكثير مع طلبي، وهو الذي يحمل في ذهنه كلاماً حاضراً. وقفتُ عند مدخل الباب المُظلم أحاول أنْ أتخيَّل مستقبلي إذا ما طُرِدتُ. إلى أين سأذهب، وماذا سأفعل؟ كيف يمكن أنْ أعود إلى الوطن؟

-6-

عند أسفل منحدر المرج تحتي توجه الطلاب الذكور إلى مهاجعهم، وقد بدوا عندئذٍ بعيدين جداً عني، نائين، وكل شكل مُبهم بدا أرقى بما لا يُقارَن لعيني، أنا الذي غصتُ، بسبب نقص ما، في الظلام بعيداً عن كل ما له قيمة ومصدر إلهام. أصغيتُ إلى إحدى المجموعات تغني بانسجام لدى مرورها. وتناهت إليّ رائحة خبز ساخن يُعدّ في الفرن. خبز وجبة الإفطار الأبيض اللذيذ؛ الأرغفة التي تقطر زبداً أصفر وكنتُ غالباً أضعها في جيبي لآكلها لاحقاً في غرفتي مع مربى العلّيق المنزليّ.

بدأتِ الأضواء تظهر في مهاجع الفتيات، كتفتُّح بذور مُضيئة تُنثر في كل مكان كأنما بيدٍ خفيّة. ودرَجَ عددٌ من السيارات مارة بي. ورأيتُ مجموعة من النساء العجائز يُقمن في البلدة يقتربن. إحداهن كانت تتكئ على عصا وتضرب بها أرض الطريق بين حين وآخر كما يفعل أعمى. وتناهت إلى مسمعي نُتَفٌ من حديثهن وهن يتناقشن بحماس في أمر خطاب باربي، ويتذكرن زمن المؤسِّس، وأصواتهن المرتعشة تنسج قصة حياته وتزخرفها. ثم على طول جادة طويلة من الأشجار رأيت سيارة الكاديلاك المألوفة تقترب وتبدأ بولوج المبنى، وفجأة ملأني الرعب. وقبل أنْ أخطو خطوتين انعطفتُ وهرعتُ من جديد لأغوص في الظلام. لم أطِق مواجهة الدكتور بليدسو فوراً. كنتُ أرتعش بشدة وأنا ألحق بمجموعة الفتية السائرين على درب السيارات. كانوا يناقشون مسألة ما بحميّة، لكنني كنتُ من فرط التوتر بحيث لم أُصغِ بل اكتفيت بالسير في إثرهم، ولاحظتُ اللمعان الكليل لأحذيتهم الجلدية الصقيلة على الأشعة التي ترميها مصابيح الشارع. ورحت أحاول أنْ أصوغ ما سأقول للدكتور بليدسو، ولابد أنَّ الفتية انعطفوا نحو مبناهم،

لأنني فجأة وجدتني خارج بوابة الحرَم وأتقدّم على طول الطريق السريعة، فاستدرتُ وأسرعتُ عائداً إلى المبنى.

عندما دخلت كان يمسح عنقه بمنديلٍ أزرق الحواف. والمُصباح المُظلل الذي انعكس ضوؤه على عدستيّ نظارته ترك نصف وجهه العريض في الظل عندما امتدت قبضتا يديه المشدودتين على طول ذراعيه في الضوء أمامه. وقفت، متردداً عند الباب، وقد أدركتُ فجأةً وجود الأثاث الثقيل القديم، وآثار من زمن المؤسِّس، وصور فوتوغرافية مؤطَّرة ورُقع مُجسَّمة لرؤساء جمهورية وصناعيين، وأصحاب نفوذ - مُثبَّتة كتذكارات وأوسمة شرف على الجدران.

قال من نصف الظل، «ادخل»؛ ثم رأيته يتحرك ورأيتُ رأسه يتقدَّم، وعيناه ملتهبتان.

باشر بالقول، كأنه يمزح بهدوء، وجعلني أفقد توازني.

قال «يا فتى، أنا أفهم أنك لم تخرج بالسيد نورتن إلى الحي الشعبي فقط، بل انتهى بك الأمر أيضاً إلى مربع رخيص، يُسمّى غولدن داي»

كان تصريحاً، وليس سؤالاً. لم أقُل شيئاً فرماني بذلك التحديق المعتدل نفسه. هل ساعد باربي السيد نورتن في تهدئته؟

قال «كلا، لم يكن كافياً أنْ تأخذه إلى الحي الشعبي، بل قمت بالجولة الكاملة، أعطيته الجرعة الكاملة. أليس كذلك؟»

قلت «كلا، سيدي... أعني أنه كان مريضاً، يا سيدي. كان يجب أنْ يشرب بعض الويسكي...»

قال «وكان ذلك هو المكان الوحيد الذي تعرف للذهاب إليه، فدخلتَ إلى هناكَ لأنكَ كنتَ تعتني به...»

«نعم، سيدي...»

قال بصوت يمزج بين التهكم والتعجُّب، «وليس هذا فقط، بل أخرجته وأجلسته على الشرفة الخارجية، الفيراندا - البياتزا - كائناً ما يُطلق عليها هذه الأيام - وعرّفته على الطبقة الراقية!»

تجهمت «الطبقة االراقية! أوه – لكنه أصرّ على أنْ أتوقف، سيدي. لم يكن الأمر بيدي...»

قال «طبعاً، طبعاً»

«كان مُهتماً بأمر الأكواخ، سيدي. كان مندهشاً لوجود بقية منها»

قال، حانياً رأسه من جديد، «وطبعاً توقفت»

«نعم، سيدي»

«نعم، وأعتقد أنَّ الكوخ فتح بابه له وحكى له قصة حياته وكل تلك الثرثرة الراقية؟»

وطفقتُ أشرح الأمر.

انفجر قائلاً «يا فتى! أجادٌ أنت؟ لماذا اتخذتَ تلك الطريق أصلاً؟ ألم تكن السائق؟»

«نعم، سيدي...»

«إذن ألم ننحنِ ونتذلل ونستجدِ ونكذب لكي نحصل على منازل لائقة وممرات سيارات لكي تعرضها عليه؟ هل اعتقدتَ أنَّ الرجل الأبيض قطع ألف ميل – من نيويورك وبوسطن وفيلادلفيا لكي تُريه حياً قذراً؟ لا تقف هكذا، قُل شيئاً!»

«لكنني كنتُ مجرد سائق، يا سيدي. ولم أتوقف هناك إلا لأنه أمرني أنْ أفعل...»

قال «أمرك؟ هو الذي *أمرك*. اللعنة، إنَّ البيض دائماً يُصدرون الأوامر، إنها عادتهم. لِمَ لم تختلق عذراً؟ أما كان في وسعك أنْ تقول إنهم مُصابون بمرض – كالجُدري – أو أنْ تختار كوخاً آخر؟ لِمَ كوخ ذلك المدعو تروبلود؟ يا إلهي، يا فتى! أنت أسود وتعيش في الجنوب – أنسيتَ كيف تكذب؟»

«أكذب، يا سيدي؟ أكذب عليه، على قيِّم، يا سيدي؟ أنا؟»

هزَّ رأسه بنوع من الألم. «وأنا الذي اعتقدتُ أنني انتقيتُ فتى ذكياً. ألم تعلم أنك كنتَ تعرِّضُ الجامعة للخطر؟»

«ولكن كنتُ فقط أحاول أنْ أُرضيه...»

قال «تُرضيه؟ وها أنت ذا طالبٌ مُستجد في جامعة! إنَّ أشدّ أولاد الحرام السود حمقاً بأسماله القطنية يعرف أنَّ الطريقة الوحيدة لإرضاء رجل أبيض هي الكذب عليه! أي نوع من الثقافة تُحصِّل هنا؟ مَنِ الذي أمرك حقاً بأنْ تأخذه إلى هناك؟»

«هو، يا سيدي. ولا أحد آخر»

«لا تكذب عليّ!»

«هذه هي الحقيقة، يا سيدي»

«إنني أُحذّرك الآن، مَنْ أوحى لك بذلك؟»

«أُقسم يا سيدي. لا أحد أمرني»

«أيها العبد، ليس هذا وقت الكذب؟ أنا لستُ رجلاً أبيض. أخبرني الحقيقة!»

وكأنه صفعني. حدّقتُ عبر طاولة المكتب وأنا أفكّر. لقد نعتني *بالعبد*...

«أجب، يا فتى!»

فكّرتُ في نفسي، وقد لاحظتُ نبض العرق البارز بين عينيه، قلت، *بذلك، نعتني بذلك*.

قلت «أنا لا أكذب، يا سيدي»

«إذن مَنْ هو ذلك المريض الذي كنتَ تتحدث معه؟»

«لم أره من قبل، يا سيدي»

«ماذا كان يقول؟»

تمتمت «لا أتذكر كل شيء. كان الرجل يهذي»

«أفصح. ماذا قال؟»

«إنه يعتقد أنه عاش في فرنسا وأنه كان طبيباً عظيماً...»

«تابع»

«قال إنه يعتقد أنّني أعتقد أنَّ الرجل الأبيض على صواب»

«ماذا؟». فجأة التوى تعبير وجهه وتشوّه كأنه سطح من الماء الداكن. قال الدكتور بليدسو، وهو يكظم ضحكاً قذراً، «وأنت تعتقد هذا، أهذا صحيح؟ أهذا صحيح؟»

لم أُجب، وقلتُ في نفسي، *أيها، أيها*...

«مَنْ كان، هل سبق أنْ قابلته من قبل؟»

«كلا، سيدي. لم أقابله»

«أكان من الشمال أم من الجنوب؟»

«لا أعلم، يا سيدي»

ضرب بقوة على الطاولة. «يا لها من جامعة للعبيد! أيّها الفتى، ماذا تعرف خلاف أنْ تدمِّر مؤسسةً خلال نصف ساعة استغرقَ بناؤها أكثر من نصف قرن؟ هل كان **يتكلَّم** بنبرة شماليّة أم جنوبية؟»

قلت «كان يتكلَّم كرجل أبيض، غير أنَّ صوته بدا جنوبياً، كأنه واحد منا...»

قال «يجب أنْ أُجري بحثاً عنه. إنَّ عبداً كهذا يجب أنْ يُسجن»

دقّت ساعة عبر الحرَم عند رُبع الساعة وشعرت بشيء داخلي يكتم رنينها. التفتُّ إليه يائساً. «دكتور بليدسو، إنني في غاية الأسف. لم تكن لدي أية نيّة في الذهاب إلى هناك لكنَّ الأمور خرجت من يدي. والسيد نورتن يتفهَّم كيف وقع الأمر...»

قال بصوت مرتفع «أصغِ إليّ، يا فتى. إنَّ السيد نورتن وأنا شخصان مختلفان، وفي حين أنه قد يعتقد أنه راضٍ، أعلم *أنا* أنه ليس كذلك! إنَّ حكمك الضعيف قد سبّب لهذه الجامعة أذى هائلاً. وبدل أنْ ترفع من قدر عرقنا، خسفتَ به الأرض»

نظر إليّ وكأنني ارتكبتُ أسوأ جريمة يمكن تصورها. «ألا تعلم أننا لا نتحمّل أمراً كهذا؟ لقد منحتكَ فرصةً لتخدم أحد أفضل أصدقائنا من البيض، الذي كان يمكن أنْ يوفر لك ثروة، لكنك في مقابل هذا جررت كامل العرق إلى القذارة!»

فجأة مدّ يده نحو شيء موجود تحت ركام من الأوراق، أصفاد قديمة للساق من أيام العبودية التي كان يصفها بكل فخر بأنها «رمز تقدُّمنا»

قال «يجب أنْ تنضبط، يا فتى. لا مجال للتردُّد في هذا»

«لكنكَ وعدتَ السيد نورتن...»

«لا تقف هكذا وتُخبرني بما أعرف أصلاً. بغضّ النظر عما قلتُ،

فبوصفي قائد هذه المؤسسة لا يمكنني أنْ أدع هذا الأمر يمرّ. أيها الفتى، سوف أتخلَّص منك!»

لابد أنَّ الأمر وقع عندما ارتطم المعدن بطاولة المكتب، لأنني فجأة وجدتني أميل باتجاهه، وأنا أصرخ بحنق.

قلت «سوف أُخبره، سوف أذهب إلى السيد نورتن وأخبره. لقد كذبتَ علينا كلينا...»

قال «ماذا! أتجرؤ على تهديدي... وفي مكتبي؟»

صرخت «سوف أُخبره، سأخبر الجميع. سوف أحاربك. أُقسم، سأحارب!»

قال، مسترخياً على الكرسي «يا سلام، يا سلام، هكذا إذن!»

تأمّلني برهة ورأيتُ رأسه يعود ليغوص في الظل، وسمعت صوتاً مرتفعاً، رفيعاً كأنه صرخة حنق؛ ثم تقدَّم وجهه إلى الأمام ورأيت ضحكته. حدّقت برهة؛ ثم استدرت واتجهت نحو الباب، وأنا أسمعه يتمتم من خلفي «انتظر، انتظر»

استدرتُ. شهق طلباً للتنفُّس، وهو يدعم رأسه الكبير بيديه والدموع تسيل على وجهه.

قال، وهو ينزع نظارته ويمسح عينيه، «هيا، تعال. تعال، يا بنيّ» كان صوته ينم عن التسلية والمُصالحة. وكأنني كنتُ أخضع لاختبار الانتساب إلى أخوية ووجدتني أعود. نظر إليّ، وما زال يضحك من فرط البهجة. شعرت بالتهاب في عينيّ.

قال «يا فتى، أنت *حقاً* أحمق. أنت لم تتعلَّم أي شيء من أصحابك البيض وذكاؤك الفطري جعلك بارداً. ماذا حدث لكم أيها الزنوج الشبان؟ ظننتُ أنك استوعبتَ ما يجري هنا. لكنك لا تعرف حتى الفرق بين الأشياء كما هي وكما يُفترَض أنْ تكون عليه». وشهق «يا إلهي، إلى ما سيؤول إليه عرقنا؟ في استطاعتك يا فتى أنْ تُخبر مَنْ تشاء – اجلس هنا... اجلس، يا سيدي، أنا آمركَ!»

أجلسُ، على مضض، مُمزَّقاً بين الغضب والافتتان، كارهاً نفسي لأنني أطيع.

قال «أخبر مَنْ تشاء، لا يهمني. لن أرفع إصبعي الصغيرة لأمنعك. لأنني لا أدين بأي شيء لأحد، يا بُنيّ. مَنْ، الزنوج؟ الزنوج لا يديرون هذه الجامعة أو أي شيء آخر – ألم تتعلّم حتى هذا؟ كلا، يا سيدي، ليسوا هم مَنْ يُديرون هذه الجامعة، ولا حتى البيض. صحيح أنهم *يدعمونها*، ولكن *أنا* الذي يُديرها. أنا كبير وأسود وأقول «نعم، يا سيدي[10]» بأعلى صوتي كأي موتور جيد، لكنني ما زلت الملك هنا. لا يهمني إلى أي مدى يبدو الوضع غير ذلك. ليست السلطة مُضطرة إلى التباهي. السلطة هي ثقة، ثقة في النفس، ثقة في النفس وكبحٌ للنفس، تحمية النفس وتبرير النفس. عندما تحصل عليها، تعرفها. فليسخر الزنوج وليضحك المتبجحون! هناك الحقائق، يا بنيّ. الأشخاص الوحيدون الذين أتظاهر بأنني أرضيهم هم *الشخصيات المهمة* من البيض، وحتى هؤلاء أتحكم فيهم أكثر مما يتحكمون فيّ. هذا هو أساس السلطة، يا بنيّ، وأنا أتولى القيادة. فكِّر في هذا. وعندما تعاندني، فإنك تعاند السلطة، سلطة الأثرياء البيض، وسلطة الدولة – وهذا يعني سلطة الحكومة!»

سكت لكي يُتيح لي أنْ أستوعب كلامه وانتظرت، شاعراً بحنق خدِر، عنيف.

قال «وسوف أخبرك شيئاً يخشى أساتذة عِلم الاجتماع أنْ يُخبروك به. لو لم يتوفر رجالٌ مثلي ليديروا جامعات كهذه، لما كان هناك جنوب. ولا حتى شمال. كلا، ولما كان هناك بلد – ليس كما هو اليوم. فكِّر في هذا، يا بنيّ» وضحك. «لقد حسبت أنه مع توفر كل تلك الخُطب والدراسة أنك فهمتَ شيئاً. لكنك... حسن، هيا اذهب. قابل نورتن. وسوف تجد أنه هو الذي يُريد منك أنْ تنضبط؛ قد لا يدرك ذلك، لكنه يُدركه. لأنه يعلم أنني أعرف ما هو الأفضل لمصالحه. ما أنت إلا أسود أحمق مُثقّف، يا بنيّ. إنَّ أولئك البيض لديهم صُحُف، ومجلات، وأجهزة راديو، ومتحدثون باسمهم لينقلوا أفكارهم. وإذا أرادوا أنْ يُخبروا العالم كذبة، يمكنهم أنْ يفعلوا ذلك بصورة جيدة إلى درجة أنها تُصبح حقيقة؛ وإذا أخبرتهم أنك تكذب، سوف يُخبرون

10– يقصد أنه ينطقها على طريقة السود، «suh» وليس «sir». – المترجم

العالم بذلك حتى إذا أثبتَّ أنك قلت الحقيقة. لأنها من نوع الأكاذيب التي يُحبون أنْ يسمعوا...»

من جديد سمعتُ الضحكة العالية والرفيعة. «أنت نكرة، يا بنيّ. لا وجود لك - ألا تفهم هذا؟ إنَّ البيض يُلقّنون الجميع ماذا يجب أنْ يعتقدوا - ما عدا أشخاصاً مثلي. أنا الذي *أُلقّنهم*؛ هذه هي حياتي، أنْ أُلقّن البيض كيف ينظرون إلى الأشياء التي أعرفها. يصدمك هذا، أليس كذلك؟ حسن، هذا هو واقع الحال. إنه صفقة قذرة وليست دائماً تعجبني. ولكن أصغِ إليّ. لست أنا مَنْ اخترعه، وأنا أعلم أنه ليس في استطاعتي أنْ أغيّره. لكنني حققتُ مكانتي فيه وسوف أُضطر إلى شنق كل زنجي في البلاد على أغصان الشجر بحلول الصباح إذا تطلّب بقائي في منصبي ذلك»

عندئذٍ كان ينظر في عيني مباشرة، وكان صوته مشحوناً وصادقاً، وكأنه يُدلي باعترافٍ، بكشفٍ غريب لم أستطع أنْ أصدّقه أو أُنكره. تحرّكتْ بضع قطرات باردة من العرق ببطء شديد على طول عمودي الفِقري...

قال «أنا جادّ، يا بنيّ. كان ينبغي أنْ أكون قوياً وذا عزم لكي أصل إلى حيث أنا. كان يجب أنْ أنتظر وأُخطِّط وأتملّق...»، وقال «نعم، لقد اضطررتُ إلى التصرّف كزنجي!»، مُضيفاً «نعم!» أخرى ناريّة.

«إنني حتى لا أصرّ على أنَّ الأمر كان يستحق العناء، لكنني الآن هنا وأنا جادّ حين أقول - بعد أنْ تفوز باللعبة، تتلقّى الجائزة وتحتفظ بها، تحميها؛ وليس أمامك إلا أنْ تفعل ذلك». هزَّ كتفيه استخفافاً. «إنَّ الإنسان يتقدَّم في السن عندما يفوز بمكانته، يا بنيّ. لذلك هيا، اذهب وأخبر قصتك؛ قارع حقيقتك بحقيقتي، لأنَّ ما قلتُ هو الحقيقة، الحقيقة الأرحب. اختبرها، جرّبها... عندما بدأتُ كنتُ شاباً صغيراً...»

لكنني لم أعُد أُصغي، ولا أرى إلا تراقُص الأضواء على قرصيّ نظارته بلونهما المعدني، التي بدت حينئذٍ أنها تطفو داخل بحر كلماته المُثير للاشمئزاز. الحقيقة، الحقيقة، ما الحقيقة؟ ما كان يمكن لأحد أعرفه، ولا حتى لأمي، أنْ تُصدّقني لو حاولت أنْ أخبرها. قلت في نفسي، ولن أفعل ذلك غداً، لن أفعل... حدّقتُ بعجز إلى سطح طاولة المكتب المبلّر، ثم

إلى ما بعد رأسه إلى خزانة كؤوس[11] المحبّة خلف كرسيه. وخلف الخزانة صورة فوتوغرافية للمؤسِّس وهو ينظر بالتباس إلى الأسفل.

ضحك بليدسو وقال «هي، هي! إنَّ ذراعيك شديدتا القِصَر ولا تصلحان للّكم، يا بُنيّ. وأنا لم أُضطر إلى لكم زنجي شاب منذ سنين»، ثم قال وهو ينهض «كلا، لم يكونوا شديدي الغرور كما كانوا في السابق»

هذه المرة لم أقوَ على الحركة، كانت معدتي منقبضة ورُكبتاي تؤلمانني. كانت ساقاي كالمطّاط. على مدى ثلاث سنوات لم أشعر بأنني رجل وهنا مع بضع كلمات جعلني عاجزاً كطفل. واستجمعتُ شتات نفسي...

قال، ناظراً إليّ كرجلٍ يوشك أنْ يرمي قطعة نقد في الهواء، «انتظر، توقف لحظة. تُعجبني روحك المعنوية، يا بنيّ. أنت مُقاتل، ويُعجبني هذا؛ لا تنقصك إلا المُحاكمة، مع أنَّ المُحاكمة يمكن أنْ تدمّرك. ولهذا أنا مُضطر إلى مُعاقبتك، يا بنيّ. وأنا أعلم أيضاً شعورك حيال ذلك. أنت لا تريد أنْ تعود إلى بيتك لكي تُهان، أنا أتفهّم ذلك، لأنَّ لديك بعض الأفكار المُبهمة عن الكرامة. ورُغماً عني، مثل تلك الأفكار تتسلل إليك من الأساتذة التافهين ومن المثاليين المُدرَّبين على الفِكر الشمالي. نعم، ولديك بعض الأشخاص من البيض يُساندونك وأنت لا تريد أنْ تواجههم لأنَّ لا شيء أسوأ بالنسبة إلى الرجل الأسود من أنْ يُهان من قِبَل البيض. وهذا أيضاً أعرفه؛ لقد احتُقِرَ الدكتور العجوز وتلقّى تأنيباً وما إلى ذلك. إنني لا أكتفي ***بالوعظ*** حول هذا الأمر في الكنيسة، بل ***أعرفه*** عملياً. لكنك ستتجاوز المحنة؛ إنه أمر أحمق ومُكلِف وثقيل الوطأة. دع القلق حول الكبرياء والكرامة للبيض – اعرفْ موقعكَ واحصلْ على سُلطة، ونفوذ، وصِلات مع أصحاب السلطة والنفوذ – ثم ابقَ في الظلام واستخدمها!»

قلت في نفسي، وأنا أقبض على ظهر الكرسي، إلى متى سأبقى واقفاً هنا وأتركه يضحك مني، إلى متى؟

قال «أنت مُقاتل صغير عصبيّ، يا بُني، والعِرق يحتاج إلى مقاتلين

11- كؤوس المحبّة: كؤوس ضخمة مزخرفة للشرب لها يدان، أو كؤوس تُشبهها تُقدَّم للذكرى. – المترجم

جيدين، أذكياء، ولا يحملون أوهاماً. لذلك سوف أمدّ لك يد المساعدة - لعلك تشعر بأنني أمدُّ لك يدي اليُسرى بعد أنْ صفعتُك بيدي اليُمنى - إذا اعتقدتَ أنني من النوع الذي يقود باليد اليُمنى، وهذا غير صحيح على الإطلاق. ولكن لا بأس بهذا، أيضاً، يمكنك رفضها أو قبولها. أريد منك أنْ تذهب إلى نيويورك لقضاء فصل الصيف وتوفر كبرياءك - ونقودك. اذهب إلى هناك واكسب رسوم جامعتك للعام التالي، أتفهم؟»

أومأتُ برأسي إيجاباً، عاجزاً عن الكلام، وأنا أتلوّى بحنق في داخلي، أحاول أنْ أتعامل معه، أنْ أُطابق ما كان يقول مع ما كان قد قال...

قال «سوف أُحمِّلكَ رسائل إلى بعض أصدقاء الدراسة ليروا ماذا تستطيع أنْ تعمل. ولكن هذه المرة، استخدم قُدرتك على الحكم، ابق عينيك مفتوحتين، وانخرط في معمعة الأحداث! ثم، إذا أحسنت التصرف، ربما... يعني، ربما... الأمر منوط بك» سكت صوته وهو واقف، طويل القامة وأسود وذو عينين بنظارة، ضخم.

قال، بنبرة صوت سريعة، ورسمية، «هذا كل شيء، أيها الشاب. أمامك يومان لتُرتّب أمورك»

«يومان؟»

قال «يومان!»

هبطتُ الدّرَج وقطعتُ الممشى في الظلام، وخرجت من المبنى قبل أنْ أنحني لأمرّ من تحت نبات الويستريا المتدلي من الأشجار على تعريشة تشبه الحبال. كانت فوضى كاملة وعندما انتهتْ رفعتُ نظري خلال الأشجار المُقنطرة عالية وباردة من فوقي لأرى قمراً مدوّماً بحجم مُضاعَف. كانت عيناي زائغتين. اندفعتُ نحو قمري، مُظللاً عينيّ بيدي لأتفادى الاصطدام بالأشجار وأعمدة النور التي تبرز في دربي. تابعت المسير، وفي فمي مرارة وشاكراً لأنَّ الوقت ليل وليس من شاهدٍ على حالتي. شعرت بألم في معدتي. ومن موقعٍ ما من هدوء الحَرَم تناهى إلى سمعي لحن بلوز قديم مُخصَّص للغيتار على آلة بيانو نشاز، كموجة خفّاقة كسول، كتردُّد صدى صفير لقطارٍ يشعر بالوحشة، ومن جديد ارتطم رأسي بشجرة هذه المرة، وسمعته يصطدم بالتعريشات المزهرة.

عندما عجزتُ عن الحركة، بدأ رأسي يدوِّم كالدائرة. وتدفق شريط أحداث اليوم. تروبلود، السيد نورتن، الدكتور بليدسو والغولدن داي، بدوامة سوريالية مجنونة. وقفتُ في الممر حاجباً عينيّ وأحاول أنْ أُبعِد النهار، ولكنني في كل مرة كنتُ أرتطمُ بقرار الدكتور بليدسو. كان لا يزال يتردد صداه في ذهني وكان حقيقياً ونهائياً. ومهما كانت مسؤوليتي عما حدث، كنتُ أعلم أنني سأدفع الثمن، وأنني سوف أُطرَد، ومن جديد أخذتِ الفكرةُ نفسها تطعنني من الداخل. وقفتُ هناك على الممشى المُنار بضوء القمر، أحاول أنْ أستبق في تفكيري عواقبه، متخيلاً الرضا الذي سيشعر به الذين يحسدونني على نجاحي، وخيبة أمل والديّ. لن أقبل أبداً الخزي. سوف يشعر أصدقائي من البيض بالاشمئزاز وتذكّرتُ الخوف الذي سيخيّم على كل الذين لا يحظون بحماس أصحاب النفوذ من البيض.

كيف وصلتُ إلى هذا؟ بقيتُ واقفاً لا أتزحزح على الدرب الممتد أمامي، حاولت أنْ أكون بالضبط كما كان متوقَّعاً مني، وقمتُ بالضبط ما كان متوقَّعاً مني أنْ أفعل - مع ذلك، بدل أنْ أفوز بالجائزة المتوقّعة، ها أنا أتقدّم متعثّراً، مُغمضاً بيأس إحدى عينيّ لكي أتفادى ضرب رأسي بشيء مألوف يتمايل أمامي على الدرب ويغشي بصري. والآن لكي يُثير جنوني شعرتُ فجأة بصورة جدّي تحوّم فوقي، راسماً ابتسامة انتصار عريضة من قلب الظلام. ببساطة لم أستطع تحمُّل ذلك. لأنّه على الرغم من ألمي وغضبي، لم أكن أعرف سبيلاً آخر للعيش، ولا أشكالاً أخرى للنجاح متوفرة لأجلي. لقد كنتُ أشكّل بصورة تامة جزءاً من ذلك الوجود الذي اضطررتُ في نهاية المطاف أنْ أجعل منه سلامي. وهذا أمر مستحيل، فإما هذا أو أنْ أعترف بأنَّ جدّي كان على صواب. وهذا مستحيل، لأنه على الرغم من أنني ما زلت أؤمن بأنني بريء، رأيتُ أنَّ البديل الوحيد لأواجه عالم تروبلود وغولدن داي بشكل دائم هو أنْ أقبل مسؤوليتي عما حدث. وبصورة ما، اقتنعتُ بأنني خرقت النُظُم وعليه يجب أنْ أرضخ للعقاب. قلت في نفسي، إنَّ الدكتور بليدسو على حق، هو على حق؛ يجب حماية الجامعة وما تمثّله. ولا سبيل آخر، ومهما عانيتُ سوف أُسدد ديوني بأسرع وقت ممكن وأعود إلى المبنى وإلى مسيرتي ومستقبلي...

في غرفتي أحصيتُ مدّخراتي، بلغت حوالي خمسين دولاراً، وقرّرتُ أنْ أذهب إلى نيويورك بأسرع وقت ممكن. إذا لم يُغيِّر الدكتور بليدسو رأيه بشأن مساعدتي للحصول على عمل، سوف يكفيني لدفع أجرة السكن والطعام في نُزُل الرجال، الذي سمعتُ عنه من أصحاب نزلوا هناك في أثناء عطلهم الصيفية. وسوف أغادر في الصباح.

وهكذا في أثناء ما كان رفيقي في الغرفة يرسم ابتسامة عريضة ويُغمغم في نومه حزمت أمتعتي.

في صباح اليوم التالي استيقظتُ قبل أنْ يقرع الجرس وكنتُ جالساً على المقعد في غرفة مكتب الدكتور بليدسو الخارجية عندما ظهر. كانت سترة بذلته الصرج[12] الزرقاء مفتوحة، كاشفة عن سلسلة ذهبية ثقيلة تصل بين جيبيّ بذلته وهو يتقدّم مني بخُطى خرساء. مرَّ من دون أنْ يبدو أنه يراني. ثم عندما وصل إلى باب مكتبه قال، «أنا لم أغيِّر رأيي فيك، يا فتى. ولا أنوي أنْ أفعل!»

قلت، وقد رأيته يستدير بسرعة، وينظر نحو الأسفل إليّ، بعينين مازحتين، «أوه، أنا لم آتِ من أجل هذا، يا سيدي»

«حسن جداً، ما دمت تفهم هذا. ادخل واعرض شأنك. لدي عمل أقوم به»

انتظرتُ أمام طاولة المكتب، أراقبُه يضع قبعته على مشجب من النحاس القديم. ثم جلس أمامي، مُشكلاً قفصاً بأصابع يديه وموميئاً لي كي أبدأ.

التهبت عيناي وبدا صوتي غريباً. قلت «أودّ أنْ أغادر هذا الصباح»

تراجعت عيناه. قال «ولِمَ هذا الصباح؟ لقد منحتك فرصة حتى يوم غد. لِمَ العجلة؟»

«ليست عجلة، يا سيدي. ولكن ما دمتُ يجب أنْ أغادر أودّ أن أباشر العمل. والبقاء حتى الغد لن يُغيِّر شيئاً...»

قال «كلا، لن يُغيِّر. هذا تفكير سليم وأمنحك موافقتي. ماذا أيضاً؟»

«هذا كل شيء، يا سيدي، ما عدا أنني أريد أنْ أقول إنني آسف لِما بدر

12- الصرج: قماش من الصوف متين.

مني وإنني لا أكنُّ أية ضغائن. إنَّ ما فعلتُ لم يكن مقصوداً، لكنني أوافق على معاقبتي»

تلامست رؤوس أصابعه معاً، وتلاقت الأصابع البدينة برقّة، وخلا وجهه من التعبير. قال «هذا هو الموقف اللائق. بعبارة أخرى، أفهم أنكَ لا تنوي أنْ تضمر حقداً، أليس كذلك؟»

«نعم، سيدي»

«نعم، أرى أنك بدأتَ تتعلّم. جيد. ثمة شيئان على شعبنا أنْ يقوم بهما وهما قبول مسؤوليته عما يصدر عنه من أعمال وأنْ يتجنب الحقد». ارتفعت نبرة صوته مع الإيمان الراسخ الذي تتصف به خطاباته في الكنيسة. «يا بنيّ، إذا لم تضمر الضغينة، لا شيء يستطيع أنْ يقف في طريق نجاحك. تذكّر هذا»

قلت «سأفعل، يا سيدي». ثم غصّتْ حنجرتي وتمنيت أنْ يُثير بنفسه موضوع العمل.

بدل ذلك نظر إليّ بنزق وقال «أي شيء آخر؟ لدي عمل أُنجزه. لقد منحتك موافقتي»

«حسن، يا سيدي، أود أنْ أطلب منك معروفاً...»

قال بنبرة لاذعة «معروف. هذه مسألة أخرى. وأي نوع من المعروف؟»

«ليس الكثير، يا سيدي. لقد اقترحت أنْ تجعلني على اتصال مع بعض القيّمين لكي يوفروا لي عملاً. إنني راغب في تولي أي عمل»

قال «أوه، نعم، نعم، طبعاً»

بدا أنه يفكر قليلاً، وعيناه تُدقّقان في الأغراض التي على طاولة المكتب. ثم لمس القيدَ برفق بسبابته، وقال «حسن. متى تنوي أنْ تغادر؟»

«على متن أول حافلة، إذا أمكن، يا سيدي»

«هل حزمت أمتعتك؟»

«نعم، يا سيدي»

«حسن، اذهب واحضر حقائبك وعُدْ إلى هنا بعد نصف ساعة. سوف تُعطيك سكرتيرتي بعض الرسائل موجّهة إلى عدد من أصدقاء الدراسة. سوف يعمل أحدهم على مساعدتك»

نهضتُ واقفاً وقلتُ «شكراً لك، يا سيدي. شكراً جزيلاً»

قال «لا بأس. إنَّ الجامعة تحاول أنْ تعمل على مصلحتها الخاصة. ثمة أمر آخر. إنَّ تلك الرسائل ستكون مختومة؛ فلا تفتحها إذا أردت أنْ تحصل على المساعدة. إنَّ القوم البيض صارمون في مثل هذه المسائل. الرسائل سوف تُعرِّف بك وتطلب مساعدتك لإيجاد عمل. وسوف أبذل أقصى جهدي من أجلك وليس من الضروري أنْ تفتحها، مفهوم؟»

قلت «أوه، لم أكن أفكر في فتحها، يا سيدي»

«حسن، سوف تعطيك إياها الصبيّة لدى عودتك. وماذا عن والديك، هل أخبرتهما؟»

«كلا، يا سيدي، إذا أخبرتهما بأنني طُرِدتُ فسوف يحزنان، لذلك أنوي أنْ أكتب لهما رسالة بعد أنْ أصل إلى هناك وأحصل على عمل...»

«فهمت. لعلّ هذا أفضل»

قلت، وأنا أمدّ يدي له، «حسن، وداعاً، سيدي»

قال «وداعاً». كانت يده كبيرة ورخوة بصورة غريبة.

ضغط على زر الجرس بينما كنتُ أغادر. حفّت بي السكرتيرة لدى مروري خلال الباب.

كانت الرسائل في انتظاري لدى عودتي، وعددها سبع، مُوجّهة إلى رجال ذوي أسماء مهمة. بحثت عن اسم السيد نورتن لكنني لم أجده بينها. وضعتها بعناية في جيبي الجانبية، وحملت حقائبي وهرعت لألحق بالحافلة.

-7-

كانت المحطة خالية، لكنَّ شباك التذاكر كان مفتوحاً وثمة حمّال ببزة رسمية رمادية اللون يكنس بمكنسة. اشتريت بطاقتي وارتقيت الحافلة. لم يكن هناك إلا مسافران جالسان في الصف الأخير من الداخل الأحمر والمكسو بالنيكل، وفجأة شعرت بأنني أحلم. كان المحارب القديم، الذي ابتسم لي دلالة تعرّفه عليّ؛ وإلى جواره جلس مرافق.

هتف «أهلاً، أيها الشاب»، ثم قال لمرافقه «تصوَّر، يا سيد كرينشو، أصبح لدينا رفيق سفر!»

قلت على مضض «صباح الخير». تلفّتُ حولي بحثاً عن مقعد بعيد عنهما، ولكن على الرغم من أنَّ الحافلة كانت خالية تقريباً، فإنَّ الجهة الخلفية كانت مُخصّصة لنا ولم يكن أمامي إلا أنْ أنتقل إلى الخلف معهما. لم يُعجبني ذلك؛ فالمحارب القديم كان يشكل أكثر مما ينبغي جزءاً من تجربةٍ كنتُ أحاول أنْ أمحوها من وعيي. وطريقته في التحدث مع السيد نورتن أنذرتْ بسوء حظي - تماماً كما شعرت أنه سيكون. والآن وقد قبلتُ عقوبتي، أردتُ ألا أتذكَّر أيَّ شيء له صِلة بتروبلود أو بغولدن داي.

لم يكُن كرينشو، الرجل الأضأل حجماً بكثير من المُرافِق، لم يكن من النوع الذي يُرسَل عادة ليرافق حالات عنيفة وكنتُ سعيداً إلى أنْ تذكّرتُ أنَّ الشيء العنيف الوحيد في طبيب بيطري هو لسانه. لقد سبق لفمه أنْ أوقعني في المشاكل وتمنّيتُ ألا يُصيب به قائد الحافلة الأبيض - لأنَّ *ذلك* يمكن أنْ يتسبّب في قتلنا كلنا. ماذا كان يفعل في الحافلة على أية حال؟ يا إلهي، كيف تصرّفَ الدكتور بليدسو بتلك السرعة؟ ورحتُ أحدِّقُ إلى الرجل البدين.

سأل «كيف حال صديقك السيد نورتن؟»

قلت «بخير»

«ألـم تعُد تنتابه نوبات إغماء؟»

«كلا»

«هل لامَكَ على ما حدث؟»

قلت «لم يلُمني»

«عظيم. لعلّي صدمتُه أكثر من أي شيء شهده في الغولدن داي. آمل ألا يكون قد تسبّب لك بأية متاعب. أعتقد أنَّ دوام الجامعة لم ينته بعد، أليس كذلك؟»

قلت بخفّة «ليس بالضبط. إنني ذاهب لأستلم عملاً»

«رائع! في الوطن؟»

«كلا، لقد وجدتُ أنني قد أكسب نقوداً أكثر في نيويورك»

قال «نيويورك! هذا ليس مكاناً، إنه حلم. عندما كنتُ في مثل عمرك كانت شيكاغو. والآن كل الفتية السود الصغار يهربون إلى نيويورك. فراراً من النار إلى بوتقة الصهر. يمكن أنْ أراك بعد أنْ تعيش في هارلم ثلاثة أشهر. سوف تتغيَّر طريقة كلامك، سوف تتحدث كثيراً عن «الجامعة»، وسوف تحضر محاضرات في نُزُل الرجال... بل وقد تقابل حفنة من الرجال البيض»، ثم قال، مائلاً نحوي حتى مسافة الهمس، «اسمع، وقد ترقص ربما مع فتاة بيضاء!»

قلت، متلفتاً حولي، «أنا ذاهب إلى نيويورك لأعمل، ولن يتوفر لدي وقت لهذا»

قال ليُضايقني «بل سيتوفر. سوف تفكر في أعماقك في الحرية التي سمعتَ عنها هناك في الشمال، وسوف تجرّبها في الحال، فقط لترى إنْ كان ما سمعته صحيحاً»

قال كرينشو «هناك أنواع أخرى من الحرية بجوار بعض النساء البيض القذرات والعجائز. قد يرغب في مشاهدة بعض العروض وتناول الطعام في بعض المطاعم الكبرى»

رسم المحارب القديم ابتسامة عريضة. «طبعاً، ولكن تذكَّر، يا كرينشو، أنه ذاهب ليمكث فقط بضعة أشهر. وسوف يعمل معظم الوقت، وسوف يُضطر إلى ممارسة قسم كبير من حريته بأسلوب رمزيّ. وما هو رمز الحرية الأسهل منالاً بالنسبة إليه أو إلى أي رجل؟ ولَوْ، إنه المرأة، طبعاً. في غضون عشرين دقيقة يمكنه أنْ يملأ ذلك الرمز بكل الحرية التي سيكون من فرط الانهماك في العمل بحيث لا يستمتع بها في الوقت المتبقّي. سوف يرى»

حاولتُ أنْ أغيّر الموضوع. سألتُ «إلى أين أنت ذاهب؟»

قال «إلى واشنطن دي سي»

«إذن فقد شُفيتَ؟»

«شُفيت؟ ليس هناك علاج –»

قال كرينشو «إنه منقول»

قال المحارب القديم «نعم، أنا ذاهب إلى مستشفى سينت إليزابث. إنَّ أساليب السلطات مُبهمة حقاً. فمنذ عام وأنا أحاول أنْ أُنقَل، وفي صباح هذا اليوم إذا بهم فجأة يطلبون مني أنْ أحزم حقائبي، ولا يسعني إلا أنْ أتساءل إنْ كان لحديثنا القصير مع صاحبك السيد نورتن صِلة بهذا»

قلت، متذكّراً تهديد الدكتور بليدسو، «كيف يمكن أنْ يكون للسيد نورتن صِلة بالأمر؟»

قال «وكيف حصل أن كانت له صِلة بوجودك على متن هذه الحافلة؟»

غمز بعينه. ولمعت عيناه. قال «حسن، انسَ ما قلتُ. ولكن إكراماً لله، تعلَّم أنْ تنظر إلى ما تحت السطح. اخرج من الضباب، أيها الشاب. وتذكّر أنّه ليس من الضروري أنْ تكون أحمق كبيراً لكي تنجح. شارِكْ في اللعبة، ولكن لا تؤمن بها – إنك تُدين لنفسك كثيراً بهذا كله. حتى وإنْ أودى بك الأمر إلى الجنون أو إلى غرفة مُبطَّنة[13]. شارك في اللعبة، ولكن مارسها بأسلوبك الخاص –في جزء من الوقت على الأقلّ. شارك في اللعبة، ولكن ارفع قيمة الرهان، يا بنيّ. تعلَّم آليّة اللعبة، تعلَّم كيف تمارسها على ***طريقتك***– ليت

13– الغرفة المُبطّنة: يوضع بها المرضى العقليون لكيلا يؤذوا أنفسهم. – المترجم

لديّ من الوقت الكافي لأخبرك عن طرفٍ منها. لكننا شعب فاشل. بل قد تفوز في اللعبة. إنها حقاً مسألة فجّة جداً. تنتمي إلى عصر ما قبل النهضة –وقد حُلِّلَتْ تلك اللعبة، وأُلِّفَتْ عنها كُتب. أما هنا فقد نسوا كيف يعتنون بالكتب وهذه فرصتك. أنت مُستتر في العراء– أي، سوف تكون كذلك إذا أدركته. إنهم لن يروك لأنهم لا يتوقعون أنْ يعرفوا أي شيء، لأنهم يعتقدون أنهم اهتموا بهذا الأمر...»

قال كرينشو «يا رجل، من «هم» الذين تُكثر من الكلام عنهم؟»

بدا الانزعاج على المحارب القديم. قال «هم؟ هم؟ إنهم الـ «هم» الذين نعنيهم دائماً، البيض، السلطة، الآلهة، القدر، الظروف – القوة التي تتحكّم فيك إلى أنْ ترفض ذلك التحكُّم. الرجل الكبير الذي لا وجود له، وتعتقد أنه موجود»

كشّر كرينشو. قال «إنك تُكثِر من الكلام، يا رجل، تتكلّم ولا تقول أي شيء» «أوه، إنَّ لديّ الكثير من الكلام أقوله، يا كرينشو. إنني أصوغ بكلماتٍ أشياءَ يشعر بها معظم الناس، ولو قليلاً. طبعاً، أنا بصورة ما متحدثٌ بالإكراه، لكنني في الحقيقة مهرّج أكثر مني أحمق»، ثم قال، وهو يدحرج صحيفة ملفوفة موضوعة على رُكبتيه، «ولكن، يا كرينشو، أنت لا تدرك ما الذي يحدث. إنَّ صاحبنا الشاب متجه شمالاً للمرة الأولى! هي المرة ***الأولى***، أليست كذلك؟»

قلت «هذا صحيح»

«طبعاً. هل سبق لك أنْ زرت الشمال مرة، يا كرينشو؟»

قال كرينشو «لقد جلتُ في أرجاء البلد كلها. وأعرف كيف يفعلون ذلك، أينما فعلوه. وأعرف كيف أتصرَّف أيضاً. ثم، أنت لستَ متوجهاً إلى الشمال، ليس إلى الشمال الحقيقي. أنت ذاهب إلى واشنطن. إنها مجرد مدينة جنوبية أخرى»

قال المحارب القديم «نعم، أعلم هذا، ولكن فكِّر فيما يعنيه بالنسبة إلى الشاب. سوف ينطلق حراً، في وضح النهار ووحيداً. أنا أذكُر متى كان شبانٌ مثله يرتكبون أول جريمة لهم، أو يُتَّهمون بها، قبل أنْ يُحاولوا فعل ذلك.

وبدل أنْ يرحلوا مع أول خيوط الفجر، يرحلون في ظلام الليل. وليست هناك حافلة سريعة بالقدر الذي يرغبون – أليس كذلك، يا كرينشو؟»

توقف كرينشو عن حل الورقة عن قضيب السكاكر ونظر إليه بحدّة، وضيَّق عينيه. قال «وما أدراني؟»

قال المحارب القديم «آسف، يا كرينشو، حسبتُ أنَّ رجلاً مُجرِّباً...»

«حسن، أنا لستُ مُجرِّباً. لقد ذهبتُ إلى الشمال بكامل حريتي»

«ولكن ألم تسمع عن مثل هذه الحالات؟»

قال كرينشو «إنَّ السماع ليس «تجريباً»»

«كلا، هو ليس كذلك. ولكن بما أنَّ هناك دائماً عنصر الجريمة في الحرية –»

«أنا لم أرتكب أية جريمة!»

قال المحارب القديم «لم أقصد أنْ أقول هذا. أنا أعتذر. انسَ ما قلتُ»

أخذ كرينشو قضمة غاضبة من قضيب السكاكر، مُغمغماً، «أتمنى لو تُسرع وتصبح كئيباً، فقد لا تُكثِر من الكلام عندئذٍ»

قال المحارب القديم متهكماً «حاضر، دكتور، سوف أصبح كئيباً سريعاً، وبينما أنت تأكل سكاكرك اسمح لي أنْ أواصل كلامي؛ إنَّ ثمة نوعاً من الواقعية في الأمر»

قال كرينشو «أوه، كُفَّ عن محاولة استعراض ثقافتك. أنت جالس مثلي هنا في الخلف في القسم المُخصص للزنوج. ثم إنك معتوه»

غمز المحارب القديم لي بعينه، والكلمات تتدفق منه بينما بدأت الحافلة تتحرك. ها نحن ننطلق أخيراً وألقيتُ آخر نظرة طويلة بينما الحافلة تندفع عند منعطف الطريق السريعة التي تدور حول الجامعة. استدرتُ وراقبتُها تتراجع من النافذة الخلفية؛ كانت أشعة الشمس تلامس قمم أشجارها، وتغسل أبنيتها المنخفضة وأرضها المُحيطة المُنظَّمة. ثم اختفت. وفي أقلّ من خمس دقائق اختفت بقعة الأرض التي كنتُ أُطابقها مع أفضل ما في العوالم الممكنة كلها، ضاعت داخل الريف البرّي غير المحروث. ثم جذبتْ عيني حركةٌ كالومض إلى جانب الطريق السريعة، فرأيتُ حذاءً يسير

مُسرعاً على طول الإسمنت الرمادي، مُختفياً داخل مسافة من أنبوب من الحديد ممدود على جانب الطريق. وراقبتُ حقول القطن والأكواخ تمرّ بسرعة كبيرة، شاعراً بأنني أتقدَّم نحو المجهول.

استعدَّ المحارب القديم وكرينشو لتبديل الحافلات عند الموقف التالي، ولدى مغادرتهما، وضع المحارب القديم يده على كتفي ونظر إليّ برقّة، وكعادته دائماً، ابتسم.

قال «لقد حان الوقت لكي أنفحك نصيحة أبوية، لكنني سأوفّر عليك هذا – بما أنني أعتقد أنني لست أبَا أحدٍ غير نفسي. وربما هذه هي النصيحة التي يجب أنْ أعطيك: كُنْ والد نفسك، أيها الشاب. وتذكَّر أنَّ العالم احتمالٌ إذا اكتشفتَ هذا. وأخيراً، دع السيد نورتن وشأنه، وإذا كنتَ لا تفهم ما أعني، فكِّر فيه. وداعاً»

راقبته يلحق بكرينشو خلال مجموعة من المسافرين ينتظرون الركوب، وشكله القصير، الهزلي، يتحول إلى موجة، ومن ثم يختفي داخل باب المحطة الأخيرة الأحمر القرميدي. استرخيتُ في جلستي مع تنهيد ارتياح، ومع ذلك حالما استقلّ المسافرون الحافلة وتحركت من جديد، شعرتُ بحزن وبوحشة شديدة.

لم تبدأ حالتي النفسية بالتحسُّن من جديد إلا عندما بدأنا نلج منطقة ريف جيرزي. ثم انتعشت ثقتي بنفسي وتفاؤلي، وحاولتُ أنْ أُنظِّم وقتي وأنا في الشمال. سوف أعمل بجدّ وأخدم مخدومي بإخلاص لكي يُمطِر الدكتور بليدسو بالتقارير المرجوّة. وسوف أدّخر نقودي وأعود في الخريف مُحمّلاً بثقافة نيويورك. سوف أكون بلا جدال شخصية الجامعة الرائدة. وقد أحضر ربما اجتماع البرج، الذي سمعتُ عنه عبر المذياع. سوف أتعلّم خدع المتكلمين الكبار التي يمارسونها على المنصّة. وسوف أعقد أفضل الصِلات. وعندما أقابل الشخصيات الكبيرة الموجّهة رسائلي إليها سوف أتلبَّس أفضل سلوك ممكن. سوف أتكلَّم برفق، بأفضل نبرة صوت مصقولة، وأبتسم بودّ وأكون في غاية الأدب؛ وسوف أتذكّر أنه إذا طرح (وضمير «هو»

هنا يعني أياً من السادة البارزين) موضوعاً للحديث (ولا ينبغي أنْ أبدأ أنا أي حديث) أجده غريباً، سوف أبتسم وأتفق معه. ويجب أنْ يكون حذائي مُلمّعاً، وبذلتي مكوية، وشعري مُصفّفاً (لا ينبغي أنْ يكون زيتياً كثيراً) ومفروقاً من جهة اليمين؛ وسوف تكون أظافري نظيفة وتحت إبطي عطِر الرائحة - وانتبه إلى المادة الأخيرة. لن تدعهم يعتقدون أننا **جميعاً** تفوح منا رائحة كريهة. ومجرد التفكير في الأشخاص الذين سأتصل بهم منحني إحساساً بالرقيّ، وبأنني خبرتُ الحياة مما جعلني، وأنا أتحسّس بأصابعي الرسائل المهمة التي في جيبي، أشعر بالخفّة وبالعظمة.

حلمتُ وعيناي تحدّقان إلى المشهد الطبيعي بنظرة جوفاء إلى أنْ رفعتُ بصري لأرى مُحصّل التذاكر ينظر إليّ متجهّماً، قال «يا هذا، هل ستنزل؟ إذا كنت ستنزل، فافعل الآن»

قلت، وقد بدأت أتحرك، «أوه، طبعاً، طبعاً، ولكن كيف يمكن الوصول إلى هارلم؟»

قال «أمر سهل. اتجه شمالاً ولا تتوقف»

وبينما كنتُ أُنزِل حقائبي وحقيبة السفر التي نلتها كجائزة، وما زالت تلمع كليلة مباراة في الملاكمة، أرشدني إلى القطار النفقي، ثم أخذتُ أشقّ طريقي بصعوبة بين الحشد.

لدى تقدّمي من النفق كان حشد العامة الهادر من البيض والسود يدفعني إلى الأمام، ثم أمسكَ بي من الخلف عاملُ القطار الضخم الجثّة بحجم المُرافِق، يرتدي بزّة رسمية زرقاء، وحشرني، مع الحقائب وكل شيء، إلى داخل قطار شديد الازدحام إلى درجة أنّه بدا كأنَّ كل شخص واقف ورأسه يميل إلى الخلف وعيناه جاحظتان، كدجاجة جمدت في مكانها لدى سماعها إشارة الخطر. ثم أوصِد الباب بقوة خلفي وسُحِقتُ على امرأة ضخمة الجثة ترتدي الأسود هزّتْ رأسها وابتسمت وأنا أُحدّق من شدة الرعب إلى الخال الضخم البارز من البياض الزيتيّ لبشرتها كجبل أسود ينحدر نحو سهل بللّه المطر. وطوال الوقت كنتُ أشعر بالنعومة المطاطيّة للحمها على طول جسمي. لم أتمكن من التحرك جانباً ولا إلى الخلف، ولا

أنْ أضع حقائبي أرضاً. كنتُ محشوراً بشدّة حتى إنني لو أومأت برأسي، للامست شفتاها شفتيّ. كنتُ أرغب بيأس في أنْ أرفع يديّ لأبيِّن لها أنَّ الأمر خارج عن إرادتي. ظللتُ أتوقع منها أنْ تصرخ، إلى أنْ مالت العربة أخيراً وتمكنتُ من تحرير ذراعي اليسرى. أغمضتُ عينيّ، وأنا مُتمسّك بقوة بطيّة سترتي. زأرت العربة وتمايلت، وضغطتني بقوة عليها، ولكن عندما ألقيتُ نظرة مختلسة حولي وجدتُ أنَّ لا أحد يوليني أدنى انتباه. وحتى هي بدتْ مستغرقة في أفكارها. وبدا أنَّ القطار كان عندئذٍ ينحدر أسفل تل، ثم توقّف وقذفني إلى الخارج على الرصيف شاعراً كأنني شيء قُذِفَ من بطن حوت مسعور. كافحتُ مع حقائبي ورحتُ أنساب مع الحشد، إلى أعلى الدرج ومنها إلى الشارع الحارّ. لم آبه لمكان وجودي، سوف أمشي ما تبقّى من الطريق.

للوهلة الأولى وقفتُ أمام واجهة محل أحدّقُ إلى انعكاس صورتي على الزجاج، مُحاولاً أنْ أبرأ من تجربة الركوب محشوراً على امرأة. كنتُ متراخياً، وملابسي رطبة. قلت لنفسي «لكنك فوق في الشمال الآن، فوق في الشمال». نعم، ولكن ماذا لو أنها صرخت... في المرة التالية التي سأركب فيها القطار النفقي سوف أحرص دائماً على أنْ أدخل ويداي تقبضان على ياقة سترتي وأنْ أُبقيهما هناك حتى أغادر. يا إلهي، لابد أنَّ الشجارات تقع في تلك القطارات طوال الوقت. لِمَ لم أقرأ عنها؟

لم أكنْ قد شاهدتُ كل ذلك العدد الغفير من السود يسيرون بين الأبنية المشيّدة بالقرميد، وأضواء النيون، وزجاج الواجهات الكبيرة وحركة المرور الهادرة – ولا حتى في رحلات قمتُ بها مع فريق المناظرة إلى نيو أورلينز، أو دالاس أو برمنغهام. كانت في كل مكان أعداد غفيرة، تتقدم بكثير من التوتُّر والضجيج حتى إنني لم أكن متيقّناً مما إذا كانوا مقبلين على الاحتفال بيوم عطلة أم أنهم سينخرطون في قتال شوارع. بل كان هناك فتيات من السود خلف النضد في نادي فايف أند تن لدى مروري. ثم عند تقاطع الطرق صُعقتُ برؤية شرطيّة سوداء توجّه حركة المرور – وكان هناك سائقون من البيض وسط حركة المرور، أطاعوا إشاراتها وكأنه أمرٌ عاديّ كأيّ شيء عاديّ في العالم. طبعاً كنتُ قد سمعتُ عن ذلك، ولكن هذه كانت حقيقية.

واستعدتُ شجاعتي. هذه حقاً هارلم، والآن كل القصص التي سمعت عن وجود مدينة داخل مدينة انتعشت في ذهني. لقد كان المحارب القديم على صواب: فبالنسبة إليّ تلك لم تكن مدينة أشياء واقعية، بل مدينة أحلام؛ ربما لأنني طالما اعتبرتُ حياتي مُقتصرة على الجنوب. والآن وأنا أكافح لأتقدَّم بين أرتال الناس أتعرَّفُ على عالمٍ جديد ما زال باهتاً من الإمكانات، كصوت ضعيف بالكاد يُسمَع وسط هدير ضجيج المدينة. تنقّلت جاحظ العينين، أحاول أنْ أتقبّل سيل الانطباعات. وفجأة توقفتُ ساكناً.

كان أمامي، غاضباً وصارخاً، وعندما سمعته انتابني إحساس بالصدمة والخوفِ كاللذين أحسستُ بهما وأنا طفل عندما فاجأني صوت والدي. إنه خواء أخذ يتسع داخل معدتي. أمامي كان تجمّع من الناس كاد يسدّ الطريق، بينما أطلَّ عليهم من فوق رجل بدين وقصير يهتف بغضب من على سلَّم ثُبِّتت عليه مجموعة من الأعلام الأميركية الصغيرة.

صرخ الرجل «سوف نُطردهم. سوف نطردهم!»

هتف صوت «احكِ لهم، أيها الزعيم»

رأيتُ الرجل القصير والبدين يهزّ قبضة يده بغضب من فوق الوجوه المرفوعة إليه، زاعقاً بشيءٍ بنبرة صوتٍ متقطعة هنديّة غربية، وصرخ الحشد رداً عليه مُهدداً. وكأنَّ شغباً سيعمّ في أية لحظة، ضد مَنْ لم أعلم. كنتُ مرتبكاً من تأثير صوته عليّ ومن الغضب الواضح على الحشد. فلم أكن قد شاهدتُ من قبل كل ذلك العدد الغفير من السود الغاضبين، ومع ذلك كان هناك آخرون يتجاوزون الجمع ويمرون من دون حتى أنْ يُلقوا نظرة سريعة. ولدى اقترابي رأيتُ رجلَي شرطة من البيض يتحدثان معاً بهدوء، وظهراهما مُستديران ويضحكان على مزحة ما. حتى عندما صرخ الحشد بأكمام قمصانهم المرفوعة بغضب توكيداً لملاحظة أدلى بها المتكلّم، لم يولياهم أي انتباه. وذُهلتُ. وقفتُ فاغراً فمي أمام الشرطيين، وحقائبي موضوعة في وسط الشارع، إلى أنْ تصادفَ أنْ رآني أحدهما فلكز الآخر، الذي كان يمضغ بكسل كتلة من العلكة.

قال «كيف نستطيع أنْ نُساعدك، يا صاح؟»

قلت قبل أنْ أتمالك نفسي «كنتُ فقط أتساءل...»

«نعم؟»

قلت «كنتُ أتساءل كيف أصل إلى نُزُل الرجال، يا سيدي»

«أهذا كل شيء؟»

تلعثمت «نعم، سيدي»

«أواثق أنت؟»

«نعم، سيدي»

قال الآخر «إنه غريب. أوصلتَ تواً إلى المدينة، يا صاح؟»

قلت «نعم، سيدي. لقد وصلت بالقطار النفقي تواً»

«أحقاً؟ حسن، يجب أنْ تكون حريصاً»

«أوه، سأفعل، يا سيدي»

قال «هذا هو المهم. توخ الحذر»، ثم أرشدني إلى نُزُل الرجال.

شكرتهما وحثثتُ خُطاي. كان الخطيب قد أضحى أشدّ عنفاً من ذي قبل وملاحظاته كانت عن الحكومة. وقد أضفى الصِدام بين هدوء باقي الشارع وانفعال الصوت على المشهد سِمة غريبة منفصلة، وحرصت على ألا أنظر خلفي خشية أنْ أرى الشغب يندلع.

-8-

كانت غرفة صغيرة نظيفة فيها مفارش سرير بلون برتقالي داكن. وكان الكرسي وطاولة الزينة من خشب القيقب وهناك نسخة غيديون من الكتاب المقدس موضوعة على طاولة صغيرة. وضعت حقائبي وجلستُ على السرير. ومن الشارع في الأسفل تناهى ضجيج حركة المرور، وضجيج القطار النفقي الأعلى، وضجيج الأصوات الإنسانية الأكثر تنوعاً، والأقلّ علواً. وأنا وحدي في الغرفة كدتُ لا أصدّق أنني في مكان شديد النأي عن وطني، ومع ذلك لم يكن حولي أي شيء مألوف. ما عدا الكتاب المقدس؛ أخذته وجلست على السرير، وتركت حواف صفحاته الحمراء الدموية ترفرف تحت إبهامي. وتذكّرتُ كيف كان في استطاعة الدكتور بليدسو أنْ يقتطف من الكتاب المقدس في أثناء إلقاء خُطبه على جمع الطلاب في ليالي أيام الآحاد. تحولت إلى سفر التكوين، لكنني لم أتمكن من القراءة. رحت أفكر في الوطن وفي المحاولات التي بذلها والدي ليُؤسس لإقامة صلاة عائلية، بالتجمُّع حول الموقد في وقت تناول الطعام والركوع والرؤوس منكَّسة فوق مقعدات كراسينا، وفي تهدُّج صوته وامتلائه ببلاغة روح الكنيسة والاتّضاع اللفظي. لكنَّ هذا أثار فيّ الحنين إلى الوطن فوضعت الكتاب المقدس جانباً. تلك كانت نيويورك. كان يجب أنْ أحصل على عمل وأكسب نقوداً.

خلعتُ معطفي ونزعتُ قبعتي وأخرجت حزمة الرسائل واستلقيت على السرير، مُستمداً شعوراً بالأهمية من قراءة الأسماء الكبيرة. ماذا في داخلها، وكيف يمكن أنْ أفتحها دون أنْ أترك أثراً؟ لقد كانت مختومة بحزم. وكنتُ قد قرأتُ أنَّ الرسائل يمكن فتحها أحياناً باستخدام البخار، ولكن لم يكن

يتوفر لدي بخار. فتخليت عن الأمر، في الحقيقة لم أكن في حاجة إلى معرفة محتواها وليس أمراً مُشرِّفاً أو آمناً أنْ أعبث مع الدكتور بليدسو. كنتُ أعلم أصلاً أنها تخصّني وموجَّهة إلى عدد من أهم الشخصيات في البلد كله. وذلك كاف. ووجدتني أتمنى أنْ يظهر شخص أعرض عليه الرسائل، شخص يمكن أنْ يمنحني شعوراً بأهميتي. وأخيراً، ذهبتُ إلى المرآة ورسمت لنفسي ابتسامة إعجاب وأنا أنشر الرسائل على طاولة الزينة كمجموعة رابحة من أوراق اللعب.

ثم بدأتُ أُخطط لحملتي التي سأقوم بها في اليوم التالي. أولاً، سوف آخذ دشاً، ثم أتناول طعام الإفطار. هذا كله في الصباح الباكر جداً. ويجب أنْ أتحرك بسرعة. فلكي تتعامل مع شخصيات نافذة كأولئك عليك أنْ تكون دقيقاً في مواعيدك. فإذا كان لديك موعد مع أحدهم، فلا تجلب لهم أشخاصاً ملونين بطيئين. نعم، ويجب أنْ أحصل على ساعة يد. سوف أؤدي كل شيء في موعده. وتذكّرتُ السلسلة الذهبية الثقيلة التي كانت تتدلى بين جيبيّ الدكتور بليدسو والطريقة التي كان يفتح بها غطاء ساعة جيبه ليعرف الوقت، وزمّ شفتيه، وذقنه الذي يتراجع ويتضاعف حجمه، وجبينه المُجعّد. ثم يتنحنح ويُعطي أمره بنبرة صوت عميقة، وكأنَّ كل مقطع لفظي مشحون بفروق ذات مغزى في غاية الأهمية. وتذكرتُ أمرَ طردي شاعراً بغضب سريع حاولتُ كظمه في الحال؛ أما الآن فلم أكن ناجحاً تماماً، وبرز امتعاضي عند الحواف، مُسبباً لي الإزعاج. قلت لنفسي على الفور، لعل هذا أفضل. ربما لو لم يحدث ذلك لما أُتيحت لي الفرصة لأقابل رجلاً مهمّاً وجهاً لوجه. وبعين عقلي ظللتُ أراه يُحدق إلى ساعة يده، أما الآن فانضمَّ إليه شخص آخر؛ في مقتبل العمر، هو أنا؛ أصبح لاذعاً، ودمثاً ولا يرتدي ملابس كئيبة (كزملائه المُحافظين) بل بذلة أنيقة من مادة غالية، مُفصّلة على الموضة، كملابس أولئك الرجال الذين تشاهدهم في إعلانات المجلات، كالموظفين الإداريين الشبان في مجلة *إسكواير*. وتخيّلتني ألقي خطاباً وآلات التصوير الوامضة تلتقط لي صوراً بأوضاع مذهلة، تؤخَذُ في ختام فترة من الفصاحة المُسكِرة. كنسخة شابة من الطبيب، ولكنْ أقلّ فجاجة، بل أنيقة. ولن أرفع صوتي في الكلام لأعلى من مستوى الهمس وسوف

أكون دائماً – نعم، ليست هناك كلمة أخرى، سوف أكون *فاتناً*. مثل رونالد كولمن[14]. يا لصوته الرائع! طبعاً لا يمكن للمرء أنْ يتكلّم بتلك الطريقة في الجنوب، فلن يُعجِب ذلك البيض، وسوف يقول الزنوج إنك «تتصنَّع». أما هنا في الشمال فسوف أتخلّص من أساليبي الجنوبية في الكلام. والحق، سوف أتبنّى أسلوباً واحداً في الكلام وأنا في الشمال وأسلوباً آخر وأنا في الجنوب. أعطِهِمْ ما يريدون في الجنوب، تلك هي الطريقة الصحيحة. إن كان في استطاعة الدكتور بليدسو أنْ يفعل ذلك، فأنا أستطيع. وقبل أنْ ألجأ إلى السرير في تلك الليلة مسحتُ حقيبتي الجديدة بمنشفة نظيفة ووضعت الرسائل في داخلها بعناية.

في صباح اليوم التالي استقللت القطار النفقي المبكر إلى منطقة وول ستريت، مُنتقياً عنواناً حملني تقريباً حتى آخر الجزيرة. كانت مُظلمة بسبب علوّ الأبنية وضيق الشوارع. كانت تمرّ بي سيارات مُصفّحة مع حرّاس يقظين في أثناء بحثي عن العنوان. كانت الشوارع ممتلئة بأناس مستعجلين يمشون وكأنهم يُدارون ويوجَّهون بطريقة خفيّة. وكان العديد منهم يحملون حقائب رسمية وحقائب أوراق فقبضتُ على حقيبتي مع إحساس بالأهمية. وهنا وهناك رأيتُ زنوجاً مُسرعين يربطون حول رسوغهم محافظ جلدية. ذكّروني بصورة عابرة بمساجين يحملون أغلالاً في سيقانهم وهم يهربون من جماعة مُقيّدة بأصفاد. لكنهم بدوا واعين جزئيّاً بأهميتهم الذاتية، وتمنيتُ لو أوقِف أحدهم وأسأله عن سبب ربطه محفظته بسلسلة. ربما يتلقون أجراً سخياً ليفعلوا ذلك، ربما هم مُقيَّدون. ربما الرجل ذو عقبيّ القدمَين المُرهقين السائر أمامي مُقيَّد إلى مليون دولار!

نظرتُ لأرى إنْ كان هناك رجال شرطة أو شرطة سرّية يشهرون مسدساتهم ويُلاحقونني، ولكن لا أحد. أو إنْ كانوا موجودين، فهم مُستترون ضمن الحشد المُسرع. وددتُ لو ألحق بأحد الرجال لأرى إلى أين

14- رونالد كولمان (1891–1958): ممثل إنكليزي، اشتهر خاصة في حقبتيّ الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضي. فاز بجائزة الأوسكار لأحسن ممثل على دوره في فيلم «*حياة مزدوجة*» (1947) وترشّح للجائزة لعدد آخر من الأفلام. من أشهر أفلامه «*قصة مدينتين*» و«*الأفق الضائع*» و«*سجين زندا*» و«*حديث المدينة*». – المترجم

سيذهب. لِمَ يأتمنونه على كل ذلك المبلغ من المال؟ وماذا يمكن أنْ يحدث إذا ما هرب به؟ ولكن طبعاً لن يلجأ أحدٌ إلى مثل ذلك التصرُّف الأحمق. إنَّ ذلك هو وول ستريت. لعله محروس، مثلما تُحرس مراكز البريد كما قيل لي، برجالٍ يتجسَّسون عليك من ثقوبٍ في السقف أو في الجدران، يُراقبونك باستمرار، ينتظرون بصمت أنْ تقوم بحركة خاطئة. وربما هناك الآن عين رصدتني وتراقب كل حركة تصدر مني. لعل قرص تلك الساعة المُثبّتة على المبنى الرمادي على الطرف المقابل من الشارع يُخفي عينين تراقبان. هرعت إلى العنوان الذي أبغيه ولم يتحدَّني إلا علوّ الحجر الأبيض بواجهته البرونزية المنحوتة. في الداخل كان الرجال والنساء مسرعين، وبعد أنْ حدّقت قليلاً تابعتُ طريقي واستقللتُ المصعد فدُفعتُ إلى الجهة الخلفية منه. ارتفع كالصاروخ، مُثيراً إحساساً بين فخذيّ وكأنَّ جزءاً مهماً مني تُرِكَ في الأسفل في البهو.

عند التوقف الأخير تركت المصعد ومشيت مسافةَ الرواق الرخامي إلى أنْ عثرتُ على الباب الذي يحمل اسم القيِّم. ولكن عندما باشرتُ بالدخول خانتني أعصابي وتراجعت. نظرت على طول الرواق. كان خالياً. البيض أمرهم غريب؛ لعل السيد بيتس لا يرغب في أنْ يكون أول مَنْ يُقابل في الصباح الباكر شخصاً مُبكِّراً هو زنجي. استدرتُ ومشيتُ على طول الرواق وأطللت من النافذة. وانتظرتُ قليلاً.

تحتي كان ساوث فيري[15]، وكانت سفينة وقاربان لنقل البضائع تنتقل إلى النهر، وبعيداً إلى اليمين استطعت أنْ أميِّز تمثال الحرية، وكان المشعل الذي يحمله مُختفياً داخل الضباب. وفي الخلف على طول الشاطئ، حوّمت طيور النورس خلال الضباب فوق أرصفة التحميل، وفي الأسفل وبعيداً حتى إني شعرت بالدوار، كانت الحشود تتحرك. نظرتُ من جديد إلى أحد القوارب لدى مروره من أمام تمثال الحرية، وحركة المياه التي يُخلفها تشكّل خطاً منحنياً في المرفأ وثمة ثلاثة نوارس تنساب إلى الأسفل خلفه.

15- ساوث فيري: هو الطرف الجنوبي من جزيرة مانهاتن في نيويورك، ومنها تنطلق القوارب والسفن إلى جزيرة ستاتن. - المترجم

كان المصعد خلفي يُفرِغ بعض الراكبين، وسمعت الأصوات المُهللة لنسوة يُثرثرن على طول الرواق. بعد قليل سوف يتوجب عليّ أنْ أدخل. وتفاقم تردُّدي. كان مظهري يُثير قلقي. قد لا تُعجب بذلتي السيد بيتس، أو قَصّة شعري، وعندئذٍ سوف أفقد فرصتي في الحصول على عمل. نظرتُ إلى اسمه المطبوع بأناقة على المُغلّف وتساءلتُ كيف كسب ماله. كنتُ أعلم أنه مليونير. لعله كان كذلك دائماً؛ لعله وُلِدَ مليونيراً. لم يحدث قط أنْ كنتُ فضولياً إلى تلك الدرجة بشأن المال حتى اعتقدتُ أنني مُحاطٌ به. وقد أحصل على عمل هنا وبعد مرور بضعة أعوام قد أنتقل في الشوارع وملايين الدولارات مربوطة إلى ذراعيّ، كمبعوث موثوق. ومن ثم أُرسَل من جديد إلى الجنوب لأرأس الجامعة - تماماً كما تحولت طبّاخة العمدة إلى مديرة المدرسة بعد أنْ ضعُفَت ولم تعُد تقوى على الوقوف أمام الموقد. الفرق هو أنني لن أمكث في الشمال طويلاً؛ سوف يحتاجون إليّ قبل ذلك.... ولكن الآن إلى المقابلة.

لدى ولوجي غرفة المكتب وجدتني وجهاً لوجه مع امرأة شابة رفعتْ بصرها عن طاولة مكتبها بينما كنتُ ألقي نظرةً سريعة حول الغرفة الكبيرة الخفيفة، وعلى الكراسي المُريحة، وخزانات الكتب التي تصل حتى السقف والتجليد الجلديّ والذهبي، مروراً بسلسلةٍ من اللوحات الشخصية ثم عدتُ من جديد لأواجه عينيها المتسائلتين. كانت وحدها وقلت في نفسي، حسن، على الأقل لم أصل باكراً أكثر مما ينبغي...

قالت، من دون إبداء أيّ من دلائل العدائية التي توقّعت، «صباح الخير»

قلت، وأنا أتقدّم، «صباح الخير». كيف يجب أنْ أبدأ؟

«أيوه؟»

قلت «هل هذا مكتب السيد بيتس؟»

قالت «طبعاً، نعم، هو بذاته. ألديك موعد؟»

قلت «نعم، سيدتي»، وسرعان ما كرهتُ نفسي لقولي «سيدتي» لامرأة بيضاء صغيرة السن، وفي الشمال أيضاً. أخرجت الرسالة من حقيبة يدي، ولكن قبل أنْ أتمكن من شرح الأمر، قالت:

«هل لي أنْ أراها، من فضلك؟»

تردّدتُ. لم أرغب في تسليم الرسالة إلا للسيد بيتس، ولكن كانت اليد الممدودة تتَّسِم بالأمر، فأطعت. سلّمتها إياها، متوقعاً منها أنْ تفتحها، ولكن بدل ذلك، وبعد أنْ نظرتْ إلى المغلّف نهضتْ واختفت خلف بابٍ ذي ألواح خشبية دون أنْ تتفوّه بكلمة واحدة.

لاحظتُ وجود عدد من الكراسي عبر مساحة السجادة في الخلف لكنني لم أُقرر أنْ أنتقل إلى هناك. ووقفت، وقبعتي في يدي، أنظر حولي. لفتَ نظري أحد الجدران. كانت مُعلّقة عليه ثلاث لوحات شخصية لسادة عجائز يضعون ياقات ذات جناحين ويرمون نحو الأسفل من أُطُرهم نظرةَ ثقةٍ وغطرسةٍ لم أكن قد رأيتها إلا في الرجال البيض وفي بعض الزنوج السيئين الذين يحملون ندوب شَفرة الموسى. حتى الدكتور بليدسو، الذي كان يكفي أنْ ينظر حوله من دون أنْ يتكلّم حتى يجعل الأساتذة يرتجفون، لم يحمل تلك النظرة الواثقة. إذن ذلك النوع من الرجال هم الذين كانوا يُساندونه. كيف استطاعوا أنْ يتفقوا مع البيض، مع الرجال الذين منحوني منحتي الدراسية؟ وعندما عادت السكرتيرة كنتُ لا أزال أُحدّق، مأسوراً بسحر السلطة والغموض.

نظرتْ إليّ بطريقة غريبة وابتسمت. قالت «أنا في غاية الأسف، لكنَّ السيد بيتس شديد الانشغال هذا الصباح ويطلب أنْ تترك اسمك وعنوانك. وسوف يتصل بك بالبريد»

وقفتُ بصمت وقد خاب أملي. قالت، وهي تعطيني بطاقة، «دوّنه هنا»

قالت من جديد وأنا أدوِّن عنواني وأستعد للرحيل، «أنا آسفة»

قلت «يمكن أنْ يتَّصلَ بي على هذا العنوان في أي وقت»

قالت «جيد جداً. سوف نتصل بك قريباً جداً»

بدت في غاية اللطف والاهتمام، وغادرتُ وأنا مرتفع المعنويات. لم يكن لمخاوفي أساس، ولا معنى لها. إنَّ هذه نيويورك.

نجحتُ في الوصول إلى عدد من سكرتيرات القيِّمين خلال الأيام التي تلت، وكلهن كنّ ودودات ومُشجعات. بعضهن نظرن إليّ بطريقة غريبة،

لكنني لم آبه لها بما أنها لم تبدُ عِدائية. لعلهن دُهشن لرؤية شخص مثلي يحمل رسائل تعريف موجهة إلى رجال نافذين. حسن، كانت هناك خطوط خفية تمتد من الشمال إلى الجنوب، وكان السيد نورتن قد سمّاني قَدَره... أخذت أؤرجح حقيبة يدي مع إحساس بالثقة في النفس.

مع سير الأمور سيراً حسناً جداً رحتُ أوزِّع الرسائل في أوقات الصباح، وأشاهد معالم المدينة في أوقات بعد الظهيرة. كنت أجوب الشوارع، وأجلس في القطارات النفقية بجوار البيض، وأتناول الطعام معهم في المقاهي نفسها (على الرغم من أنني تجنبت الجلوس على طاولاتهم) مما أشاع فيَّ إحساساً غريباً، مُبهماً بأنني في حلم. كنتُ أشعر بأنَّ ملابسي غير مناسبة؛ ومع كل تلك الرسائل الموجّهة إلى أصحاب النفوذ، لم أعرف عن يقين كيف أتصرّف. وللمرة الأولى، وبينما كنت أتهادى في الشوارع فكَّرتُ بارتباك في سلوكي في الوطن. لم أكنْ أقلق كثيراً بشأن البيض كشعب. فبعضهم كان ودوداً والبعض الآخر لم يكن كذلك، ولا تحاول أيضاً أنْ تسيء إليهم. أما هنا فكلهم يبدون حياديّين؛ ولكن عندما يكونون في أقصى حالات الحياديّة يُذهلونني بأنّهم مؤدبين، بطلب سماحي لأنهم احتكوا بيّ وسط الزحام. ومع ذلك شعرت بأنهم عندما يكونون مؤدبين لا يكادون يرونني، وأنه كان يمكن أنْ يعتذروا من الدب جاك من دون حتى أنْ يُلقوا عليه نظرة واحدة إذا ما تصادف أن كان الدب يمشي وحده. كان أمراً مُربكاً. لم أعلم إنْ كان ذلك أمراً مرغوباً أم لا...

لكنَّ اهتمامي الرئيسيّ كان مقابلة القيّمين وبعد مرور أكثر من أسبوع من الفرجة على معالم المدينة وتلقّي التشجيع المُبهم من السكرتيرات، نفد صبري. كنتُ قد وزّعت الرسائل كلها ما عدا واحدة موجّهة للسيد إمرسون، الذي كما علِمتُ من الصحف كان غائباً عن المدينة. وقد حاولت مرات عدة أنْ أذهب لأرى ما حدث لكنني بدّلتُ فكري. لم أرغب في أنْ أبدو نافد الصبر. لكنَّ الوقت بدأ ينقضي. وإذا لم أعثر على عمل قريباً فلن أكسب ما يكفي من النقود للالتحاق بالجامعة بحلول فصل الخريف. وكنتُ قد كتبتُ للأهل في الوطن أخبرهم أنني أعمل لمصلحة عضو في هيئة القيّمين، والرسالة الوحيدة التي كنتُ قد تلقيتها حتى ذلك الحين عبروا لي فيها عن

مبلغ فرحهم ويُحذرونني فيها من أساليب المدينة *الخبيثة*. والآن لا أستطيع أنْ أكتب لهم طالباً نقوداً من دون أنْ أُفشي أمر كذبي بشأن العمل.

أخيراً حاولتُ أنْ أتصل بأصحاب النفوذ عبر الهاتف، فلم أتلقَّ من سكرتيراتهم إلا عبارات الرفض المؤدَّبة. ولكن لحسن الحظ كان لا يزال في حوزتي الرسالة الموجّهة للسيد إمرسون. فقررت أنْ أستخدمها، ولكن بدل تسليمها عبر السكرتيرة، كتبتُ رسالة أشرح فيها أنَّ معي رسالة من الدكتور بليدسو وأطلب تحديد موعد. قلت في نفسي، لعلي كنتُ على خطأ بشأن السكرتيرات؛ لعلهن تخلّصن من الرسائل. كان ينبغي أنْ أتصرّف بحرص أكبر.

فكّرت في السيد نورتن. ليت الرسالة الأخيرة كانت موجّهة إليه. ليته كان يُقيم في نيويورك لكي يكون الطلب شخصياً! وبصورة ما شعرتُ بأنني أشد قُرباً من السيد نورتن، وشعرت بأنه لو قابلني لتذكّر أنني أنا الشخص المتصل بصورة وثيقة بمصيره. الآن يبدو أنَّه قد مر وقت طويل جداً وأنه حدث في وقت آخر وعلى أرض بعيدة نائية. وفي الحقيقة لم يكن قد مرّ أكثر من شهر. وأصبحتُ نشطاً وكتبتُ له رسالة، أعبِّر فيها عن قناعتي بأنَّ مستقبلي سوف يكون مختلفاً اختلافاً كلياً إذا عملتُ معه؛ وبأنّه سيستفيد قدر استفادتي. وكنتُ حريصاً حرصاً خاصاً على الإشارة إلى استطاعتي أنْ أحضر إذا طلب. وأمضيت عدة ساعات وأنا أطبعها على الآلة الكاتبة، متخلصاً من نسخة بعد أخرى إلى أنْ حصلتُ على واحدةٍ مكتملة لا غبار عليها، ومُصوغة بعناية وبكل احترام. هرعت أنزل وأرسلتها بالبريد قبل جمع البريد الأخير، وفجأة تملكّني اعتقاد يُثير الدوار بأنها سوف تؤتي ثمارها. بقيتُ أتمشى حول المبنى على مدى ثلاثة أيام في انتظار الجواب. لكنَّ الرسالة لم تجلب أي جواب. ولا أُعيدتْ إليّ، كصلاةٍ لم يَستجِب الربُّ لها.

تزايدَتْ شكوكي. لعل الأمر كله خطأ. ولزمتُ غرفتي طوال اليوم التالي. وازداد وعيي بخوفي؛ ازدادَ هنا في غرفتي أكثر مما عرفت وأنا في الجنوب، لأنه هنا ليس من شيء ملموس أُحيله إليه. إنَّ السكرتيرات كلهن كنّ مُشجعات. وفي المساء خرجتُ لأحضر فيلماً سينمائياً، فيلماً عن الحياة الحدودية يحتوي قتالاً شجاعاً ضد الهنود وصراعاً ضد الفيضان، والعاصفة

وحريق الغابة، والمستوطنون بأعدادهم المتفوقة يفوزون بكل معركة؛ كان ملحمة عن عربات القطار التي تندفع دائماً جهة الغرب. ونسيت نفسي (على الرغم من عدم وجود أحد غيري يُشارك في المغامرات) وغادرت الصالة المُعتمة وأنا بمزاج أكثر خفّة. ولكن في تلك الليلة حلمتُ بجدّي وأفقت وأنا مبتئس. خرجت من المبنى مع شعور غريب بأنني أشتركُ في مكيدةٍ ما لم أدرك كنهها. شعرتُ بصورة ما بأنَّ بليدسو ونورتن يقفان وراءها، وأمضيت النهار كله وأنا أكبح كلامي وسلوكي، مخافة أنْ أتفوه أو أفعل شيئاً مُشيناً. قلت لنفسي، لكنَّ هذا كله وهم، لقد بالغتُ في نزقي. كان في استطاعتي أنْ أنتظر القيِّمين حتى يقوموا بخطوة ما. لعلي كنتُ أخضع لاختبارٍ من نوع ما. هم لم يُخبروني بالقواعد، كنتُ أعرفها، لكنَّ الشعور ألحّ. لعلَّ منفاي سوف ينتهي فجأة وأُمنح منحة دراسية لكي أعود إلى حرم الجامعة. ولكن متى؟ بعد كم من الوقت؟

كان ينبغي أنْ يحدث أمر ما سريعاً. سوف يتوجب عليّ أنْ أعثر على عمل يحل مشكلتي. كانت نقودي توشك أنْ تنفد وأي شيء يمكن أنْ يحدث. كنتُ من شدة الثقة بالنفس بحيث فشلتُ في ادِّخار ثمن تذكرة العودة إلى الوطن بالقطار. كنتُ بائساً ولم أجرؤ على التحدث مع أي شخص عن مشكلاتي؛ ولا حتى مع موظفي نُزُل الرجال، فبما أنهم علِموا أنني سأُعيَّن في وظيفة مهمة، راحوا يُعاملونني بقدرٍ من الاحترام؛ لذلك حرصتُ على أنْ أُخفي شكوكي المتزايدة. قلت في نفسي، قد أُضطر قبل كل شيء إلى الاستدانة وينبغي أنْ يبدو أنني أستحق أنْ يُجازَف من أجلي. كلا، إنَّ ما ينبغي فعله هو أنْ أثبت. سوف أبدأ من جديد في الصباح. ثمة أمر خاص سوف يحصل في الغد. وقد حصل. تلقيت رسالةً من السيد إمرسن.

-9-

عندما خرجتُ كان النهار صافياً ومُشرقاً، وأحرقت أشعة الشمس عينيّ. لم يكن هناك إلا بضع بقع قليلة من الغيوم البيضاء تطفو عالياً في سماء الصباح الزرقاء، وقد خرجت امرأة تواً لتنشر الغسيل على السطح. شعرت بتحسّن وأنا أمشي. تنامى لديّ شعور بالثقة بالنفس. وتحت في أسفل الجزيرة كانت ناطحات السحاب تسمق شاهقة وغامضة وسط الضباب الخفيف، الرقيق. مرّت شاحنة تنقل الحليب. تذكّرت الجامعة. ماذا يفعلون الآن في الحرَم؟ هل انخفض القمر وارتفع قرص الشمس صافياً؟ هل نُفِخَ بوق الإفطار؟ هل أيقظ خوار ثور الاستيلاد الضخم الفتيات في المهاجع هذا الصباح كما كان يفعل في غالبية أوقات الصباح في فصل الربيع وأنا هناك - يهدر صافياً وعميقاً مغطياً على رنين الأجراس ونفير الأبواق وضجيج يوم العمل الباكرة؟ وأسرعت خطاي. ربتُّ على حقيبتي، مفكّراً في الرسالة التي في داخلها. لقد كانت الأخيرة هي الأولى - هذا فأل حسن.

على حافة الطريق أمامي رأيتُ رجلاً يدفع عربة جرّ ممتلئة حتى آخرها بلفائف من الورق الأزرق وسمعته يُغني بصوت صاف رنّان. كان لحن بلوز، وتابعت طريقي خلفه متذكراً أيامَ كنتُ أسمع مثل ذلك الغناء في الوطن. بدا أنَّ بعض الذكريات تسلَّلت إلى هنا عن حياتي في الحرَم ورجعتُ بذاكرتي بعيداً إلى أشياء كنتُ قد طرحتها من ذهني منذ زمن بعيد. لم يكن هناك مفرّ من مثل تلك الذكريات.

«لها قدمٌ كقدم القرد

وساق كساق ضفدع - يا الله، يا الله!

ولكن عندما تبدأ تحبني
أهتف، وأهلل، يا الله!
لأنني أحب حبيبتي،
أكثر مما أحب نفسي...»

وأثناء سيري ذُهِلتُ عندما سمعته يهتف لي:
«اسمع يا هذا، يا صاح...»
قلت، وقد توقفت لكي أنظر إلى عينيه الحمراوين، «نعم»
«أخبرني شيئاً واحداً فقط في هذا الصباح - هيه! انتظر لحظة، يا فتى، أنا ذاهب في طريقك!»
قلت «ما الأمر.»
قال «ما أريد أنْ أعرف هو، هل *الكلب* في حوزتك؟»
«كلب؟ أي كلب؟»
قال، وهو يوقِف عربته ويسندها على دعامتها، «طبعاً، صحيح. *مَنْ* -» توقف لكي يباعد ما بين ساقيه ويضع قدماً على حافة الطريق كواعظ ريفي يوشك أنْ يسحق كتابه المقدس - «*أخذ... الـ... كلب*»، ورأسه يُطقطق مع كل كلمة كرأس ديك غاضب.
ضحكت بعصبية وخطوت إلى الخلف. راقبني بعينيه الماكرتين. قال بنوبة مُفاجئة، «أوه، يا إلهي، يا فتى، مَنْ الذي لديه الكلب؟ لقد تعرّفت عليك الآن من أرض الوطن، كيف تتصرف كأنك لم تسمع بهذا من قبل! اللعنة، ليس هناك ملونون غيرنا هذا الصباح - لِمَ تنكرني؟»
فجأة شعرت بالحرج وبالغضب. «أنكركَ؟ ماذا تعني؟»
«فقط أجِب عن السؤال. هل هو بحوزتك، أم لا؟»
«*كلب*؟»
«نعم، *الكلب*»
غضبت. قلت «كلا، ليس هذا الصباح» ورأيتُ تكشيراً يرتسم على وجهه.

قال، متظاهراً بأنه لا يُصدقني «انتظر لحظة، يا فتى. لا تغضب. اللعنة، يا رجل! كنتُ متأكّداً من أنه بحوزتك *أنت*». وانطلقتُ ودفع العربة إلى جواري. وفجأة شعرتُ بالانزعاج. كان يُشبه بصورة ما أحد الأطباء البيطريين من غولدن داي...

قال «حسن، ربما العكس بالعكس، لعله هو الذي تمسّك بك»

قلت «ربما»

«إنْ كان فعل كذلك، من حسن حظك أنه مجرد كلب - لأنني حسبت أنَّ ما تعلّق بي هو دب...»

«دب؟»

«اللعنة، نعم! *الدب*.. ألا تعلم أنَّ هناك بقعاً على مؤخرتي تحمل آثار مخالبه؟»

كشف جزئياً عن مقعدة بنطلون تشارلي تشابلن[16]، وانفجر في ضحك عميق.

قال وقد تحول وجهه بسرعة إلى الاتزان «يا رجل، حي هارلم هذا ليس إلا عريناً للدببة. لكنني سأخبرك شيئاً واحداً، إنه أفضل مكان في العالم لي ولك، وإذا لم تتحسّن الظروف قريباً سوف أحمل ذلك الدب وأذهب به إلى كل مكان ولن أُحرّره!»

قلت «لا تدعه يهزمك»

«كلا، يا صاح. سوف أبدأ بواحد بحجمي!»

حاولتُ أنْ أتذكر قولاً ما عن الدببة كإجابة، لكنني لم أتذكّر إلا الأرنب جاك، والدب جاك... اللذين نُسيا كلاهما منذ زمن بعيد والآن جلبا موجة من الحنين إلى الوطن. أردتُ أنْ أُغادره، ومع ذلك وجدت راحة خاصة بالسير إلى جواره، وكأننا مشينا هكذا من قبل في أوقات صباح أخرى، في أماكن أخرى...

قلت، مُشيراً بإصبعي إلى لفائف الأوراق الزرقاء المكدّسة في العربة، «لماذا تحمل كل هذه الأوراق؟»

16- أي أنه فضفاض.

«إنها طبعات زرقاء[17]، يا رجل. لدي هنا ما قيمته حوالي مئة جنيه من الطبعات الزرقاء ولم أتمكن من إقامة أي بناء!»

قلت «وماذا يفعلون بالطبعات الزرقاء؟»

«اللعنة إنْ كنتُ أعلم – كل شيء. مدن، بلدات، نوادٍ ريفية. بعضها مجرد رسوم لأبنية ومنازل. لقد اقتربت كثيراً من أنْ أبني لنفسي منزلاً لو كان في استطاعتي أنْ أعيش في منزل من الورق كما يفعلون في اليابان»، ثم أضاف وهو يضحك «أعتقد أنَّ أحدهم غيَّر خُططه. لقد سألتُ الرجل لماذا يتخلصون من كل تلك الأوراق فقال إنها بلا فائدة ولذلك يرمونها مرة كل حين لإفساح مساحة لخُطط جديدة. وكثير من هذه لم يُستخدَم، لعلمك»

قلت «لديك منها كمية كبيرة»

«نعم، وهذه ليست كلها. لديّ حمولتان أُخريان. هنا يوجد مقدار عمل يوم. إنَّ الناس دائماً يضعون خُططاً ويُجرون عليها تعديلات»

قلت، وأنا أفكّر في الرسائل، «نعم، هذا صحيح، لكنه خطأ. يجب الالتزام بالخطة»

نظر إليّ، وقد أضحى جديّاً فجأة. قال «أنت ما زلت يافعاً، يا صاح»

لم أُجِب. وصلنا إلى منعطف طريق عند أعلى تل.

«حسن، يا صاح، كان حديثاً ممتعاً مع شاب صغير من الريف القديم ولكن يجب أنْ أتركك. هذا الشارع هنا هو أحد شوارع منحدر التل الجيدة. يمكنني أنْ أهبط من دون عناء في نهاية النهار. اللعنة إنْ كنتُ سأدعهم يُلقون بي في القبر. أراك لاحقاً – أتعلم؟»

«ماذا؟»

«حسبتُ أنكَ تحاول أنْ تنكرني في أول الأمر، لكنني الآن سعيد جداً بمقابلتك...»

قلت «آمل ذلك. وأنت هدِّئ من روعك»

«أوه، سأفعل. إنَّ كل ما يتطلّبه الأمر للاستمرار في هذا المدينة هو القليل

17– الطبعات الزرقاء: صور فوتوغرافية بسيطة لرسم ميكانيكي أو تصميم معماري. – المترجم

من كل شيء. ويا رجل، لقد وُلِدت مع هذا. في الحقيقة، لقد ولدتُ في عائلة كبيرة ونشأتُ في بيئة فقيرة –» قال هذا بعينين تتلألآن، وشفتين تعملان بسرعة. «أتفهم، يا صاح؟»

قلت، وقد بدأت أضحك، «أنت تتكلّم بسرعة كبيرة»

«حسن، سوف أُبطئ. سوف أكلمك ولن ألعنك – اسمي بيتر ويتْسترو، وأنا صهر الشيطان الوحيد، وما إلى ذلك!» ثم قال، ورأسه يميل جانباً كما يفعل الدب، «أنت من الجنوب يا فتى، أليس كذلك؟»

قلت «نعم»

«حسن، فلنتابع! اسمي أزرق وأنا أنقضّ عليك بمذراة. فيه في فو فَمْ. مَنْ يريد أنْ يُطلق النار على الشيطان، رب العالمين ستينغْروي!»

دفعني إلى الابتسام رُغماً عني. لقد أعجبتني كلماته على الرغم من أنني لم أعرف بماذا أُجيب. كنتُ أعرف ذلك الأسلوب منذ عهد الطفولة؛ تعلّمته وأنا في المدرسة...

ضحك. قال «أتفهمني، يا صاح؟ هاو، ولكن قُم بزيارتي أحياناً، أنا عازف بيانو ومدمن، يشرب الويسكي ويتسكّع. سوف أعلّمكَ بعض العادات السيئة الجيدة. سوف تحتاج إليها، وحظاً حسناً»

قلت «وداعاً» ورحت أراقبه يبتعد. راقبته يدفع العربة ويغيب عند المنعطف نحو قمة التل، متكئاً بزاوية حادة على مقبض العربة، وسمعت صوته يرتفع، وقد أضحى مكتوماً الآن، وهو ينحدر.

«قدماها كقدميّ قرد
وساقاها
ساقاها، ساقاها كساقيّ كلب
مجنون...»

قلت في نفسي، ماذا تعني. لقد سمعتها طوال حياتي ولكن فجأة برزت غرابتها. أكانت تدور حول امرأة أو حول حيوان غريب يُشبه طائر الفينيق؟

لا شك في أنَّ تلك الأوصاف تنطبق على امرأته، ***وليس*** على أية امرأة. ولِمَ يصِف أي شخص بتلك الكلمات المتناقضة؟ أكان طائر فينيق؟ أكان صاحب بنطلون تشابلن العجوز، القذر العجوز، يُحبها أم يكرهها؛ أم كان فقط يُغني؟ أيّة امرأة تلك التي تحب شخصاً قذراً كهذا، على أية حال؟ بل كيف يستطيع هو أنْ يُحبها إنْ كانت بغيضة كما تصفها الأغنية؟ وتابعت طريقي. ربما كل شخص لديه مَنْ يُحب، لا أعلم. لم يكن في استطاعتي أنْ أولي الحب الكثير من تفكيري؛ فلكي تسافر بعيداً عليك أنْ تكون منفصلاً، وقد سلكتُ الطريق الطويلة الممتدة أمامي المؤدّية إلى الجامعة. ومشيت، أسمع أغنية صاحب العربة وهي تتحول إلى صفير موحش، عريض النبرة، وقد ازدهرت الآن في نهاية كل عبارة إلى نغم مرتعش، حزين النبرة. ووسط رفرفتها وانسيابها سمعت ضجيج قطار يُغطي عليها، موحشاً عبر الليل الموحش. لقد كان صهر الشيطان، لا بأس، وكان يُحسن صفير لحنٍ ثلاثيّ النبرة. قلت في نفسي، اللعنة، يا له من شعب لعين! ولم أعلم إنْ كان ما تملّكني شعورٌ بالفخر أم بالاشمئزاز.

عند المنعطف دخلت محل بيع أدوية[18] وجلستُ عند النُضد. كان عدد من الرجال منكبين فوق أطباق طعامهم. وأوعية زجاجية مدورة من القهوة تغلي ببطء على اللهب الأزرق. كان في استطاعتي أنْ أشعر بعبق اللحم المُقدد المقلي تغوصُ عميقاً داخل معدتي وأنا أراقب الرجل الجالس على النُضُد يفتح أبواب المشواة ويُقلِّب شرائح اللحم الطويلة الطرية ومن ثم يُغلق الأبواب بقوة. وفوق، مقابل النُضد، ابتسمتْ طالبة جامعة شقراء، لفحَتْ بشرتها الشمس، داعية الجميع إلى شرب الكوكاكولا. واقتربَ رجلُ النُضد.

قال، وهو يضع كوباً من الماء أمامي، «لدي طبق لذيذ لأجلك. ما رأيك في الطبق الخاص؟»

«وما هو الطبق الخاص؟»

قال، مائلاً فوق النُضد مع نظرةٍ كأنها تقول، ها هو، يجب أنْ يُعجبك، يا فتى. «شرائح لحم الخنزير، والبرغل، وبيضة واحدة، مع بسكويت ساخن وقهوة!» أيمكن أنَّ الجميع يعلمون أنني من الجنوب؟

18- المقصود هنا محل يبيع أدوية إلى جانب الطعام والحلوى ومواد أخرى. - المترجم

قلت ببرودة «سوف أتناول عصير برتقال، وخبزاً مُحمّصاً وقهوة»

هزَّ رأسه، وقال، وهو يصفع قطعتي خبز داخل آلة التحميص، «لا تخدعني، أكاد أُقسم على أنك تحب شرائح لحم الخنزير. وهل تريد كوب عصير البرتقال صغيراً أم كبيراً؟»

قلت «فليكن كبيراً»

نظرتُ بصمتٍ إلى قفا رأسه وهو يُقطّع البرتقالة، مفكّراً، كان ينبغي أنْ أطلب الطبق الخاص ثم أنهض وأخرج. مَنْ يظن نفسه؟

طفَتْ بزرةٌ في الطبقة السميكة من العُصارة التي تشكّلت في أعلى الكأس. أخرجتُها بملعقة ومن ثم شربت العصير اللاذع، فخوراً لأنني قاومت شرائح لحم الخنزير والبرغل. كان تصرّفاً يدلُّ على الانضباط، ودلالةً على التغيُّر الذي كان يطرأ عليّ وسوف يُعيدني إلى الجامعة وأنا أكثر خبرة. قلت في نفسي، وأنا أحرّك قهوتي، سأبقى كما أنا في الأساس، ولكن سأتغيَّر برهافة بحيث أخدع الذين لم يذهبوا يوماً إلى الشمال. لطالما نجح أسلوب التغيُّر الطفيف في الجامعة، خاصة إذا رغبتَ في أداء الدور الرئيس. إنه يجعل الناس يتحدثون عنك، ويحاولون أنْ يفهموك. ولكن كان ينبغي أنْ آخذ جانب الحذر، بألّا أُكثِر من الكلام كزنجيّ من الشمال؛ فلن يُعجبهم ذلك. قلت في نفسي وأنا أبتسم، المهم إعطاؤهم إشارات تدلّ على أنَّ ما تفعل وتقول مفعمٌ بالكبرياء وبالمعاني المُبهمة التي تكمن تحت السطح. سوف يحبون ذلك. وكلما زاد إبهام الأشياء التي تقولها، كان ذلك أفضل. يجب أنْ تُبقيهم في حالة التخمين – تماماً كما كانوا يُخمِّنون أفعال الدكتور بليدسو: هل يتوقف في فندق مُكلِف للبيض عندما يزور نيويورك؟ هل يرتاد حفلات مع القيِّمين. وكيف يتصرَّف؟

«يا رجل، لا بد أنه يقضي وقتاً ممتعاً. يقولون إنه عندما يذهب الطبيب إلى نيويورك لا يتوقف عند إشارة المرور الحمراء. يقولون إنه يشرب ويسكي أحمر أصيلاً ويُدخّن سيجاراً أسود جيداً وينسى أمركم أنتم أيها الزنوج الجهلة هنا في الحَرَم. يقولون إنه عندما يذهب إلى الشمال يجعل الجميع يُخاطبونه بالسيد الدكتور بليدسو»

ابتسمتُ وأنا أستعيد في ذهني المحادثة. شعرتُ بارتياح. ربما إرسالي إلى الشمال هو في مصلحتي. لقد زادت معرفتي. حتى الآن كان يبدو أنَّ الثرثرة السارية في الجامعة مجرد ثرثرة خبيثة ومُهينة؛ والآن أصبحتُ أرى الفائدة التي حصل عليها الدكتور بليدسو. وسواء أكنا مُعجبين به أم لا، فهو لم يغِب عن أذهاننا قط. ذلك هو سرّ القيادة. من الغريب أنْ يخطر في بالي الآن، فعلى الرغم من أنني لم أفكر في هذا من قبل، فإنه يبدو لي الآن أنني كنتُ أعرف كل شيء. الفرق هو أنَّه هنا يبدو أنَّ البُعد عن حرم الجامعة يجعل الأمر واضحاً وقاسياً، وفكّرتُ فيه من دون خوف. هنا يستعيده المرء بسهولة تعادلُ وضع قطعة النقد على النُضد ثمناً لوجبة إفطاري. كان ثَمنُها خمسة عشر سنتاً وبينما كنتُ أتحسّس جيبي بحثاً عن نكلة أخرجتُ دايماً آخر، مفكّراً، هل من المُهين أنْ ينفح واحد منا إكرامية لواحد منهم؟

نظرتُ أبحث عن المسؤول عن النُضد، فرأيته يُقدم طبقاً من شرائح لحم الخنزير والبرغل لرجل ذي شارب أشقر باهت اللون، ونظرت؛ ثم وضعت قطعة الدايم بقوة على النُضد وغادرت، منزعجاً لأنَّ الدايم لم يُصدر صوتاً عالياً كما تفعل قطعة الخمسين سنتاً.

عندما وصلت إلى باب مكتب السيد إمرسون تبدّى لي أنه ربما ينبغي أنْ أنتظر إلى أنْ يبدأ يوم العمل، لكنني نبذتُ الفكرة ودخلت. آملتُ في أنْ يبدو وصولي المبكِّر دلالة على شدّة حاجتي إلى العمل، والسرعة التي أصل بها إلى موعد مُحدَّد لي. ثم، أليس هناك قول سائر عن أنَّ أول شخص في النهار يباشر عملاً يحصل على صفقة؟ أم إنّ ذلك القول يخصّ فقط العمل بين اليهود؟ أخرجتُ الرسالة من حقيبتي. هل اسم إمرسون اسماً مسيحي أم يهودي؟

الجهة الأخرى من الباب كانت أشبه بمُتحف. دخلتُ غرفة استقبال رحبة مزيّنة بألوان استوائية مريحة. أحد الجدران كان مكسواً بالكامل تقريباً بخريطة ضخمة ملوّنة، وامتدت أشرطة ضيِّقة أنيقة من الحرير الأحمر من كل قسم من الخريطة إلى سلسلةٍ من قواعد من العاج، يستقرّ على كل منها

مرطبان من الزجاج يحتوي عيّنات من المنتجات الطبيعية من بلدان مختلفة. كانت هناك لوحات رسم، وتماثيل من البرونز، ومنسوجات، وكلها منسّقة بطريقة جميلة. ذُهلتُ وبوغتُّ حتى كادت حقيبتي تقع من يدي عندما سمعتُ صوتاً يقول، «وما هو شأنك؟»

رأيتُ شخصاً كأنه خارج من إعلان عن العاطلين عن العمل: متورد الوجه وذا شعر أشقر حسن التصفيف، وبذلة استوائية منسوجة تنسدل بصورة أنيقة من كتفيه العريضتين، وعيناه رماديتان ومتوترتان من خلف نظارة واضحة الإطار.

شرحت أمر موعدنا. قال «آه، نعم. هل لي أنْ أرى الرسالة، من فضلك؟»

ناولته إياها، مُلاحِظاً السلسلة الذهبية في سِوار كمّه الأبيض الناعم عندما مدّ يده. ألقى نظرة سريعة على المُغلَّف ثم عاد فنظر إليّ وفي عينيه اهتمام غريب وقال، «اجلس، من فضلك. سأكون معك بعد لحظة»

راقبته يُغادر دون إحداث ضجيج، يمشي بخطوات طويلة متمايلة دفعتني إلى التجهّم. ذهبتُ وانتقيتُ كرسياً من خشب الساج مزوّداً بوسائد من الحرير الأخضر الزمرديّ، وجلست بسكون والحقيبة على رُكبتيّ. لابد أنه كان جالساً هناك عندما دخلت، ذلك أنه على إحدى الطاولات التي تحمل شجرة قزمة جميلة رأيتُ دخاناً ينبعث من سيجارة في منفضة من اليشب. إلى جانبها كتاب يحمل عنواناً يُشبه «*الطوطم والتابو*». ثم نظرتُ إلى صندوق مُضاء صينيّ الطراز يحوي تماثيل رقيقة لأحصنة وطيور، ومزهريات صغيرة وأوعية، كل منها موضوع على قاعدة من الخشب المحفور. كان يسود الغرفة هدوء القبور – وفجأةً سمعتُ رفرفة وحشية لأجنحة فنظرتُ صوب النافذة لأرى انفجار لون، وكأنَّ عاصفة ضربت حفنة من الخرق صارخة الألوان. كان قفصاً كبيراً للطيور الاستوائية موضوعاً بالقرب من إحدى النوافذ الواسعة، وبعد أنْ خفتَتْ رفرفة الأجنحة، رأيت من خلالها سفينتين تكافحان بعيداً في الأسفل في المرفأ المائل إلى اللون الأخضر. وبدأ طائرٌ كبير يغرّد، جاذباً عينيّ نحو خفقان حنجرته بألوانها الزرقاء، والحمراء والصفراء البرّاقة. كان مُذهلاً وراقبت اندفاع الطيور ورفرفتها وألوانها

تتوهج برهة كمروحةٍ شرقية منشورة. أردتُ أنْ أذهب وأقف بجوار القفص لأحظى برؤية أفضل، لكنني عدلت عن قراري. قد يبدو تصرفاً غير حِرفي. ورحت أراقب الغرفة من مكاني على الكرسي.

قلت في نفسي، لدى سماعي الطائر يُصدر ضجيجاً قبيحاً، إنَّ هؤلاء القوم هم ملوك الأرض! لا يوجد أي شيء من هذا في متحف الجامعة - أو في أي مكان آخر زرته. تذكرتُ فقط وجود بضع بقايا هزيلة من زمن العبودية: بدرٌ من الحديد، جَرَسٌ قديم، مجموعةٌ من أصفاد الأقدام الحديدية وحلقات من سلسلة، ونول بدائي، ومغزل، وثمرة يقطين للشرب، وإله إفريقي قبيح من العاج بدا كأنه يسخر (قدّمه للجامعة مليونيرٌ متجوِّل)، وسوط من الجلد مُزوّد بمسامير من النحاس، وأداة للوسم عليها الحرف المُكرر MM... وعلى الرغم من أنني لم أرَها إلا لِماماً، كانت حاضرة في ذهني. لم تكن متعة للنظر وكلما قمت بزيارة المكان كنتُ أتفادى الصندوق الزجاجي الذي توجد فيه، مُفضّلاً على ذلك أنْ أتفرج على الصور الفوتوغرافية للأيام الأولى التي تلت الحرب الأهلية، الأيام القريبة من تلك التي وصفها الأعمى باربي. بل إنني لم أنظر إلى هذه أيضاً.

حاولت أنْ أسترخي؛ كان الكرسي جميلاً لكنه قاس. أين ذهب الرجل؟ هل أبدى أية عِدائيّة عندما رآني؟ انزعجتُ لأنني لم أقابله أولاً. على المرء أنْ ينتبه إلى هذه التفاصيل. وفجأة ندت صرخة خشنة عن القفص، ومرة أخرى رأيت ومضاً مجنوناً وكأنَّ الطيور انفجرتْ في لهب عفويّ، مرفرفة وضاربة بأجنحتها بحقد على قضبان قصب البامبو، ثم هدأتْ فجأة كما بدأتْ وإذا بالباب يُفتَح والرجل الأشقر يقفُ مومئاً لي، ويده على أُكرة الباب. ذهبتُ إليه، متوتراً من الداخل. أأنا مقبول أم مرفوض؟

كان في عينيه تساؤل. قال «ادخل، من فضلك»

قلت، منتظراً أنْ يتقدّمني، «شكراً لك»

قال مع ابتسامة صغيرة «ادخل *أرجوك*»

تقدّمته، مُعتبراً نبرة كلماته إشارة.

قال، ملوّحاً برسالتي نحو كرسيين، «أريد أنْ أطرح عليك بضعة أسئلة»

قلت «حاضر، سيدي؟»

قال «أخبرني، ماذا تحاول أنْ تُنجِز؟»

«أريد عملاً، يا سيدي، لكي أكسب ما يكفي من النقود لألتحق من جديد بالجامعة في فصل الخريف»

«جامعتك القديمة؟»

«نعم، سيدي»

«فهمت». دقّقتُ النظر فيه برهة في صمت. «ومتى تتوقع أنْ تتخرَّج؟»

«في العام القادم، سيدي. لقد أنهيتُ صفوفي التمهيدية...»

«أوه، أحقاً؟ هذا جيد جداً. وكم عمرك؟»

«أكاد أبلغ العشرين، سيدي»

«مُستجد في التاسعة عشرة؟ أنت *حقاً* تلميذ مُجدّ»

قلت، وقد بدأتُ أستمتع بالحوار، «شكراً لك، سيدي»

سأل «هل كنتَ رياضياً؟»

«كلا، سيدي...»

قال، وهو يُقيِّمني بنظره، «لديك بُنية رياضية. قد تصلح أنْ تكون عدّاءً، تشترك في السباقات»

«لم أجرب ذلك قط، سيدي»

قال «وأعتقد أنَّ من السُخف أنْ أسأل عن رأيك في «أمك السخيّة»[19]؟»

قلت، وأنا أسمع صوتي زاخراً بمشاعر عميقة، «أعتقد أنها واحدة من الأفضل في العالم»

قال، مع انزعاج سريع فاجأني، «أعلم، أعلم»

استعدتُ انتباهي وهو يُغمغم بشيءٍ غير مفهوم عن «الحنين إلى فناء جامعة هارفرد».

قال، وقد اتسعت عيناه من خلف نظارته، «ولكن ماذا لو أُتيحت لك فرصة لإنهاء عملك في جامعة أخرى». كانت ابتسامته قد عادت.

سألتُ، وقد بدأ عقلي يُدوِّم، «في كليّة *أخرى*؟»

«نعم، فلنقُل في إحدى جامعات نيو إنغلند...»

19- «Alma mater» أو «الأم السخية»: باللاتينية، إشارة إلى مدرسة المرء أو جامعته. – المترجم

نظرتُ إليه من دون أنْ أتكلَّم. هل يعني هارفرد؟ أهو أمر جيد أم سيئ. إلى ما سيؤدي ذلك؟ قلت بحذر «لا أعلم، يا سيدي؟ أنا لم أفكر فيه قط. لم يتبقَّ أمامي إلا سنة واحدة، و، حسن، أنا أعرف الجميع في جامعتي القديمة وهم يعرفونني...»

وسكتُّ مضطرباً، عندما رأيته ينظر إليّ ويتنهد باستسلام. ماذا يدور في خلده؟ ربما أفرطتُ في الصراحة حول العودة إلى الجامعة، ربما يُعارض حصولنا على تعليم أعلى... ولكن اللعنة، إنه مجرد سكرتير... أم أنه *ليس* كذلك؟

قال بهدوء «أنا أفهم. إنها وقاحة مني حتى أنْ أقترح عليك جامعة أخرى. أعتقد أنَّ جامعة المرء هي بالفعل بمنزلة الأم والأب... شيء مقدَّس»

أسرعتُ بالموافقة قائلاً «نعم يا سيدي. هو ذاك»

ضاقت عيناه. «ولكن الآن يجب أنْ أطرح عليك سؤالاً مُحرِجاً. ألديك مانع؟»

قلت بارتباك «طبعاً لا، يا سيدي»

«لا أحب أنْ أسأل ما يلي، لكنّه أمر شديد الضرورة...» ومال إلى الأمام مع تجهّم الألم. «قُل لي، هل *قرأتَ* الرسالة التي حملتَها إلى السيد إمرسون؟ هذه» قال، متناولاً الرسالة عن الطاولة.

«كلا، طبعاً، يا سيدي! إنها ليست موجَّهة إليّ، فمن الطبيعي ألا أفكّر حتى في فتحها...»

«طبعاً لا، أنا أعلم أنك ما كنت لتفعل»، قال هذا، ملوّحاً بيده ومنتصباً في جلسته. «أنا آسف ويجب أنْ تنسى ذلك، كأحد تلك الأسئلة الشخصية المزعجة التي تقابلها كثيراً هذه الأيام وتُطرَح بصيغ غير شخصية ظاهرياً»

لم أُصدّقه. «ولكن أكانت مفتوحة، يا سيدي؟ لعل أحدهم عبث بحاجياتي...»

«أوه، كلا، لم يحدث شيء من هذا. أرجوك انسَ السؤال... وأخبرني، من فضلك، ما هي خططك بعد التخرُّج؟»

«لستُ متيقّنا، يا سيدي. أودُّ أنْ يُطلَب مني أنْ أبقى في الجامعة كأستاذ، أو كعضو في الهيئة الإدارية. و... في الواقع...»

«نعم؟ وماذا أيضاً؟»

«في الواقع – أأأ، أعتقد أنني أرغب حقاً في أنْ أصبح مساعداً للدكتور بليدسو...»

قال، وهو يسترخي على كرسيه ويشكّل بشفتيه الرقيقتين دائرة، «آه، فهمت. أنت شديد الطموح»

«أعتقد أنني كذلك، يا سيدي. لكنني راغب في العمل بجدّ»

قال «إنَّ الطموح قوةٌ دافعةٌ رائعة، ولكنّه أحياناً قد يعمي العيون... من ناحية أخرى، يمكنه أنْ يوصلك إلى النجاح – كما حدث مع والدي...» اتَّسمَ صوته بزخمٍ جديد وتجهّم ونظر نحو الأسفل إلى يديه اللتين كانتا ترتعشان. «إنَّ مشكلة الطموح الوحيدة هي أنه أحياناً يُعمي المرء عن رؤية الوقائع... قُل لي، كم من هذه الرسالة في حوزتك؟»

أجبتُ، وقد أربكني تحوله الجديد، «لدي منها سبع، يا سيدي. إنها –»

فجأة انتابه الغضب. «*سبع!*»

«نعم، يا سيدي، هذا كل ما أعطاني إياه...»

«هل لي أنْ أسأل كم من هؤلاء السادة نجحتَ في مقابلته؟»

اجتاحني شعور بالغرق. «لم أُقابل أياً منهم شخصياً، يا سيدي»

«وهذه رسالتك الأخيرة؟»

«نعم، يا سيدي، هي كذلك، ولكنني أتوقع أنْ يصلني جواب من الآخرين... لقد قالوا –»

«طبعاً، ومن السبعة كلهم. جميعهم أميركيون مخلصون»

عندئذ تلبَّسَت صوته نبرة متهكمة واضحة، ولم أدرِ ماذا أقول.

كرَّر بصورة غامضة «سبع». ثم قال بإيماء أنيق إلى اشمئزازه من نفسه، «أوه، لا تجعلني أُسبب لك الاضطراب. لقد مررتُ ليلة أمس بجلسةٍ صعبة مع مُحللي النفسي وأصبح أقلّ شيء يُثير أعصابي. كأنني ساعة مُنبّه لا يتحكَّم بها شيء – على سبيل المثال!»، ثم قال، صافعاً فخذيه براحتيّ كفيه. «ماذا يعني هذا؟» وفجأة أصبح غاضباً. بدأ أحد جانبيّ وجهه يرتعش ويتورم.

راقبته يُشعل سيجارة، ويفكّر. ما معنى هذا كله بحق الله؟

قال، نافثاً كتلة من الدخان، «إنَّ بعض الأشياء غير عادلة بدرجةٍ تعصى

على التعبير بالكلام، ومن فرط الغموض بحيث تعصى على الكلام أو على الفكر معاً. وبالمناسبة، هل ذهبتَ مرة إلى نادي كالاموس؟»

قلت «لا أعتقد أنني سمعت عنه أصلاً، يا سيدي»

«لم تسمع به؟ إنه مشهور. العديد من أصدقائي في هارلم يرتادونه. إنه مكان التقاء الكتّاب، والفنانين، والمشاهير بأنواعهم. لا يوجد مثيل له في المدينة، ولسببٍ غريب ما يتَّسِمُ بنكهة أوروبية حقيقية»

قلت، آملاً في أنْ أُعيد الحديث إلى مشكلة إيجاد عمل، «لم يحدث قط أنْ ارتدتُ نادياً ليليّاً، يا سيدي. سوف أذهب إلى هناك لكي أتعرَّف عليه بعد أنْ أبدأ بكسب بعض المال»

نظر إليّ وهو يهز رأسه، وبدأ وجهه يرتعش من جديد.

«أعتقد أنني كنتُ أتفادى الموضوع من جديد - كالمعتاد»، ثم انفجر يقول باندفاع «أتصدِّق أنَّ شخصين غريبين لم ير أحدهما الآخر من قبل يمكن أنْ يتحدثا بصراحة تامة وبصدق؟»

«سيدي؟»

«أوه، اللعنة! ما أعني هو، أتعتقد أنَّ من الممكن لنا، نحن الاثنين، أنْ نطرح أقنعة العادات والتقاليد والسلوكيات التي تعزل البشر بعضهم عن بعض، ونتحدث بصدق وصراحة مُطلقين؟»

قلت «لا أفهم ما تعني بالضبط، يا سيدي»

«أواثقٌ أنت؟»

«أنا...»

«طبعاً، طبعاً. ليتَ في استطاعتي أنْ أتكلَّم ببساطة! إنني أُسبِّب لك الاضطراب. إنَّ مثل هذه الصراحة مستحيلة لأنَّ دوافعنا كلها ليست قذرة. انسَ ما قلت تواً. سوف أحاول أنْ أصوغ كلامي بطريقة أخرى - وتذكّر هذا، أرجوك...»

أُصبتُ بالدوار. كان يُخاطبني، مائلاً إلى الأمام وكأنه يُفضي سراً، وكأنه يعرفني منذ سنين، وتذكّرتُ شيئاً كان جدّي قد قاله لي قبل زمن بعيد: **لا تُتِحِ**

الفرصة لأي رجل أبيض أنْ يُخبرك عن عمله، لأنه بعد أنْ يفعل قد يخجل لأنه كاشفك وبعد ذلك سوف يكرهك. والحقيقة هي أنه يكرهك دائماً...

«... أريد أنْ أحاول إماطة اللثام عن طرفٍ من حقيقتي على جانب كبير من الأهمية بالنسبة إليك - لكنني أحذّرك، سوف تتأذّى»، ثم قال، وهو يلمس رُكبتي بخفّة ثم يُبعد يده بسرعة عندما تململتُ في جلستي. «كلا، دعني أُنهي كلامي»

«إنَّ ما أريد أنْ أفعل نادراً ما يفعله أحد، وبصراحة، ما كان يمكن أنْ يحدث الآن لو لم أتحمّل سلسلة من الإحباطات الصعبة. في الحقيقة - حسن، لقد انحرفتُ عن الموضوع... أوه، اللعنة، ها قد فعلتُها من جديد، لا أفكّر إلا في نفسي... نحن الاثنين مُحبَطان، أتفهم؟ نحن الاثنين، وأنا أريد أنْ أساعدك...»

«تعني أنك ستدعني أقابل السيد إمرسون؟»

تجهَّم. «أرجوك لا تبدو سعيداً جداً بهذا، ولا تتعجّل بتوقُّع النتائج. أنا أريد أنْ أساعدك، ولكن هناك استبدادٌ في الأمر...»

ضاقت رئتاي. «*استبداد؟*»

«نعم. هذا هو التعبير المناسب. فلكي أساعدك يجب أنْ أخلّصك من الأوهام...»

«أوه، لا أظن أنني أمانع، يا سيدي. حالما أقابل السيد إمرسون يُصبح الأمر منوطاً بي. كل ما أريد هو أنْ أتحدّث معه»

قال، وهو ينهض بسرعة واقفاً على قدميه وساحقاً السيجارة في المنفضة بأصابع ترتعش، «*تتحدث* معه. لا أحد يتحدث *معه*. بل هو الذي يُبادر بالكلام -»، وفجأة اندفع قائلاً «بعد قليل من التفكير، أجدُ أنّه ربما يُستحسَن أنْ تترك لي عنوانك وأنا سأرسل لك بالبريد ردّ السيد إمرسون في الصباح. إنه في الحقيقة رجل مشغول جداً»

كان سلوكه كله قد تغيَّر تغيُّراً كاملاً.

«لكنكَ قلتَ...» نهضتُ واقفاً، وأنا مُضطرب تماماً. هل يلهو معي؟ ناشدته «ألا يمكنك أنْ تدعني أكلمه بضع دقائق فقط؟ أنا متأكّد من قدرتي

على إقناعه بأنني جدير بالعمل. وإذا كان هناك مَنْ تلاعب برسالتي، فسوف أُثبتُ هويتي... الدكتور بليدسو سوف -»

«هويتك! يا إلهي! مَنْ لديه أية هوية هذه الأيام؟ إنَّ الأمر ليس بهذه البساطة»، ثم قال مع إيماء يدل على الأسى، «اسمع، هل تثقُ بي؟»

«طبعاً يا سيدي، أنا أثقُ بك»

مال إلى الأمام. قال، ووجهه يتحرك بعنف، «اسمع، كنتُ دائماً أحاول أنْ أخبرك بأنني أعرف أشياء كثيرة عنك - ليس أنت شخصياً، بل أمثالك من الناس. وليس الكثير، ولكن أكثر من المعتاد على أية حال. ما زالت علاقتنا تشبه علاقة جيم وهك فن[20]. بعض أصدقائي هم من عازفي الجاز، وكنتُ معهم. أنا أعرف الظروف التي تعيش في ظلّها - فلماذا تعود، يا صاح؟ في استطاعتك أنْ تعمل الكثير هنا حيث تتوفّر مساحة أكبر من الحرية. على أية حال لن تعثُر على ما تبحث عنه عندما تعود؛ لأنَّ هناك الكثير من الأمور التي لا يمكن أنْ تعرفها. أرجوك لا تُسئ فهمي؛ أنا لا أقول هذا كله لكي أُثير إعجابك، أو لكي أُطهّر نفسي من دوافع ساديّة. لا أفعل، حقاً. لكنني أعرف هذا العالم الذي تحاول أنْ تتواصل معه - بفضائله كلها ومثالبه - ها، نعم، مثالب. أخشى أنَّ والدي يعتبرني إحدى تلك المثالب... أنا هكلبري، كما ترى...»

ضحك بجفاف وأنا أحاول أنْ أفهم تخبّطه. *هكلبري*؟ لِمَ لا ينفكّ يتكلّم عن رواية الأطفال تلك؟ كنتُ شديد التشوّش والاضطراب بسبب كلامه معي بتلك الطريقة لأنه وقفَ حائلاً بيني وبين عملي، والجامعة...

قلت «ولكن كل ما أريد هو عمل، يا سيدي؟ أريد فقط أنْ أكسب ما يكفي من النقود لأستأنف دراستي»

«طبعاً، لكنك حتماً تعتقد أنَّ في الأمر أكثر من هذا. ألا يتملكك الفضول لتعرف ما يكمن خلف ظواهر الأمور؟»

«نعم، سيدي، لكنَّ اهتمامي منصبّ بشكل رئيس على إيجاد عمل»

قال «طبعاً، لكنَّ الحياة ليست بهذه البساطة...»

20- إشارة إلى الصداقة التي تربط بين هكلبري فين وصديقه جيم في رواية مارك توين الشهيرة. - المترجم

«لكنني لستُ مهتماً بكل الأمور الأخرى، أيّاً ما كانت، يا سيدي. ولا شأن لي بها ويكفيني أنْ أعود إلى الجامعة وأبقى فيها ما دام يُسمح لي بذلك»

قال «ولكن أريد أنْ أساعدك لكي تقوم بما هو أفضل لك. ***الأفضل***، انتبه. فهل ترغب في أنْ تقوم بما هو أفضل لنفسك؟»

«طبعاً، يا سيدي. أعتقد ذلك...»

«إذن انسَ أمر العودة إلى الجامعة. اذهب إلى مكان آخر...»

«تقصد أنْ أرحل؟»

«نعم، وانس الأمر...»

«لكنك قلت إنك ستساعدني!»

«نعم قلت وأنا –»

«ولكن ماذا عن مقابلة السيد إمرسون؟»

«أوه، يا الله! ألا تفهم أنَّ أفضل ما في وسعك أنْ تفعل هو ***ألا*** تقابله؟»

فجأة لم أعُد أستطيع أنْ أتنفّس. ثم وجدتني واقفاً، أحمل حقيبتي. وانفجرت قائلاً «ما الذي تكنّه ضدي؟ ماذا فعلتُ لك؟ أنتَ لم تنوِ قط أنْ تدعني أقابله. على الرغم من أنني قدّمت رسالة التعريف بي. لماذا؟ لماذا؟ أنا لا أشكّل أي تهديد لعملك ***أنت*** –»

قال، وهو ينهض واقفاً، «كلا، كلا، كلا! طبعاً لا. لقد أسأتَ فهمي. لا ينبغي أنْ تفعل هذا! يا إلهي، هناك الكثير من سوء الفهم. أرجوك لا تعتقد أنني أحاول أنْ أمنعك من مقابلة رئيسـ– من مقابلة السيد إمرسون بدافع التحامُل...»

قلت بغضب «نعم، سيدي، أعتقد هذا. لقد أرسلني إلى هنا أحد أصدقائه. أنت قرأتَ الرسالة، ومع ذلك ترفض أنْ تدعني أقابله، وها أنت الآن تحاول أنْ تدفعني إلى ترك الجامعة. أي نوع من الرجال أنت، على أية حال؟ ما الذي تكنّه ضدي؟ أنت، أيها الأبيض الشماليّ!»

بدا متألّماً. قال «لقد أسأتُ التعبير، ولكن يجب أنْ تصدّق أنني أحاول أنْ أسدي إليك النصح لما هو أفضل لك». وانتزع نظارته.

قلت «ولكن ***أنا الذي*** أعرف ما هو الأفضل لي. أو، على الأقلّ، الدكتور

بليدسو يعرف، وإذا لم أقابل السيد إمرسون في هذا اليوم، أخبرني فقط متى أستطيع ذلك وسوف أكون حاضراً...»

عضَّ على شفتيه وأغمض عينيه، وهو يهز رأسه من جانب إلى جانب وكأنه يكظم صرخة. قال، وقد هدأ فجأة «أنا آسف، أنا حقاً آسف لأنني بدأتُ هذا الأمر. إنها حماقة مني أنْ أحاول نصحك، ولكن أرجوك، لا ينبغي أنْ تصدِّق أنني أعمل ضدك... أو ضد عرقك. أنا صديقك. إنَّ أفضل أصدقائي هم من الزنوج – حسن، في الواقع، إنَّ السيد إمرسون هو والدي»

«والدك!»

«والدي، نعم، على الرغم من أنني كنتُ أفضّل لو لم يكن كذلك. لكنه والدي، وأستطيع أنْ أعدّ لك لقاءً معه. ولكن بصراحة تامة، أنا عاجز عن اللجوء إلى مثل هذه السخرية. إنَّ اللقاء لن يفيدك في شيء»

«ولكن أودّ أنْ أنتهز الفُرص المُتاحة لي، يا سيد إمرسون، سيدي... لأنه أمر في غاية الأهمية بالنسبة إليّ. إنَّ مستقبلي المهني كله متوقّفٌ عليه»

قال «ولكن *ليست لديك* أية فرصة مُتاحة»

قلت، وقد ازداد حماسي، «لكنَّ الدكتور بليدسو أرسلني إلى هنا. **لابد** أنَّ لديَّ فرصة...»

قال بامتعاض «دكتور بليدسو. إنه يُشبه والـ... ويجب أنْ يُضرَب بالسوط!»، ثم قال، وهو يُقدِّم الرسالة بحركة سريعة مع طقطقة إليّ «خذ!». أخذتها، ناظراً في عينيه التي بادلتني نظرات نيرانية.

صرخ بغضب «هيا، اقرأها. هيا!»

قلت «ولكن ليس هذا ما أطلب»

«اقرأها!»

عزيزي السيد إمرسون:

إنَّ حامل هذه الرسالة هو طالب سابق لدينا (أقول سابق لأنَّ من المستحيل أنْ يُقبَل لدينا كطالب من جديد تحت أي ظرف من الظروف) طُرِدَ بسبب ارتداد خطير عن تطبيق أشد قواعد السلوك صرامة عندنا.

ولكن نظراً إلى ظروفٍ سأشرح لكم طبيعتها شخصياً في اجتماع الهيئة الإدارية التالي، من مصلحة الجامعة ألا يعلم هذا الشاب النتيجة الختامية لطرده. لأنه في الحقيقة يأمل في أنْ يعود إلى هنا إلى مقاعد دراسته في فصل الخريف. ولكن من مصلحة العمل العظيم الذي كرّسنا أنفسنا لإنجازه أنْ يبقى مُتعلقاً بتلك الآمال العقيمة في أثناء بقائه بعيداً عنا أطول مدة ممكنة.

إنَّ هذه القضية، يا عزيزي السيد إمرسون، تعطي مثالاً نادراً ودقيقاً عن أحد الذين علّقنا عليهم أعرض الآمال وضلّ طريقه بصورة خطيرة، وبسقوطه هدَّد بقلب توازن علاقات معيَّنة بين أفراد معيَّنين مُهتمين والجامعة. وعليه، بما أنَّ حامل هذه الرسالة لم يعُد عضواً في عائلتنا الدراسية، فإنَّ من المهم جداً أنْ يتم فصله من الجامعة بأقلّ قدر من الألم. إنني أناشدك، يا سيدي، أنْ تساعده في الاستمرار في الاتجاه الذي وُعِدَ به والذي، كالأفق، يتراجع باطراد براقاً ونائياً حتى يغيب عن نظر المسافر المفعم بالأمل.

مع احترامي، خادمك المُخلص

أ.هربرت بليدسو

رفعتُ رأسي. بدا كأنَّ خمسة وعشرين عاماً قد مرت بين إعطائه الرسالة لي وتناولي لها. ولم أُصدّق، حاولتُ أنْ أقرأها من جديد. لم أصدّق، ومع ذلك انتابني شعور بأنَّ ذلك قد سبق أنْ حدث من قبل. عركتُ عينيّ، شعرتُ كأنَّ فيهما رملاً وكأنَّ سائلهما قد جفَّ فجأة.

قال «أنا آسف، أنا في غاية الأسف»

«ما الذي اقترفته؟ لطالما حرصت على القيام بالأمر الصائب...»

قال «*هذا* ما ينبغي أنْ تُخبرني به، ما الذي يُشير إليه؟»

«لا أعلم، لا أعلم...»

«ولكن لابد أنكَ قد ارتكبتَ *خطأً ما*»

«لقد أخذتُ رجلاً في جولة بالسيارة، وأدخلته حانة غولدن داي لطلب المساعدة لأنه كان مريضاً... لا أعلم...»

أخبرته متلعثماً عن الزيارة إلى مقر تروبلد والذهاب إلى غولدن داي وعن طردي، وأنا أُراقبُ وجهه الساكن يعكسُ ردّة فعله على كل تفصيل.

بعد أنْ انتهيت قال «الأمر لا يستحق كل هذا. أنا لا أفهم الرجل. إنه شديد التعقيد»

قلت «كل ما أريد هو أنْ أعود وأقدم المساعدة»

قال «لن تعود. لم يعُد في استطاعتك أنْ تعود الآن. ألا تفهم؟ إنني أشعر بأسف شديد ومع ذلك أنا سعيد لأنني استسلمت لدافع التحدث إليك. انس الأمر؛ على الرغم من أنّني لم أتمكن أنا نفسي من الأخذ بهذه النصيحة، لكنها ما زالت نصيحة جيدة. لا فائدة من إغماض عيوننا عن الحقيقة. لا تغمض عينيك...»

نهضتُ واقفاً، مذهولاً، ومشيتُ نحو الباب. لحق بي إلى غرفة الاستقبال حيث كانت الطيور تتخبط في القفص، وصراخها كأنه صراخ في كابوس.

أخذ يتلعثم جرّاء إحساسه بالذنب «من فضلك، يجب أنْ أطلب منك ألا تأتي على ذِكر هذا الحديث أمام أي شخص»

قلت «كلا»

«أنا لا يهمني، لكنَّ والدي سوف يعتبر كشفي للأمر بمنزلة خيانة عُظمى... لقد تحرَّرتَ أنتَ منه الآن. أما أنا فلا أزال سجينه. لقد تحرّرتَ، ألا تفهم؟ أما أنا فما زالت أمامي معركة»، وكأنه يوشك أنْ يبكي.

قلت «لن أفعل. لا أحد سيصدّقني. أنا نفسي لا أُصدق. لابد أنَّ في الأمر خطأ. لابد أنَّ هناك...»

فتحت الباب.

قال «اسمع، يا صاح. هذه الليلة أُقيم حفلاً في كالاموس. هل تود أنْ تكون من ضيوفي؟ قد أساعدك –»

«كلا، شكراً لك يا سيدي. سأكون بخير»

«ما رأيك في أنْ تعمل عندي خادمي الخصوصي؟»

نظرتُ إليه. قلت «كلا، شكراً لك، يا سيدي»

قال «أرجوك، أنا أريد حقاً أنْ أساعدك. اسمع، لقد تصادف أنني أعرف

بوجود عمل مُحتمَل في شركة «دهانات الحرية». لقد أرسل والدي العديد من الأشخاص ليعملوا هناك... يجب أنْ تجرب -»

أغلقت الباب.

هبط بي المصعد بسرعة وخرجت منه ومشيت على طول الشارع. كانت الشمس حينئذٍ شديدة البريق وبدا الناس السائرون كأنهم بعيدون ناؤون. توقفتُ أمام جدار رمادي تبرز فيه عالياً فوقي شواهد مقبرة كنيسة كقمم منازل. وعلى الطرف المقابل من الشارع في فيء ظلّةٍ كان صبي بحذاء لمّاع يرقص ليجمع البنسات. تابعت طريقي إلى المنعطف وركبت حافلة وانتقلت بصورة آلية إلى الجزء الخلفيِ منها. على المقعد أمامي جلس رجل أسود يعتمر قبعة باناما خفيفة ظل يُصفر لحناً من بين أسنانه. كان ذهني يتدفق بدوائر، بين بليدسو، وإمرسون ومن ثم يعود من جديد. لا معنى لذلك. كانت نكتة. اللعنة، لا يمكن أنْ تكون نكتة. نعم، هي نكتة... فجأة اهتزت الحافلة لتتوقف وسمعت نفسي أُهمهم اللحن نفسه الذي يُصفّره الرجل الجالس أمامي، وكانت الكلمات تقول:

آه حسن لقد قبضوا على روبن[21] المسكين العاري

آه حسن لقد قبضوا على روبن المسكين العاري

وأوثقوا روبن المسكين إلى وتد

يا إلهي، لقد نزعوا كل الريش

عن كفل روبن

لقد ألقوا القبض على روبن المسكين العاري

ثم نهضتُ، وأسرعت نحو الباب، وكأنَّ الصفير الرفيع يصدر من بين أسنان مشطٍ محشورٍ بينها منديل من الورق يتبعني إلى الخارج في الموقف التالي. وقفتُ على حافة الرصيف أرتجف، أراقب وأكاد أتوقع أنْ أرى الرجل يقفز من الباب لكي يلحق بي، يُصفّر اللحن القديم المنسيّ عن

21- اسم روبن يعني أيضاً طائر أبو الحنّاء. - المترجم

روبن العاري الكفلين. وعلق اللحن بذهني. واستقللتُ القطار النفقي وظل يدندن في ذهني حتى بعد أنْ وصلت إلى غرفتي في نُزُل الرجال واستلقيتُ على سريري. مَنْ كان ذلك المجهول العجوز المسكين روبن؟ ماذا ارتكبَ ومَنْ شدَّ وثاقه ولماذا انتزع ريشه ولماذا نغني نحن جميعاً عن مصيره؟ إنها للضحك، للضحك، كل الأطفال ضحكوا وضحكوا، والمهرج عازف البوق من فرقة العجوز إلك أدّاه وحده على بوقه اللولبي؛ مع تنويعات هزلية وعبارات كئيبة، «بوو بوو بوو بووووو، يا روبن العاري المسكين» - ترنيمة جنائزية حزينة ساخرة... ولكن مَنْ هو روبن ولماذا تعرَّضَ للأذى والمهانة؟

فجأة صرت أرتجف من شدة الغضب. لا فائدة. كنتُ أفكّر في إمرسون الشاب. ماذا لو أنه كذب بسبب دافعٍ خفيّ خاص به؟ وكأنَّ كل شخص لديه خطّة وضعها ضدي، وتحتها خطّة أخرى أكثر سريّة. ماذا كانت خطّة الشاب إمرسون - وما دخلي أنا بها. بل مَنْ أنا في كل الأحوال. رحتُ أتقلّب على نوبات. لعله اختبار لنواياي الطيبة وإيماني - قلت في نفسي، ولكن هذا كذب. إنه كذبٌ وأنت تعلم أنه كذب. لقد اطَّلعتُ على الرسالة وهي تأمر عملياً بقتلي. ببطء شديد...

قلت بصوت مرتفع «عزيزي السيد إمرسون، إنَّ طائر الحنّاء حامل هذه الرسالة طالبٌ سابق. اجعله يأمل حتى يموت، واجعله في حالة ركض دائم. خادمك الخانع والمُطيع، أ. ه. بليدسو...»

قلت في نفسي، طبعاً، هذا هو واقع الأمر، *رصاصة رحمة لفظيّة*، قصيرةٌ وموجزة، موجّهة مباشرة إلى نُقرة العنق. وبمَ سيردّ إمرسون؟ طبعاً: «عزيزي بلِدْ، لقد قابلت طائر الحنّاء ونزعتُ ريش ذيله. التوقيع، إمرسون»

جلستُ على السرير وضحكت. لقد أرسلوني حقاً إلى مفرخة الطيور. ضحكت وشعرتُ بالخَدَر وبالوهن، لعلمي أنَّ الألم سوف يأتي أخيراً وأنه مهما حدث لي لن أعود كما كنت. شعرت بالخَدَر وكنتُ أضحك. وعندما توقفت، شهقتُ طلباً للنَفَس، قررتُ أنْ أعود وأقتل بليدسو. قلت في نفسي، نعم، إنني أُدين بهذا للعرق ولنفسي. سوف أقتله.

جعلتني جراءة الفكرة والغضب الكامن وراءها أتحرك بإصرار. يجب

أنْ أحصل على عمل وانتقيتُ ما أملتُ أنْ يكون أسرع الوسائل. واتصلت بالشركة التي أتى إمرسون الابن على ذِكرها، ونجح الأمر. طلبوا مني أنْ أحضر في صباح اليوم التالي. حصل الأمر بسرعة فائقة وبسهولة شديدة إلى درجة أنني شعرت للحظة بأنني انقلبتُ رأساً على عقب. هذه هي خطَّتهم؟ ولكن كلا، لن ينالوا مني من جديد. هذه المرة *أنا* الذي سيقوم بالتحرُّك.

لم أكد أحصل على أي قدر من النوم لأحلم بالانتقام.

-10-

كانت الشركة في لونغ أيلند، واجتزتُ الجسر وسط الضباب لأصل إلى هناك وانضممتُ إلى سيلٍ من العمال. أعلنت لافتة ضخمة أمامي من الأضواء الكهربائية عن رسالتها خلال دفق الضباب:

حافظوا على نظافة أميركا
باستخدام
دهانات الحريّة

كانت الرايات ترفرف في وجه النسيم من كل مبنى في متاهة المباني أسفل اللافتة، وللوهلة الأولى كان الأمر أشبه بمشهد مراسم وطنية شامل يُرى عن بُعد. ولكن من دون إطلاق نار أو نفخ أبواق. حثثتُ الخُطى مع الآخرين خلال الضباب.

كنتُ قلقاً، لأنني استخدمتُ اسم إمرسون من دون أخذ الإذن منه، ولكن عندما عثرت على مكتب المُستخدَمين نجح الأمر كما السِحر. وأجرى رجل ضئيل بعينين كئيبتين اسمه السيد ماكدوفي المقابلة معي وأُرسِلتُ للعمل لمصلحة السيد كيمبرو. وجاء صبي مكتب ليدلني.

أمر ماكدوفي الصبي «إذا احتاج كيمبرو إليه عُدْ وادرِج اسمه على قائمة رواتب الموظفين في القسم»

قلتُ لدى مغادرتنا المبنى «إنه هائل الحجم، وكأنه مدينة صغيرة»

قال «هو ضخم حقاً. إننا أحد أكبر التجمعات في مجالنا. نُنتج الكثير من الدهان لمصلحة الحكومة»

ولجنا أحد الأبنية وبدأنا نسير على طول رواق أبيض اللون بالكامل.

قال «يُستحسن أنْ تترك أمتعتك في غرفة الأغراض»، وفتح باباً رأيتُ من خلاله غرفةً تحتوي مقاعد منخفضة من الخشب وصفّاً من خزانات الأغراض الخضراء. وكانت هناك مفاتيح في عددٍ من الخزانات، واختار أحدها لأجلي. قال «ضع أغراضك هناك بعد وضع إحدى قدميك على المقعد». شعرت بالتوتر وأنا أرتدي ملابسي. باعد ما بين ساقيه مع وضع إحدى قدميه على المقعد، وهو يراقبني عن كثب ويمضغ طرف عود ثقاب. هل شكَّ في أنَّ إمرسون لم يُرسلني؟

قال، وهو يُدير عود الثقاب بين أحد أصابعه والإبهام، «لديهم عمل جديد هنا». كان في صوته نبرة غمز، ورفعت نظري عن ربط حذائي، وأنا أتنفّس باعتدال واع.

قلت «أي نوع من الأعمال؟»

قال «أوه، كما تعلم. الأذكياء يطردون العاديين ويُعينون أقرانك من الملونين في الجامعة. شيء ينم عن ذكاء. بتلك الطريقة لا يُضطرون إلى دفع أجر اتحاد العمال»

قلت «كيف عرفتَ أنني التحقتُ بالجامعة؟»

«أوه، هناك حوالي الستة من أمثالك أصلاً هنا. بعضُهم يعمل في المختبرات. الجميع يعلم هذا الأمر»

قلت «ولكن لم أكن أعلم أنَّ هذا هو سبب تعييني»

قال «انس الأمر، يا ماك. الخطأ ليس خطؤك. أنتم المُستجدون لا تعرفون جليّة الأمر. كالمسؤولين عن الاتحاد، إنَّ الأمر بيد الأذكياء في المكتب. هم الذين يجعلون منكم نقابيِّن – هيه! يجب أنْ نُسرِع»

دخلنا غرفة طويلة، أشبه بالسقيفة رأيتُ فيها سلسلة من الأبواب العالية على طول أحد الجانبين وصفاً من المكاتب الصغيرة على الجانب الآخر.

تبعتُ الفتى على الممر بين عدد لا يُحصى من علب التنك، والدلاء، وطبول عليها علامة الشركة التجارية، على شكل نسر يصرخ. كان الدهان مُكدّساً بمجموعات هرميّة أنيقة رصّتْ على طول الأرض الإسمنتية. ثم، همَّ الفتى بولوج إحدى غرف المكاتب، ثم توقف ورسم ابتسامة عريضة.

«أصغِ إلى هذا!»

كان أحدهم داخل غرفة المكتب يسبّ بعنف وهو يتكلّم عبر الهاتف.

سألت «مَن ذاك؟»

رسم ابتسامة عريضة. «إنه رئيسك في العمل، الرهيب السيد كيمبرو. نحن نسميه «الكولونيل»، ولكن إياك أنْ تجعله يسمعك تسمّيه هكذا»

لم يُعجبني ذلك. كان الصوت يهذي حول فشل المختبر وشعرت بانزعاجٍ فوريّ. لم تعجبني فكرة بدء العمل لمصلحة رجل بذلك المزاج السيئ. ربما هو غاضب من أحد القادمين من الجامعة، وهذا سيجعله يعاملني معاملة غير وديّة..

قال الفتى «فلندخل. يجب أنْ أعود»

عندما دخلنا صفع الرجل سمّاعة الهاتف وتناول بضع أوراق.

قال الفتى «إنَّ السيد ماكْدوفي يريد أنْ يعرف إنْ كان في وسعك أنْ تستخدم هذا الوافد الجديد»

قال الصوت ببطء «أنت على حق أستطيع أنْ أستخدمه و...» قسَّى تعبير العينين من فوق الشارب العسكري المنشّى.

قال الفتى «إذن، هل ستستخدمه؟ عليّ أنْ أذهب وأُعدّ بطاقته»

أخيراً قال الرجل «حسن. أستطيع أنْ أستخدمه. أنا مُضطرّ. ما اسمه؟»

قرأ الفتى الاسم من بطاقة.

قال «حسن. التحق بعملك في الحال. وأنت»، وجّه كلامه للفتى. «أغرب عن وجهي قبل أنْ أمنحكَ فرصة لكسب بعض النقود التي تُهدَر عليك في كل يوم!»

قال الفتى، منطلقاً خارج الغرفة، «آو، أنا ذاهب، يا سائق العبيد»

احتقن وجه كيمبرو والتفت نحوي. «هيا، لنذهب»

تبعته إلى الغرفة الطويلة حيث كُدِّسَ الكثير من الدهان على طول الأرضية تحت رُقع عليها أرقام مُعلَّقة من السقف. في المؤخرة رأيتُ رجلين يُفرغان دلاءً ثقيلة من سيارة شاحنة، ويُكدسانها بترتيبٍ على منصّة منخفضة.

قال كيمبرو بفظاظة «والآن افهم ما يلي جيداً. هذا القسم كثير الأعمال وليس لدي وقت لتكرار الأوامر. عليك أنْ تنفذ التعليمات وسوف تقوم بأمور لا تفهمها، لذلك استوعب أوامرك منذ المرة الأولى ونفّذها بحذافيرها! لن يكون لدي ما يكفي من الوقت لأتوقف وأشرح كل شيء. عليك أنْ تنفِّذ ما تؤمَر به بالضبط. أتفهم؟»

أومأتُ برأسي إيجاباً، ملاحِظاً أنَّ صوته أصبح أكثر ارتفاعاً عندما توقف الرجال في المكان ليُصغوا.

قال، وهو يجمع بعض الأدوات، «حسن، والآن تعال إلى هنا»

قال أحد الرجال «إنه كيمبرو»

راقبته يركع ويفتح أحد الدلاء، ويُحرك سائلاً ذا قوام حليبي بنيّ اللون. وانبعثت رائحة كريهة تعفّها النفس. أردتُ أنْ أخطو مبتعداً، لكنه أخذ يُحرّكه بنشاط إلى أنْ أصبح لامعاً أبيض اللون، حاملاً الأداة المنبسطة كشيء رقيق ومُدققاً في الدهان وهو يتدلى من الشَفرة، أسود اللون إلى داخل الدلو، وتجهّم كيمبرو.

«اللعنة على بلهاء المُختبر في الجحيم! كان يجب أن يكون هناك مُستحضر يُضاف إلى كل دلو لعين. وهذا ما ستفعله، *وأيضاً* يجب أنْ يُضاف لكي يُشحن من هنا قبل حلول الساعة الحادية عشرة والنصف». وناولني أنبوباً مُدرَّجاً مطلياً بالمينا البيضاء وما بدا أشبه بمقياس الثقل النوعي يعمل بالبطارية.

قال «الفكرة هي أنْ تفتح كل دلو وتضع فيه عشر نقاط من المادة، ثم تحرّكه إلى أنْ يختفي. وبعد أنْ يمتزج تتناول هذه الفرشاة وتدهن عيِّنة على أحد هذه». وأخرج عدداً من الألواح المستطيلة الصغيرة وفرشاة صغيرة من جيب سترته. «أتفهم؟»

«نعم، سيدي؟». ولكن عندما نظرتُ داخل الأنبوب المُدرَّج الأبيض ترددتُ؛ كان السائل في داخله أسود فاحماً. أكان يُحاول أنْ يخدعني؟

«ما الخطب؟»

«لا أعلم، يا سيدي... أعني. في الحقيقة، لا أريد أنْ أبدأ بطرح الكثير من الأسئلة الحمقاء، ولكن أتعرف ماذا يوجد في هذا الأنبوب؟»

رفّت عيناه. قال «أعرف بدون أدنى شك. افعل فقط ما أمرتك به!»

قلت «أردتُ فقط أنْ أتأكّد، يا سيدي»

قال، آخذاً نفساً كدلالة مُبالغٍ فيها على الصبر، «اسمع، خُذ القطّارة واملأها عن آخرها... هيا، نفّذ!»

ملأتها.

«والآن أضِف عشر قطرات إلى الدهان... هذا هو، انتهينا، ليس بسرعة لعينة. والآن، لا تحتاج إلى أكثر من عشر نقاط، ولا أقلّ»

وببطء، عددتُ القطرات السوداء اللامعة، ورأيتُها تستقر على السطح وتُصبح أشدّ سواداً، منتشرة فجأة حتى الحواف.

قال «هذا هو. هذا كل ما عليك أنْ تفعل. ولا عليك من منظرها. هذا شأني أنا. وبعد أنْ تُنجِز خمسة دلاء أو ستة، عُدْ وانظر إنْ كانت العيّنات قد جفّتْ... وأسرع، يجب أنْ نشحن هذه المجموعة إلى واشنطن بحلول الساعة الحادية عشرة والنصف...»

عملتُ بسرعة ولكن بعناية. فمع رجلٍ ككيمبرو أقلّ شيء يُنفَّذ بصورة خاطئة سوف يُسبب مشكلة. لذلك لا يُفترَض بي أنْ أفكّر! فليذهب إلى الجحيم. إنه ليس أكثر من إمّعة، من عامل سوقي، متبجح شمالي! مزجتُ الدهان بصورة كاملة، ثم دهنتُه بسلاسة على إحدى القطع المستطيلة، حريصاً على أنْ تكون الضربات متناسقة.

كافحتُ لأزيل الغطاء الصعب جداً، وتساءلتُ إنْ كان دهان ليبرتي نفسه هو المُستخدم في دهن الجامعة، أم إنْ كان هذا «الأبيض البصري» شيئاً صُنعَ حصراً للحكومة. لعله من نوعية أفضل، من مزيج خاص. ورأيتُ بعين عقلي

مباني الجامعة المزخرفة حديثاً والمزيَّنة بصورة مُشرقة كما كانت تبدو في أوقات الصباح في فصل الربيع - بعد دهان فصل الخريف وثلوج الشتاء الخفيفة، بالإضافة إلى سحابة تنساب وطائر مندفع في الأعالي - ضمن إطارٍ من الأشجار وأغصان الكرمة اللولبية. ولطالما بدت المباني أكثر سُحراً لأنها الوحيدة التي كانت تُدهَنُ بانتظام؛ في المعتاد، كانت المنازل والأكواخ القريبة تُترَك كما هي لتُصبح بلون الخشب النخِر الرمادي المُبرغل الكليل. وتذكّرتُ كيف كانت شظايا في بعض الألواح الخشبية تبرز عن السطح بفعل الريح، والشمس، والمطر إلى أنْ تسطع ألواح خشب الجدران بلمعان مخمليّ، فضيّ، بلون السمك. بلون كوخ تروبلود، أو نُزُل غولدن داي... ذات مرة دُهِنَ غولدن داي باللون الأبيض؛ والآن يتقشَّر دهانه بعد مرور سنين طويلة، ويكفي خدش بالإصبع حتى يتفتَّت ويتهاوى. اللعنة على غولدن داي! ولكن غريبٌ كيف ترتبط أوصال الحياة؛ فلأنني حملتُ السيد نورتن إلى المبنى القديم المتهالك ذي الدهان العفن، أنا موجود هنا. قلت في نفسي، لو كان في إمكان المرء أنْ يضبط وجيب قلبه وذاكرته على إيقاع القطرات السوداء المتساقطة ببطء شديد إلى داخل الدلو ومع ذلك تتفاعل بسرعة، لبدا أشبه بأحداث متسلسلة في حُلمٍ محموم... كنتُ مستغرقاً حتى الأعماق في أحلام يقظتي حتى إنني لم أسمع صوت اقتراب كيمبرو.

قال، وقد وقف ويداه على وركيه، «كيف الحال؟»

«على ما يرام، سيدي»

قال، منتقياً عيِّنة ومُمرراً إبهامه عبر اللوح. قال بفخر «هذا هو، أبيض كشعر جورج واشنطن المُستعار الذي يضعه لحضور الاجتماع ومتين كالدولار الجبّار! هذا هو الدهان! هذا هو الدهان الذي سيُغطي كل شيء تقريباً!»

بدا كأنّه شعر بأنني أبديتُ بعض الشك فأسرع إلى القول «إنه أبيض حقاً»

«أبيض! إنه أنقى لون أبيض يمكن بلوغه. لا أحد يمكن أنْ يتوصّل إلى بياض أنصع منه. هذه الكمية هنا سوف تُصبح نُصُباً وطنياً!»

قلت، بإعجاب شديد، «فهمت»

نظر في ساعة يده. قال «استمر على هذا. إذا لم أُسرِع فسوف أتأخّر عن

اجتماع الإنتاج! أرى أنَّ المُستحضَر كاد ينفد: يُستحسن أنْ تذهب إلى غرفة الحوض وتُعيد ملئه... ولا تُضيِّع الوقت! يجب أنْ أذهب»

انطلقَ مبتعداً من دون أنْ يُخبزني أين تقع غرفة الحوض. كان من السهل العثور عليها، لكنني لم أكنْ مُستعداً للعديد من الأحواض. كانت سبعة؛ كل منها مزوَّد بشِفرة مُحيِّرة بالروسمة. قلت في نفسي، من عادة كيمبرو ألا يُخبرني. لا يمكن أنْ تثق بأيٍّ منهم. حسن، لا بأس، سوف أنتقي الحوض من محتوى أوعية القطر المُعلَّقة من الصنابير.

ولكن في حين أنَّ الأحواض الخمسة الأولى كانت تحتوي سوائل صافية تفوح برائحة التربنتين، كان الاثنان الأخيران يحتويان شيئاً أسود اللون يُشبه المُستحضَر، ولكن بشِفرتين مختلفتين. لذلك كان عليّ أنْ أختار. انتقيت الحوض ذا وعاء القطر الذي يفوح برائحة تشبه رائحة المُستحضَر، وملأتُ منه الأنبوب المُدرَّج، مُهنّئاً نفسي لأنني لم أُضطر إلى هدر الوقت حتى عودة كيمبرو.

أصبح العمل يسير بوتيرة أسرع الآن، وعملية المزج أضحت أسهل. الصِباغ والزيوت الثقيلة كانت تخرج من الأسفل بسرعة أكبر، وعندما عاد كيمبرو كنتُ أعمل بأقصى سرعة. سأل «كم واحداً أنهيت؟»

«أعتقد أنها حوالي خمسة وسبعين، يا سيدي. لم أُحْصِها»

«هذا جيد جداً، لكنَّ السرعة ليست كافية. إنهم يضغطون عليّ للانتهاء. هات، سوف أساعدك»

قلت في نفسي، وهو يركع وينخر ويبدأ بإزالة الأغطية عن الدلاء، لابد أنهم وبّخوه بشدة. ولكن ما إنْ بدأ حتى استُدعيَ من جديد.

عندما غادر ألقيتُ نظرة على آخر مجموعة من العيّنات وصُعقت: بدل السطح القاسي والأملس للأولى، كانت مغطاة بمادة لزجة رأيت من خلالها حُبيبات الخشب. ما الذي حدث بحق الله؟ لم يعد الدهان أبيض صقيلاً كالسابق؛ أصبح مشوباً باللون الرمادي. حرّكته بقوة، ثم أمسكت بخرقة ومسحتُ كلاً من الألواح حتى أضحت نظيفة، ثم أعددتُ عيِّنة جديدة من كل دلو. وازداد رعبي خشية أنْ يعود كيمبرو قبل أنْ أنتهي. رحتُ أعمل

بسرعة محمومة، ونجحت، ولكن بما أنَّ الدهان كان يستغرق بضع دقائق ليجفّ انتقيتُ دلوين منتهيين وبدأتُ أجرّهما إلى منصّة التحميل. أسقطتهما مع صوت مكتوم في اللحظة التي رنَّ فيها الصوت خلفي. إنه كيمبرو.

زعق، وهو يُمرر إصبعه على إحدى العيّنات، «ما هذا بحق الجحيم! هذه المادة ما زالت رخوة!»

لم أدرِ ماذا أقول. انتزع عدداً من العينات الأخيرة، وفرشها، وأطلق أنيناً. «لماذا يحدث هذا معي أنا. أولاً أخذوا كل عمالي الجيدين وأرسلوك أنت. ماذا فعلتَ به؟»

قلت مُدافعاً عن نفسي «لا شيء، يا سيدي. لقد اتّبعتُ إرشاداتك»

راقبته وهو يُمعن النظر داخل الأنبوب المُدرّج، ورافعاً القطّارة وشمّها، وتوهج وجهه من شدة السخط.

«مَنْ الذي أعطاك هذا؟»

«لا أحد...»

«إذن من أين أتيت به؟»

«من غرفة الأحواض»

فجأة انطلق إلى غرفة الأحواض، وسفح السائل وهو يركض. قلت في نفسي، آه، اللعنة، وقبل أنْ أتمكن من اللحاق به انبجس خارجاً من الباب مسعوراً.

صاح «لقد انتقيتَ الحوض الخطأ. اللعنة، أتحاول أنْ تُخرِّب الشركة؟ إنَّ هذه المادة لن تعمل ولا بعد مليون سنة. إنها مُزيل، مُزيل *مُكثِّف*! ألا تعرف الفرق؟»

«كلا، يا سيدي، لا أعرف. لقد بدا مُشابهاً. لم أكن أعلم ماذا أستخدم وأنت لم تُخبرني. كنتُ أحاول أنْ أوفّر في الوقت وانتقيتُ ما اعتقدتُ هو الصحيح»

«ولكن لِمَ هذا الحوض؟»

باشرت بالقول «لأنَّ رائحته مُشابهة –»

هدر «*رائحته!* لعنكَ الله، ألا تعلم أنك لا تستطيع أنْ تميِّز بين روائح كل تلك الأبخرة؟ تعال إلى مكتبي!»

كنتُ موزّعاً بين أنْ أُبدي احتجاجي وأنْ أناشده الإنصاف.

فالخطأ ليس كله خطأي ولم أرغب في تلقّي اللوم كله، لكنّني تمنيت أنْ ينتهي ذلك النهار. لحقتُ به وأنا أنتفض من الغضب، مُصغياً إليه وهو يُكلِّم دائرة الموظفين.

«مرحباً؟ ماك؟ ماك، أنا كيمبرو. الأمر يتعلّق بهذا الشخص الذي أرسلته إليّ هذا الصباح. سوف أُعيده إليك لكي يأخذ أجره... ماذا فعل؟ إنه لا يُعجبني، هذا هو السبب. لا يعجبني شغله... لذلك يجب أنْ يستلم العجوز تقريراً، ماذا تظن؟ قدِّم فيه تقريراً. أخبره بأنَّ هذا الشخص اللعين دمّر حمولة من شحنة الحكومة – هيه! كلا، لا تقُل له هذا... اسمع، ماك، ألديك شخص آخر عندك؟... حسن، لا عليك»

ضرب سماعة الهاتف بقوة وتهادى نحوي. «أُقسمُ لا أعلم لماذا يوظفون أمثالك. إن مكانك ليس في مصنع للدهان. هيا»

تبعته، محتاراً، إلى غرفة الأحواض، وأنا مشتاق إلى أنْ أستقيل وأقول له اذهب إلى الجحيم. لكنني كنتُ في حاجة إلى النقود، وعلى الرغم من أنَّ ذاك كان الشمال لم أكن مستعداً للقتال إلا بعد أنْ أحصل عليها. هنا سأكون واحداً ضد كم من الأشخاص؟

راقبته وهو يُفرِغ الأنبوب المُدرَّج في الحوض من جديد ولاحظتُ بعناية عندما انتقل إلى آخر مُعلَّم بـ SKA-3-69-T-Y وأعاد ملئه. وهذه المرة سوف أعرف.

قال، وهو يُسلّمني الأنبوب المُدرَّج، «والآن، إكراماً لله انتبه وحاول أنْ تؤدي العمل بشكل صحيح. وإذا لم تعرف ماذا تفعل، اسأل أحداً. سوف أكون في مكتبي»

رجعتُ إلى الدلاء، وانفعالاتي تدوِّم. كان كيمبرو قد نسيَ أنْ يقول ماذا سأفعل بالدهان الفاسد. عندما نظرت إليه تملّكتني فجأة نوبة من الغضب، ومن ثم ملأت القطارة بمستحضر جديد. حرّكتُ مقدار عشر قطرات

داخل كل دلو وأعدتُ الغطاء. قلت في نفسي، دع الحكومة تقلق حول هذا، وباشرت العمل على الدلاء التي لم تُفتَح. رحت أُحرّك حتى آلمني ذراعي وأصبحت العيّنات ناعمة قدر استطاعتي، وأصبحت أشد مهارة مع مرور الوقت.

عندما عاد كيمبرو واستعرض الأرضية وراقب رفعتُ نظري سريعاً في صمت وتابعت التحريك.

قال، متجهماً، «كيف الحال؟»

قلت، وأنا أنتقي إحدى العينات بتردُّد، «لا أدري»

«حسن؟»

قلت، بعد أنْ نهضتُ وقدمتُ له العينة، وقد اشتدّ التوتر داخلي، «لا شيء مهم... إنها نقطة من القذارة»

قرّبها من وجهه، ومرّر أصابعه على السطح ودقّقَ في القوام. قال «هذا أفضل. هكذا يجب أنْ يكون»

راقبتُ مع حسٍ بعدم التصديق وهو يدعك إبهامه على العيّنة، وأعادها إليّ وغادر من دون أنْ يُضيف كلمة أخرى.

نظرتُ إلى عيّنة الدهان. بدت متشابهة: نقطة رمادية تتوهج من خلال اللون الأبيض، ولم يرها كيمبرو. حدّقتُ مدة دقيقة تقريباً، متسائلاً إنْ كنتُ أتخيل أشياء، فلاحظتُ وجود أخرى ثم أخرى. كلها متشابهة، بياض برّاق يشوبه اللون الرمادي. أغمضتُ عينيّ برهة ثم نظرتُ من جديد ولم يتغيَّر شيء. حسن، قلت في نفسي، ما دام راضياً...

ولكن انتابني شعور بأنَّ هناك خطأ ما، شيء أهم بكثير من الدهان؛ بأنني إما خدعتُ كيمبرو أو أنه هو، كما فعل القيّمون وبليدسو، كان يمارس خدعة عليّ...

عندما أخذت الشاحنة تتقهقر نحو رصيف التحميل كنتُ أضغط الغطاء على آخر دلو – وكان كيمبرو يقف فوقي.

قال «دعنا نرى عيّناتك»

مددتُ يدي، محاولاً أنْ أنتقي أشدّها بياضاً، بينما ارتقى رجال الشاحنة بقمصانهم الزرقاء إلى أرضية التحميل.

قال أحدهم «ماذا عنها، كيمبرو، هل نبدأ؟»

قال، مُدققاً في العيّنة، «لحظة واحدة، لحظة واحدة...»

راقبته وأنا متوتر، منتظراً أنْ ينفجر غاضباً بسبب النقاط الرمادية وكارهاً نفسي لشعوري بالتوتر وبالخوف. ماذا سأقول؟ لكنه التفت نحو رجال الشاحنة وقال:

«حسناً، يا شباب، حمّلوها»

ثم قال لي «وأنت، اذهب وقابل السيد ماكْدوفي: انتهى أمرك»

ظللتُ واقفاً هناك، أُحدّقُ إلى خلفيّة رأسه، إلى العنق الوردي من تحت قلنسوة القماش والشعر الرمادي بلون الحديد. إذن سمح لي بالبقاء فقط لكي أُكمِل عملية المزج. استدرت مبتعداً، لم يكن في يدي فعل أي شيء. رحتُ ألعنه طوال الطريق إلى مكتب قسم الموظفين. هل أكتب للمالكين أشرح لهم ما جرى؟ لعلهم لا يعلمون أنَّ كيمبرو له ضلع كبير في نوعية الدهان. ولكن لدى وصولي غرفة المكتب غيَّرتُ رأيي. قلت في نفسي، ربما هكذا تجري الأمور هنا، لعلَّ النوعية الحقيقية للدهان يُحددها *دائماً* الرجل الذي يشحنه وليس الذين يمزجونه. اللعنة على الأمر كله... سوف أجد عملاً آخر.

لكنني لم أُطرَد. لقد أرسلني ماكْدوفي إلى الطابق تحت الأرضي من المبنى رقم 2 لأستلم وظيفة جديدة.

«عندما تنزل إلى هناك فقط أخبر بروكْواي أنَّ السيد سبارلاند يُصرّ على أنْ يكون له مساعد. ونفّذ ما يأمرك به»

قلت «ماذا قلتَ اسمه، يا سيدي؟»

قال «لوسيوس *بروكْواي*. هو الموظف المسؤول»

كان الطابق تحت الأرضي عميقاً. تحت الأرض بثلاث طبقات وجدتني أمام باب من المعدن الثقيل مكتوب عليه «خطر» وهبطتُ إلى غرفة مُعتمة،

يعمّها الضجيج. كان في الأبخرة التي تملأ الهواء شيء مألوف وفي الحال خطر في بالي *الصنوبر*، عندما صدح صوت زنجي عالي النبرة غطّى على هدير الآلات.

«ما الذي تبحث عنه هنا في الأسفل؟»

هتفت، مُرهِفاً سمعي لأعرف مصدر الصوت، «إنني أبحث عن الموظف المسؤول»

«أنت تتحدث معه. ماذا تريد؟»

الرجل الذي خرج من الظل ونظر إليّ بتجهّم كان ضئيل الحجم، نحيلاً وشديد الأناقة برداء عمله القذر. وعندما اقتربت منه رأيتُ وجهه المُنهك وجزّة شعره الأبيض يظهر من تحت قلنسوة المهندس المُخططة الضيقة. حيّرني سلوكه. لم أستطع أنْ أميِّز إنْ كان يشعر بالذنب حول أمرٍ يخصّه، أم يظن أنه ارتكب جريمةً ما. اقتربت أكثر، مُحدِّقاً. لم يكن طوله يتجاوز سبعة أقدام، ورداء العمل جعله يبدو الآن كأنه غاص في الزفت.

قال «حسن، أنا رجل كثير الانشغال. ماذا تريد؟»

قلت «أنا أبحث عن لوسيوس»

تجهّم. «هذا أنا – ولا تناديني باسمي الأول. بالنسبة إليك وإلى أمثالك أنا *السيد* بروكْواي...»

باشرت بالقول «أنت...؟»

«نعم، أنا! على أية حال مَنْ الذي أرسلك إلى هنا؟»

قلت «مكتب الموظفين. طُلِبَ مني أنْ أخبرك بأنَّ السيد سبارلاند أمرك بأنْ تتخذ لك مُساعداً»

قال «مُساعد! أنا لستُ في حاجة إلى أي مُساعد لعين! يبدو أنَّ العجوز سبارلاند يعتقد أنني أتقدّم في السن مثله. إنني هنا أُدير الأمور وحدي طوال سنين والآن يحاولون أنْ يُرسلوا إليّ مُساعداً. عُدْ إلى هناك وأخبرهم بأنني عندما سأحتاج إلى مُساعد سوف أطلبه!»

كان اشمئزازي شديداً عندما وجدتُ مثل ذلك الرجل مسؤولاً حتى إنني

استدرتُ من دون أنْ أتفوه بكلمة وباشرت بارتقاء الدّرَج. قلت في نفسي، أولاً كيمبرو والآن هذا العجوز...

«هيه! انتظر لحظة!»

التفتّ، فرأيته يومئ إليّ.

هتف، بصوت يشقّ هدير الأفران بحدّة، «ارجع دقيقة»

رجعت، ورأيته يُخرِج قطعة قماش بيضاء من جيب كفله ويمسح بها الواجهة الزجاجية لمقياس الضغط، ثم انحنى مقترباً ودقق النظر في وضعية الإبرة.

قال «خُذ»، ومدّ يده بقطعة القماش، «تستطيع أنْ تبقى ريثما أقابل العجوز. هذه هنا يجب أنْ تبقى نظيفة لكي أستطيع أنْ أقرأ مقدار الضغط»

تناولت قطعة القماش من دون أنْ أقول شيئاً وباشرت في مسح الزجاج. راقبني بانتقاد.

قال «ما اسمك؟»

أخبرته، بصوت مرتفع وسط هدير الأفران.

هتف، بعد أنْ ذهب وأدار صمّاماً في شبكة معقّدة من الأنابيب، «انتظر لحظة». سمعتُ الضجيج يرتفع إلى أقصاه، إلى درجة الهذيان، مما جعلنا بصورة ما نسمع من دون أنْ نصرخ أصواتنا تتحرك بلا وضوح من تحتها.

لدى عودته، نظر إليّ بحدّة، ووجهه الذاوي أشبه بشجرة جوز سوداء حيوية مع عينين حمراوين تنمان عن الدهاء.

قال كأنه محتار، «إنها المرة الأولى التي يُرسلون إليّ شخصاً مثلك. لهذا طلبتُ منك أنْ تعود. في المعتاد يُرسلون شاباً أبيض يعتقد أنه سيراقبني لبضعة أيام ويطرح عليّ سيلاً من الأسئلة ومن ثم يتولى العمل. بعض الأشخاص من فرط السذاجة بحيث لا يستحقون الكلام عنهم»، قال هذا مُكشراً وملوحاً بيده بإيماء عنيف دلالة الرفض. قال، مُلقياً عليّ نظرة سريعة، «هل أنت مهندس؟»

«*مهندس*؟ »

قال بتحدٍ «نعم، هذا ما سألتك»

«طبعا لا، يا سيدي، لست مهندساً»

«أواثق أنت؟»

«طبعاً واثق. ولِمَ لا أكون كذلك؟»

بدا عليه الارتياح. «لا بأس إذن. يجب أنْ أقابل أصحابنا الموظفين. إنَّ أحدهم يعتقد أنه سيُخرجني من هنا، ويجب أنْ يعرف أنه يُبدد وقته. إنَّ لوسيوس بروكْواي ليس مُصمماً على حماية نفسه فقط، بل **يعرف كيف** يفعل ذلك أيضاً! الجميع يعلمون أنني هنا منذ تأسيس هذا المكان – بل ساعدتُ في حفر الأساسات الأولى. والعجوز عيَّنني، ولا أحد غيره؛ وحق الله لن يُخرجني من هذا المكان إلا العجوز نفسه!»

تابعت مسح المقياس، متسائلاً عن سبب تلك الثورة، وارتحت بصورة ما لأنه بدا أنه لا يكن أي تحامُل ضدي.

قال «بأية جامعة تدرس؟»

أخبرته.

«أحقاً؟ وماذا تدرس هناك؟»

قلت «مجرد مواد عامة، المُقرر الجامعي المعتاد»

«ميكانيك؟»

«أوه، كلا، لا شيء من هذا، بل مجرد دورة فنون حرة. لا حِرف»

قال متشككاً «أحقاً؟». وفجأة قال «كم مقدار الضغط الذي يُسجله المقياس عندك؟»

«أيُّها؟»

أشار «أنت تراه. الذي أمامك مباشرة!»

نظرت، وهتفت «ثلاثة وأربعون وعُشريّ رطل»

دقّق النظر في المقياس «أه هاه، أه هاه، هذا صحيح»، ثم عاد إليّ. «أين تعلّمتَ قراءة القياس بهذه الدقّة؟»

«في درس الفيزياء في المرحلة الثانوية. إنه أشبه بقراءة الوقت في الساعة»
«أعلّموك هذا في المرحلة *الثانوية*؟»
«هذا صحيح»
«حسن، سيكون هذا أحد جوانب عملك. إنَّ هذه المقاييس هنا يجب تفقّدها كل خمس عشرة دقيقة. ويجب أنْ تفعل ذلك»
قلت «اعتقد أنني أستطيع»
«البعض يستطيعون والبعض لا يستطيعون. وبالمناسبة، مَنْ عيَّنك؟»
قلت، متسائلاً عن سبب كل تلك الأسئلة، «السيد ماكْدوفي»
«نعم، إذن أين كنتَ طوال فترة الصباح؟»
«كنتُ أعمل هناك في المبنى رقم 1»
«إنه مبنى ضخم. أين بالضبط؟»
«لمصلحة السيد كيمبرو»
«فهمت، فهمت. كنتُ أعلم أنه لا ينبغي تعيين أحد في مثل هذا الوقت المتأخّر من النهار. وماذا جعلك كيمبرو تعمل؟»
قلت بسأم، منزعجاً من كثرة الأسئلة، «في إضافة المُستحضر إلى بعض الدهان الذي فسُد»
برزت شفتاه بهياج. «أي دهان فسُد؟»
«أعتقد كانت مجموعة مُرسَلة إلى الحكومة...»
نصبَ رأسه. قال متفكّراً «لماذا لم يذكر أحدٌ شيئاً عن هذا، أكان موجوداً في دلاء أم في علب صغيرة؟»
«في دلاء»
«أوه، هذا ليس سيئاً جداً، العبوات الصغيرة تتطلّب عملاً كثيراً»، وضحك ضحكاً عالياً جافاً. وفجأة سألني، كأنه يُحاول أنْ يُباغتني، «كيف سمعتَ عن ذلك العمل؟»
قلت ببطء «أسمع، لقد أخبرني شخصٌ أعرفه عن هذا العمل؛ وماكدوفي

عيّنني؛ عملت في صباح هذا اليوم لمصلحة السيد كيمبرو؛ ومن ثم أرسلني السيد ماكدوفي إليك»

توتّر وجهه. «ألديك صديق من أولئك الملونين؟»

«مَنْ؟»

«فوق في المُختبر؟»

قلت «كلا. هل من شيء آخر تريد أنْ تعرفه؟»

رماني بنظرة طويلة، مُرتابة ثم بصق على أحد تلك الأنابيب الحارة، مُسبباً تصاعد البخار بعنف. راقبته وهو يُخرِج ساعة مهندسين ثقيلة من جيب صدريته ويُدقق النظر فيها باهتمام، ثم يستدير ليُطابقها مع الساعة الكهربائية المتوهجة على الجدار. قال «واظب على تنظيف المقاييس. يجب أنْ ألقي نظرة على حسائي. وانظر إلى هنا» وأشار إلى أحد المقاييس، «أريد منك أنْ تولي اهتماماً استثنائياً لابن العاهرة هذا هنا. فخلال اليومين الأخيرين أصبحتْ لديه عادة الإسراع أكثر من اللازم. وسبّب لي الكثير من المشاكل. عندما تراه تجاوزو الـ 75، اصرخ، بل اصرخ عالياً!»

عاد ليختفي بين الظلال ورأيتُ امتداداً من الضوء يظهر عند فتح أحد الأبواب.

تساءلتُ وأنا أُمرّر الخرقة على أحد المقاييس كيف يمكن لعجوز من الواضح أنه غير متعلم أنْ يحظى بمثل هذا الموقع المسؤول. إنه حتماً لا يبدو مُهندساً؛ ومع ذلك فهو يعمل وحده. لا يمكن التأكُّد من أيّ شيء، ففي أرض الوطن الرجل العجوز الذي يعمل حاجباً في مصلحة المياه وحده يعرف موقع مصادر المياه كلها. لقد استُخدِمَ في البداية، قبل الاحتفاظ بأية سجلات، لكنّه في الحقيقة كان يعمل مهندساً على الرغم من أنه كان يتلقّى أجر حاجب. لعل العجوز بروكْواي يحمي نفسه من شيء ما. فمنذ البداية، كانت في استخدامنا سِمة عِدائية. لعله كان يتظاهر، كما يفعل أحد أساتذتنا في الجامعة، الذين لكي يتجنبوا المشاكل في أثناء قيادة السيارة في أرجاء البلدات الصغيرة، يعتمرون قلنسوة السائقين الخصوصيين ويتظاهرون بأنّ سياراتهم تخصّ أشخاصاً من البيض. ولكن لِمَ يتظاهر أمامي؟ وما هو عمله؟

تلفّتُّ حولي. لم تكن مجرد غرفة آليات؛ كنتُ أعلم، لأنني سبق أنْ رأيت عدداً منها، وآخرها في الجامعة. بل أكثر من ذلك. أولاً، كانت الأفران مصنوعة بطريقة مختلفة واللهب المتأجِّج من خلال التصدعات في غرف الأفران أشدّ عنفاً وزُرقة. ثم هناك الروائح. كلا، إنه **يصنع** شيئاً ما هنا في الأسفل، شيئاً له صِلة بالدهان، وربما شيء من فرط القذارة والخطورة على الرجال البيض بحيث لا أحد يرغب في صُنعه حتى مقابل المال. وهو ليس دهاناً لأنني سمعت أنَّ الدهان يُعدّ في الطوابق العليا، حيث كنتُ قد رأيت، لدى مروري من هناك، رجالاً يضعون مآزر مُلطّخة منهمكين في العمل فوق رواقيد[22] ضخمة مملوءة بالصِباغ المدوِّم. وثمة شيء موكَّد: كان عليّ أنْ أكون حريصاً في التعامُل مع ذلك المجنون بروكْواي؛ فهو لا يُحب وجودي هنا... وها هو الآن، يدخل الغرفة من الدّرَج.

سأل «كيف الحال؟»

قلت «على ما يُرام. ولكن يبدو أنَّ الهدير يعلو»

«أوه، الضجيج يعلو كثيراً هنا فعلاً؛ هذا القسم هو قسم الضجيج وأنا المسؤول عنه... هل تجاوز العلامة؟»

قلت «كلا، إنه ثابت»

«هذا جيد. إنني أعاني منه كثيراً مؤخّراً. يجب أنْ أجعله ينخفض وأُشغّله من جديد بعد تنظيف الحوض»

قلت في نفسي، وأنا أراقبه يتفحّص المقاييس وينتقل إلى جزء آخر من الغرفة لكي يضبط سلسلة من الصمامات، لعله مهندس فعلاً. ثم ذهب وقال بضع كلمات في هاتف مُعلّق على الجدار وناداني، مُشيراً إلى الصمامات.

قال بجديّة «إنني أحاول أنْ أجتمع بهم في الأعلى. عندما أُعطيك الإشارة فأنا أريد منك أنْ تفتحها عن آخرها. وعندما أعطيك الإشارة الثانية أريد منك أنْ تُغلقها من جديد. ابدأ هنا بهذا الأحمر وانتقل للذي بعده...»

22- رواقيد؛ جمع راقود: وعاء ضخم للسوائل، يُستخدَم في التكرير أو التخمير أو الصباغة... - المترجم

اتخذتُ موقعي وانتظرتُ، ووقف هو بجوار المقياس.

هتف «فلنبدأ». فتحتُ الصمامات، وأنا أسمع صوت السوائل تتدفق خلال الأنابيب الضخمة. ورفعت بصري عندما سمعت رنيناً...

صاح «ابدأ بالإغلاق. إلامَ تنظر؟ أغلق الصمامات!»

عندما أغلقت الصمام الأخير سألني «ماذا ألمَّ بك؟»

«توقعتُ منك أنْ تهتف»

«قلتُ إنني سأعطيك إشارة. ألا تعرف الفرق بين الإشارة والهتاف؟ اللعنة، لقد رننتُ لك. لا تفعل هذا بعد الآن. عندما أعطيك الإشارة أريد منك أنْ تتصرّف وبسرعة!»

قلت متهكماً «أنت الريِّس»

«أنت على حق، أنا الريِّس، ولا تنسَ هذا. والآن تعال إلى هنا، لدينا عمل ننجزه»

وصلنا إلى آلة غريبة الشكل تتألّف من مجموعة هائلة من المُسنّنات موصولة بسلسلة من الأسطوانات تشبه الطبول. تناول بروكواي رفشاً وجرف كمية من الحُبيبات الكريستالية البنيّة من ركام على الأرض، ورماها بمهارة إلى وعاء في أعلى الآلة.

أصدرَ أمرَه بحدّة «أمسِكْ مجرفة ولنبدأ». ثم سأل عندما غرزت المجرفة في الركام، «ألم تفعل هذا من قبل؟»

قلت «كان ذلك منذ زمن بعيد. ما هذه المادة؟»

توقف عن الجرف ورماني بتحديق طويل، أسود، ثم عاد إلى الركام، ورفشه يُصدر رنيناً على الأرض. قلت لنفسي وأنا أغرز رفشي في الركام، ينبغي أنْ تتذكر ألا تطرح أسئلة على ابن الحرام العجوز المُرتاب هذا.

سرعان ما بدأتُ أتعرّق بغزارة. وتقرّحت يداي ونالني التعب. راقبني بروكْواي من زاوية عينه، وهو يضحك ضحكاً مكبوتاً بلا ضجيج.

قال برقّة «لستَ في حاجة إلى إرهاق نفسك، أيها الشاب»

قلت، وأنا أجرف كمية كبيرة، «سوف أتعود على هذا»

قال «آه، طبعاً، طبعاً. ولكن يُستحسَن أنْ ترتاح عندما ينال منك التعب»

لم أتوقف. ورحت أعمل إلى أنْ قال «هذه هي الكميّة التي كنا نحاول أنْ نعثُر عليها. هذا ما نريد. من الأفضل أنْ تتراجع قليلاً، لأنني أحاول أنْ أُعيد تشغيلها»

تراجعت، وراقبته يقترب ويضغط على زر. اهتزّت الآلة وتحركت وأصدرت ضجيجاً مُفاجئاً كضجيج المنشار الدائري، وأخذت تشكيلة من الحُبيبات الكريستالية الحادة الشكل تضرب وجهي كما الوشم. ابتعدتُ بحركة خرقاء إلى الخلف، ورأيتُ بروكْواي يرسم تكشيراً يُشبه ثمرة خوخ مُجففّة. ثم سمعت الحُبيبات تتسرب بحركة بطيئة، مع دمدمة احتضار طبول هادرة بغضب، وسط السكون المُفاجئ، متسللة كالرمال بشلال إلى الوعاء الذي تحته.

راقبته يتقدم ويفتح أحد الصمامات. فانبعثت دفعة جديدة من رائحة الزيت.

قال، وهو يضغط زراً على شيء بدا أشبه بمَضرَم فرن يعمل بالزيت. وأصدر همهمة غاضبة، تبعها انفجار خفيف جعل شيئاً ما يرتجّ، وسمعت بداية هدير منخفض.

«أتعرف ماذا ستُصبح هذه المادة في النهاية؟»

قلت «كلا، يا سيدي»

«في الواقع سوف تُشكّل الأحشاء، أو ما يُسمونه عربة الدهان. هذا أقلّ ما ستُصبح عليه بعد أنْ أُضيف المادة الأخرى إليها»

«لكنني حسبتُ أنَّ الدهان يُصنَع في الطوابق العليا...»

«كلا، بل فقط تُمزَج بالألوان، وتصبح جميلة. أما هنا في الأسفل فيُصنَع الدهان الحقيقي. ومن دون ما أفعل لا يستطيعون تحقيق أي شيء، سوف يصنعون حجر قرميد من دون قشّ. ولا أنشئ الأساس فقط، بل أصنع أنواع الورنيش وكثيراً من الزيوت أيضاً...»

قلت «إذن هذا هو الأمر. لقد كنتُ أتساءل ما الذي تفعله هنا»

«إنَّ كثيراً من الناس يتساءلون حول هذا دون أنْ يصلوا إلى أي جواب. ولكن كما كنتُ أقول، لا يمكن لقطرة واحدة من الدهان أنْ تخرج من المصنع إلا بعد أنْ تمرّ بين يديّ لوسيوس بروكْواي»

«منذ متى وأنت تقوم بهذا؟»

قال «منذ مدة طويلة بما يكفي لأعرف ماذا أفعل. وقد تعلّمته من دون كل تلك الثقافة التي من المُفترَض بكل مَنْ يُرسلون إلى هنا أنْ يحصلوا عليها. تعلّمته بالممارسة. والموظفون لا يريدون أنْ يواجهوا الحقائق، لكنَّ شركة «دهانات الحريّة» ما كانت لتساوي شيئاً لولا وجودي هنا وحرصي على أنْ تكون أساساً قوياً وراسخاً. لكنَّ العجوز سبارلاند يعلم ذلك. إنني لا أتوقف عن الضحك عندما أتذكَّر حين أُصِبتُ بذات الرئة ووضعوا أحد الذين يُسمّون بالمهندسين لكي يعمل هنا في الأسفل. أصبحوا يحصلون على الكثير من الدهان السيئ ولم يعرفوا ماذا يفعلون به. كان الدهان يقطر ويتغضّن، ولا يثبت على أي شيء – في الواقع، يمكن للرجل أنْ يجمع مالاً كثيراً إذا عرِفَ ما الذي يجعل الدهان يتغضّن. على أية حال، كان كل شيء يسير بصورة سيئة. ثم علِمتُ أنهم وضعوا ذلك الشخص في مكاني وعندما برئتُ من مرضي رفضتُ أنْ أعود إلى موقعي. لقد كنتُ قد أمضيتُ معهم وقتاً طويلاً وكنتُ مُخلصاً وما إلى ذلك. هراء، وأبلغتهم أنَّ لوسيوس بروكواي يتقاعد!

«الشيء الثاني الذي حدث هو زيارة الرجل العجوز. كان طاعناً في السن إلى درجة أنَّ سائقه الشخصي اضطر إلى مساعدته على ارتقاء الدرَج المنحدر في بيتي. ودخل وهو يلهث وينفث ويقول «لوسيوس، ما هذا الذي سمعت عن استقالتك؟»

«قلت «في الواقع، يا سيدي، سيد سبارلاند، لقد اشتدّت عليّ وطأة المرض، كما تعلم جيداً، وازدادت عليّ وطأة السنين، كما تعلم جيداً، وقد سمعت أنَّ ذلك الرجل الإيطالي الذي وضعته في مكاني يبلي بلاءً حسناً لذلك وجدتُ أنَّ من الأفضل أنْ أنسحب»

«وكأنّني أهنته أو ما شابه. قال «أي كلام هذا، يا لوسيوس بروكواي،

أتنسحب ونحن في حاجة إليك في المصنع؟ ألا تعلم أنَّ أسرع طريقة للموت هي التقاعُد؟ إنّ ذلك الشخص في المصنع لا يعرف شيئاً عن تلك الأفران. إنني شديد القلق بشأنِ ما سيفعل، وهو خليق بأنْ ينسف المصنع أو ما شابه حتى إنني وضعت المزيد من التأمين. ومنذ أنْ رحلتَ لم نُنتِج أيّة كمية من الدهان الممتاز». قال لوسيوس بروكواي «الآن هذا هو العجوز نفسه!»

قلت «فماذا حدث؟»

قال، وكأنَّ سؤالي هو الأشد غباءً في العالم، «ماذا تعني بماذا حدث؟ هراء، بعد بضعة أيام أعادني العجوز إلى هنا وأطلقَ يدي. وجُنَّ جنون ذلك المهندس عندما وجد أنَّ عليه أنْ يتلقّى الأوامر مني واستقال في اليوم التالي»

بصق على الأرض وضحك. «هه، هه، هه، كان أبله. أبله! أراد أنْ يكون رئيسي *أنا* في العمل وأنا أعلم أكثر من أي شخص آخر عما فعله في الطابق السفلي، في المراجل وما إلى ذلك. لقد ساعدتُ في تمديد الأنابيب وكل شيء، وما أعني هو أنني أعرف موقع كل شيء وكل أنبوب ومفتاح تشغيل وكابل وسلك وكل شيء آخر – في كلّ الطوابق وعلى الجدران وخارجاً في الفناء. نعم، يا سيدي! وزيادة على ذلك، أحفظه غيباً حتى إنني أستطيع أنْ أتقصّى موقعها على الورق حتى آخر صمولة وبرغي؛ وأنا لم ألتحق بأيّة كلية هندسة في أي مكان، ولمْ أمرَّ من أمام إحداها، حسب عِلمي. فما رأيك في هذا؟»

قلت، وأنا أفكر في نفسي، لا أحبّ هذا العجوز، «أعتقد أنه أمر مذهل»

قال «أوه، أنا لا أسميه هكذا. كل ما في الأمر أنني أمضيتُ هنا ردحاً طويلاً من الزمن. إنني أدرس هذه الآلة منذ أكثر من عشرين عاماً. حقاً، وذلك الرجل يعتقد أنه، لأنه ارتاد مدرسة ما وتعلَّم كيف يقرأ رسماً لتصميم وكيف يُشعِل مرجلاً، يعرف أكثر من لوسيوس بروكواي عن هذا المصنع. إنَّ ذلك الأحمق لا يمكن أنْ يكون مهندساً لأنه لا يستطيع أنْ يرى ما الذي يوجد أمامه مباشرة... أُذكّرك بأنك تنسى أنْ تراقب المقاييس»

هرعتُ إليها، فوجدتُ المؤشرات كلها ثابتة.

هتفت «إنها ثابتة»

«حسن، لكنني أُحذّرك من أن تغفل عينك عنها. هنا في الأسفل ممنوع النسيان، لأنك إنْ نسيت فمن المُرجَّح أنْ تتسبَّب في انفجار شيء ما. هناك الكثير من الآلات، ولكن هذا ليس كل شيء؛ ***نحن بمنزلة الآلات الكامنة داخل الآلة***».

سأل وأنا أساعده في ملء وعاء بالمادة الكريهة الرائحة «أتعرف ما هو الدهان الأكثر مبيعاً عندنا، النوع الذي ***يبني*** نجاح هذا العمل؟»

«كلا، لا أعلم»

«إنه لوننا الأبيض، الأبيض البصري»

«ولمَ الأبيض دون غيره؟»

«لأننا بدأنا نُشدد عليه منذ البدايات. أنتجنا أفضل أنواع الدهان الأبيض في العالم، ولا يهمني ما يقوله أي شخص. إنَّ دهاننا الأبيض ناصع البياض بحيث يمكنك أنْ تدهن به قطع الفحم ولكي تكسره تُضطر إلى استخدام هراوة من أجل إثبات أنه ليس كله أبيض!»

تلألأت عيناه باقتناع خالٍ من الفكاهة وكان عليّ أنْ أُنكّس رأسي لكي أُخفي ابتسامي.

«هل لاحظتَ اللافتة التي تعلو المبنى؟»

قلت «أوه، لا يمكن تجاهلها»

«وهل قرأت الشِعار؟»

«لا أتذكره، كنتُ في عجلة من أمري»

«حسن، قد لا تُصدّق ما أقول، لكنني ساعدتُ العجوز في صياغته. «إذا كان الأبيض البصري، فهو الأبيض الأمثل»، اقتَطَفَه رافعاً إصبعاً، كواعظ يقتطفُ قولاً مقدّساً. وقد حصلتُ على علاوة مقدارها ثلاثمائة دولار لمساعدتي في صياغته. وكان اختصاصيو الدعاية العصرية يُحاولون أنْ يبتكروا شيئاً عن باقي الألوان، متحدثين عن أقواس قُزح أو ما شابه، ولكن اللعنة، لم ***يتوصلوا*** إلى أي شيء»

كررت «إذا كان الأبيض البصري، فهو الأبيض الأمثل»، وفجأة اضطررتُ إلى كبت ضحكة عندما سمعت جرس الطفولة يرن في ذهني:

قلت «إذا كنتَ أبيض بصرياً، فأنت جيد»

قال «هذا هو. وهذا سبب آخر يدفع العجوز إلى عدم السماح لأحد بإزعاجي هنا. وهو يعرف أشياءَ لا يعرفها كثيرٌ من الوافدين الجُدُد؛ يعرف أنَّ سبب رداءة دهاننا تعود إلى الطريقة التي يضغط بها لوسيوس بروكواي الزيوت والراتينج قبل إخراجها من الأحواض»، وضحك بخبث، «إنهم يعتقدون أنه لأنَّ كل شيء يُعدّ هنا بالآلة فإنَّ الأمر سهل. إنهم مجانين! أليس ما يُنجَز هنا رائع وكأنني لم أضع يديّ السوداوين فيه! إنَّ الآلات تقوم فقط بالمزج، وهاتان اليدان هما اللتان تصنعان الجودة. نعم، يا سيدي! إنَّ لوسيوس بروكواي يُحسن العمل! إنني أغمس أصابعي فيه فيُصبح جيداً! هيا بنا نأكل...»

قلت، وقد رأيته يتناول وعاء ترمس عن الرف بالقرب من أحد الأفران، «ولكن ماذا عن المقاييس؟»

«أوه، سوف نعود سريعاً لنسهر عليها. لا تقلق»

«لكنني تركتُ وجبة غدائي في غرفة تغيير الملابس في المبنى رقم 1»

«اذهب واحضرها وعُد إلى هنا. هنا يجب أنْ نكون دائماً مستعدين للعمل. والرجل ليس في حاجة لأكثر من خمس عشرة دقيقة ليأكل؛ وبعد ذلك يجب أنْ يعود إلى عمله»

عندما فتحت الباب حسبتُ أنني ارتكبتُ خطأً. كان هناك رجال يعتمرون قلنسوات دهانين ملطّخة وملابس عمل يجلسون على مقاعد، يُصغون إلى رجل نحيل يبدو مسلولاً يخطب فيهم بصوت فيه خُنّة. نظر الجميع إليّ وكدتُ أخرج عندما هتف الرجل النحيل، «هناك مقاعد كثيرة للقادمين المتأخّرين. ادخل، يا أخي...»

أخ؟ حتى بعد مرور أسابيع على وجودي في الشمال كان ذلك مُفاجئاً. تلعثمت قائلاً «كنتُ أبحث عن غرفة تغيير الملابس»

«أنت فيها، يا أخي. ألم يُخبروك عن الاجتماع؟»

«اجتماع؟ في الواقع، كلا، يا سيدي، لم أكن أعلم»

تجهّم رئيس الاجتماع. قال للآخرين «في الواقع أنَّ رؤساء الأقسام لا يتعاونون معنا. يا أخي، مَنْ هو متقدمك في العمل؟»

قلت «إنه السيد بروكواي، يا سيدي»

فجأة بدأ الرجال يَحفّون بأقدامهم على الأرض ويسبّون. تلفّتُ حولي. ما الخطب؟ هل اعترضوا على إشارتي إلى بروكواي *بالسيد*؟

قال الرئيس، منحنياً عبر الطاولة، ويضع يده على أذنه، «هدوءاً، يا إخوة. والآن ماذا قلت، يا أخي؛ مَنْ هو رئيسك؟»

قلت، مُسقِطاً لقب *السيد*، «إنه لوسيوس بروكواي، يا سيدي»

لكنَّ ذلك جعلهم أشدّ عِدائيّة. وصرخوا «أخرجوه من هنا». التفتُّ، فوجدتُ ثلة في الجانب القصيّ من الغرفة يرفسون أحد المقاعد، ويصرخون «ارموه إلى الخارج! ارموه خارجاً!»

طفرتُ إلى الخلف قليلاً، لدى سماعي الرجل القميء يضرب بقوة على الطاولة طلباً للنظام. «يا رجال، يا إخوة! أعطوا الأخ فرصة للكلام...»

«يبدو لي أنه واشٍ قذر. واش مُلمَّع من الدرجة الأولى!»

خرقت أُذني كلمة «زنجي» بصوت أجشّ ولكْنة جنوبية غاضبة...

«من *فضلكم*، يا أخوة!» قال الرئيس ملوحاً بيديه وبينما أمدُّ يدي نحو الباب لمست ذراعاً شعرتُ بأنها أبعدتني عنها بقوة. فأسقطتُ يدي.

سأل أحد الرجال «مَنْ أرسل هذا الواشي إلى الاجتماع، أيها الأخ الرئيس؟ اسأله هذا!»

قال الرئيس «كلا، انتظروا، لا تلجؤوا إلى هذه الكلمة بقسوة...»

قال رجل آخر «اسأله، أيها الأخ الرئيس!»

«حسن، ولكن لا تصنّفوا رجلاً بالواشي إلا بعد أنْ تتيقنوا»، والتفتَ الرئيس نحوي. «كيف أتيتَ إلى هنا، أيها الأخ؟»

هدأ الرجال وأصغوا.

قلت، بفم جافّ، «لقد تركتُ وجبة غدائي في خزانتي»

«ألم *يُرسلك* أحدهم إلى الاجتماع؟»

«كلا، يا سيدي، لم أكن أعلم بأمر أي اجتماع»

«إنه يكذب. كل الواشين يُنكرون!»

«ارموا بابن الحرام القذر خارجاً!»

قلت «الآن، انتظروا»

أصبح صياحهم أعلى، ومُهدداً.

صرخ الرئيس «احترموا رئيسكم! نحن اتحاد عمالي ديموقراطي هنا، فاتّبعوا الإجراءات –»

«لا يهم، تخلصوا من الواشي!»

«... الديموقراطية. إنَّ مهمتنا هي أنْ نجعل العمال كلهم أصدقاءَ لنا. وأُشدِّد على *كلهم*. هكذا نجعل اتحادنا قوياً. والآن دعونا نسمع ما لدى الأخ ليقول. كفى تذمراً ومُقاطعة!»

أخذ العرق البارد يتفصّد مني، وشعرت بأنَّ عينيّ أصبحتا حادتيّ النظر، وأصبحتُ أرى كل وجه يبرز بحيوية وسط عِدائيته.

سمعت مَنْ يقول «متى تعيَّنت، يا صديق؟»

قلت «في صباح هذا اليوم»

«أترون، يا إخوة، إنه وافد جديد. ليس في مصلحتنا أنْ نرتكب خطأ الحكم على عامل من خلال المتقدِّم في العمل. إنَّ بعضكم أيضاً عمل تحت إمرة أولاد حرام، أتذكرون؟»

فجأة بدأ الرجال يضحكون ويسبّون. صاح أحدهم «هذه النقطة صحيحة»

«الذي كنتُ أعمل معه أراد أنْ يتزوج من ابنة الرئيس في العمل – إنها الأعجوبة الثامنة!»

هذا التغيُّر المفاجئ أوقعني في الحيرة والغضب، وكأنهم كانوا يجعلون مني أضحوكة.

«النظام، يا إخوة! لعلّ الأخ يرغب في الانضمام إلى الاتحاد. ما رأيك، أيها الأخ؟»

«سيدي...؟» لم أدر ماذا أقول. لم أكن أعرف إلا القليل عن الاتحادات – لكنَّ غالبية أولئك الرجال بدت عِدائية... وقبل أنْ أتمكن من الإجابة قفز رجل بدين بشعر أشيب مشعث واقفاً صارخاً بغضب:

«أنا أعترض! أيها الإخوة، إنَّ هذا الشخص يمكن أنْ يكون واشياً، حتى وإنْ كان قد عُيِّنَ في هذه اللحظة! وهذا لا يعني أنني أقصد أنْ أكون جائراً بحق أي إنسان»، وهتف بانفعال «لعله ليس واشياً، ولكن أيها الإخوة، أودّ أنْ أُذكّركم بأنَّ لا أحد يعرف الحقيقة؛ ويبدو لي أنَّ كل مَنْ يعمل تحت إمرة ابن الحرام، الخائن بروكواي ذاك لأكثر من خمسة عشر دقيقة يُصبح ذا فكر واشٍ *فطرياً*! أرجوكم، أيها الإخوة!» هتف، ملوحاً بذراعيه طلباً للهدوء، «كما تعلَّم بعضكم، من الآلام التي كابدتها زوجاتكم وأطفالكم، ليس من الضروري أنْ يعرف الواشي أي شيء عن الاتحادات العمالية ليكون واشياً! الوشاية؟ اللعنة، لقد أعددتُ دراسة حول الوشاية! الوشاية موجودة *فطرياً* عند بعض الأشخاص. إنها تولد معهم، كما تولد القدرة على تمييز الألوان الجميلة مع بعض الأشخاص. هذا صحيح، هذه هي الحقيقة العلمية، العارية! إنَّ الواشي ليس مُضطراً حتى إلى أنْ يكون قد سمع عن أي اتحاد من قبل»، هتف بهذه الكلمات بهستيريا. «إنَّ كل ما عليكم أنْ تفعلوا هو أنْ تقرّبوه من اتحاد ما، وفي الحال، زيب! تجدونه يشي بكل شيء عنكم!»

غاص صوته وسط صرخات الاستحسان. والتفت الرجال بعنف لينظروا إليّ. صُدمت. أردتُ أنْ أنكس رأسي لكنني واجهتهم وكأنَّ مواجهتهم بحد ذاتها كانت إنكاراً لادّعاءاته. ثم برز صوت آخر من بين هتافات الاستحسان، ينم عن إلحاح من بين شفتَي شخص قميء يضع نظارات تكلَّم رافعاً سبّابة إحدى يديه وإبهام الأخرى مشبوكاً بحامل رداء عمله:

«أريد أنْ أصوغ ملاحظات هذا الأخ على هيئة اقتراح: إنني أقترح أنْ نُقرر عبر إجراء تحقيق شامل ما إذا كان العامل الجديد واشياً أم لا؛ وإذا كان واشياً، فلنكتشف لمصلحة مَنْ يشي! وبهذا، أخوتي الأعضاء، نمنح العامل الوقت،

فإذا *لم يكن* واشياً، ليطّلع على عمل الاتحاد وأهدافه. فقبل كل شيء، أيها الإخوة! لا نريد أنْ ننسى أنَّ أمثاله من العمّال ليسوا على درجة عالية من التمرّس كبعضنا الذين انخرطوا في الحركة العمالية منذ وقت طويل. لذلك *أنا* أقول، لنمنحه الوقت ليرى ما فعلنا لنطوِّر أوضاع العمال، ومن ثم، إذا *لم يكن* واشياً، نستطيع أنْ نُقرر بطريقة ديموقراطية ما إذا كنا نريد أنْ نقبل هذا الأخ في اتحادنا. يا أعضاء الاتحاد، شكراً لكم!» وجلس مع ارتطام.

ضجَّت الغرفة. وتنامى غضب قارص داخلي. إذن فأنا لستُ عالي التمرُّس مثلهم! ماذا كان يعني بهذا؟ أكلّهم حاصلون على درجة الدكتوراه؟ لم أستطع أنْ أتحرك؛ كانت الأحداث فوق طاقتي على تحمّلها. وكأنني بولوجي إلى ذلك المكان قدّمتُ طلباً للعضوية - على الرغم من أنه لا فكرة لدي عن وجود أي اتحاد، وكنتُ قد جئت ببساطة لكي أحصل على شطائري من لحم الخنزير البارد. وقفتُ أرتجف، أخشى أنْ يطلبوا مني أنْ أنضم إليهم ولكنني غاضب لأنَّ ذلك العدد الغفير رفضني على الفور. والأسوأ هو أنني كنتُ أعلم أنهم يُجبرونني على قبول أشياء بشروطهم، وكنتُ عاجزاً عن المغادرة.

صاح رئيس المجلس «حسن، أيها الإخوة. سوف نصوّت. كل مَنْ يوافق على الإجراء، فليؤشِّر بكلمة «نعم»...»

وانهالت عليه تأشيرات نعم.

أعلن رئيس المجالس عندما استدار عدد من الرجال نحوي «الغالبية تقول نعم». على الأقل أصبح في استطاعتي أنْ أتحرَّك. وهممتُ بالخروج، ناسياً السبب الذي أتيت من أجله.

هتف الرئيس «هيا، أيها الأخ. تستطيع الآن أنْ تأخذ وجبة غدائك. دعوه يمرّ، أيها المتجمعون حول الباب!»

غاص وجهي وكأنني تلقّيتُ صفعة. لقد اتخذوا قرارهم بدون أنْ يمنحوني فرصة للتعبير عن نفسي. وشعرتُ بأَن كل شخص موجود يرميني بنظرة عِدائية؛ وعلى الرغم من أنني عايشتُ العدائية طوال حياتي، فإنه بدا لي الآن للمرة الأولى أنها وصلتْ إليّ، وكأنني توقعتُ المزيد من هؤلاء

الرجال أكثر من غيرهم – على الرغم من أنني لم أكن أعرف بوجودهم. هنا في هذه الغرفة انهارت وسائل دفاعي كلها، تجرّدتُ منها، حُجِزَتْ عند الباب كما يفعلون بالأسلحة، الخناجر والأمواس ومسدسات رأس البوم التي يحملها رُعاة البقر كانت تُحجَز في ليلة يوم السبت في غولدن داي، وأبقيتُ عينيّ منكّستين، وأنا أُغمغم «عذراً، عُذراً»، طوال الطريق إلى الخزانة الخضراء القذرة، التي أخرجتُ منها الشطيرة، التي لم تعُد لدي أية شهية لأكلها، ووقفتُ أدعبسُ في الحقيبة، مخافة أنْ أواجه الرجال في طريق عودتي. ثم شققتُ طريقي، ولا أزال كارهاً نفسي لأنني كنتُ أعتذر، ماراً بهم عائداً بصمت.

عندما وصلتُ الباب هتف الرئيس «لحظة من فضلك، أيه الأخ، نريد منك أنْ تفهم أنَّ هذا الموقف ليس ضدك شخصياً. وما تراه هنا هو نتائج لظروف معيَّنة هنا في المصنع. نريد منك أنْ تعلم أننا فقط نحاول أنْ نحمي أنفسنا. ونأمل في أنْ نضمّك إلينا كعضو ذات يوم في وضع أفضل»

وصدر من هنا وهناك تصفيق فاتر سرعان ما خَفَتَ. ابتلعت لعابي وحدّقتُ دون أنْ أرى شيئاً، والكلمات تنهال عليّ كأنما من مسافة ضبابية، حمراء.

قال الصوت «حسن، أيها الإخوة، دعوه يمرّ»

مشيتُ بخُطى متعثّرة تحت الشمس البرّاقة في الفناء، ومررتُ بعمال المكتب يتسامرون على العشب، في طريق عودتي إلى المبنى رقم 2 إلى الطابق التحتي. وقفتُ على الدّرَج، شاعراً كأنَّ أحشائي تفيض بالأسيد. فكّرت بألم، لِمَ لم أغادر ببساطة. وبما أنني بقيت، لِمَ لم أقُل شيئاً، كأنْ أدافع عن نفسي؟ وفجأة نزعت الورقة عن الشطيرة ورحتُ أمزّقها بأسناني بعنف، لا أكاد أستمتع باللُّقم الجافة التي تنعصر مارة ببلعومي الضيق وأنا أبتلع. أسقطتُ ما تبقّى منها في حقيبتي، وتمسّكتُ بالدرابزين، وساقاي ترتعشان وكأنني هربتُ تواً من خطر عظيم. وأخيراً، انزاح ودفعتُ الباب المعدني.

قال بروكواي بحدّة من مكان جلوسه على عربة الجر، «ما الذي أخّرك كل ذلك الوقت؟». كان يشرب من إبريق أبيض يحمله بيديه القذرتين.

ألقيتُ عليه نظرة جوفاء، أرى كيف يسقط الضوء على جبينه المتغضّن، وشعره الأبيض كالثلج.

«*قلت ما الذي أخّرك كل ذلك الوقت!*»

قلت في نفسي، ماذا سيفعل معي، وأنا أنظر إليه من خلال ما يُشبه الضباب، وأعلم أنني أمقته وأنني كنتُ مُرهقاً جداً.

بدأ بالقول «أقول...»، وسمعت صوتي يخرج هادئاً من حنجرتي المتوترة وقد لاحظت من ساعة الحائط أنني لم أغِبْ أكثر من عشرين دقيقة.

«اصطدمت باجتماع نقابة العمال -»

«*النقابة!*» سمعتُ كوبه الأبيض يتهشّم مرتطماً بالأرض عندما رفع ساقاً عن ساق ونهض واقفاً. صرخ «كنتُ أعلم أنك تنتمي إلى تلك العُصبة من الأجانب المُثيرين للشغب! كنتُ أعلم! اخرج! اخرج من قبوي!»

اندفع نحوي كأنني أراه في حُلم، أرتجفُ كإبرة أحد المقاييس عندما أشار نحو الدّرج، وصوته يزعق. حدّقتُ إليه؛ يبدو أنَّ ثمة خطباً، وتزاحمت ردود فعلي.

تمتمت، بصوت منخفض وعقلي يفهم ولكن ليس بدقّة، «ما الخطب؟»

«لقد سمعتني. اخرج!»

«لكنني لا أفهم...»

«اخرس واخرج!»

هتفت، أكافح لأدعم شيئاً يتهاوى، «ولكن، يا سيد بروكواي»

«أيها التافه، أيها البقّة النقابية المُشاغبة!»

صرخت، بإلحاح هذه المرة، «اسمع، يا رجل، أنا لا أنتمي إلى أية نقابة»

قال، وهو ينظر إلى أرجاء المكان بهياج، «إذا لم تخرج من هنا، أيها الحقير التافه، فسوف أقتلك. وليشهد عليّ الرب، **سوف أقتُلُك!**»

كانت الأمور تحدث بسرعة كبيرة لا تُصدَّق. تلعثمت قائلاً «سوف تفعلُ ماذا؟»

«سوف أقتلك، هذا ما سأفعل!»

قالها من جديد وتخلّى شيء ما عني، وكأنني كنتُ أقول لنفسي بسرعة: ***لقد درّبوك على أنْ تقبل بلاهة عجوز كهذا، حتى بعد أنْ وجدتَ أنّهم ثلّة من المُهرجين والحمقى؛ لقد درّبوك على أنْ تتظاهر بأنك تحترمهم وتعترف بأنهم يتمتعون بنوعية السلطة والنفوذ نفسيهما في عالمك كاللّذين يتمتع بهما البيض الذين ينحنون أمامهم ويتذللون لهم ويخافونهم ويُحبونهم ويُقلّدونهم، وعندما يُثيرون غضبك أو احتقارك أو تسكر بالسلطة، درّبوك حتى على أنْ تقبل العصا أو الحزام أو القَصَبة التي ينهالون بها عليك ولا تبذل أقلّ جهد لتردّ الصاع صاعين، بل فقط أنْ تهرب من دون أنْ يتركوا عليك أثراً.*** لكنَّ هذا كثير جداً... فهو ليس جَدّاً أو عماً أو أباً، ليس واعظاً أو أستاذ مدرسة. انفكّ شيء ما في أحشائي ورحت أتقدَّم منه، صارخاً، في وجه الضباب الأسود الذي أثار غضب عينيّ وليس في وجهٍ إنسانيّ واضح القسمات، «**أنت ستقتُل مَنْ؟**»

«***أنت*، هذا هو!**»

«اسمع، أيها العجوز الأبله، إياك أنْ تتكلَّم عن قتلي! أعطني فرصة لأشرح الأمر. أنا لا أنتمي إلى أي شيء –» وعندما رأيته يُثبّت نظره على قضيب من الحديد الملوي صرخت، «هيا، خذه! هيا! أنت عجوز وخليق بأنْ تكون جدّي، ولكن إذا لمستَ ذلك القضيب، أُقسِم على أنْ أجعلك تأكله!»

صرخ «لقد قلت لك، **اخرج من قبوي! *يا ابن الحرام الوقح***»

تقدّمت، عندما رأيته ينحني جانباً ليتناول القضيب؛ وارتميت إلى الأمام، شاعراً به ينطرح مع نخر ويرتطم بالأرض بقوة، ويتدحرج تحت وطأة قوة رِئتي. وكأنني استقررت على جرذ نحيل. زحف تحتي، مُصدِراً ضجيج الغضب وضارباً وجهي ومحاولاً أنْ يستخدم القضيب. أبعدته عن قبضته، شاعراً بألمٍ حادٍ يطعن كتفي. إنه يستخدم سكيناً، لمعَ أمام عين عقلي فسدّدت لوجهه ضربة قوية بمرفقي، شعرتُ بأنها استقرّت عليه مباشرة ورأيتُ رأسه يميل إلى الخلف ثم إلى أعلى وإلى الخلف من جديد بينما ألكمه من جديد، وسمعتُ شيئاً يطير منفلتاً وينزلق على الأرض، وقلت في نفسي، لقد أفلته،

أفلت السكين... وأخذتُ أضرب من جديد بينما حاول أنْ يخنقني، ولكمتُ رأسه المتذبذب، شاعراً بالقضيب يسقط حراً وأنهال به على رأسه، فأُخطئ، ويُقعقع القضيب على الأرض، وأرفعه في محاولة أخرى وهو يصرخ، «كلا، كلا، أنت الأفضل، أنت الأفضل!»

قلت، بحلق جافّ، «سوف أضرب رأسك حتى أسحقه! وتطعنني...»

قال لاهثاً «كلا، لقد اكتفيت. ألم تسمعني أقول إنني اكتفيت؟»

«عندما تعجز عن الفوز تريد أنْ تتوقف! اللعنة عليك، إذا كنتَ قد أصبتني بجرح عميق، فأنا سوف أقطع رأسك!»

نهضتُ واقفاً وأنا أراقبه بحذر. تركتُ القضيب، عندما اجتاحتني موجة من الحرارة: كان وجهه قد انهار.

صرخت، بعصبية، «ماذا ألمَّ بك، أيها العجوز؟ أجُننت حتى تضرب رجلاً يبلغ ثلث عُمرك؟»

شحب وجهه عندما وصفته بالعجوز، وكررت هذا الوصف، مُضيفاً إهانات كنتُ قد سمعتُ جدّي يستخدمها. «كان ينبغي أنْ تكون أكثر حِكمة، أيها العجوز، يا سليل العبودية، يا تربية أمّه، يا ابن الحرام يا من يربط رأسه بمنديل! ما الذي دفعك إلى الاعتقاد أنَّ في استطاعتك أنْ تُهدد حياتي *أنا*؟ أنت لم تكن تعني أي شيء بالنسبة إليّ، لقد أتيتُ إلى هنا لأنني أُرسِلتُ. ولم أكن أعرف أي شيء عنك أو عن النقابة. لماذا بدأتَ تضايقني حالما دخلت؟ أمجانين أنتم هنا؟ أيؤثّر الدهان على عقولكم؟ أتشربونه؟»

احتقن غضباً، وهو يلهث من التعب. وظهرت ثنيات كبيرة على رداء عمله حيث التصقتِ التغضنات بعضها على بعض بسبب المادة اللزجة التي كانت تغطيه، وقلت في نفسي، إنه طفل القطران[23]، ووددتُ لو أتخلص منه. لكنَّ غضبي كان يتحول بسرعة من الفعل إلى الكلمات.

23- طفل القطران: في الأصل، شخصية روائية في سلسلة قصص «العم ريموس» التي نُشرَت في عام 1881، وفيها توضع الدمية المصنوعة من القطران كنوع من الفخ للإيقاع بالأرانب. وفي العموم تعني أي شيء تحاول أنْ تضربه فلتلتصق به، أو أيّ موقفٍ مزعج لا تستطيع الفكاك منه. وهناك أيضاً رواية تحمل الاسم نفسه للروائية الأميركية تونّي موريسون. - المترجم

«لقد ذهبتُ لأُحضر وجبة غدائي فسألوني عمَّن أعمل لمصلحته وعندما أخبرتهم، اتهموني بأنني واشٍ. *واشٍ!* لابد أنكم هنا مجانين. وما إنْ رجعت إلى هنا حتى بدأتَ تصرخ قائلاً إنك ستقتلني! ما الذي يحدث؟ ماذا لديك ضدي؟ ماذا فعلت؟»

حدّقَ إليّ مذهولاً في صمت، ثم أشار إلى الأرض.

حذّرته «إذا مددتَ يدك فسوف تُعيدها مع نتوء»

تمتم، بصوت غريب، «ألا يستطيع المرء أنْ يستعيد أسنانه»

«**أسنان؟**»

فتح فمه، مع تجهُّم الخجل، فرأيتُ ومض اللثة المنكمشة الأزرق. والشيء الذي كان قد انزلق عبر الأرض لم يكن سكيناً، بل طقماً من الأسنان الاصطناعية. وخلال جزء من الثانية شعرت باليأس، بأنَّ بعضاً من تبرير رغبتي في قتله ينساب مني. قفزت أصابعي إلى كتفي، لتجد قماشاً مُبللاً ولكن بلا دم. لقد عضّني ذلك العجوز الأحمق. كافح ومضٌ من الضحك العنيف ليبرز من تحت غضبي. لقد عضَّني! نظرت إلى الأرض، فرأيت الإبريق المُهشَّم والأسنان تتلألأ كليلة متناثرة عبر أرض الغرفة.

قلت، وقد تفاقم إحساسي بالخجل، «خُذها». من دون أسنانه، بدا أنَّه فقد جزءاً من حقده. لكنني بقيت قريباً منه عندما تناول أسنانه وذهب إلى الصنبور ليضعها تحت دفق الماء. وتحت ضغط إبهامه سقط أحد الأسنان، وسمعتُه يُغمغم وهو يضع الطاقم في فمه. ثم عاد إلى طبيعته، وهو يُحرّك ذقنه.

قال «كنتَ تحاول حقاً أنْ تقتلني»، وكأنه لا يُصدِّق ذلك.

قلت «أنت الذي بدأ بالقتل. ليس من عادتي أنْ أتشاجر مع الناس. لِمَ لم تدعني أشرح لك؟ هل يتنافى مع القانون أنْ ينتمي المرء إلى النقابة؟»

صرخ، ويكاد يبكي، «اللعنة على تلك النقابة. *اللعنة* على تلك النقابة! إنهم يريدون الاستيلاء على عملي! أنا أعلم أنهم يستهدفون عملي! وانضمام واحد منا إلى إحدى تلك النقابات اللعينة يُشبه عضّ يد أحد الرجال الذي يلمسنا لكي يستحم في المغطس! كم أكره ذلك، وأنا مُصمِّم على أنْ أبذل قُصارى جهدي لأطردهم من المصنع. إنهم يسعون وراء عملي، أولاد الحرام القذرون أولئك!»

تشكّل الرضاب عند زاويتي فمه؛ وكأنه يغلي من شدة الحقد.

قلت، وقد شعرت فجأة بأنني تقدّمت في السن، «ولكن ما دخلي في ذلك؟»

قال بابتذال كأنه يترافع في قضية «لأنَّ الشبان الملونين في المُختبر يُحاولون أنْ ينضموا إلى تلك الجماعة، هذا هو السبب! هنا أيضاً لا يمنحهم الرجل الأبيض أعمالاً، وهم جاحدون إلى درجة الانضمام إلى تلك النقابة الخائنة! لم أر في حياتي جماعة جاحدة مثلها. إنَّ كل ما يفعلونه هو أنْ يُفسدوا الأمور علينا جميعاً!»

قلت «حسن، أنا آسف. لم أكن أعرف هذا كله. لقد جئت إلى هنا لكي أعمل في وظيفة مؤقتة وليس في نيتي أنْ أتورط في أية مُشاحنات. أما نحن، فأنا مستعد لنسيان خلافنا - إذا كنتَ...» ومددتُ يدي، وتسبّبت في ألم كتفي.

رماني بنظرة فظّة. قال «كان ينبغي أنْ تتحلّى باحترام أكثر لذاتك ولا تقاتل رجلاً عجوزاً. إنَّ لدي أولاداً أكبر منك سناً»

قلت، ويدي لا تزال ممدودة، «حسبتُ أنك تحاول أنْ تقتلني، حسبت أنك طعنتني بالسكين»

قال، متفادياً النظر في عينيّ، «أنا أيضاً لا أحب الشجار والفوضى». وكأنَّ إطباق يده اللزجة على يدي كان دلالة على ذلك. وسمعتُ هسيساً حادّاً ينبعث من المراجل خلفي فالتفتّ، وأنا أسمع بروكواي يصرخ «قلتُ لك أنْ تراقب تلك المقاييس. اذهب إلى الصمامات، أسرع!»

اندفعتُ إلى حيث سلسلة من دواليب الصمامات تبرز من الجدار بالقرب من الآلة الساحقة، وعندما شاهدتُ بروكواي يذهب في الجهة المقابلة، قلت في نفسي، حالما وصلتُ إلى الصمامات، وسمعته يصرخ «أدِرْها! أدِرْها!»، إلى أين هو ذاهب؟

صرخت، وأنا أفعل ذلك، «أيّ واحد منها؟»

«الأبيض، يا أحمق، الأبيض!»

قفزت، وأمسكت به وأدرته بكل قوتي، وشعرت به يتحرك. لكنَّ ذلك

زاد من الضجيج وخيّل إليّ أنْ بروكواي يضحك عندما تلفّت حولي ورأيته يقترب ببطء من الدرج، ويداه تقبضان على قفا رأسه، وعنقه ينحني، كصبيّ رمى حجر قرميد في الهواء.

صرخت «هيه أنت! هيه أنت! هيه!» لكنَّ الأوان كان قد فات. بدت حركاتي كلها شديدة البطء، وتجري معاً. شعرت بالدولاب يستعصي وحاولت عبثاً أنْ أُديره بحركة عكسية وحاولت أنْ أتركه، فالتصق براحتَي يديّ وأصبحت أصابعي متيبّسة ولزجة، ثم استدرت، وبدأتُ أركض، عندما رأيت الإبرة في أحد المقاييس تتحرك بجنون، كمرشد لاسلكي خرج عن السيطرة، محاولاً أنْ أفكر بوضوح، وعيناي تنتقلان بسرعة هنا وهناك بين أحواض الغرفة والآلات ونحو أعلى الدّرَج البعيد جداً وأسمع النغمة الجديدة الصافية تعلو بينما بدا أنني أركض مُسرعاً إلى أعلى منحدر وأندفع إلى الأمام مع تسارع مفاجئ إلى عصفة رطبة من الفراغ الأسود كانت أشبه بحمّام من البياض.

كان سقوطاً في الفراغ لم يبدُ سقوطاً بل تعليقاً. ثم استقرّ عليّ ثقلٌ عظيم وشعرتُ كأنني انبطحت خلال فترة من الصفاء تحت ركام من آلة مكسورة، ورأسي مضغوط على دولاب ضخم، وجسمي مُلطّخ برذاذ من مادة لزجة كريهة الرائحة. كانت هناك آلة تطحن بعبث حانق، تصرّ صريراً عالياً إلى أنْ انعطف ألمٌ مندفع مع انحناء رأسي وأطاح بي إلى مسافة داخل الظلام، لأنتقل إلى ألمٍ آخر ضربني إلى الخلف. وخلال تلك البرهة من الوعي الصافي فتحتُ عينيّ على ومضٍ مُبهِر.

صمدتُ مع غمّ شديد، وسمعت صوت أحدهم يتقدم بصعوبة، وبطء، في مكان قريب، وصوت مهذار لرجل عجوز يقول «لقد قلت لهم يوجد هنا ألف وتسعمائة فتى لا يصلحون للعمل. لا يتمتعون بالشجاعة اللازمة. كلا، يا سيدي، ليسوا شجعاناً»

حاولت أنْ أتكلَّم، أن أُجيب، لكنَّ شيئاً ثقيلاً تحرّك من جديد، وكنتُ أستوعبُ شيئاً ما استيعاباً تاماً وأحاول من جديد أنْ أجيب لكنني شعرتُ كأنني أغوص إلى عمق بحيرة من الماء الثقيل مع توقُّف، وشَلل، وخَدَر وإحساسٍ بأنّي فشلتُ فشلاً لا رجعة عنه في إحراز انتصار مهم.

-11-

كنتُ جالساً على كرسيّ بارد، أبيض قاس وثمة رجل ينظر إليّ من عين ثالثة برّاقة تتوهج من مركز جبينه. مدّ يده، ولمس جمجمتي بحركة نشطة، وقال شيئاً مُشجعاً كأنني طفل. ثم ابتعدتْ أصابعه.

قال «خُذ هذا. إنه مفيد لك» ابتلعت. وفجأة بدأ الحكاك ينتشر عبر جلدي كله. كنتُ ألبس رداء عمل جديداً، أبيض وغريباً. كان مذاق فمي مُراً وأصابعي ترتجف.

قال صوت رفيع مع مرآة في نهايته «كيف حاله؟»

«لا أعتقد أنَّ به شيئاً خطيراً. هو فقط مذهول»

«هل نُرسِله إلى وطنه الآن؟»

«كلا، فقط من باب التيقُّن سأبقيه هنا بضعة أيام. أريد أنْ أضعه تحت الملاحظة. بعد ذلك يمكنه أنْ يُغادر»

الآن أنا مستلقٍ على سرير ضيِّق، العين البرّاقة ما زالت تتوهج في عيني، على الرغم من أنَّ الرجل قد رحل. الهدوء يرين وأنا خَدِر. أَغمضتُ عينيّ لكي أبقى يقظاً.

قال صوت «ما اسمك؟»

قلت «رأسي...»

«نعم، ولكن اسمك. والعنوان؟»

قلت «رأسي – تلك العين الحارقة...»

«عين؟»

قلت «في الداخل»

قال صوت آخر «أعطه حقنة أخرى من أجل أشعة X»

«رأسي...»

«احذر!»

في مكان ما بدأتْ آلة تضجّ بالهدير ولم أثق بالرجل وبالمرأة المنكبّين عليّ.

كانا يُثبّتانني بحزم وكان الجوّ حاراً كأنّه نار تتلظّى وفوق ذلك كله ظللتُ أسمع اللحن الافتتاحي لسيمفونية بيتهوفن الخامسة - ثلاث ضربات قصيرة وواحدة طويلة، تتكرر باطّراد بمستويات صوت متغيّرة، وكنتُ أكافح وأناضل، وأنهض، لأجدني مُستلقياً على ظهري ورجلان بوجهين ورديين يضحكان في وجهي.

قال أحدهما بحزم «اهدأ الآن. سوف تكون بأحسن حال». رفعت عينيّ، لأرى امرأتين شابتين غير واضحتي المعالم ترتديان الأبيض، تنظران إليّ. وثالثة، كصحراء من أمواج تلوّح لي، تجلسُ على لوح خشب تزيّنه لفائف وأقراص. أين أنا؟ من مكان بعيد إلى أسفل مني بدأ يصدر عن كرسي حلاّق صوت سوط مكتوم وشعرت بأنني أرتفع عن الأرض على وقع الموسيقى. أصبح الوجه الآن موازياً لوجهي، ينظر إليّ عن كثب ويقول شيئاً لا معنى له. ثم بدأ ضجيج قصف وكسر مع تشويش، وفجأة شعرتُ كأنني سُحِقتُ بين الأرض والسقف. ثمة قوتان تمزقان بوحشية أحشائي وظهري. وومضٌ من حرارة باردة الحواف تكتنفني. كنتُ أُسحَق بين ضغوط كهربائية؛ أُضغَط بين أقطاب كهربائية حيّة كآلة أكورديون بين يديّ العازف. كانت رئتاي تُنفخان كأنما بمنفاخ وكلما استعدتُ أنفاسي أصرخ، كأنما أضبط الحركة الإيقاعية للنبضات.

قال أحد الوجهين بلهجة آمرة «اسكتْ، اللعنة. إننا نحاول أنْ نشفيك. فاسكتْ!»

كان الصوت ينبض بالسيطرة الباردة وهدأتُ وحاولتُ أنْ أستوعبَ الألم. لقد اكتشفتُ حينئذٍ أنَّ رأسي تغطيه قطعة من المعدن البارد كالقلنسوة

الحديدية التي يعتمرها الجالس على الكرسي الكهربائي. حاولت عبثاً أنْ أكافح، أنْ أصرخ. لكنَّ الناس كانوا بعيدين نائين، والألم حاضراً وفوريّاً. وثمّة وجهٌ يدخل دائرة الأضواء ويخرجُ منها، يُحدّق برهة - ثم يختفي. وظهرت امرأة ذات وجه بنمش وشعر أحمر وتضع نظارة أنفيّة ذهبية؛ وبعدها رجل مع مرآة مستديرة مُثبَّتة على جبينه - طبيب. نعم، كان طبيباً وكانت المرأتان ممرضتين؛ أمرٌ واضح. ونحن في مستشفى. سوف يعتنون بي. كل شيء مُعدّ لتخفيف الألم. وشعرت بالامتنان.

حاولت أنْ أتذكَّر كيف وصلتُ إلى هنا، ولكن عبثاً. كان ذهني خالياً، وكأنني بدأتُ الحياة تواً. وعندما ظهر الوجه التالي رأيتُ عينين خلف نظارة سميكة ترفّان كأنهما تلاحظان وجودي للمرة الأولى.

قال صوت، أجوف بانفصال عميق، «أنت على أحسن ما يُرام، يا فتى. أنت بخير. فقط اصبر»

وبدا أنني أغيب عن الوعي؛ تراجعتِ الأضواء كأنما ذيلٌ من الضوء يُسرع على طول درب ريفي مُظلم. لم أتمكن من اللحاق به. وطعن كتفي ألمٌ حادّ. تلوّيت وأنا مستلقٍ على ظهري، أصارعُ شيئاً لم أتبيَّنه. ثم بعد قليل صفا بصري.

الآن هناك رجل جالس وظهره إلي، يعبث بأقراص على لوح، أردتُ أنْ أنادي عليه، لكنَّ إيقاع السيمفونية الخامسة كان يُجهدني، وبدا هو شديد الصفاء وبعيداً جداً. كان يفصل بيننا معدن برّاق وعندما أدرتُ عنقي بصعوبة اكتشفتُ أنني لستُ مستلقياً *على* طاولة عمليات بل *داخل* ما يُشبه صندوق من الزجاج والنيكل، بلا غطاء. ماذا أفعل هنا؟

هتفتُ «دكتور! دكتور!»

لا جواب. قلت، ربما لم يسمعني، وهتفتُ من جديد وأنا أشعر بنبضات الآلة تطعنني من جديد وبأنني أغوص وأقاوم ذلك وأرتفع لأسمع أصواتاً تتناقش خلف رأسي. وتحوّلتِ الأصواتُ المستقرَّة إلى طنينٍ هادئ. وبقعٌ من الموسيقى، جو يوم الأحد، تنساب من بعيد. تغلّبتُ على الألم وأنا مُغمَض العينين وأتنفّسُ بصعوبة. واستمر الحديث بنبرة رتيبة متناغمة. أكنتُ

أسمع راديو - أم فونوغرافاً؟ أم الـ***vox humana*** (الصوت الإنساني) لآلة أرغن؟ وإذا كان الأمر كذلك، فأي أرغن وأين هو؟ شعرتُ بالدفء. سياجات نضرة، مُبهرة بورود بريّة حمراء تظهر خلف عينيّ، تمتد مع انعطاف رقيق نحو أبدية خالية من الأشياء، ومسافة زرقاء صافية. مشاهد لمروج ظليلة في الصيف تنساب عابرة؛ رأيتُ فرقة موسيقى عسكرية بملابس رسمية مزخرفة ومتناسقة، وكل عازف شعره مُصفّف جيداً، وسمعتُ عزفاً عذباً لآلة ترومبيت للحن «المدينة المقدّسة» وكأنه آت من مسافة يتردد فيها الصدى، مدعوماً بجوقة من الأبواق المكتومة؛ ومن فوق يُصاحبه التغريد الساخر لطائر مُحاكٍ. شعرتُ بالدوار. وكأنَّ الهواء أصبح يعجّ ببعوض دقيق أبيض، يملأ عينيّ، متكاثراً بكثافة حتى إنّ العازف الأسود أخذ يستنشقها مع أنفاسه ومن ثم يطردها من خلال بوقه الذهبي، وسحابة بيضاء تعجّ بالحياة تمتزج بالأنغام عبر الهواء الراكد.

أفقت. كانت الأصوات لا تزال تنساب رتيبة فوقي وكرهتُها. لِمَ لا يبتعدون؟ أولئك المتأنقين. قلت وأنا ناعس، آه، دكتور، هل سبق لك أنْ خُضتَ في جدول قبل الإفطار؟ هل سبق لك أنْ مضغتَ قصب السكر؟ أتعلم، يا دكتور، في اليوم الخريفي نفسه الذي رأيتُ فيه للمرة الأولى كلاب صيد تلاحق رجالاً من السود مربوطين بالأحزمة ومُقيدين بالسلاسل جلستْ جدّتي معي وراحت تغني بعينين متلألئتين:

«الله القدير خلق القرد

الله القدير خلق الحوت

والله القدير خلق التمساح

وزوّدَ ذيله كله بالأدوات...»

أو أنتما أيتها الممرضتان، هل كنتما تعلمان عندما دخلتما مرتديتين الموصلين الورديين وقبعتين أنيقتين بين صفوف أزهار الغاردينيا، تتوددان إلى حبيبيكما بكلامٍ معسول وكثيف كالعصير الحلو، أننا نحن الصغار السود كنا نختبئ داخل الشجيرات ونهتف بأصوات عالية بما لا تستطيعان سماعه:

«هل رأيت مس مارغريت وهي تغلي الماء؟
يا رجل، إنها تهسّ بسيل رائع،
سبعة عشر ميلاً وربع الميل
يا رجل، ولا تستطيع أنْ ترى قدرها من كثافة البخار...»

أما الآن فأصبحت الموسيقى كعويل ناء لتألُّم أنثوي. فتحتُ عينيّ. كان الزجاج والمعدن يطفوان فوقي.

قال صوت «كيف تشعر، يا فتى؟»

حدَّقت عينان إليّ من خلال عدستين سميكتين كقعر زجاجة كوكاكولا، جاحظتان، مُضاءتان ومعروقتان، كعيّنة بيولوجية قديمة محفوظة في الكحول.

قلت بغضب «ليس لدي ما يكفي من الحيِّز»

«آه، إنَّ هذا جزء ضروري من العلاج»

أصررت «لكنني في حاجة إلى مزيد من الحيِّز. أنا محشور»

«لا تقلق، يا فتى. سوف تتعود على ذلك بعد قليل. كيف حال بطنك ورأسك؟»

«بطني؟»

«نعم، ورأسك؟»

قلت، مُدركاً أنني لا أشعر بأكثر من الضغط حول رأسي وعلى السطح الرقيق من جسمي، «لا أعلم». ومع ذلك، بدا أنَّ حواسي منتبهة بحِدَّة.

صرخت من الرعب «لا أشعر به»

قال بقوة «أها! في الواقع أنَّ أداتي الصغيرة سوف تحل كل المشاكل!»

قال صوت آخر «لا أعلم، أعتقد أنني ما زلت أفضّل إجراء عملية جراحية. وفي هذه الحالة على وجه الخصوص، بهذه، أه... الخلفية، لستُ متيقناً من أنني لا أؤمن بفعاليّة الصلاة البسيطة»

«هراء، من الآن فصاعداً قدِّم صلاتك لأداتي الصغيرة. أنا الذي سأحقق الشِفاء»

«لا أعلم، لكنني أعتقد أنَّ من الخطأ افتراض أنَّ الحلول - أي، وسائل الشِفاء - المُطبَّقة، أه... الأمثلة البدائية، أه... لا تقلّ فعاليّة عندما يتعلّق الأمر بالحالات المتقدّمة أكثر. ماذا لو كان المريض من نيو إنغلند ويدرس في جامعة هارفارد؟»

قال الصوت الأول مازحاً «ها أنت تتحدث في السياسة»

«أوه، كلا، لكنها مشكلة *حقيقية*»

أصغيتُ بانزعاج مُطّرد إلى الحديث الذي يتحول إلى همس. بدا أنَّ أبسط ما ينطقان من كلمات يُشير إلى شيء آخر، كما كان حال العديد من الأفكار التي تدور في خلدي. لم أكن متيقّناً ممّا إذا كانا يتحدثان عني أم عن شخص آخر. بعض كلامهما بدا أشبه بنقاش حول التاريخ...

قال الصوت «سوف تُعطي الآلة نتائج الجراحة القصيّة الجبهيّة من دون الآثار السلبية للسكين. كما ترى، بدل بتر الفلقة الجبهيّة، أي فلقة واحدة، وضعنا ضغطاً بدرجات مناسبة على المراكز الأساسية للجهاز العصبي - إنَّ مفهومنا غشتالتي - والنتيجة تمثّل تغيُّراً كاملاً في الشخصية كما سترى في قضاياك الإجرامية المُلفّقة الشهيرة عن مجرمين تحولوا إلى أشخاص محبوبين بعد أنْ أجروا عملية جراحية لعينة في المخ. وزيادة على ذلك»، تابع صوته بلهجة انتصار، «أنَّ المريض سليم جسدياً وعصبياً»

«ولكن ماذا عن حالته النفسية؟»

قال الصوت «لا أهمية له على الإطلاق! سوف يعيش المريض كما ينبغي أنْ يعيش، سليماً مُعافى. مَنْ يطلب أكثر من هذا؟ لن يُعاني من أي صراع في الدوافع، والأفضل من ذلك، لن يُعاني المجتمع من أية صدمات على حسابه»

ثم سكوت. صرَّ قلم على ورق. ثم سأل صوت مازحاً «لِمَ لا نُجري عملية إخصاء، يا دكتور؟»، فانتفضتُ، والألم يتغلغل في أوصالي.

ضحك الصوت الأول. «ها أنت تعبِّر من جديد عن حبك لسفك الدماء. ماذا يقول تعريف الطبيب الجرّاح، «هو لحّام سيئ النيّة»؟»

ضحكا.

«هذا ليس مُضحكاً كثيراً. سيكون تصرفاً عِلمياً أكثر إذا حاولنا أنْ نعرِّف القضية. إنها تتطور منذ ثلاثمئة عام –»

«نعرِّف؟ اللعنة، يا رجل، نحن نعلم هذا كله»

«إذاً لِمَ لا تزيد التيار؟»

«هذا اقتراحك؟»

«نعم، ولِمَ لا؟»

«ولكن أليس هناك خطر...؟» واختفى الصوت.

سمعتهما يبتعدان؛ وجُرَّ كرسي. الآلة تهدر برتابة، كنتُ متيقّناً من أنهما كانا يتناقشان حولي وأعددتُ نفسي لتلقّي الصدمات؛ ولكن مع ذلك انكمشت. وجاء النبض سريعاً ومتقطعاً، يتسارع تدريجياً إلى أنْ أخذت أرقص بكل معنى الكلمة بين النبضات الكهربائية. واصطكت أسناني. وأغمضتُ عيني وعضضتُ على شفتيّ لأكتم صرخاتي. وملأ دمٌ دافئ فمي. ومن بين جفنيّ رأيتُ دائرة من الأيدي والوجوه، وبهرتني الإضاءة. بعضهم كان يكتب على لوائح.

هتف أحدهم «انظر، إنه يرقص»

«كلا، أحقاً؟»

نظر وجه يلمع. قال مع ضحكة «إنَّ لهم إيقاعاً حقاً، أليس كذلك؟ ارقص، يا فتى! ارقص!»

وفجأة توقف ارتباكي وأردتُ أنْ أعبِّر عن غضبي، غضب حتى الإجرام. لكنَّ نبض التيار الذي كان يُغِيرُ على أرجاء جسمي منعني بصورة ما من ذلك. ثمة اتصال انقطع. فعلى الرغم من أنني نادراً ما كنت أستخدم قُدراتي للتعبير عن الغضب والسخط، فإنني كنتُ أعلم دون أدنى شك أنني أملكها؛ وكرجل يعلم أنَّ عليه أنْ يُقاتل، أكان غاضباً أم لا، عندما يُنعَت بالقحبة، حاولتُ أنْ *أتخيّل* نفسي غاضباً – فاكتشفتُ إحساساً أعمق بالنأي. لقد تجاوزت الغضب. كنتُ فقط مُبلبلاً. وبدا أنَّ الذين يقفون فوقي يشعرون بذلك. لم يكن هناك من سبيل لتفادي الصدمة وتقلّبتُ مع موجة الهياج، وولجت الظلام.

عندما طفوتُ من جديد، كانت الأضواء لا تزال موجودة. وأنا أستلقي تحت لوح من الزجاج، شاعراً بأنني مُفرَّغ. وكأنَّ أوصالي كلها بُتِرَتْ. وكان الجو شديد الحرارة. وبعيداً فوقي امتدّ سقفٌ أبيض مُعتم. كانت عيناي تسبحان في الدموع. لماذا، لا أعلم. شعرتُ بالقلق. أردتُ أنْ أنقر الزجاج لكي أُلفِت الانتباه، لكنني عجزت عن الحركة. إنَّ أقلّ حركة، وأقل منها الرغبة، كانت تُتعبني. استلقيت أتابع المراحل الغامضة التي يمر بها جسمي. وكأنني فقدتُ كل إحساس بالأبعاد. أين ينتهي جسمي وأين يبدأ العالم النقي والأبيض؟ كانت الأفكار تتفاداني، مختبئة في الامتداد الشاسع للبياض السريري الذي بدا أنّه لا يصلني به إلا تدرُّج من اللون الرمادي المتراجع. لا أصوات بعد الهدير الداخلي البطيء للدم. لم أستطع أنْ أفتح عينيّ. وكأنني موجود في بُعد آخر، وحيداً تماماً؛ إلى أنْ مالت بعد قليل إحدى الممرضات وأقحمت سائلاً دافئاً بين شفتيّ. تقيأت، ابتلعت، شاعراً بمسار السائل بطيئاً على وسطي الغامض. وكأنَّ فقاعة بألوان قوس قُزح ضخمة تغلّفني. تحرّكت يدان رقيقتان على جسمي، مُثيرة انطباعات مُبهمة في الذاكرة. كنتُ أغتسل بسوائل دافئة، وشعرتُ بأنني أرتدّ، أندفع بعيداً ككرة رُميَتْ من فوق السطح إلى الضباب، وارتطمت بجدار مُستتر خلف ركام آلة مُعطّلة وتندفع عائدة. كم استغرق ذلك، لم أعلم. ولكن الآن سمعت من فوق حركة اليدين صوتاً ودوداً، ينطق كلمات مألوفة لم أميِّز فيها أي معنى. أصغيتُ بانتباه شديد، واعياً شكل وحركة الجُمَل ومُدركاً الآن الفروق المُرهفة المتواترة بين سلاسل الصوت الذي يطرح الأسئلة وتلك التي تشرح. ولكن بقيتِ المعاني ضائعة وسط البياض الشاسع الذي وجدتني ضائعاً فيه.

وظهرت أصوات أخرى. وحامتْ وجوهٌ فوقي كسمكٍ مُبهم يُنعِم النظر كأنها حسيرة عبر جدار مائي زجاجي. رأيتها معلقة فوقي لا تأتي بأيّة حركة، ثم ابتعد اثنان، أولاً رأساهما، ثم أطراف أصابعهما الشبيهة بالزعانف، متحرّكين كما في حلم بعيداً عن الصندوق. حركة تنقلات غامضة تماماً، كتواتُر كسول لحركتَي مد وجزر. راقبت الاثنين يقومان بحركات حانقة بفميهما. لم أفهم. حاولا من جديد، ما زال المعنى مُغلقاً. أشعر بالانزعاج. أرى بطاقة عليها كتابة بخط اليد، اقتربت فوقي. كلها خليط من الأحرف

الأبجدية. تشاورا بحميّة. وشعرت بأنني بصورة ما مسؤول. واجتاحني إحساس فظيع بالوحدة؛ كأنهما يؤديان عرضاً إيمائياً غامضاً. وكانت رؤيتهما من هذه الزاوية أمراً مزعجاً. لقد بدوَا أحمقين تماماً ولم يُعجبني ذلك. إنه ليس صائباً. ورأيت قذارة في أنف أحد الأطباء؛ وكان للممرضة لغد سميك. وظهرتْ وجوهٌ أخرى، أفواهها تتحرك بحنق بلا صوت. قلت، لكننا جميعاً بشر، متسائلاً ماذا أعني بهذا.

ظهر رجل يرتدي السواد، طويل الشَعر، عيناه الثاقبتان تنظران إليّ من وجه متوتّر وعِدائي. وحام الآخرون حوله، عيونهم قلقة وهو يُنقّل نظره بيني وبين استشارة بطاقة كبيرة. ثم خطَّ شيئاً على بطاقة كبيرة وأقحمها أمام عينيّ:

ما اسمك؟

هزّني ارتعاشٌ؛ وكأنّه فجأة منح اسماً للغموض المنساب في رأسي ونظّمه، وغلبني إحساس سريع بالخجل. أدركتُ أنني لم أعد أعرف اسمي. أغمضتُ عينيّ وهززتُ رأسي بحزن. ها هي أول محاولة حميمة للتواصُل معي وكنتُ أسقط. وحاولت من جديد، غارقاً في ظلام عقلي. ولكن لا فائدة؛ لم أعثر إلا على الألم. رأيتُ من جديد البطاقة وأشار ببطء إلى كل كلمة:

ما... هو... اسمك؟

بذلتُ جهداً يائساً، غائصاً إلى ما تحت الظلام إلى أنْ شلّني التعب. وكأنَّ عِرقاً فُصِدَ وتسّربت منه طاقتي؛ استطعتُ فقط أنْ أبادله النظر من دون كلام. ولكن بنوبة غاضبة من الحيوية أومأ إلى بطاقة أخرى وكتب:

مَنْ... أنت؟

تقلّبَ شيءٌ في داخلي بإثارةٍ بطيئة. وكأنَّ تلك الصياغة للسؤال أطلقت فيه سلسلة من الأضواء الخافتة والنائية حيث قدحَ الآخر شرارة لم تنطلق. مَنْ أنا؟ تساءلت. ولكن كان ذلك أشبه بمحاولة التعرُّف على خليّة معيَّنة تجري في العرق الكسول لجسمي. لعلي كنتُ فقط ذلك الظلام والحيرة والألم، لكنَّ ذلك بدا أنه ليس بالضبط جواباً مناسباً على شيءٍ كنتُ قد قرأت في مكان ما.

عادت البطاقة من جديد:

ما اسم أمك؟

أم، مَن هي أمي؟ أُم، تلك التي تصرخ عندما تعاني - ولكن مَنْ هي؟ تلك حماقة، إنك دائماً تعرف اسم أمك. مَنْ هي تلك التي تصرخ؟ أُم؟ لكنَّ الصراخ يصدر عن الآلة. الآلة هي أمي؟... كان جلياً أنني فقدت صوابي.

ورماني بسؤال: *أين وُلِدت؟ حاول أنْ تفكّر في اسمك*.

حاولت، وأنا أفكر عبثاً في أسماء عديدة، ولكن ولا واحد منها كان مناسباً، ومع ذلك كنتُ كأنني بصورة ما أشكّل جزءاً منها كلها، كأنني غصتُ فيها وضعت.

يجب أنْ تتذكّر، قالت البطاقة. ولكن بلا طائل. ففي كل مرة أجدني أعود إلى الضباب الأبيض الثابت واسمي بعيد عن منال أطراف أصابعي. هززتُ رأسي نفياً وراقبته يختفي برهة ومن ثم يعود مع رفيق، رجل قصير القامة، يبدو عالِماً أخذ يُحدّقُ إليّ مع تعبير أجوف على وجهه. راقبته وهو يُخرِج لوح كتابة للأطفال وقطعة من الطباشير، وطفق يكتب عليها:

مَنْ كانت أمك؟

نظرتُ إليه، شاعراً بكراهيةٍ سريعة وأقول في نفسي، بشبه سرور، أنا لا ألعب لعبة تبادل الكلمات[24]. وكيف حال أمك *أنت* العجوز اليوم؟

حدّقتُ إليه، وهو يتجهّم ويقضي وقتاً طويلاً في الكتابة. كان لوح الكتابة مملوءاً بأسماء لا معنى لها.

ابتسمت، وأنا أرى عينيه تتأججان بالانزعاج. الوجه العجوز الودود يقول شيئاً. والرجل الجديد يكتب سؤالاً أُحدِّقُ إليه بذهول وجاحظ العينين:

مَنْ هو الأرنب بَكي؟

كنتُ مُترعاً بالهياج. ما الذي يدفعه إلى التفكير في *هذا*؟ أشار إلى السؤال، كلمة كلمة. ضحكت، عميقاً، عميقاً، في داخلي، وأصابتني بهجة اكتشاف الذات والرغبة في إخفاء ذلك بالدوار. لقد كنتُ بصورة **ما *أنا*** بكي

24- المقصود هنا لعبة يُمارسها خاصة السود الأميركيون، حيث يتبادل المتسابقان الكلمات القذرة بالتناوب إلى أنْ يستسلم أحدهما. - المترجم

الأرنب... أو كنتُ كذلك، عندما كنا ونحن صغار نرقص ونغني حُفاة في الشوارع المغبرَّة:

يا بكي الأرنب

ارقص، ارقص

يا بكي الأرنب

ارقص، ارقص...

ومع ذلك، لم أتمكن من الاعتراف بهذا، كان شيئاً شديد السُخف – وبصورة ما شديد الخطورة. كان مزعجاً أنْ يتطرَّق إلى الهوية القديمة وهززتُ رأسي نفياً، عندما رأيته يزم شفتيه وينظر إليّ بحِدَّة.

يا فتى، مَنْ هو الأرنب برير؟

قلت في نفسي، إنه عشيق أمك الذي كان يأتيها من الباب الخلفي. إنَّ الجميع يعلمون أنهما شخصية واحدة: «بَكي» عندما تكون صغيراً جداً وتختبئ خلف عينيك البريئتين؛ و«برير» بعد أنْ تُصبح أكبر سناً. ولكن لماذا يعبث بتلك الأسماء الصِبيانية؟ أيعتقدون أنني طفل؟ لِمَ لا يدعونني وشأني؟ سوف أتذكر في الوقت المناسب بعد أنْ يُخرجوني من الآلة... صَفَعتْ راحةُ يد بقوة لوحَ الزجاج، لكنني سئمتهم. ومع هذا بينما عيناي تتركزان على الوجه العجوز الودود بدا مسروراً. لم أفهم السبب، ولكن ها هو يبتسم ويُغادر مع مُساعده.

تركوني وحيداً، يتآكلني القلق بشأن هُوّيتي. واعتقدتُ أنني فعلاً أمارس لعبة مع نفسي وأنهم مُشتركون فيها. هي نوع من المعركة. في الحقيقة كانوا يعلمون ذلك مثلي، وفضّلت لسببٍ ما ألّا أواجه الأمر. كان شيئاً مُغيظاً، وجعلني أشعر بأنني ماكر ويقِظ. سوف أحلّ اللغز في اللحظة التالية. وتخيّلتني أدور حول نفسي في عقلي كعجوز يُحاول أنْ يُمسِك بولدٍ صغير بسبب عمل شرير، مفكّراً، مَنْ أنا؟ لا فائدة. وشعرتُ كأنّني مُهرِّج. ولا أرقى إلى مرتبة مجرم ومُحقِّق معاً – وإنْ لم أفهم لِمَاذا أكون مجرماً.

باشرت بوضع خطط لتعطيل الآلة. ربما إذا حرّكتُ جسمي بحيث ترتطم موجتين كهربائيتين – كلا، فليس أنه لا حيِّز لفعل ذلك فقط بل قد أُصاب

بصدمة كهربائية أيضاً. ارتعشت. مَنْ أكون، أنا لست شمشون. ولم تكن لدي رغبة في تدمير نفسي حتى وإنْ كان ذلك سيؤدي إلى تدمير الآلة؛ لقد أردتُ الحرية، لا الدمار. كنتُ مُرهقاً، إذ مهما كانت الخطة التي أضعها، فإنَّ هناك نقصاً واحداً – نفسي. فلا سبيل إلى تفاديها. لم يعُد في استطاعتي الهرب ولا أنْ أتوقف عن التفكير في هويتي. قلت، ربما الشيئان مرتبطان. فعندما أكتشف هويتي، سوف أتحرّر.

وكأنَّ أفكاري حول الهروب أنعشتها. رفعتُ بصري لأرى طبيبين غاضبين وممرضة، وقلت في نفسي، لقد فات الأوان الآن، واستسلمتُ تسربلني غلالةٌ من العَرَق وأنا أراقبهم يعبثون بأجهزة التحكم. وقيّدوني استعداداً للصدمة المعتادة، ولكن لم يحدث شيء. بدل ذلك رأيت أيديهم على الغطاء، تحلّ الصوامل، وقبل أنْ أُبدي أيّة ردّة فعل كانوا قد فتحوا الغطاء ورفعوني لكي أنتصب.

بدأتُ بالقول، لدى رؤية الممرضة تتوقف لتنظر إليّ، «ماذا حدث؟»

قالت «حسن؟»

تحرّك فمي دون أنْ يُصدر صوتاً.

قالت «هيا، انطق»

قلت «أي مستشفى هذه؟»

قالت «إنها مستشفى المصنع. والآن الزمِ الهدوء»

كانوا حولي الآن، يتفحّصون جسمي، ورحتُ أراقب بارتباك متزايد، أقول لنفسي، ما هو مستشفى *المصنع*؟

شعرت بجهدٍ على بطني ونظرت إلى أسفل لأرى أحد الطبيبين يشدّ الحبل الموصول بقطب المعدة، ويهزّني نحو الأمام.

قلت «ما هذا؟»

قال «أحضر المقصّ. لا داعي لتضييع الوقت»

انكمشت في داخلي وكأنَّ الحبل يشكّل جزءاً مني. ثم حرّروه وقامت الممرضة بشقّ البطن وإزالة القطب الثقيل. فتحتُ فمي لأتكلّم لكنَّ أحد الطبيبين هزَّ رأسه نفياً. وأخذوا يعملون بسرعة. وبعد إزالة الأقطاب، وقفت

الممرضة فوقي مع كحول الفرك. ثم طُلِبَ مني أنْ أخرج من الصندوق. نقّلتُ نظري من وجهٍ إلى وجه، يغلبني التردُّد. إذ بما أنه بدا الآن أنني تحرّرت. لم أجرؤ على التصديق. ماذا لو أنهم سينقلونني إلى آلة تُسبِّبُ ألماً أشدّ؟ بقيتُ في مكاني، رافضاً التحرُّك. هل أقاومهم؟

قال أحدهما «أمسك ذراعه»

قلت، وأنا أخرج مع خوف، «أستطيع أنْ أخرج وحدي»

أمروني بالوقوف وأخذوا يتفحصون جسمي كله بالسماعة.

قال حامل الجدول بينما الآخر يتفحص كتفي «كيف حال المفصل؟»

قال «ممتاز»

كنتُ أشعر بشدّ هناك ولكن بلا ألم.

قال الآخر «أنا أقول إنه قوي بصورة مُدهشة، بالنظر إلى الظروف»

«هل نستدعي دريكسل؟ يبدو لي أنه ليس بالأمر العادي أنْ يكون قوياً جداً هكذا»

«كلا، لاحظ ذلك على الجدول»

«حسن، أيتها الممرضة، اعطِه ملابسه»

قلت «ماذا ستفعلين بي؟». أعطتني ملابس داخلية نظيفة وبنطلون عمل أبيض.

قالت «ممنوع الأسئلة. فقط ارتدِ الملابس بأسرع ما يمكن»

بدا كأنَّ الهواء خارج الآلة شحيح. عندما انحنيت لأربط حذائي، حسبتُ أنني سأغيب عن الوعي، لكنني قاومت. نهضتُ واقفاً وأنا أرتعش وأخذوا يتأملونني من رأسي حتى قدمي.

قال أحدهما «حسن، أيها الفتى، يبدو أنك شُفيت. أنت إنسان جديد. لقد نجوت تماماً»، ثم قال «تعال معنا»

«خرجنا ببطء من الغرفة ومشينا في رواق أبيض طويل يؤدي إلى المصعد، وهبطنا بسرعة ثلاثة طوابق إلى غرفة استقبالٍ فيها صفوفٌ من الكراسي. في المقدمة كان هناك عددٌ من غرف المكاتب الصغيرة بأبواب أمامية وجدران من الزجاج.

قالوا «اجلس هناك. سوف يُقابلك المدير بعد قليل»

جلست، وراقبتهم يتعدون ويختفون داخل إحدى غرف المكاتب برهة ومن ثم يخرجون، ويتجاوزونني من دون أنْ ينطقوا كلمة واحدة. ارتجفت كورقة نبات. هل حقاً أطلقوا سراحي؟ شعرتُ بدوار. نظرتُ إلى رداء عملي الأبيض. قالت الممرضة إنَّ تلك مستشفى المصنع... لِمَ لا أتذكّر أي نوع من مستشفى المصنع هي؟ ولِمَ مستشفى تابع *للمصنع*؟ نعم... تذكّرتُ مصنعاً بصورة مُبهمة؛ لعلهم أعادوني إلى هناك. نعم، وقد أتى على ذِكر المدير وليس كبير الأطباء؛ أكانا ربما شخصاً واحداً؟ ربما أنا في المصنع الآن. أصغيتُ لكنني لم أسمع هدير أيّة آلة.

على الطرف المقابل من الغرفة كانت هناك صحيفة مُلقاة على كرسي، لكنني كنتُ من فرط القلق بحيث لم أرغب في جلبها. وفي مكان ما كانت مروحة تدور برتابة. ثم فُتِحَ أحد الأبواب بزجاج خشن ورأيتُ رجلاً طويل القامة تبدو عليه الصرامة يرتدي معطفاً أبيض، يومئ لي باللائحة التي يحمل.

قال «تعال»

نهضتُ وتجاوزتُه إلى غرفة مكتب كبيرة بسيطة الفرش، قائلاً لنفسي، *الآن، سأعرف. الآن.*

قال «اجلس»

استرخيت على الكرسي المُجاور لطاولة مكتبه. وأخذ يراقبني بتحديقٍ علمي، هادئ.

قال، وهو يُدقق في اللائحة، «ما اسمك؟ آه، ها هو، إنه هنا»، وكأنَّ شخصاً داخلي حاول أنْ يأمره بأنْ يصمُتَ، لكنه نادى على اسمي وسمعتُ نفسي أقول «أوه!» وكأنَّ ألماً ضرب رأسي ونهضتُ بسرعة البرق واقفاً على قدميّ ورحت أتلفّت بضراوة حولي وجلست ثم نهضتُ من جديد بسرعة كبيرة، متذكّراً. لا أعلم لماذا فعلت ذلك، ولكن فجأة رأيتُه ينظر إليّ بإمعان، وهذه المرة بقيتُ جالساً.

بدأ يطرح أسئلة وسمعتُ نفسي أُجيب بسلاسة، على الرغم من أنني في

داخلي كنتُ أستعرضُ سلسلة من الصور الشعوريّة تتغيَّر بسرعةٍ كانت تزعق وتتهشَّم، كموسيقى تصويرية تُعزَف بسرعة عالية وبالعكس.

قال «حسن، يا فتى، لقد شُفيت. وسوف نُطلق سراحك. فما رأيك في هذا؟»

فجأة لم أعد أعلم. لاحظتُ وجود روزنامة إحدى الشركات بجوار سماعة طبيب وفُرشاة رسمٍ فضيّة مُصغَّرة. أكانَ يقصدُ مِنَ المستشفى أم من العمل؟...

قلت «سيدي؟»

«قلت، ما رأيك في هذا؟»

قلت بصوت زائف «حسن، يا سيدي. سوف يُسعدني أنْ أعود إلى العمل»

نظر في اللائحة، متجهماً. قال «سوف يُطلق سراحك، ولكن أخشى أنك سوف تُصرَف من العمل»

«ماذا تعني، يا سيدي؟»

قال «لقد مررتَ بتجربةٍ قاسية، ولستَ مُستعداً للتعامل مع قسوة الصناعة. والآن أريد منك أنْ ترتاح، أنْ تأخذ فترة نقاهة. أنت في حاجة إلى إعادة تأهيل واستعادة قوتك»

«ولكن، يا سيدي –»

«ينبغي ألا تحاول أن تستمر في حياتك بإيقاعٍ أسرع مما ينبغي. ألستَ سعيداً بإطلاق سراحك؟»

«أوه، نعم. ولكن كيف سأعيش؟»

ارتفع حاجباه وتقوّسا. قال «تعيش؟ تولَّ عملاً آخر؛ عملاً أسهل، وأكثر هدوءاً؛ عملاً تكون أكثر استعداداً له»

نظرتُ إليه، مفكّراً، استعداد؟ أهو أيضاً مُشترك في المؤامرة؟ قلت «سوف أقبل أي عمل، يا سيدي»

«ليست هذه هي المشكلة، يا بنيّ. إنك ببساطة لستَ مؤهلاً للعمل في ظروفنا الصناعية. ربما لاحقاً، ولكن ليس الآن. وتذكَّر، سوف تتلقّى تعويضاً مناسباً على ما مررت به»

«تعويض، يا سيدي؟»

قال «أوه، نعم. إننا نتّبع سياسة إنسانيّة مُستنيرة؛ إنَّ عمالنا كلهم مُؤمَّنون تلقائياً. ليس عليك إلا أنْ توقِّع على بضعة أوراق»

«أية أوراق، يا سيدي؟»

قال «نحن في حاجة إلى شهادة خطيّة تُعفي الشركة من المسؤولية. لقد كانت قضيتك صعبة، واضطررنا إلى استدعاء عدد من الاختصاصيين. ولكن، قبل كل شيء، لكل عملٍ مخاطره. إنه جزء من حركة النمو، من التكيُّف، إنْ صحّ التعبير. والمرء يُخاطر ولكن في حين أنَّ لدى البعض استعداداً، هناك آخرون يفتقرون إلى ذلك»

نظرتُ إلى وجهه المُجعّد. أهو طبيب، أم مسؤول في المصنع، أم كلاهما؟ لم أفهم؛ والآن بدا كأنه يتحرك إلى الأمام والخلف ضمن مجال رؤيتي، على الرغم من أنه كان جالساً بهدوء تام على كرسيه.

خرج الكلام مني من تلقاء ذاته. قلت «هل تعرف السيد نورتن، يا سيدي؟»

«نورتن؟» وقطّب بين حاجبيه، «مَنْ نورتن هذا؟»

ثم بدا كأنني لم أسأله؛ بدا الاسم غريباً. ومررت يدي فوق عينيّ.

قلت «أنا آسف، خُيِّل إليّ أنك ربما تعرفه. إنه مجرد شخص كنتُ أعرفه»

«فهمت. حسن –» وانتقى بضع أوراق – «إذن هذه هي الطريقة، يا بنيّ. بعد وقت لاحق قد نتمكّن من فعل شيء. يمكنك أنْ تأخذ الأوراق معك إذا شئت. وأرسلها بالبريد إلينا. والشيك سوف يصلك حالما تعود إلينا. حتى ذلك الحين، خُذ قدر ما تشاء من وقت. وسوف ترى أننا منصفون تماماً»

تناولت الأوراق المطوية ونظرتُ إليه مدة بدت طويلة جداً. بدا كأنه يتذبذب. ثم سمعتُ نفسي أقول، بصوت مرتفع، «أتعرفه؟»

«مَنْ؟»

قلت «السيد نورتن، السيد نورتن!»

«أوه، في الواقع، كلا»

قلت «لا تعرفه. لا أحد يعرف أحداً وكان ذلك قبل زمن بعيد جداً»

تجهَّمَ وضحكتُ. قلت «لقد أخرجوا روبن المسكين نظيفاً. هل يتصادف أنك تعرف بْلِد؟»

نظر إليّ، ورأسه مائل جانباً. «أهؤلاء الناس أصدقاءٌ لك؟»

قلت «أصدقاء؟ آه، نعم. نحن جميعاً أصدقاء مخلصون. رفاق من زمن بعيد. ولكن لا أعتقد أننا نتحدث عن الشيء نفسه»

اتسعت عيناه. قال «كلا، لا أعتقد أننا نفعل. على أية حال، إنَّ الأصدقاء المُخلصين نفيسون»

شعرت بدوار وبدأتُ أضحك وبدا من جديد أنه يتذبذب وفكّرتُ في سؤاله عن إمرسون، لكنه كان عندئذٍ يتنحنح إشارة إلى أنه قد أنهى كلامه.

وضعتُ الأوراق المطوية في جيب رداء العمل وهممتُ بالخروج. بدا الباب الذي يقع بعد صفوف الكراسي بعيداً جداً.

قال «اعتنِ بنفسك»

قلت «وأنت أيضاً»، وفكّرت، آن الأوان، فات الأوان.

ثم استدرت بسرعة، ورجعت بوهن إلى طاولة المكتب، ورأيته وهو يرفع بصره إليّ ويرميني بذلك التحديق العلمي والثابت. كانت تغمرني مشاعر رسمية لكنني لم أستطع أنْ أتذكّر الصيغة الصحيحة. لذلك مددتُ يدي عن عمد وأنا أكبت ضحكة بالسعال.

قلت «كان نقاشنا ممتعاً جداً، يا سيدي». أصغيتُ إلى نفسي وإلى جوابه.

قال «نعم، فعلاً»

هزَّ رأسه برصانة، من دون إبداء دهشة أو نفور. نظرتُ نحو الأسفل، كان هو موجوداً هناك في مكان ما خلف الوجه المُجعَّد واليد الممدودة.

قلت «والآن انتهى حديثنا. وداعاً»

رفع يده. قال، بصوت مُلتبس، «وداعاً»

عندما غادرته وخرجت إلى الهواء العبِق برائحة الدهان شعرت بأنني كنتُ أتحدث بكلام أكبر مني، واستخدمت كلاماً وعبّرت عن مواقف ليست لي، وبأنني كنتُ في قبضة شخص غريب كامن عميقاً داخلي. كالخادم التي

كنتُ قد قرأت عنها في درس عِلم النفس والتي سردت، في أثناء مرورها بفترة غيبوبة، صفحات من الفلسفة الإغريقية كانت قد تنامت إلى سمعها ذات يوم وهي تعمل. وكأنني كنتُ أمثّل مشهداً من فيلم مجنون. أو ربما كنتُ أتدارك نفسي وأصوغُ على شكل كلمات مشاعرَ كنتُ قد كبتُّها حتى ذلك الحين. أم إنني، قلت لنفسي، وقد باشرتُ السير، لم أعد خائفاً؟ توقفتُ، أنظرُ إلى الأبنية على طول الشارع الوضّاء الذي تميل عليه خطوط من الشمس والظل. لم أعد خائفاً فعلاً. لا من الشخصيات المهمة، ولا من القيِّمين وأمثالهم؛ ذلك أنني بعد أنْ عرفتُ أنني لا أستطيع أنْ أتوقّع منهم أي شيء، لم يعد هناك من سبب لأخاف. وتابعت طريقي.

كانت الأبنية تنهض على طول الطريق، متناسقة ومتقاربة؛ والنهار في نهايته وفي أعلى كل مبنى ترفرف الرايات وتغوص، منهارة. شعرتُ بأنني سأسقط، بأنني سقطتُ، وأتحرك عكس تيار يندفع بسرعة في وجهي. خرجتُ من المبنى ومشيتُ على طول الشارع وعثرتُ على الجسر الذي أتيت عبره، لكنَّ الدّرَج المؤدي إلى الحافلة التي تعبر القمة كان شديد الانحدار ويسبِّب الدوار ولا يمكن ارتقاؤه، أو اجتيازه سباحة أو الطيران فوقه، وبدل ذلك استقللت بدلاً عنها قطاراً نفقياً.

كانت الأشياء تدوِّم بسرعة كبيرة من حولي، وعقلي يتناوب بين الضياء والفراغ بموجات تتوالى بطيئة. لم نعُد نحن، هو، وذاك - عقلي وأنا - ندور في فلكٍ واحد. ولا حتى جسدي. وعبر الممر بين المقاعد مرّتْ شقراء شابة بشَعر بلاتيني وهي تقضم تفاحة حمراء لذيذة ومن خلفها عبرت أضواء المحطة متموجة. غاص القطار. سقطتُ جالساً خلال الضجيج، برأسٍ فارغ ومُصاب بدوار، ثم خرجت إلى حي هارلم قرابة المساء.

-12-

عندما خرجت من القطار النفقي، بدتْ جادة لينكس كأنها تميل بعيداً عني بزاوية سكرى، وركّزتُ انتباهي على المشهد المتأرجح بعينَي طفل جامحتين، ورأسي ينبض. كانت امرأتان ضخمتان ببشرة فسدت من فرط المساحيق تبدوان كأنهما تكافحان بجسميهما الضخمين لدى مرورهما، وأوراكهما المزدهرة ترتعش كلهب مُهدِّد. تقدّمتا أمامي بعيداً عبر الممر، وبدا شعاعٌ مائل من الشمس بلونٍ برتقاليّ برّاق كأنه يغلي ورأيتني أهبط، وساقاي تحتي واهنتان، لكنَّ ذهني صاف، بل فائق الصفاء، يُسجّل الحشد المترنِّح من حولي: سيقان، أقدام، عيون، أيدٍ، رُكب منحنية، أحذية تحفُّ الأرض، وإثارة بعيون لها أسنان؛ وبعضهم يتقدمون بلا توقف.

وتقول المرأة السوداء الضخمة، ***أأنت بخير، يا فتى، ما خطبك؟*** بصوت أجشّ رنّان. وأقول أنا، ***أنا بخير، فقط أشعر بوهن***، ومُحاولاً أنْ أنهض واقفاً، وهي تقول، ***لِمَ لا تبتعدون جميعكم وتدعون الرجل يتنفّس؟ ابتعدوا أنتم هناك جميعاً***، ثم أخذ صوتها يتردد صداه بنبرة رسمية، ***تحركوا، ابتعدوا.*** وقامت هي من أحد الجانبين وأحد الرجال من الجانب الآخر بمساعدتي على الوقوف ورجل شرطة يقول، ***أأنت بخير؟*** وأنا أُجيب، ***نعم، أنا فقط أشعر بضعف، لابد أنني غبت عن الوعي ولكن أنا بخير الآن***، وهو يأمر الحشد بالابتعاد والآخرون يبتعدون ما عدا الرجل والمرأة وهو يقول، ***أأنت متأكّد من أنك بخير، يا بنيّ***، وأنا أومئ إيجاباً، وهي تقول، ***أين تُقيم يا بنيّ، أفي مكان قريب من هنا؟*** وأنا أخبرها بعنوان نُزُل الرجال وهي تنظر إليّ هازّة رأسها وتُردد، ***نُزُل الرجال، نُزُل الرجال، يا إلهي إنه ليس مكاناً مناسباً لشخص في مثل حالتك من ضعف وتحتاج إلى امرأة لترعاك بعض الوقت.***

وأنا أقول، *ولكن سوف أكون بخير الآن*، وهي تقول، *ربما نعم وربما لا. أنا أُقيم في آخر الشارع وعند المنعطف، ويُستحسن أنْ تأتي معي وترتاح ريثما تستعيد قواك. وسوف أتصل بنُزُل الرجال هاتفياً وأخبرهم عن مكان وجودك*. ومع إحساسي بالإرهاق الشديد لا أقاوم وتمسكني من ذراعي وترشد رفيقها إلى الإمساك بذراعي الأخرى ونذهب، وأنا بينهما، رافضاً من داخلي ومع ذلك متقبلاً إدارتها للأمر، وأسمعها تقول، *هوِّن عليك، سوف أعتني بك كما أساعد العديدين غيرك، اسمي ميري رامبو، الجميع يعرفونني في هذا الجانب من هارلم، أنت تسمعني، أليس كذلك؟* ويقول الرجل، *طبعاً، أنا ابن جيني جاكسون، أنت تعلمين أنني أعرفك، مس ميري*. وتقول هي، *جيني جاكسون، طبعاً، أنت حتماً تعرفني وأنا أعرفك، أنت رالستون، وأمك لديها طفلان آخران، صبي اسمه فلينت وفتاة اسمها لوراجين، أنا حتماً أعرفك - أنا وأمك وأبوك كنا* - فأقول، *أنا على ما يُرام الآن، على ما يرام حقاً*. وتقول هي، *عندما أنظر إليك أرى أنك تبدو أسوأ حالاً من مظهرك*، وتشدّني وتقول، *ها هو منزلي هنا، ساعدني على رفعه على الدّرَج وإلى الداخل، لا داعي إلى القلق، يا بنيّ، أنا لم أرك من قبل وليس من شأني ولا يهمني ما تظنّه عني لكنك ضعيف وتكاد لا تقوى على السير وما إلى ذلك وفوق هذا تبدو جائعاً، فهيا ندخل ودعني أساعدك كما يمكن أنْ تساعد العجوز ميري فيما لو احتاجت إليك، ولنْ يُكلّفك هذا بنساً واحداً ولا أريد أنْ أتدخّل في شؤونك، أريد منك فقط أنْ تتمدّد حتى ترتاح وبعد ذلك ترحل*. ويرفعني الرجل ويقول، *أنت في أيدٍ أمينة، يا بنيّ، ومس ميري دائماً تساعد الناس وأنت في حاجة إلى مساعدة لأنك أسود مثلي وشاحب بلون غطاء السرير، حسب تعبير البيض - انتبه للدّرَج*. ونرتقي الدّرَج ببطء وعلى مراحل، وأزدادُ وهَناً، والاثنان الدافئان يكتنفانني من الجانبين، وعندما نصل إلى داخل غرفة مظلمة وباردة، أسمع، *هنا، ها هو السرير، مدِّده هناك، هكذا، هكذا، انتهينا. والآن، رالسون، ارفع ساقيه عالياً - لا داعي إلى الغطاء - هكذا، انتهينا، والآن اخرج إلى المطبخ واملأ له كوباً من الماء، سوف تجد زجاجة في الثلاجة*. ويذهب هو وتضع هي وسادة أخرى تحت رأسي، قائلة، *الآن سوف تتحسّن وبعد أنْ تُصبح على ما يُرام سوف تعرف كم كنتَ في*

حال سيئة، هيا، خُذ رشفة من هذا الماء، وأشرب وأرى أصابعها السمراء المرهقة تحمل الكأس البرّاق ويجتاحني إحساس بارتياح قديم يكاد يكون منسياً وأفكّر في صدى الكلمات، ***إذا لم أفكّر في أنني أفكر، انظر في أية ورطة أسقط***، ومن ثم جاء رذاذ النوم الرائق والناعم.

عندما أفقتُ رأيتُها في الطرف المقابل من الغرفة، تقرأ صحيفة، ونظاراتها منخفضة عبر جسر أنفها وتحدِّق بإمعان إلى الصفحة. ثم أدركتُ أنه على الرغم من أنَّ النظارات ما زالت مائلة نحو الأسفل، لم تعُد العينان تتركّزان على الصفحة، بل على وجهي وتشرقان بابتسامة ساطعة.

قالت «كيف تشعر؟»

«أفضل بكثير»

«هذا ما حسبت. وسوف تتحسّن أكثر بعد أنْ تشرب مقداراً من الحساء الذي أعددته لك في المطبخ. لقد نمتَ فترة طويلة جيدة»

قلت «أحقاً؟ كم الساعة الآن؟»

قالت، وهي تغادر، «حوالي العاشرة، ومن طريقة نومك رأيتُ أنَّ كل ما احتجتَ إليه كان بعض الراحة... كلا، لا تنهض بعد. يجب أن تشرب حساءك، بعد ذلك يمكنك أنْ ترحل»

عادت مع وعاء وطبق. قالت «هذا سيصلِبُ طولك. إنك لا تحصل على مثل هذه الخدمة في نُزُل الرجال، أليس كذلك؟ والآن، اجلس وخُذ وقتك. ليس أمامي ما أفعل غير أنْ أقرأ الصحيفة. وأنا أحبّ الصُحبة. ألديك عمل في الصباح؟»

قلت «كلا، لأنني كنتُ مريضاً. ولكن يجب أنْ أبحث عن عمل»

«كنتُ أعلم أنك لست على ما يُرام. لماذا تُحاول أنْ تُخفي الأمر؟»

قلت «لم أرغب في إزعاج أحد»

«على كل إنسان أنْ يزعج شخصاً ما. وأنت خرجتَ تواً من المستشفى أيضاً»

رفعتُ بصري. جلسَتْ على الكرسي الهزّاز ومالتْ إلى الأمام، وذراعاها معقودتان بارتياح على حِجرها المكسو بمئزر. هل فتّشت جيوبي؟

قلت «كيف عرفتِ ذلك؟»

قالت بصرامة «ها قد بدأتَ ترتاب. هذه هي مشكلة العالم اليوم، لا أحد يثقُ بأحد. أستطيع أنْ أشمّ رائحة المستشفى تفوح منك، يا بنيّ. إنّ في تلك الملابس ما يكفي من الإيثير لتخدير كلب!»

«لا أتذكّر أنني أخبرتك بأنني كنتُ في المستشفى»

«كلا، ولم تكن في حاجة إلى ذلك. لقد شمَمْته. هل لديك أهل هنا في المدينة؟»

قلت «كلا، يا سيدتي. إنهم هناك في الجنوب. أتيت إلى هنا لأعمل وأجمع نقوداً للجامعة، فأُصبتُ بالمرض»

«أليس هذا حظاً عاثراً! لكنك ستنجح. ماذا تنوي أنْ تفعل؟»

«لا أعلم؛ لقد أتيت إلى هنا راغباً في أنْ أكون مربّياً. والآن لم أعُد أعلم»

«وما عيب كونك مربياً؟»

فكّرتُ في الأمر وأنا أرشف الحساء الحار واللذيذ. «أعتقد، لا شيء. إنني فقط أودّ أنْ أقوم بعمل آخر»

«على أية حال، كائناً ما كان، أتمنى أنْ يكون في مصلحة العرق»

قلت «أتمنى ذلك»

«لا تكتفِ بالأمل، اعملْ»

تأملتها وأنا أفكر فيما حاولتُ أنْ أعمل وإلى ما أوصلني، وأرى شكلها الثقيل، الهادئ الماثل أمامي.

قالت «أنتم أيها الشبان الذين ستُحدِثون التغيير. جميعكم. عليكم أنْ تتولوا القيادة وتقاتلوا وترفعونا إلى مستوى أعلى قليلاً. وسوف أخبرك شيئاً آخر، على شبان الجنوب أنْ يفعلوا ذلك، فهم الذين يعرفون النار وكيف تحرق. أما هنا فأكثرهم نسوا. إنهم يسعون وراء مصالحهم الخاصة وينسون الذين في الحضيض. آه كم *يتكلمون* عن القيام بالأشياء، لكنهم في الواقع ينسون. كلا، بل أنتم أيها الشبان الذين عليكم أنْ تتذكروا وتتولوا القيادة»

قلت «نعم»

«ويجب أنْ تعتني بنفسك، يا بنيّ. لا تسمح للحياة في هارلم أنْ تغويك. أنا موجودة في نيويورك لكنَّ نيويورك ليست في داخلي، أتفهم ما أعني؟ إياك أنْ تفسد»

«لن أفعل. سوف أكون شديد الانشغال»

«حسن، إذن، يبدو لي أنك سوف تُصبح شخصية مهمة، فانتبه»

نهضتُ لكي أرحل، ورأيتها تنهض عن كرسيها وتواكبني حتى الباب.

قالت «إذا قررتَ أنْ تستأجر غرفة في مكان قريب من نُزُل الرجال، فتعال إليّ. الإيجار معقول»

قلت «سوف أتذكّر هذا»

الذي حدث هو أنني تذكّرتُ أسرع مما اعتقدت. فحالما ولجت بهو نُزُل الرجال البرّاق، الضاجَ، تملكني إحساس بالغربة وبالعِدائية. كان رداء العمل يجذب التحديق إليّ وأدركتُ أنه لم يعُد في إمكاني أنْ أمكث هناك بعد الآن، وأنَّ تلك المرحلة من حياتي قد انصرمت. كان البهو هو مكان اجتماع مجموعات متنوعة لا تزال تحمل أوهاماً كنتُ قد طرحتُها من تفكيري: طلاب جامعة يعملون لكي يعودوا ويلتحقوا بالدراسة من جديد في الجنوب؛ ومناصرون أكبر سناً لتقدُّم العِرق مع خُطط طوباوية من أجل إنشاء إمبراطوريات الأعمال السوداء؛ ووعّاظ لا يخضعون إلا لسلطة أنفسهم، بلا كنيسة ولا رعيّة، بلا خبز أو خمر، بلا جسد أو دم؛ و«قادة» المجتمع من دون تابعين؛ ورجال عجائز في الستين أو أكثر لا يزالون منغمسين في أحلام ما بعد الحرب الأهلية بحريّةٍ من دون تمييز عرقي؛ والمُثيرون للرثاء الذين لا يملكون غير أحلامهم في أنْ يُصبحوا سادةً محترمين، الذين يتولون أعمالاً صغيرة أو يتلقّون معاشات ضئيلة، وكلهم يتظاهرون بأنهم منهمكون في مشاريع ضخمة، ولكن غامضة، والذين ينتحلون سلوكيات راقية زائفة يتصف بها بعض أعضاء مجلس الشيوخ الجنوبيين وينحنون ويومئون برؤوسهم لدى مرورهم كديكة عجائز خرفين في فناء الحظيرة؛ الحشد الأصغر سناً الذين أشعر نحوهم الآن باحتقارٍ لا يكنّه إلا حالمٌ خائبُ

الأمل تجاه أولئك الذين ما زالوا غير مُدركين أنهم يحلمون - طلاب قسم التجارة من جامعات جنوبية، مجال التجارة بالنسبة إليهم هو لعبة مُجرَّدة، مُبهمة، قواعدها قديمة عفا عليها الزمن كسفينة نوح لكنهم ثملون بالتمويل. نعم، وتلك المجموعة الأكبر سناً تحمل الآمال نفسها، والـ «المتطرفون»، والـ «ممثّلون» الذين يسعون إلى أنْ يُصبحوا سماسرة بالخيال فقط، وجماعة من البوابين والحُجّاب الذين يُنفقون معظم رواتبهم على شراء ملابس شائعة بين سماسرة وول ستريت، كبذّات بروكس والقبعات المستديرة، والمظلات الإنكليزية، وأحذية جلد العجول والقفازات السوداء؛ بنقاشاتهم الحماسية والتقليدية حول أيّة ربطة عنق تتناسب مع القميص الفلاني، وأي نوع من الرمادي يتناسب مع أي كساء للقدم وماذا خليقٌ بالأمير ويلز أنْ يرتدي في حدثٍ موسميّ معيَّن؛ وهل ينبغي تعليق منظار الميدان من الكتف الأيمن أم الأيسر؛ والذين لا يقرؤون أبداً الصفحات المالية على الرغم من أنهم يواظبون على شراء *وول ستريت جورنال* ويتأبطونها تحت مرفقهم الأيسر، ويضغطونها بحزم على أجسادهم ويقبضون عليها باليد اليُسرى - المُشذّبة الأظافر دائماً والمكسوة بالقفاز، في الصحو أو في المطر - بدقّة سلِسَة (آه، كم كانوا أنيقين) بينما باليد الأخرى يُغلقون ويفتحون مظلة جيئة وذهاباً بزاويةٍ محسوبة؛ معتمرين قبعة همبرغ ومرتدين معاطف تشسترفيلد، ومعاطف وبر الجِمال وقبعات تيرولية بالضبط كما تقتضي الموضة.

كدتُ أرى عيونهم، أراهم جميعاً وأرى أيضاً عندما كانوا يعرفون أنَّ آمالي قد أُجهِضَتْ والاحتقار الذي يكنّونه لي، أنا طالب الجامعة الذي فقد آماله وكبرياءه. كدتُ أراه كله وأعلم أنَّه حتى الموظفون الرسميون والأكبر سناً سوف يحتقرونني وكأنما، بصورة ما، بفقداني مكاني في عالم بليدسو قد خنتهم... كدتُ أراهم وهم ينظرون إلى رداء عملي.

كنتُ قد هممتُ بالاتجاه نحو المصعد عندما سمعت صوت ضحكه يرتفع فعدتُ لأراه يخطب في مجموعة جالسة على الكراسي وتلافيف الشحم خلف الرأس المُجعّد، عالي القمة، الحليق قصيراً جداً، وكنتُ متأكّداً من أنه هو وانحنيتُ من دون تفكير ورفعت الشيء اللامع، الممتلئ وكريه الرائحة، وتقدّمتُ خطوتين واسعتين، وسكبت سائله البنيّ الكبير، والشفّاف،

على الرأس الذي تلقّى تحذيراً متأخّراً من شخص في آخر المكان. وتأخّرت أيضاً في إدراك أنه لم يكن بليدسو بل واعظاً، معمدانياً بارزاً، سكت واتسعت عيناه غير مُصدِّق وحانقاً، فاستدرتُ على عجل وغادرت البهو قبل أنْ يفكِّر أي شخص في إيقافي.

لم يلحق أحد بي ورحت أجوب الشوارع مذهولاً من تصرّفي. ولاحقاً بدأتْ تُمطر وتسللت عائداً إلى مكان قريب من نُزُل الرجال وأقنعتُ حمّالاً مرحاً بتسريب أغراضي إليّ. وعلِمتُ أنني مُنِعتُ من دخول المبنى مدة «تسعة وتسعين عاماً ويوم واحد».

قال الحمّال «قد لا تتمكن من العودة، يا رجل، ولكن بعد ما فعلت، أُقسِم على أنهم لن يكفّوا عن الحديث عنك. لقد قمتَ حقاً بتعميد المُحترَم العجوز!»

وهكذا في تلك الليلة رجعتُ إلى منزل ميري، حيث أقمتُ في غرفة صغيرة ولكن مريحة إلى أنْ بدأ الثلج يهطل.

كانت فترةً من الهدوء. تجنّبتُ الدَين بنقود التعويض ووجدتُ العيش معها ممتعاً لولا حديثها المستمر عن القيادة والمسؤولية. وحتى هذا لم يكن سيئاً جداً ما دام كان في استطاعتي أنْ أُسدد ديوني. لكنَّ التعويض كان قليلاً، وعندما بدأت النقود تنفد بعد مرور بضعة أشهر وأخذتُ من جديد أبحث عن عمل، صار الإصغاء إليها يُثير أعصابي باطراد. ومع ذلك، لم تُضايقني قط وظلّت كريمة في تقديم الأطعمة بين الوجبات كعهدها دائماً. وتقول «أنت فقط تمر بأوقات عصيبة. كل شخص مجتهد يمر بأوقات عصيبة، وعندما تُصبح شخصية مهمة سوف تساعدك كثيراً الأوقات الصعبة التي تمر بها الآن»

أنا لم أر الأمر هكذا. كنتُ قد فقدتُ إحساسي بالاتجاه. عندما لا أقوم بالبحث عن عمل، كنتُ أقضي وقتي في غرفتي، وقرأت عدداً لا يُحصى من الكتب من المكتبة العامة. وأحياناً، عندما كان لا يزال معي بعض النقود، أو عندما أكسب بضعة دولارات في خدمة الطاولات، كنتُ أتناول الطعام في

الخارج وأتمشى في الشوارع حتى وقت متأخِّر من الليل. وفيما عدا ميري لم يكن لدي أصدقاء ولم أرغب فيهم. ولا فكرتُ في ميري كـ «صديقة»؛ كانت أكثر من ذلك – كانت قوة دافعة، قوة ثابتة، أليفة، كشيءٍ من ماضي حياتي يحميني من دوارٍ يرميني إلى مجهولٍ لا قدرة لي على مواجهته. كان أشد ما وجدت نفسي فيه من مواقف إيلاماً، ذلك أنّه في الوقت نفسه كانت ميري تُذكّرني باستمرار بأنَّ شيئاً عظيماً متوقَّعاً مني، عملاً قيادياً، إنجازاً قيِّماً؛ وكنتُ ممزَّقاً بين اشمئزازي منها بسبب ذلك وحبّي لها من أجل الأمل الغامض الذي أبقته حياً فيَّ.

لم يكن لدي أدنى شك في مقدرتي على القيام بعمل ما، ولكن ما هو، وكيف؟ لم تكن لديّ صلات وثيقة بشخصيات مهمة ولم أكن أؤمن بأي شيء. وهوسي بهويتي الذي تطور عندي وأنا في مستشفى المصنع عاودني بشكل أعنف. مَنْ أنا، وكيف تكوّنت؟ حتماً لا يسعني إلا أنْ أكون قد اختلفت عما كنتُ عليه عندما غادرت الجامعة؛ أما الآن فنما داخلي صوت متناقض جديد، ومؤلم، وبين مطالبه بالعمل الانتقامي وضغط ميري الصامت كنتُ أنبض بالإحساس بالذنب وبالحيرة. لقد أردتُ السلام والهدوء، والسكينة، لكنني كنتُ أمورُ وأضطرب من الداخل. وفي مكان ما تحت أكوام الثلج المُجمِّد للمشاعر الذي كيَّفتْ حياتي عقلي على إنتاجه، توهجتْ بقعةٌ من الغضب الأسود وبثّت ضوءاً أحمر حاراً وشديد الكثافة بحيث لو أنَّ اللورد كلفن[25] علم بوجوده لاضطر إلى إعادة النظر في حساباته. ومن مكان قصيّ سُمع صوت انفجار ناء، ربما هناك في مقرّ إمرسون أو تلك الليلة في مكتب بليدسو، مما أدى إلى ذوبان قمة الجليد وتحرّكه قليلاً. لكنَّ ذلك المقدار القليل، ذلك الانزياح الضئيل، كان حتمياً. لعل المجيء إلى نيويورك كان محاولة لا واعية للإبقاء على وحدة التجمُّد القديمة، لكنَّها لم تنجح؛ لقد تسرّب الماء الحارّ إلى تضاعيفها. لعلها مجرد قطرة واحدة، لكنَّ تلك القطرة كانت أول موجة من الفيضان. خلال لحظة ولَجَ الإيمان قلبي، وكرَّستُ نفسي لِما مُقدِمٌ عليه، راغباً في الاستلقاء على الجمر الملتهب، في أنْ أفعل

25– لورد وليم تومسون، بارون كلفين الأول (1824–1907): رياضيّ وفيزيائيّ ومهندس ومُخترع إسكتلنديّ–أيرلندي. – المترجم

أيَّ شيء لأحظى بموقع في الجامعة – ثم أُحقق النجاح! ولكن كان كل شيء قد فشِل، انتهى. الآن لم تعد هناك إلا مشكلة نسيانه. ليت كل الأصوات المتناقضة التي تصرخ داخل رأسي تهدأ وتغني أغنية متناغمة، ولا يهمني ما هي ما دامت ستغني من دون نشاز؛ نعم، وأنْ تتفادى الطبقات القصوى الملتبسة من السلم الموسيقي. لكنني لم أرتح. كنتُ أضطرم بالاشمئزاز ولكن تحت سيطرةٍ تامة من «ضبْط النفس»، تلك الفضيلة المتجمدة، تلك الرذيلة المتجمدة. وكلما تفاقم شعوري بالاشمئزاز، عاودني أكثر حافزي القديم لإلقاء خُطب. وبينما أجوب الشوارع كانت الكلمات تتدفق من بين شفتيّ على هيئة غمغمة لا سيطرة لي عليها. صرتُ أخاف مما يمكن أنْ أفعل.

وبينما الجليد يذوب ويُشكّل فيضاناً يُهدِّد بابتلاعي استيقظتُ بعد ظهيرة أحد الأيام لأجد أنَّ أول فصل شتاء أقضيه في الشمال قد حلّ.

-13-

في أول الأمر أشحتُ بوجهي عن النافذة وحاولتُ أنْ أقرأ لكنَّ ذهني ظل يحوم عائداً إلى مشاكلي القديمة، ولمّا لم أعد أستطيع أنْ أتحمّلها، اندفعتُ خارجاً من المنزل، وأنا في أقصى حالات الهياج ولكن مع تصميم على الهرب من أفكاري المحتدمة إلى الهواء البارد.

عند المدخل ارتطمتُ بامرأة نعتتني بلفظ نابٍ، فلم تزدني إلا رغبة في الإسراع. وفي غضون بضع دقائق كنتُ قد ابتعدتُ مسافة، وانتقلتُ إلى الجادّة التالية ومن ثم إلى قلب المدينة. كانت الشوارع مكسوة بطبقة من الجليد وبثلجٍ ممزوجٍ بالسخام وفي الأعالي كانت شمسٌ ضعيفة تتسلل من خلال السديم. مشيت منكس الرأس، شاعراً بالهواء القارص. ومع ذلك كنتُ أشعر بالحرّ، بأنني أعاني من حمّى داخلية. وما كدتُ أرفع رأسي قليلاً حتى رأيتُ سيارة كانت مارة مزوّدة بسلاسل كابحة تدور حول نفسها دورة كاملة على الجليد، ثم تستدير بحذر وتنطلق بحركة مكتومة من جديد.

مشيت بخطى بطيئة، أطرفُ بعينيّ في وجه الهواء القارص، وعقلي مُشوَّش بالنزاع الداخلي المُحتدم المتواصل. بدت هارلم كلها كأنها تنهار وسط دوّامة من الثلج. تخيّلتُ أنني تائه ولبرهة من الزمن ساد هدوء غريب. تخيّلتُ أنني سمعت سقوط الثلج فوق الثلج. ماذا يعني هذا؟ مشيت، وعيناي مُثبتتان على سلسلة لا متناهية من محال الحلاقة، وصالونات التجميل، ومحال بيع الحلويات، ومطاعم وجبات الغداء، ودكاكين بيع السمك، ومرابع بيع أحشاء الخنازير، سائراً بمُحاذاة الواجهات، ورقائق الثلج تمرّ بسرعة بيننا، مُشكّلة في الوقت نفسه ستارة، حجاباً، وتزيحه جانباً.

لمحتْ عيني ومضاً أحمر وذهبياً من إحدى الواجهات المملوءة بالأغراض ذات الطابع الديني. وخلف الطبقة الرقيقة من الصقيع التي تحفّ بالزجاج رأيتُ صورتين جصّيتين مرسومتين لمريم العذراء ويسوع مُحاطتين بكتب عن الأحلام، وعقاقير الحب، وشعارات «الله محبّة»، وأحجار نرد زيتية وبلاستيكية جالبة للمال. وثمة تمثال أسود لعبدٍ نوبيّ عارٍ يكشّر في وجهي من تحت عمامة من الذهب. وأنتقلُ إلى واجهة مزيَّنة بكتل من الشَعر الزائف الشبيه بالأسلاك، وبمراهم تضمن اجتراح أعجوبة تبييض البشرة السوداء. تُعلن إحدى اللافتات «أنتِ أيضاً يمكنكِ أن تكوني جميلة حقاً. كوني أكثر سعادة ببشرة أنصع بياضاً. كوني مذهلة في مجتمعك»

وأحثُّ خُطاي، كابحاً حافزاً عنيفاً في ضرب لوح الزجاج بقبضتي. كانت الرياح تشتد، والثلج يقلّ. إلى أين سأذهب؟ إلى دار للسينما؟ هل أستطيع أنْ أنام هناك؟ كنتُ عندئذٍ قد تجاهلتُ الواجهات وتابعت سيري، مُدركاً الآن أنني عدتُ إلى التكلُّم مع نفسي. وفي مكان بعيد عند المنعطف رأيتُ رجلاً عجوزاً يُدفِّئ يديه على جوانب عربة غريبة الشكل، تنفثُ منها مدخنة مدفأة خيطاً رفيعاً عمودياً من الدخان يدفع نحوي ببطء عبق البطاطا الحلوة المشوية، أثار وخزاً سريعاً من الحنين. توقفتُ وكأنني أُصِبت بطلق ناريّ، ورحتُ أستنشق بعمق، متذكِّراً، وذهني يجيش عائداً إلى عمق الماضي. في الوطن كنا نشويها في الجمر الملتهب في الموقد، ونحملها باردة معنا إلى المدرسة لنتناولها مع وجبة الغداء، ونمضغها سراً، مُستخرجين اللب الحلو من القشرة الرقيقة ونحن مختبئون من الأستاذ خلف أضخم الكتب، ***جغرافيا العالم***. نعم، وكنا نحبها مُلبّسة بالسُكّر، أو مطبوخة بسائل القبلر[26] الحلو، أو مقلية بالشحم داخل جيب من العجين، أو مشوية مع لحم الخنزير ومكسوة بطبقة من الشحم حتى تُصبح بنيّة اللون؛ لقد مضغتها كلها – البطاطا والسنين الماضية. أكلنا بطاطا أكثر مما عشنا من سنين على الرغم من أنه بدا أنَّ الزمن كان يمتد إلى ما لا نهاية، وينتشر رقيقاً كالدخان المرتفع خلف كل ذكرى.

وتقدّمت من جديد. هتف «تعال وتناول بطاطا كارولاينا المشوية».

26– القبلر: سائل حلو من الخمر والسكّر. – المترجم

عند المنعطف كان العجوز، المتدثِّر بمعطف عسكريّ، وقدماه مكسوتان بجورب من الخيش، ورأسه مُغطّى بقلنسوة منسوجة، يعبث بمجموعة من أكياس الورق. ورأيتُ علامة بدائية مطبوعة على جانب العربة تعلن عن «البطاطا الحلوة» لدى مروري وارتطامي بموجة الدفء المنبعث من الجمر الملتهب على مصبعة في الأسفل.

قلت، وقد شعرت فجأة بالجوع، «بكم تبيع البطاطا؟»

قال، بصوت مرتعش بفعل الشيخوخة، «بعشرة سنتات وهي حلوة. وليست قاسية، بل بطاطا حقيقية، حلوة وصفراء. كم واحدة تريد؟»

قلت «واحدة. إذا كانت حلوة كما تدّعي، فواحدة تكفي».

رماني بنظرة متفحّصة. كانت هناك دمعة في زاوية عينه. ضحك بصوت مكبوت وفتح باب فرن بدائي، ومدّ يده المكسوة بالقفاز بحيوية. كانت البطاطا، التي يبقبقُ بعضها سائلاً حلواً، مُمدَّدة على منصَب من الأسلاك فوق الجمر الملتهب الذي يُرسلُ لهباً قصيراً أزرق كلما هبّتْ عليه نفحة من الهواء. ومضة الدفء صبغت وجهي بالوهج عندما تناول ثمرة بطاطا واحدة وأغلق الباب.

قال، وهو يضع البطاطا في الكيس، «ها هي، يا سيدي»

«لا داعي للكيس، سوف آكلها. خُذ...»

«شكراً لك». أخذ الدايم. «إذا لم تكن هذه حلوة، سوف أُعطيك واحدة أخرى مجاناً»

كنتُ أعلم أنها حلوة حتى قبل أنْ أشقّها؛ فقد كان السائل البنيّ الحلو يُبقبقُ مخترقاً القشرة.

قال العجوز «هيا شُقّها. شُقّها وسوف أُعطيك بعض الزبد بما أنك ستأكلها هنا. كثير من الناس يأخذونها معهم إلى المنزل. لديهم الزبد الخاص بهم في المنزل»

شقققتُها، وشاهدتُ اللب السُكّري يُرسلُ بخاره إلى البرد.

قال «هاتها إلى هنا». تناول قِدراً عن منصب في جانب العربة. «هنا»

قرّبتها، وراقبته يصبّ مقدار ملء ملعقة من الزبد المُذاب فوق البطاطا والزبد يتغلغل فيها.

«شكراً»

«أهلاً بك. وسوف أخبرك شيئاً»

قلت «ما هو؟»

«إذا لم يكن هذا أشهى ما تناولتَ في حياتك، فسوف أُعيدُ إليك نقودك»

قلت «لستَ في حاجة إلى إقناعي؛ أستطيع أنْ أنظر إليها وأرى أنها لذيذة»

قال «معك حق، ولكن ما يبدو ظاهرياً أنه جيد، ليس بالضرورة أنْ يكون كذلك. ولكن هذه جيدة»

تناولتُ قضمة، فوجدتها حلوة وساخنة كأي بطاطا أكلتها في حياتي، وغمرتني موجةٌ من الحنين إلى الوطن حتى إنني أشحت بوجهي جانباً لأحافظ على ضبط نفسي. وتابعتُ طريقي، أمضغُ البطاطا، وفجأة انتابني إحساسٌ قويّ بالحرية – فقط لأنني آكل وأنا أمشي في الشارع. كنتُ منتشياً. لم أعُد في حاجة إلى القلق حول مَنْ رآني أو حول التصرُّف اللائق. إلى الجحيم لهذا كله، ولأنه حلوٌ كحلاوة البطاطا، أصبح بعد تفكير كالرحيق. ليت شخصاً كان يعرفني من أيام المدرسة أو من الوطن يأتي ليراني الآن. كم سيُصعَق! سوف أتنحى به جانباً في الشارع وأُلطّخ وجهه بالقشور. قلت في نفسي، كم كنا مجموعة رائعة. كنا نشعر بمهانة عُظمى لمجرد أنْ نواجه شيئاً نحبه. ليس *كلنا*، ولكن العديد منا. بمجرد أنْ تسير وتهز مجموعة من السجق أو أحشاء الخنزير المطبوخة جيداً في وجوههم في وضح النهار! كم كان ذلك يُسبب من رعب! ورأيتني أتقدَّم من بليدسو، الواقف مُجرّداً من مهانته الزائفة في البهو المزدحم لنُزُل الرجال، وأراه هناك وهو يراني ويتجاهلني ويثور غضبي وفجأة أرفع مقدار قدم أو اثنين من السجق، النيء، غير المُنظَّف ويقطر دوائر دبقة على الأرض وأهزّه في وجهه، وأصرخ:

«بليدسو، يا آكل السجق الشائن! إنني أتّهمك باشتهائك أحشاء الخنزير! ها! ولا تكتفي بأكلها، بل تتسلل وتأكلها *سراً* عندما تظن أنَّ لا أحد يُراقبك! يا عاشق السجق المتسلل! إنني أتّهمك بالانغماس في عادة قذرة، يا بليدسو

أخرجها، يا بليدسو! أخرجها لكي نراها! إنني أتّهمك أمام أعين العالم!»، ويُخرجها، كلها، مع الخضار والمستردة، وملء منصب من آذان الخنازير، وشرائح لحم الخنزير واللوبياء[27] ذات العيون البليدة المُتّهمة.

أطلقتُ ضحكة عنيفة، وكدتُ أختنق بسبب البطاطا الحلوة عندما شعرت بالمشهد يدور أمام عينيّ. طبعاً حدوث ذلك في حضور أشخاص آخرين أسوأ من اتّهامه باغتصاب امرأة عجوز في التاسعة والتسعين، وتزن تسعين رطلاً... عوراء وعرجاء! سوف ينهار بليدسو، ويُهان! سوف يُطأطئ رأسه من شدة إحساسه بالخزي. سوف يخسر أتباعه. وسوف تقوم الصحف الأسبوعية بمهاجمته. وسوف يُكتَب فوق صورته: *مُربٍ بارز يرتدّ إلى أصوله الزنجية!* وسوف يتّهمه منافسوه بأنه قدوة سيئة للشباب. وسوف تُطالب الافتتاحيات الصحفية إما بشجبه علناً أو بسحبه من الحياة العامة. في الجنوب سوف يلفظه قومه البيض؛ سوف يُصبح مُضغة في الأفواه في طول البلاد وعرضها، ولن تنفعه أموال القيِّمين كلها في دعم مستقبله المهني المُنهار. سوف ينتهي به الأمر منفياً يغسل الأطباق في المطعم الآلي. ذلك أنه في الجنوب لن يتمكن من الحصول على عمل في عربة شفط البراز من المراحيض.

قلت في نفسي، كم هذا شديد الجموح وصبيانيّ، ولكن فليذهب إحساسي بالخجل مما أُحبّ إلى الجحيم. كفاني من هذا. أنا ما أنا عليه! ورحتُ ألتهم البطاطا بنهم وهرعتُ عائداً إلى الرجل العجوز ونقدته عشرين سنتاً. قلت «أعطني اثنتين أُخريين»

«حاضر، تحت أمرك، ما دامت لديّ. أرى أنك مُحبٌ جديٌّ للبطاطا، أيها الشاب. أأكلتها بهذه السرعة؟»

قلت «حالما أعطيتنيها»

«أتريدها مع الزبد؟»

«من فضلك»

27- اللوبياء: بالإنكليزية تسمى black-eyed peas، أي حرفياً ذات العيون السوداء. ومن هنا جاء التشبيه الأخير. - المترجم

قال «حاضر، وبهذا تحصل على أفضل طعم لها. نعم يا سيدي»، وهو يناولني البطاطا، «أرى أنك أحد آكلي البطاطا التقليديين»

قلت «إنها عادتي المُميَّزة، أكل البطاطا يُميِّزني!»

قال مع ابتسامة عريضة «إذن لابد أنك من كارولاينا الجنوبية»

«إنَّ كارولاينا الجنوبية لا شيء مقارنه بالمكان الذي أتيت منه حيث نحن مولعون بأكل البطاطا»

هتف خلفي وأنا أبتعد «عُدْ هذه الليلة أو غداً إنْ كان في استطاعتك أنْ تأكل المزيد منها. سوف تكون زوجتي العجوز معي هنا مع بعض فطائر البطاطا الحلوة المقلية»

قلت لنفسي بحزن، وأنا أتقدَّم، فطائر البطاطا المقلية. قد أُصاب بعسر هضم إذا أكلتُ واحدة منها - والآن وقد تخلّيت عن أي إحساس بالخزي من الأشياء التي لطالما أحببت، ربما لم يعُد في إمكاني أنْ أهضم الكثير منها. ماذا خسرت وكم، من محاولتي أنْ أفعل فقط ما هو متوقَّعٌ مني بدل ما رغبتُ أنا نفسي في فعله؟ يا للخسارة، يا للخسارة العبثية! ولكن ماذا عن تلك الأشياء التي لم تُحبّها، ليس لأنه لم يكن مُفترَضاً بك ألا تحبّها، ليس لأنَّ عدم حبّك لها كان يُعتبَر دلالة على الرقيّ والثقافة - بل لأنَّك وجدتها في الحقيقة ممجوجة؟ إنَّ الفكرة بحدّ ذاتها أزعجتني. وما أدراك؟ إنَّ الأمر يشتمل على مشكلة الاختيار. سوف يتوجب أنْ أزن الكثير من الأشياء بعناية قبل أنْ أتخذ قراراً وسوف تُسبّب بعض الأشياء الكثير من المشاكل، ببساطة لأنني لم أتخذ مرة في حياتي موقفاً شخصياً تجاه مثل هذا الكمّ من الأشياء. لقد قبلتُ المواقف المقبولة وجعلتُ الحياة تبدو بسيطة...

ولكن ليس البطاطا، لم تكن لدي أية مشكلة بشأنها ويمكن أنْ آكلها كلما وأينما خطر لي. استمرْ على مستوى البطاطا وسوف تُصبح الحياة حلوة - وإنْ كانت بصورة ما تميل إلى اللون الأصفر. لكنَّ حرية أكل البطاطا الحلوة في الشارع كانت أقلّ بكثير مما توقعت إبّان مجيئي إلى المدينة. وتولّدَ في فمي مذاق كريه وأنا أعضّ آخر ما تبقّى من حبّة البطاطا فرميتها إلى الشارع؛ كان قد أصابها الصقيع.

جرفتني الريح إلى شارع فرعيّ حيث كانت مجموعة من الصِبية قد أضرمتِ النار في صندوق تعبئة. وعلِقَ الدخان منخفضاً ورمادياً في الجو وأصبح أكثر كثافة في أثناء سيري مُطأطئ الرأس ومُغمض العينين أحاول أنْ أتفادى الدخان. وبدأتْ رئتاي تتألمان؛ ثم خرجت منه، وعركتُ عينيّ وسعلت حتى كدتُ أتعثّر بها: كانت مُكوّمة ومُبعثرة على طول الرصيف وتتجاوز الحافة إلى الشارع، كالكثير من سقط المتاع الذي ينتظر مَنْ يُزيله. ثم رأيتُ حشوداً بوجوه كالحة، تنظر إلى مبنى يقوم فيه رجلان من البيض بإخراج كرسي تجلس عليه امرأة عجوز؛ كانت، كما رأيت، تضربهما بحركات ضعيفة من قبضتيها. عجوز تبدو حنوناً ورأسها معصوب بمنديل، وتنتعل حذاء رجل وترتدي سترة صوفية زرقاء ثقيلة خاصة بالرجال. كان مشهداً مُذهلاً: الحشد يراقب في صمت، ورجلان من البيض يدفعان الكرسي ويُحاولان أنْ يتفاديا الضربات ووجه العجوز يسيل بدموع الغضب وهي توجه لكماتها إليهما بقبضتيها. لم أصدق المشهد. شيء ما، إحساسٌ مشؤوم، اجتاحني، إحساس سريع بالقذارة.

صرختْ «اتركاني وشأني، اتركاني وشأني!» والرجلان يُبعدان رأسيهما عن مرمى ضرباتها ويُجلسانِها بسرعة على حافة الطريق ويهرعان عائدين إلى المبنى.

قلت لنفسي، متلفتاً حولي، ما الذي يحدث، ما الذي يحدث؟ والعجوز تجهشُ، مُشيرة بإصبعها إلى الأغراض المكوَّمة على حافة الطريق. قالت وهي تنظر إليّ مباشرة «انظر ماذا يفعلون بنا. انظر»، وأدركتُ أنَّ ما اعتبرتُ أنه سقط متاع كان في الواقع أثاث منزلٍ بال.

قالت، ودموعها على وجهها، «انظر إلى ما يفعلون»

أشحتُ بوجهي مُحرجاً، مُحدِّقاً إلى الحشد المتزايد باطّراد. كانت الوجوه تحدِّق بكآبة من النوافذ العليا. ثم عندما ظهر الرجلان من جديد من أعلى الدّرَج حاملَين دولاب أدراج متهدّماً، رأيتُ رجلاً ثالثاً يخرج ويقفُ خلفهما، يشدّ أذنه وهو يطل على الحشد.

قال «أسرعوا، يا شباب، أسرعوا. ليس لدينا النهار كله»

ثم هبط الرجلان مع دولاب الأدراج ورأيت الحشد يُفسِح طريقاً بنكد، والرجلان يتقدمان بصعوبة، وينخران وهما يضعان الدولاب على حافة الرصيف، ومن ثم يعودان إلى المبنى من دون أنْ يُلقيا نظرة إلى اليمين أو إلى اليسار.

قال رجل نحيل إلى جانبي «انظر إلى هذا، يجب أنْ نوسع أولئك الأيرلنديين ضرباً!»

نظرتُ بصمت إلى وجهه، المتوتر، والشاحب في الجو البارد، وإلى عينيه اللتين تواكبان الرجلين اللذين يرتقيان الدّرَج.

قال رجل آخر «حتماً، يجب أنْ نوقفهما، ولكن الناس لا يتحلون بما يكفي من الشجاعة»

قال النحيل «هناك الكثير من الشجاعة. إنَّ كل ما يحتاجون إليه هو شخص يُحفّزهم. كل ما يحتاجون إليه هو قائد. إنَّ ما تعني هو أنك ***أنت*** الذي لا تتحلّى بالشجاعة»

قال الرجل «مَنْ، أنا؟ مَنْ، أنا؟»

«نعم، أنت»

قالت العجوز «انظر فقط، انظر فقط»، ووجهها لا يزال متجهاً نحوي. أشحت بوجهي، مُقترباً من الرجلين.

قلت، وأنا أقترب، «مَن هذان الرجلان؟»

«من الشرطة أو ما شابه. لا يهمني مَنْ يكونان»

قال رجل آخر «من الشرطة، أبداً. إنَّ هؤلاء ليسوا أكثر من سجناء موثوقون[28]. وحالما ينتهون سوف يُعادون إلى السجن»

«لا يهمني من يكونون، لا يحق لهم أنْ يرموا بهؤلاء العجائز إلى الرصيف»

قلت «تعني أنهم يطردونهم من شُققهم؟ أيفعلون هذا ***هنا***؟»

قال، وهو يميل عليّ، «من أين أنت، يا رجل؟ ممَّ تعتقد أنهم يطردونهم، من سيارة بولمن؟ إنهم يُطردون من منازلهم!»

28- السجين الموثوق، هو الذي يحظى ببعض الامتيازات من إدارة السجن. - المترجم

شعرت بارتباك؛ والتفتَ آخرون ليحدّقوا، لم أكن قد شهدتُ من قبل عملية طرد من منزل. وضحك أحدهم ساخراً.

«من أين هو قادم؟»

مرَّ من أمامي ومضٌ من الحرارة فالتفتُّ. قلت، مع لمسةٍ حارة جديدة في صوتي، «اسمعوا، يا أصدقاء، لقد طرحتُ سؤالاً حضارياً. فإذا لم ترغبوا في الإجابة عنه، فلا بأس، ولكن لا تحاولوا أنْ تسخروا مني»

«نسخر؟ اللعنة، كل السود يُثيرون السخرية. مَنْ أنت بحق الجحيم؟»

قلت، وأنا أرميه بعبارة اكتسبتُها حديثاً، «لا عليك، كائناً من كنتُ. فقط لا تبصق العلكة في وجهي»

عندئذٍ هبط أحد الرجلين الدّرَج حاملاً أغراضاً على ذراعيه، ورأيتُ العجوز ترفع يدها، وتصرخ، «أبعد يدك عن كتابي المقدّس!»، واندفع الحشد إلى الأمام.

استعرضَتْ عينا الرجل الأبيض المستعرتان الحشدَ. قال «أين، أيتها السيدة؟ لا أرى أي كتاب مقدّس»

رأيتها تنتزع كتاباً من بين ذراعيه، وتقبض عليه بعنف وتُطلق صرخة. قائلة «سوف يأتون إلى منزلك ويفعلون ما يشاؤون بك، سيدخلون بأحذيتهم الثقيلة وينتزعون حياتك من جذورها! ولكن ما يحدث هنا هو القشّة الأخيرة. إنهم لا يهتمون بكتابي المقدّس!»

استعرضَ الرجل الأبيض الحشد. قال، موجّهاً كلامه إلينا أكثر منه إليها، «اسمعي، أيتها السيدة، أنا لا أرغبُ في فعل هذا. لكنني *مُضطر* إليه. لقد أرسلوني إلى هنا لأفعل هذا. ولو الأمر بيدي، لما تركتكِ هنا على الرصيف تتجمدين...»

عنّت قائلة، وعيناها متوجهة صوب السماء، «أشكو إليك أمر أولئك البيض، يا رب. أولئك القوم البيض»، فاندفع رجلٌ عجوز ماراً بي متوجهاً نحوها.

قال، واضعاً يده على كتفها، «أيتها المحترمة، أيتها المحترمة. السبب هو العميل، وليس هذين السيدين. بل هو وحده. هو يقول إنه المصرف، لكنكِ تعلمين أنه هو السبب. لقد تعاملنا معه على مدى أكثر من عشرين عاماً»

قالت «لا تقُل هذا. إنهم البيض كلهم، وليس شخصاً واحداً فقط. إنهم جميعاً ضدنا. كل واحد حقير قذر منهم»

قال صوت أجش «معها حق! معها حق! *كلهم* مسؤولون!»

كان في داخلي شيء ضار يتفاعل، ولبرهة من الزمن نسيتُ باقي أفراد الحشد. الآن بتُّ أميِّز فيهم خجلاً، وكأنهم، وكأننا، خجلون من مشاهدة عملية الطرد، وكأننا جميعاً دخلاء غير راغبين على حدث مُشين؛ وهكذا حرصنا على ألا نلمس شيئاً أو أنْ نُحدّق بإمعان إلى الآثار المتخلفة على حافة الرصيف؛ لأننا كنا شهوداً على ما لم نرغب في رؤيته، على الرغم من فضولنا، وانبهارنا، رغماً عن إحساسنا بالخزي، وعبر ذلك كله شهوداً على المرأة العجوز، التي تبكي بحُرقة.

نظرتُ إلى العجائز، شاعراً بحُرقة في عينيّ، وتوتر في حلقي. كان للعجوز التي تجهشُ بالبكاء أثر غريب عليّ - وكأنني طفل، رأى دموع والديه، فتأثّر بفعل الخوف والتعاطُف وبكى. أشحتُ بنظري، شاعراً بأنني مُنجذب إلى أولئك العجائز بدوَّامةٍ دافئةٍ، مُظلمةٍ ومرتفعةٍ من الانفعال كنتُ أخشاها. كنتُ مُرهقاً بسبب ما كان مشهدُ الباكين هناك على الرصيف يدفعني إلى الشعور به. ووددتُ لو أغادر، لكنني كنتُ من فرط الإحساس بالخزي ما غير قادرٍ على ذلك، وكنتُ أُصبح بسرعة جزءاً لا يتجزّأ من الأمر كله.

انعطفتُ جانباً ونظرتُ إلى قعقعةِ أغراض المنازل التي كان الرجلان يستمران في تكديسها على الرصيف. وبينما الحشد يدفعني نظرتُ إلى أسفل لأرى إطاراً بيضاويّاً لصورةٍ تبيِّنُ زوجين من العجائز عندما كانا شابين، لأرى الوقار الحزين، الجامد للوجهين اللذين يطلّان منه؛ شاعراً بذكريات غريبة تستيقظ بدأتْ كترجيعِ صدى في رأسي شبيه بصدى صوت هستيري يتلعثم في شارع مُظلم. لأراهما يبادلانني النظرات وكأنهما حتى حينئذٍ في ذلك اليوم من القرن التاسع عشر لم يكونا يتوقعان الكثير، هذا بالإضافة إلى كبرياء كئيبة، خائبة الأمل، بدت لي فجأة بمنزلة تأنيب وتحذير. ووقعتْ عيناي على زوج من العِظام المحفورَة بشكل بدائي ومصقولة، «عظمتين للقرع» تُستخدمان في مُصاحبة الموسيقى في أداء الرقص الريفي،

وفي عروض الوجوه السوداء[29]؛ هما الضلعان المُسطحان لبقرة، أو لعجل أو لخروف، عظمتان مُسطحتان تُصدران صوتاً عندما تُضربان معاً، كصنجٍ ثقيل (هل كان من أولئك الممثلين؟) أو الكتلة الخشبية لعدد من الطبول. وأُصُص كثيرة من النباتات الخضراء صُفَّتْ في الثلج القذر، سوف تموت من دون أدنى شك بفعل البرد؛ لبلاب، وقنّا[30]، ونبتة بندورة. وفي سلّة رأيتُ مشطاً لتسريح الشعر، وخُصلاً من الشعر المُستعار، ومكواة للتجعيد، وبطاقةً مطبوعاً عليها كتابة بأحرف فضيّة على خلفيّة من المخمل الأحمر القاني، تقول «بارك الله بيتنا»؛ وعلى أعلى طاولة خزانة وُضِعَتْ نفائس مُرصّعة تحمل اسم جون الغازي العالي[31]، حجر الحظ؛ وبينما كنتُ أراقب الرجلين الأبيضين يضعان السلة التي رأيتُ داخلها زجاجةً من الويسكي مملوءةً بقطع حلوى قاسية وكافور، وعلماً أثيوبياً صغيراً، ونسخة مطبوعة باهتة من صورة أبراهام لينكولن، وصورة لإحدى نجمات هوليوود مبتسمة ممزّقة من إحدى المجلات. وعلى وسادة عددٌ من قطع الصيني الرقيقة مُصابة بشروخ سيئة، ورقعة معدنية إحياءً لذكرى الاحتفال بمعرض سينت لويس العالمي... كنتُ في حالة شبه ذهول، وأنا أنظر إلى مروحة قديمة مُخرَّمة مطوية مُرصّعة بحجر من الكهرمان وبعرق اللؤلؤ.

ماج الحشد عندما عاد الرجلان، ورميا درجاً لفظ محتوياته على الثلج عند قدميّ. انحنيتُ وأخذتُ أُعيد الأغراض إلى مكانها؛ كانت رمزاً ماسونيّاً ملتوياً، وحلقتي أصفاد فقدتا بريقهما، وثلاثة خواتم من النحاس، وقطعة نقد صغيرة مثقوبة بمسمار لكي توضع حول الكاحل بخيط استجلاباً للحظ الحسن، وبطاقة تهنئة مزخرفة مع رسالة تقول «أحبك، يا جدّتي» بخط طفل؛ وبطاقة أخرى تحمل صورة ما يبدو أنه رجل أبيض صبغَ وجهه باللون الأسود جالس على باب كوخ يضرب على أوتار آلة

29- المقصود هنا، عرض كوميدي يؤديه ممثلون من البيض يظهرون على المسرح كزنوج ويقدمون النكات والأغاني. - المترجم

30- قنّا: عشب استوائي مزهر عريض الأوراق.

31- جون الغازي العالي: هو بطل شعبي في التراث الأميركي الأسود، ويرتبط هذا الاسم أيضاً بمُستحضرات طبيّة شعبية سحرية وممارسات الفودوو. - المترجم

بانجو لحناً موسيقياً ويغني كلمات تقول «أنا عائد إلى كوخي القديم في الوطن»؛ ومسحوق نشوق فقَدَ فعاليته، ومسبحة من حجارةٍ زجاجية لامعة مع حامل فقَدَ بريقه، وقدم أرنب، وبطاقة من السيلولويد تحمل نتائج لعبة كرة بيسبول على شكل قفّاز القابض، عليها نتائج فوز وخسارة مباريات جرت قبل سنين عديدة؛ وحذاء بالياً لطفل وخصلة من شعر طفل مُغبرَّة مع شريط أزرق باهت اللون ومُجعّد. شعرت بالغثيان. كنتُ أحمل بيدي ثلاث شهادات تأمين على الحياة انتهى مفعولها ممهورة بأختام مثقوبة تقول «باطل»؛ وصورة من صحيفة مُصفرَّة تمثّل رجلاً أسود ضخم الجثّة مع تعليق يقول: «**ترحيل ماركوس غارفي**[32]».

أشحت ببصري، وانحنيت لأفتش في الثلج القذر عن أي شيء مفقود لم ترصده عيناي، فقبضتْ يداي على شيء مُستقرّ داخل أثر قدم: ورقة هشّة، تصدعت بفعل الزمن، مكتوب عليه بالحبر الأسود اصفرَّ لونه. قرأتُ: **الصحف الحرّة**. ***فليعلم الجميع أنّني حـرَّرتُ بطلي الأسود، بريموس بروفو، في هذا اليوم السادس من شهر آب، عام 1859. التوقيع: جون صموئيل، ماكون***... طويتها بسرعة، ماسحاً القطرة الوحيدة من الثلج الذائب التي كانت تلمع على الصفحة المصفرّة وأعدتُها من جديد إلى الدرج. كانت يداي ترتعشان، وأنفاسي تلهث وكأنني ركضتُ مسافة طويلة أو صادفتُ أفعى ملتفّة حول نفسها وسط الشارع المزدحم. قلت لنفسي، ***إنها تعود لفترة أطول من هذا، ومحاها الزمن***، ومع ذلك كنتُ أعلم أنَّ الأمر ليس كذلك. وأعدتُ الدرج إلى الدولاب ودفعته وأنا كالسكران إلى حافة الرصيف.

لكنني لم أتقيّأ، بل كانت مجرد كتلة من المذاق المُرّ ملأتْ فمي ثم تناثرت على أغراض العجوز. والتفتُّ وحدّقتُ من جديد إلى الفوضى، ولم أعُد أنظر إلى ما كان ماثلاً أمام عينيّ، بل من الداخل إلى الخارج، من المُنعَطَف إلى الظلام، إلى المدى البعيد وإلى الزمن السحيق، ليس بالضبط

32- ماركوس غارفي (1887-1940): زعيم سياسي من جامايكا، وناشر، وصحافي، وملتزم، وخطيب ومدافع مخلص عن الهوية السوداء وطالب بالقومية السوداء. - المترجم

من ذاكرتي الخاصة بل من الكلمات التي أتذكّرها، من الأصداء اللفظية المترابطة، والصور، التي سمعتها حتى وأنا لا أُصغي في الوطن. وكأنما قد انتُزِعَ مني أنا شيء مؤلِم ولكنه نفيس لم أُطِق فقدانه؛ شيء يُخزي، كجذرٍ عفِن يُفضّل المرء أنْ يُعاني منه إلى الأبد على أنْ يتحمّل دفق الألم القصير والعنيف الذي يُرافق اجتثاثه. ويرافق هذا الإحساس بانتزاع الملكية وخز التمييز الغامض: سقط المتاع هذا، هذه الكراسي المتهالكة، هذه المكاوي الحديدية العتيقة، الثقيلة، وأحواض الغسل المصنوعة من الزنك ذات القاع المنبعج – كلها تنبض داخلي وذات دلالة أكثر مما ينبغي: *ولماذا، وأنا أقفُ بين الحشد، أتخيّل أمي تنشر الغسيل في يوم بارد وعاصف، بل شديد البرودة إلى درجة أنَّ الملابس الدافئة تتجمّد حتى قبل أنْ يختفي البخار المتصاعد منها وتتدلّى متيّبسة على الحبل، ويداها بيضاويان وخشنتان في وجه الهواء الذي يعصف بأذيال الأثواب ورأسها بشَعره الشائب عار أمام السماء المُكفهرّة – لماذا كانت تُسبب لي اضطراباً يتجاوز بكثير معناها الحقيقي كأشياء؟ ولماذا أراها الآن كأنما من خلف حجاب يُهدِّد بأنْ يرتفع، تعصف بها رياح باردة في الشارع الضيِّق؟*

أسمع صرخة تجعلني أدور حول نفسي، «سوف أدخل!». كان العجوزان يقفان عندئذٍ على الدّرَج، الرجل يُمسك بذراعها، والرجل الأبيض يميل إلى الأمام فوقهما، والحشد يضغطني ويُقرِّبني من الدّرَج.

قال الرجل «لا يمكن أنْ تدخلي، يا سيدتي»

قالت «أريد أنْ أُصلّي!»

«لا حيلة لي في ذلك، يا سيدتي. سوف تُضطرين إلى أداء صلاتك هنا في الخارج»

«سوف أدخل!»

«لن تدخلي!»

قالت، وهي تقبض بحزم على نسختها من الكتاب المقدس، «كل ما نريد هو أنْ ندخل ونؤدي صلاتنا. لا يجوز أنْ نصلي في الشارع هكذا»

قال «أنا آسف»

هتف صوت من بين الحشد، «هيه، دع المرأة تدخل وتصلّي. لقد أخرجتم أغراضهما كلها على الرصيف هنا - ماذا تريدون أكثر من هذا، الدم؟»

«نعم، دعوا العجوزين يؤديان صلاتهما»

هتف صوت آخر «هذا هو خطبنا جميعاً الآن، كل تلك الصلاة اللعينة»

قال الرجل الأبيض «لا تستطيعان أنْ تعودا، لأنكما طُردتما بصورة قانونية»

قال الرجل العجوز «ولكن كل ما نريد هو أنْ ندخل ونركع على الأرض. لقد عشنا هنا لأكثر من عشرين عاماً. ولا أفهم لِمَ لا تستطيع أنْ تسمح لنا بالدخول فقط لبضع دقائق...»

قال الرجل «اسمعا، لقد أخبرتكما. لديّ أوامر. وأنتما تضيّعان وقتي»

قالت المرأة «سوف ندخل!»

ثم حدث أمرٌ بسرعة مُفاجئة حتى ما كدتُ أتمكن من متابعته: رأيتُ المرأة العجوز تقبض على كتابها المقدس وتندفع مرتقية الدّرَج، وزوجها خلفها والرجل الأبيض يقفُ أمامهما ماداً ذراعيه. صرخ «سوف أسجنكما، وحقّ الله سأسجنكما!»

هتف واحد من الجمهور «أبعِد يديك عن المرأة!»

وعند أعلى الدّرَج أخذا يدفعان الرجل ورأيتُ المرأة العجوز تقع على ظهرها، وانفجر حشد الناس.

«اقبضوا على ابن الحرام الأيرلندي ذاك!»

صرخت امرأة من الهند الغربية في أُذني «لقد ضربها! ذلك الوحش القذر، ضربها!»

هتف الرجل، وعيناه ضاريتان وقد شهر مسدساً وتراجع إلى ممر الباب حيث وقف السجينان الموثوقان مرتبكين، وأذرعهما ممتلئة بالأغراض، «ابعدوا وإلا سأطلق النار. أُقسم سأُطلق النار! أنتم لا تدركون ماذا تفعلون، لكنني سأطلق النار!»

تـردّدوا. هتف شخص صغير «ذلك الشيء لا يحتوي أكثر من ست طلقات. فماذا ستفعل بعد ذلك؟»

«نعم، إنك حتماً لن تستطيع أنْ تختبئ»

هتف رجل الأمن «أنصحكم بأنْ تخرجوا من هذا الأمر»

«أتعتقد أنَّ في استطاعتك أنْ تأتي إلى هنا وتضرب إحدى نسائنا، أيها الأحمق»

«دعونا من هذا الحديث العقيم، وانقضّوا على ابن الحرام!»

هتف الرجل الأبيض «يُستحسن أنْ تعيدوا التفكير»

رأيتهم يبدؤون بارتقاء الدّرَج وشعرتُ فجأة كأنَّ رأسي سينفلق. كنتُ أعلم أنهم على وشك أنْ يهجموا على الرجل وكنتُ في وقت واحد خائفاً وغاضباً، مُشمئزاً ومفتوناً. أردتُ معاً حدوث الهجوم وخشيتُ عواقبه، شعرتُ بالحنق وبالغضب مما رأيت ومع ذلك اجتاحني الخوف؛ ليس على الرجل أو من عواقب الهجوم، بل مما قد يُطلِق المشهد العنيف داخلي. وتحت ذلك كله كانت تمور كل العبارات التي تمتص الصدمة وتعلّمتُها طوال حياتي. كأنني كنتُ أتمايل على حافة فوهة مظلمة عظيمة.

سمعتُ نفسي أصرخ «كلا، كلا. أيها السود! يا إخوتي! يا إخوتي السود! ليس هذا هو الأسلوب الصحيح. نحن قوم نرضخ للقانون وليس من السهل أنْ يغلبنا الغضب...» فتوقفوا، مُصغين. حتى الرجل الأبيض ذُهِلَ.

هتف صوت «نعم، لكننا غاضبون الآن»

هتفت مُجيباً «نعم، أنت على حق. نحن غاضبون، ولكن دعونا نلجأ إلى الحِكمة. دعونا، أعني دعونا لا... دعونا نتعلّم من ذلك القائد العظيم الذي تحدثت الصحف عن عمله الحكيم قبل أيام...»

صرخ صوت امرأة من الهند الغربية، «ما هو، يا رجل؟ مَنْ هو؟»

«هيا! دعوكم من هذا الشخص، فلننل من ذلك الأيرلندي قبل أنْ يُرسلوا إليه الدعم...»

صرختُ «كلا، انتظروا. دعونا نتبع القائد، فلنُنظِّم صفوفنا. *انتظموا*. نحن في حاجة إلى شخص مثل ذلك القائد الحكيم، لقد قرأتم عنه، هناك في ألاباما. لقد كان يتحلّى بما يكفي من القوة ليختار أنْ يقوم بالعمل الحكيم على الرغم من شعوره الخاص...»

«مَنْ هو، يا رجل؟ مَنْ؟»

قلت في نفسي، ها قد وصلتَ، إنهم يُصغون، تواقون إلى الإصغاء. لم يضحك أحد. إذا ضحكوا، سأموت! وشحنتُ قفصي الصدريّ.

قلت «إنَّ ذلك الرجل الحكيم الذي قرأتم عنه، الذي عندما فرَّ ذلك الهارب من بين الغوغاء وهرع إلى مدرسته طلباً للحماية، ذلك الحكيم الذي كان قوياً بما يكفي ليقوم بالعمل القانوني، العمل الراضخ للقانون، ليسلّمه إلى قِوى القانون والنظام...»

رنَّ صوت قوياً «نعم، نعم، لكي يعدموه من دون محاكمة»

آه، يا الله، ليس هكذا على الإطلاق. أسلوب سيئ وليس كما كنتُ أقصد.

صرخت «لقد كان قائداً حكيماً. وكان يعمل ضمن نطاق القانون. ألم يكن ذلك تصرّفاً حكيماً؟»

ضحك الرجل بغضب. «نعم، يا له من حكيم. والآن ابعد عن الطريق لكي ننقضّ على الأيرلندي»

صرخ الحشد وضحكتُ رداً على ذلك كأنني مُنوَّمٌ مغناطيسياً.

«ولكن ألم يكن ذلك تصرّفاً إنسانياً؟ فقبل كل شيء، كان عليه أنْ يحمي نفسه لأنَّ –»

زعقت امرأة بصوت يضطرب بالاحتقار، «لقد كان جرذاً يعصب رأسه بمنديل!»

هتفت، وقد أثارتني ردّة الفعل «نعم، معك حق. كان حكيماً وجباناً، ولكن ماذا عنا نحن؟ ماذا علينا أنْ نفعل؟»، وصرخت «انظروا إليه»

هتف رجل عجوز يضع قبعة مستديرة وكأنه يُجيب واعظاً في كنيسة، «نعم، انظروا إليه!»

«وانظروا إلى هذين العجوزين...»

قال «نعم، ماذا عن الأخت والأخ بروفو؟ هذا عار آثم!»

صرخت «وانظروا إلى أغراضهما المبعثرة على جانب الرصيف. فقط انظروا إلى ممتلكاتهما في الثلج. كم عمرك، يا سيدي؟»

قال الرجل العجوز، بصوت منخفض ومُرتبك، «أنا في السابعة والثمانين»

«ماذا قلت؟ ارفع صوتك لكي يسمعك كابحو الغضب»

«أنا *في السابعة والثمانين من العمر!*»

هتفت «أسمعتموه؟ إنه في السابعة والثمانين. في السابعة والثمانين وانظروا إلى ما جمع طوال سبعة وثمانين عاماً، إنه مُبعثر في الثلج كأحشاء دجاجة، ونحن حفنة من مطيعين للقانون، وكابحين للغضب، نقدّم خدّنا الآخر لكي نُضرَب كل يوم من أيام الأسبوع. فماذا سنفعل؟ ماذا يمكن لكم؟ ماذا يمكن لي، ماذا يمكن له أنْ يفعل؟ ***ماذا يجب أنْ نفعل؟*** أعتقد أننا نقوم بالعمل الحكيم، العمل الخاضع للقانون. فقط انظروا إلى هذه الخردة! هل يليق باثنين من العجائز أنْ يعيشا وسط مثل هذه الخردة، أنْ يُحشرا في غرفة قذرة؟ إنها تشكّل خطراً كبيراً، ومُعرّضة لاندلاع حريق! وأطباق قديمة مشروخة وكراسٍ متزعزعة. نعم، نعم، نعم! انظروا إلى تلك المرأة العجوز، إنها أمٌ، وربما جدّة. إننا ننادي أمثالها بـ «الأم الكبرى» وهنّ يُدلِّلننا و – كما تعلمون، كما تتذكرون... انظروا إلى لُحُفها وحذائها المشقوق. أنا أعلم أنها أمّ أحدهم لأنني رأيتُ مضخة ثدي قديمة في الثلج، وهي جدَّة أحدهم، لأنني رأيت بطاقة مكتوباً عليها «جدَّتي العزيزة»... لكننا مُطيعون للقانون... ونظرتُ داخل السلّة فرأيتُ بعض العِظام... إنَّ العجوزين كانا يرقصان... ورأيت – ما هو نوع عملك، يا أبت؟»

«أنا عامل في النهار...»

«... عامل في النهار، أسمعتم، ولكن انظروا إلى أغراضه المبعثرة كالسجق في الثلج... أين ذهب جهده كله؟ أهو يكذب؟»



«اللعنة، كلا، لا يكذب»

«كلا، حتماً!»

«إذن أين ذهب كل ذلك الجهد؟ انظروا إلى تسجيلاته من موسيقى البلوز وأُصص مزروعاته، إنهم قوم مرتبطون بوطنهم، كل ما رُميَ على الأرض كالخردة دارَ في إعصارٍ من سبعةٍ وثمانين عاماً. سبعة وثمانين عاماً، ***وبوووف!*** ذرَتْها عاصفة من الريح. انظروا إليهما، إنهما يُشبهان أمي وأبي وجدَّتي وجدّي، وأنا أُشبهكم وأنتم تُشبهونني. انظروا إليهما ولكن

تذكّروا أننا قوم حكماء، نرضخ للقانون. وتذكّروا هذا عندما تنظرون هناك إلى ممر الباب حيث يقفُ ممثل القانون شاهراً مسدسه. انظروا إليه، يقفُ مع مسدسه الفولاذيّ الأزرق وبذلته الجوخ الزرقاء. انظروا إليه! إنكم لا ترون فقط رجلاً واحداً يرتدي بذلة من الجوخ الأزرق، أو مسدساً واحداً، بل ترون عشرة مقابل كل واحد منا، عشرة مسدسات وعشر بذلات دافئة وعشرة بطون ضخمة وعشرة ملايين قانون. *القوانين*، هذا ما نُطلق عليهم هناك في الجنوب! القوانين! ونحن حكماء، ونذعن للقوانين. وانظروا إلى هذه المرأة العجوز مع كتابها المقدس بأوراقه البالية. ما الذي تحاول أنْ تُنقذ هنا؟ لقد جعلت ديانتها تؤثّر على عقلها، لكننا جميعاً نعلم أنَّ الدين مكانه القلب، وليس العقل. إنه يقول «طوبى لأنقياء القلوب». لم يذكر شيئاً عن ضعفاء العقول. ما الذي تحاول أنْ تفعل؟ ماذا عن صفاء العقل؟ وصفاء العين، والنظرة الباردة التي هي من فرط الصفاء بحيث لا تُخطئ أيّة كذبة؟ انظروا هناك إلى خزانتها بالفراغات التي تباعد بين أدراجها. لقد استغرق منها سبعة وثمانين عاماً لتملأها، وهي مملوءة بسقط المتاع، بكل ما هبّ ودبّ، وتريد أنْ تخرق القانون... ماذا دهاهما؟ إنهما أهلنا، أهلكم وأهلي، أقرباؤكم وأقربائي. ماذا دهاهما؟»

صرخ رجل ضخم الجثّة، اقتحم طريقه بين الحشد، بوجه يمور بالغضب، «أنا سأقول لك! اللعنة، لقد جُرِّدا من ممتلكاتهما، يا ابن القحبة المجنون، ابعد عن الطريق!»

صرختُ، رافعاً يدي وسامحاً للعبارة أنْ تخرج من عمق حنجرتي، «جُرِّدا من ممتلكاتهما؟ يا لها من عبارة جيدة،» جُرّدا من ممتلكاتهما!» «جُرِّدا من ممتلكاتهما»، سبعة وثمانون عاماً وجُرِّدا ممَّ؟ إنهما **لا يمتلكان** أي شيء، ولا يستطيعان *امتلاك* أي شيء، ولم يكونا ***يمتلكان*** يوماً أي شيء»، ودمدمتُ «فمَن الذي جُرِّدَ من ممتلكاته؟ نحن نُطيع القانون. فمَن الذي جُرِّدَ من ممتلكاته؟ أهو نحن؟ إنَّ هذين العجوزَين يقفان وسط الثلوج، لكننا هنا معهما. انظروا إلى متاعهما، ليس لديهما أي مُتنفَّس، ولا نافذة لنقل الأخبار منها ونحن هنا معهما. انظروا إليهما، ليس لديهما كوخ يصليان فيه أو مكان يغنيان فيه البلوز! إنهما يواجهان مسدساً ونحن نواجهه معهما. إنهما لا

يريدان العالم، بل فقط يسوع. يريدون فقط يسوع، فقط خمس عشرة دقيقة من يسوع على الأرضية العارية من أي بساط... ما رأيك في هذا، يا سيد قانون؟ هل حصلنا على الخمس عشرة دقيقة نصيبنا من يسوع؟ أنت حصلت على العالم، فهل نستطيع أنْ نحصل على يسوعنا؟»

هتف الرجل، ملوّحاً بالمسدس ساخراً، «أنا لديّ أوامري، أيها الأخ. إنكَ تُحسِن التصرُّف، اطلب منهم أنْ يُخرجوا أنفسهم من هذا الأمر. هذا عمل قانونيّ وسوف أُطلقُ النار إذا اضطررتُ إلى...»

«ولكن ماذا عن الصلاة؟»

«ممنوع أنْ يعودا!»

«أمتأكّدٌ أنت؟»

قال «تستطيع أنْ تُراهن بحياتك على هذا»

هتفتُ للحشد الغاضب «انظروا إليه. بمسدسه الفولاذيّ الأزرق وبذلته الجوخ الزرقاء. لقد سمعتم ما قال، إنه القانون. يقول إنه سيُطلق النار ويُردينا لأننا قوم نخضع للقانون. لذلك جُرِّدنا من ممتلكاتنا، وزيادة على ذلك، يعتقد أنّه الله. انظروا إليه وهو يستند إلى العمود وثمة مجرم على كلا جانبيه. ألا تشعرون بالريح الباردة، ألا تسمعونها تسألكم، «ماذا فعلتم بعملكم المُرهِق؟ ماذا فعلتم». عندما تنظرون إلى كل ما جنيتم على مدى سبعة وثمانين عاماً تشعرون بالخزي –»

قاطعني رجل عجوز «أخبرهم، يا أخي. إنه يجعلك تشعر بأنك لستَ إنساناً»

«نعم، هؤلاء العجزة كان لديهم كتاب أحلام، لكنَّ صفحاته امّحتْ وفشلتْ في منحهم الرقم. كان عنوانه «**العين المُشاهدة**»[33]. «**كتاب الأحلام الدستوري الكبير**»، «**أسرار إفريقيا**»، «**حِكمة مصر**» – لكنَّ العين عميَتْ، فقدتْ بريقها. أعتمتْ كعينَي نجّار أحْول، فلم تعُد ترى بشكل صحيح. إنَّ

33– «العين المُشاهدة»: هو دليل لمراكز تدريب الكلاب على مرافقة المعاقين. – المترجم

كل ما نملك هو الكتاب المقدَّس وهذا القانون يتحكَّم فيه. إذن إلى أين نذهب؟ إلى أين نتوجّه من هنا، من دون أصص -»

هتف ثقيل الوزن مندفعاً ليرتقي الـدّرَج «سوف ننقضّ على ذلك الأيرلندي»

دفعني أحدهم. هتفتُ «كلا، انتظر»

«ابتعد عن الطريق الآن»

انقضّوا عليّ فسقطت، وسمعتُ انفجاراً واحداً في الخلف داخل دوامة من السيقان المتداخلة، وفوق الأحذية، وشعرتُ بالثلج المُداس بارداً على يديّ. وهدر طلقٌ آخر فوقي كانفجار كيس مملوء بالهواء. ونجحت في النهوض، فرأيتُ في أعلى الدرَج قبضة اليد التي تحمل المسدس موجّهة نحو الهواء فوق رؤوس الحشد المتقافزة وفي اللحظة التالية كانوا يجرّونه نحو الأسفل إلى الثلج؛ ويلكمونه يساراً ويميناً، ويتلفظون بالسباب السافل المتوتر جرّاء الجهد اليائس؛ وانفجر النخر ليتحول إلى ألف بصقة خفيفة، ولعنات مشحونة بالحقد. ورأيتُ امرأة تضرب بالكعب المُدبَّب لحذائها، ووجهها كقناع خالٍ من التعبير بعينين سوداوين جوفاوين وهي تُسدد وتضرب، تُسدّد وتضرب، وتجعل الدم ينبجس، ويتدفق إلى جانب الرجل الذي جُرَّ عندئذٍ ليقف على قدميه وهم يُكيلون له الضربات بالتناوب كأنهم يضعون قفازات ملاكمة. وفجأة رأيتُ أصفاداً تلمع في الهواء عبر الشارع. خرج فتى من الحشد، مُعتمراً قبعة رجل الأمن الأنيقة. وكان رجل الأمن يدور إلى هذه الجهة وتلك، ومن ثم انهال عليه وابل من الضربات لاحقته على طول الشارع. كدتُ أخرج عن طوري من فرط الإثارة. واندفع الحشد نحوي، كرجل ضخم يُحاول أنْ يستدير في مكان ضيق - بعضهم يضحك، وبعضهم يلعن، وبعضهم يلزم الصمت المُطبق.

هتفت المرأة الهندية الغربية «الحيوان ضرب المرأة الرقيقة، المسكينة! أيها السود، هل سبق أنْ رأيتم مثل ذلك الحيوان؟ هل تعتبرونه رجلاً محترماً، أسألكم؟ الحيوان! ردوا له الصاع صاعين، أيها السود. ردوا له الصاع ألف صاع! ردوه له حتى الجيل الثالث والرابع. اضربوه، يا رجالنا

السود الأشدّاء. احموا نساءكم السود! ردوه لهذا المخلوق المتغطرس حتى الجيل الثالث والرابع!»

هتفتُ بأعلى صوتي «لقد جرّدونا من ممتلكاتنا، جرّدونا ونريد أنْ نصلّي. فلندخل ونصلّي. فلنُقِمْ صلاة جماعية كبرى. ولكننا سنحتاج إلى كراس نجلس عليها... لنرتاح عليها ونحن راكعون. سوف نحتاج إلى بعض الكراسي!»

هتفت امرأة من الرصيف «ها هنا توجد بعض الكراسي. ما رأيكم أنْ نُدخِل بعض الكراسي؟»

هتفت «حتماً، أدخلوا كل شيء. كل شيء، أخفوا تلك الخردة! أعيدوها إلى المكان الذي أُخِـذَتْ منه. إنها تسدّ الشارع والرصيف، وهذا ضد القانون. نحن قوم نطيع القانون، فنظفوا الشارع من سقط المتاع هذا. أخفوه عن الأنظار! أخفوه، أخفوا عارهما! أخفوا ***عارنا!***

صحتُ، «هيا، يا رجال»، مندفعاً إلى أسفل الدّرَج وقبضتُ على كرسيّ وعدتُ أدراجي، ولم أعد أُقاوم أو أفكّر في طبيعة عملي. وحذا الآخرون حذوي، حاملين قطعاً من الأثاث ليعيدوها إلى داخل المبنى.

قال رجل «كان ينبغي أنْ نفعل هذا قبل زمن بعيد»

«كان علينا أنْ نفعل حتماً»

قالت امرأة «أنا أشعر بانتعاش، أشعر بانتعاش ***شديد!***»

صاحت امرأة الهند الغربية «أيها الرجال السود، أنا فخورة بكم، فخورة!»

اندفعنا إلى الشقة الصغيرة المُظلمة التي فاحت برائحة الملفوف البائت ووضعنا القطع وعدنا لنجلب المزيد. حمل الرجال، والنساء، والأطفال أغراضاً واندفعوا إلى الداخل هاتفين، وضاحكين. ورحت أبحث عن السجينين الموثوقين، ولكن بدا أنهما اختفيا. ثم خيِّل إليّ أنني رأيت أحدهما ينزل إلى الشارع، ليُعيد كرسياً إلى الداخل.

هتفت «أنت أيضاً تطيع القانون»، ولكن اتّضح أنه شخص آخر. كان رجلاً أبيض ولكنه شخص آخر تماماً.

ضحك الرجل مني وتابع طريقه إلى الداخل. وعندما وصلتُ إلى الشارع كان هناك عددٌ منهم، رجالاً ونساء متفرقين، يهتفون كلما أُعيدت قطعة أخرى من الأثاث. كأننا كنا في عطلة. ولم أرغب في أنْ تنتهي.

هتفتُ من أعلى الدّرَج «مَنْ هؤلاء الناس؟»

ردَّ أحدهم هاتفاً «أي ناس؟»

قلت، مشيراً «*أولئك*»

«أتعني أولئك البيض؟»

«نعم، ماذا يريدون؟»

هتف أحد البيض «نحن أصدقاء للقوم»

هتفت، «أصدقاء لأي قوم؟»، وأنا أتوثّب لأقفز عليه إذا أجاب بـ «*أنتم* أيها القوم»

صاح «نحن أصدقاء *لكل* الناس العاديين»

صحت «حسن، ارفع هذه الأريكة الكبيرة وتعال». كنتُ منزعجاً من وجودهم وخاب أملي عندما انضموا جميعاً إلى الحشد وبدأوا يُعيدون الأغراض التي أُخليَتْ إلى أماكنها في الداخل. أين سبق أن سمعت عنهم؟

هتف أحد البيض، في أثناء مروره بي، «لِمَ لا نُعدّ مسيرة؟»

هتفت من الرصيف قبل أنْ أفكّر في الأمر «لِمَ لا نقوم بمسيرة!»

وقبلوا الفكرة في الحال.

«فلنقُم بمسيرة...»

«فكرة جيدة»

«فلنقُم بمظاهرة...»

«لنقُم باستعراض!»

سمعتُ صافرة الإنذار ورأيتُ سيارات الدورية تتوقف أمام المبنى في اللحظة نفسها. إنها الشرطة! نظرتُ إلى الحشد، مُحاولاً أنْ أُركِّز على وجوههم، وأنا أسمع أحدهم يصرخ «ها قد جاءت الشرطة» ويُجيب آخر «فلتأت!»

قلت في نفسي، عندما رأيتُ رجلاً أبيض يهرع إلى داخل المبنى واندفع رجالُ الشرطة من سياراتهم ويسرعون بارتقاء الدّرَج، «إلى أين سيؤدي هذا كله؟»

هتف ضابط يحمل ترساً ذهبياً من أعلى الدّرَج «ما الذي يجري هنا؟»
كان الصمت قد ران. لم يُجِب أحد.
كرر «قلت ما الذي يجري هنا»، ثم هتف «أنتَ» مُشيراً إليّ مباشرة.
هتفتُ، والتوتّر في داخلي، «كنا... كنا ننظف الرصيف من أكوام الخردة»
قال «ماذا تقول؟»
هتفت، مع رغبة في الضحك، «إنها حملة تنظيف. هؤلاء العجائز كوّموا أغراضهم على الرصيف ونحن ننظف الشارع...»
هتف، مُحدّقاً عبر الحشد، «تعني أنك تتدخل في عملية الإخلاء»
هتفت امرأة من خلفي «إنه لا يفعل أي شيء»
تلفّتُّ حولي، كان الدّرَج ممتلئاً بالذين كانوا في الداخل.
هتف أحدهم، مع ازدحام الحشد، «نحن كلنا معاً»
أمر الضابط «اخلوا الشوارع»
هتف أحدهم من بين الحشد في الخلف «هذا ما كنا نفعل»
جأر لرجل شرطة آخر «ماهوني! أرسل نداء الشغب!»
هتف له أحد البيض «أي شغب؟ ليس هناك شغب»
قال الضابط «إذا قلتُ إنَّ هناك شغباً، فهناك شغب. ثم ماذا تفعلون أنتم البيض هنا في هارلم؟»
«نحن مواطنون، نذهب حيث نشاء»
هتف أحدهم «انظروا! ها قد جاء المزيد من رجال الشرطة!»
«فليأتوا!»
«فليأتِ المفوَّض!»
لم أعُد أحتمل. كان الوضع كله قد خرج عن السيطرة. ما الذي قلتُه حتى تسبّبتُ في هذا كله؟ وانسحبتُ إلى آخر الحشد المتجمع على الدّرَج وتراجعتُ إلى الرواق. إلى أين سأذهب؟ وهرعتُ أرتقي إلى شقّة العجوزين. قلت في نفسي، عائداً إلى الدّرَج، ولكن لا أستطيع أنْ أختبئ هنا.
قال صوت «كلا. لا يمكنك أنْ تذهب من هذا الاتجاه»

درتُ حول نفسي. كانت فتاة بيضاء واقفة عند الباب.

هتفتُ، وقد تحول خوفي إلى غضب محموم، «ما الذي تفعلينه هنا؟»

قالت «لم أقصد أنْ أجعلك تجفل، يا أخي، لقد ألقيتَ خطاباً مفوَّهاً. لم أسمع إلا نهايته، لكنكَ حتماً حرّكتهم ودفعتَهم إلى العمل...»

قلت «العمل، العمل –»

قالت «لا تتواضعِ، يا أخي، لقد سمعتُكَ»

أخيراً قلتُ متحكِّماً في اضطراب حنجرتي «اسمعي، يا آنسة، يُستحسن أنْ نخرج من هنا. هناك الكثير من رجال الشرطة في الطابق السفلي ومزيدٌ منهم قادمون»

قالت «آه، نعم. من الأفضل أنْ نذهب من السطح، وإلا استهدفك أحدهم»

«من فوق السطح؟»

«الأمر سهل. فقط اصعد إلى سطح المبنى وواظب على العبور إلى أنْ تصل إلى آخر المجمَّع. ثم افتح الباب واخرج كأنك كنتَ تقوم بزيارة أحدهم. يُستحسن أنْ تُسرِع. كلما طالت فترة بقائك مجهول الهوية بالنسبة للشرطة، طالت فترة فعاليتك»

قلت في نفسي، فعالية؟ ماذا تقصِد؟ وما قصة «أخي» التي تخاطبني بها؟

قلت «شكراً لك»، وهرعت أرتقي الدّرَج.

ارتفع صوتها متدفقاً خلفي «وداعاً». التفتُّ فلمحتُ وجهها الأبيض في عتمة ممر الباب المُظلم.

اجتزت مطلع الدرج دفعة واحدة ثم فتحت الباب بحذر. وفجأة بهرتْني أشعةُ الشمس على السطح وكانت الريح عاصفة وباردة. أمامي كانت الجدران المنخفضة المكسوة بالثلج تقسِّم الأبنية الممتدة على شكل حاجز على طول المُجمَّع وحتى المنعطف، وأمامي حبال غسيل خالية ترتجف في وجه الريح. شققتُ طريقي خلال الثلج الذي حفرته الرياح إلى السطح التالي ومن ثم الذي بعده، متنقّلاً بحذر سريع. كانت طائرات تُقلِعُ فوق المطار بعيداً جهة الجنوب الشرقي، وعندئذٍ كنتُ أركضُ وأرى كل أبراج الكنيسة ترتفع

وتنخفض ومجموعات من المداخن تنفثُ دخاناً تبرزُ أمام صفحة السماء، وفي الأسفل في الشارع كان زعيق صفارات الإنذار والصراخ. وأسرعت. ثم، وأنا أرتقي الجدار نظرت خلفي، فرأيت رجلاً يركض في إثري، ينزلق، ويزحف، ويتجاوز الجدران المنخفضة التي تقسم الأسطح وهو يلهث، ويبذل جهداً مُضنياً. استدرتُ وركضتُ، محاولاً أنْ أجعل صفوف المداخن حائلاً بيننا، ومتسائلاً لِمَ لم يصِح «قِفْ!» أو يصرخ، أو يُطلق الرصاص. ركضتُ، مُخلفاً ورائي مطلع المصعد، ومن ثم مُندفعاً إلى السطح التالي، وهابطاً، والثلج بارد على يديّ، ورُكبتاي ترتطمان، وأصابع قدميّ منقبضة، ثم أرتقي وأركض وأنظر خلفي، لأرى شخصاً قصير القامة يرتدي الأسود لا يزال يركض في إثري. بدا المنعطف كأنَّه يقع على بُعد ميل. حاولتُ أنْ أحصي عدد الأسطح التي تقع أمامي وعليَّ أنْ أتجاوزها. وصلتُ إلى السابع، وركضتُ، أسمع صياحاً، والمزيد من صفارات الإنذار، وأنظر خلفي ولا يزال في إثري - يركض متعثراً بساقيه القصيرتين، ولا يزال في إثري وأنا أحاول أنْ أفتح باب أحد الأبنية لكي أهبط فأجده مُستعصياً فأركض من جديد، أحاول أنْ أراوغَ في مساري في الثلج وشاعراً بالحصى تُسحَق تحت قدميّ، ولا يزال خلفي وأنا أقفز متجاوزاً حاجزاً وأحفّ ببرج حمام كبير فأُثير سرباً من الطيور البيضاء المذعورة، ظهرت فجأة كبيرة كالصقور وضربت عينيّ بغضب، جاعلة الشمس مُبهرة وهي ترفرف مرتفعة ومبتعدة ومنعطفة بانزلاق حانق وأنا أركض من جديد وأنظر خلفي مُعتقداً لجزء من الثانية أنه رحل ثم أراه من جديد يبرز فجأة خلفي. لِمَ لا يُطلق الرصاص؟ لمَ؟ ليت الأمر يجري كما في الوطن حيث أعرفُ شخصاً في *كل* منزل، أعرفهم بالشكل وبالاسم، بالسلالة وبالسيرة، بالعار وبالكبرياء، وبالدِين.

كان رواقاً مكسواً بالسجاد وتقدّمتُ بقلب يضرب بقوة لأنه في الشقّة العليا كان هناك عرين كلب مخيف. ثم تقدّمتُ بسرعة، وكأنَّ داخل جسمي مصنوع من زجاج وأنا أقفز هابطاً بعيداً عن حواف الدّرَج. وعندما نظرت إلى أسفل بئر الدرَج رأيتُ ضوءاً خافتاً ينفذ من خلال زجاج الباب، في الأسفل البعيد. ولكن ماذا حدث للفتاة، أتُراها هي التي أرسلت الرجل في إثري؟ وماذا تفعل هناك؟ ورحتُ أقفز هابطاً، لا أحد يتحداني، وتوقفتُ في الردهة

المسقوفة، أتنفّسُ بعمقٍ وأُصغي إلى يده تضرب الباب فوق وأرتّب من شأن ملابسي. ثم هبطتُ الشارع بهيئة لا مبالاة استعرتُها من شخصيات كنتُ قد شاهدتها في الأفلام السينمائية. لا صوت يندّ عن فوق، ولا حتى انتباه الكلب النابح الخبيث.

كان مجمّعاً طويلاً وكنتُ قد هبطتُ إلى مبنى لا يواجه الشارع بل الجادة. اندفعتْ فرقة من رجال الشرطة الخيّالة عند المنعطف وخبّت مارة، ووقع نِعال الجياد مكتوماً على الثلج، والرجال يرتفعون عالياً على صهواتها، يصيحون. أسرعتُ خطاي، حريصاً على ألا أركض، مبتعداً. كان ذلك شيئاً رهيباً. ما الذي قلته بحق الله لأثير هذا كله؟ وكيف سينتهي؟ قد يُقتَل أحدهم. سوف تحصد المسدسات الرؤوس. توقفت عند المنعطف، أبحث عن الرجل الذي يُلاحقني، البوليس السري، وعن حافلة. كان الشارع على طول امتداده خالياً، والحمام المُستفَز كان لا يزال يحوم فوق الرؤوس. استعرضتُ الأسطح، متوقعاً أنْ أراه يتلصص عليّ. استمر صدى الصياح في الارتفاع، ثم وصلت سيارة دورية بيضاء وخضراء أخرى عند المنعطف وأسرعت مارة بي، متوجهة نحو المجمع السكني. اخترقت مُجمّعاً يحتوي عدداً من صالات للمآتم، وكل منها مرصّعة بلافتات النيون، وكلها مُقامة في أبنية قديمة من الحجر البنيّ. واصطفت سيارات جنازات أنيقة على طول حافة الرصيف، إحداها سيارة سوداء كئيبة بنوافذ على شكل أقواس قوطيّة، رأيتُ داخلها أزهار الجنازة مكدّسة داخل سِلال. وتابعت سيري مُسرعاً.

كان وجه الفتاة لا يزال يتراءى لي، تحت مطلع الدّرَج القصير. ولكن مَنْ ذاك الذي اجتاز الأسطح خلفي؟ طاردني؟ لِمَ كان يلزم الصمت التامّ، ولِمَ كان هناك واحد فقط؟ نعم، ولِمَ لم يُرسلوا سيارة دورية للقبض عليّ؟ هرعت أخرج من مُجمّع صالات المآتم إلى الشمس الساطعة التي اكتسحت ثلج الجادّة، وبعد ذلك أبطأتُ حتى مستوى سير الهوينا، محاولاً أنْ أُعطي انطباعاً بأنني لستُ مُستعجلاً على الإطلاق. تقتُ إلى أنْ أبدو أحمق، وعاجزاً تماماً عن الكلام والتفكير، وحاولت أنْ أجرّ قدميّ جراً على الرصيف، لكنني تخليتُ عن ذلك بامتعاض بعد أنْ استرقتُ نظرة خلفي. وأمامي رأيتُ سيارة تتوقف ويقفز منها رجل حاملاً حقيبة طبيب.

هتف رجلٌ من رواق مدخل بناء «أسرع، دكتور، لقد بدأ طلقُها!»
هتف الطبيب «جيد. هذا ما كنا ننتظره، أليس كذلك؟»
«نعم، لكنّه لم يبدأ في الوقت الذي توقّعنا»
راقبتهما يختفيان داخل الردهة. قلت في نفسي، يا له من وقت غير مناسب للولادة. وعند زاوية الطريق انضممتُ إلى عدد من الأشخاص ينتظرون تبدُّل ضوء إشارة المرور. وكنتُ قد أقنعت نفسي تواً بأنني نجحت في الفرار عندما قال صوت هادئ، نافذ إلى جواري «لقد كان ذلك اقتناعاً رائعاً، يا أخي»
وفجأة درت بحزم كرقّاص مشدود والتفتُّ بشبه لا مبالاة. كان رجلٌ قصير القامة بسيط كثّ الحاجبين، يقفُ إلى جواري مع ابتسامة هادئة، لا يبدو على الإطلاق أنه رجل شرطة.
سألت، بصوت كسول، ناء، «ماذا تعني؟»
قال «لا تخف، أنا صديق»
«ليس لدي ما أخشاه، وأنت لست صديقي»
قال بدماثة «إذن قُل إنني مُعجَب»
«مُعجب بمَ؟»
قال «بخطابك. كنتُ أستمع»
قلت «أي خطاب؟ أنا لم أُلقِ أي خطاب»
ابتسم ابتسامة العارف. «أرى أنك تلقّيت تدريباً جيداً. هيا، ليس في مصلحتك أنْ تُشاهَد معي في الشارع. فلنذهب إلى مكان ما ونشرب فنجان قهوة»
شيء ما داخلي أمرني بأنْ أرفض، لكنني كنتُ مأسوراً وأيضاً، تحت ذلك كله، ربما شعرت بالإطراء. ثم إنني إذا رفضتُ أنْ أرافقه فسوف يُفهَم أنني أعترف بالذنب. وهو لم يبدُ أنه من رجال الشرطة أو البوليس السري. مشيتُ بصمت إلى جواره إلى كافيتيريا في آخر المُجمَّع، ورأيته يُلقي نظرة إلى داخلها من خلال الواجهة قبل أنْ نلجها.
«احجز لنا طاولة، يا أخي. هناك بجوار الجدار حيث يمكن أنْ نتحدث بهدوء. وسوف أجلب القهوة»

راقبته يعبر المكان بخطى قافزة، مرحة، ثم وجدتُ الطاولة وجلستُ أراقبه. كان الجو في الكافيتيريا دافئاً. وكان الوقت أواخر بعد الظهيرة ولا يوجد إلا عدد قليل من الزبائن موزَّعين على الطاولات. راقبتُ الرجل يذهب إلى نضد الطعام ويُملي الطلبات كأنه متآلف مع المكان. كانت حركاته، وهو يُنعِم النظر في أرفف المعجنات المُضاءة بأنوار برّاقة، تشبه حركات حيوان صغير مفعم بالحيوية، أو جرو، مُهتم فقط بتقصّي قطعة معيَّنة من الكيك. قلت في نفسي، وأنا أراه يقترب مني بخطوة قافزة، سريعة، مرحة ورشيقة، وكأنه علَّم نفسه السير بتلك الخطوة، إذن لقد سمع خطابي؛ حسن، سوف أُصغي إلى ما لديه. وانتابني إحساس بأنه بصورة ما يؤدي دوراً تمثيلياً؛ بأنَّ شيئاً فيه ليس واقعياً حقاً - وهي فكرة طرحتها من ذهني في الحال، لأنَّ فترة بعد الظهيرة برمّتها كانت مطبوعة بسِمةٍ غير واقعية. اقترب مباشرة من الطاولة من دون أنْ يُضطر إلى البحث عني، وكأنه توقّع أنْ أحجز تلك الطاولة بالذات دون غيرها - على الرغم من وجود عدد من الطاولات الشاغرة. كان يوازن طبق الكيك على قمة كل فنجان، ثم وضعها بأناقة ودفع واحداً نحوي وقرّب كرسيه.

قال «فكّرتُ في أنك ربما ترغب في قطعة من كيك الجبن»

قلت «كيك الجبن؟ لم أسمع بها من قبل»

«إنها لذيذة. أتريد سُكراً؟»

قلت «نعم»

«كلا، بعدك، يا أخي»

نظرتُ إليه، ثم أضفت مقدار ثلاث ملاعق ودفعت الزجّاجة نحوه. كان التوتّر قد عاودني.

قلت «شكراً»، كابحاً رغبة شديدة في أنْ أعبِّر له عن استهجاني لاستخدامه كلمة «أخي».

ابتسم، وهو يقطع نصيبه من الكيك بشوكة ويدفع بقطعة كبيرة جداً إلى فمه. قلت في نفسي، محاولاً أنْ أحطّ من قدره في ذهني بتناولي قطعة صغيرة من كيك الجبن ووضعها بأناقة في فمي، إنَّ سلوكه فظ جداً.

قال، متناولاً جرعة كبيرة من القهوة، «في الواقع، لم أسمع مثل تلك المقطوعة المؤثّرة من الفصاحة منذ أنْ كنتُ في – يعني، منذ وقت طويل. لقد دفعتَهم بسرعة كبيرة إلى الفعل. إنني لا أفهم كيف نجحت في ذلك. ليت بعضاً من خطبائنا كانوا يستمعون! لقد جعلتهم ببضع كلمات يلجأون إلى الفعل! الآخرون كانوا سيضيِّعون الوقت بالحشو الفارغ. أنا أريد أنْ أشكرك على أشدّ ما مررتُ به من تجارب تثقيفاً!»

شربتُ قهوتي في صمت. ليس لأني لم أثق به، بل لم أدرِ كم أستطيع أنْ أقول وأبقى في الأمان.

قال قبل أنْ أتمكن من إعطاء جواب «كيك الجبن الذي يُقدمونه هنا لذيذ. بل لذيذ جداً. وبالمناسبة، أين تعلّمت فن الخطابة؟»

قلت، أسرع مما ينبغي، «لم أتعلمه من أحد»

«إذن فأنت صاحب موهبة عالية. أنت فطريّ. من الصعب تصديق هذا»

قلت، «كنتُ ببساطة غاضباً»، مُقرراً أنْ أعترف إلى هذه الدرجة لكي أرى السرّ الذي سيكشف عنه.

«إذن فقد سيطرتَ على غضبك بمهارة بالغة. فعلتَ ذلك ببلاغة. وما السبب؟»

«السبب؟ أعتقد أنه إحساسي بالرثاء – لا أعلم. ربما شعرت فقط برغبة في إلقاء خطاب. لقد كان هناك جمهور ينتظر، فخرجَتْ مني بضع كلمات. قد لا تصدّق، ولكن لم أكن أعلم ماذا سأقول...»

قال، مع ابتسامة العارف، «أرجوك»

قلت «ماذا تعني؟»

«إنك تحاول أنْ تبدو ساخراً، لكنني أرى دخيلتك. أنا أعلم، لقد أصغيتُ بانتباه شديد إلى ما قلتَ. لقد كنتَ متأثّراً غاية التأثّر. وكانت انفعالاتك مُثارَة»

قلت «أعتقد ذلك. لعلَّ مشهدهم ذكّرني بشيء ما»

مال إلى الأمام، وأخذ يُمعن النظر إليّ، والابتسامة لا تزال على شفتيه.

«هل ذكّركَ بأناسٍ تعرفهم؟»

قلت «أعتقد ذلك»

«أعتقد أني أفهم. لقد كنتَ تراقب موت –»

أسقطتُ شوكتي. قلت بحدّة «لم يُقتَل أحد. ماذا تحاول أنْ تفعل؟»

«*موت على أرصفة المدينة* – هذا هو عنوان قصة بوليسية أو ما شابه قرأتها في مكان ما...» وضحك. أنا أتكلّم مَجَا- زاً فقط. إنهم يعيشون، لكنهم كالموتى. موتى أحياء... جمع الضدّين»

قلت «أوه». أي نوع من الكلام المراوغ هذا؟

«إنَّ العجائز هم من الأنواع الهلامية، في الواقع. إنَّ الظروف الصناعية تسحقهم، ترميهم فوق الزبالة وتطرحهم جانباً. وقد بيَّنت أنت هذا بجلاء. قلت «سبعة وثمانون عاماً ذهبت هباءً». وأنت على صواب من دون أدنى شك»

قلت «أعتقد أنني عندما رأيت ذلك حالهم شعرت بالأسى لأجلهم»

«نعم، طبعاً. وألقيتَ خطاباً مؤثّراً. ولكن لا ينبغي أنْ تُبدّد انفعالاتك على الأفراد، إنهم غير مهمين»

قلت «فمن هو المهم إذن؟»

قال باشمئزاز «أولئك العجائز. حالهم مُحزِن، نعم. ولكنهم في عِداد الموتى، البائدين. لقد تجاوزهم التاريخ. ومن المؤسف أنه لا يوجد ما يمكن فعله من أجلهم. إنهم كالأغصان الميتة التي ينبغي أنْ تُبتر لكي تحمل الشجرة ثماراً غضّة وإلا أطاحت بهم عواصف التاريخ في كل الأحوال. يُستحسن أنْ تأتي عاصفة وتطيح بهم –»

«ولكن اسمع –»

«كلا، دعني أُكمِل. إنَّ أولئك الناس عجائز. إنَّ الناس يتقدمون في السن وأنماطاً منهم تتقدم في السن. وهؤلاء طاعنون في السن. وكل ما خلّفوه هو ديانتهم. وهذا كل ما يفكرون فيه. لذلك سوف يُنحّون جانباً. إنهم موتى، كما ترى، لأنهم غير قادرين على الارتقاء إلى مستوى ضرورة الوضع التاريخي»

قلت «لكنني *أحبهم*. أحبهم، ويُذكرونني بالقوم الذين أعرفهم في الجنوب. وقد استغرق مني الإحساس بهذا وقتاً طويلاً، لكنهم أناس مثلي، لولا أنني ارتدتُ المدرسة بضع سنين»

هزَّ رأسه الأحمر المستدير. «أوه، كلا، يا أخي؛ أنت مُخطئ وعاطفي. أنت تُشبههم. لعلك كنتَ مثلهم، لكنك لم تعُد كذلك. وإلا لما ألقيتَ ذلك الخطاب، لعلك كنتَ مثلهم، ولكن أصبح هذا من الماضي، مات. لعلك لا تلاحظ الآن، لكنَّ ذلك الجزء منك مات! وأنت لم تتخلَّ كلياً عن تلك الذات، تلك الذات الهُلاميّة القديمة، لكنها ماتت وسوف تتخلّص منها كلها ويظهر بدلاً عنها شيء جديد. لقد وُلِدَ *التاريخ* في عقلك»

قلت «اسمع، لا أفهم عما تتحدث، أنا لم أعِش قط في مزرعة ولم أدرس الزراعة، لكنني أعلم لماذا ألقيتُ ذلك الخطاب»

«لماذا إذن؟»

«لأنني كنتُ غاضباً لرؤيتي أولئك العجائز يُطرَدون إلى الشارع، هذا هو السبب. ولا يهمني ماذا تسمي *أنت* ذلك، لقد كنتُ غاضباً»

هزّ كتفيه باستخفاف. قال «لا داعي للتنازع حول هذا. لدي إحساس بأنَّ في استطاعتك أنْ تقومَ به من جديد. لعلك تهتم بالعمل لمصلحتنا»

سألتُ، وقد ثار اهتمامي فجأة، «لمصلحة مَنْ؟». ماذا كان يُحاول أنْ يفعل؟

قال «مع منظمتنا. نحن في حاجة إلى خطيب مفوَّه لهذه المنطقة. إلى شخص يمكنه أنْ يُعبِّر بوضوح عن آلام الناس»

قلت «ولكن لا أحد يأبه بآلامهم. ولنفرض أنني عبّرتُ عنها، فمَن سيُصغي أو يهتم؟»

قال مع ابتسامته العارفة «موجودون. إنهم موجودون، وعندما تهدر صرخة الاحتجاج، فهؤلاء هم الذين سيسمعونها ويتحركون»

كان في الطريقة التي تحدَّثَ بها شيء غامض وينمُّ عن الاعتداد بالنفس، وكأنه أعدَّ لكل شيء – كل ما كان يتحدث عنه. قلت في نفسي، انظر إلى هذا الرجل الأبيض من دون أدنى شك. إنه لم يكن حتى يُدرك أنني خائف ومع ذلك يتكلَّم بكل ثقة. نهضتُ واقفاً. قلت «أنا آسف، لدي عمل ولستُ مهتماً بآلام أي شخص آخر غير نفسي...»

قال وهو يُضيِّق عينيه «لكنكَ كنتَ مهتماً بالعجائز. أهم من أقاربك؟»

قلت، وبدأت أضحك «طبعاً، فكلنا من السود»

ابتسم، وثبَّتَ نظرته على وجهي.

«فلنكن جدّيين، أحقاً هم من أقاربك؟»

قلت «طبعاً، لقد احترقنا في الأتون نفسه»

كان التأثير صاعقاً. قال ساخراً، وعيناه تتلظيان بالغضب، «لماذا تتكلمون دائماً بلغة العِرق!»

قلت، محتاراً، «وهل تعرف لغة أخرى؟ أتعتقد أنني كنتُ بقيتُ هناك لو أنهم كانوا من البيض؟»

رفع كلتا يديه وضحك. قال «لا داعي للتنازُع حول هذا الآن. لقد كنتَ شديد الفعالية في مساعدتهم. ولا أصدِّق أنك أنانيّ كما تدّعي. أنت تبدو كرجلٍ يعرف واجبه تجاه الناس ويؤديه على أكمل وجه. ومهما كان رأيك في هذا شخصياً، فإنك كنتَ المتحدث باسم قومك ولديك واجب يجب أنْ تؤديه لمصلحتهم»

كان شديد التعقيد بالنسبة إليّ. «اسمع، يا صديقي، شكراً لك على القهوة وعلى الكيك. لم يعد لديّ أي اهتمام بأولئك العجائز ولا بعملك. لقد رغبتُ في إلقاء خطاب. أنا أُحبّ أنْ أُلقي الخُطب. وكل ما يحدث بعد ذلك مُبهم بالنسبة إليّ. لقد انتقيتَ الشخص غير المناسب. كان ينبغي أنْ تستوقف أحد أولئك الذين أخذوا يصرخون في وجوه رجال الشرطة...» ونهضتُ واقفاً.

قال، وهو يقدّم لي قطعة من ظرف عليه كتابة، «انتظر لحظة، قد تغيِّر رأيك. أما بالنسبة إلى الآخرين، فأنا أعرفهم»

نظرتُ إلى الورقة البيضاء في اليد الممدودة إليّ.

قال «أنتَ حكيم في عدم ثقتك بي. فأنت لا تعرف مَنْ أنا ولا تثق بي. وهذا ما يجب أنْ يكون. لكنني لا أتخلّى عن الأمل، لأنك ذات يوم سوف تأتي إليّ من تلقاء ذاتك وسوف يكون الوضع مختلفاً، ذلك أنك حينئذٍ سوف تكون مستعداً. اتصل على هذا الرقم فقط واسأل عن الأخ جاك. لا

داعي إلى أنْ تُعطي اسمك، فقط اذكر حديثنا. إذا اتخذتَ قرارك هذا المساء، اتصل بي هاتفياً عند حوالي الساعة الثامنة»

سألتُ، متناولاً الورقة، «حسن، إنني أشكّ في أنني سأقرأ ما عليها، ولكن مَنْ يدري؟»

«حسن، فكّر في الأمر، يا أخي. الأحوال خطيرة وأنت تبدو ساخطاً»

قلت من جديد «إنَّ كل ما رغبتُ فيه هو أنْ ألقي خطاباً»

قال «لكنكَ كنتَ ساخطاً. وأحياناً يكون الفرق بين السخط الفردي والسخط المُنظَّم كالفرق بين الفعل الإجرامي والفعل السياسي»

ضحكتُ. «فما معنى هذا؟ أنا لستُ مجرماً ولا سياسياً، يا أخي. لذلك أنت انتقيتَ الشخص غير المناسب. ولكن شكراً لك من جديد على القهوة وعلى كيك الجبن - *يا أخي*»

تركتُه جالساً وابتسامةٌ هادئة على وجهه. وعندما اجتزت الجادّة نظرتُ عبر الزجاج، فوجدتُ أنه لا يزال هناك، واكتشفتُ أنه هو الرجل نفسه الذي كان يُلاحقني فوق السطح. فهو لم يكن يُطاردني على الإطلاق بل كان فقط ذاهباً في الاتجاه نفسه. ولم أكن قد فهمتُ معظم ما قال، كل ما فهمت هو أنه تكلّم بثقة كبيرة. على أية حال، لقد أحسنتُ التصرّف. ربما كانت خدعة من نوع ما. لقد أعطى الانطباع بأنه يفهم الكثير وأبدى معرفةً أعمق بكثيرٍ مما بدا على سطح كلماته. لعلها فقط المعرفة التي هربت من الطريق نفسه الذي هربتُ منه. ولكن ماذا لديه هو يخاف منه؟ أنا الذي ألقيتُ الخطاب، لا هو. لقد قالت الفتاة في الشقة إنه كلما طالت فترة اختبائي أكون فعّالاً أكثر. فعّالاً في ماذا؟ لا ريب في أنه كان يضحك مني. لابد أنني بدوتُ سخيفاً وأنا أهرول عبر الأسطح، وأُشبه الممثل الكوميدي ذا الوجه المدهون بالأسود الذي ينكمش عندما يرى شبحاً عندما انتفض الحَمام الأبيض من حولي. فليذهب إلى الجحيم. لم يكن في حاجة إلى أنْ يبدو شديد الاعتداد بنفسه، إنني أعرف أشياء لا يعرفها. فليبحث عن شخص آخر. كل ما أراد مني هو أنْ يستغلّني لغرضٍ في نفسه. الجميع يُريدون أنْ يستغلوك لغرض ما. لِمَ يريد مني *أنا* أنْ أكون خطيباً؟ فليُلقِ خُطبه بنفسه. وتوجّهت إلى المنزل، شاعراً برضا متزايد لأنني نفضتُ يدي منه تماماً.

كان الظلام قد بدأ يحل حينئذٍ، والجو يُصبح أكثر برودة. أشدّ برودة مما شعرت به في أي وقت آخر. قلت في نفسي، وأنا أحني رأسي في وجه الريح، ما الذي بحق الله يجعلنا نتخلّى عن الطقس الدافئ، المعتدل، للوطن من أجل كل هذا البرد، ولا نعود أبداً، إذا لم يكن شيئاً يستحق أنْ نضع أملنا فيه، أنْ نتجمد من أجله، بل وأنْ نُطرَد من أجله؟ شعرت بالحزن. مرّت بي امرأة عجوز محنية الظهر تحمل كيسين من المشتريات، وعيناها على الرصيف اللزج، وتذكّرت الزوجين العجوزَين في عملية الإخلاء. تُرى كيف انتهى الأمر وأين هما الآن؟ يا لها من مشاعر مُعذّبة. ماذا سمّاها - موت على أرصفة المدينة؟ كم مرة وقعت مثل هذه الأحداث؟ وماذا كان يمكن أنْ يقول عن ميري؟ لقد كانت أبعد ما يمكن عن الموت، أو عن سحق نيويورك لها. اللعنة، لقد كانت تعرف جيداً كيف تعيش هنا، أفضل بكثير مني مع كل تحصيلي العِلمي - تحصيل! *على يد بليدسو*، هذا هو التعبير الصحيح. وكنتُ الوحيد الذي سُحِقَ، وليس ميري. وقد جعلني التفكير أشعر بتحسُّن. لم أستطع أنْ أتخيَّل ميري عاجزة كالمرأة العجوز في عملية الإخلاء، ومع وصولي الشقّة كنتُ قد بدأتُ أخلو من أيّة كآبة.

-14-

جعلني عبقُ ملفوف ميري أغيِّر رأيي. وخطر في بالي وأنا واقف تكتنفني الأبخرة التي تملأ الرواق، أنه لا يمكنني من الناحية الواقعية أنْ أرفض الوظيفة. لطالما كان الملفوف يُذكّرني بكآبة بالسنوات العُجاف لطفولتي وصرت أعاني كلما قدّمتْه لي، ولكن كانت تلك المرة الثالثة في أسبوع واحد وخطر لي أنّه ربما كانت ميري تفتقر إلى النقود.

قلت في نفسي، هأنذا أهنِّئ نفسي على رفضِ عملٍ في حين أنني لا أعلم بكم أُدين لها من النقود. شعرت باشمئزاز سريع ينمو داخلي. كيف أستطيع أنْ أواجهها؟ وتوجهت مباشرة إلى غرفتي واستلقيتُ على السرير، متأملاً بكآبة. هناك مستأجرون آخرون، لديهم أعمال، وكنتُ أعلم أنها تتلقّى معونة من بعض الأقارب؛ ومع ذلك لا مجال للخطأ، إنَّ ميري تحب تشكيلة من الأطعمة وهذا التركيز على الملفوف ليس وليد المُصادفة. لِمَ لم ألاحظ هذا؟ لقد كانت بالغة اللطف، لم تلحّ قط عليّ في تسديد الإيجار المتأخّر، واستلقيتُ هناك أسمعها، وعندما كنتُ أحاول أنْ أعتذر لعدم دفعي قيمة الإيجار والمعيشة، تقول «لا تأتِ وتزعجني بمشاكلك الصغيرة، يا فتى. سوف تحصل على عمل مع مرور الوقت». لعلَّ أحد المستأجرين ترك غرفته، أو فقد عمله. ولكن ما هي مشاكل ميري؛ مَنْ «يُعبِّر عن آلامها»، حسب تعبير الرجل ذي الشعر الأحمر؟ لقد أعالتني على مدى أشهر، ومع ذلك لم ألاحظ. إلى ما كنتُ أتحوّل؟ لقد تقبّلتُ الوضع كبداهة إلى درجة أنني حتى لم أفكّر في دَيني عندما رفضتُ العمل. ولا أخذتُ في اعتباري الحرج الذي يمكن أنْ أُسبّبه لها فيما لو داهم رجال الشرطة بيتها لإلقاء القبض عليّ بسبب إلقائي ذلك الخطاب العنيف. وفجأة شعرتُ بحافز

لأذهب وأنظر إليها، لعلّي حقاً لم أنظر إليها قط. لقد كنتُ أتصرَّف كطفل، وليس كرجل.

أخرجتُ قطعة الورق المُجعّدة، ونظرتُ إلى رقم الهاتف. لقد أتى على ذِكر منظّمة. ماذا كان اسمها؟ لم أسأله. يا لي من أحمق! على الأقلّ كنتُ سأعرف على ما أنا مُقدِم، على الرغم من عدم ثقتي بصاحب الشعر الأحمر. هل رفضتُ بدافع الخوف كما بدافع الاشمئزاز؟ لِمَ لم يُخبرني عن طبيعة العمل بدل أنْ يحاول أنْ يُثير إعجابي بمعرفته؟

ثم سمعتُ من آخر الرواق ميري تغني، بصوتها الصافي والثابت، على الرغم من أنها كانت تغني أغنية موجِعة. كانت أغنية «أحزان العزلة». أستلقيتُ أُصغي والصوت ينساب ويكتنفني، مُثيراً فيَّ حسّاً هادئاً بدَيني. وعندما تلاشى نهضتُ وارتديتُ معطفي. لعلَّ الأوان لم يفُتْ. سوف أعثر على جهاز هاتف وأتصل به؛ عندئذٍ سوف يُخبرني بالضبط عمّا يريد ويمكنني حينئذٍ أنْ أتّخذ قراراً عقلانياً.

هذه المرة سمعتني ميري. قالت، مُطلّة برأسها من باب المطبخ، «يا فتى، متى عدتَ إلى المنزل؟ إنني حتى لم أسمعك»

قلت «عدتُ قبل وقت قصير. كنتِ منهمكة في العمل فلم أرغب في إزعاجك»

«إذن إلى أين أنت ذاهب بهذه السرعة، ألن تتناول عشاءك؟»

قلت «نعم، ميري، ولكن يجب أنْ أخرج الآن. لقد نسيتُ أداء عمل ما»

قالت «اللعنة! أي عمل هذا الذي تخرج له في عزّ الليل البارد هكذا؟»

«أوه، لا أعلم، لعلّي أُحضِّر لكِ مفاجأة»

قالت «لا شيء يُفاجئني. أسرع بالعودة إلى هنا لتملأ معدتك بشيء دافئ»

عندما خرجتُ أمخر البرد بحثاً عن كشك هاتف أدركتُ أنني التزمتُ أمامها بتحضير مفاجأة ما، وبينما كنتُ أمشي ازداد حماسي قليلاً. فقبل كل شيء هو عمل يعِدُ بأنْ أمارس موهبتي في الخطابة العلنية، ومهما كان الأجر ضئيلاً سوف يكون أكبر مما أملك الآن. على الأقلّ سوف أتمكن من تسديد جزء من دَيني لميري. وقد تستمد شيئاً من الرضا من أنَّ تنبؤها كان صحيحاً.

شعرتُ كأنني ممسوس بعبق أبخرة الملفوف؛ حتى إنني وجدتُ أنَّ جهاز الهاتف يفوح برائحته الكريهة.

لم يبدُ على الأخ جاك أي قدر من الدهشة لدى تلقيه مكالمتي.

«أود أنْ أعرف بعض المعلومات عن –»

قال «احضر إلى هنا بأسرع وقت ممكن، سوف نرحل بعد قليل» وأعطاني عنوان جادة لينكس وأنهى المكالمة قبل أنْ أتمكن من إكمال سؤالي.

خرجتُ إلى البرد، منزعجاً معاً من افتقاره إلى الدهشة ومن الأسلوب المُختصَر، المُقتَضَب لكلامه، لكنني انطلقتُ، من دون استعجال. لم يكن المكان بعيداً، وحالما وصلت منعطف لينكس توقفتْ سيارة ورأيتُ عدداً من الرجال في داخلها، ومن بينهم جاك، يبتسم.

قال «اركبْ، يمكننا أنْ نتحدث على الطريق. إنه حفل؛ وقد يُعجبك»

قلت «لكنني لا أرتدي ملابس مناسبة. سوف أتصل بك غداً –»

«ملابس مناسِبة؟» وقهقه. «مظهرك جيد، اركب»

ركبتُ وجلستُ إلى جواره مع السائق وحينئذٍ لاحظتُ أن في المقعد الخلفي ثلاثة أشخاص. وانطلقت السيارة.

لم يتكلّم أحد. بدا أنَّ الأخ جاك غاص في الحال في تفكير عميق. أما الآخرون فكانوا ينظرون إلى الليل. وكأننا مجرد مُسافرين جمعتهم المُصادفة في عربة قطار نفقيّ. وشعرت بالاضطراب، متسائلاً إلى أين نحن ذاهبون، لكنني قرّرت ألا أتفوّه بأية كلمة. واندفعت السيارة بسرعة على الثلج الموحِل.

تساءلتُ، وأنا أطلُّ على الليل العابر، أي نوع من الرجال هم. إنهم حتماً لم يتصرّفوا كأنهم متوجهون لحضور مناسبة اجتماعية جداً. كنتُ أشعر بالجوع ولم أكن لأعود في الوقت المناسب للّحاق بوجبة العشاء. لعلَّ الأمر يستحق العناء، بالنسبة لميري ولي معاً. على الأقلّ لن أُضطر إلى أكل ذلك الملفوف!

توقفت السيارة برهة بسبب إشارة المرور، ثم انعطفنا بسرعة خلال

مسافة طويلة من مشهد مكسو بالثلوج ومُضاء هنا وهناك بمصابيح الشارع وبالأشعة المُثيرة للأعصاب التي تطعننا بها السيارات العابرة بأضوائها: كنا ننطلق بسرعة البرق خلال سنترال بارك، الذي كان قد تغيَّر مشهده تماماً بسبب الثلوج. وكأننا غصنا فجأة في سكينة وسط البلاد، لكنني كنتُ أعلم أنَّ هناك، في مكان قريب في الليل، حديقة حيوان بما تحتوي من حيوانات خطرة. الأسود والنمور داخل أقفاص مُدفّأة، والدببة في سُباتها، والأفاعي ملتفّة بإحكام حول نفسها تحت الأرض. وكان هناك خزّان من المياه القاتمة، وكلها مكسوة بالثلج وبالليل، من هطل الثلج وهبوط الليل، مدفونة تحت البياض والسواد، والضباب الرمادي والصمت الرمادي. ثم رأيت جداراً من الأبنية يعبر من جانب السائق، يلوح من خلال حاجب الريح. وتقدّمت السيارة ببطء داخل حركة المرور، ثم هبطت بسرعة إلى أسفل تلّ.

توقفنا أمام مبنى يبدو عليه البذخ يقع في قِطاعٍ غريب من المدينة. تمكنتُ من رؤية عبارة «*عالم سفلي*» على المظلة الواقية من العواصف الممتدة فوق الرصيف لدى ترجّلي مع الآخرين وتوجهنا بسرعة نحو بهوٍ مُضاء بمصابيح مُعتمة وُضِعَتْ خلف زجاج كساه الجليد، واجتزنا البواب ببذلته الرسمية مع إحساس بالألفة؛ وأصبحت أشعر، لدى ولوجنا المصعد المُضاد للضجيج وانطلقنا بسرعة ميل في الدقيقة، كأنه سبق لي أن مررتُ بذلك من قبل. ثم توقفنا مع اهتزاز رقيق ولم أكن متيقناً مما إذا كنا صعدنا أم هبطنا. قادني الأخ جاك على طول الرواق نحو باب رأيتُ عليه مطرقة من البرونز على شكل بوم جاحظ العينين. هنا تردّد برهة، واشرأبَّ برأسه إلى الأمام وكأنه يُصغي، ثم غطتْ يده البوم لكي يمنعه من النظر، وبدل أنْ يُصدر قرعاً كما توقّعت، صدرت جلجلة باردة لرنين أجراس صافٍ. وسرعان ما فُتِحَ الباب جزئياً، كاشفاً عن امرأة أنيقة الملبس، انفرج وجهها الوسيم، القاسي، عن ابتسامة.

قالت، وعِطرها الغريب يملأ الردهة، «تفضّلوا أيها الإخوة»

لاحظتُ وجود مشبك من الأحجار الكريمة المتلألئة على ثوبها وأنا أحاول أنْ أقفَ جانباً لأفسح المجال للإخوة، لكنَّ الأخ جاك دفعني أمامه.

قلت «بعد إذنك»، لكنها ظلت ثابتة في مكانها، وكنتُ مضغوطاً بقوة

على نعومتها المُعطَّرة، أرى ابتسامتها كأنما لا يوجد في المكان غيرنا أنا وهي. ثم عبرت، من دون أنْ أنزعج كثيراً بتماسنا الحميم، بقدر انزعاجي من إحساسي من أنه سبق لي أنْ مررت بهذا كله من قبل. لم أتمكن من تقرير ما إذا كان ذلك بسبب مشاهدتي مشهداً مُشابهاً في الأفلام السينمائية، أم من كتبٍ قرأتها، أم من حُلم سبق أنْ راودني مراراً لكنه دُفنَ في أعماقي. وكائناً ما كان، فإنه كان أشبه بولوج مشهد سبق أنْ شاهدته، بسبب ظرف شاذ، عن بُعد. وتساءلت، كيف استطاعوا أنْ يحصلوا على مثل هذا المكان الباذخ.

قالت المرأة «ضع أغراضك في غرفة المكتب، وسوف أذهب لأهتم بأمر المشروبات»

دخلنا غرفة جدرانها مغطاة بالكتب ومزخرفة بأدوات موسيقية قديمة: كانت آلة هارب أيرلندية، وبوقاً للصيد، وكلاينيت وفلوت من الخشب مُعلّقة من أعناقها على الجدار بشرائط وردية وزرقاء. وثمة ديوان من الجلد وعدد من الكراسي المريحة.

قال الأخ جاك «ارمِ معطفك على الديوان»

خلعتُ معطفي وتلفّتُ حولي. كان مفتاح الراديو الموجود داخل مقطع من رف الكتب المصنوع من خشب الماهوغاني الطبيعي مُضاءً، لكنني لم أسمع أي صوت؛ وكان هناك طاولة مكتب كبيرة عليها أدوات كتابة من الفضة والكريستال، وعندما دخل شخص ليتفحّص خزانة الكتب، وجدتني بين تناقُض رفاهية الغرفة وفرشها الرخيص.

قال الأخ جاك، وهو يُمسك بي من ذراعي، «والآن سنلج الغرفة الأخرى»

دخلنا غرفة أرحب كان جدارٌ بأكمله فيها مكسواً بأقمشة إيطالية حمراء تنهمر مع تضاعيف غزيرة من السقف. كان عدد من الرجال والنساء بملابسهم الأنيقة مجتمعين ضمن مجموعات، بعضهم بجوار آلة لبيانو ضخمة، وآخرون يسترخون على التنجيد البيج الباهت للكراسي الخشبية الشقراء. ورأيت عدداً من الصبايا الجميلات موزعات هنا وهناك لكنني تجنّبتُ بحرص أن أتبادل معهن أكثر من نظرة عابرة. وشعرت بانزعاج شديد، على الرغم من أنه بعد تبادل بعض النظرات العابرة لم يعُد أحد

ينتبه لوجودي. وكأنهم لم يروني، وكأنني كنتُ موجوداً وغير موجود. كان الآخرون ينتشرون لينضموا إلى مجموعات مختلفة، وأمسكني الأخ جاك من ذراعي.

قال، وهو يقودني نحو آخر الغرفة، «تعال، لنشرب شيئاً»

كانت المرأة التي أدخلتنا تمزج المشروبات خلف بار أنيق ومتحرر من الشكل كان كبيراً بالقدر الكافي ليصلح نادياً ليليّاً.

قال الأخ جاك «ما رأيك في أنْ تقدمي لنا مشروباً، يا إيما؟»

قالت، وهي تميل رأسها ذا القسمات الحادّة، «إذن، يجب أنْ أفكر في الأمر»

قال «لا تفكّري، نفّذي. نحن الرجال شديدو العطش. وهذا الشاب دفع بمسيرة التاريخ إلى الأمام اليوم مقدار عشرين عاماً»

قالت، وقد أضحت عيناها أشد تركيزاً، «أوه، يجب أنْ تُخبرني عنه»

«اقرئي صُحف الصباح فقط، يا إيما. لقد بدأت الأمور تتحرك. نعم، بل تقفز إلى الأمام» وضحك بعمق.

قالت، وعيناها تستعرضان وجهي ببطء، «ماذا تود أنْ تشرب، أيّها الأخ؟»

قلت، بنبرة عالية أكثر مما ينبغي، «بوربون»، وتذكّرتُ أفضل ما يمكن للجنوب أنْ يقدم. احمرّ وجهي، لكنني بادلتها النظر بثبات قدر استطاعتي. لم تكن نظرة خشنة توحي بأنها لا تهتمّ بي ككائنٍ بشريّ كالتي كنتُ أعرفها في الجنوب، والتي تستعرض الرجل الأسود وكأنه حصان أو حشرة؛ بل كانت أكثر من ذلك، كانت مباشرة، مُستكشفة تغوص إلى أعمق من جلدي... وارتجفت عضلات ساقيّ بعنف.

قال الأخ جاك «إيما، البوربون! *كأسيّ* بوربون»

قالت، وهي ترفع الإناء، «في الواقع، إنني مفتونة»

قال «طبعاً. أنت دائماً فاتنة ومفتونة. لكننا نكاد نموت من شدة العطش»

قالت، وهي تصب المشروب، «فقط من نفاد الصبر. أعني أنك *أنت* نافد الصبر. أخبرني، أين عثرت على بطل الشعب الشاب هذا؟»

قال الأخ جاك «لم أعثر عليه. لقد برز هكذا ببساطة من بين الحشد. إنَّ الناس دائماً يرفعون قادتهم، كما تعلمين...»

قالت «**يرفعونهم**. كلام فارغ، إنهم يمضغونهم ثم يبصقونهم. إنَّ قادتهم يُصنَعون، لا يولدون. ثم يُدمَّرون. لطالما قلتَ هذا. هذا لك، يا أخي»

ألقى عليها نظرة ثابتة. تناولتُ الكأس الكريستالي الثقيل ورفعته إلى شفتيّ، سعيداً بحصولي على عُذر لأتفادى عينيها. انسابت في الغرفة غلالة رقيقة من دخان السجائر. وسمعت خلفي سلسلة من النغمات المتعاقبة الغزيرة للبيانو فالتفتُّ لأنظر، لدى سماعي المرأة التي اسمها إيما تقول بصوت ليس منخفضاً بالقدر الكافي، «ولكن ألا تعتقد أنه يجب أنْ يكون قاتم اللون أكثر قليلاً؟»

قال الأخ جاك بحدّة «هسسس، لا تكوني حمقاء لعينة. نحن لسنا مهتمين بشكله بل بصوته. وأنا أقترح، يا إيما، أنْ تهتمي به *أنتِ* أيضاً...»

شعرتُ بالحرّ وبضيق نفَس، وفجأة رأيتُ نافذة في الجهة المقابلة من الغرفة فذهبتُ إليها ووقفتُ أطلُّ منها. كنا في مكان مرتفع جداً؛ في الأسفل كانت أضواء الشارع وحركة المرور تتقاطع راسمة منظومة من الأشكال. إذن هي تعتقد أنني لستُ أسود بالقدر الكافي. فماذا تريد، ممثلاً أبيض يدهن وجهه بالأسود؟ مَنْ هي، أصلاً، زوجة الأخ جاك، أم صديقته؟ لعلها تريد أنْ أضع بدل العرق قطران الفحم، أو حبراً، أو صِباغ أحذية، أو كربون الغرافيت. ماذا أنا، أرجلٌ أم مصدر طبيعي؟

كانت النافذة مرتفعة إلى درجة أنني بالكاد سمعت ضجيج حركة المرور في الأسفل... كانت تلك بداية سيئة، ولكن لا يهم، إنَّ الأخ جاك هو الذي استخدمني، إنْ كان لا يزال يريدني، وليس تلك المرأة. قلت في نفسي، أودّ أنْ أُريها كم أنا أسود، وتناولتُ جرعة كبيرة من البوربون. كان سلساً، وبارداً. يجب أنْ أكون حذراً في الشرب. يمكن لأي شيء أنْ يحدث إذا أسرفت فيه. يجب أنْ أكون حريصاً وأنا بين هؤلاء القوم. حريصاً دائماً. مع كل أولئك الناس يجب أنْ أكون حذراً...

قال صوت «منظر جميل، أليس كذلك؟»، فاستدرتُ بسرعة لأرى رجلاً طويلاً أسود. قال «ولكن هلا انضممتَ إلينا الآن في المكتبة؟»

كان الأخ جاك، والرجال الذين رافقونا في السيارة، واثنان آخران لم أرهما من قبل، في الانتظار.

قال جاك «تفضّل، يا أخي. العمل أهم من المتعة دائماً قاعدة جيدة، كائناً مَنْ كنت. وذات يوم سوف تُصبح القاعدة هي العمل مع المتعة، ذلك أنَّه سوف تُستعاد متعة العمل. اجلس»

أخذتُ الكرسي المواجه مباشرة له، متسائلاً عما يدور حوله الخطاب.

قال «أتعلم يا أخي، في المعتاد لا نخلط بين لقاءاتنا الاجتماعية والعمل، ولكن معك هذا الأمر ضروريّ»

قلت «أنا في غاية الأسف، كان ينبغي أنْ أتصل بك في وقت مبكِّر أكثر»

«تأسف؟ ولِمَ، إننا سعداء جداً بفعل ذلك. نحن في انتظارك منذ أشهر. أو في انتظار شخص في إمكانه أنْ يفعل ما فعلت»

قلت «ولكن ماذا...؟»

«تعني ماذا نفعل؟ ما هي مهمتنا؟ الأمر بسيط؛ نحن نعمل من أجل عالم أفضل للناس أجمعين. الأمر بهذه البساطة. كثيرون نُزِعَ منهم إرثهم، وقد اتحدنا معاً في الأخوَّة لكي نفعل شيئاً في هذا الشأن. فما رأيك؟»

قلت، محاولاً أنْ أستوعب المعنى الكامل لكلماته، «أعتقد أنَّ هذا عظيم. أعتقد أنه ممتاز. ولكن كيف؟»

«بدفعهم إلى العمل كما فعلت في صباح هذا اليوم...» ثم توجه بكلامه إلى الآخرين، «أيها الأخوة، لقد كنتُ موجوداً هناك، وقد كان مُذهلاً. فببضع كلمات أطلقَ مُظاهرة فعّالة ضد عمليات الإخلاء!»

قال آخر «أنا أيضاً كنتُ حاضراً. كان شيئاً مذهلاً»

قال الأخ جاك، بصوت وأسلوب يتطلبان إجابات صادقة، «أخبرنا شيئاً عن حياتك». فشرحت بإيجاز أنني كنتُ قد جئت بحثاً عن عمل لكي أُسدد تكاليف جامعتي ولم أنجح في ذلك.

«أما زلت تنوي أنْ تعود؟»

قلت «ليس الآن. لقد انتهيتُ من هذا الأمر»

قال الأخ جاك «هذا أفضل. لن تكسب إلا القليل هناك. ومع ذلك،

ليس التدرُّب في الجامعة بالأمر السيئ - على الرغم من أنَّ عليك أنْ تنسى معظمه. هل درستم الاقتصاد؟»

«قليلاً»

«وعلم الاجتماع؟»

«نعم»

«حسن، أنصحك بنسيانه. سوف نُعطيك كتباً لتقرأها بالإضافة إلى مواد تشرح برنامجنا بالتفصيل. لكننا نتحرك بسرعة كبيرة جداً. لعلك لستَ مهتماً بالعمل لمصلحة الأخوية»

قلت «لكنكَ لم تُخبرني ماذا عليَّ أنْ أفعل»

ثبَّتَ نظره عليّ، ثم رفع كأسه ببطء وتناول منه جرعة طويلة.

قال «فلنصُغ الأمر على النحو التالي: ما رأيك في أنْ تكون خليفة بوكر تي واشنطن[34]؟»

«ماذا؟» نظرتُ في عينيه الرقيقتين طلباً للضحك، بعد أنْ رأيتُ رأسه الأحمر يميل قليلاً إلى الجانب. قلت «أرجوك، لا تمزح»

«أوه، نعم، أنا جادّ»

«إذن فأنا لا أفهمك». أكنتُ *أنا* السكران؟ نظرتُ إليه؛ هو *يبدو* متزناً.

«ما رأيك في الفكرة؟ أو فلأعبِّر بطريقة أفضل، ما رأيك في بوكر تي واشنطن؟»

«طبعاً، أعتقد أنه كان شخصية مهمة. على الأقلّ هذا ما يتفق عليه معظم الناس»

«ولكن؟»

«في الواقع»، ضاعت مني الكلمات. من جديد كان يُسرع كثيراً. كانت الفكرة مجنونة جداً ومع ذلك أخذ الآخرون ينظرون إليّ بهدوء؛ وقام أحدهم بإشعال غليون مائل إلى أسفل. أطلقَ عود الثقاب شرراً، واشتعل.

34- بوكر تي واشنطن (1856-1915): معلِّم، وخطيب، ومؤلف أميركي أسود ومُستشار رؤساء الولايات المتحدة بين عاميّ 1890-1915، وزعيم حقوق الأميركيين السود. تجنب المواجهة مع سياسة الفصل العنصري، واعتمد أكثر على التثقيف والتعليم والتطوير الاقتصادي الطويل المدى في مجتمع السود. - المترجم

أصرّ الأخ جاك «ما الأمر؟»

«أوه؟ ولِمَ لا؟»

«حسن، في أول الأمر، جاء المؤسِّس قبله وفعل بالضبط كما فعل بوكر تي واشنطن حرفياً وأكثر. وزاد عدد المؤمنين به. إنك تسمع الكثير من الخلافات حول بوكر تي واشنطن، ولكن قليلين يختلفون حول المؤسِّس...»

«كلا، ولكن ربما السبب هو أنَّ المؤسِّس أصبح خارج التاريخ، بينما واشنطن ما زال يمثّل قوة حيّة. ومع ذلك، فإنَّ واشنطن ***الجديد*** سوف يعمل لمصلحة الفقراء...»

نظرتُ في كأسي الكريستال من البوربون. كان أمراً لا يُصدَّق، لكنه مُثير بصورة غريبة وانتابني إحساس بكوني أشهد وقوع أحداث مهمة، وكأنَّ ستارة ارتفعت وسُمِحَ لي بإلقاء نظرة على الطريقة التي يُدار بها البلد. ومع ذلك لم يكن أيٌ من أولئك الرجال من الشخصيات المشهورة، أو على الأقلّ أنا لم أر وجوههم في الصُحف.

تابع قائلاً «في لحظات التردُّد عندما يتّضح أنَّ الإجابات القديمة كلها زائفة، ينظر الناس خلفهم إلى الموتى للحصول على جواب. ويُعرّجون على أحد الذين عملوا في الماضي ومن ثم على آخر»

قاطعه الرجل ذو الغليون «بعد إذنك، أيها الأخ، أعتقد أنك يجب أنْ تقول شيئاً ملموساً أكثر»

قال جاك بنبرة باردة كالثلج «من فضلك لا تُقاطعني»

قال الرجل، مُشدداً على كلماته بغليونه، «أتمنى فقط أنْ تُشير إلى أنَّ عِلم المُصطلحات العلمية له وجود. فقبل كل شيء، نحن نسمّي أنفسنا علماء هنا. فلنتكلّم كعلماء»

سأل الأخ جاك «في الوقت المناسب، في الوقت المناسب...»، ثم قال مستديراً نحوي، «كما ترى، أيها الأخ، المشكلة هي أنّه ليس في يد الموتى أي شيء؛ وإلا لما كانوا موتى. كلا! ولكن من ناحية أخرى، سوف نرتكب خطأً فادحاً إذا افترضنا أنَّ الموتى عاجزون تماماً. إنهم عاجزون فقط عن إعطاء جواب كامل عن الأسئلة الجديدة التي طرحها التاريخ على الأحياء.

لكنهم يحاولون! كلما سمع الموتى صراخ الناس المهيب في وقت الأزمة، يستجيبون. والآن في هذا البلد، بكل فئاته الوطنية العديدة، يُستدعى الأبطال القُدامى إلى الحياة – إنَّ جيفرسون، وجاكسون، وبولاسكي، وغاريبالدي، وبوكر تي واشنطن، وسون يات–سن، وداني أوكونل، وأبراهام لينكولن وآخرين لا حصر لهم يُطلَب منهم أنْ يظهروا على مسرح التاريخ. لا أستطيع أنْ أقول بثقة تامة إننا نقفُ عند آخر محطة للتاريخ، في وقتٍ نمرّ بأزمة عالمية. إنَّ الدمار ينتظرنا إلا إذا تغيَّرتِ الأوضاع. **ويجب** أنْ تتغيَّر الأوضاع. وعلى الناس أنْ يُغيِّروها. ذلك أنَّ أعداء الإنسان، يا أخي، ينزعون من العالم ممتلكاته! أتفهم؟»

قلت، منبهراً، «بدأتُ أفهم»

«وهناك عبارات أخرى، أساليب أخرى أكثر دقّة لقول هذا كله، ولكن ليس لدينا وقت لذلك حالياً. إننا الآن نتكلَّم بعبارات سهلة الفهم. كما تحدثتَ إلى الجمهور في صباح هذا اليوم»

قلت «فهمت»، شاعراً بانزعاج تحت تأثير تحديقه.

«إذن الأمر يتعلَّق بما إذا كنتَ *ترغب* في أنْ تصبح بوكر تي واشنطن الجديد، يا صديقي. لقد بُعِثَ بوكر تي واشنطن هذا اليوم في حادث نزع الملكية الذي وقع في هارلم. لقد خرج مغموراً من بين الحشود وتحدث مع الناس. إذن كما ترى، أنا لا أمزح معك. أو حتى أتلاعب بالكلمات. هناك تفسير علميّ لهذه الظاهرة – كما تكرَّمَ صاحبنا الأخ المُثقّف وذكَّرني – سوف تتعلّمه في الوقت المناسب، ولكن مهما سمّيته في واقع الأزمة العالمية فهو حقيقة. نحن كلنا هنا واقعيون، وماديون. إنَّ الأمر يتعلَّق بمَنْ سيُحدِّد اتجاه الأحداث. ولهذا السبب أحضرناك إلى هذا المكان. في صباح هذا اليوم استجبتَ لنداء الناس ونريد منكَ أنْ تكون الممثل الحقيقي للناس. سوف تكون بوكر تي واشنطن الجديد، بل أعظم منه»

ران الصمت. كان في استطاعتي أنْ أسمع طقطقة الغليون الرطبة.

قال صاحب الغليون «ربما علينا أنْ نسمح للأخ بأنْ يعبّر عن شعوره بهذا كله»

قال الأخ جاك «ما رأيك، أيها الأخ؟»

نظرتُ إلى وجوههم المُنتظرة.

قلت «إنَّ الأمر برمّته جديد عليّ ولا أعلم بالضبط ماذا أظن. أتعتقد حقاً أنك حصلتَ على الرجل المناسب؟»

قال الأخ جاك «لا ينبغي أنْ تقلق بهذا الشأن. سوف تكون أهلاً للمهمة؛ الأمر الضروري هو أنْ تعمل باجتهاد وتتّبع التعليمات»

هنا نهضوا جميعاً واقفين. ونظرتُ إليهم، أكافح إحساساً بعدم الواقعية. حدّقوا إليّ كما فعل رفاقي في مُستهل انتسابي إلى أخوية جامعتي. الفرق أنَّ هذا كان حقيقياً وقد حان الوقت لكي أُقرِّر أو أنْ أقول إنهم مجانين وأعود إلى كنف ميري. قلت في نفسي، ولكن ماذا لديّ لأخسره؟ على الأقلّ لقد دَعَوني، أو أحدهم فعل، في بدايةِ أمرٍ جلل؛ ثم، إذا رفضتُ أنْ أنضم إليهم، إلى أين سأذهب - لأعمل حمّالاً في محطة القطار؟ على الأقلّ هنا لدي فرصة لأتكلَّم.

قلت «متى سأبدأ؟»

«في الغد، لا ينبغي أنْ نُبدد الوقت. وبالمناسبة، أين تقطن؟»

قلت «إنني أستأجر غرفة عند امرأة في هارلم»

«ربّة منزل؟»

قلت «إنها أرملة. وتؤجِّر غرفاً»

«ما مستواها الثقافي؟»

«لم تحصّل إلا أقلّ القليل»

«هل نقول إنها بصورة أو بأخرى أشبه بذينك الزوجين العجوزين اللذين نُزعت منهما ممتلكاتهما؟»

«تقريباً، لكنها أقدرُ على العناية بنفسها» ثم قلت وأنا أضحك «إنها صلبة»

«هل تطرح الكثير من الأسئلة؟ هل علاقتكما وديّة؟»

قلت «لقد عاملتني معاملة لطيفة، وسمحتْ لي بالبقاء عندها حتى بعد أنْ عجزت عن دفع الإيجار»

هزَّ رأسه نفيا. «كلا»

قلت «ما الأمر؟»

قال «الأفضل أنْ تنتقل. سوف نجد لك مكاناً في قلب المدينة لكي يكون الاتصال بك أسهل...»

«ولكنني لا أملك نقوداً، وهي جديرة بالثقة بكل معنى الكلمة»

قال، ملوحاً بيده «سوف نهتم بهذا. يجب أنْ تُدرك في الحال أنَّ معظم عملنا يلقى معارضة. إنَّ انضباطنا يتطلّب منا على هذا الأساس ألّا نتحدث مع أحد وأنْ نتفادى المواقف التي يمكن للمعلومات أن تتسرب فيها من دون عمد. لذلك ينبغي أنْ تنسى ماضيك. هل لديك عائلة؟»

«نعم»

«هل أنت على اتصال بها؟»

قلت، وقد بدأتُ أمقتُ أسلوبه في طرح الأسئلة، «طبعاً. إنني أراسلهم في الوطن بين حين وآخر». كان صوته قد أصبح بارداً، ومستقصياً.

قال، «يُستحسن أنْ تكفّ عن ذلك لبعض الوقت. على أية حال، سوف تكون شديد الانشغال. خُذ»، وأخذ يفتش في جيب بذلته عن شيء وفجأة نهض واقفاً.

سأل أحدهم «ما الأمر؟»

قال، وهو يهرع نحو الباب مومئاً بيده، «لا شيء، عن إذنكم». وبعد لحظة ظهرت المرأة.

قال وهي تخطو إلى الداخل وتُغلق الباب «إيما، قطعة الورق التي أعطيتك إياها. أعطيها للأخ الجديد»

قالت مع ابتسامة ذات معنى «أوه، إذن فهو أنت»

راقبتُها تمد يدها إلى صدر ثوب المُضيفة التفْتا الذي ترتدي وتُخرِج منه مغلفاً أبيض.

قال الأخ جاك «هذه هي بطاقتك الشخصية. افتحها»

في داخله وجدتُ اسماً مكتوباً على قطعة من الورق.

قال الأخ جاك «هذا اسمك الجديد. ابدأ بالتفكير في نفسك بذلك الاسم منذ هذه اللحظة. اكتبه بحيث إذا تلقّيتَ اتصالاً في منتصف الليل تجيب. وقريباً جداً سوف تُصبح معروفاً به في أرجاء البلاد كلها. ولا ينبغي أنْ تجيب عن أي اسم آخر، مفهوم؟»

قلت «سأحاول»

قال الرجل الطويل «لا تنس الحي الذي سيقيم فيه»

قال الأخ جاك مع تجهم «كلا. إيما، من فضلك، هاتي بعض المال»

قالت «كم، جاك؟»

التفتَ إليّ. «هل تُدين بالكثير من الإيجار؟»

«كثيراً جداً»

قال «اجعليها ثلاثمئة، يا إيما»

قال عندما أبديتُ دهشتي من ضخامة المبلغ «لا عليك. هذا سيُسدد ديونك ويشتري لك ملابس. اتصل بي في الصباح وسوف أنتقي لك الحي الذي ستقيم فيه. وكبداية سيكون راتبك ستين دولاراً في الأسبوع»

ستون في الأسبوع! عجزتُ عن الكلام. كانت المرأة قد اجتازت أرض الغرفة إلى طاولة المكتب وعادت مع النقود، ووضعتها في يدي.

قالت بلا تحفّظ «يُستحسن أنْ تُخفيها»

قال «حسن، أيها الأخوة، أعتقد أنَّ هذا كل شيء. ما رأيكِ في تقديم مشروب، يا إيما؟»

قالت، «طبعاً، طبعاً»، وهي تتوجه إلى خزانة المشروبات وتتناول منها إناءً وتضع الكؤوس وتصبّ مقدار بوصة من السائل الرقراق.

قالت «تفضلوا، يا أخوة»

تناول الأخ جاك كأسه ورفعها إلى أنفه، واستنشق بعمق. قال، وهو يقرعها بكأسي، «نخب الأخوة الإنسانية... نخب التاريخ والتغيير»

قلنا جميعاً «نخب التاريخ»

كان المشروب لاذعاً، جعلني أُنكِّسُ رأسي لأخفي الدموع التي نبعت من عينيّ.

قال أحدهم برضا عميق «آآآه!»

قالت إيما «هيا بنا، فلننضم إلى الآخرين»

قال الأخ جاك «والآن فلنستمتع قليلاً. وتذكّر هويتك الجديدة»

أردتُ أنْ أفكّر لكنهم لم يمنحوني أي فُسحة من الوقت. فقد دُفِعتُ إلى الغرفة الرحبة وقدّموني باسمي الجديد. ابتسم الجميع وبدوا تواقين إلى مقابلتي، وكأنهم جميعاً كانوا يعرفون الدور المُسنَد إليّ. وصافحني الجميع بحرارة.

سألتني امرأة بسيطة تعتمر قلنسوة صوفية سوداء «ما رأيك في وضع حقوق المرأة، أيها الأخ؟». ولكن قبل أنْ أتمكن من فتح فمي، دفعَ بي الأخ جاك قُدُماً نحو مجموعة من الرجال، بدا أنَّ أحدهم يعلم كل شيء عن حادثة نزع الملكية. وفي مكان قريب كانت مجموعة متحلِّقة حول آلة بيانو تغني أغانيَ شعبية بجهارة صوت أكثر من اللحن. ورحنا نتنقل من مجموعة إلى أخرى. كان الأخ جاك كامل السيطرة، وكان الآخرون دائماً يُبدون احتراماً تاماً. قلت في نفسي، لابد أنه صاحب نفوذ، وليس مهرجاً على الإطلاق. ولكن اللعنة على مسألة بوكر تي واشنطن تلك. كنتُ مستعداً لقبول العمل لكنني لن أكون إلا نفسي – كائناً مَنْ كنت، سوف أُخطط حياتي على غرار حياة المؤسِّس. قد يعتقدون أنني أتصرّف كبوكر تي واشنطن؛ فليكن. ولكن رأيي في نفسي سوف أحتفظ به لنفسي. نعم، وسوف أُضطر إلى إخفاء حقيقة أنني عندما ألقيتُ خطابي كنتُ خائفاً حقاً. وفجأة شعرتُ بالضحك ينتفض داخلي. سوف أُضطر إلى التعامل مع عِلم التاريخ هذا.

كنا حينئذٍ قد وصلنا إلى جوار آلة البيانو، حيث قام شاب ضخم باستجوابي حول عدد من قيادات مجتمع هارلم. لم أكن أعرفهم إلا بالاسم، لكنني تظاهرتُ بأنني أعرفهم كلهم.

قال «عظيم، عظيم، يجب أنْ نعمل مع كل تلك القِوى خلال المرحلة القادمة»

قلت «نعم، أنت مُحقّ تماماً»، وأنا أُدير كأسي مع رنين. رآني رجل قصير عريض المنكبين ولوح بيده للآخرين كي يصمتوا. هتف «عفواً، أيها الأخوة، أوقفوا الموسيقى، يا شباب، أوقفوها!»

قلت «نعم، يا سيد... يا أخي»

«أنت بالضبط مَن نحتاج. كنا نبحث عنك»

قلت «أوه»

«ما رأيك بأغنية روحيّة، يا أخي؟ أو واحدة من تلك الأغاني الزنجية القديمة الجيدة؟ مثل هذه: ***ذهبتُ إلى أتلانتا - لم أكن قد ذهبت إلى هناك من قبل***، كان يُغني، وذراعاه مفروشتان على جانبَي جسمه كجناحَي طائر بطريق، ويحمل الكأس بإحدى يديه، والسيجار بالأخرى. ***الرجل الأبيض ينام على فراش وثير، والزنجي ينام على الأرض***... ها! ها! ما رأيك في هذا، أيها الأخ؟»

هدر الأخ جاك بشكل متقطّع «إنَّ الأخ ***لا يغني!***»

«هراء، ***كل*** الملونين يغنون»

قال جاك «هذا مثال مُشين على الشوفينية العرقية اللاواعية!»

قال الرجل المربوع بعناد «هراء، أنا ***أحبّ*** غناءهم»

صرخ الأخ جاك، بوجه مُحتقن، «الأخ ***لا يغني!***»

نظر إليه الرجل المربوع بعناد. «لِمَ لا تترك ***له*** أنْ يقول إنْ كان يُحسن الغناء أم لا...؟ هيا، أيها الأخ، تحمّس! ***اهبط، يا موسى***»، وبدأ يجأر بصوت جهير مُهلهل، بعد أنْ وضع سيجاره وأخذ يفرقع بأصابعه. «***إلى أسفل أرض مصر. واطلب من ذلك الفرعون العجوز أنْ يدع قومي من السود يغنون!***» وصاح بقوة «أنا مع حقوق الأخ الملوّن في الغناء!»

بدا الأخ جاك كأنه يوشك أنْ يختنق؛ فرفع يده، مُشيراً. فاندفع اثنان من الرجال عبر الغرفة وأبعدا الرجل القصير بخشونة. وتبعهما الأخ جاك واختفوا خلف الباب، مُخلّفين وراءهم صمتاً مُطبقاً.

وقفتُ هناك برهة، وعيناي مُثبّتتان على الباب، ثم استدرتُ، كانت

الكأس حارة في يدي، وشعرتُ كأنَّ وجهي يوشك أنْ ينفجر. لِمَ يُحدّق الجميع إليّ وكأنني المسؤول؟ لِمَ يُحدقون إليّ بحقّ الله؟ وفجأة صرخت، «ما خطبكم؟ ألم تروا من قبل سكّيراً –» وإذا بصوت الرجل المربوع من موقع ما من البهو يقول لنا بنبرة سكرى مترنحة، «*مربيبية سينت لويس – بخواتييبيمها الألماس*...» قاطعه بقوة صفع باب، تاركاً غرفة مملوءة بوجوه مرتبكة. وفجأة أخذتُ أضحك بهستيريا.

قلت بصوت كالأزيز «لقد ضربني على وجهي، ضربني على وجهي بقطعةٍ من السجق!» – وأنا أنحني، هادراً بالضحك، وبدا كأنَّ الغرفة كلها ترقص جيئة وذهاباً مع كل نوبة ضحك سريعة.

صرختُ «رمى أحشاء الخنزير»، ولكن بدا أنَّ لا أحد فهم. كانت عيناي مطموستين، فلم أر شيئاً. «إنه مرتفع كشجرة صنوبر في جورجيا» ضحكت، مُستديراً إلى أقرب مجموعة إليّ. «إنه سكران طينة... فلتعزف الموسيقى!»

قال رجل بعصبية «نعم، طبعاً. ها، ها...»

«سكران طينة» ضحكت، وأنا أستعيد أنفاسي، وأكتشف أنَّ التوتُّر الصامت للآخرين يتحول إلى تموجات من الضحك يتردد صداها في أرجاء الغرفة، ويتنامى ببطء ليصبح هديراً، ضحكاً بكل الأبعاد، والكثافات، والتنغيمات. كان الجميع يشتركون فيه. وكانت الغرفة تثب.

صرخ رجل، هازاً رأسه، «وهل رأيت وجه الأخ جاك»

«كانت جريمة قتل!»

«اهبط يا موسى!»

«أؤكد لك أنها كانت جريمة قتل!»

عبر الغرفة كانوا يضربون أحدهم على ظهره لينقذوه من الاختناق. وظهرت مناديل، ونخر أنوف، ومسح عيون. وتحطّمت كأسٌ على الأرض، وانقلب كرسي. ومن جديد صارعتُ الضحك المؤلم، وعندما هدأتُ وجدتهم ينظرون إليّ بما يُشبه الامتنان المُرتبك. كان الاتزان يعود ومع ذلك بدوا أنهم يميلون إلى التظاهر بأنَّ لا شيء غير عادي حدث. ابتسموا. كأنَّ عدداً منهم يوشكون أنْ ينكبّوا عليّ ويضربوا ظهري، ويُصافحوني. وكأنني

أخبرتهم شيئاً كانوا يرغبون كثيراً في سماعه، وقدّمت لهم خدمة مهمة لم أفهم ما هي. ولكن ها هي، تبدو آثارها على وجوههم. بطني يؤلمني. أردتُ أنْ أغادر، أنْ أُبعد عيونهم عني. ثم اقتربت امرأة نحيلة وضئيلة وشدّتْ على يدي.

قالت بصوت ذي لكنة أميركية بطيئة «أنا آسفة لِما حدث. أنا حقاً آسفة. إنَّ بعض الإخوة ليسوا مُتحضرين كثيراً، كما تعلم. على الرغم من أنَّ نيّتهم حسنة. يجب أنْ تسمح لي بالاعتذار بالنيابة عنه...»

قلت، وأنا أُدقق النظر في وجهها القادم من نيو إنغلند، «أوه، كان مجرد سكران»

«نعم، أعلم، هذا واضح. ما كان يمكن لي *أنا* أنْ أطلب من إخوتنا الملونين أنْ يغنوا، على الرغم من أنني أحبّ أنْ أسمعهم. لأنني أعلم أنه تصرّف رجعي جداً. أنت هنا لكي تُقاتل معنا، وليس لتسلينا. أعتقد أنك تفهمني، أليس كذلك، أيها الأخ؟»

ابتسمت لها ابتسامة صامتة.

قالت، وهي تمد يدها الصغيرة ذات القفاز الأبيض وتغادر، «طبعاً تفهم. يجب أنْ أغادر الآن، وداعاً»

تشوّشتُ. ماذا كانت تعني بالضبط؟ أنها فهمتْ أننا نمقت أنْ يظن الآخرون أننا جميعاً مُهرجون ومُغنون بالفطرة؟ ولكن الآن بعد انتهاء الضحك المشترك بدأ شيء يُزعجني: ألا ينبغي أنْ توجد طريقة معيَّنة يُطلب منا بها أنْ نغني؟ ألم يكن من حق الرجل القصير أنْ يرتكب خطأً من دون أنْ تُعتبَر دوافعه بوعي أو من دون وعي خبيثة؟ قبل كل شيء، كان يغني، أو يحاول أنْ يفعل. ماذا لو أنني طلبتُ منه هو أنْ يغني؟ راقبتُ المرأة الضئيلة، المتشحة بالسواد كمبشّرة، تشق طريقها خلال الحشد. ماذا كانت تفعل هنا بحق الله؟ أي دور تلعب؟ حسن، مهما كانت تعني، فقد كانت لطيفة وأحببتها.

في تلك اللحظة اقتربت إيما وتحدّثني بالرقص فقُدتُها إلى الحلبة على أنغام البيانو، وأنا أفكر في توقُّع المحارب القديم وجذبتها إليّ وكأنني أرقص مع أمثالها في كل ليلة. وبما أنني أعلنتُ التزامي لم أسمح لنفسي أنْ تُبدي

دهشة أو اضطراباً - حتى عندما واجهتُ مواقف أبعد ما تكون عن تجربتي. وإلا اعتُبِرتُ غير جدير بالثقة، ليس ذا قيمة. وشعرتُ بأنهم بصورة ما توقعوا مني أنْ أؤدي حتى تلك المهام التي لم يؤهلني أي شيء في تجربتي لها - ما عدا ربما مُخيلتي. ومع هذا لم يكن ذلك شيئاً جديداً، فلطالما بدا أنَّ البيض يتوقعون منك أنْ تعرف تلك الأمور التي بذلوا أقصى ما في وسعهم لمنعك من معرفتها. ويجب أنْ تستعد لها - كما كان جدّي يفعل عندما يُطلَب منه أنْ يسرد غيباً كامل نص دستور الولايات المتحدة كاختبار لصلاحيته للتصويت. وقد أربكهم جميعاً بنجاحه في الاختبار، على الرغم من أنهم ظلوا ينكرون عليه الإدلاء بصوته... على أية حال، كان هؤلاء مختلفين.

عندما وصلت إلى منزل ميري كانت الساعة تقترب من الخامسة صباحاً، ولاحقاً رقصنا الكثير من الرقصات وشربنا العديد من كؤوس البوربون. وبصورة ما، شعرت بالدهشة لأنَّ الغرفة بقيتْ كما هي - ما عدا أنَّ ميري غيَّرتْ أغطية السرير. يا لميري العجوز الطيبة! وشعرت بصحوٍ مُحزِن. وبينما كنت أخلع ملابسي رأيت كم هي بالية وأدركتُ أنّ عليّ أنّ أتخلص منها. لا شك في أنَّ الوقت قد حان. حتى قبعتي يجب أنْ تُرمى؛ كانت الشمس قد أحالت لونها الأخضر باهتاً وبنيّاً، كورقة خضراء ضربتها ثلوج الشتاء. سوف أحتاج إلى أخرى جديدة تتناسب مع اسمي الجديد. قبعة سوداء عريضة؛ ربما من نوع همبرغ... همبرغ؟ ضحكتُ. حسن، يمكنني أنْ أدع أمر حزم متاعي إلى الغد - إنه قليل، ولعل ذلك أفضل. سوف أسافر خفيفاً، بعيداً وسريعاً. لقد كانوا حقاً قوماً سريعين. كم البون شاسع بين ميري وأولئك الذين أتركها لأجلهم. لِمَ يجب أنْ ينتهي الأمر هكذا، أنْ يتطلّبَ مني العمل الذي يمكن أنْ يُحقق لي بعضاً من الأشياء التي توقَّعتُها لأجلي أنْ أغادرها؟ أي نوع من الغرف سيختار الأخ جاك لأجلي ولِمَ لم يتركني أنتقيها بنفسي؟ لم يبدُ لي أمراً صائباً أنه لكي أُصبح أحد قادة هارلم عليّ أنْ أقطن في مكان آخر. ومع ذلك لا شيء بدا صائباً وكان عليّ أنْ أعتمد على تقديرهم. لقد بدوا خبراء في مثل تلك المسائل.

ولكن إلى أي مدى في استطاعتي أنْ أثق بهم، ومن أية ناحية كانوا يختلفون عن الأوصياء؟ قلت في نفسي، على أية حال، لقد التزمت؛ وسوف أتعلّم

في سياق العمل معهم، تذكّر النقود. كانت الأوراق النقدية هشّة وجديدة وحاولتُ أنْ أتخيَّل دهشة ميري عندما أدفع لها كل ما يترتب عليّ من إيجار متأخّر وتكاليف إقامة. سوف تعتقد أنني أمزح. لكنَّ النقود لا يمكن أنْ تكفي لتكافئها على كرمها. ولن تتفهَّم أبداً حاجتي إلى الانتقال بسرعة كبيرة بعد حصولي على العمل. وإذا ما حقّقت أي قدر من النجاح، سوف يبدو ذلك قمة الجحود. كيف سأواجهها؟ إنها لم تطلب أي شيء في المقابل. أو فلنقل تقريباً لا شيء، ما عدا أنْ أجعل من نفسي شخصية مرموقة تسميها «قائد العرق». ارتعشت من البرد. إنَّ إبلاغها بأنني سأنتقل سيكون خبراً صعباً. كرهتُ التفكير في هذا، ولكن لا يمكن للمرء أنْ يكون عاطفياً. وكما قال الأخ جاك، إنَّ التاريخ يفرض علينا جميعاً مطالبَ فظّة. لكنها كانت مطالب يجب تنفيذها إذا أراد الرجال أنْ يُصبحوا سادة وليس ضحايا عصرهم. هل أصدق هذا؟ لعلي كنتُ قد بدأتُ أُسدد دَيني. ثم، قلت في نفسي، يمكنني أنْ أعترف في الحال بأنَّ هناك الكثير من الخِصال في أشخاص كميري أكرهها. فأولاً، أنهم نادراً ما يعرفون أين تنتهي شخصياتهم وتبدأ شخصيتك؛ وفي المعتاد يفكّرون بلغة الـ «نحن» في حين أنني لطالما ملتُ إلى التفكير بلغة الـ «أنا» – وقد سبّب لي هذا بعض الاحتكاك، حتى مع عائلتي. والأخ جاك والآخرون كانوا يتكلمون بلغة الـ «نحن»، لكنها مختلفة، بـ «نحن» أكبر.

حسن، ها أصبح لي اسم جديد ومشاكل جديدة. ويُستحسن أنْ أرمي الماضي خلفي. ربما من الأفضل ألا أرى ميري على الإطلاق، سوف أكتفي بأنْ أضع النقود داخل مظروف وأتركه على طاولة المطبخ حيث من المؤكّد أنها ستعثر عليها. قلت وأنا ناعس، هكذا أفضل؛ بذلك لن أُضطر إلى الوقوف أمامها وأتلعثم وأنا أُعبّر عن انفعالاتي وأنتقي كلماتي التي هي في أحسن الأحوال متشابكة ومتشابهة... ثمة شيء واحد ميَّزَ أناس العالم السفلي، هو أنهم بدوا قادرين على التعبير عما يشعرون به بالضبط ويعنونه بتعبيراتٍ صعبة، وواضحة. وهذا أيضاً يجب أنْ أتعلَّمه... تمدّدتُ تحت الأغطية، وأنا أسمع النوابض تئنّ من تحتي. كان المنزل بارداً. أصغيتُ إلى أصوات الليل داخل المنزل. تكّت ساعة الحائط بإلحاح فارغ، وكأنها تحاول أنْ تلحق بالزمن. وفي الشارع زعقت صفّارة إنذار.

-15-

ثم بقيتُ يقظاً وليس يقظاً، جالساً باعتدال على السرير أحاول أنْ أُنعم النظر خلال الضوء الرمادي السقيم بحثاً عن معنى الصوت الهشّ الذي يوتّر الأعصاب. أزحت الغطاء جانباً وأحكمت وضع يديّ على أُذنيّ. كان أحدهم يضرب أنبوب البخار، ورحتُ أحدّق بعجز على مدى ما بدا أنه بضع دقائق. عيناي تنبضان. وبدأت أشعر بحكّة عنيفة في جنبيّ ففتحت منامتي لأحكّ، وفجأة بدا أنَّ الألم يقفز من أُذنيّ إلى جنبي ورأيتُ علامات رمادية تظهر مكان الجلد الذي أخذ يتقشّر تحت أظافر أصابعي التي تحفر. وبينما كنتُ أراقبُ رأيت خطوطاً رفيعة من الدم تظهر من الحك، مُسبّبة ألماً وتجمَّع الزمان مع المكان من جديد، وقلت في نفسي، لقد فقدَت الغرفة حرارتها في آخر يوم لي في منزل ميري، وفجأة شعرتُ بالاشمئزاز في قلبي.

أشار عقربا ساعة الحائط، التي فقد جرسُ إنذارها رنينَه الهادر، إلى السابعة والنصف، وخرجتُ من سريري. يجب أنْ أُسرع. عليّ أنْ أقوم بالتبضُّع قبل أنْ أتصل بالأخ جاك لكي أتلقّى منه الإرشادات ويجب أنْ أحمل النقود إلى ميري – لِمَ لا يُوقفون ذلك الضجيج؟ مددتُ يدي إلى حذائي، منتفضاً عندما شعرت من جديد بالضرب القوي على مسافة بوصة من رأسي. قلت، لِمَ لا يتوقفون. ولمَ أشعر بالإحباط الشديد؟ أبسبب البوربون؟ أم أنْ أعصابي تنهار؟

فجأة وجدتني على الطرف المقابل للغرفة بقفزة واحدة، أضرب الأنبوب بهياج بكعب حذائي.

«توقف، أيها الأحمق الجاهل!»

شعرتُ كأنَّ رأسي ينفلق. وبسبب ثورة جنوني، كسرت قطعاً فضيّة من

الأنبوب، مُعرياً الحديد الأسود والصدِئ. هنا بدأ يستخدم قطعة من المعدن، وضرباته تضجُّ بحِدَّة خشنة.

قلت في نفسي، ليتني أعرف مَنْ هو، وأنا أبحث عن شيء ثقيل أردّ به عليه بضربٍ مماثل. ليتني أعرف!

ثم بالقرب من الباب رأيتُ شيئاً لم أكن قد لاحظت وجوده هناك من قبل: إنه شكل من حديد الصب لزنجيّ شديد سواد البشرة، وأحمر الشفتين وواسع الفم، عيناه البيضاوان تُحدقان إليّ من الأرض، ووجهه يرسم تكشيراً هائلاً، ويده السوداء الوحيدة والكبيرة تمدّ راحة كفّها أمام صدره. كان صندوق ادّخار، قطعة من آثار أميركية قديمة، صندوقاً من النوع الذي، إذا وضعتَ قطعة نقد في اليد وضغط على عتلة على الظهر، ترتفع الذراع وتنقر القطعة إلى داخل الفم المُكشِّر. توقفتُ برهة، شاعراً بالحقد يحتدم داخلي، ثم اندفعتُ لأقبضَ عليه، وقد انتابني فجأة غضب عارم من قدرة الاحتمال أو الافتقار إلى التمييز، أو كائناً ما كان، الذي سمح لميري بإحاطة نفسها بصورة السخرية من الذات، كما من ذلك الضرب.

بدا تعبير وجهه وهو في يدي أقرب إلى الاختناق منه للابتسام العريض. كان اختناقاً، ممتلئاً حتى الحنجرة بالقطع النقدية.

تساءلتُ، كيف وصل إلى هنا بحق الجحيم، وأنا أُسدِّد للأنبوب ضربة قوية بالرأس الحديديّ الغريب. صرخت «اخرس!»، ولم يؤدّ ذلك إلا إلى زيادة غضب الضارب المُستتر. وكان الضجيج يصمّ الآذان. وانضم إليه السكان على طول الشقق السكنية. ورحت أردّ بالضرب الشديد بالرأس الحديدي، وأرى الشظايا الفضية تتطاير، تضربني على وجهي كحبات من الرمال. وكان الأنبوب يضجّ مع توالي الضرب. وأخذت النوافذ تُفتَح، والأصوات تعلو بالألفاظ النابية من خلال المنور.

تساءلت، مَن الذي بدأ هذا كله، مَن المسؤول؟

صرخت، وأنا أُسدد ضربة إلى الأنبوب، «لِمَ لا تتصرّفون كأناس متحضرين يعيشون في القرن العشرين؟ تخلّصوا من أساليب قاطفي القطن! تصرّفوا بتحضّر!»

ثم سمعتُ صوت تحطُّم وشعرت بالرأس الحديدي ينهار ويتفتّت في يدي. وتطايرت القطع النقدية في أرجاء الغرفة كلها كالجنادب، ترنّ، وتقعقع على الأرض، وتتدحرج. وقفتُ لا أُبدي حراكاً.

هتفت ميري من الرواق «ما هذا الضجيج! ما هذا الضجيج! كفاكم ضجيجاً يوقظ الموتى! إنهم يعرفون عندما لا تصعد الحرارة أنَّ البواب سكران أو ترك عمله وخرج يبحث عن زوجته، أو ما شابه. لِمَ لا يتصرّف الناس طِبقاً لِما يعرفون؟»

عندئذٍ وصلتْ إلى بابي، وأخذتْ تردُّ على كل ضربة على الأنبوب بضربة مثلها، وتهتف «يا بنيّ! أليس جزء من الضرب من عندك؟»

رحت أتلفّت حولي متردِّداً، بحثاً عن قطع الرأس المكسور، والقطع النقدية من كل الأحجام مبعثرة في كل مكان.

هتفت «ألا تسمعني، يا فتى؟»

هتفت «ما الأمر؟»، وأنا أسقط على الأرض وأبحث بحركات هستيرية عن القطع المكسورة، وأقول لنفسي، إذا فتَحَتِ البابَ، فسوف أضيع...

«أقول هل بعض ذلك الضرب صادر من عندك؟»

هتفت «نعم، هو ذاك، ميري، ولكن أنا بخير... لقد أفقتُ تواً»

رأيت أُكرة الباب تتحرك ثم تتجمد، وسمعت «يبدو لي أنَّ الكثير منه كان صادراً من عندك. هل ارتديتَ ملابسك؟»

صرخت «كلا، إنني أرتديها الآن. سوف أنتهي من ذلك بعد دقيقة»

قالت «هيا تعال إلى المطبخ. الجو دافئ هناك. وهناك بعض الماء الحارّ على المدفأة لكي تغسل وجهك به... وبعض القهوة. يا إلهي اسمع هذا الضجيج!»

وقفتُ كالمتجمد، إلى أنْ ابتعدتْ عن الباب. يجب أنْ أسرع. ركعتُ، ألتقط قطعة من صندوق الادّخار، هي جزءٌ من الصدر المكسو بقميص أحمر، مع كتابة تقول «أطعمني» بأحرفٍ من الحديد الأبيض المنحني، كاسم الفريق المكتوب على قميص الرياضي. كان الشكل قد تناثر إرباً

كقنبلة يدوية، كشظايا مُدببة من الحديد المدهون بين القطع النقدية. نظرتُ إلى يدي؛ ظهرَ خيطٌ رفيعٌ من الدم. مسحتُه، مفكّراً، يجب أنْ أُخفي هذه الفوضى! لا أستطيع أنْ أحمل إليها هذا بالإضافة إلى نبأ انتقالي في وقتٍ واحد. تناولت صحيفة عن الكرسي وطويتها حتى أضحتْ متماسكة ورحتُ أجرف القطع النقدية وقطع الحديد وأجمعها على شكل ركام. تساءلتُ، أين يمكن أنْ أُخفيها، وأنا أنظر بامتعاض عميق إلى قطع الحديد الغريبة الشكل، إلى الأحمر الباهت لقطعة من الشفة المكشّرة. فكّرتُ بأسى، ما الذي يدعو ميري إلى الاحتفاظ بشيء كهذا أصلاً؟ ببساطة، لماذا؟ نظرتُ تحت السرير. كان المكان هناك خالياً من الغبار، ولا حيّز لإخفاء أي شيء. لقد كانت ربّة منزل ممتازة. ثم، ماذا عن القطع النقدية؟ اللعنة! لعلَّ الساكن السابق هو الذي تركها. على أية حال، كائناً مَنْ كان صاحبها، ينبغي إخفاؤها. هناك خزانة الملابس، لكنها ستعثر عليها هناك أيضاً. بعد رحيلي ببضعة أيام سوف تُخرِج أغراضي لكي تنظّف المكان وتعثر عليها. حينئذٍ كان الضرب قد تطور إلى أكثر من الاعتراض على انعدام التدفئة، أصبح أشبه بإيقاع رومبا عشوائي:

طق!

طق–طق

طق–طق!

طق!

طق–طق

طق–طق!

جاعلاً الأرض نفسها تهتز.

قلت بصوت مرتفع «امنحوني فقط بضع دقائق، يا أولاد الحرام، وسوف أرحل! لا احترام للفرد. لِمَ لا تفكرون في أولئك الذين يودون أنْ يناموا؟ ماذا لو أنَّ أحدهم أُصيب بانهيار عصبيّ...؟»

ولكن ما زالتْ هناك اللفافة. لم يكن أمامي إلا أنْ أتخلّص منها في طريقي إلى قلب المدينة. صنعتُ لفافة مُحكمة، ووضعتها في جيب معطفي. سوف

أُضطر ببساطة إلى أنْ أعطي ميري ما يكفي من النقود لكي أُغطي على مسألة القطع النقدية. سوف أعطيها قدر ما أستطيع أنْ أوفّر، نصف ما في حوزتي، إذا لزم الأمر. سوف يعوّض ذلك عن بعضه. ويجب أنْ ترضى بذلك. وهأنذا أدركُ مع إحساسٍ بالخوف من *اضطراري* إلى أنْ أقابلها وجهاً لوجه. ولا مخرج آخر. لِمَ لا أخبرها ببساطة بأنني راحل وأدفع لها النقود وأذهب؟ إنها صاحبة المُلك، وأنا المستأجِر – كلا، الأمر يتعدّى هذا ولم أكن قوياً بالقدر الكافي، ولستُ علميّ التفكير بالقدر الكافي، حتى لكي أخبرها بأنني راحل. سوف أخبرها بأنني حصلت على عمل، أي شيء، ولكن يجب أنْ يحدث الآن.

عندما دخلت كانت جالسة على الطاولة تشرب القهوة، والإبريق يغلي على المدفأة، مُرسلاً دفقاً من البخار.

قالت «يا الله، لكنك بطيء هذا الصباح. خُذ بعضاً من ذلك الماء الذي في الإبريق واذهب لتغسل وجهك. وبما أنك تبدو ناعساً، فربما يجب أنْ تستخدم ماءً بارداً»

قلت بفتور «يكفي هذا»، شاعراً بالبخار يهبّ على وجهي، ويُصبح بسرعة رطباً وبارداً. كانت الساعة المُعلّقة فوق المدفأة أبطأ من ساعتي.

في الحمّام وصلتُ القابس وصببتُ بعض الماء الحار وبرّدته من الحنفية. أبقيتُ الماء الدافئ بدرجة حرارة الدموع على وجهي فترة طويلة، ثم جفّفته ورجعتُ إلى المطبخ.

لدى عودتي قالت «املأه من جديد. كيف تشعر؟»

قلت «كأنني...»

كانت جالسة ومرفقاها يستندان إلى أعلى الطاولة المصقول، تحمل كوبها بكلتا يديها، وقد انحنت الإصبع الصغيرة برقّة من إرهاق العمل. اقتربت من المغسلة وأدرت الحنفية، شاعراً بالدفق البارد للماء على يدي، ومفكّراً فيما ينبغي أنْ أفعل...

قالت ميري، وأجفلتني، «يكفي هذا، يا فتى. انتبه!»

قلت «اعتقدتُ أنني لست حاضراً. ذهني شارد»

«حسن، استدعِه وتعال لتشرب بعض القهوة. حالما أنتهي من شرب قهوتي سوف أرى ماذا سنتناول معاً على الإفطار. أعتقد أنك بعد ما حدث الليلة الفائتة تستطيع أنْ تأكل هذا الصباح. أنت لم تعُد على العشاء»

قلت «أنا آسف. يكفيني شرب القهوة»

قالت تحذّرني، وتصبّ لي ملء فنجان من القهوة، «يا فتى، يجب أنْ تعاود الأكل من جديد»

تناولتُ الفنجان ورحتُ أرشف منه، إنها سادة. مُرَّة. راحت تنقّل نظرها بيني وبين وعاء السكّر جيئة وذهاباً لكنني بقيتُ ألزم الصمت، ثم أخذت تُدير فنجانها، وتنظر فيه.

قالت بتأمُّل «أعتقد أنني يجب أنْ أحصل على مصفاة أفضل. التي لديّ تُسرِّب الثفل بالإضافة إلى القهوة، الجيد مع الرديء. ومع ذلك لستُ متأكّدة، حتى مع أفضل المصافي يمكن أنْ تجد قليلاً من الثفل في قعر فنجانك»

نفختُ في السائل المتبخِّر، متفادياً النظر في عينيّ ميري. من جديد أصبح الضرب لا يُحتَمَل. يجب أنْ أرحل. نظرتُ إلى السطح الحارّ ذي اللون المعدني لقهوتي، ملاحظاً دوامة زيتية، متلألئة.

قلت، باندفاع متهور، «اسمعي، يا ميري، أريد أنْ أتحدث معك في أمرٍ ما»

قالت بفظاظة «الآن، اسمع أنت، أيها الفتى. لا أريد منك أنْ تُسبب لي القلق حول قيمة الإيجار في هذا الصباح. أنا لستُ قلقة لأنك عندما تحصل عليه أعلم أنك ستدفعه. وحتى ذلك الحين انسَ أمره. لا أحد في هذا المنزل سيموت جوعاً. هل حالفكَ الحظ وعثرت على عمل؟»

رحت أتلعثم، منتهزاً الفرصة، «كلا – أعني ليس بالضبط. ولكن لدي موعداً في هذا الشأن هذا الصباح...»

أشرقَ وجهها. «أوه، هذا رائع. سوف تحصل عليه. أنا متأكدة»

باشرت بالقول من جديد «ولكن بخصوص الدَين»

سألت، وهي تنهض وتذهب لتبحث في خزانة الطعام، «لا تقلق بشأنه. ما رأيك ببعض الكعك الساخن؟ سوف يدعمك في هذا الطقس البارد»

قلت «ليس لدي وقت. ولكن لديّ شيء لأجلك...»

قالت، وقد خفت صوتها وهي تُنعم النظر داخل الخزانة، «ما هو؟»

قلت بسرعة ماداً يدي إلى جيبي بحثاً عن النقود، «تفضلي»

«ماذا؟ – لنر إنْ كان لديّ بعض العصير...»

قلت بغضب، مُخرِجاً ورقة نقدية بقيمة مئة دولار، «ولكن انظري»

قالت، وما زال ظهرها لي، «لابد أنه على الرف الأعلى»

تنهدتُ وهي تجرّ سُلّماً من جانب الخزانة وترتقيه، متمسّكة بالدرفتين ومُحدّقة في الرف العلوي. لن تُتاح لي الفرصة لأقول ما لديّ...

قلت «لكنني أحاول أنْ أعطيك شيئاً»

قالت ملتفتة نحوي «لِمَ لا تكفّ عن إزعاجي، أيها الفتى؟ أنت تحاول أنْ تعطيني *ماذا*؟»

رفعت الورقة النقدية، وقلت «هذه»

مدّت عنقها. «ماذا لديك هناك، يا فتى؟»

«إنها نقود»

قالت، وكادت تفقد توازنها وهي تستدير استدارة كاملة، «نقود؟ يا لله، يا فتى! من أين لك كل هذا الكم من النقود؟ أكنت تشتري اليانصيب؟»

قلت ممتناً «بالضبط. وكان الرقم الفائز من نصيبي» – ومفكّراً، ماذا سأقول إذا سألتْ عن الرقم؟ لا أدري. فأنا لم أكن قد اشتركت مرة في اليانصيب.

«ولكن كيف لم تُخبرني؟ على الأقلّ كنتُ اشتركتُ معك»

قلت «لا أظن أنَّ ذلك كان سيفيد»

«حسن، أنا مندهشة. وأراهن على أنها المرة الأولى بالنسبة إليك أيضاً»

«هي كذلك»

«أرأيت، كنتُ أعلم أنك محظوظ. وها أنا ذي أشترك منذ سنين وأنت تشترك للمرة الأولى وتفوز. إنني سعيدة جداً لأجلك، يا بنيّ. حقاً سعيدة. ولكنني لا أريد نقودك. انتظر حتى تحصل على عمل»

قلت على عجل «لكنني لا أعطيك المبلغ كله، هذا فقط على الحساب»

«ولكن هذه ورقة بمئة دولار. إذا أخذتها وأردتُ أنْ أصرفها سوف يُطالب القوم البيض بمعرفة تاريخ حياتي كله». نخرت. «سوف يطلبون معرفة مكان ولادتي، ومقرّ عملي، وأين كنتُ خلال الأشهر الستة الأخيرة، وحتى بعد أنْ أخبرهم سوف يظنون أنني سرقتها. أليستْ لديك ورقة بقيمة أصغر؟»

ناشدتها «هذه أصغر واحدة. خذيها. لديّ ما يكفي»

نظرتْ إليّ بدهاء «أواثق أنت؟»

قلت «إنها الحقيقة»

«حسن، يا للغرابة - دعني أنزل عن هذا العلوّ قبل أنْ أسقط ويُدقّ عنقي!» ثم قالت، وهي تهبط عن السلَّم، «يا بني، إنني حقاً شديدة الامتنان. ولكن يجب أنْ أخبرك بأنني لن أحتفظ إلا بجزء منه لنفسي أما الباقي فسوف أدّخره لك. وعندما تضيق بك الحال تعال إلى ميري»

قلت، وأنا أراقبها تطوي الورقة النقدية بعناية، وتضعها في الحقيبة الجلدية المُعلَّقة دائماً على ظهر كرسيها.

«إنني حقاً سعيدة، لأنَّ في استطاعتي الآن أنْ أسدد قيمة الفاتورة التي لا ينون يزعجونني بشأنها. سوف يُريحني كثيراً أنْ أخبر أولئك القوم بأنْ يكفّوا عن إزعاجي. يا بنيّ، أعتقد أنَّ حظَّك قد تغيَّر. هل حلمتَ بذلك الرقم؟»

ألقيت نظرة على وجهها المتلهِّف. قلت «نعم، لكنه كان حُلماً مختلطاً»

«ماذا كان الرقم -» ثم صرخت «يا يسوع! ما هذا!» وهي تنهض واقفة وتشير إلى قطعة المُشمّع الموجودة بالقرب من البخار المنبعث.

رأيتُ رتلاً قصيراً من الصراصير يمشي بخطى هستيرية على طول أنبوب البخار بدءاً بالأرض ونحو الأعلى، ثم تسقط إلى الأرض عندما يهزها ارتعاش الأنبوب.

صرخت ميري «هات المكنسة! من الخزانة التي هناك!»

درت حول الكرسي وانتزعت المكنسة وانضممتُ إليها، أوزّع الصراصير وأُشتتها بالمكنسة وبقدمي، وأسمع فرقعة وقصفاً وأنا أدوسها بحماس.

صرخت ميري «مخلوقات قذرة، كريهة. أخرج ذاك من تحت الطاولة! لقد ذهب إلى هناك، لا تدعه يهرب! ذلك الوغد القذر!»

أطحتُ بالمكنسة أكنسها وأسحقها وأجمعها في ركام. تنفستْ ميري من الإثارة وأحضرت اللقّاطة وأعطتنيها.

قالت باشمئزاز «بعض الناس يعيشون وسط القذارة. ما إنْ تبدأ بالضرب حتى تخرج زاحفة. وكل ما عليك أنْ تفعل هو أنْ تهزّ تلك الأشياء قليلاً»

نظرتُ إلى البقع الرطبة على المشمع، ثم أعدتُ اللقاطة والمكنسة وأنا أرتعش وهممتُ بترك الغرفة.

قالت «ألن تتناول إفطارك؟ حالما أزيلُ هذه الفوضى سوف أبدأ بإعداده»

قلت، ويدي على أُكرة الباب، «لا وقت لديّ. موعدي باكر وأمامي بعض الأمور يجب أنْ أسويها قبل ذلك»

«إذن يُستحسن أنْ تتوقف وتتناول شيئاً حاراً حالما تتمكن من ذلك. حذار من أنْ تتجول في مثل هذا الطقس البارد من دون أنْ تملأ معدتك. وإياك أنْ تبدأ بتناول طعامك في الخارج لمجرد أنه بات معك بعض النقود!»

قلت لها من خلف ظهرها وهي تغسل يديها «لن أفعل. سوف أحرص على هذا»

هتفتْ «إذن، حظاً حسناً، يا ولدي. لقد أهديتني مفاجأة سارة هذا الصباح – وإذا كان *هذا* كذباً، فأتمنى أنْ يعضّني شيء كبير!»

ضحكتْ بمرح وقطعتُ أرض الردهة إلى غرفتي وأغلقتُ الباب. ارتديتُ معطفي وأنزلتُ حقيبتي من الخزانة. كانت لا تزال جديدة كليلة المشاجرة العنيفة، وتراخت الآن عندما وضعتُ فيها الحصّالة المكسورة والقطع النقدية وأغلقت المشبك. ثم أغلقت باب الخزانة وغادرت.

الآن لم يعد الطرْقُ يزعجني كثيراً. كانت ميري تغني لحناً حزيناً وصافياً عندما مشيت على طول الردهة، وكانت لا تزال تغني وأنا أفتح الباب وأخطو إلى خارج الردهة. ثم تذكّرت، وهناك تحت ضوء الردهة المُعتم أخرجتُ الورقة بعطرها الواهن من محفظة نقودي وفتحتها بعناية. سَرَتْ في أوصالي

رعشة؛ كانت الردهة باردة. ثم زالت وضيَّقتُ عينيّ وألقيتُ نظرة طويلة، مُدقّقة على اسمي الجديد الذي خلعَتْهُ عليّ الأخوية.

كانت الثلوج التي هطلت في أثناء الليل أضحت الآن خليطاً لزجاً بفعل السيارات المارّة؛ وأصبحَ الجوّ أكثر دفئاً. انضممتُ إلى المُشاة على الرصيف، وأنا أشعر بالحقيبة تتأرجح وتضرب ساقي من ثقل الحمولة، وصمَّمتُ على التخلُّص من القطع النقدية والحديد المُهشَّم في أقرب حاوية للقمامة. ولم أكن في حاجة إلى شيء كهذا ليُذكّرني بآخر صباح أمضيته في منزل ميري.

وصلتُ إلى صف من حاويات القمامة المُحطَّمة موضوعة أمام صف من المنازل الخاصة، اقتربت منها ورميت الحزمة بحركة عَرَضيّة إلى إحداها وتابعت طريقي – وإذا بي أسمع باباً يُفتَح خلفي وصوتاً يرنّ عالياً.

«أوه، كلا لن تفعل! عُد إلى هنا وخذها!»

التفتُّ، فرأيتُ امرأة ضئيلة تقف على شرفة الباب وتضع على رأسها وكتفيها معطفاً أخضر، وكُمّاه يتدليان بارتخاء كذراعين إضافيتين ضامرَتين.

هتفت «أنا أكلمك أنت. عُدْ إلى هنا، وخذ زبالتك. وإياك ثم *إياك* أنْ ترمي زبالتك في حاويتي مرة أخرى!»

كانت امرأة قصيرة شاحبة اللون تضع نظارة أنف مربوطة بسلسلة، وشعرها مُثبَّتاً عالياً على شكل عُقد.

«إننا نُحافظ على حيّنا نظيفاً ومحترماً ونرفض أنْ تأتوا أنتم معشر زنوج الحقول إلى هنا من الجنوب وتُفسدوه» هكذا صاحت بحقد يتلظّى.

بدأ الناس يتوقفون ليتفرجوا. وخرج بواب من أحد الأبنية المجاورة ووقف في وسط الرصيف، وهو يضرب قبضة يده على راحة يده الأخرى مع صوت جاف كالصفعة. تردّدتُ، مع ارتباك وانزعاج. أمجنونة هذه المرأة؟

«أنا جادّة! نعم، أنت! أنا أكلّمك أنت! فقط أخرجها من هنا!» ثم هتفت لشخص في داخل المنزل، «روزالي، اتصلي بالشرطة، روزالي!»

قلت في نفسي، لا أستطيع أنْ أتحمّل هذا، وعدتُ أدراجي إلى الحاوية.

وهتفتُ لها «ما أهمية ذلك، يا آنسة؟ عندما يأتي جامع القمامة، فالزبالة هي زبالة. أنا فقط لم أرد أنْ أرمي بها إلى الشارع. لم أكن أعلم أنَّ بعض القمامة أفضل من غيرها»

قالت «وفِّر وقاحتك. لقد سئمت عبثكم يا زنوج الجنوب بأغراضنا!»

قلت «حسن، سوف أُخرجها»

مددتُ يدي إلى داخل الحاوية الممتلئة حتى منتصفها، متحسساً مكان الحزمة، والأبخرة ورائحة العفن تنفذ إلى منخري. بدتْ ليَدي ضارة، وكانت الحزمة الثقيلة قد غاصت إلى القاع. رفعتُ كُميّ بيدي النظيفة، وأنا أسبّ وألعن، ورحت أحفر إلى أنْ عثرتُ عليها. ثم مسحت ذراعيّ بمنديل وتابعت طريقي، واعياً للأشخاص الذين يتوقفون ويُكشرون في وجهي.

هتفت المرأة الضئيلة من الشرفة، «تستحق هذا»

ثم استدرت وتابعت هبوطي. «يكفيني منك هذا، أيتها القمامة الصفراء. إلا إذا أردتِ أنْ تستدعي الشرطة». كان صوتي قد تلبَّسَ نبرة عالية. «لقد نفّذتُ ما طلبتِ؛ إذا تفوّهتِ بكلمة أخرى فسوف أفعل ما أريد فعله –»

نظرتْ إليّ بعينين ضاريتين، وقالت، وهي تفتح الباب، «لا أشكّ في أنك ستفعل؛ لا أشك في أنك ستفعل»

قلت «ليس أني سأفعل فقط، بل سأحب ذلك أيضاً»

هتفت، وهي تصفع الباب، «أستطيع أنْ أرى أنك لست رجلاً محترماً»

عند الصف التالي من حاويات القمامة مسحتُ رسغي ويديّ بقطعة من صحيفة، ثم لففتُ الحزمة بما تبقى منها. في المرة التالية سوف أرميها في الشارع.

بعد مسافة مبنيين كان غضبي قد انحسر، لكنني شعرت بوحشة غريبة. حتى الأناس المُحيطين بي عند تقاطع الطرق بدوا منعزلين، كل منهم غارق في أفكاره الخاصة. والآن وقد تغيّرت الأضواء تركتُ الحزمة تسقط مني على الثلج المُداس وهرعت أعبر الشارع، وأنا أقول في نفسي، ها قد انتهى الأمر.

كنتُ قد مشيت مسافة مبنيين عندما هتف شخص خلفي، «أنت، يا أخانا إ هيه، هناك! أنت، يا سيد... انتظر لحظة!» وسمعت وقع خُطى مسرعة تسحق الثلج. وأصبح إلى جواري، كان رجلاً قصير القامة وبديناً بملابس رثّة، ظهرت دفقات أنفاسه بيضاء في البرد عندما ابتسم لي، لاهثاً.

قال «إنك تتقدم بسرعة كبيرة حتى حسبتُ أنني لن أتمكن من إيقافك. ألم تفقد غرضاً هناك؟»

أوه، اللعنة، قلت في نفسي، إنه صديق وقت الضيق، وقررتُ أنْ أتجاهله؟ قلت «فقدتُ غرضاً؟ طبعاً لا»

قال، عابساً، «أمتأكّد أنت؟»

قلت، عندما رأيتُ جبينه يتغضّن بالارتياب، وشحنة ساخنة من الخوف تقفز إلى عينيه وهو يُدقق في وجهي، «نعم»

قال «ولكن لقد رأيتك – قُل لي، أيها الأخ، ماذا تحاول أنْ تفعل؟»، وهو يُلقي نظرات سريعة على الشارع.

«أفعل؟ ماذا تعني؟»

«أعني قولك إنك لم تفقد أي شيء. أتحاول أنْ تخدعني أم ماذا؟» تراجع مبتعداً وهو يلقي نظرات سريعة على المُشاة في الطريق من حيث أتى.

قلت «ما الذي تتحدث عنه بحق الله الآن؟ لقد قلت لك إنني لم أفقد شيئاً»

قال، وهو يُخرج الحزمة من جيبه بحركة مختلسة، «يا رجل، لا تجنّني! لقد *رأيتك*. ماذا تقصد بحق الجحيم؟ هذا هنا يبدو كأنه نقود أو مسدس أو ما شابه وأنا أعلم عِلم اليقين أنك أسقطته»

قلت «أوه، *هذا*. هذا لا شيء – حسبتُ أنك –»

«بالضبط، «أوه»، إذن تذكّرتَ الآن، أليس كذلك؟ أنا أعتقد أنني أقدم لك معروفاً وأنت تعاملني كأحمق. أأنت محتال أم بائع متجول أحمق أم ماذا؟ أتحاول أنْ تمارس إحدى حيلك عليّ؟»

قلت «*حيلة*؟ أنت تُخطئ –»

قال «أُخطئ، اللعنة! خُذ هذا الغرض اللعين» وأقحم الحزمة بين يديّ وكأنها قنبلة موقوتة. «أنا عندي عائلة، يا رجل. إنني أحاول أنْ أقدم لك معروفاً وها أنت تحاول أنْ تورطني في المشاكل – أأنت هارب من مُحقق أو أحد ما؟»

قلت «انتظر لحظة، أنت تُطلق العنان لخيالك؛ ليس هذا إلا قمامة –»

صرَّ قائلاً «لا تحاول أنْ تُعطيني هذا الخراء المعتوه. أنا أعرف أي نوع من القمامة هذه. أنتم معشر زنوج نيويورك الشبان مشبوهون! أُقسم على أنك كذلك! آمل أنْ يقبضوا عليك ويزجوا بك في السجن!»

انطلقَ مبتعداً وكأنني مُصاب بالجُدري. نظرتُ إلى الحزمة. قلت لنفسي وأنا أتابعه يبتعد، إنه يظن أنها تحوي مسدساً أو بضاعة مسروقة. وبعد أنْ مشيت بضع خطوات أخرى هممتُ برميها بوقاحة في الشارع عندما نظرتُ خلفي ورأيته، وهذه المرة مع رجل آخر، يومئ نحوي بسخط. حثثتُ خطاي، مانحاً الأحمق وقتاً ليستدعي رجل شرطة. وأعدتُ الحزمة إلى الحقيبة. سوف أنتظر إلى أنْ أصل قلب المدينة.

في القطار النفقي كان الناس من حولي يقرؤون صحيفة الصباح، يضغطون وجوههم النكدة إلى الأمام. كنتُ أركب مُغمض العينين، أحاول أنْ أُفرِغ ذهني من التفكير في ميري. ثم التفتُّ، فرأيت، حالما أنزلَ الرجل صحيفته وخرج من خلال الأبواب المتحركة، العنوان ***احتجاج عنيف ضد عملية نزع ملكية في هارلم***. كدتُ لا أطيق الانتظار حتى أصل إلى الشارع الثاني والأربعين، وهناك وجدتُ القصة على الصفحة الأولى في مجلة الفضائح، فقرأتها بنهم. وأُشيرَ إليّ فيها فقط بوصفي «مُحرِّض دهماء» مجهولاً اختفى وسط الفوضى، ولكن لم يكن هناك شك في أنني كنتُ المقصود. كان الحادث قد استغرق ساعتين، والحشد يرفض إخلاء المبنى. ثم ولجتُ محل بيع الملابس مع إحساس جديد بأهمية شخصي.

انتقيتُ بذلة غالية الثمن أكثر مما كنتُ قد قررت أنْ أدفع، وفي أثناء عملية استبدالها انتقيتُ قبعة، وحذاءً، وملابس داخلية وجوارب، ثم هرعتُ لأتصل بالأخ جاك، الذي أصدر أوامره بحدّة وكأنه قائد عسكري. كان عليّ

أنْ أذهب إلى منزل يقع في الجانب الشرقي الأعلى حيث سأجد غرفة، وعليّ أنْ أقرأ من جديد بعضاً من نتاج الأخوية تُرِكَ هناك لأجلي، مع التفكير في فكرة إلقاء خطبة في مسيرة في هارلم سوف تجري في مساء ذاك اليوم.

كان العنوان يقع في مبنى غير معروف في حي من مزيج الإسبان والأيرلنديين، وعندما قرعت جرس البواب كان هناك صِبية يتراشقون بكرات الثلج على الجانب المقابل من الشارع. فتحت لي الباب امرأة ضئيلة الحجم جميلة الوجه تبتسم.

قالت «صباح الخير، أيها الأخ. الشقّة جاهزة لأجلك. لقد قال إنك ستصل في مثل هذا الوقت وقد هبطت للتو من الأعلى. يا الله، انظر إلى هذا الثلج»

تبعتُها وصعَدنا ثلاثة مطالع للدرج، أتساءل ماذا سأفعل بشقّة كاملة.

قالت، وهي تُخرِج سلسلة مفاتيح من جيبها وتفتح باباً في واجهة الرواق. ولجتُ غرفةً صغيرة مفروشة ومريحة تسطع بشمس الشتاء. قالت بفخر «هذه هي غرفة الجلوس، وهناك غرفة نومك»

كانت أكبر مما أحتاج، ومزودة بخزانة أدراج، وكرسيين مُنجّدين، وخزانتَي ملابس، وبرفٍ للكتب وطاولة مكتب تكدس عليها النتاج الذي كان قد أشار إليه. وكان الحمّام يقع مقابل غرفة النوم، وكان هناك مطبخ صغير.

قالت، وهي تغادر، «آمل أنْ تكون قد أعجبتك، أيها الأخ. إذا احتجتَ إلى أي شيء، اقرع الجرس، من فضلك»

كانت الشقّة نظيفة وأنيقة وأعجبتني - خاصة الحمّام بحوض الاستحمام والدش. وبأسرع ما استطعت أعددتُ الحمّام واغتسلت. وعندما أصبحتُ نظيفاً ومنتعشاً خرجتُ أخوض في كتب الأخوية وكتيباتها. كانت حقيبة يدي مع الصورة المكسورة على الطاولة. سوف أتخلص من الحزمة لاحقاً؛ أما الآن فيجب أنْ أفكر في مسيرة هذه الليلة.

-16-

عند الساعة السابعة والنصف مرَّ عليّ الأخ جاك مع الآخرين ليقلّوني وانطلقنا إلى هارلم بسيارة أجرة. وكما حدث في المرة السابقة، لم يفه أحدٌ بكلمة. لم يصدر صوت إلا عن الرجل الجالس في الزاوية الذي كان يتنشّق بصوت مسموع دخان غليون مملوء بتبغ بنكهةِ الرّم ويجعله يتوهج بين حين وآخر، كقرصٍ أحمر في الظلام. كنتُ أزداد توتراً؛ وشعرتُ بالسيارة دافئة دفئاً غير طبيعي. ترجَّلنا في شارع جانبي ومشينا في زقاقٍ ضيِّق إلى خلفية مبنى ضخم أشبه بالحظيرة. وكان أعضاء آخرون قد وصلوا قبلنا.

قال الأخ جاك، «أه، ها قد وصلنا»، وهو يتقدمنا خلال بابٍ خلفيّ قاتم إلى غرفة ارتداء للملابس مُضاءة بمصابيح عارية ومنخفضة - غرفة صغيرة تحتوي مقاعد خشبية وصفّاً من خزانات تبديل الملابس الفولاذية مع شبكة من الأسماء مُخربشة على الأبواب. كانت تفوح منها رائحة عرق بائت للاعبي كرة قدم، ورائحة يود، ودم وكحول للتدليك، وشعرت بالذكريات تنشط داخلي.

قال الأخ جاك «سوف نبقى هنا إلى أنْ يمتلئ المكان، بعد ذلك سوف نظهر - في الوقت الذي يكونون قد وصلوا إلى منتهى نفاد الصبر» ورسم لي تكشيرة، «وحتى ذلك الحين، فكِّر فيما ستقول. هل استعرضتَ المواد؟»

قلت «طوال النهار»

«عظيم. ولكن أقترحُ أنْ تُصغي بعناية لبقيتنا. سوف نتقدّمك كلنا لكي تجمع بعض الأفكار تستفيد منها. سوف تكون الأخير»

أومأتُ برأسي موافقاً، ورأيته يُمسك باثنين من الآخرين من ذراعيهما

ويتراجع إلى إحدى الزوايا. أصبحتُ وحيداً، كان الآخرون يُراجعون ملاحظاتهم، ويتحدثون. اجتزتُ أرض الغرفة واقتربت من صورة فوتوغرافية ممزقة مُثبّتة إلى الجدار الباهت اللون. كانت لقطة لوضعية قتال، لبطلٍ سابقٍ في الملاكمة، ملاكم شعبيّ كان قد فقَدَ بصره في الحلبة. قلت في نفسي، لابد أنَّ ذلك وقع هنا بالذات في هذه الحلبة. قبل سنينٍ عديدة. وكانت الصورة تبيِّن رجلاً شديد سواد البشرة ومضروباً إلى درجة أنَّ جنسيته لم تكن واضحة. كان ضخم الجثة متراخي العضلات، وبدا رجلاً صالحاً. وتذكّرتُ قصة والدي وكيفَ ضُرب حتى العمى في قتال غير شريف، وكيف تم إخفاء الفضيحة، وكيف توفي المقاتل في دار للعميان. مَنْ كان يظن أنني سأصل إلى هنا؟ ما أعجب ما تؤول إليه الأمور! شعرت بحزنٍ غريب وذهبت لأسترخي على أحد المقاعد الخشبية. وتابع الآخرون حديثهم بأصوات منخفضة. راقبتهم بإحساس مفاجئ بالامتعاض. لِمَ وضعوني ***أنا*** في آخر الخطباء؟ ماذا لو جعلوا الجمهور يشعر بالضجر المميت قبل أنْ يأتي دوري! لعلهم سيصرخون طالبين مني أنْ أنزل حتى قبل أنْ أبدأ... قلت في نفسي، وأنا أطرح شكوكي جانباً، وربما لا. قد أترك فيهم أثراً بمجرد إحداث فرق بين أسلوبي وأسلوبهم. لعلّ هذه هي الاستراتيجية الناجعة... على أية حال، كان لابد أنْ أثق بهم. كنتُ مُضطراً.

ومع ذلك ظل التوتّر يُمسك بتلابيبي. شعرت بغُربة عن المكان. وسمعت من خلف الباب حفيف كراسٍ نائياً، وهمهمة أصوات. وتحركتْ داخلي منابع قلق صغيرة: قد أنسى اسمي الجديد؛ قد يتعرَّف عليّ أحد من الجمهور. ملتُ إلى الأمام، وأدركتُ فجأة أنني أرتدي بنطلوناً أزرق جديداً في ساقيّ. وتساءلتُ ولكن كيف تعرف أنّهما ساقاك؟ وكيف تعرف اسمك؟ مازحاً بحزنٍ مع نفسي. كان ذلك سخيفاً، لكنّه أرخى توتّري. ذلك أنني كنتُ كأنني أنظر إلى ساقيّ للمرة الأولى - كشيئين مُستقلين يستطيعان بإرادتهما الخاصة أنْ يقوداني إلى برّ الأمان أو إلى الخطر. حدَّقتُ إلى الأرضيّة المكسوة بالغبار. ثم شعرتُ كأنني أعود إلى وعيي بعد فترة طويلة من غياب الوعي، وكأنني كنتُ واقفاً في وقتٍ واحد على طرفيّ نفق متقابلين. وكأنني أنظر إلى نفسي من مساحة حرَم الجامعة وفي الوقت نفسه لا أزال جالساً

على المقعد الخشبي في حلبة الملاكمة القديمة؛ أرتدي بذلة زرقاء جديدة؛ وأجلسُ في الطرف المقابل للغرفة بعيداً عن مجموعة من الرجال المنفعلين يتحدثون فيما بينهم بأصوات هامسة، متوترة؛ في حين أنني أيضاً من مسافة بعيدة أسمع قعقعة كراس، ومزيداً من الأصوات، وسعالاً. وكأنني أعي ذلك كله من نقطةٍ في أعماقي السحيقة، ومع ذلك كان ما رأيت يتَّسِمُ بإبهام مُزعج، بسِمةٍ مُشوَّشة مزعجة، وكأنّكَ ترى نفسك في صورة فوتوغرافية أُخِذَتْ لكَ خلال فترة المراهقة: بوجه خالٍ من التعبير، بتكشير خال من التميُّز، بأُذنين مفرطتيّ الحجم، وثآليل، «نتوءات الشجاعة»، كثيرة جداً وشديدة الوضوح. أدركتُ أنَّ تلك كانت حقبة جديدة، بداية جديدة، وسوف أُضطر إلى أنْ أفصل ذلك الجزء مني الذي ينظر بعينين شاردتين وأُبقيه دائماً ضمن نطاق حرَم الجامعة، وآلة المستشفى، والمشاجرة الجماعية - ذلك كله أصبح خلفي. لعلّ ذلك الجزء مني الذي كان يُراقب بتوانٍ لكنه رأى كل شيء، من دون أنْ يفوته أي شيء، كان لا يزال الجزء الماكر، المُجادِل؛ الصوت المنشقّ، جزء جدّي؛ الجزء الساخر، غير المُصدِّق - الذات الخائنة التي دائماً تُهدِّد بالتنافُر الداخلي. وكائناً ما كان، كنتُ أعلم أنني يجب أنْ أُبقيه مكبوحاً. كنتُ مُضطراً. ذلك أنني إذا أحرزتُ النجاح هذه الليلة، فسوف أنطلق لأُحقق إنجازاً أكبر. لا مزيدَ من الطيران منفصلاً بأقصى سرعة، لا مزيد من تذكُّر آلام منسيّة... قلت في نفسي، وأنا أُغيِّر من جلستي، كلا، إنهما الساقان نفساهما اللتان حملتاني كل تلك المسافة من أرض الوطن. ومع ذلك كانتا بصورة ما جديدتين. لقد أضفت البذلة الجديدة عليّ الجِدَّة. الملابس والاسم الجديد والظروف. كانت جِدَّة مرهفة جداً ولا يمكن صياغتها بفكرة، ولكنها موجودة. كنتُ أُصبح شخصاً آخر.

أحسستُ بإبهام وبومض من الرعب أنّني حالما أتقدَّم على المنصة وأفتح فمي سأصبح شخصاً آخر. ليس نكرةً فقط، يحمل اسماً زائفاً يمكن أنْ يكون اسم أي شخص، أو لا أحد. بل شخصية أخرى أيضاً. الآن لا تعرفني إلا قلّة قليلة من الناس، ولكن بعد هذه الأمسية... كيف يشعر المرء؟ ربما فقط أنه مشهور، أنَّ الكثيرين يرنون إليه، يُصبح مركز جذب العديد من العيون المُحدّقة، ولعل هذا يكفي ليجعله مختلفاً؛ بما يكفي لتحويله إلى كيان آخر،

إلى شخص آخر؛ كما أنَّ ازدياد حجم الفتى باطراد يجعل منه ذات يوم رجلاً؛ رجلاً بصوتٍ عميق - على الرغم من أنَّ صوتي كان عميقاً منذ أنْ كنتُ في الثانية عشرة. ولكن ماذا لو أنَّ أحد طلاب الجامعة كان بين الحضور؟ أو أحد سكان منزل ميري - أو حتى ميري نفسها؟ وسمعتُ نفسي أقول بصوت خافت، «كلا، إنَّ هذا لن يُغيِّر شيئاً، لقد أصبح ذلك من الماضي». أصبح اسمي مختلفاً؛ وكنتُ خاضعاً لأوامر. حتى وإنْ قابلتُ ميري في الشارع، فسوف أُضطر إلى تجاوزها كأنني لم ألاحظها. فكرة مُقبضة للنفس - ونهضتُ على الفور وخرجتُ من غرفة تبديل الملابس إلى الزقاق.

كان الجو بارداً من دون معطف. اجتزتُ الزقاق إلى الجانب المُظلم، ووقفتُ بجوار سياجٍ يفوح برائحة حمض الكبريت دفعتني، عندما التفتُّ لأنظر خلفي عبر الزِّقاق، إلى تذكُّر حفرة هائلة الحجم كانت موقع حلبة ممارسة الألعاب الرياضية احترقتْ قبل أنْ أولَد. وكل ما تبقّى من جرفٍ ينحدر مسافة أربعين قدماً تقريباً نحو أسفل الرصيف الذي تلوّى بفعل الحرارة، كان هيكلاً من الإسمنت مع قضبان صدئة تلوَّتْ بطريقة غريبة هو الطابق تحت الأرضي منه. كانت الحفرة تُستخدَم لإلقاء النفايات، وبعد هطل المطر تفوح منها رائحة العفونة وتمتلئ بالمياه الآسنة. وأتخيّل نفسي الآن واقفاً على الرصيف أنظر عبر الحفرة إلى ما بعد كوخ هوفرفيل حيث تُخزَّن الصناديق واللافتات القصديرية الملتوية، إلى فناء سكة الحديد. ثمة مياه قاتمة لا قرار لها لا تتحرك تملأ الحفرة، وبعد هوفرفيل هناك آلة تحويل مُعطّلة على سكك الحديد البراقة، وبينما ينبعث تشكيل من البخار الأبيض كريشةٍ تتلوى ببطء من المدخنة أرى رجلاً يخرج من الكوخ ويمشي على بقعة الأرض التي تؤدي إلى الرصيف العلوي. يجرّ قدميه جرّاً، محدودب الظهر وقاتماً وتنتئ شظايا من حذائه، يعتمرُ قبعة ويرتدي قميصاً، متقدّماً مني، جالباً معه سحابة مُهدّدة من حمض الكبريت. كان مُصاباً بالسفلس يعيش وحيداً في الكوخ بين الحفرة وفناء سكة الحديد، يأتي إلى الشارع فقط لكي يستجدي نقوداً لشراء طعام ومُطهر لينقع فيه جوربه وأسماله. ثم رأيتُه بعين عقلي يمدُّ يداً تهرّأت منها الأصابع وأفرّ هارباً - عائداً إلى الظلام، وإلى البرد والحاضر.

ارتعشتُ، ونظرتُ نحو الشارع، حيث لاحَ في آخر الزقاق وخلال الظلام الممتد، ثلاثة من رجال الشرطة الراكبين تحت الشعاع الدائري، المتلألئ بالثلج لمصباح الشارع، مُمسكِين بزمام جيادهم، ورؤوس الرجال والحيوانات متقاربة، كأنهم يتآمرون؛ وجلد سروجهم وسيقانهم يشع. ثلاثة رجال بيض وثلاثة جياد سود. ثم مرّت سيارة ثم ظهروا بكل جلاء، وظلالهم تطير كالأحلام عبر تلألؤ الثلج والظلام. وحالما استدرتُ لأبتعد، هز أحد الجياد رأسه بعنف ورأيتُ قبضة اليد المجرّدة من القفاز تنجذب بعنف نحو الأسفل. ثم سمعت صهيلاً جامحاً وغاص الجواد بعيداً في الظلام، وتبعَتني قعقعة المعدن الحادّة، المسعورة، وضرب الحوافر حتى الباب. ربما يجب أنْ يعرف الأخ جاك بهذا الأمر.

ولكن في الداخل كانوا لا يزالون يتشاورون، فعدتُ وجلست على المقعد الخشبي.

راقبتهم، شاعراً بأنني صغير السن وغرّ ومع ذلك متقدّم في السن بصورة غريبة، تقدُّمٌ في السن يُراقبُ، وينتظِرُ بهدوء داخلي. وفي الخارج كان الجمهور قد بدأ يُصدر همهمة كسولاً؛ همهمة بعيدة، متوترة أعادتْ إليّ رعب حادثة نزع الملكية. وتدفق ذهني. كان هناك طفل يقفُ بملابسه خارج سياج الدجاج، ينظر إلى كلب ضخم أسود وأبيض، مربوط إلى شجرة تفاح. كان ماستر، كلب البولدوغ؛ وكنتُ أنا الطفل الذي يخشى أنْ يلمسه، على الرغم من أنه بدا، وهو يلهث من شدّة الحرّ، كأنه يبادلني الابتسام كرجل بدين ودود، واللعاب يسيل فضيّاً من بين فكّيه. وبينما أصوات الجمهور تضجّ وتعلو وتتحول إلى تصفيق متفرق يدل على نفاد الصبر، كنتُ أفكّر في زمجرة ماستر الجشّاء المنخفضة. وكان ينبح بالنبرة نفسها عندما كان يغضب أو يُجلَب له طعامه، أو عندما يطرد الذباب بكسل، أو عندما يمزّق شخصاً دخيلاً إرباً. لقد حببتُ العجوزَ ماستر، لكنني لم أثق به؛ وأردت أنْ أرضي الحشود، لكنني لم أثق بها. ثم نظرتُ إلى الأخ جاك وكشّرت: هذا واقع الأمر؛ لقد كان بصورة ما أشبه بكلب دمية ضخم.

أما الآن فتحول الضجيج والتصفيق إلى أغنية ورأيتُ الأخ جاك يطفر ويقفز نحو الباب. قائلاً «حسن، أيها الأخوة، هذه الإشارة لنا»

انطلقنا دفعة واحدة، خرجنا من غرفة تغيير الملابس إلى ممر مُعتم مع ضجيج ناءٍ. ثم أصبح الضوء أكثر سطوعاً ورأيتُ بقعة ضوء متوهجة وسط سديم الدخان. تقدّمنا في صمت، الأخ جاك يتبع اثنين من الزنوج حالكيّ السواد مع اثنين من البيض قادا الموكب، وهنا بدأ هدير الحشد يرتفع فوقنا، ويتعالى. ورأيتُ الآخرين يصطفون في أرتال من أربعة، وبقيتُ وحدي في المؤخرة، كمحور فريق تدريب عسكري. أمامنا كان شعاعٌ من الضوء يُحدِّد المدخل إلى أحد مستويات الحلبة، والآن لدى اجتيازنا له أطلقَ الجمهور هديراً. وبسرعة عدنا إلى الظلام من جديد، وعندما ارتقينا، بدا أنَّ الهدير قد غاص وأصبح تحتنا وانتقلنا إلى إضاءة زرقاء برّاقة وهبطنا منحدراً؛ وعلى الجانبين رأيتُ صفوفاً ممتدة بخطٍ منحنٍ من الوجوه الضبابية - وفجأة لم أعد أرى شيئاً وشعرت بأنني مضغوط على الرجل الذي يتقدّمني.

صاح، بعد أنْ توقف لكي يتيح لي أنْ أتوازن، وبدا صوته مكبوتاً وسط الهدير، «دائماً يحدث هذا في المرة الأولى. بسبب بقعة الضوء!»

عندئذ سقطت البقعة علينا، وأمامنا كان الحشد يهدر مُشرقاً ويقودنا إلى الحلبة وقد اكتنفَنا وسط إشراقه. وانفجرتْ أغنيةٌ تصدح كقذيفةٍ على إيقاع مارش من الأيدي المُصفّقة:

جثمان جون براون مُسجّى
في القبر
جثمان جون براون مُسجّى
في القبر
جثمان جون براون مُسجّى
في القبر
- وروحه تتابع المسيرة!

قلت في نفسي، تخيَّل كيف أنهم يجعلون الأغنية القديمة تبدو جديدة. في أول الأمر كنتُ نائياً وكأنني أقف على أعلى شُرفة وأمدّ بصري. ثم مشيت منتقلاً مباشرة إلى اهتزازات الأصوات وشعرتُ بالكهرباء تخز عمودي

الفِقري. تقدّمنا نحو منصّة مزيّنة بالعلم مُقامة بالقرب من مقدمة الحلبة، نمشي على ممر بين صفوف الناس الجالسين على كراسٍ قابلة للطيّ، وارتقينا المنصة مجتازين عدداً من النسوة وقفنَ لدى دخولنا. أشارَ الأخ جاك إلى مقاعدنا بإيماءٍ من رأسه وأصبحنا في مواجهة التصفيق.

كان الجمهور فوقنا وتحتنا، صفوف وصفوف ممتدَّة من الوجوه، والحلبة تجمُّعٌ إنسانيّ على شكل طاسة. ثم رأيت رجال الشرطة واضطربت. ماذا لو لاحظوا وجودي؟ كانوا يصطفون على طول الجدار. لمستُ ذراع الرجل الجالس أمامي، وعندما التفتَ، وفمه يلهج بترديد بيت من النشيد.

قلت، وأنا أميل إلى الأمام نحو ظهر كرسيه، «ما سبب كل هذه الشرطة؟»

قال، مُشيحاً بوجهه، «شرطة؟ لا تقلق. هذه الليلة لديهم أوامر لحمايتنا. وهذا الاجتماع ذو أهمية سياسية كبرى!»

مَنْ أصدر إليهم الأمر بحمايتنا؟ قلت في نفسي – ولكن عندئذٍ أوشك النشيد على النهاية وضجَّ المبنى بالتصفيق، والصراخ، إلى أنْ انفجر الغناء من الخلف ثم انتشر:

توقّفوا عن نزع الملكية من المحرومين!

توقّفوا عن نزع الملكية من المحرومين!

وكأنَّ الجمهور أصبح شخصاً واحداً، بتزامُن أنفاسه وألفاظه. نظرتُ إلى الأخ جاك. كان واقفاً في المقدمة بجوار المايكروفون، وقدماه مُثبّتتان بقوة على المنصة القذرة المكسوة بالكنفا، يتلفّت حوله؛ يقفُ وقفةً وقوراً ولطيفة، كوالد مشدوه يُصغي إلى أداء أطفاله الرائعين. رأيتُ يده ترتفع مُحيّية، والجمهور يهدر. وشعرتُ كأنني أقترب كعدسات آلة التصوير، تتركّز على المشهد وأشعر بالحرارة والإثارة وعاصفة التصفيق تضرب قفصي الصدري، وعيناي تنتقلان من وجه إلى وجه، بسرعة، عابرة، تبحثان عن شخص أتعرَّفُ عليه، عن شخص من الحياة القديمة، وأرى الوجوه تغدو مُبهمة أكثر فأكثر وتبتعد أكثر عن المنصّة.

وبدأ إلقاء الخطابات. أولاً ابتهال دينيّ تلاه واعظ زنجي؛ ثم تكلّمت امرأة عما يحدث للأطفال. ثم بحثت الخطابات في أوجه الوضع الاقتصادي

والسياسي المتنوعة. أصغيتُ بعناية، أحاول أنْ ألتقط عبارة من هنا، وكلمة من هناك، أنتقيها من ركام العبارات القاسية، والدقيقة. أخذت نبرة الأمسية ترتفع. وتعالت الأناشيد بين الخطابات، وتفجّر الغناء بعفوية كالهتاف في احتفال دينيّ جنوبيّ. وبصورة أصغيتُ إلى ذلك كله، وشعرتُ به جسدياً. جلستُ وقدماي على الكنفا القذرة شاعراً كأنني كنتُ أتجول داخل آلات النقر ضمن فرقة موسيقية سيمفونية. كان تأثيرها عليّ شاملاً إلى درجة أنني سرعان ما تخلّيت عن محاولة حفظ العبارات غيباً وسمحتُ ببساطة للإثارة أنْ تجرفني مع تيارها.

شدّني أحدهم من كُمّ معطفي – لقد حان دوري. فتقدمتُ من المايكروفون حيث كان الأخ جاك نفسه ينتظر، وولجت بقعة الضوء التي أحاطتْ بي كقفص من قطعة واحدة من الفولاذ المقاوم للصدأ. ترددت. كان الضوء شديداً إلى درجة أنني لم أتمكن من رؤية الجمهور، وعاء الوجوه الإنسانية. وكأنَّ غلالة شفافة هبطت بيننا، ولكن كان في استطاعته أنْ يراني – لأنه كان يُصفق – من دون أنْ يُرى. شعرتُ بالعزلة القاسية، الميكانيكية لآلة المستشفى ولم يُعجبني ذلك. وقفتُ، لا أكاد أسمع مقدّمة الأخ جاك. ثم انتهى وسمعتُ عاصفة مُشجّعة من التصفيق. وقلتُ في ذهني، إنهم يتذكّرون، بعضهم كان حاضراً هناك.

كان المايكروفون غريباً ويُثير الأعصاب. تقدّمتُ بطريقة خاطئة، وبدا صوتي صارفاً وممتلئاً بالهواء، وبعد أنْ نطقتُ بضع كلمات سكتُّ، مرتبكاً. كانت بداية سيئة، ويجب أنْ أتصرَّف. ملتُ باتجاه الجمهور المبهم الأقرب إلى المنصّة وقلت «آسف، يا جماعة. لقد أبقوني بعيداً عن هذه المخترعات الكهربائية اللامعة ولم أتعلّم كيف تعمل... والحق أقول لكم، يبدو لي أنها يمكن أنْ تعضّ! انظروا إليها، تبدو أشبه بجمجمة إنسان من الفولاذ! أتعتقدون أنه مات بعد أنْ جرّدوه من ممتلكاته؟»

ونجحت المحاولة وبينما هم يضحكون تقدّم أحدهم وصحّح لي. نصحني «لا تقف قريباً جداً»

قلت، وسمعتُ صوتي يضجُّ عميقاً ومهتزاً عبر الحلبة، «ما رأيك؟ أهكذا أفضل؟»

وامتدت موجة من التصفيق.

«في الواقع، كل ما كنتُ في حاجة إليه هو فُرصة. وقد وفّرتموها لي، والآن بات الأمرُ منوطاً بي!»

أصبح التصفيق أقوى وهتف رجل من الصف الأمامي بصوت عال «نحن معك، أيها الأخ. أنت اضرب ونحن نتلقّف!»

كان هذا كل ما احتجت إليه. لقد نجحتُ في إقامة التواصُل، وكأنَّ صوته هو صوتهم جميعاً. كنتُ مستعداً، ومتوتراً. وكأنني شخص آخر، وكأنني أحاول أنْ أتكلَّم بلغة أجنبية. ذلك أنني لم أتذكّر الكلمات والعبارات الصحيحة التي قرأتها في الكتيّبات. كان ينبغي أنْ أعود إلى التراث ولما كان ذلك اجتماعاً سياسياً، انتقيتُ إحدى التقنيات السياسية كنتُ قد سمعت عنها كثيراً في الوطن: التقنية العملية، تقنية «لقد مللتُ الأسلوب الذي كانوا يعاملوننا به». لم أستطع أنْ أراهم لذلك رحتُ أخاطب المايكروفون والصوت المتعاون معي القريب مني.

هتفت «كما تعلمون، هناك مَنْ يعتقدون أننا نحن المجتمعين هنا بلهاء. أخبروني إنْ كنتُ على صواب»

هتف الصوت «هذا عين الصواب، أيها الأخ. أحسنتَ القول»

«نعم، يعتقدون أننا بلهاء. يُسموننا «الأناس العاديين». لكنني كنتُ جالساً هنا أُصغي وأنظر وأحاول أنْ أفهم ما «*العادي*» فينا. أعتقد أنهم مُتّهمون بتشويه شامل للحقيقة - نحن الشعب غير العادي -»

قصف الصوت «أحسنت القول من جديد»، وسكتُّ برهة رافعاً يدي لأُوقف الضجيج.

«نعم، نحن الشعب غير العادي - وسوف أخبرك السبب. إنهم يصفوننا بالبلهاء ويُعاملوننا كبلهاء. وماذا يفعلون بالبلهاء؟ فكّروا في الأمر، انظروا حولكم! إنَّ لديهم شعاراً وسياسة. إنَّ لديهم ما يمكن للأخ جاك أنْ يُطلِق عليه «نظرية وتطبيقاً». سياسة «إياك أنْ تمنح أبله فرصة للتنفّس». انتزع منه ممتلكاته! اطرده! استخدم رأسه الفارغ كمِبصقة وظهرَه ممسحة للأرجل! حطّمه! احرمه من أجره! استخدم احتجاجه كضرب الصنج لإخافته

وإخراسه، حطِّم أفكاره وآماله وطموحاته البسيطة بضرب الصنج! صنج صغير مشروخ يُضرَب في عيد الاستقلال! ولكن أخمِد رنينه! لا تدع هديره يضجّ عالياً جداً! اضربه في لحظة السكوت، اجعل البلهاء يرقصون بخفّة! على إيقاع «*التفاحة الكبيرة المدوّدة، والهرب من شيكاغو، والذبابة المزعجة لا تزعجني!*»[35]

وأهمسُ بصوت أجشّ «وهل تعلمون ما الذي يجعلنا غير عاديين على الإطلاق؟ *لأننا نسمح لهم بفعل ذلك!*»

كان الصمت عميقاً. والدخان يغلي في بقعة الضوء.

سمعت الصوت يهتف بحزن «أحسنت القول من جديد. لا جدوى من الاحتجاج على القرار!»، وقلت في نفسي، أتراه معي أم ضدي؟

وتابعت «انتزاع الملكية! انتز–اع الملكية هي كلمة السر! لقد جرّبوا أنْ ينتزعوا منا رجولتنا وأنوثتنا! وطفولتنا ومراهقتنا – لقد سمعتم إحصائيات الأخت حول نسبة الموتى من أطفالنا. ألا تعلمون أنكم محظوظون لأنكم وُلِدتم غير عاديين؟ بل لقد جرّبوا أنْ يُجرّدونا من *كراهيتنا لحرماننا من ممتلكاتنا!* وسوف أخبركم شيئاً آخر – إذا لم تقاوموا، فسوف ينجحون قريباً جداً! إنَّ هذه الأيام هي أيام الحرمان، وموسم التشرُّد، وزمن انتزاع الممتلكات. سوف تُنتزَع منا حتى أدمغتنا من رؤوسنا! ونحن **غير** عاديين إلى درجة أننا لا نستطيع حتى أنْ نُدرك ذلك! لعلنا مُغالون في التهذيب. لعلنا لا نأبه بالنظر إلى البشاعة. إنهم يظنون أننا عُمي – عُمي بصورة **غير** عاديّة. ولا عجب. فكّروا في الأمر، لقد جرّدوا كلاً منا من إحدى عينيه في اليوم الأول لولادتنا. ولذلك نحن لا نرى إلا الخطوط البيضاء المستقيمة. نحن أمّة من فئران بعين واحدة – هل سبق لكم أنْ رأيتم مثل هذا المشهد في حياتكم؟ ويا له من مشهد **غير** عادي!»

هتف الصوت من خلال ضحك مرير مكبوت «لا توجد زوجة مزارع في المكان. وهذا أيضاً قول حسن!»

ملتُ إلى الأمام. «أتعلمون، إذا لم ننتبه، سوف يتسلقون على جانبنا

35– هذه عناوين أغانٍ للأطفال مأخوذة من أفلام كرتون. – المترجم

الأعمى - *وبلوب!* وتختفي آخر عين سليمة ونُصبح عُمياً كالوطاويط! ثمة مَنْ يخشى أنْ نرى شيئاً. وربما هذا هو السبب في أنَّ العديد من أفضل أصدقائنا حاضرون هذه الليلة - بمسدسات فولاذية زرقاء وبذلات من الجوخ الأزرق وما إلى ذلك! - ولكن أعتقد أنه يكفي أنْ نفقد عيناً واحدة من دون مقاومة وأعتقد أنّكم توافقونني الرأي. لذلك فلنتّحد. هل لاحظتم، يا إخوتي البلهاء ذوي العين الواحدة، كيف يمكن لاثنين من العُمي تماماً أنْ يتّحدا ويُساعد أحدهما الآخر في التقدُّم؟ إنهما يتعثّران، ويرتطمان بأشياء، لكنهما أيضاً يتفاديان المخاطر؛ ويتقدمان. فلنتّحد، أيها الشعب غير العادي. بعينينا الاثنتين يمكننا أنْ نرى ما الذي يجعلنا غير عاديين، سوف نرى *مَن* الذي يجعلنا غير عاديين إلى هذه الدرجة! لقد كنا حتى الآن كائنين بعين واحدة نسير على رصيفين متعاكسين في الاتجاه من الشارع. وأخذ أحدهم يرمينا بالحجارة وأخذ كل منا يضع اللوم على الآخر وتقاتلنا. لكننا كنا مُخطئَين! لأنَّ هناك طرفاً ثالثاً في الأمر. هناك نذلٌ أنيق، مُداهن، يركض في **منتصف** الشارع العريض والرمادي ويرمي الحجارة - إنه هو المطلوب! هو الذي يتسبَّب في الأذى! إنه يدَّعي أنه في حاجة إلى حيِّز - يُسميه **حريته**. وهو يعلم أنه يستغلّ جانبنا الأعمى ويقفز مبتعداً لكي يجعلنا حمقى - حمقى بصورة ***غير عادية***! في الحقيقة، في الحقيقة، إنَّ حريته **هو** هي التي جعلتنا شبه عُمي!»، ثم هتفتُ، رافعاً راحة يدي، «صمتاً الآن، لا تسبّوه! أنا أقول فليذهب ذلك الشخص إلى الجحيم! أنا أقول هيا، اعبروا! فلنتحالف! أنا سأعتني بكم، وأنتم تعتنون بي! أنا ماهر في الالتقاط وأمتلك ذراعاً قاذفة قوية جداً!»

«أنت لا تقذف أية كرة، أيها الأخ! ولا واحدة!»

صرخت «فلنجترح معجزة. فلنستعِدْ عيوننا المسلوبة! فلنطالب ببصرنا؛ فلنتحد وننشر بصرنا. هناك إنذار عند المنعطَف، ثمة عاصفة قادمة. انظروا على طول الجادّة، ليس هناك غير عدوّ واحد. ألا ترون وجهه؟»

كان توقّفاً طبيعياً وكان هناك تصفيق، ولكن عندما انفجر أدركتُ أنَّ دفق الكلمات قد توقّف. ماذا سأفعل عندما يعودون إلى الإصغاء من جديد؟ ملتُ إلى الأمام، مُدقّقاً النظر لأرى من خلال حجاب الضوء. لقد ملكتهم،

الذين هناك، ولم أكن لأحتمل أنْ أخسرهم. ومع ذلك شعرتُ فجأة بأنني عارٍ، أحسستُ بأنَّ الكلمات تعود وبأنَّ شيئاً يوشك أنْ يُقال ولا ينبغي أنْ أكشف عنه.

انبثقتِ الكلمات أمواجاً من أجرامي الشمسية. «انظروا إليّ! أنا لم أعِش هنا طويلاً. الأحوال صعبة. وقد عرفتُ اليأس. أنا من الجنوب، ومنذ أنْ وصلتُ إلى هنا عرفت ما هو نزع الملكية. لقد أتيتُ لكي أفقد ثقتي بالعالم... ولكن انظروا إليّ الآن، ثمة أمر غريب يحدث. ها أنا هنا أمامكم، يجب أنْ أعترف...»

وفجأة إذا بالأخ جاك يقفُ إلى جواري، متظاهراً بأنّه يُعدِّل من وضع المايكروفون. همس «انتبه الآن. لا تُنهي فائدتك قبل أنْ تبدأ»

قلت، مائلاً نحو المايكروفون «أنا على ما يُرام»

صرخت «هل تسمحون لي بالاعتراف. أنتم أصدقائي. ونحن نتشارك في الحرمان العام، وقد قيل إنَّ الاعتراف يفيد الروح. فهل تسمحون لي؟»

هتف الصوت «لقد سجلت 500 ضربة، أيها الأخ»

سمعتُ خلفي حركة تململ. انتظرتُ إلى أنْ هدأتْ ثم تابعت بسرعة.

قلت «الصمت علامة الرضا، لذلك سوف أبوح، سوف أعترف!». كانت كتفاي معتدلتين، وذقني ممدوداً إلى الأمام وعيناي مُثبَّتتين نحو الأمام على الضوء. «***ثمة أمرٌ غريب ومُعجِز ومُغيِّر يحدث داخلي في هذه اللحظة... وأنا واقف هنا أمامكم!***»

كنتُ أشعر بالكلمات تشكُّل نفسها، وتسقط ببطء في مواقعها. وبدا الضوء كأنه يغلي متلألئاً، كصابون سائل يُرجُّ برفق داخل زجاجة.

«دعوني أصِفه. إنه شيء غريب. شيء أنا واثق من أنني لن أختبره في أي مكان آخر من العالم. إنني أشعر بعيونكم مُسلّطة عليّ. وأسمع نبض أنفاسكم. والآن، في هذه اللحظة، وعيونكم السوداء والبيضاء مُسدَّدة إليّ، أشعر... أشعر...»

تلعثمت وسط سكون تام وشامل حتى كدتُ أسمع مُسننات ساعة جدار ضخمة في مكان ما على الشرفة تنهشُ الزمن.

صرخ صوت حادّ «ما الأمر، يا بنيّ، ما هو شعورك؟»

هبط صوتي إلى مستوى الهمس الأجشّ. «أشعر، أشعر فجأة بأنني أصبحتُ *أشدّ إنسانيّة*. أتفهمون؟ أشدّ إنسانية. وهذا لا يعني أنني أصبحتُ رجلاً، ذلك أنني وُلِدتُ رجلاً. بل يعني أنني أشدّ إنسانيّة. أشعر بأنني قويّ، أشعر بقدرتي على تحقيق الإنجازات! أشعر بأنَّ بصري أضحى حادّاً وصافياً وينفذ إلى عمق مسار التاريخ المُعتِم وعليه أسمع وقع خُطى الأخوَّة المُناضِلة! كلا، انتظروا، دعوني أعترف... إنني أشعر برغبة مُلحّة في التشديد على مشاعري... أشعر بأنني وأنا هنا، بعد أنْ قطعت رحلة طويلة ويائسة وعمياء بصورة غير عادية، قد عدتُ إلى موطني... الوطن! إنني أشعر وعيونكم مُسلّطة عليّ بأنني عثرتُ على عائلتي الحقيقية! على شعبي الحقيقي! على بلدي الحقيقي! أنا مواطن جديد في بلد بصركم، مواطن في أرضكم الأخويّة. أشعر بأنَّ هنا في هذه الليلة، في هذه الحلبة القديمة، وُلِدَ الجديد وأُعيدَ إحياءُ القديم الحيويّ. في كلٍ منكم، وفيَّ، وفينا جميعاً.

«أيها الأخوات، والإخوة!

نحن الوطنيين الحقيقيين! مواطني عالم الغد!

لن نقبل بأنْ نُجرَّد من ممتلكاتنا بعد الآن!»

تعالى التصفيق كقصف الرعد. وقفتُ، ثابتاً، لا أرى أمامي، وجسمي يرتعش من هول الهدير. قمت بحركة مُبهمة. ماذا أفعل - ألوِّح لهم بيدي؟ واجهتُ الصياح، والتهليل، والصفير الحادّ، وعيناي تلتهبان من سطوع الضوء. أحسستُ بدمعة كبيرة تتدحرج على وجهي فمسحتها بارتباك. كان الآخرون قد بدؤوا يهبطون. لِمَ لم يقُم أحد بمساعدتي للخروج من بقعة الضوء قبل أنْ أُفسِد كل شيء؟ ولكن مع ذرف الدموع جاء مزيد من التصفيق فرفعتُ رأسي، مندهشاً، وعيناي تذرفان الدمع الغزير. كان الضجيج ينتشر على هيئة أمواج. وبدأوا يضربون بأقدامهم وضحكتُ وأحنيتُ رأسي لهم وقد شعرت بالخجل. واتّسع الضجيج، وسُمِع تشقُّق الخشب من الخلفية. ومللت، لكنهم ظلوا يُهللون إلى أنْ تخليت، أخيراً، عن الأمر وتراجعتُ نحو الكراسي. تراقصَتْ بقعٌ حمراء أمام عينيّ. أمسكَ أحدهم بيدي، ومال على أُذني.

«لقد نجحت، اللعنة! لقد نجحت!» وارتبكت من المزيج الحارّ من الكراهية والإعجاب المتفجِّر من كلماته وأنا أشكره وحرّرتُ يدي قبضته الساحقة.

قلت «شكراً لك، لكنَّ الآخرين أثاروا الكلمات إلى المستوى المطلوب»

ارتعشت؛ وبدا أنه ودَّ لو يخنقني. لم أتمكن من الرؤية وسادت فوضى عارمة وفجأة أدارني أحدهم حول عقبيّ، وأفقدني توازني، وشعرتُ بأنني منضغط على نعومة أنثوية دافئة، وصمدت.

«أوه، أيها الأخ، أيها الأخ!» صرخ صوتٌ امرأة في أذني، «أيها الأخ الصغير!» وشعرت بضغط شفتيها الرطب والحارّ على وجنتي.

تحركّتْ أشكالٌ مبهمة حولي. تعثّرتُ كأنني ألعب الغمّيضة. كانت يداي ترتعشان، وظهري يتعرَّض للضغط. كان وجهي مُغطى برذاذ لعاب الحماسة، وقرّرتُ أنني في المرَّة التالية التي سأقفُ في بقعة الضوء سيكون من الحِكمة أنْ أضع نظارات قاتمة.

كانت مظاهرة تصمّ الآذان. تركناهم يُهللون، ويقلبون الكراسي ويضربون الأرض. قادني الأخ جاك بعيداً عن المنصّة. صرخ «حان وقت مغادرتنا. لقد بدأت الأمور تتطور. يجب تنظيم كل تلك الطاقة!»

قادني خلال الجمهور الهاتف، والأيدي لا تني تلمسني وأنا أمشي متعثراً. ثم ولجنا الممرَّ المُظلم وعندما وصلنا إلى نهايته كانت البقع قد زالت من عينيّ وعاد إليّ بصري. توقف الأخ جاك برهة عند الباب.

قال «أصغ إليهم، إنهم ينتظرون أنْ يُؤمروا بما ينبغي أنْ يفعلوا!» وكنت لا أزال أسمع الهتاف يهدر خلفي. ثم قطعَ عددٌ من الآخرين حديثهم وواجهونا، بينما خفت التصفيق خلف الباب المُغلَق.

قال الأخ جاك بحماس «حسن، ما رأيك؟»

«ما رأيك به كمُحرِّض؟»

ران صمت متوتر. نقّلتُ بصري بينهم من وجه إلى وجه، بيض وسود، شاعراً بخوف سريع. كانوا متجهمين.

قال الأخ جاك، وقد قسا صوته فجأة، «ماذا قلت؟»

سمعت صرير حذاء أحدهم.

كرر «ماذا قلت؟»

ثم تكلَّم ذو الغليون، بكلمات شُحِنَتْ فجأة بتوتّر متصاعد.

قال بهدوء «لقد كانت بداية غير مُرضية على الإطلاق» وهو يوقِّع بغليونه على عبارة «غير مُرضية». كان ينظر مباشرةً إليّ وانتابتني الحيرة. نظرتُ إلى الآخرين. كانت وجوههم ملتبسة، متبلّدة.

انفجر الأخ جاك قائلاً «غير مُرضية! وما هي سلسلة الأفكار المزعومة التي أدت إلى تلك النتيجة اللامعة؟»

قال الأخ ذو الغليون «ليس هذا وقتاً للتهكم الرخيص. كلا، ليس وقتاً للتهكم ولا للتفاهات. ولا للحماقات اللعينة الصِرف. هذه لحظة حاسمة في الصراع، والأمور بالكاد تحرّكتْ – وفجأة إذا بك لستَ سعيداً. هل تخشى النجاح؟ ما الخطب؟ أليس هذا ما كنا نعمل من أجله؟»

«من جديد، اسأل نفسك. أنت القائد العظيم. انظر إلى بلورتك السِحرية»

جدَّف الأخ جاك.

قال أحدهم «أيها الإخوة!»

سبَّ الأخ جاك والتفت إلى أخ آخر. قال للرجل الضخم «أنت، هل لديك من الشجاعة ما يكفي لتُخبرني بما يجري هنا؟ هل تحولتم إلى عصابة شوارع؟»

صمت. جرَّ أحدهم قدمه على الأرض. هنا نظر ذو الغليون إليّ.

قلت «هل ارتكبتُ خطأً ما؟»

قال ببرود «بل أسوأ ما يمكن أنْ ترتكب»

ذُهِلت، ونظرتُ إليه معقود اللسان.

قال الأخ جاك، وقد أصبح فجأة هادئاً، «لا عليك. فقط أخبرنا ما المشكلة، أيها الأخ؟ فلنتصارح هنا بالذات. ما شكواك؟»

قال الأخ ذو الغليون «ليست شكوى، بل رأي. إنْ كان ما زال مسموحاً لنا أنْ نعبِّر عن آرائنا»

قال الأخ جاك «إذن، رأيك»

قال بنبرة سخرية «في رأيي كان الخطاب عنيفاً، هستيرياً، سياسياً، غير مسؤول وخطِراً. والأسوأ من هذا كله، ***جانبَ الصواب!***». نطق «جانبَ الصواب» وكأنَّ العبارة تصِفُ أشدّ ما يمكن تصوّره من جرائم شناعة، وحدّقتُ إليه فاغراً فمي، ينتابني إحساس مُبهَم بالذنب.

قال الأخ جاك، وهو يُنقّل نظره من وجه إلى آخر «إذن، فقد عُقِدَ مؤتمرٌ حزبيّ واتّخذت فيه قرارات. هل استغرقَ منك الأمر بضع دقائق، أيها الأخ رئيس المجلس؟ هل سجّلتَ نقاط خلافك الحكيمة؟»

قال الأخ ذو الغليون «لم يُعقد أي مؤتمر لكنني ما زلت على رأيي»

«لا اجتماع، ومع ذلك عُقِدَ مؤتمرٌ واتُّخِذَتْ قرارات حتى قبل ختام الحدث»

حاول أحدهم أنْ يتدخّل «ولكن، أيها الأخ»

تابع الأخ جاك، مبتسماً هذه المرة، «عملية ذكية جداً. مِثال ممتاز على الحركات البهلوانية النظرية البارعة التي تسبق التاريخ. ولكن تواضعوا، أيها الإخوة، تواضعوا وإلا سقطتم على منطِقكم؛ إنَّ خشبة مسرح التاريخ لم تُبنَ بعد إلى هذه الدرجة. ربما في الشهر بعد التالي، وليس الآن. وما رأيك، أيها الأخ وريستروم؟» سأل مُشيراً إلى الشخص الضخم ذي شكل وحجم مسؤول عن حمولة سفينة.

قال «أعتقد أنَّ خطاب الأخ متخلِّف ورجعيّ!»

رغبتُ في أنْ أُدلي بجواب لكنني لم أستطع. لا عجبَ في أنَّ صوته بدا ملتبساً عندما هنّأني. واكتفيتُ بالتحديق إلى الوجه العريض بعينيه اللتين تتلظيان بالحقد.

قال الأخ جاك «وأنت»

قال الرجل «أنا أحببتُ الخطاب. وجدته مؤثّراً جداً»

قال الأخ جاك للرجل التالي «وأنت؟»

«أنا مع الرأي القائل إنه خطأ»

«ولمَ؟»

«لأننا يجب أنْ نكافح لنصل إلى الناس عبر عقولهم...»

قال الأخ صاحب الغليون «بالضبط. لقد كان نقيض المدخل العلمي. إنَّ رأينا هو وجهة نظر معقولة. نحن أبطال المدخل العلمي إلى المجتمع، ومثل ذلك الخطاب الذي سمعناه هذه الأمسية يُدمّر كل ما قيل من قبل. إنَّ الجمهور لا يفكِّر. إنه ينفعل إلى أقصى مدى»

قال الأخ ذو الجثّة الضخمة «صحيح، إنه يتصرَّف كالرعاع»

ضحك الأخ جاك. قال «وهؤلاء الرعاع، أهم *ضدنا*، أم *لمصلحتنا* – كيف يُجيب عُلماؤنا مفتولو العضل بهذا الشأن؟»

ولكن قبل أنْ يتمكنوا من الإجابة تابع قائلاً «لعلكم على صواب، لعلهم رعاع؛ ولكن إنْ كان الأمر كذلك، فيبدو أنَّ الرعاع هم ببساطة الذين يتحرَّقون للمجيء والانضمام إلينا. ولا داعي إلى أنْ أخبركم أيها المُنظّرون أنَّ العِلم يبني أحكامه على *التجربة*! إنكم تتسرعون في إعطاء أحكامكم قبل أنْ تأخذ التجربة مجراها. في الحقيقة، إنَّ ما يجري هنا هذه الليلة لا يمثّل إلا خطوة واحدة من التجربة. الخطوة *الاستهلالية*، إطلاق الطاقة. أنا أفهم أنها تبثّ فيكم الخوف – أنتم خائفون من المتابعة إلى الخطوة التالية – لأنَّ الأمر منوط بكم لتنظيم تلك الطاقة. حسن، سوف يتم تنظيمها ليس على أيدي حفنة من المُنظرين الثانويين الرعاديد الذين يتجادلون في الفراغ، بل بالخروج وقيادة الشعب!»

كان يُقاتل بجنون، ويُنقّل بصره من وجه إلى آخر، وشعر رأسه الأحمر منتصب، ولكن لا أحد قبِلَ تحدّيه.

قال، مُشيراً إليّ، «شيء مُثير للاشمئزاز. لقد نجح أخونا الوافد الجديد بالفِطرة حيث فشل «عِلمُكم» على مدى عامين، والآن كل ما لديكم تقدمونه هو نقد هدّام»

قال صاحب الغليون «اسمح لي أنْ أختلف معك، أنْ أشير إلى أنَّ الطبيعة الخطرة لخطابه ليس نقداً هدّاماً. بل أبعد ما يكون عن ذلك. إنَّ الأخ الجديد، مثلنا كلنا، يجب أنْ يتعلَّم كيف يتكلَّم بأسلوب علميّ. يجب أنْ يُدرَّب!»

قال الأخ جاك، وهو يمسح زاويتيّ فمه نحو الأسفل، «إذن أخيراً تبدَّى

لكم أنَّ الحل هو *التدريب*. لم يضِع كل شيء. ما زال هناك أمل في أنَّ خطيبنا الجامح ولكن المؤثر يمكن ترويضه. العلماء يخرجون باجتمال! حسن جداً، لقد أُعِدَّ الأمر؛ ربما ليس بأسلوب علميّ لكنه أُعِدَّ على أية حال. على مدى الأشهر القليلة التالية سوف يخضع أخونا الجديد لفترة من الدراسة المُكثّفة وتلقين المبادئ الحزبية تحت إشراف الأخ هامبرو. قال، عندما هممتُ بالكلام، «هذا صحيح، هذا ما نويت أنْ أخبركم به لاحقاً»

قلت «ولكن ذلك يستغرق وقتاً طويلاً. كيف سأعيش؟»

قال «لن تتوقف عن تلقّي راتبك. وفي تلك الأثناء، لن يُحكَم عليك بإلقاء المزيد من الخُطب اللاعلمية كي لا يتعكّر صفاء إخوتنا العِلمي. في الحقيقة، سوف يتوجب عليك أنْ تبقى خارج هارلم كلها. فلعلنا نرى إنْ كان إخوتك سريعين في التنظيم كسرعتهم في الانتقاد. جاء دوركم، أيها الإخوة»

قال القصير «أعتقد أنَّ الأخ جاك على صواب. ولا أعتقد أنَّ علينا نحن، من بين الناس جميعاً، أنْ نخاف حماسة الشعب. ما علينا فعله هو أنْ نقوده إلى القنوات التي يقدِّم فيها أفضل ما عنده»

لزم الباقون الصمت، وذو الغليون ينظر إليّ بتحفّظ.

قال الأخ جاك «هيا، فلنخرج من هنا. إذا أبقينا عيوننا على الهدف الحقيقي فإنَّ فُرصنا في النجاح سوف تصبح أفضل مما كانت من قبل. ولنتذكّر أنَّ العِلم ليس لعبة شطرنج، على الرغم من أنه يمكن ممارسة لعبة الشطرنج بطريقة علمية. والأمر الآخر الذي يجب أنْ تتذكروا هو أنه إذا أردنا أنْ ننظِّم الجماهير الغفيرة فعلينا أولاً أنْ ننظِّم أنفسنا. شكراً لأخينا الجديد، لقد تغيَّرت الأوضاع؛ لا ينبغي أنْ نفشل في الاستفادة من فرصتنا. ومن الآن فصاعداً الأمر منوط بكم»

قال صاحب الغليون «سوف نرى. أما بالنسبة إلى الأخ الجديد، لا بأس من إجراء بعض الأحاديث مع الأخ هامبرو»

قلت في نفسي، وأنا أخرج، مَنْ هامبرو هذا بحق الجحيم؟ أعتقد أنني محظوظ لأنهم لم يطردوني. إذن عليّ أنْ ألتحق بالمدرسة من جديد.

في الخارج وسط الليل كانت المجموعة تتفرّق وتنحّى الأخ جاك بي

جانباً. قال «لا تقلق. سوف تجد الأخ هامبرو مُثيراً للاهتمام، وفترة التدريب لا بد منها. لقد كانت خطبتك هذه الليلة اختباراً اجتزته بنجاح باهر، لذلك سوف تُعدّ الآن للقيام بعمل حقيقي. إليك هذا العنوان؛ قابل الأخ هامبرو في صباح الغد الباكر. لقد أُخطِر بذلك تواً»

عندما وصلت المنزل، شعرتُ كأنَّ التعب ينفجر داخلي. وبقيتْ أعصابي متوترة حتى بعد أنْ أخذتُ دشاً حاراً ولجأتُ إلى السرير. ووسط شعوري بالخيبة لم أرغب إلا في النوم، لكنَّ ذهني ظلَّ يعود باستمرار إلى المظاهرة. لقد حدثت فعلاً. وقد كنتُ محظوظاً وصرّحتُ بالأمور الصحيحة في الوقت المناسب وأعجبهم ذلك. أو ربما صرّحت بالأمور الخطأ في الأماكن الصحيحة – مهما يكن، لقد أعجبهم ذلك بغضّ النظر عن آراء الإخوة، ومن الآن فصاعداً سوف تصبح حياتي مختلفة. بل كانت قد بدأتْ تختلف فعلاً. ذلك أنني أدركتُ أنني أؤمن بكل ما قلت للجمهور، على الرغم من أنني لم أكن أعلم أنني سأقول ما قلت. كنتُ أنوي فقط أنْ أظهر بمظهر جيد، أنْ أقول ما يكفي للإبقاء على اهتمام الأخوية بي. وما نتج عن ذلك كان مُفاجئاً بشكل كامل، وكأنَّ ذاتاً أخرى داخلي تولّت الأمر ودفعتني قُدُماً. وأنا محظوظ لأنها فعلت ذلك، وإلا طُرِدتُ.

حتى تقنيتي اختلفت؛ ما كان لأحد مما عرفني في الجامعة أنْ يتعرَّف عليّ في أثناء الخطاب. لكنّ ذلك ما كان ينبغي أنْ يحدث، ذلك أنني كنتُ **فعلاً** شخصاً جديداً – على الرغم من أنني تكلّمت بأسلوب تقليدي جداً. لقد تغيَّرت، والآن، وأنا مُستلقٍ أعاني الأرق في السرير في الظلام، شعرتُ بما يُشبه الحب للجمهور الضبابي الذي لم أر قط وجوهه بوضوح. لقد تابعني منذ الكلمة الأولى، وأراد لي أنْ أنجح، ولحُسن الحظ أنني تحدثت لمصلحته وفهم كلماتي. كنتُ أنتمي إليه. اعتدلتُ في جلستي، قابضاً على رُكبتيّ في الظلام ثم خطرت لي الفكرة. لعلّ هذا هو المقصود بكوني «متفانياً ومُدَّخراً». حسنٌ إذن، إنْ كان الأمر كذلك، فأنا أقبله. وفجأة اتّسعت الإمكانيات. وبوصفي المتحدث بلسان الأخوية سوف أمثّل ليس جماعتي فقط بل جماعة أكبر بكثير أيضاً. لقد كان الجمهور مُختلطاً، ومطالبه تتعدّى العرق. وسوف أفعل كل ما هو ضروري لأُحسِن خدمته. وما دام قد منحني

الفرصة، فسوف أبذل أقصى جهدي. بأية طريقة أخرى كان في استطاعتي أنْ أُنقِذ نفسي من التحطّم؟

جلستُ هناك في الظلام أحاول أنْ أتذكّر تسلسل مسار الخطاب. كان قد بدأ تواً يبدو كأنه تعبير عن شخص آخر. ومع ذلك كنتُ أعلم أنه صدر عني وعني وحدي، وإذا كان كاتب اختزال قد سجّله، فسوف ألقي نظرة عليه في الغد.

أخذت الكلمات، والعبارات تقفز في ذهني؛ ومن جديد رأيتُ السديم الأزرق. ماذا كنتُ أعنيٍ عندما قلت إنني أصبحت «أشدّ إنسانيّة»؟ أكانت عبارة انتقيتُها من متكلّم سابق، أم زلّة لسان؟ فكّرتُ للحظة في جدّي وسرعان ما طرحته من ذهني. ما دخل عبد عجوز بالإنسانية؟ لعل الأمر يتعلَّق بشيء قاله وودريدج في درس الأدب في الجامعة. أكاد أراه بكل وضوح، شبه ثمل بالكلمات ومملوءً بالامتعاض وبالنشوة، وهو يخطو جيئة وذهاباً أمام السبورة المكسوّة بمُقتطفات من جويس وييتس وشون أوكيسي؛ يخطو، نحيلاً، وعصبياً، وأنيقاً، وكأنه يمشي على سلك شاهق من المعنى لا يجرؤ أحد منا على المغامرة بارتقائه. أكاد أسمعه يقول: «إنَّ مشكلة ستيفن، تشبه مشكلتنا، لم تكن في الحقيقة خلق وعي عرقه غير الموجود، بل خلق *القسمات غير الموجودة لوجهه*. ومهمتنا هي أنْ نجعل من أنفسنا أفراداً. إنَّ وعي عرقٍ ما، هو موهبة أفراده الذين يرون، ويُقيِّمون، ويُسجلون... نحن نخلق العِرق بخلق أنفسنا ومن ثم نُدهَش إذ نجد أننا خلقنا شيئاً أشد أهمية: خلقنا ثقافة. لِمَ نُبدِّد وقتنا في خلق وعي شيءٍ لا وجود له؟ ذلك، كما تعلمون، أنَّ الدم والبشرة لا يفكّران!»

ولكن كلا، لم يكن وودريدج. «أشدّ إنسانيّة»... هل كنتُ أعني أنني أصبحتُ أقلّ مما كنتُ، أقلّ من زنجي، أم أقلّ من كيان منفصل؛ أقلّ من منفيّ من أرض الوطن، الجنوب؟... لكنَّ هذا كله سلبيّ. أنْ أُصبح أقلّ – لكي أُصبح أكثر؟ لعلّ هذا هو الجواب، ولكن بأية طريقة *أشدّ* إنسانية؟ حتى وودريدج لم يتكلَّم عن مثل هذه الأشياء. إنها ألغاز مرة أخرى، وكما حدث في عملية التجريد من الأملاك نطقتُ بكلمات كانت تتملّكني.

فكّرت في بليدسو وفي نورتون وما فعلاه. إنهما بطردي إلى الظلام جعلاني أرى إمكانية إنجاز شيء أعظم وأشدّ أهمية مما حلمتُ به يوماً. ها هنا طريق لم يؤدِّ إلى الباب الخلفي، طريق لا يقتصر على الأبيض والأسود، بل يمكن أنْ يؤدي، إذا طال عمر المرء وعمل باجتهاد كاف، إلى أرقى ما يمكن من مكافآت. ها هنا طريق من أجل لعب دور في اتّخاذ قرارات كبرى، في النفاذ خلال لغز عمل البلد، أو العالم. وللمرة الأولى استطعت، وأنا مُستلقٍ في الظلام، أنْ ألقي نظرة على إمكانية أنْ أكون أكثر من مجرد عضو في عِرق. لم يكن حُلماً، كانت الإمكانية موجودة. لم يكن عليّ إلا أنْ أعمل وأتعلَّم وأبقى على قيد الحياة لكي أصل إلى القمة. طبعاً كنتُ سأدرس مع هامبرو. سأتعلّم ما في جعبته من عِلم وأشياء كثيرة أخرى. فليأت الغد. كلما أسرعت في الانتهاء من أمر هذا الهامبرو، أسرعتُ أكثر في مباشرة عملي.



-17-

بعد ذلك بأربعة أشهر عندما اتصل الأخ جاك بالشقة في منتصف الليل لكي يطلب مني أنْ أستعدّ ليصحبني بالسيارة فرحتُ كثيراً. ولحُسن الحظ، كنتُ يقظاً وارتديت ملابسي، وعندما وصل بعد ذلك ببضع دقائق كنتُ أنتظر بترقُّب عند حافة الطريق. قلت في نفسي، وأنا أراه يجلس محني الظهر خلف المقود بمعطفه الخفيف، هذا ما كنتُ أنتظر.

قلت وأنا أركب «كيف حالك، أيها الأخ؟»

قال «متعب قليلاً. لا أنام كفاية، مشاكلي كثيرة»

ثم، عندما انطلقنا، خيَّم عليه الصمت، وقرّرتُ ألا أطرح أية أسئلة. وهذا درسٌ تعلَّمته جيداً. قلت في نفسي، وأنا أراقبه يُحدِّقُ إلى الطريق وكأنه غارق في التفكير، لابد أنَّ أمراً يجري في مقر العالم السفلي. ربما الإخوة في انتظار أنْ يضعوني على مساري. إذا كان الأمر كذلك، عظيم؛ كنتُ في انتظار إجراء امتحان...

ولكن بدل الذهاب إلى مقر العالم السفلي أطللتُ من النافذة لأكتشف أنه جلبني إلى هارلم وكان يركن السيارة.

قال، مترجلاً ومتوجهاً نحو لافتة مُضاءة بالنيون تمثّل رأس ثور تُعلن عن حانة إل تورو، «سوف نتناول مشروباً»

أُصِبتُ بخيبة أمل. شعرت برغبة في شراب؛ وددتُ لو أتّخذ الخطوة التالية التي تفصلني عن التعيين. لحقتُ به إلى الداخل مع فورة من الغضب.

كانت صالة الحانة دافئة وهادئة. كانت الصفوف المعتادة من الزجاجات التي تحمل أسماءً غريبة مرتّبة على الأرفف، وفي المؤخرة، حيث أربعة من

الرجال يتجادلون بالإسبانية وهم يشربون البيرة، كان صندوق الموسيقى، المُضاء باللونين الأخضر والأحمر، يصدح بأغنية «ميديا لوز». وفي أثناء انتظارنا ساقي البار، حاولتُ أنْ أُخمِّن الغرض من جولتنا.

بعد أنْ باشرت دراساتي مع الأخ هامبرو لم أر الأخ جاك إلا نادراً جداً. كانت حياتي مُنظّمة تنظيماً صارماً. ولكن كان ينبغي أنْ أعرف أنه لو أنَّ هناك أمراً سيحدث، لأعلمني به الأخ هامبرو. بدل ذلك، تقرَّر أنْ أقابله في الصباح كالمعتاد. قلت في نفسي، يا لهامبرو هذا من أستاذ متعصّب! رجل طويل القامة، ودود، ومحام والمُنظِّر الرئيس للأخوية، أثبتَ أنه قاس في فرضه المهامّ. ما بين النقاشات اليومية معه وجدول القراءة الثابت، كنتُ أعمل بجهد أكبر مما وجدتُ في أي وقت في الجامعة أنه ضروري. حتى لياليّ كانت مُنظّمة؛ ففي كل أمسية كنت تجدني مُشاركاً في مسيرة أو اجتماع في إحدى المناطق العديدة (على الرغم من أنها كانت رحلتي الأولى إلى هارلم منذ أنْ ألقيت خطابي) حيث أجلس على المنصّة مع المتكلمين، أدوِّن ملاحظات لكي أناقشها معه في اليوم التالي. وتتحول كل مناسبة إلى جلسة دراسة، حتى الحفلات التي تتلو عادة الاجتماعات. وخلالها أُضطر إلى تدوين ملاحظات ذهنية حول المواقف الأيديولوجية يُكشَف النقاب عنها في أحاديث الضيوف. لكنني سرعان ما تعلَّمت الأسلوب فيها: لم أكن فقط أتعلَّم الأوجه العديدة لسياسة الأخويّة ومدخلها إلى تجمعات اجتماعية متنوعة، بل إنَّ الأعضاء في أرجاء المدينة كلها أضحوا يعرفونني. لقد بقيَتْ ذكرى ما حدث في عملية انتزاع الملكية حيّة بقوة، وعلى الرغم من أنني تلقّيتُ الأوامر بألا أُلقي أية خطابات، تعوّدتُ على أنْ أُقدَّم على أني أشبه بالبطل.

ومع ذلك كان الوقت في مُعظمه مُكرّساً للاستماع، وبما أنني أحد المتكلمين، بدأ صبري ينفد. حينئذٍ أصبحتُ على عِلم بما يجري في معظم نقاشات الأخوية – التي انتابني الشك حولها والتي آمنت بها – بحيث بات في إمكاني أنْ أُعيد سردها في نومي، ولكن لم يُذكَر أي شيء عن تعييني. ولذلك كنتُ آمل في أنْ تنطوي مكالمة منتصف الليل على اتخاذ خطوة عملية بهذا الشأن...

إلى جواري، كان الأخ جاك لا يزال غارقاً في أفكاره. بدا أنه ليس في

عجلة من أمره للذهاب إلى أي مكان آخر أو للحديث، وبينما ساقي البار يقوم ببطء بمزج مشروبنا تولتني الحيرة العبثية بشأن السبب الذي دفعه إلى جلبي إلى هنا. أمامي، على لوح الزجاج حيث تُوضَع المرآة عادة، رأيتُ مشهداً من مصارعة للثيران، الثور يتهيّأ للهجوم على الرجل القريب منه والرجل يُؤرجح القماشة الحمراء ذات التضاعيف المنحوتة وهي شديدة القُرب من جسمه بحيث بدا أنَّ الرجل والثور ممتزجان في دوامة واحدة من الحركة الهادئة، الصّافية. قلت في نفسي، يا للتناسُق الصرف، وأنا أنظر إلى ما فوق البار حيث صورة بيضاء ووردية، أكبر من الحجم الطبيعي، لفتاة تبتسم نحو الأسفل في إعلانٍ عن بيرة صيفية عليها روزنامة تعلن عن الأول من شهر نيسان. ثم، بعد أنْ وُضِعَ المشروب أمامنا، دبّت الحياة في الأخ جاك، وتغيَّر مزاجه كأنما في اللحظة التي حسم الأمر الذي كان يُزعجه وشعر فجأة بالتحرُّر.

قال، وهو يلكزني مُداعباً، «نحن هنا، استيقظ. إنها مجرد صورة من الكرتون تمثّل حضارة من الفولاذ البارد»

ضحكت، سعيداً لأنني سمعته يمزح. قلت، مُشيراً إلى مشهد مصارعة الثيران، «وذاك؟»

قال، وهو يراقب ساقي البار وخافضاً صوته حتى درجة الهمس، «بربريّة صِرف. ولكن، أخبرني، كيف وجدتَ عملك مع الأخ هامبرو؟»

قلت «أوه، جيد. إنه صارم، ولكن لو أنني حصلت على مدرسين مثله في الجامعة، لتعلمت بعض الأشياء الثمينة. لقد علَّمني الكثير، ولكن لا أعلم إنْ كان كافياً لإرضاء الإخوة الذين كرهوا خطاب حلبة الملاكمة. هلا تحدثنا بأسلوب علميّ؟»

ضحك، وإحدى عينيه تلمع أكثر من الأخرى. قال «لا تقلق بشأن الإخوة. سوف تنجح. إنَّ تقارير الأخ هامبرو عنك ممتازة»

قلت، واعياً الآن لوجود مشهد آخر من مصارعة الثيران أسفل البار وفيه أُطيحَ بالمُصارع في الهواء فوق قرنيّ الثور الأسود، «الآن، هذا قول لطيف. لقد بذلتُ جهداً مُضنياً لكي أستوعبَ الأيديولوجيا»

قال الأخ جاك «استوعبها، ولكن لا تبالغ. لا تدعها تستوعبك. لا شيء يدفع الناس إلى النوم أكثر من أيديولوجيا جافة. إنَّ المثل الأعلى هو أنْ تبلغ مرحلة الوسط بين الأيديولوجيا والإلهام. قُلْ ما يُريد الناس أنْ يسمعوا، قُله بطريقة تجعلهم يُنفّذون ما نريد». ضحك. «وتذكّر أيضاً أنَّ النظرية دائماً تأتي بعد الممارسة. تصرّف أولاً، ونظِّر لاحقاً؛ وهذه أيضاً وَصفة، وصفة فعّالة بصورة مُدمِّرة!»

نظر إليّ وكأنه لا يراني ولم أعرف إنْ كان يضحك *عليّ* أم *معي*. الشيء الوحيد الذي كنتُ متيقّناً منه هو أنه كان يضحك.

قلت «نعم، سأحاول أنْ أستوعب كل المطلوب»

قال «تستطيع ذلك. والآن لا داعي للقلق بشأن انتقاد الإخوة. فقط ارم لهم بعض الأيديولوجيا وسوف يدعونك وشأنك – طبعاً، شريطة أنْ تحصل على الدعم وأنْ تُعطي النتائج المطلوبة. أترغب في مشروب آخر؟»

«شكراً، نلتُ كفايتي»

«أواثقٌ أنت؟»

«طبعاً»

«عظيم. والآن بشأن تعيينك: ابتداءً من الغد سوف تُصبح المُتحدث الأول الرسمي لمنطقة هارلم...»

«ماذا!»

«نعم. لقد أصدرت اللجنة هذا القرار بالأمس»

«ولكن لم تكن لدي أية فكرة»

«سوف تبلي بلاءً حسناً. والآن اسمع. سوف تتابع ما بدأت في حادثة انتزاع الملكية. أبقِهم متحمسين. اجعلهم يتحركون. ادفع أكبر عدد ممكن منهم إلى الانضمام. وسوف يكون أحد الأعضاء القدامى بإرشادك، ولكن في الوقت الحالي سوف تقوم بما في وسعك أنْ تقوم به. سوف تحصل على حرية الحركة – وسوف تكون مُنضبطاً بصرامة تجاه اللجنة»

قلت «فهمت»

قال «كلا، أنت لا تفهم جيداً، لكنك ستفعل. ينبغي ألا تستهين بالانضباط، أيها الأخ. إنه يجعل المنظمة برمّتها تستجيب لِما تفعل. إياك أنْ تستهين بالانضباط. إنه شديد الصرامة، ولكن ضمن إطارها لك الحرية المُطلقة في أداء عملك. وعملك غاية في الأهمية. أتفهم؟». عندما أومأت برأسي إيجاباً بدت عيناه كأنهما تحتلان وجهه. قال، وهو يشرب ما تبقّى في كأسه «يُستحسَن أنْ تذهب الآن لكي تنال قسطاً من النوم. أنت جنديٌّ الآن، وصحتك تخصّ المنظمة»

قلت «سأكون مستعداً»

«أعلم أنك ستكون كذلك. إذن إلى الغد. سوف تقابل اللجنة التنفيذية لمنطقة هارلم عند التاسعة صباحاً. أنت تعرف الموقع طبعاً؟»

«كلا، أيها الأخ، لا أعرفه»

«أوه؟ هذا صحيح - إذن يُستحسن أنْ تأتي معي دقيقة. يجب أنْ أقابل شخصاً هناك ويمكنك أنْ تلقي نظرة على موقع عملك. وسوف أوصلك في طريق العودة»

كانت مكاتب المنطقة تقع في مبنى كان في السابق كنيسة، الطابق الرئيس منه يحتله محل رهونات، وواجهته مزدحمة بالغنائم باهتة اللمعان في الشارع المُظلم. ارتقينا الدرج إلى الطابق الثالث، وولجنا غرفة رحبة تحت سقف قوطيّ الطراز ومرتفع.

قال الأخ جاك، متوجهاً إلى آخر الغرفة الرحبة حيث صفٌّ من الغرف الأصغر حجماً، واحدة منها فقط مُضاءة. ثم رأيتُ رجلاً يظهر عند الباب ويتقدّم وهو يعرج.

قال «مساء الخير، أيها الأخ جاك»

«عجباً، أيها الأخ تارب، حسبتُ أنكَ غادرت لتبحث عن الأخ توبيت»

قال الرجل «أعلم هذا. لقد كان هنا لكنه اضطرّ إلى المغادرة. وترك هذا المغلَّف لك وقال إنه سيتصل بك لاحقاً هذه الليلة»

قال الأخ جاك «عظيم، عظيم. أقدّم لك الأخ الجديد...»

قال الأخ، مبتسماً، «يسرني لقاؤك. لقد سمعت خطابك في الحلبة. لقد أثّرت فيهم حقاً»

قلت «شكراً»

قال الأخ جاك «إذن أعجبك، يا أخي تارب؟»

قال الرجل «أعجبني الفتى كثيراً»

«حسن، سوف تراه كثيراً، إنه المتحدث الرسمي الجديد»

قال الرجل «عظيم. يبدو أننا نتوقع حدوث تغييرات»

قال الأخ جاك «صحيح. والآن فلنُلقِ نظرة على هذا المكتب وبعدها نرحل»

قال تارب، وهو يطلع أمامي إلى إحدى الغرف المُظلمة ويُدير مفتاح النور، «طبعاً، أيها الأخ. هذه هي المطلوبة»

نظرتُ إلى داخل غرفة مكتب صغيرة تحتوي طاولة مكتب مُسطّحة عليها جهاز هاتف، وآلة كاتبة، وهناك خزانة مزودة بأرفف من الكتب والكراسات، وثمة خريطة كبيرة للعالم عليها إشارات بحرية قديمة وعلى أحد جانبيها شكل بطوليّ لكولومبوس.

قال الأخ جاك «إذا احتجت إلى أي شيء، اطلبه من الأخ تارب. إنه هنا في كل الأوقات»

قلت «شكراً، سأفعل. في الصباح سأتلقّى التوجيه»

«نعم، ويُستحسن أنْ نذهب لكي تحظى ببعض النوم. أسعدت مساءً، أخي تارب. احرص على أنْ يكون كل شيء جاهزاً له في الصباح»

«لا تقلق بشأنِ أيّ شيء. أسعدتما مساءً»

قال ونحن نستقل السيارة «سوف ننتصر لأننا نجتذب رجالاً مثل الأخ تارب. إنه عجوز جسدياً، ولكن أيديولوجياً هو شاب مفعم بالحيوية. يمكن الاعتماد عليه في أشدّ الظروف تقلقلاً»

قلت «يبدو رجلاً صالحاً جديراً بالاحتفاظ به»

قال «سوف ترى» ثم غاص في صمتٍ دام حتى وصلنا باب منزلي.

عندما وصلت كانت اللجنة مجتمعة في القاعة ذات السقف القوطيّ الطِراز والمرتفع، وقد جلس أعضاؤها على كراسٍ قابلة للطيّ حول طاولتين صغيرتين مستديرتين ضُمّتا معاً لتشكلا وحدة واحدة.

قال الأخ جاك «حسن، وصلتَ في وقتك بالضبط. عظيم جداً، نحن نفضّل صِفة الدقّة في قادتنا»

قلت «يا أخي، سوف أعمل دائماً على أنْ أصل في الوقت اللازم»

قال «ها هو قد وصل، أيها الإخوة والأخـوات. المتحدث الجديد باسمكم. والآن لنبدأ. هل كلنا حاضرون؟»

قال أحدهم «الكل ما عدا الأخ تود كليفتون»

انتفض رأسه الأحمر من المفاجأة، «هكذا إذن؟»

قال أخ شاب «سوف يحضر. كنا نعمل حتى الثالثة صباحاً»

قال الأخ جاك، وهو يُخرِج ساعته، «ومع ذلك، كان ينبغي أنْ يحضر في الموعد – حسن، فلنبدأ. لا يتوفر لدي الكثير من الوقت أقضيه هنا، لكنَّ الأمر لا يحتاج إلا إلى قليل من الوقت. أنتم جميعاً تعرفون الأحداث التي وقعت في الفترة الأخيرة، والدور الذي لعبه أخونا الجديد فيها. باختصار، أنتم هنا لكي تحرصوا على ألا يذهب هذا سُدى. يجب أنْ نُحقق شيئين: يجب أنْ نبتكر أساليب لزيادة فعالية ثورتنا، ويجب أنْ نُنظم الطاقة التي تحرّرت. هذه نداءات من أجل زيادة سريعة في عدد الأعضاء. إنَّ الناس مهتاجون حتى الزبى؛ إذا فشلنا في قيادتهم إلى الفعل، فسوف يُصبحون سلبيين، أو ساخرين. لذلك من الضروري أنْ نضرب في الحال ونضرب بقوة!

قال، مومئاً برأسه نحوي، «لهذا السبب، عيّنا الأخ متحدثاً باسمنا في المنطقة. وعليكم أنْ تمنحوه دعمكم الصادق وتعتبروه الأداة الجديدة لسلطة اللجنة...»

سمعتُ التصفيق الضعيف ينتشر – لكنه توقف مع انفتاح الباب، ونظرتُ على امتداد صفوف الكراسي إلى حيث كان شاب مكشوف الرأس في مثل سني يلج القاعة؛ مرتدياً سترة صوفية ثقيلة وبنطلوناً فضفاضاً، وعندما رفع الآخرون أبصارهم إليه سمعتُ شهقة سريعة من امرأة تعبِّر عن تنهيد

السرور. ثم تقدّم الشاب بخطى واسعة سلسة لزنجي خارج من الظل إلى الضوء، فوجدتُ أنه شديد سواد البشرة وشديد الوسامة، ومع تقدّمه حتى منتصف المسافة داخل الغرفة، وأنه يمتلك قسمات الوجه المثالي المحفور من الرخام الأسود، كالتي يراها المرء أحياناً على التماثيل في المتاحف الشمالية، وحيّة في البلدات الشمالية التي يحمل فيها أطفال البيض الذين تربوا في المنازل وأطفال السود الذين تربّوا في الأفنية، أسماء وقسمات وسِمات شخصية متطابقة كالرصاص المُطلَق من ماسورة بندقية واحدة. وعندما اقترب، بطول قامته النحيل والمسترخي، وذراعيه اللتين مدّهما بشكل قاس على الطاولة، رأيتُ الامتداد المتوتّر لبراجمه على الخشونة القاتمة للخشب، والذراعين المُلفوفتين بالعضل، وتنضحان بالعرق، والخط المنحني لصدره الذي يرتفع الى النبض السهل لنحره، إلى الذقن المُربّع، الحليق الناعم، ورأيت البقعة الصغيرة على شكل حرف **X** للشريط اللاصق على محيط وجنته في مزيجٍ أفرو-أنغلو- ساكسوني، كمخمل على حجر، كغرانيت على عظم.

جلس مائلاً، ينظر إلينا جميعاً بتحفّظ ناء شعرتُ أنّه ينطوي على تساؤل مُعلَن تحت سِحر وديّ. راقبته بحذر، مع شعور بأنه مُنافس مُحتمل، متسائلاً مَنْ هو.

قال الأخ جاك «أه إذن، الأخ تود متأخّر. قائد شبيبتنا متأخر. والسبب؟»

أشار الشاب إلى وجنته وابتسم. قال «اضطررتُ إلى زيارة طبيب»

قال الأخ جاك، وهو ينظر إلى صليب الشريط اللاصق على البشرة السوداء، «وما هذا؟»

قال الأخ كليفتون «مجرد شجار بسيط مع الوطنيين. مع فتية راس الناصح». وسمعت شهقة من إحدى النسوة اللواتي حدّقنَ إليه بعيون لامعة، شفوق.

رماني الأخ جاك بنظرة سريعة. قال «ألم تسمع، أيها الأخ، عن راس؟ إنه الرجل العنيف الذي يصِف نفسه بالوطنيّ الأسود»

قلت «لا أتذكّر»

«سوف تسمع عنه قريباً جداً. اجلس، أيها الأخ كليفتون؛ اجلس. يجب أنْ تنتبه إلى نفسك. أنت ثمين بالنسبة إلى المنظّمة، ولا ينبغي أنْ تخاطر بحياتك»

قال الشاب «لم يكن في الإمكان تفادي ذلك»

قال الأخ جاك، عائداً إلى النقاش استجلاباً للأفكار، «ومع ذلك انتبه»

قلت «أيها الأخ، هل سنبقى نكافح عمليات الإخلاء بالقوة؟»

«لقد أضحتْ قضية رئيسة، شكراً لك»

«إذن لِمَ لا نزكّي القتال؟»

أنعمَ النظر في وجهي. «ماذا تقترح؟»

«في الواقع، بما أنه جذب الكثير من الانتباه، لِمَ لا نحاول أنْ نتواصل مع المجتمع كله عبر هذه القضية؟»

«وكيف تقترح أنْ نتصرّف؟»

«أقترح أنْ ندعو قادة المجتمع المُسجّلين إلى دعمنا»

قال الأخ جاك «هناك بعض العوائق تواجهنا؛ إنَّ معظم القادة يقفون ضدنا»

قال الأخ كليفتون «ولكن أعتقد أنه مُصيب في هذه النقطة. ماذا لو دفعناهم إلى دعم *القضية* رُغماً عنهم؟ إنَّ القضية هي قضية **مجتمع**، وليست قضية حزبية»

قلت «طبعاً، هكذا يبدو لي الأمر. فبعد كل الإثارة التي حدثت حول عمليات الإخلاء القسرية لا يمكن أنْ يقفوا ضدنا، إلا إذا أرادوا أنْ يظهروا كأنهم يقفون ضد أفضل مصالح المجتمع...»

قال كليفتون «وهكذا نضعهم أمام الأمر الواقع»

قال الأخ جاك «هذه فكرة رشيدة»

ووافق الآخرون.

قال الأخ جاك مع تكشيرة «في الواقع، لطالما تجنبنا أولئك القادة، ولكن حالما بدأنا نتقدّم إلى المقدمة، تُصبح الطائفية عبئاً يجب التخلّص منها. هل من مقترحات أخرى؟» وتلفّت حوله.

قلت، وقد تذكرت حينئذ، «أيها الأخ، عندما وصلت إلى هارلم للمرة الأولى كان أول الأشياء التي تركت أثرها عليّ هو مشهد رجل يُلقي خطاباً من على سُلَّم. كان يتكلَّم بعنف شديد ونبرة مميَّزة، لكنَّ جمهوره كان شديد الحماس... لِمَ لا نضع برنامجاً يُنفَّذ في الشارع على غرار ذلك؟»

قال، وقد كشّر فجأة، «لقد قابلتَه *فعلاً*. في الواقع، إنَّ راس الناصِح احتكر منطقة هارلم. ولكن الآن بعد أنْ أصبحنا أكبر يمكننا أنْ نجرّب. إنَّ ما تريده اللجنة هو نتائج!»

قلت في نفسي، إذن *ذلك* الرجل كان راس الناصح.

قالت امرأة ضخمة «سوف نواجه مشاكل مع الناصح – أعني إنه *الناصح*. سوف تشن عصاباته هجوماً وتستنكر استخدام لحم الدجاج الأبيض المشوي»

ضحكنا.

قالت لي «إنه يجنّ عندما يرى السود والبيض معاً»

قال الأخ كليفتون، وهو يلمس وجنته، «سوف نهتم بهذا الأمر»

قال الأخ جاك «حسن، ولكن بلا عنف. إنَّ الأخوية تناهض العنف والإرهاب والاستفزاز من أي نوع – أعني العدوانيّ. أفهمت، أيها الأخ كليفتون؟»

قال «فهمت»

«لن نشجِّع أي عنف عدوانيّ. مفهوم؟ ولنْ نشن أي هجوم على شخصيات رسمية أو على آخرين لا يُهاجموننا. نحن ضد أشكال العنف كافة، أتفهم؟»

قلت «نعم، أيها الأخ»

قال «حسن جداً، وبعد إيضاح هذه النقطة سأغادر الآن. وانظر ماذا تستطيع أنْ تُنجِز. سوف تحصل على الكثير من الدعم من مناطق أخرى وكل إرشاد تحتاج إليه. في هذه الأثناء، تذكّر أننا جميعاً خاضعون للانضباط»

غادر ورحنا نوزّع الأعمال. اقترحتُ أنْ يعمل كلٌ في المنطقة التي يعرفها

جيداً. ولما لم يكن هناك أي وئام بين الأخوية وبين قادة المجتمع عيَّنتُ نفسي لخلق ذلك الوئام. وقررت أنْ تبدأ لقاءاتنا في الشارع في الحال وأنْ يعود الأخ كليفتون لمراجعة التفاصيل معي.

في أثناء تواصل النقاش كنتُ أدرس وجوههم. بدوا منهمكين في القضية وعلى وفاق تام، سوداً وبيضاً. ولكن عندما حاولتُ أنْ أرتّبهم ضمن أنماط لم أتوصل إلى شيء. كانت المرأة الضخمة التي بدت أشبه بـ «غاسلة أطباق» مسؤولة عن عمل النساء، وتتكلّم بلغة أيديولوجية، مُجرَّدة؛ والرجل الشاحب حامل لطخ الإصابة بالكبد على عنقه تكلَّم بمباشرة جريئة وبلهفة لمصلحة العمل. وذلك الأخ تود كليفتون، قائد الشبيبة، بدا شبيهاً بصورة ما بهيبيّ، أو متأنِّق أو محتال - ما عدا أنَّ رأسه الشبيه بجزّة حَمَل فارسي لم يعرف المشط. لم أتمكن من تصنيف أي منهم. لقد بدوا مألوفين لكنهم كانوا مختلفين كاختلاف الأخ جاك والبيض الآخرين عن كل البيض الذين عرفت. لقد تغيَّروا كلهم، كأنهم أشخاص مألوفون تراهم في الحلم. قلت في نفسي، حسن، أنا أيضاً مختلف، وسوف يلاحظون هذا بعد انتهاء الكلام وبداية العمل. ينبغي فقط أنْ آخذ جانب الحذر وألّا أعادي أياً منهم. وواقع الأمر هو أنَّه يمكن لشخص أنْ يمقت تنصيبي مسؤولاً.

ولكن عندما جاء الأخ تود كليفتون إلى غرفة مكتبي لكي نناقش اجتماع الشارع لم أر عليه أية دلالة على الكراهية، بل رأيتُ انهماكاً كاملاً في وضع استراتيجية للاجتماع. وأخذ يوجّهني بعناية فائقة إلى السبيل للتعامل مع الذين ينهالون عليّ بالأسئلة، وما ينبغي فعله إذا تعرّضنا للهجوم، وكيف نميِّز أعضاءنا عن باقي الحشد. وعلى الرغم من صِفات المتأنق التي يحمل كان خطابه دقيقاً ولم ينتبني أي شك في أنه يعرف عمله.

بعد أنْ انتهى قلت «كيف سيكون أداؤنا في اعتقادك؟»

قال «سيكون حدثاً ضخماً، يا رجل؛ أضخم من أي حدث منذ أيام غارفي»

قلت «ليتني أكون متيقناً هكذا. أنا لم أر غارفي قط»

قال «ولا أنا، ولكنني فهمتُ أنه كان شخصية مهمة في هارلم»

«حسن، نحن لسنا غارفي، وهو لم يدُم»

قال بانفعال مفاجئ «كلا، ولكن لابد أنه كان يتّصف بشيء مميَّز. **لابد** أنه كان لديه شيء مميَّز يؤهله لتحريك كل تلك الحشود! إنَّ شعبنا في أشدّ *التوق* إلى التحرّك. ولابد أنه كان لديه الكثير منه!»

نظرتُ إليه. كانت عيناه قد تحولتا نحو الداخل؛ ثم ابتسم. قال «لا تقلق، لدينا خطة عِلمية وأنت أثرتهم. إنَّ الأوضاع سيئة وسوف يُصغون، وعندما *يُصغون* سوف يتحركون»

قلت «آمل ذلك»

«سيفعلون. أنت لم تعاصر الحركة مثلي، ثلاث سنوات حتى الآن، وأستطيع أنْ أشعر بالتغيير. إنهم يتقدمون»

قلت «آمل أنْ تكون مشاعرك على صواب»

قال «إنهم على ما يرام، على ما يرام. كل ما علينا أنْ نفعل هو أنْ نجمعهم معاً»

كانت الأمسية باردة برودة الشتاء، والركن مُضاءً جيداً والحشد المؤلَّف من السود فقط كان غفيراً، كنت وأنا على أعلى السُلَّم مُحاطاً بمجموعة من فرقة كليفتون من الشبيبة، ورأيت، خلف ظهورهم، وجوه الحشد المرتابة، الفضولية والمُقتنعة، بياقاتها المرفوعة. كان الوقت مبكراً ورفعت صوتي بقوة حتى علا فوق ضجيج حركة المرور، شاعراً بالبرودة الرطبة للهواء على وجنتيّ ويديّ وبصوتي دافئاً من الانفعال. كنتُ قد بدأتُ أشعر بالنبض يتسارع بيني وبين الناس، وأسمعهم يستجيبون بتصفيق متقطِّع وبتوافق عندما تلاقت عيناي بعينيّ تود كليفتون، وهو يُشير بإصبعه. وفوق رؤوس الحشد مروراً بواجهات المحال التجارية المُظلمة وأضواء النيون الخفّاقة رأيتُ جماعة نشطة من حوالي عشرين رجلاً يتقدمون بخُطى سريعة. ونظرتُ نحو الأسفل.

قال كليفورد «هناك مشاكل، استمر في الكلام. أعط الفتية الإشارة»

صرخت «أيها الإخوة، حان وقت العمل». وهنا رأيت الأعضاء الشبان والرجال الأكبر سناً يتراجعون إلى خلف الحشد، لمواجهة المجموعة. ثم ارتفع شيء من الظلام واستقرّ بقوة على جبيني، وشعرت بالحشد يندفع مقترباً، وجعلوا السلَّم يتحرك نحو الخلف، وكنتُ كمَنْ يترنح فوق حشد

على طوّالتين، ثم وقعتُ نحو الخلف وعلى الشارع مباشرة، وسمعت السلَّم يقرقع متداعياً على الأرض. هنا أخذوا يدورون في المكان من شدة الرعب، ورأيتُ كليفتون إلى جواري. صرخ «إنه راس الناصح. هل تستطيع أنْ تستخدم يديك؟»

انزعجت. «أستطيع أنْ أستخدم قبضتيّ»

«حسن إذن. ها قد سنحت لك الفرصة. هيا، أرنا أيها الدوق!»

تقدَّمَ وكأنه يغوص داخل الجمهور المدوِّم، وأنا إلى جانبه، أراهم ينتشرون داخل الأبواب ويغوصون في الظلام.

هتف كليفتون «ها هو راس، هناك»، وسمعت ضجيج تكسُّر زجاج وغمر الظلامُ الشارعَ. لقد كسر أحدهم المصباح، ومن خلال العتمة رأيت كليفورد يتوجه مباشرة إلى حيث إشارة النيون الحمراء تتوهج في نافذةٍ مظلمة في لحظة مرور شيء من أمام رأسي. ثم ركض رجل حاملاً قطعة حبل ورأيت كليفتون يشتبك معه، ثم يغوصان ويشتبكان ويقبض فجأة على رسغ الرجل ويلويه كجنديّ يُنفّذ حركة تغيير اتجاه كاملة بحيث أصبح يواجهني، والجزء الخلفي من مرفق الرجل يستقرّ صلباً عبر صدره والرجل يرتفع على رؤوس أصابع قدميه ويصرخ بينما كليفورد ينتصب بسلاسة ويلوي الذراع.

سمعت صوت فرقعة جافة ورأيت الرجل يرتخي، والأنبوب يرتطم بالرصيف؛ ثم قبض عليّ أحدهم من معدتي وفجأة أدركتُ أنني أنا أيضاً أتعارك. هبطتُ على رُكبتيّ وتدحرجت ثم انتصبت، وواجهته. قال «انهض، أيها العم توم»، واشتبكتُ معه. لم نكن نتسلّح إلا بالأيدي وكانت المعركة متعادلة لكنه لم يكن محظوظاً كثيراً. فلم يسقط ولم يُصرَع – لكنني أمسكته مرتين بقوة فقرر أنْ يتابع القتال في مكان آخر. وعندما استدار ضربته ثم ابتعدت.

كان الاشتباك يتراجع داخل الظلام حيث كُسِرَت المصابيح كلها وحتى المنعطف، وساد الهدوء ولم يُسمَع إلّا النخر والتوتر ووقع الأقدام والضربات المُسدَّدة. كان الوضع مُربكاً في الظلام ولم أكن أُميِّز رجالنا من رجالهم وتحركتُ بحذر، أحاول أنْ أرى. وصرخ شخص في آخر الشارع

المُظلم «كفى! كفى!» فقلت في نفسي، إنها الشرطة، وتلفّتُ حولي بحثاً عن كليفورد. توهجت أضواء النيون على اللافتات بغموض وكان هناك الكثير من الركض والسباب، ومن ثم رأيته يُبلي بلاءً حسناً في بهو محل تجاري أمام اللافتة الحمراء «هنا تصرَف الشيكات» وهرعت نحوه، وأنا أسمع أشياء تتطاير من فوق رأسي ثم ضجيج تحطّم زجاج. كانت ذراعا كليفورد تتحركان بضربات قصيرة، ودقيقة، تُسدَّد على رأس ومعدة راس الناصح، ويلكمه بسرعة وبدقّة، حريصاً على ألا يطرحه على الواجهة أو أنْ يضرب الزجاج بقبضتيه، كان يلكم راس بضربات يمينية ويسارية سريعة إلى درجة أنه أخذ يترنح كثور ثمل، من جانب إلى جانب. ولدى وصولي حاول راس أنْ يشق طريقه نحو الخارج ورأيتُ كليفورد يجذبه إلى الخلف والأسفل ليربض، ويداه على أرض البهو المظلمة، وعقباه على الأرض كعدّاء يضعهما على حجر الانطلاق. وهنا، اندفع كالسهم إلى الأمام وفاجأ كليفتون لدى اقترابه، ونطحه، وسمعت انفجار تنفُّس وانطرح كليفتون على ظهره وومض شيءٌ في يد راس وأخذ يتقدّم، قصيراً، وضخمَ الجثة وقد أضحى عندئذٍ عريضاً بعرض البهو حاملاً خنجراً، ويتحرك بحذر. درتُ حول نفسي، بحثاً عن قطعة الأنبوب، وأفتش عنها زحفاً على يديّ ورُكبتيّ هنا، وهنا – وحين نهضتُ رأيتُ راس ينزل، قابضاً على كليفتون من ياقته بيد، والخنجر في الأخرى، وينظر إلى كليفتون في الأسفل ويلهث، غاضباً كثور. تجمّدت في مكاني وأنا أراه يُشهر الخنجر ويُبقيه عالقاً في الهواء؛ ويتراجع ويتوقف، ويسبّ؛ ثم يتراجع ويتوقف من جديد، هذا كله بسرعة كبيرة، ثم يبدأ بالبكاء والتكلُّم بسرعة في وقت واحد؛ وأنا أتقدّم بهدوء وبطء.

انفجر راس قائلاً «يا رجل، يجب أنْ أقتلك. اللعنة، يجب أنْ أقتلك وسوف يصبح العالم أفضل حالاً. لكنك *أسود، يا رجل*. لماذا أنت أسود، يا رجل؟ أُقسم بأنني يجب أنْ أقتلك. لا أحد يضرب الناصح، اللعنة، لا أحد!»

رأيته يُشهر الخنجر من جديد وعندما أنزله دون أنْ يستخدمه دفع كليفتون إلى الشارع ووقف فوقه، يجهشُ بالبكاء.

«ما سبب وجودك مع أولئك البيض؟ ما السبب؟ إنني أراقبك منذ زمن

طويل. أقول لنفسي، «قريباً سيستخدم عقله ويملّ. وسيخرج من ذلك الأمر». لمَ لا يزال فتى طيبٌ مثلك يرافقهم؟»

رأيت، وما أزال أتقدّم، وجهه يلمع بدموع الغضب الحمراء وهو واقف فوق كليفتون مع الخنجر الذي كان لا يزال بريئاً والدموع الحمراء تحت وهج ضوء الواجهة.

«أنت أخي، يا رجل. الإخوة هم من لون بشرة واحد؛ فكيف تسمي أولئك البيض *إخوة*؟ هراء، يا رجل. هذا هراء! الإخوة هم من لون واحد. نحن أبناء ماما إفريقيا، أنسيت؟ أنت أسود، **أسود**! أنت – *اللعنة*، يا رجل!» قال هذا وهو يلوّح بالخنجر للتشديد على كلامه. «يقولون إنَّ لديك ***شعراً*** أشعث! ولديك ***شفتين*** غليظتين! ويقولون إنَّك تفوح ***برائحة كريهة***! إنهم يكرهونك، يا رجل. أنت إفريقي. *إفريقي!* لماذا ترافقهم؟ اترك أولئك الحثالة، يا رجل. إنهم يتخلون عنك. هذا هو تراثهم. إنهم يستعبدوننا – أنسيت؟ كيف يمكن أنْ يعتبروا أي أسود رجلاً صالحاً؟ كيف يمكن أنْ يكونوا ***إخوة لك***؟»

عندئذٍ كنتُ قد وصلتُ إليه وانهلتُ عليه بقوة بالأنبوب، ورأيت الخنجر يطير إلى الظلام وهو يقبض على رِسغه، ورفعت الأنبوب من جديد، وقد غمرتني فجأة حرارة الخوف والحقد، وأخذ ينظر إليّ من زاوية عينيه الصغيرتين، ثابتاً في مكانه.

قال الناصح «وأنت، يا رجل، شيطان أسود حقير عادي! نمس ماكر ملعون! من أين *تظن* أنك قادم، وأنت ترافق البيض! أنا أعرف، اللعنة؛ أنا أعرف! أنت من الجنوب هناك! أنت من ترينيداد! أنت من باربادوس! من جامايكا، من جنوب إفريقيا، وطوال الوقت يحشر الرجل الأبيض حذاءه كله في طيزك. ما الذي *تحاولون* إنكاره بخيانتكم للشعب الأسود؟ لِمَ تُحاربوننا؟ يا معشر *الشبّان*. يا معشر الشبان السود بثقافتكم العالية؛ كنتُ أستمع إلى تحريضك للرعاع. لِمَ ذهبتَ إلى المُستعبِد؟ أي نوع من الثقافة هذا؟ أي نوع من الرجال السود هو الذي يخون أمه؟»

قال كليفتون، وقفز واقفاً على قدميه، «اخرس، اخرس!»

صرخ راس، وهو يمسح عينيه بقبضتيه، «اللعنة، كلا. بل سأتكلّم!

اضربني بالأنبوب ولكن، حباً بالله، أصغِ إلى الناصح! تعال وانضمّ إلينا، يا رجل. إننا نشكّل حركة عظيمة من الشعب الأسود. *الشعب الأسود!* ماذا يفعلون، أيعطونك مالاً؟ مَنْ يحتاج إلى ذلك الشيء اللعين؟ إنَّ مالهم ينزف دماً أسود، يا رجل. إنه قذر! وتلقّي المال منهم أمرٌ سيئ، يا رجل. إنه مال بلا كرامة - وهذا شيء *غاية في السوء!*»

اندفع كليفتون نحوه. فكبحتُه، وأنا أهزّ رأسي رادعاً. قلت، وأنا أجرّه من ذراعه، «على رسلك، الرجل مجنون»

ضرب راس فخذيه بقبضتيه «*أنا* المجنون، يا رجل؟ أنتَ تصفني *أنا* بالمجنون؟ انظرا إلى نفسيكما أنتما الاثنين وانظرا إليّ - أهذا يدل على *العقل*؟ نقفُ هنا بثلاثة ظلال من السواد! ثلاثة رجال سود يتقاتلون في الشارع بسبب مُستعبِد أبيض؟ أهذا يدل على العقل؟ أهذا يدل على الوعي، وعلى الفهم العِلمي؟ أهذا ما يمثله رجل القرن العشرين الأسود العصري؟ اللعنة، يا رجل! أيدل على احترام النفس - قتال الأسود للأسود هذا؟ ماذا أعطوك لتخون - نساءهم؟ أهذا ما تعشق؟»

قلت، مُصغياً ومتذكّراً، «هيا بنا»، وفجأة بُعِثَتْ فيّ الحياة بفعل رعب الشجار الجماعي، لكنَّ كليفتون نظر إلى راس مع تعبير وجه متوتر، ومفتون، وهو يتملّص مني.

كررت «هيا بنا». ظل ثابتاً في مكانه، ينظر.

قال راس «طبعاً، اذهب أنت، ولكن ليس هو. أنتَ مُلوّث أما هو فرجل أسود حقيقي. في إفريقيا هذا الرجل يمكن أنْ يُصبح زعيماً، أو ملكاً أسود! هنا يقولون إنه يغتصب نساء لعينات لا يجري دمٌ في عروقهن. أراهن على أنَّ هذا الرجل لا يستطيع أنْ يخرقهن ولا بعصا بيسبول - اللعنة! أي حماقة هذه. يرفسونه من المهد وإلى اللحد ثم يسمونه *أخي*؟ أهذا عِلم رياضيات؟ أهو منطق؟ انظر إليه، يا رجل؛ افتح عينيك»، كان يُخاطبني، «بشكلي هذا أهزّ العالم اللعين! إنهم يعرفونني في اليابان، والهند - وفي كل البلدان الملوّنة. الشباب! الذكاء! الرجل أميرٌ بالفِطرة! أين عيناك؟ أين احترامك لذاتك؟ كيف تعمل مع هؤلاء الملاعين؟ إنَّ أيامهم معدودة، وقد حان

الوقت تقريباً وأنت تعبث هكذا وكأنك في القرن التاسع عشر. أنا لا أفهمك. هل أنا جاهل؟ أجبني، يا رجل!»

انفجر كليفتون قائلاً «نعم. اللعنة، نعم!»

«أنت تعتقد أنني مجنون، ألأنني أتكلّم إنكليزية رديئة؟ اللعنة، إنها ليست لغتي الأم، يا رجل، أنا أميركي! أتعتقد حقاً أنني مجنون؟»

«نعم، نعم!»

قال راس «أتصدّق هذا؟ ماذا فعلوا بك، أيها الرجل الأسود؟ هل أعطوك نساء قذرات؟»

مرة أخرى اندفع كليفتون، ومن جديد أمسكتُ به؛ ومن جديد ظلَّ راس ثابتاً في مكانه، ورأسه أحمر متوهج.

«نساء؟ *اللعنة*، يا رجل! أهذه مساواة؟ أهذه هي حرية الإنسان الأسود؟ ربتٌ على الظهر وعاهرة بلا أية مشاعر؟ يرقات! إنهم يشترونك رخيصاً، يا رجل؟ ما الذي *يفعلونه* بشعبي! أين عقولكم؟ تلك النسوة حثالة، يا رجل! إنهن مياه آسنة! أنت تعلم أنَّ الرجل الأبيض من الطبقة الراقية يكره الرجل الأسود، وهذا أمر بسيط. لذلك هو يستخدم الآن الحثالة ويريد منكم أنتم الشبان السود أنْ تقوموا بعمله القذر. إنهم يخونونكم ويخونون الشعب الأسود. إنهم يخدعونكم، يا رجل. فليتقاتلوا فيما بينهم. فليقتل بعضهم بعضاً. نحن ننتظم – الانتظام أمر جيد – لكننا ننتظم كسود. *سود!* وليذهب ابن الحرام ذاك إلى الجحيم! إنه يأخذ واحدة من تلك العاهرات ويُخبر الرجل الأسود أنَّ حريته تكمن بين فخذيها النحيلين – في حين أنَّ ابن الحرام ذاك يستفرد بالسلطة وبرأس المال ولا يترك للأسود أي شيء. إنه يُخبر النساء البيض الصالحات أنَّ الرجل الأسود مُغتصِب ويُغلق الأبواب عليهن ويبقيهن جاهلات في حين يجعل من الرجل الأسود عِرقاً من أولاد الحرام.

«متى سيملّ الرجل الأسود هذه الخيانة الصِبيانية؟ لقد سيطر عليكم لكي لا تثقوا بعقلكم الأسود؟ أنت شاب، فلا تبع نفسك رخيصاً، يا رجل. لا تُنكِر نفسك! لقد استلزم خلقك مليار غالون من الدماء السوداء. اعترف بنفسك من الداخل فتكسب الملوك بين الرجال! إنَّ الرجل يعرف أنه رجل

عندما لا يمتلك أي شيء، عندما يكون عارياً – ليس من الضروري أنْ يُخبره أحد بذلك. أنت تبلغ ستة أقدام طولاً، يا رجل. أنت شاب وذكي. أنت أسود ووسيم – فلا تدعهم يقولون لك خلاف ذلك! ولولا تلك المواصفات لكنتَ ميتاً، يا رجل، ميتاً! كنتُ قتلتك، يا رجل. رفع راس الناصح الخنجر وحاول أن يجرب أنْ يقتله، لكنه لم يستطع. أتساءل، لِمَ لم تفعل؟ فأجيبُ، سوف أفعل الآن؛ لكنَّ شيئاً ما يقولُ لي «كلا، كلا! لعلك تقتل ملكك الأسود!» وأقول، نعم، نعم! لذلك أنا أقبل عملك المُهين. لقد تعرَّفَ راس على إمكاناتك كرجل أسود، يا رجل. إنَّ راس لا يمكن أنْ يُضحّي بأخيه الأسود لمصلحة المُستعبِد الأبيض. وبدل ذلك يبكي. إنَّ راس رجل – لم يُخبره بهذا أي رجل أبيض – وراس يبكي. فلِمَ لا تتعرَّف على واجبك كأسود، يا رجل، وتنضمّ إلينا؟

كان صدره يجيش وشابت صوتَه الأجش نبرةُ مناشدة. لقد كان ناصحاً، بكل وضوح، ووقعتُ في شِباك سلاسة مناشدته الفظّة، المجنونة. وقف هناك، في انتظار جوابي. وفجأة مرّت طائرة نقل ضخمة بارتفاعٍ منخفِض من فوق الأبنية فرفعت نظري ورأيتُ اشتعال محركها، وران على ثلاثتنا الصمت، ونحن نراقب.

فجأة هزَّ الناصح قبضة يده في وجه الطائرة وصرخ «فليذهب إلى الجحيم، ذات يوم سوف نقضي عليهم أيضاً! ليذهب إلى الجحيم!»

ظل واقفاً في مكانه، يهزّ قبضته بينما الطائرة تهزّ الأبنية بفعل طيرانها القوي. ثم ابتعدتْ ثم رحتُ أتلفّت في أرجاء الشارع الغريب. كانوا يتقاتلون عندئذٍ على مسافة منا في الظلام وكنا وحدنا. نظرتُ إلى الناصح. لم أعرف إنْ كنتُ غاضباً أم مذهولاً.

قلت، هازاً رأسي نفياً، «اسمع، فلنتحدث بعقلانية. من الآن فصاعداً سوف نتواجد على قارعة الشوارع في كل ليلة وسوف نكون مُستعدين لأية مشكلة. نحن لا نريدها، خاصة معك، لكننا أيضاً لن نفرّ...»

قال، قافزاً إلى الأمام، «اللعنة، يا رجل، هذه *هارلم*. هذه منطقتي *أنا*، منطقة الرجل *الأسود*. أتظن أننا نسمح للبيض بالمجيء ونشر سُمّهم؟ ليأتوا

إلى هنا ويستولوا على الألعاب؟ كما استولوا على المحال التجارية كلها. تكلّم بعقلانية، يا رجل، إذا كنتَ تتحدث مع راس، تكلَّم بعقلانية!»

قلت «هذه هي العقلانية، وأنت تُصغي كما نُصغي إليك. سوف نخرج إلى هنا في كل ليلة، أتفهم. سوف نخرج إلى هنا وإذا لاحقتَ أياً من إخوتنا شاهراً خنجراً – وأعني بقولي أبيضَ كان أم أسود – حسن، فلن ننسى ذلك»

هزّ رأسه نفياً. «ولا أنا أيضاً سأنساك، يا رجل»

«لا تنس. لا أريد منك أنْ تنسى؛ لأنكَ إنْ فعلتَ ستقع مشاكل. ثم إنك مُخطئ، ألا ترى أننا نفوقكم في العدد؟ ولكي تربح يجب أنْ يكون معك حلفاء...»

«هذا كلام عقلاني. حلفاء من السود. حلفاء من الصفر والسُمر!»

قلت «كل الرجال يريدون عالماً أخوياً»

«لا تكن أحمق، يا رجل. إنهم بيض، وليسوا مُضطرين إلى التحالف مع السود. إنهم يحصلون على ما يريدون، وقد انقلبوا ضدنا. أين ذكاؤك الأسود؟»

قلت «كأنك تعتقد أنني سأجعلك تضيع في حركة التاريخ. يجب أنْ تفكّر بعقلك وليس بمشاعرك»

هزّ رأسه نفياً بعنف، ونظر إلى كليفتون.

«هذا الرجل الأسود يُحدثني عن العقل والتفكير. وأنا أسألكما أنتما الاثنين، هل أنتما نائمان أم يقظان؟ ما هو ماضيكما وإلى أين أنتما متوجهان. لا بأس، خذا أيديولوجيتكما الفاسدة والتهما أحشاءكما كما تفعل الضباع الضاحكة. أنتما ضائعان، يا رجل. لا اتجاه لكما! إنَّ راس ليس جاهلاً، ولا خائفاً. كلا! راس موجود هنا أسود ويُقاتل من أجل تحرير الشعب الأسود بعد أنْ حصل البيض على ما أرادوا وضحكوا في وجوهكم وأنتم تتعفّنون وتختنقون باليرقات البيضاء»

بصق بغضب على الشارع المظلم. فطار البصاق وردياً وسط الوهج الأحمر.

قلت «لا اعتراض لي على هذا. ولكن تذكّر ما قلتُ. هيا بنا، أيها الأخ كليفتون. هذا الرجل مملوء بالصديد، الصديد الأسود»

وباشرنا بالابتعاد، وسُحِقَتْ قطعة من الزجاج تحت قدمي.

قال راس «لعل الأمر كذلك، لكنني لستُ أحمق! أنا لست أسود مُثقفاً أحمق يعتقد أنه يمكن أنْ تُحلّ المشاكل بين السود والبيض ببعض الأكاذيب اللعينة في بعض الكتب اللعينة التي ألّفها أصلاً رجل أبيض. لقد تطلّب بناء حضارة الرجل الأبيض ثلاثمئة عام من الدم الأسود ولا يمكن مسحه بدقيقة. إنَّ الدم يُنادي الدم! تذكّر هذا. وتذكّر أنني لستُ مثلك. إنَّ راس يعرف القضايا الحقيقية وهو ليس خائفاً من كونه أسود. ولا هو بخائن لمصلحة البيض. تذكّر هذا: أنا لستُ خائناً أسود للشعب الأسود لمصلحة البيض»

وقبل أنْ أتمكن من الإجابة دار كليفتون حول نفسه في الظلام وسُمعَ صوت تكسّر ورأيتُ راس ينخفض وسمعتُ كليفتون يتنفّس بصعوبة وراس مُمدّداً في الشارع، رجل أسود، ضخم الجثة، ودموع حمراء تغطي وجهه الذي عكسَ عبارة «**هنا تُصرَف الشيكات**»

ومن جديد، وبينما كليفتون ينظر بتجهّم إلى أسفل بدا كأنه يسأل سؤالاً أخرس.

قلت «هيا بنا، هيا بنا!»

وانطلقنا مبتعدين وزعيق صفارات الإنذار يعلو. وكليفتون يسبّ بهدوء بينه وبين نفسه.

ثم خرجنا من الظلام إلى شارع مزدحم والتفت إليّ. كانت في عينيه دموع:

قال «يا لابن الحرام المسكين، المُضلَّل»

قلت «ويحترمك كثيراً، أيضاً». فرحتُ لأننا خرجنا من الظلام وابتعدنا عن ذلك الصوت الناصح.

قال كليفتون «ذلك الرجل مجنون. إذا أفسحتَ له المجال فسوف يُصيبك بالجنون»

قلت «من أين حصل على ذلك الاسم؟»

«هو أطلقه على نفسه. أعتقد أنه فعل. إنَّ *راس* هو لقب محترم في الشرق. أمرٌ غريب أنه لم يذكر أي شيء عن «أثيوبيا تنشر جناحيها واسعاً»»، قالها مُحاكياً بسخرية راس. «إنه يجعلها تبدو أشبه برأس حيّة كوبرا يُرفرف... لا أعلم... لا أعلم...»

قلت «يجب أنْ نراقبه من الآن فصاعداً»

قال «نعم، يُستحسن أنْ نفعل. لنْ يكفّ عن القتال... وشكراً لك على التخلُّص من خنجره»

قلت «لم يكن هناك من داع لأنْ تقلق. ما كان ليقتل مِلِكَه»

التفت ونظر إليّ كأنه اعتقد أنني قد أكون جادّاً؛ ثم ابتسم.

قال «مرت عليّ لحظة اعتقدتُ خلالها أنني سأموت»

بينما كنا متوجهَين إلى مكتب المنطقة تساءلت عما سيقوله الأخ جاك عن الشجار.

قلت «سوف يتوجب علينا أنْ نتغلّب عليه بالتنظيم»

قال كليفتون «سنفعل ذلك، حتماً. لكنَّ قوة راس تكمن في داخله. إنّ الخطر يكمنُ في داخله»

قلت «لن يعتمد على داخله. سوف يعتبر نفسه خائناً»

قال كليفتون «كلا، لن يعتمد على داخله. أسمعت كيف كان يتكلّم؟ أسمعت ما كان يقول؟»

قلت «سمعته، طبعاً»

قال «لا أعلم. أحياناً أعتقد أنَّ الإنسان يجب أنْ يخرج من التاريخ...»

«ماذا؟»

«أنْ يخرج منه، يُدير ظهره له... وإلا قتلَ أحداً، وفقدَ عقله»

لم أُجِب. قلت في نفسي، لعله على صواب، وفجأة غمرتني السعادة لأنني عثرت على الأخوية.

في صباح اليوم التالي أمطرت الدنيا ووصلتُ إلى المنطقة قبل وصول الآخرين ووقفت أطلّ من نافذة غرفة مكتبي، ثم استعرضتُ الجدار البارز

لأحد الأبنية، وبعد النسق الرتيب لحجارته وملاطه رأيتُ صفاً من الأشجار ترتفع باسقة وجميلة في المطر. وإحدى الأشجار نمت قريبة ورأيت المطر يجري على لحائها وعلى براعمها اللزجة. كانت الأشجار تُحدِّد طول المبنى الطويل أمامي، تنهض باسقة وسط رطوبة تقطر فوق سلسلة من الأفنية الخلفية المتقاربة. وتبدّى لي أنها، إذا ما جُرِّدتْ من سياجاتها المتداعية وزُرِعَتْ بالأزهار والعشب، قد تصبحُ متنزهاً يُبهج النفوس. وعندئذٍ بالذات طار كيس من الورق من إحدى النوافذ إلى يساري وانفجر كقنبلة يدوية صامتة، ناثراً القمامة في الشارع ومستقراً على الأرض مع فرقعة ثقيلة مُرهقة! حدّقتُ باشمئزاز، ثم فكّرت، ذات يوم سوف تشرق الشمس على تلك الأفنية. في هذا المجال، قد تفيد حملة تنظيف يقوم بها المجتمع في موسمٍ كاسد. لا يمكن لكل شيء أنْ يُضاهي في الإثارة ما وقع في الليلة السابقة.

استدرت ورجعتُ إلى طاولة مكتبي وجلستُ في مواجهة الخريطة ثم ظهر الأخ تارب.

قال «صباح الخير، يا بنيّ، أرى أنك باشرت عملك باكراً»

قلت «صباح الخير. لدي الكثير من العمل يتطلب الإنجاز ورأيتُ أنه يُستحسن أنْ أبدأ باكراً»

قال «سوف تنجح في عملك. لكنني لم أتِ إلى هنا لكي أضيِّع وقتك، أريد أنْ أضع شيئاً على الجدار»

«تفضل. هل أساعدك؟»

قال «كلا، أستطيع أنْ أتدبّر أمري»، وارتقى بساقه العرجاء كرسياً موجوداً تحت الخريطة وعلَّقَ إطاراً على السقف المُشقّق، وعدَّلَ من شأنه بعناية، ثم نزل ووقف إلى جوار طاولتي.

«أتعرف مَنْ هذا، يا بنيّ؟»

قلت «طبعاً؛ إنه فريدريك دوغلاس»

«هذا صحيح، هو بذاته. أتعرف الكثير عنه؟»

«ليس الكثير. لكنَّ جدّي كان يُخبرني عنه»

«هذا يكفي، كان رجلاً عظيماً. ألقِ عليه نظرة بين حين وآخر. هل لديك كل ما تحتاج – الورق وما شابه؟»

«نعم، لديّ، أخي تارب. وشكراً على الصورة الشخصية لدوغلاس»

«شكراً لك، يا بنيّ»، قال من عند الباب، «إنه يخصّنا جميعاً»

جلستُ أواجه الصورة الشخصية لفريدريك دوغلاس، شاعراً بورع مفاجئ، متذكراً ورافضاً سماع أصداء صوت جدّي. ثم رفعت سماعة الهاتف وبدأتُ أتصل بقادة المجتمع.

وقفوا صفاً واحداً كسجناء: وعّاظ، سياسيون، محترفون متنوعون، يُثبتون أنَّ كليفتون على صواب. لقد كان شجار عملية الإخلاء بالقوة قضية كبرى بحيث أنَّ غالبية القادة خشوا أنْ يخرج أتباعهم في مسيرات معنا من دونهم. لم أستخفّ بأي منهم، مهما كان تافهاً؛ كانوا شخصيات مهمة، أطباء، متعهدي عقارات، ووعّاظاً في الأسواق. وسار الأمر بسرعة كبيرة وبسلاسة كأنه لا يحدث معي بل مع شخص آخر يحمل اسمي الجديد. وكدتُ أضحك على الهاتف عندما سمعت مدير نُزُل الرجال يُخاطبني باحترام شديد. كان اسمي الجديد ينتشر. قلت في نفسي، أمر غريب، لكنَّ الأمور بالنسبة إليهم غريبة في المعتاد إلى درجة أنهم يُصدقون أنَّ تسمية شيء باسمه يعني التصديق عليه. ومع ذلك أنا كما يعتقدونني...

سار عملنا سيراً حسناً جداً بحيث إننا بعد ذلك ببضعة أسابيع أعددنا مسيرة زادت من سيطرتنا على المجتمع. عملنا بسرعة محمومة. والآن بدا أنَّ مشاجراتي وصراعي خلال الأيام الأخيرة وأنا في منزل ميري قد انتقلتْ لتُصبح صراعات المجتمع، وجعلتني هادئاً ومتماسكاً من الداخل. حتى الهرج والمرج اللذان نتجا عن منع العمال من دخول المصانع وإلقاء الخُطب بدوا أنهما يُحفزانني للأفضل؛ لقد أتت أشد أفكاري جموحاً ثمارها.

لدى سماعي أنَّ أحد الإخوة العاطلين عن العمل كان مدرباً عسكرياً من ويتشيتا، كنساس، نظّمت فريق تدريب من ذوي الطول الفارع واجبهم أنْ يسيروا في الشوارع ويطلقوا شرراً بأحذيتهم ذات نعال المسامير. وفي يوم

المسيرة جمعوا الحشود أسرع من تجمُّع الكلاب للتعارك على طريق ريفية. كنا نسميهم «فريق الشعب للأقدام الحارة»، وعندما ساروا في تشكيلات رائعة في الجادة السابعة في غروب يوم ربيعي أضرموا الحماس في الشوارع. ضحك أفراد المجتمع وهللوا ووقف رجال الشرطة مشدوهين. ولكن مجرد حدوثها أزعجهم وتابع فريق القدم الحارة مسيرته. ثم جاءت الأعلام والرايات والرقع التي تحمل الشعارات؛ وفرقة قارعات الطبول، من أجمل ما يمكن العثور عليه من فتيات، يطفرن ويدرن، وهن فتيات عاديات يُعبِّرن عن اهتمامهن الحماسي للأخويّة. وكنا قد أخرجنا حوالي خمسة عشر ألفاً من سكان هارلم إلى سيتي هول. والحق، صرنا حديث المدينة.

مع هذا النجاح رحت أتقدَّم بخطى تُثير الدوار. وشاع اسمي كالدخان في غرفة ساكنة الهواء. وواظبت على الانتقال في المنطقة. أُلقي خطابات هنا، وهناك، وفي كل مكان، في أرجاء البلدة كلها. كتبتُ مقالات للصحف، وقدت مسيرات ووفود الإعانة، وما إلى ذلك. وأخذت الأخوية تحيد عن طريقها لتُبرِز اسمي. وحملتْ مقالاتٌ، وبرقياتٌ والعديد من البريد توقيعي – كتبت بعضاً منها وليس معظمها. واشتهرتُ، وتطابقت مع التنظيم في الصحافة بالكلمة وبالصورة. وفي وقت متأخّر من صباح يومٍ ربيعيّ وأنا في طريقي إلى مركز عملي أحصيتُ خمسين تحية من أناسٍ لا أعرفهم، مُدركاً أنَّ هناك نسختين مني: الذات القديمة التي تنام ساعات قليلة في الليلة وتحلم أحياناً بجدّي وبليدسو وببروكواي وبميري، الذات التي تطير بلا أجنحة وتهبط من أعالٍ شاهقة؛ والذات الجديدة العامة التي تتحدث بلسان الأخويّة وتُصبح أشدّ أهمية بكثير من الأخرى حتى بدا كأنني أخوض سباقاً في الركض مع نفسي.

ومع ذلك، أحببتُ عملي خلال أيام اليقين تلك. أبقيتُ عينيّ مفتوحتين واسعاً وأُذنيّ يقظتين. كانت الأخويّة عالماً داخل عالم وصمَّمتُ على اكتشاف أسرارها كلها والتقدّم إلى أبعد مدى. لم أرَ حدوداً، لقد كانت المُنظّمة هي الوحيدة في البلد كله التي وصلتُ فيها إلى أعلى ذروة وصمَّمت على بلوغها. حتى وإنْ كان ذلك يعني ارتقاء جبلٍ من الكلمات. ذلك أنني عندئذٍ كنتُ قد بدأتُ أُصدّق، على الرغم من كل الحديث عن

العِلم الذي يدور حولي، أنَّ الكلمات المنطوقة تنطوي على سحر. أحياناً كنتُ أجلس أراقب الضوء الرجراج يعبثُ على صورة دوغلاس الشخصية، وأفكّر في مدى سِحره وهو يتكلّم منتقلاً من العبودية إلى منصب وزاري في الحكومة، وبسرعة كبيرة. وقلت في نفسي، لعل شيئاً مُشابهاً يحدث لي. دوغلاس جاء إلى الشمال هرباً وليبحث عن عملٍ في أحواض بناء السفن؛ كان شخصاً ضخم الجثّة يرتدي زي البحارة اتّخذ، مثلي، اسماً آخر. ماذا كان اسمه الحقيقي؟ كائناً ما كان، فقد أصبح هو **دوغلاس**، وحدَّد شخصيته. ولم يُصبح صانع قوارب كما توقَّع، بل خطيباً. لعل السِحر كان يكمن في التحولات غير المتوقعة. كان جدّي غالباً ما يقول «سوف تبدأ كشاؤول، وتنتهي كبولس. عندما تكون شاباً، أنت شاؤول، ولكن عندما تضربك الحياة على رأسك تتحول إلى بولس - لكنك ما زلت تتصرف كشاؤول أحياناً»

كلا، لا يمكنك أنْ تعرف أبداً إلى أين تتجه، هذا هو الأمر المؤكَّد. الأمر الوحيد المؤكد. ولا تعرف كيف تصل إلى غايتك - على الرغم من أنك عندما تصل يكون هو المكان الصحيح بصورة ما. إذاً ألم أباشر في إلقاء خطاب، وألمْ يكن خطاباً أكسبني منحتي الدراسية في الجامعة، حيث توقعت أنْ يُكسبني إلقاء الخُطب مكاناً مع بليدسو ويجعل مني في نهاية المطاف زعيماً وطنياً؟ حسن، لقد ألقيتُ خطاباً، وقد جعل مني زعيماً، وإنْ لم يكن من النوع الذي توقّعت. إذن هذا ما حدث. قلت في نفسي، وأنا أنظر إلى الخريطة، لكنني لا أشتكي؛ لقد بدأتَ بالبحث عن أناسٍ حُمر وعثرت عليهم - على الرغم من أنهم من نوع آخر في عالم جديد مُشرق. عالم غريب إذا فكّرتَ فيه؛ لكنه عالم يمكن التحكُّم فيه بالعِلم، والأخوية تسيطر على العِلم وعلى التاريخ.

وهكذا على مدى فترة زمنية موحشة عشتُ بالكثافة التي تجلّتْ عبر المُقامرين المزمنين الذين يجدون مفاتيح حظهم في الظاهرة الدقيقة والتافهة: في السُحُب، وعلى سيارات الشحن المارة وعربات القطارات النفقية، وفي الأحلام، والمجلات الهزلية، وفي شكل كلب الحظ يتبرز على الرصيف. لقد كانت فكرة الأخوية الشاملة تهيمن عليّ. ومنحت المنظّمة

العالمَ شكلاً جديداً، وأعطتني دوراً حيوياً. ونحن لا نلاحظ وجود أطراف سائبة، يمكننا أنْ نتحكُّم في كل شيء بعِلمنا. لقد كانت الحياة برمتها مِثالاً يُحتذى وانضباطاً؛ وجمال الانضباط يكمن في نجاحه. وقد كان ناجحاً جداً.

-18-

وحدها الطاقة القسريّة التي ألهمني بها بليدسو القيّم لقراءة كل ما وقع تحت يدي من أوراق منعتني من وضع المُغلَّف جانباً. كان بلا طوابع وبلا ختم وبدا أنه أقلّ مواد بريد الصباح أهمية:

أخي،

هذه نصيحة من صديق كان يراقبك عن كثب. لا تنطلق بسرعة كبيرة. اعمل دائماً من أجل الشعب ولكن تذكّر أنك واحد منا ولا تنس عندما تُصبح شخصية مهمة وكبيرة أنهم يمكن أنْ ينزلوك أرضاً. أنت من الجنوب وتعلم أنَّ هذا عالم الرجل الأبيض. لذلك خُذها نصيحة من صديق وتمهّل حتى تتمكن من مدّ يد العون للشعب الملوّن. إنهم لا يريدون منك أنْ تُسرع أكثر مما ينبغي وإذا فعلتَ فسوف يدمّرونك. تصرّف بذكاء...

قفزتُ واقفاً على قدميّ، والورقة تصلصل كالأفعى بين يديّ. ماذا تعني؟ مَنْ أرسلها؟

هتفت، وأنا أُعيد قراءة الأسطر المرتعشة المكتوبة بخط اليد والمألوفة بصورة ما «أيها الأخ تارب! أيها الأخ تارب!»

«ما الأمر، يا بنيّ؟»

رفعتُ بصري، وتلقّيتُ صدمة أخرى، فقد رأيت ضمن إطار الباب، تحت ضوء الصباح الباكر الرمادي، كأنَّ جدِّي يطلُّ من عينيه. شهقتُ شهقة سريعة، ثم رانت برهة صمت سمعتُ خلالها صفير تنفّسه وهو ينظر إليّ بثبات.

قال، وهو يلج الغرفة بساقه العرجاء، «ما الخطب؟»
مددتُ يدي بالمغلّف. قلت «من أين أتى هذا؟»
قال، وهو يتناوله بهدوء من يديّ، «ما هذا؟»
«إنه بلا طابع»
«أوه، نعم – لقد رأيته. أعتقد أنَّ أحدهم وضعه في صندوق البريد في وقت متأخّر من الليل. أخرجته مع باقي البريد المعتاد. أليس موجّهاً إليك؟»
قلت، متفادياً النظر إلى عينيه، «كلا. ولكن – إنه غير مؤرّخ. كنتُ أتساءل متى وصل – لِمَ تحدِّق إليّ؟»
«لأنه يبدو كأنك رأيت شبحاً. أأنت مريض؟»
قلت «لا شيء يستحق القلق. أنا فقط قلق قليلاً»
سادت فترة صمت مرتبكة. ظلّ واقفاً وأجبرت نفسي على النظر في عينيه من جديد، بعد أنْ تلاشت صورة جدّي، ولم تخلِّف وراءها غير هدوء البحث. قلت «اجلس لحظة، أيها الأخ تارب. بما أنك هنا أودّ أنْ أطرح عليك سؤالاً»
قال، وهو يجلس على الكرسي «تفضّل. اسأل»
«أخي تارب، أنت تتجول وتعرف الأعضاء – ما هو رأيهم حقاً فيَّ؟»
نصبَ رأسه. «نعم، طبعاً –إنهم يعتقدون أنك سوف تُصبح زعيماً حقيقياً–»
«ولكن؟»
«لا تردُّد، هذا ما يرون وليس لدي ما يمنعني من البوح بذلك»
«ولكن ماذا عن الآخرين؟»
«أي آخرين؟»
«أولئك الذين لا يُحبذونني؟»
«لم أسمع بوجود مثل هؤلاء، يا بنيّ»
قلت «ولكن لابد أنَّ لي **بعض** الأعداء»
«حتماً، أعتقد أنَّ كل شخص لديه منهم، لكنني لم أسمع عن وجود أي منهم هنا في الأخوية لا يُحبّذ وجودك. وبالنسبة إلى الموجودين هنا **فهم** يعتقدون أنك الشخص *المطلوب*. هل سمعت ما يُخالف هذا؟»

«كلا، لكنني أتساءل. لقد كنتُ أمشي في طريقي وأعتبرُ وجودهم بديهياً ورأيتُ أنَّه من الأفضل أنْ أتبيَّن إنْ كنتُ سأحظى بدعمهم»

«حسن، لا داعي للقلق. حتى الآن، تقريباً كل ما له صِلة بك يُعجب الناس، حتى الأشياء التي لا يتقبّلها بعضهم»، ثم قال، مُشيراً إلى الجدار القريب من طاولة المكتب، «لديك هذا على سبيل المثال»

كان مُلصقاً رمزياً لمجموعة من الشخصيات البطولية: زوج من الهنود الأميركيين، يُمثلان الماضي المسلوب؛ وأخ أشقر (يرتدي زي العمل) وأخت أيرلندية بارزة، تمثّل الحاضر المسلوب؛ والأخ تود كليفتون مع زوج من الشبان البيض (لم يكن من الحِكمة أنْ يظهر كليفتون ببساطة مع الفتاة) مُحاطون بمجموعة من الأطفال من أعراق مختلفة، يمثلون المستقبل، في صورة بالألوان على ورق صقيل وتبايُن سلس.

قلت، مُحدقاً إلى الأسطورة، «والمعنى؟»

«*بعد الصراع: قوس قُزح مستقبل أميركا*»

«حسن، عندما اقترحته للمرة الأولى، كان بعض الأعضاء ضدك»

«هذا صحيح من دون أدنى شك»

«حتماً، وأقاموا الدنيا ولم يُقعدوها حول الأعضاء الشبان الذين دخلوا قطارات الأنفاق وعلّقوها هناك بدلاً عن إعلانات الإمساك وغيرها – ولكن أتعرف ماذا يفعلون الآن»

قلت «أعتقد أنهم يقفون ضدي لأنه أُلقيَ القبض على بعض الصِبية»

«يقفون ضدك! اللعنة، إنهم يتجولون متباهين بذلك. ولكن ما كنتُ أوشك أنْ أقول هو أنهم يأخذون مُلصقات قوس القزح ويُلصقونها جنباً إلى جنب مع شعار «فليبارك الربُ أرضَ الوطن» ومع صلاة الرب. إنهم مولعون بذلك. والأمر نفسه مع فريق «ذوي الأقدام الحارة» وما إلى ذلك. لا داعي للقلق، يا بنيّ. لعلهم يُناهضون بعضاً من أفكارك، ولكن عندما يفشل الاتفاق، سوف يسقطون معك إلى القاع. الأعداء الوحيدون الذين يمكن أنْ

تحصل عليهم هم من الخارج الذين يغارون من صعودك المفاجئ ويبدأون بالقيام ببعض الأعمال التي كان ينبغي القيام بها قبل سنين عديدة. ولكن ماذا يهمك إذا بدأ بعض الأشخاص بتوجيه الضربات إليك؟ إنها إشارة إلى أنك بلغتَ مرتبة مرموقة»

قلت «أودّ لو أصدّق هذا، أيها الأخ تارب. ما دام الناس معي فسوف أؤمن بما أفعل»

قال «هذا صحيح. عندما تمر بأوقات عصيبة فإنَّ ذلك يساعدك على معرفة أنك حصلت على دعم –» فجأة سكتَ صوته وأخذ يُحدّق إليّ، على الرغم من أنه كان يواجهني على مستوى العين عبر طاولة المكتب.

«ما الأمر، أيها الأخ تارب؟»

«أنت من عمق الجنوب، أليس كذلك، يا بنيّ؟»

قلت «نعم»

استدار وهو على كرسيه، وزلق إحدى يديه داخل جيبه وهو يُريح ذقنه على اليد الأخرى. «في الحقيقة أنا لا أملك الكلمات المناسبة التي تعبِّر عما يجول في خاطري، يا بنيّ. في الواقع، لقد مكثت هناك فترة طويلة من الزمن قبل أنْ آتي إلى هنا، وعندما فعلتُ ذلك لحقوا بي. ما أعني هو، كان لابد لي من الهرب، واضطررتُ إلى أنْ آتي ركضاً»

قلت «أعتقد أنَّ هذا ما فعلتُه أنا أيضاً، بصورة أو بأخرى»

«تعني أنهم كانوا يُلاحقونك أيضاً؟»

«ليس بالضبط، أخي تارب، إنه فقط شعوري»

قال «في الواقع هذا ليس الأمر نفسه. أترى هذا العرج الذي أعاني؟»

«نعم»

«في الواقع، لم أكن دائماً أعرج، وأنا لا أعرج حقاً الآن لأنَّ الأطباء لا يجدون أي عيب في تلك الساق. يقولون إنها قوية كالفولاذ. ما أعني هو أنني حصلت على هذا العرَج من جرّ السلاسل»

لم أر في عينيه ولم أسمع في نبرة صوته، لكنني كنتُ متأكّداً من أنه لم يكن يكذب ولا يحاول أنْ يصدمني. هززتُ رأسي.

قال «طبعاً لا أحد يعلم بهذا عني، إنهم يعتقدون أنني مُصاب فقط بالروماتيزم. ولكنَّ السبب كانت تلك السلسلة وبعد مرور تسعة عشر عاماً لم أعُد أستطيع أنْ أتوقف عن جرّ ساقي نفسها»

«تسعة عشر عاماً!»

«تسعة عشر عاماً، وستة أشهر ويومين. وما ارتكبته لم يكن بالأمر الجلل؛ أي، لم يكن كذلك عندما ارتكبته. ولكن بعد مرور وقت طويل تحول إلى شيء آخر وأصبح يبدو سيئاً بقدر ما يفترضون. ومرور كل ذلك الوقت هو الذي *جعله* سيئاً. ودفعتُ ثمن ارتكابه كل شيء ما عدا حياتي. خسرتُ زوجتي وولديّ وقطعة أرضي. وهكذا ما بدأ شجاراً بين رجلَين تحول إلى جريمةٍ تستحق تسعة عشر عاماً من حياتي»

«وما الذي ارتكبته بحق الله، أخي تارب؟»

«لقد قلت كلا لرجلٍ أراد أنْ يأخذ شيئاً مني؛ هذا ما كلّفني قول كلا وحتى الآن لم أُسدِّد الدَين كاملاً ولن أُسدّده *أبداً* حسب شروطهم»

أخذ الألم ينبض في حنجرتي وشعرتُ بما يُشبه اليأس الخدِر. تسعة عشر عاماً وها هو ذا الآن يتحدث إليّ بهدوء ولا شك في أنَّ هذه هي المرة الأولى التي حاول فيها أنْ يُخبر أحداً عن الأمر. وتساءلت، ولكنْ لِمَ لي أنا، لِمَ اختارني؟

قال «قلت كلا، قلت *اللعنة*، كلا! وظللتُ أقول كلا إلى أنْ كسرتُ السلسلة وغادرت»

«ولكن كيف؟»

«كانوا يسمحون لي بالاقتراب من الكلاب مرةً كل حين، هكذا فعلت. فعقدتُ صداقة مع الكلاب وانتظرتْ. هناك تتعلَّم حقاً كيف تنتظر. انتظرتُ تسعة عشر عاماً ومن ثم في صباح أحد الأيام في أثناء فيضان النهر غادرت. ظنوا أنني أحد الذين قضوا غرقاً عندما انكسر سدّ الفيضان، لكنني كسرت القيد وفررت. كنتُ واقفاً في الوحل أُمسك رفشاً طويل الذراع وتساءلت، تارب، ألا تستطيع أنْ تهرب؟ فقلت لنفسي نعم؛ كل تلك المياه والوحل والمطر قالوا نعم، وهربت»

فجأة ضحك ضحكة مرحة أجفلتني.

قال، مُدخِلاً يده في جيبه ومُخرِجاً شيئاً بدا أشبه بكيس تبغ بغلاف من المشمع، أخرج منه شيئاً ملفوفاً بمنديل، «إنني أخبرك بهذا بأفضل أسلوب ممكن»

«ومنذ ذلك الحين، يا بنيّ، وأنا أبحث عن الحرية. وأحياناً أُحقق بعض النجاح. وحتى هذه الأيام الصعبة التي نمرُّ بها أبليتُ بلاءً حسناً، مع الأخذ بعين الاعتبار أنني رجل ليس بأتمّ صحة. ولكن حتى في الأيام التي كنتُ فيها أفضل حالاً كنتُ أتذكّر. ولأنني لم أُرِد أنْ أنسى السنوات التسع عشرة تلك تشبّثتُ بها كتذكار وكشيء مُذكِّر»

عندئذٍ كان يزيل المنديل عن الغرض ورحتُ أراقب يديه العجوزَين.

قال، وهو يناولني إياه، «أريد أنْ أعطيك إياه، يا بنيّ. من المضحك إعطاء مثل هذا الشيء لشخص، ولكن أعتقد أنه ينطوي على الكثير من المغزى وقد يساعدك على تذكُّر ما تُحاربه حقاً. أنا لا أفكّر فيه بكونه مؤلَّفاً من كلمتين، **نعم ولا**؛ لكنه يدل على الكثير من...»

رأيته يضع يده على طاولة المكتب قال، منادياً إياي بـ «أخٍ» للمرة الأول، «يا أخي، أريد منك أنْ تأخذه. أعتقد أنه أشبه بقطعة تجلب الحظ الحسن. على أية حال، إنه الشيء الذي شكّلته بمبرد لكي أهرب»

تناولته بيدي، كان قطعة ثقيلة وقاتمة اللون بُرِدَتْ من الفولاذ الذي لُويَ ليُفتَح وأُرجِعَ قسراً إلى الخلف ليستقر في مكانه، رأيتُ عليه علامات ربما حُفِرَت بشفرة فأس. كانت تشبه الحلقة المعدنية التي رأيتها على طاولة مكتب بليدسو، ولكن في حين أنَّ تلك كانت ملساء، كانت العلامات التي يحملها غرض تارب محفورة في عُجالة وبعنف، وكأنها تعرَّضَتْ للهجوم واغتُصِبَتْ قبل أنْ تستسلم بعناد.

نظرتُ إليه وهززتُ رأسي نفياً وهو يراقبني بنظرة مُدقّقة. ولما لمْ أعثر على كلمات أطرح بها مزيداً من الأسئلة بها عنه، مرّرتُ الحلقة على براجمي وضربتها بقوة على الطاولة.

ضحك الأخ تارب ضحكاً مكبوتاً. قال «والآن هناك طريقة لم أستخدمها قط. وهي جيدة جداً. جيدة جداً»

«ولكن لِمَ تعطينيها، أيها الأخ تارب؟»

قال، وهو ينهض ويعرج نحو الباب، «أعتقد أنني *مُضطر* إلى ذلك. لا تحاول أنْ تدفعني إلى قول ما لا أستطيع قوله. أنت المتكلِّم المفوَّه، لا أنا. لقد جلبَتْ إليّ الحظ وأعتقد أنها يمكن أنْ تجلبه إليك. فقط احتفظ بها وانظر إليها مرةً كل حين. طبعاً، إذا مللْتها، أعِدها إليّ ببساطة»

هتفتُ خلفه «أوه، كلا. أنا أريدها وأعتقد أنني أفهم. شكراً لأنك أعطيتني إياها»

نظرتُ إلى الحلقة المعدنية القاتمة على قبضة يدي وأسقطتها على الرسالة المجهولة المصدر. أنا لم أرغب فيها ولم أدرِ ماذا أفعل بها؛ على الرغم من أنني كنتُ سأحتفظ بها دون أدنى شك فقط لأنّني شعرتُ بأنَّ لفتة الأخ تارب بوهبها كانت ذات مغزى عميق اضطررتُ إلى احترامها. إنه شيء أشبه برجلٍ يورّث ابنه ساعة يد والده هو، فيقبلها الابن ليس لأنه أراد حيازة الساعة القديمة بحدّ ذاتها، بل بسبب النبرة الواضحة للجديّة والرصانة غير الظاهرة للّفتة الأبوية التي عملتْ في وقت واحد على ضمّه إلى أسلافه، وشكّلت ذروة حاضره، ووعدتْ بتجسيد مستقبله الضبابيّ والعمائيّ. وهنا تذكّرتُ أنّه لو أنني رجعتُ إلى الوطن بدل المجيء إلى الشمال لمنحني والدي غليونَ جدّي العتيق ذا العنق الطويل الملتوي والرأس الخشن. وهكذا يستطيع أخي أنْ يأخذه بعد أنْ أملَّه. تفكّرتُ بحزن وقد انتابني حنين إلى الوطن، تُرى ماذا يفعلان الآن.

شعرتُ بالهواء القادم من النافذة حاراً على عنقي وأنا أسمع عبر عبق قهوة الصباح صوتاً عميقاً يغني بمزيج من المزاح والجدية:

«لا تأتي في الصباح الباكر
ولا في حرّ النهار
ولكن تعالي في عذوبة برودة
المساء واغسلي عنّي آثامي...»

وبدأتْ سلسلة كاملة من الذكريات تتصاعد، لكنني طرحتها بعيداً. لا وقت أُخصّصه للذاكرة، لأنَّ صورها كلها كانت من الماضي.

لم تكن قد مرَّت غير بضع دقائق منذ أنْ استدعيتُ الأخ تارب لأسأله عن الرسالة ومغادرته، ولكن بدا كأنني غصت عميقاً في بئرٍ من السنين. نظرتُ بهدوء إلى الكتابة التي هزّت، لبرهة من الزمن، كامل بناء يقيني، وفرحت لوجود الأخ تارب لأستدعيه وليس كليفتون أو بعض الآخرين الذين كان يمكن أنْ أشعر أمامهم بخجل من خوفي. بدل ذلك تركني واثقاً من نفسي ومتوازناً. لقد أعاد إليّ مقدرتي على رؤية الأشياء، ربما بسبب صدمةِ تخيُّلِ جدّي وهو ينظر إليّ من خلال عينَي تارب، وربما عبر هدوء صوته وحده، أو ربما جراء قصته وحلقات سلسلة القيد.

فكّرتُ، إنه على صواب؛ كائناً مَن كان الذي أرسل الرسالة فقد كان يحاول أنْ يُبلبلني؛ ثمة عدوّ يحاول أنْ يُعيق تقدّمنا بتدمير إيماني بالضرب على وتر إحساسي القديم بعدم الثقة الجنوبي، وخوفنا من خيانة البيض. وكأنه علِمَ بأمر تجربتي مع رسائل بليدسو وكان يحاول أنْ يستغل تلك المعرفة ليس لتدميري فقط بل لتدمير الأخوية برمّتها أيضاً. لكنّ ذلك كان مستحيلاً؛ فلا أحد ممَّن يعرف تلك القصة يعرفني. لقد كانت ببساطة مُصادفة قذرة. ليتني استطعت أنْ أُطبِق على نحر ذلك الأحمق. كانت الأخوية هي المكان الوحيد في البلاد التي شعرنا فيها بأنّنا أحرار ونتلقّى أكبر تشجيع لاستخدام قُدراتنا، وكان يحاول أنْ يُدمّرها! كلا، لم يكن قلقاً من تحوّلي إلى شخصية بارزة، بل من الأخويّة. وتحوّلي إلى شخصيةٍ بارزة هو بالضبط ما أرادَتْه الأخوية. ألم أكن قد تلقّيتُ تواً أوامر بإعطاء أفكار من أجل تجنيد *المزيد* من الناس؟ وكان شِعار «إنه عالم البيض» هو ما تناهِضُه الأخوية. كنا مُكرَّسين لبناء عالمٍ من الأخوية.

ولكن مَنْ أرسلها – راس الناصح؟ كلا، ليس من شِيَمه. كان مباشراً أكثر ومُناهضاً بصورة مُطلقة للتعاون بين السود والبيض. إنه شخص آخر، أكثر مكراً من راس. وتساءلت، مُقحِماً السؤال أعمق داخل وعيي وأنا ألتفت إلى المهام التي بين يديّ، ولكن مَنْ هو.

بدأتْ فترة الصباح بأناس يطلبون نصيحتي حول كيفية تأمين المعونة؛ وأعضاء يتوافدون لتلقّي الإرشادات من أجل إعداد اجتماعات صغيرة للجمعية تُعقد في زوايا القاعة الكبرى؛ وكنتُ قد صرفتُ امرأةً تسعى إلى إطلاق سراح زوجها الذي سُجِنَ لأنه ضربها، عندما دخل الغرفة الأخ وريستروم. رددتُ على تحيته وراقبته يرتاح على الكرسي، وعيناه تستعرضان طاولة مكتبي – باضطراب. وكأنه صاحب سلطة ما في الأخوية، أمّا وظيفته بالضبط فلم تكن واضحة. شعرتُ بأنَّه أشبه بالمُتطفِّل.

وحالما استقرّ بدأ يُحدق إلى طاولتي، قائلاً «ماذا لديك هناك، أيها الأخ؟» وأشار إلى كومة من الأوراق.

استندتُ ببطء إلى كرسيّ، وأنا أنظر في عينيه مباشرة. قلت ببرودة، مُصمِّماً منذ البداية على منع أي تدخّل، «هذا عملي»

قال، مُشيراً، وقد بدأتْ عيناه تتقدان، «هناك»

قلت «إنه عمل، كله عمل»

قال، مُشيراً إلى حلقة ساق الأخ تارب، «وهذه أيضاً؟»

قلت «هذه مجرد هدية شخصية، أيها الأخ. بمَ أخدمك؟»

«ليس هذا ما سألتك عنه، أيها الأخ. ما هذا؟»

رفعتُ الحلقة وقرَّبتها منه، كانت حينئذٍ قد أضحتْ بلونٍ زيتيّ معدنيّ وتشبه البشرة بصورة غريبة مع هبوط أشعة الشمس المائلة المتسللة من النافذة. «هل ترغب في تفحّصها، أيها الأخ؟ إنَّ أحد أعضائنا ظل يضعها على مدى تسعة عشر عاماً مع باقي السجناء المُسَلسَلين»

انكمش متراجعاً. «اللعنة، كلا! أعني، كلا، شكراً لك. في الحقيقة، أيها الأخ، لا أعتقد أنه يجب أنْ نحتفظ بمثل هذه الأشياء!»

قلت «هذا رأيكَ *أنت*. وهل لي أنْ أعرف السبب؟»

«لأنني لا أعتقد أنَّ علينا أنَّ نُضخِّم من اختلافاتنا»

«إنني لا أُضخِّم أي شيء، وما يوجد على طاولة مكتبي يتصادف أنه من ممتلكاتي الشخصية»

«ولكن يمكن للناس أنْ يروها!»

قلت «هذا صحيح. ولكن أعتقد أنها تذكِّرنا بما تكافح حركتنا ضده»

قال، هازاً رأسه رفضاً، «كلا، يا سيدي! كلا، يا سيدي! هذا أسوأ شيء بالنسبة إلى الأخوية - لأننا نريد أنْ نجعل الناس يفكرون في أشياء مشتركة بيننا. هذا ما يُعزّز الأخوية. يجب أنْ نغيِّر طريقتنا هذه في التحدُّث دائماً عن مدى اختلافنا. في الأخوية كلنا إخوة»

استمتعتُ بذلك. لقد كان جلياً أنه منزعج من شيء أعمق من الحاجة إلى نسيان الاختلافات. كان الخوف ظاهراً في عينيه. قلت، وأنا أُدلّي قطعة الحديد بين إصبعي والإبهام، «أنا لم أفكّر فيها قط بهذه الطريقة، أيها الأخ»

قال «لكنك تريد أنْ تفكّر فيها. يجب أنْ ننضبط. إنَّ الأشياء التي لا تُعزِّز الأخوية يجب التخلُّص منها. لدينا أعداء، كما تعلم. إنني أمارسُ الرقابةَ على كل ما أفعل وأفصحُ عنه لكي أتيقَّن من عدم إزعاج الأخوية - لأنَّ هذه حركة رائعة، أيها الأخ، وينبغي أنْ نُبقيها هكذا. يجب انْ ***نمارس الرقابة على*** أنفسنا، يا أخي. أتفهم ما أعني؟ إننا غالباً ما ننسى أنَّ هذا شيء علينا أنْ نفخر بانتسابنا إليه؛ ونقول أشياء لا تؤدي إلا إلى مزيد من سوء الفهم»

تساءلتُ، ماذا وراءه، وما دخلي أنا بهذا كله؟ أيُعقل أنْ يكون هو الذي بعث الرسالة إليّ؟ أسقطتُ قطعة الحديد وأخرجت الرسالة المجهولة المصدر من تحت الركام وأمسكتُ بها من إحدى زواياها لكي تخترق أشعة الشمس المائلة الصفحة وتُحدد الأحرف المكتوبة على عجل. راقبته عن كثب. كان عندئذٍ يميل على طاولة المكتب، ينظر إلى الصفحة ولكن بعينين تخلوان من التعرُّف عليها. أسقطتُ الصفحة على الكرسي، خائب الأمل أكثر مني مرتاحاً.

قال «بيني وبينك، أيها الأخ، هناك بيننا مَنْ لا يؤمنون بالأخوية»

«أحقاً؟»

«من دون أدنى شك! إنهم موجودون فيها فقط لاستغلالها من أجل تحقيق أهدافهم الخاصة. بعضهم يُنادونك بأخ في وجهك وحالما تُدير ظهرك، تُصبح مجرد ابن حرام أسود! يجب أنْ تأخذ حذرك منهم»

قلت «أنا لم أقابل أياً من هؤلاء، يا أخي»

«سوف تقابل. هناك الكثير من السُمّ في المكان. البعض لا يريدون مُصافحتك والبعض الآخر لا يحبون أنْ يروك كثيراً؛ ولكن اللعنة، في الأخوية هم مُضطرون!»

نظرتُ إليه. لم يكن قد خطر في بالي قط أنَّ الأخوية يمكن أنْ تُجبِر أحداً على مُصافحتي، وأنَّ فرَحَه بذلك صاعقٌ ويُثير الاشمئزاز.

فجأة ضحك. «نعم، اللعنة إنهم مُضطرون! أما أنا، فلا أتركهم من دون عقاب. إذا أرادوا أنْ يُصبحوا إخوة، فليكن! أوه، ولكني مُنصِف»، قال هذا وقد بدا على وجهه فجأة سيماء الثقة بالنفس. «انا مُنصِف، وفي كل يوم أتساءل «ما الذي ترتكبه في حق الأخوية؟» وعندما يعثرون عليه، وينتزعونه، أحرقه كمَنْ يحرق موضع عض كلب مسعور. إنَّ كون المرء أخاً هو عمل بدوام كامل. ينبغي أنْ تكون نقيّ القلب، ويجب أنْ تكون مُنضبطاً في الجسد وفي الروح. أيها الأخ، هل تفهم ما أعني؟»

قلت «نعم، أعتقد أنني أفهم. بعض الناس يشعرون هكذا تجاه ديانتهم»

طرف بعينيه. قال «الدين؟ إنَّ أمثالي وأمثالك ممتلئون بالريبة. نحن فاسدون حتى بات من الصعب على بعضنا أنْ يؤمنوا بالأخوية. بل إنَّ بعضنا يريدون الانتقام! هذا ما أتحدث عنه. يجب اجتثاثه من جذوره! يجب أنْ نتعلّم أنْ نثق بإخوتنا الآخرين. فقبل كل شيء، أليسوا هم الذين بدأوا الأخوية؟ أليسو هم الذين جاؤوا ومدّوا أيديهم لكي يُنظموا صفوفنا، وساعدونا على خوض معركتنا وما إلى ذلك؟ لقد فعلوا حتماً، وعلينا أنْ نتذكّر هذا على مدى أربع وعشرين ساعة في اليوم. *الأخوية*. هذه هي الكلمة التي علينا أنْ نضعها نصب أعيننا في كل لحظة. إنَّ هذا يوصلني إلى السبب الذي جئت إليك من أجله، أيها الأخ»

استرخى على كرسيه، ويداه الكبيرتان تقبضان على رُكبتيه. «لديّ خطة أريد أنْ أناقشها معك»

قلت «ما هي، أيها الأخ؟»

«حسن، إنها كما يلي. أعتقد أنَّ علينا أنْ نجد طريقة للتعريف بأنفسنا. يجب أنْ يكون لدينا بعض الرايات وما شابه. خاصة بنا نحن الأخوة السود»

قلت، وقد زاد اهتمامي، «فهمت. ولكن لِمَ تعتقد أنَّ هذه الأشياء مهمة؟»

«لأنها تساعد الأخوية، لهذا السبب. أولاً، إنْ كنتَ تذكُر، عندما تراقب شعبنا في أثناء مسيرة أو جنازة، أو رقصة أو ما شابه، ترى أنهم دائماً يحملون ما يُشبه الأعلام والرايات حتى وإنْ كانت لا تعني أي شيء. وكأنها تُضفي أهمية على المناسبة. تجعل الناس يتوقفون ويُصغون. «ما الذي يحدث هنا؟» ولكنك تعلم وأنا أعلم أنه لا أحد منهم يحمل علماً حقيقياً – ما عدا ربما راس الناصح، وهو يدّعي *أنّه* أثيوبيّ الهوية أو إفريقيّ. ولكن لا أحد منا كان يحمل علماً حقيقياً لأنَّ ذلك العلم لا ينتمي إلينا. إنهم يريدون علماً حقيقياً، علَماً يخصّهم كما يخص كل شخص. أتفهم ما أعني؟»

قلت «نعم، أعتقد ذلك»، متذكّراً أنّه لطالما كان في داخلي إحساس بأنني مُنفصل عندما يمرّ بي علم. كان شيئاً يُذكّرني، قبل أنْ أعثر على الأخوية، بأنَّ **نجمي** لم يسطع بعد...

قال الأخ وريستروم «طبعاً تفهم. كل شخص يريد علماً. نحن في حاجة إلى علم. نحتاج إلى علم يدعم الأخوية، ونحتاج إلى شارة نضعها على ملابسنا»

«شارة؟»

«كما تعلم، دبوس أو زر»

«تعني شِعاراً؟»

«بالضبط! شيئاً نضعه على ملابسنا، دبوساً أو ما شابه. بحيث عندما يجتمع اثنان من الإخوة يتعرّفان عليه. لكي لا يجري ما جرى للأخ تود كليفتون...»

«وما الذي جرى؟»

استرخى في جلسته. «ألا تعلم بما جرى؟»

«لا أفهم ماذا تعني»

قال، مائلاً ومُقترباً، ويداه الضخمتان مضمومتان بشدة وممدودتان أمامه، «إنه أمر جديرٌ بأنْ يُنسى. ولكن في الواقع، كان هناك مسيرة وحاول بعض المُشاغبين أنْ يُجهِضوا الاجتماع، وخلال الاشتباكات أمسك الأخ تود كليفتون خطأً بأحد الإخوة البيض وأوسعه ضرباً، على الرغم من أنه كان

أحد المشاغبين، حسب قوله هو. مثل تلك الحوادث سيئ، يا أخي، سيئ جداً. ولكن بوجود تلك الشِعارات، لن يتكرر وقوعها»

قلت «إذن فتلك الحادثة وقعتْ فعلاً»

«من دون أدنى شك. والأخ كليفتون يُصبح عنيفاً عندما يثور غضبه... ولكن ما رأيك في فكرتي؟»

قلت بالتدريج، بينما جرس الهاتف يرنّ، «أعتقد أنها يجب أنْ تحظى باهتمام اللجنة»، ثم قلت «بعد إذنك لحظة، أيها الأخ»

كان المتكلِّم هو رئيس تحرير مجلة مُصوّرة جديدة يطلب إجراء لقاء صحفي مع «أحد أشدّ الشبان نجاحاً»

قلت «أخجلتَ تواضعي، ولكن أخشى أنني من شدّة الانشغال بحيث لا أستطيع أنْ أُجري أيَّ لقاءٍ صحفي. لكنني أقترح أنْ تُجري لقاءً مع قائدنا الشاب، الأخ تود كليفتون؛ سوف تجد أنه مادةُ موضوعٍ أشدّ إثارة للاهتمام»

قال وريستروم، هازاً رأسه بعنف «كلا، كلا!»، عندما قال رئيس التحرير «ولكن نحن نريدك أنت. إنك تتمتع –»

قاطعته «وكما تعلم، إنَّ عملنا يُعتبَر مُثيراً جداً للجدل، بالنسبة إلى البعض طبعاً»

«ولهذا السبب بالضبط نريدك أنت. لقد أصبحتَ متطابقاً مع ذلك الجدَل ومن صُلب عملنا أنْ نضع مثل تلك المواضيع أمام عيون قرّائنا»

قلت «وكذلك الأمر مع الأخ كليفتون»

قال، وأنا أراقب الأخ وريستروم يميل إلى الأمام، «كلا، يا سيدي؛ أنت الرجل المطلوب وأنت تُدين لشبابنا بسماحكَ لنا أنْ نحكي لهم حكايتك. إننا نشعر بأنهم سوف يتشجعون على مواصلة القتال حتى الفوز. فقبل كل شيء، أنت آخر مَنْ شقَّ طريقه بصعوبة إلى القمة. نحن في حاجة إلى أكبر عدد من الأبطال»

ضحكتُ عبر الهاتف. قلت، وأنا أرى الأخ وريستروم يومئ برأسه موافقاً، «ولكن، أرجوك. أنا لستُ بطلاً وأنا أبعد ما أكون عن القمة؛ أنا سن في آلة. نحن هنا في الأخوية نعمل كوحدة واحدة»

«لقد كان الأخ كليفتون نشطاً على الأقلّ على مدى ثلاث سنوات قبل أنْ آتي. ثم، إنَّ الأمر ليس بهذه البساطة. إنَّ الأفراد لا يُحسَب لهم الكثير من الحساب؛ إرادة المجموعة هي المهمة، وما تفعله المجموعة. الجميع هنا يُضحّون بطموحاتهم الشخصية من أجل المصلحة العامة»

«عظيم! هذا جيد جداً. الناس يحبون سماع هذا. إنَّ شعبنا في حاجة إلى مَنْ يقول لهم هذا. لِمَ لا تسمح لي بإرسال مُحاوِرة؟ سوف تحضر إلى هنا في غضون عشرين دقيقة»

قلت «أنت شديد الإلحاح، لكنني كثير الأشغال»

ولو لم يكن الأخ وريستروم يلوِّح بيديه ليُلقّنني ما ينبغي أنْ أقول لرفضت. لكنَّني وافقت. قلت في نفسي، لعلّه لا ضير في بعض الدعاية الودية. إنَّ مثل تلك المجلات تصل إلى العديد من الأشخاص الجبناء البعيدين عن رنين أصواتنا. كان عليّ فقط أنْ أتذكّر أنْ أحكي قليلاً عن ماضيّ.

قلت، وأنا أضع سماعة الهاتف وأنظر في عينيه الفضوليتين، «آسف على المقاطعة، أيها الأخ، سوف أُلفت انتباه اللجنة إلى فكرتك في أسرع وقت ممكن»

نهضتُ واقفاً لأُحبِط المزيد من الحديث ونهضَ واقفاً، يكاد ينفجر رغبة في الاستمرار.

قال «حسن، يجب أنْ أقابل بعض الإخوة بنفسي. سأراك قريباً»

قلت «في أي وقت» متفادياً يده بالتقاط بعض الأوراق.

لدى خروجه التفتَ ويده على إطار الباب، متجهماً. «ثم، يا أخي، لا تنس ما قلتُ عن ذلك الشيء الذي تضعه على طاولة مكتبك. إنَّ مثل تلك الأشياء لا تُسبب إلا الفوضى. ويجب إبعادها عن الأنظار»

كنتُ سعيداً برحيله. يا لفظاعة فكرة أنْ يُحاول أنْ يُلقّنني ما ينبغي أنْ أقول في حديثٍ ما كان يمكن له أنْ يُصغي إلا إلى جزءٍ منه! وكان جلياً أنه يبغض كليفتون. حسن، أنا بغضته هو. ثم هناك كل ذلك الحمق والخوف بالحديث عن سلسلة قيد الساق. لقد حملها تارب تسعة عشر عاماً واستطاع أنْ يضحك، أما هذا الـ –

ثم نسيتُ أمر الأخ وريستروم إلى أنْ عُقِدَ اجتماعٌ في قلب المدينة بعد ذلك بأسبوعين لمناقشة الاستراتيجية.

كان الجميع قد حضروا قبلي، وقد وُضِعَتْ مقاعد خشبية طويلة على أحد جوانب الغرفة، التي كانت حارّة وتعبقُ بالدخان. عادة تبدو مثل تلك الاجتماعات أشبه بقاعة للملاكمة أو للتدخين. أما تلك المرة فرانَ الصمتُ على الجميع. بدا الإخوة من البيض منزعجين والإخوة من هارلم مستعدين للقتال. لم يتركوا لي وقتاً للتفكير في الأمر. وحالما اعتذرت على التأخير ضرب الأخ جاك الطاولة بمطرقته، موجِّهاً أولى ملاحظاته إليّ.

قال «أيها الأخ، يبدو أنَّ هناك سوء فهم جدّيّاً بين بعض الإخوة بخصوص عملك وسلوكك في الفترة الأخيرة»

حدّقتُ إليه بنظرة جوفاء، وذهني يتلمس وجود أية صِلة. قلت «أنا آسف، أيها الأخ جاك، ولكني لا أفهم. هل تعني أنّني ارتكبتُ خطأ في عملي؟»

قال، مع تعبير وجه مُحايد تماماً، «يبدو الأمر كذلك. ثمة بعض الاتّهامات...»

«اتّهامات؟ هل فشلتُ في تنفيذ بعض التوجيهات؟»

قال «أشكّ في أنْ الأمر يتعلّق بهذا. ولكن يُستحسن أنْ ندع الأخ وريستروم يتحدث عنه»

«الأخ وريستروم!»

صُعِقت. لم يكن قد ظهر منذ دار بيننا ذلك الحديث، ونظرتُ عبر الطاولة إلى وجهه المتملّص، ورأيته واقفاً ولُفافة مشوّشة من الأوراق تبرز من جيبه.

قال «نعم، أيها الأخ. لديّ اتهامات، على الرغم من كراهيتي لفعل ذلك. لكنني شاهدتُ الطريقة التي كانت تُدار بها الأمور وقرّرتُ أنه إذا لم تتوقف سريعاً، فإنَّ هذا الأخ سوف يجعل من الأخوية أُضحوكة!»

سُمعَتْ بعض الأصوات المُحتجّة.

«نعم، لقد قلتُ هذا وأنا أعنيه! إنَّ هذا الأخ هنا يُشكّل أحد أكبر الأخطار التي واجهتها حركتنا»

نظرتُ إلى الأخ جاك؛ كانت عيناه تتلألآن. وخُيل إليّ أنني أرى آثار

ابتسامة وهو يدوّن شيئاً على مجموعة الأوراق. ولاحظتُ أنْ الجوَّ يُصبح شديد الحرارة.

قال الأخ الأبيض غاريت «حدِّد أكثر، أيها الأخ. إنها اتّهامات خطرة وكلنا نعلم أنَّ عمل الأخ كان ممتازاً. فحدِّد أكثر»

هدرَ ويستروم قائلاً، وهو يُخرِج فجأة الأوراق من جيبه، ويفتحها ويفرشها على الطاولة، «طبعاً، سأكون محدّداً. إليكم هنا ما أعني!»

خطوتُ خطوة إلى الأمام؛ كانت صورة شخصية لي أطلّ بها من صفحة إحدى المجلات.

قلت «من أين أتيت بهذه؟»

هدر «هذا ما أعني. تتظاهر كأنك لم ترَها من قبل»

قلت «لكنني لم أرَها. حقاً لم أرَها»

«لا تكذب على هؤلاء الإخوة البيض. لا تكذب!»

«أنا لا أكذب. أنا لم أرها مرة في حياتي. ولكن لنفرِض أنني رأيتها، ما الخطأ في هذا؟»

قال وريستروم «أنت تعلم ما هو الخطأ!»

«اسمع، أنا لا أعلم أي شيء. ما الذي يجول في ذهنك؟ لقد أحضرتنا جميعاً إلى هنا، فإذا كان لديك ما تقول قُله، أرجوك فلننته من الأمر»

«أيها الإخوة، إنَّ هذا الرجل هو إ - إ انتهازي! كل ما عليكم أنْ تفعلوا هو أنْ تقرأوا هذا المقال لتعرفوا. إنني أتّهم هذا الرجل باستغلال حركة الأخوية لمصالحه الأنانية»

«مقال؟». ثم تذكّرت اللقاء الصحفي الذي كنتُ قد نسيته. واجهتُ عيون الآخرين وهي تنتقل بيني وبين وريستروم.

قال الأخ جاك، مُشيراً إلى المجلة، «وماذا تقول عنا؟»

قال وريستروم «تقول؟ إنها لا تقول أي شيء. الكلام كله عنه. كله عنه. عمّا يفكّر هو، عمّا يفعل هو؛ عمّا سيفعل هو. لم تُذكَر كلمة واحدة عن بقيّتنا التي كانت تبني الحركة حتى قبل أنْ يسمع هو بها. انظروا إليها، إذا كنتم ترون أنني أكذب. انظروا إليها!»

التفت الأخ جاك نحوي. «أهذا صحيح؟»

قلت «لم أقرأها. كنتُ قد نسيت أنني أجريت لقاءً صحفياً»

قال الأخ جاك «لكنك تتذكره الآن؟»

«نعم، أتذكره. وقد تصادف أنْ كان موجوداً في المكتب عندما حُدِّد الموعد»

خيَّم الصمت عليهم.

قال وريستروم «اللعنة، أيها الأخ جاك. الدليل هنا أمامك جلياً. إنه يُحاول أنْ يُعطي الناس انطباعاً بأنه يمثّل حركة الأخوية كلها»

«أنا لا أفعل أي شيء من هذا. لقد حاولت أنْ أجعل رئيس التحرير يُجري اللقاء الصحفي مع الأخ تود كليفتون، أنت تعلم هذا. وبما أنك لا تعلم شيئاً عن عملي، لِمَ لا تُخبر الإخوة عن نواياك *أنت*»

«أنا أفضحُ شخصاً منافقاً، هذا ما أفعل. أفضحكَ. أيها الإخوة، إنَّ هذا الرجل هو انتهازيٌ *صِرف*!»

قلت «حسنٌ، افضَحْني إنْ كان في استطاعتك، ولكن كفاك افتراءً»

قال، وهو يشمخ بذقنه، «سوف أفضحك، حتماً، سوف أفعل. إنه يفعل كل ما ذكرتُ، أيها الإخوة. وسوف أُخبركم شيئاً آخر – إنه يُحاول أنْ يُديرَ الأمور بحيث لا يستطيع الأعضاء أنْ يتحركوا إلا إذا أمرهم *هو* بذلك. انظروا إلى الأسابيع القليلة السابقة عندما كان في فيلي. لقد حاولنا أنْ نُقيم مسيرة فماذا حدث؟ لم يشترك أكثر من مئتيّ شخص. إنه يُحاول أنْ يُدرّبهم بحيث لا يُصغون لأحد غيره»

قاطعه أحد الإخوة «ولكن، أيها الأخ، ألم نُقرِّر أنَّ النداء كان سيّئ الصياغة؟»

«نعم، أعلم، ولكنَّ ليس هذه هي النقطة...»

«لكنَّ اللجنة حلّلت النداء و –»

«أعلم، أيها الإخوة، ولا أهدف إلى مجادلة اللجنة. ولكن، أيها الإخوة، هذا ما يبدو في الظاهر لأنكم **لا تعرفون** هذا الرجل. إنه يعمل في الخفاء، إنَّ لديه ما يُشبه الخطّة...»

قال أحد الإخوة، مائلاً عبر الطاولة، «أي نوع من الخطط؟»

قال وريستروم «مجرد خطّة. إنه يهدف إلى الهيمنة على الحركة داخل المدينة. إنه يريد أنْ يُصبح *دكتاتوراً!*»

ساد الصمت الغرفة إلا من همهمة المراوح. نظروا إليه من زاوية اهتمام جديدة.

قال اثنان من الإخوة معاً «هذه اتّهامات في غاية الخطورة، أيها الأخ»

«خطيرة؟ أعلم أنها خطيرة. ولهذا أُثيرها. إنَّ هذا الانتهازي يعتقد أنه لأنه أكثر ثقافةً بقليل فهو أفضل من أيّ منا. إنه ما يصفه الأخ جاك بالأناني الحقير - الحقير!»

ضرب بقوة طاولة الاجتماع بقبضة يده، وعيناه تجحظان صغيرتان ومستديرتان على وجهه المتوتر. ودَدتُ لو ألكمه على وجهه. لم يعُد يبدو حقيقياً، بل أشبه بقناع يكمن خلفه الوجه الحقيقي الذي كان ربما يضحك، عليّ وعلى الآخرين معاً. ذلك أنه لم يستطع أنْ يُصدِّق ما قال. إنه ببساطة أمر مستحيل. *فهو* الذي كان يتآمر ومن النظرات الجديّة التي ارتسمت على أعضاء اللجنة يبدو أنه نجا بفعلته. وهنا بدأ عددٌ من الإخوة يتكلمون دفعة واحدة، فضرب الأخ جاك بالمطرقة طلباً للنظام.

قال الأخ جاك «الهدوء أيها الإخوة، من فضلكم! كلٌ بمفرده»، ثم قال لي «ماذا تعرف عن ذلك المقال؟»

قلت «ليس الكثير. لقد اتصل بي رئيس تحرير المجلة ليُخبرني بأنه سيُرسل صحفيّة لكي تُجري اللقاء. وطرحَتِ الصحفيّة عليّ بضعة أسئلة والتقطَتْ بعض الصور بآلة تصوير صغيرة. هذا كل ما أعرف»

«هل سلّمت الصحفية نشرة مجانيّة؟»

«لم أعطِها إلا مقطوعات صغيرة من إنتاجنا الرسمي. لم ألقّنها ما يجب أنْ تسأل أو ماذا تكتب. وطبعاً حاولتُ أنْ أكون متعاوناً. شعرتُ بأنّه إنْ كانت مقالةٌ صحفيةٌ ستساعد على كسب أصدقاء للحركة فذلك من واجبي»

قال وريستروم «أيها الإخوة، إنَّ هذا الشيء *مُدبَّر*. أؤكد لكم أنَّ هذا

الانتهازي هو مَنْ دبَّر أمر *إرسال* تلك المراسلة الصحفية. هو الذي أرسل في طلبها وأملى عليها ما ينبغي أنْ تكتب»

قلت «هذا كذب يُثير الاشمئزاز. أنتَ كنتَ حاضراً وتعلم أنني حاولتُ أنْ أدفعهم إلى إجراء اللقاء الصحفي مع الأخ كليفتون!»

«مَن الذي يكذب؟»

«أنت كاذب ووغد ثرثار. أنت كاذب ولستَ أخاً لي»

«الآن بدأ يسبّني. أيها الإخوة، لقد سمعتموه»

قال الأخ جاك بهدوء «دعونا نضبط أعصابنا. أيها الأخ وريستروم، لقد وجَّهتَ اتّهامات خطيرة. هل تستطيع أنْ تُثبتها؟»

«أستطيع أنْ أُثبتها. كل ما عليك أنْ تفعل هو أنْ تقرأ ما ورد في المجلة وتُثبتها بنفسك»

«سوف تُقرأ. وماذا أيضاً؟»

«كل ما عليك أنْ تفعل هو أنْ تُصغي إلى الناس في هارلم. كلهم يتحدثون عنه. ولا يذكرون أي شيء على أي فرد من الباقين. أؤكد لكم، أيها الإخوة، هذا الرجل يُشكل خطراً على شعب هارلم، ويجب طرده!»

قال الأخ جاك «هذه المسألة يعود أمر البتّ فيها إلى اللجنة». ثم قال لي «وماذا لديك لتقول دفاعاً عن نفسك، أيها الأخ؟»

قلت «دفاعاً عن نفسي؟ لا شيء. ليس لديّ ما أدافع به عن نفسي. لقد حاولتُ أنْ أؤدي عملي وإذا كان الإخوة لا يعرفون هذا، فقد فات الأوان لأخبرهم. لا أعرفُ ماذا يكمن خلف هذا، لكنني لم أقُم بأيّة خدعة لأؤثر على كُتّاب المجلة. ولم أكن أعلم أيضاً أنني سأُحاكَم»

قال الأخ جاك «ليس المقصود بهذا أنْ يكون مُحاكمة، وإذا حوكِمتَ، وآمل ألا يحدث هذا، فسوف تعلم بالأمر. وحتى ذلك الحين، وبما أنَّ هذه حالة طارئة فإنَّ اللجنة تطلب منك أنْ تغادر المكان ريثما نقرأ المقال المذكور»

غادرت الغرفة وولجت غرفة مكتب خالية، وأنا أتميَّز من شدة الغضب

والشعور بالاشمئزاز. كان وريستروم قد أعادني بقوة إلى الجنوب وسط أحد اجتماعات اللجنة الرئيسة وشعرتُ بأنني عار. كان في وسعي أنْ أخنقه – لقد أجبرني على الاشتراك في جدالٍ صبيانيّ أمام الآخرين. ومع ذلك اضطررتُ إلى قتاله قدر استطاعتي، بلغةٍ يفهمها، على الرغم من أننا بدونا كأننا شخصيتان من مسرحية هزلية لاذعة. ربما كان ينبغي أنْ آتي على ذكر الرسالة المجهولة المصدر، لولا أنّه من الممكن أنْ يعتبر أحدهم أنَّ ذلك يعني أنني لا أحظى بدعم المنطقة الكامل. ولو أنَّ كليفتون كان حاضراً، لعرِفَ كيف يتعامل مع ذلك المُهرِّج. أكانوا يتعاملون معه بجديّة لأنه أسود؟ ما خطبهم على أية حال، ألا يدركون أنهم يتعاملون مع مهرج؟ قلت في نفسي، لو أنهم ضحكوا أو حتى ابتسموا لتحطّمت، إذ ما كان يمكن أنْ يضحكوا عليه من دون أنْ يضحكوا عليّ أيضاً... ولكن لو أنَّهم ضحكوا، لكان الأمر أقلّ واقعية – أين أنا بحق الله؟

هتف أحد الإخوة «يمكنك أنْ تعود الآن»؛ وخرجتُ لأستمع إلى قرارهم.

قال الأخ جاك «حسن، لقد قرأنا جميعاً المقال، أيها الأخ، ونحن سعداء بأنْ ننقل إليك أننا وجدنا أنه غير ضارٍ بقدر كاف. صحيح، كان من الأفضل لو أنَّ اهتماماً أكثر أوليَ لباقي الأعضاء في منطقة هارلم. لكننا لم نجد أي دليل على أنَّ لك أية صِلة بهذا. لقد كان الأخ وريستروم مُخطئاً»

أطلقَ سلوكه الرقيق ومعرفة أنهم أهـدروا الوقت لرؤية الحقيقة الغضبَ داخلي.

قلت «في اعتقادي أنه مُخطئ بدرجة إجرامية»

قال «ليس إجرامياً، بل مفرِط في حماسته»

قلت «بالنسبة إليّ يبدو إجرامياً ومفرطاً في الحماس»

«كلا، أيها الأخ، ليس إجرامياً»

«لكنّه طعن في سمعتي...»

ابتسم الأخ جاك. «لمجرد أنه كان صادقاً، أيها الأخ. لقد كان يفكّر في خير الأخوية»

قلت، وأنا أراه يبتسم، «ولكن لِمَ يفتري عليّ؟ أنا لا أفهمك، أخي جاك. أنا لستُ عدواً، كما يعلم جيداً. أنا أخ أيضاً»

«إنَّ أعداء الأخوية كُثُرٌ، ولا ينبغي أنْ نكون قُساة على أخطاء الإخوة»

ثم رأيتُ التعبير الأحمق، الخجِل على وجه وريستروم واسترحت.

قلت «حسن، أيها الأخ جاك. أعتقد أنني يجب أنْ أكون سعيداً لأنك وجدتَ أنني بريء -»

قال، وهو يطعن الهواء بإصبعه، «هذا فيما يخص *مقال المجلة*»

توتّر شيء في خلفية رأسي؛ نهضتُ واقفاً.

«فيما يخصّ المقال! تقصد أنْ تقول إنك تصدق باقي الكلام الوهمي؟ هل أصبح الجميع يقرؤون قصص ديك تريسي[36] هذه الأيام؟»

قال ساخراً «الأمر لا صِلة له بديك تريسي. إنَّ للحركة أعداء كُثُراً»

قلت «إذن الآن أصبحت أنا عدواً. ماذا حدث للجميع؟ إنكم تتصرفون وكأنَّ لا أحد منكم له أية صِلة بي»

نظر جاك إلى الطاولة. «هل أنت مُهتم بقرارنا، أيها الأخ؟»

قلت «أوه، نعم. نعم أنا مهتم. أنا مهتم بأشكال السلوك الغريب كافة. ومَنْ لا يهتم، عندما يستطيع رجل واحد جامح أنْ يجعل ملء غرفة مما أعتبرهم من أفضل العقول في البلاد يأخذون كلامه على محمل الجد. حتماً، أنا مهتم. وإلا لتصرّفتُ كرجلٍ عاقل وغادرتُ هذا المكان!»

صدرتْ أصواتُ احتجاج، وضربَ الأخ جاك بالمطرقة طلباً للنظام، وقد احمرَّ وجهه.

قال الأخ ماكفي «ربما ينبغي أنْ أقول بضع كلمات للأخ»

قال الأخ جاك بصوت عميق «تفضّل»

قال الأخ ماكفي «أيها الأخ، نحن نتفهّم شعورك، ولكن يجب أنْ تفهم

36- ديك تريسي: اسم مجلة للأطفال واسم البطل، التحري المغامر الذي يحل المشاكل العويصة، ابتكر الشخصيّة الكاتب تشستر غولد عام 1931. - المترجم

أنَّ للحركة أعداءً كُثُراً. وهذه حقيقة مؤكّدة، ونحن مُضطرون إلى الاهتمام بالتنظيم على حساب مشاعرنا الشخصية. إنَّ الأخوية أكبر منّا جميعاً. ولا أحد منا كأفراد يُحسَب له حساب عندما يتعلّق الأمر بالأمان. وتأكّد من أنَّ لا أحد منا يضمر لك شخصياً إلا النيّة الحسنة. لقد كان عملك ممتازاً. وهذه ببساطة مسألة تتعلّق بأمان المنظّمة، ومن صُلب مسؤوليتنا أنْ نُجري تحقيقاً حول مثل تلك التُهم»

فجأة شعرتُ بالخواء؛ كان كلامه يتّسم بالمنطق مما أجبرني على قبوله. لقد كانوا على خطأ، ولكنهم مُلزمون باكتشاف أخطائهم. فليفعلوا، سوف يكتشفون أنه لا شيء من تلك التُهم صحيح وسوف أُبرّأ. ثم ما كل ذلك الهوس بالأعداء على أية حال؟ نظرتُ إلى وجوههم التي يغسلها الدخان؛ لم يكن قد سبق لي أنْ واجهت منذ البداية مثل تلك الشكوك الجديّة. كنتُ حتى ذلك الحين أشعر بالاكتمال بشأن عملي واتجاهي لم أعرفه مرة من قبل؛ ولا حتى في أيام الجامعة المُخطئة. لقد كانت الأخوية شيئاً يكرِّس الناس له أنفسهم بشكل كامل؛ هنا تكمن قوتها وقوتي، وهذا الحسّ بالاكتمال هو الذي ضمن لها أنها ستغيِّر مجرى التاريخ. وهذا ما كنتُ أؤمن به بكياني كله، أما عندئذٍ، وعلى الرغم من أنني كنت من داخلي لا أزال أُشدِّد على ذلك الإيمان، فشعرت بألم شديد منعني من بذل المزيد من المحاولة للدفاع عن نفسي. بقيتُ واقفاً هناك يلفّني الصمت، في انتظار صدور قرارهم. أخذ أحدهم يقرع بأصابعه على سطح الطاولة. وسمعت خشخشة الأوراق كأنها وريقات البصل الجافة.

«تأكّد من أنَّ في استطاعتك أنْ تعتمد على إنصاف اللجنة وحِكمتها». انسابَ صوت الأخ توبيت من آخر الطاولة، ولكن كان يفصل بيننا الدخان وما كدتُ أرى وجهه.

باشر الأخ جاك بالقول برشاقة «لقد قررت اللجنة وإلى أنْ يُبتّ بكامل التُهم الموجّهة، أنْ تُخيّرك بين أنْ توقِف نشاطك في هارلم، أو أنْ تقبل منصباً في قلب المدينة. وفي حالة الخيار الثاني عليك أنْ تتخلّى عن منصبك الحالي في الحال»

شعرت بارتخاء ساقيّ. «تعني أنَّ عليّ أنْ أتخلّى عن عملي؟»

«إلا إذا اخترتَ أنْ تخدم الحركة في موقع آخر»

قلت، وأنا أنقّل نظري من وجه إلى وجه وأرى تعبير القرار النهائي الأجوف في عيونهم، «ولكن ألا ترون –»

«إذا اخترتَ أنْ تبقى فاعلاً، فإنَّ منصبك هو أنْ تلقي محاضرات في المدينة حول قضية المرأة»

فجأة شعرت كأنني اندفعت بحركة دورانية على شكل قمّة.

«حول ماذا!»

«قضية المرأة. موضوع كرّاستي،» عن قضية المرأة في الولايات المتحدة «دليلك». ثم قال، وعيناه تدوران حول الطاولة، «والآن، أيها الإخوة، ينفضّ الاجتماع»

بقيتُ واقفاً هناك، أسمع ترجيع صدى ضربات مطرقته يتردّد في أُذنيّ، وأفكّر في *قضية المرأة* وأُفتش في وجوههم بحثاً عن دلائل التسلية، مُصغياً إلى أصواتهم وهم يُغادرون رتلاً واحداً إلى القاعة في انتظار أقلّ صوت لضحك مكبوت، وقفتُ هناك أقاوم الإحساس بأنني تحوّلت إلى مصدر تنكيت مُشين وأكثر بما أنَّ وجوههم لم تكشِف عن أي وعي.

كافح عقلي بيأس لقبول ما جرى. لا شيء يمكن أنْ يُغيِّر الأمور. سوف ينقلونني ويُجرون تحقيقاً وعليّ أنا، ولا أزال أؤمن، لا أزال خاضعاً للانضباط، أنْ أرضخ لقرارهم. الآن لم يعُد هناك أي وقت للخمول؛ ليس وأنا أبدأ بالاقتراب من بعض جوانب المنظمة التي لا أعرف عنها أي شيء (عن اللجان العليا والقادة الذين لم يظهروا قط، وعن المتعاطفين والحلفاء ضمن مجموعات بدا أنها مُحيتْ منذ زمن بعيد من مجال اهتماماتنا)، ليس في الوقت الذي كانت فيه أسرار القوة والسلطة كلها محجوبة عني بصورة غامضة وعلى وشك أنْ يُكشَف عنها النقاب. كلا، على الرغم من غضبي وإحساسي بالاشمئزاز، كانت طموحاتي لا تزال عريضة جداً، ولا يمكن أنْ أستسلم بتلك السهولة الشديدة. ولماذا أحصر نفسي، لماذا أنعزل؟ أنا *المتحدث الرسمي* – لِمَ أتحدث عن المرأة، أو في أي موضوع آخر؟ لا شيء

يوجد خارج نطاق أيديولوجيتنا، هناك سياسة لكل شيء، واهتمامي الأول كان أنْ أشقّ طريقي قُدُماً في الحركة.

غادرتُ المبنى ولا أزال أشعر كأنني اقتُلِعتُ بعنف ولكن مع تفاؤلٍ متزايد. كان اقتلاعي من هارلم صدمة ستؤلمهم بقدر ما تؤلمني، ذلك أنني تعلّمتُ أنَّ مفتاح ما تحتاج إليه هارلم هو ما أريد *أنا*؛ وتقديري للأخوية لم يكن يختلف عن تقديري لأشد مصادر معلوماتي فائدة: كان الأمر يعتمد على صراحتي التامة وصدقي في تحديد آمال المجتمع وأحقاده، ومخاوفه ورغباته. يُخاطب المرء اللجنة كما يُخاطب المجتمع. ولا شك في أنَّ الأمور ستجري بنجاح مُعادل في قلب المدينة. لقد شكّل المنصب الجديد تحدّياً وفرصة لاختبار أن مقدار ما جرى في هارلم عائد إلى جهودي الخاصة ومقدار الحماس الشديد الذي يُبديه الناس أنفسهم. قلت لنفسي، إنَّ المنصب، قبل كل شيء، هو أيضاً برهانٌ على حُسن نوايا اللجنة. أليسوا، بانتقائي لأتكلّم تحت مظلة سلطتها حول موضوعٍ لو أنني أتكلّم عنه في مكان آخر من مجتمعنا لواجهتُ المنع، يُشددون من جديد على إيمانهم معاً بي وبمبادئ الأخوية، ويُثبتون أنهم لا يمارسون التمييز حتى عندما يتعلق الأمر بالمرأة؟ كان عليهم أنْ يُجروا تحقيقاً حول التُهم الموجّهة إليّ، لكنَّ المنصب كان بمنزلة تشديدهم غير المتعاطِف على أنَّ إيمانهم بي لم يتزعزع. كنتُ أرتعش وأنا في الشارع الحارّ. لم أسمح للفكرة بالتجسُّد في عقلي، ولكن لوهلةٍ من الزمن كدتُ أسمح لتراجع شخص من الجنوب كنتُ اعتقدتُ أنه مات أنْ يُحطّم مستقبلي.

لكنَّ مغادرة هارلم لم تخلُ من ندم، ولم أستطع أنْ أودّع أحداً، ولا حتى الأخ تارب أو كليفتون – علاوة على الآخرين الذين كنتُ أعتمد عليهم لإمدادي بالمعلومات الخاصة بأصغر المجموعات في المجتمع. وضعتُ أوراقي ببساطة في حقيبة يدي وغادرت كأنني ذاهب إلى المدينة لأحضر اجتماعاً.

-19-

ألقيتُ أولى محاضراتي بحماس. كان الموضوع مادة مضمونة لجذب اهتمام الجمهور والباقي أمره يتوقف عليّ. ولو أنني كنتُ أطول قامة بمقدار قَدَم ووزني أثقل بمقدار مائة رطل، لاستطعتُ أنْ أقف ببساطة أمامهم والشارة على صدري، أبيِّن أنني **أعرف كل شيء عنهم**، وأُدخل الرهبة إلى قلوبهم وكأنني النسخة الأصلية من البُعبُع - بعد إعادة تشكيله وتدجينه. لن أُضطر إلى الكلام إلا بقدر ما كان على بول روبسون[37] أنْ يمثّل؛ سوف يفرحون ببساطة لمرآي.

وسار الأمر سيراً حسناً؛ وعملوا على إنجاح الأمر بحماسهم، ووابل الأسئلة الذي انهال عليّ بعد ذلك لم يترك أي مجال للشك عندي. وبعد انتهاء الاجتماع وانفضاضه جاءت التطورات على مستوى لم يكن حتى لأشد شكوكي جموحاً أنْ تسمح لي بالتكهن بها. إذ بينما كنتُ أتبادل التحيات مع أفراد الجمهور ظهرت تلك المرأة، من النوع الذي يتوهج وكأنها تمثل بحياء دوراً رمزياً عن الحياة والخصوبة الأنثوية. قالت، إنَّ مشكلتها لها صِلة ببعض أوجه أيديولوجيتنا.

قالت بجديّة «إنها في صلبها، في الحقيقة، وفي حين أنني لا أريد أنْ أضيِّع وقتك، إلّا أنّه لدي إحساس بأنكَ -»

قلت، وأنا أقودها بعيداً عن الآخرين نحو موقع قريب من أنبوب إطفاء محلول جزئياً بجوار المدخل، «أوه، لا أبداً - لا أبداً»

37- كان بول روبسون مغنياً ذا صوتٍ جهوري عميق، ولم يكن ممثلًا جيداً، وقد لجأ إلى التمثيل دعماً لتقديم أغانيه في السينما. - المترجم

قالت «ولكن، أيها الأخ، الوقت متأخّر جداً ولابد أنك مُتعب. يمكن لمشكلتي أنْ تنتظر حتى وقت آخر...»

قلت «لستُ مُتعباً إلى *هذه* الدرجة. وإذا كان هناك ما يضايقك، فمن واجبي أنْ أفعل ما في وسعي لأفرِّج عنك»

قالت «لكنّ الوقت متأخّر جداً. ربما أعود ذات أمسية عندما لا تكون شديد الانشغال وأراك. عندئذٍ يمكن أنْ نتحدث مطولاً. إلا إذا، طبعاً...»

«إلا إذا؟»

ابتسمت «إلا إذا استطعتُ أنْ أغريك بزيارتي *هذا* المساء. وقد أُضيف أنني أقدّم فنجان قهوة لذيذة»

قلت، وأنا أدفع الباب، «إذاً أنا تحت أمرك»

كانت شقّتها تقع في أحد أفضل قِطاعات المدينة، ولابد أنني أفشيت عن دهشتي لدى دخولي غرفة الجلوس الفسيحة.

«كما ترى، أيها الأخ» - التوهّج الذي أضفته على الكلمة كان مُقلقاً - «إنَّ ما يُثير اهتمامي حقاً هو القيم الروحية للأخوية. إنَّني أحظى بالأمان الاقتصادي وبوقت الفراغ، لأنَّه ليس لدي أي نشاط خاص، ولكن ما قيمة هذا، *حقاً*، إذا كان الشرّ يعمّ العالم؟ أعني مع غياب أي أمان روحي أو عاطفي، أو عدالة؟»

هنا كانت تخلع عنها معطفها، وتنظر بجدية إلى وجهي، وقلت في نفسي، أهي من *جيش الخلاص*، أم تطهّرية إنكليزية بالعكس؟ - متذكّراً وصف الأخ جاك الخاص للإخوة الأثرياء الذين، كما قال، يسعون إلى الخلاص السياسي بالمساهمة المالية في الأخوية. كانت تتقدم بوتيرة أسرع قليلاً مني ونظرتُ إليها بجدية.

قلت «أرى أنك فكّرتِ في هذا الأمر بعمق»

قالت «لقد حاولت، ووجدته مُربكاً جداً - ولكن تصرّف كأنك في بيتك ريثما أزيل أغراضي»

كانت امرأة ضئيلة الحجم، ممتلئة برهافة، ذات شعر فاحم وقد بدأت تظهر فيه خصلة بيضاء رفيعة لا تكاد تُلاحَظ، وعندما رجعتْ بثوب المُضيفة

ذي اللون الأحمر القاني بدت مذهلة إلى درجة أنني اضطررتُ إلى الإشاحة بعينيّ المذهولتين قليلاً جانباً.

قلت، وأنا أنظر عبر الأثاث ذي اللون الكرزي الفاقع لأرى لوحة شخصية بالحجم الطبيعي لعارية، بريشة رينوار من مرحلته الوردية، «لديك هنا غرفة رائعة الجمال». وكانت لوحات أخرى مُعلّقة هنا وهناك، وبدت الجدران الشاسعة تضجّ حياةً باللون الدافئ، النقي. قلت في نفسي، وأنا أنظر إلى السمكة التجريدية المُنفَّذة بالنحاس البرّاق التي تعلو قطعة من العاج، ماذا يمكن للمرء أنْ يقول أمام هذا كله؟

قالت «يُسعدني أنها أعجبتك، أيها الأخ. نحن أيضاً نحبها، على الرغم من أنني يجب أنْ أعترف بأنَّ هيوبرت لا يجد الكثير من الوقت ليستمتع بها. إنه شديد الانشغال»

قلت «هيوبرت؟»

«زوجي. لقد اضطر للمغادرة للأسف. كان سيسعده أنْ يُقابلك، لكنه دائماً في حالة سفر. إنه العمل، كما تعلم»

قلت بانزعاج مفاجئ «أعتقد أنه مُضطر»

قالت «نعم، هو ذاك. لكننا هنا لنناقش أمر الأخوية والأيديولوجيا، أليس كذلك؟»

كان في صوتها وابتسامتها شيءٌ مَنحَني إحساساً بالارتياح وبالإثارة معاً. ليس بسبب خلفية الثراء وبحبوحة العيش فقط، الغريبة عني، بل ببساطة لكوني هناك معها والإحساس بإمكانية تصاعُد التواصُل؛ وكأنَّ اللامرئي المتضارب والمُلغَز بجلاء كانا يبلغان مستوى من التناغُم المتوازن برهافة. قلت في نفسي، وأنا أراقب الحركة السلسة ليديها المرتاحتين، إنها ثرية لكنها إنسان.

قلت «إنَّ للحركة أوجهاً عديدة. فمن أين نبدأ؟ لعلي لستُ مؤهلاً للتعامل مع الأمر»

قالت «أوه، إنه ليس عويصاً إلى *هذه* الدرجة. أنا واثقة من قدرتك على تصحيح انحرافاتي وأخطائي الأيديولوجية الصغيرة. ولكن اجلس هنا على الأريكة، أيها الأخ؛ إنها مريحة أكثر»

جلستُ، وأنا أراها تتوجه نحو الباب، وذيل ثوبها يتبعها بحركة حسّية على السجادة الشرقية. ثم التفتت وابتسمتْ.

«هل تفضّل النبيذ أم الحليب على القهوة؟»

قلت، مُعتبراً فكرة الحليب بغيضة بصورة غريبة، «نبيذ، شكراً لك». فكّرتُ، ليس هذا ما توقّعت على الإطلاق. ثم عادت مع صينيه عليها كأسان ووعاءان، فوضعتها أمامنا على طاولة كوكتيل منخفضة، وسمعت النبيذ يُسكَب في الكأسين بغرغرة موسيقية، وضعت إحداهما أمامي.

قالت، رافعة كأسها بعينين مبتسمتين، «في صحة الحركة»

قلت «في صحة الحركة»

«في صحة الأخوية»

«في صحة الأخوية»

قلت، أراها مُغمضة العينين تقريباً، وذقنها بارزاً نحو الأعلى، نحوي، «هذا شيء لطيف جداً، ولكن أية مرحلة من أيديولوجيتنا سنناقش؟»

قالت «كلها. أتمنى أنْ أعرفها كلها. إنَّ الحياة فارغة بصورة رهيبة وفوضوية من دونها. إنني بكل صدق أؤمن بأنَّ الأخوية وحدها تقدِّم أي قدرٍ من الأمل في جعل الحياة تستحق العيش من جديد - آه، أعلم أنها فلسفة واسعة جداً ولا يمكن استيعابها في الحال، كما هو الحال؛ ومع ذلك، أمرٌ أساسيٌّ وحيوي أنْ يشعر المرء بأنَّ عليه على الأقلّ أنْ يُجرِّب. ألا توافقني؟»

قلت «في الواقع، نعم. إنه أشدّ ما أعرف غِنى بالمعنى»

«أوه، إنني سعيدة جداً لأنك توافقني. وأعتقد أنَّ هذا هو السبب في أنني دائماً أتحمّس عندما أسمعك تتكلّم، إنكَ بصورة ما تنقل حيوية الحركة بنبضها العظيم. إنه شيء مذهل حقاً. إنك تمنحني إحساساً قوياً بالأمان - على الرغم» هنا قاطعت نفسها مع ابتسامة غامضة، «من أنني يجب أنْ أعترف بأنكَ أيضاً تُثير خوفي»

قلت «الخوف؟ لا يمكن أنْ أقصد هذا»

كررت، وأنا أضحك، «إنه حقاً قوي جداً، *وبدائيّ* جداً - جداً!»

شعرتُ بأنَّ بعضاً من الهواء يفرّ من الغرفة، تاركاً إياها هادئة بصورة غريبة. قلت «لا أعتقد أنكِ تقصدين أنه بدائي؟»

«نعم، *بدائيّ*؛ ألم يُخبرك أحد، أيها الأخ، أنَّ صوتك يكتسب أحياناً شيئاً يُشبه قرع الطبول؟»

ضحكت. «يا إلهي، حسبتُ أنَّ ذلك هو قرع الأفكار العميقة»

قالت «أنت على صواب، طبعاً، أنا لا أعني حقاً كلمة بدائيّ. أعتقد أنني أعني *فعّالاً*، قويّاً. إنه يتملّك مشاعر السامع وعقله أيضاً. سمّه ما شئت، لكنه مُفعم بالقوة إلى درجة أنه ينفذ في السامع مباشرة. إنني أرتعش لمجرد التفكير في تلك الحيوية»

نظرتُ إليها، كانت عندئذٍ قد أضحت من شدّة القُرب بحيث لم أرَ غير خصلة واحدة فاحمة السواد من الشعر المتمرِّد. قلت «نعم، الانفعال العاطفي موجود؛ لكنَّ ما يُطلقه في الواقع هو مدخلنا العِلمي. وكما يقول الأخ جاك، نحن لا شيء إذا لم نكن مُنظمين. والانفعال العاطفي ليس أنه يتحرر فقط، بل يوجَّه، ويُقاد أيضاً – هذا هو المنبع الرئيس لفعاليتنا. فقبل كل شيء، هذا النبيذ الجيد جداً يمكنه أنْ يُحرر المشاعر، لكنني أشكّ بجديّة في استطاعته أنْ يُنظِّم أي شيء»

مالت برشاقة إلى الأمام، وذراعها ممتد على طول ظهر الأريكة، قائلة «نعم، وأنت تفعل الأمْرَين في خطاباتك. والمرء **يجب** أنْ يستجيب، حتى وإنْ لم يبلغ جوهر ما تعني بشكل تام. ولكني أفهم ما تقول وهذا شيء مُلهِم أكثر»

«في الواقع، إنني أتأثَّر بالجمهور بقدر تأثّره بي. إنها استجابة تساعدني على بذل أفضل ما عندي»

قالت «وهناك جانب مهم آخر؛ يهمني كثيراً. إنه يوفّر للنساء الفرصة الكاملة للتعبير عن النفس، وهذا أمر في غاية الأهمية، أيها الأخ. وكأنَّ كل يوم هو سنة كبيسة – أي كما ينبغي أنْ يكون. على المرأة أنْ تكون حرة كما الرجل تماماً»

قلت في نفسي، وأنا أرفع الكأس، ولو أنني حرٌّ حقاً لخرجت من هنا فوراً.

«أعتقد أنكَ كنتَ مُجيداً بصورة استثنائية هذه الأمسية - لقد حان الوقت لكي يكون للمرأة بطل داخل الحركة. وحتى هذه الليلة كنتُ دائماً أسمعك تطرح المشاكل الثانوية»

قلت «إنني في منصب جديد. ولكن من الآن فصاعداً ستكون قضايا المرأة أكبر اهتماماتي»

«هذا رائع وقد حان الوقت لذلك. ينبغي أنْ يَمنح شيءٌ ما المرأةَ الفرصةَ لتنغمس مباشرة في الحياة. استمر أرجوك، أخبرني عن أفكارك»، قالت وهي تندفع إلى الأمام، ويدها خفيفة على ذراعي.

وتابعت الكلام، وأراحني أنْ أتكلّم، تابعت بدافع من حماسي الخاص ومن الدفء الذي بعثه النبيذ. ولم أُدرك إلا عندما التفتُّ لأطرح عليها سؤالاً أنها تميل عليّ ضمن مسافة قريبة جداً، وعيناها مُثبّتتان إلى وجهي.

سمعت «استمر، استمر أرجوك. إنك تجعل الأشياء شديدة الوضوح - أرجوك»

رأيتُ أنَّ رفرفة جفنيها السريعة، كرفرفة جناحيّ عثّة، تتلاءم مع رقّة شفتيها ونحن قريبان بعضنا من بعض. لم تكن هناك أيّة فكرة أو مفهوم في ذلك بل دفء فقط؛ ثم رُنَّ جرسٌ فانتفضتُ واقفاً على قدميّ، لدى سماعي الرنين من جديد ونهضت واقفة معي، والرداء الأحمر يسقط بتضاعيفه الثقيلة على السجادة، وهي تقول «إنك تجعل كل شيء يضجّ بالحياة» ورنّ الجرس من جديد. حاولتُ أنْ أتحرّك، لأخرج من الشقّة، وأبحث عن قبعتي والغضب يملأني، وأفكّر، أهي مجنونة؟ ألا تسمع؟ وهي واقفة أمامي مرتبكة، وكأنني أتصرَّف بطريقة غير عقلانية. ثم أمسكتْ بذراعي بنوبة غضب مُفاجئة، قائلة «من هنا، ادخل هنا» وهي تشدّني إلى الأمام، والجرس يرنّ من جديد، نحو باب في آخر رواق قصير، يؤدي إلى غرفة نوم مكسوة بالساتان، قائلة «هذه غرفتي» ونظرتُ إليها مع تعبير غير مُصدِّق عنيف.

«غرفتكِ، *غرفتكِ*؟ ولكن ماذا عن ذلك الجرس؟»

قالت بنعومة، وهي تنظر في عينيّ، «لا عليك»

قلت، وأنا أدفعها جانباً، «ولكن كوني عاقلة. ماذا عن ذلك الباب؟»

«آه، طبعاً، تعني الهاتف، أليس كذلك، أيها الأخ؟»

«وماذا عن العجوز – زوجك؟»

«في شيكاغو –»

«ولكن قد لا يكون –»

«كلا، كلا، يا عزيزي، لن يكون –»

«ولكن ربما!»

«ولكن، يا أخي، يا عزيزي، لقد تحدثت معه، وأعلم»

«أنتِ ماذا؟ أية لعبة هذه؟»

«أوه، أيها العزيز المسكين! إنها ليست لعبة، ليس لديك حقاً أي سبب للقلق، نحن أحرار. إنه في شيكاغو، يسعى وراء شبابه الضائع»، قالت هذا وانفجرت بالضحك من دهشتها من نفسها.

«إنه غير مهتم على الإطلاق بالأشياء التي تستنهض الهِمم – كالحرية والفاقة، وحقوق المرأة وما إلى ذلك. أنت تعلم، إنه مرض طبقتنا – يا أخي، يا عزيزي»

خطوت خطوة عبر أرض الغرفة؛ كان هناك باب آخر إلى اليسار رأيت من خلاله بريق الكروم والآجر.

قالت، وهي تقبض على ساعدي بيديها الصغيرتين، «أخي، عزيزي، علِّمني، كلِّمني. علِّمني أيديولوجيا الأخويّة الجميلة»، ورغبتُ في وقت واحد في تهشيم وجهها وفي البقاء معها وأدركتُ أنني يجب ألا أفعل أياً منهما. أكانت تحاول أنْ تدمّرني، أم أنَّ ذلك فخٌّ نصَبَه عدوّ خفيّ للحركة ينتظر خارج الباب مع آلات تصوير وعتلات؟

قلت بهدوء قسري، مُحاولاً أنْ أُحرّر يديّ من دون أنْ ألمسها، «يجب أنْ تجيبي على الهاتف»، إذ لو أنني لمستها –

قالت «وسوف تتابع؟»

أومأت برأسي موافقاً، ورأيتها تستدير دون أنْ تنطق بكلمة وتتوجه نحو شيء تافه عليه مرآة كبيرة بيضاوية الشكل، وترفع سماعة هاتف من العاج. وخلال اللحظة المعكوسة على المرآة رأيت نفسي واقفاً بين شكلها التوّاق

والسرير الأبيض الشاسع، يتنابني إحساس بالذنب، ووجهي مشدود، وربطة عنقي متدلية؛ وخلف السرير مرآة أخرى راحت عندئذٍ تقذف صورنا جيئة وذهاباً كبحر متلاطم، تُضاعف بحنق الزمان والمكان والظرف. وكأنَّ بصري ينبض تواتراً بين الصفاء والضباب، يدفعه منفاخ حانق، بينما شفتاها تقولان بلا صوت، *أنا آسفة*، ومن ثم تقول في الهاتف بنزق، «نعم، أنا هي»، ومن ثم تقول لي من جديد، وهي تبتسم وهي تغطي فم السماعة بيدها، «إنها فقط أختي؛ لحظة واحدة فقط»، ودوّمَ عقلي بقصصٍ منسيّة عن خدمٍ ذكورٍ استُدعوا لغسل ظهور سيداتهم؛ وسائقي سيارات يتقاسمون مع مُستخدميهم زوجاتهم؛ وحمّالي حافلات قطار يُدعون إلى غرف جلوس زوجات ثريات ذاهبات إلى رينو – وأفكّر، ولكن هذه الحركة، *الأخويّة*. وهنا أراها تبتسم، قائلة «نعم، غوين، يا عزيزتي. نعم»، بينما ترتفع إحدى يديها الحرّتين كأنما لتمسّد على شعرها وبحركة واحدة وسريعة تزيح ثوبها الأحمر جانباً كأنه حِجاب، وتنحبس أنفاسي أمام الجزء العاري الصغير والمنحني بسخاء، داخل إطار الكأس الرقيق والمتماسك. وكأنَّه فاصل في حلم وخلال لحظة عاد إلى مكانه ولم أعُد أرى إلا عينيها المُبتسمتين بغموض من فوق الرداء الأحمر القاني.

كنتُ متوجهاً نحو الباب، ممزقاً بين الغضب والإثارة الشرسة، أسمع سمّاعة الهاتف وهي توضع على مُستقرها لدى مروري بها شاعراً باستدارتها السريعة نحوي وشعرت بالضياع، لأنَّ الصراع بين الأيديولوجيّ والبيولوجيّ، بين الواجب والرغبة، أضحى مُضطرباً برهافة شديدة. ذهبتُ إليها، أفكّر، فليكسر الباب، كائناً مَنْ كان، فليأت.

لم أدرِ إنْ كنتُ يقِظاً أم أحلم. ساد سكون تام، لكنني كنتُ متيقناً من وجود ضجيج ومن أنه آتٍ من الطرف المقابل للغرفة وهي إلى جانبي تتنهّد برقّة. كان أمراً غريباً. وشعرت بدوار. كأنَّ ثوراً يُلاحقني ليطردني من غابة كستناء. هرعتُ أرتقي تلاً؛ جاش التل كله. سمعتُ الصوت فنظرتُ عالياً لأرى الرجل ينظر إليّ مباشرة من مكان وقوفه في الضوء المُعتِم للرواق، ينظر بلا اهتمام أو دهشة. كان وجهه خالياً من أي تعبير، وعيناه تُحدّقان. كان هناك صوت تنفّس مُنتَظَم. ثم سمعتُها تتململ إلى جواري.

قالت، وكأنَّ صوتها قادم من مكان بعيد، «أوه، أهلاً، عزيزي. أرجِعتَ بهذه السرعة؟»

قال «نعم، أيقظيني باكراً، لديّ عمل أقوم به»

قالت بنبرة ناعسة «سأتذكر، يا عزيزي. نوماً هانئاً...»

قال مع ضحكة مُقتضبة وجافة «تصبحين على خير، وأنت أيضاً»

أُغلِقَ الباب. بقيتُ هناك قليلاً في الظلام. أتنفّس بسرعة. كان شيئاً غريباً. مددتُ يدي ولمستُها. لم ألقَ استجابة. ملتُ عليها، شاعراً بأنفاسها تهب رقيقة ودافئة ونقيّة على وجهي. أردتُ أنْ أتلكّأ هناك، مُختبراً الإحساس بشيءٍ ثمين فات أوان نيله محفوف بالمخاطر والآن ضاع إلى الأبد – إنه الحِدَّة. ولكنها لم تستفق قط وإذا أفاقت الآن، فسوف تصرخ، بأعلى صوتها. أسرعت بالتسلل من السرير، مُبقياً عينيّ على ذلك الجزء من الظلام الذي صدر عنه الضوء وأنا أحاول أنْ أعثر على ملابسي. رحتُ أتخبط حولي، وجدتُ كرسياً، كرسياً فارغاً، فأين ملابسي؟ يا لي من أحمق! لِمَ ورّطتُ نفسي في هذا الموقف؟ تحسستُ طريقي خلال الظلام وأنا عار، وعثرتُ على الكرسي مع ملابسي، ارتديتها على عجل وتسللتُ إلى الخارج، لم أتوقف إلا عند الباب لأنظر خلفي خلال النور المُعتم المنبعث من الرواق. كانت نائمة بلا تنهّد أو ابتسام، حالمة جميلة، وذراع عاجيّة مرمية فوق رأسها الفاحم الشعر. خفقَ قلبي بقوة وأنا أُغلق الباب ومشيت على طول الرواق، متوقعاً ظهور الرجل، بل رجال، حشود – ليوقفوني. ثم هبطتُ الدرج.

كان الهدوء يرين على المبنى. وفي البهو كان البوّاب يغفو، وصدريته المُنشّاة متمعجة تحت ذقنه مع أنفاسه، ورأسه الأبيض عار. وصلت الشارع مُنهكاً من فرط التعرُّق، ولا أزال غير متأكّد مما إذا كنتُ قد رأيتُ الرجل أم حلمتُ به. أيُعقل أنني رأيته من دون أنْ يراني؟ أو من جديد، هل رآني ولزم الصمت من باب اللياقة، والانحطاط، وفرط التحضُّر؟ أسرعتُ وأنا أمشي في الشارع، وقلقي يزداد مع كل خطوة. لِمَ لم ينطق بأية كلمة، لم لم يتعرَّف عليّ، ويسبّني؟ أو يُهاجمني؟ أو على الأقلّ يصبّ جام غضبه عليها؟ وماذا لو أنه كان اختباراً لاكتشاف كيف سأتصرّف تحت وطأة ذلك الضغط؟

لقد كانت، قبل كل شيء، نقطةً سوف يُهاجمنا أعداؤنا بعنف على أساسها. مشيت أتصبّب عرق الألم. لِمَ يُقحمون نساءهم في كل شيء؟ لقد أقحموا امرأة بيننا وبين كل ما أردنا تغييره في العالم: اجتماعياً، وسياسياً، واقتصادياً. لمَ، اللعنة، لمَ يُصرّون على الخلط بين الصراع الطبقي والصراع الجنسي، ويحطّون من قدرنا وقدرهم – من قدر الدوافع الإنسانية كلها؟

طوال اليوم التالي كله كنتُ مُرهقاً، أنتظر بتوتر الكشف عن الخطّة. لقد بتُّ متيقناً من أنَّ ذلك الرجل كان يقفُ فعلاً في ممر الباب، رجلاً يحمل حقيبة عمل ألقى نظرة إلى الداخل ولم يُبدِ أية إشارة على أنه رآني. رجل تكلَّم كأنه زوج لا مبالٍ، ولكنه بدا أنه يُذكّرني بعضو مهم في الأخوية – بشخص مألوف إلى درجة أنَّ فشلي في التعرُّف عليه كان يدفعني إلى حافة التشتُّت. إنَّ عملي أمامي لم أباشره بعد. وكلما رنّ جرس يتملكني الخوف. كنتُ أعبث بحلقة سلسلة تارب.

قلت لنفسي، إذا لم يتصلوا بحلول الساعة الرابعة، فقد نجوت. ولكن لا إشارة، ولا حتى مكالمة هاتفية تدعو إلى اجتماع. وأخيراً اتصلتُ برقمها، وسمعتُ صوتها، مبتهجة، ومرحة ومتحفظة؛ ولكن من دون ذكر لتلك الليلة أو للرجل. وعندما ميّزتُ هدوءها ومرحها ارتبكتُ إلى درجة أنني لم أُثِر الموضوع. لعل تلك هي الطريقة اللبقة والمتحضرة؟ لعله كان موجوداً وبينهما تفاهم حول ذلك، أي أنْ تحظى المرأة بكامل حقوقها.

أرادت أنْ تعرف إنْ كنتُ سأعود لإجراء المزيد من النقاش.

قلت «نعم، طبعاً»

قالت «أوه، أيها الأخ»

أقفلتُ الخط مع مزيج من الارتياح والقلق، غير قادر على التخلُّص من فكرة خضوعي لاختبار وفشلي في اجتيازه. مررتُ بالأسبوع التالي وأنا أتساءل حول ذلك، بل كنتُ أشد اضطراباً لأنني لم أعرف شيئاً مُحدَّداً عن وضعي. وحاولت أنْ أتقصّى أية تغييرات في علاقاتي بالأخ جاك والآخرين، لكنهم لم يُظهروا أية دلالة على هذا. حتى لو أظهروا، لما أدركتُ معناها الدقيق، إذ قد يكون لها صِلة بالتغييرات. كنتُ عالقاً بين الإحساس بالذنب والبراءة،

بحيث بدا أنهما شيء واحد. كانت أعصابي في حالة توتر مستمر، وتلبّسَ وجهي تعبيراً جامداً، مُلتبِساً، وبدأ يُشبه وجه الأخ جاك ووجوه باقي القادة. ثم استرخيتُ قليلاً؛ يجب أداء العمل وسوف أمارس لعبة الانتظار. وعلى الرغم من إحساسي بالذنب وبارتيابي تعلّمتُ أنْ أنسى أنني أخٌ أسود وحيد يشعر بالذنب ودخلتُ بخُطى واسعة وواثقة القاعة الممتلئة بالبيض. ثم كانت الابتسامة المرحة، ليست واسعة كثيراً، واليد الممدودة من أجل المُصافحات الثابتة والودود. ومعها المزيج المناسب من الغطرسة والمهانة الواقعية لتُرضي الجميع. واندفعت أحاضرُ، أدافعُ، أُشدِّدُ على حقوق المرأة؛ وعلى الرغم من أنَّ الفتيات استمررن في التحرك والانتقال، حرصت على الفصل بعناية بين البيولوجيّ والأيديولوجيّ - ولم يكن ذلك سهلاً دائماً، وكأنَّ العديد من الأخوات كنّ متفقات فيما بينهن على أنَّ الأيديولوجيّ هو مجرد حجاب سطحي لإخفاء هموم الحياة الحقيقية (على فرض أنني قبلتُ بهذا).

كنتُ كلما ظهرت أجد أنَّ غالبية جمهور قلب المدينة يتوقع شيئاً مجهولاً. كنتُ أشعر به حالما أقفُ أمامه، ولا صِلة له بأي شيء يمكن أنْ *أقول*. إذ كان يكفي أنْ أظهر أمامه، وحالما تقع عيونه عليّ يبدو كأنَّ ارتياحاً غريباً يُهيمن عليه - ليس بالضحك، ولا بالبكاء، ولا بأي انفعال عاطفي ثابت، وخالص. ولم أفهم. ويظهر إحساسي بالذنب. وذات مرة وأنا في منتصف فقرة نظرتُ إلى بحر الوجوه وقلت في نفسي، تُرى هل يعرفون؟ أهذه هي النهاية؟ - وكُدتُ أُفسِد المحاضرة. لكنني كنتُ متيقّناً من شيء واحد. لم يكونوا يتخذون الموقف نفسه من بعض الإخوة السود الآخرين الذين كثيراً ما يسلّونهم برواية القصص بحيث يضحكون حتى قبل أنْ يفتح هؤلاء أفواههم. كلا، كان شيئاً آخر. يُشبه التوقُّع، الانتظار، الأمل في شيء ما كالتبرير؛ وكأنهم توقعوا مني أنْ أكون أكثر من مجرد متكلِّم آخر، أو مُهرِّج. وكأنَّ شيئاً مُستتراً عن وعيي أنا كان يظهر. كنتُ أقوم بحركات إيمائية أشدّ فصاحة من أشدّ كلماتي قُدرة على التعبير. كنتُ شريكاً له لكنّه بقيَ لغزاً بالنسبة إليّ كالرجل الذي ظهر عند الباب. قلت في نفسي، لعلَّ السر في صوتك أساساً. في صوتك وفي رغبتهم في أنْ يروا فيك برهاناً حياً على إيمانهم بالأخويّة، ولكي أُريحَ بالي توقفتُ عن التفكير في الأمر.

وذات أمسية عندما استغرقت في النوم في أثناء تدوين بعض الملاحظات من أجل سلسلة من المحاضرات الجديدة، جاءتني مكالمة هاتفية تستدعيني إلى اجتماع طارئ يُعقد في مركز القيادة، فغادرت المنزل مع إحساس بالرعب. قلت، هذه هي النهاية، فإما التُّهم أو تلك المرأة. ارتكاب الخطيئة مع امرأة! ماذا سأقول لهم، إنها لا تُقاوَم وإنني بشر؟ وما دخل هذا بالمسؤولية، وببناء الأخويّة؟

كان ذلك كل ما استطعت أنْ أفعله لأدفع نفسي إلى الذهاب، ووصلت متأخّراً. كانت الغرفة شديدة القيظ؛ وثمة ثلاث مراوح صغيرة تُحرّك الهواء الراكد، وجلس الإخوة بقمصانهم القصيرة الأكمام حول طاولة مُحفَّرة وُضع عليها إبريق من الماء المُثلَّج يتلألأ بحبّات من الرطوبة.

اعتذرتُ قائلاً «آسف على التأخير، أيها الإخوة، لقد أخّرتني تفاصيل مهمة في اللحظة الأخيرة بخصوص محاضرة الغد»

قال الأخ جاك «إذن كان يمكن أنْ توفّر على نفسك العناء وعلى اللجنة هذا الوقت الضائع»

فجأة قلت بانفعال شديد «أنا لا أفهمك»

قال الأخ توبيت «إنه يقصد أنك لستَ في حاجة إلى الاهتمام بقضية المرأة بعد الآن. لقد انتهى الأمر»؛ وأعددتُ نفسي للهجوم، ولكن قبل أنْ أتمكن من الإجابة أطلقَ الأخ جاك عليّ سؤالاً مُذهلاً.

«ما أخبار الأخ تود كليفتون؟»

«الأخ كليفتون – في الواقع، أنا لم أره منذ أسابيع. كنتُ شديد الانشغال هنا في المدينة. ماذا حدث؟»

قال الأخ جاك «لقد اختفى. *اختفى!* فلا تُضيّع وقتك بطرح أسئلة تافهة. نحن لم نرسل في طلبك من أجل هذا»

«ولكن منذ متى وأنتم تعرفون هذا؟»

ضرب الأخ جاك الطاولة. «كل ما نعرف هو أنه اختفى. فلنستأنف عملنا. سوف تعود، أيها الأخ، إلى هارلم في الحال. إننا نواجه أزمة هناك،

ليس منذ اختفاء الأخ كليفتون فقط بل وبسبب فشله في منصبه أيضاً. ومن ناحية أخرى، إنَّ راس الناصح وعصابته يستغلون هذا الأمر ويزيدون من هياجهم. وعليك أنْ تعود إلى هناك وتتخذ الإجراءات اللازمة لاستعادة قوتنا في المجتمع. سوف تُمنَح القِوى التي تحتاج وتزودنا بتقرير استعداداً لعقد اجتماع استراتيجية سوف نُعلمك بأمره في الغد»، ثم شدّد باستخدام المطرقة «وأرجوك، لا تتأخّر في الحضور!»

ارتحتُ كثيراً لأنه لم تتم مناقشة أي من مشاكلي الخاصة حتى إنني لم أتلكّأ لأسأل إنْ كانوا قد سألوا الشرطة عن مسألة الاختفاء. كان في الأمر كله خطأ ما، لأنَّ كليفتون شخص شديد الشعور بالمسؤولية وأمامه الكثير من المكاسب ليُحققها بحيث لا يمكن أنْ يختفي. هل للأمر صِلة براس الناصح؟ ولكنْ بدا هذا الافتراض مُستبعداً؛ لقد كانت منطقة هارلم واحدة من أقوى مناطقنا، وقبل شهر فقط عندما نُقِلتُ كان يمكن لراس أنْ يجوب الشارع ضاحكاً لو أنه حاول أنْ يُهاجمنا. لو أنني لم أكن مفرط الحرص على ألا أُسيء إلى اللجنة لبقيت على تواصُل عن قُرب مع كليفتون ومع أعضاء هارلم كلهم. والآن شعرت كأنني استيقظت فجأة من نوم عميق.

-20-

كنتُ قد غبتُ طويلاً عن الشوارع بحيث بدت لي غريبة. كانت إيقاعات أطراف المدينة أكثر بطئاً ومع ذلك بدت أسرع؛ كان هواء الليل الحار يتسم بتوتر مختلف. شققتُ طريقي خلال حشود الصيف، ليس نحو المنطقة بل نحو حانة باريل هاوس «جولي دولار»، وهي حانة مُظلمة ومحل شواء يقع في الجزء العلوي من الجادة الثامنة، حيث يمكنني العثور على أحد أفضل مصادر معلوماتي، هو الأخ ماركو، وفي مثل ذلك الوقت يشرب نصيبه من بيرة المساء.

عندما نظرت من خلال الواجهة رأيتُ رجالاً بملابس العمل وبضع نساء سكارى يتكئن على البار، وعلى طول الممر بين البار والنضد كان رجلان بقمصان رياضية ذات تربيعات سوداء وزرقاء يأكلان اللحم المشوي. وتجمّع رهطٌ من الرجال والنساء بالقرب من صندوق الموسيقى في الخلفية. ولكن عندما دخلت لم أعثر على الأخ ماركو بينهم وتابعت طريقي إلى البار، مُقرراً أنْ أنتظر وأشرب البيرة.

قلت، عندما وجدتني بجانب رجلين كنتُ قد رأيتهما في الجوار من قبل، «مساء الخير، أيها الإخوة»؛ فلم ألقَ منهما إلا نظرة باردة، ورفع الطويل بينهما حاجبيه بزاوية سكرى وهو ينظر إلى الآخر.

قال الطويل «خراء»

«كما قلتَ، يا رجل؛ أهو أحد أقربائك؟»

«خراء، حتماً لا يمتّ لي بأية صِلة!»

التفتُّ ونظرتُ إليهما، وقد عمَّ الضبابُ المكانَ فجأة.

قال الثاني «لا بد أنه سكران. لعله يظن أنه قريب لك»

«إذن هذا الويسكي يكذب عليه. ما كنتُ لأقبل به قريباً حتى لو كنتُ كذلك – هيه، يا صاحب الحانة!»

ابتعدتُ، إلى آخر البار، وأنا أنظر إليهما مع إحساس بالترقُّب. لم يبدُ عليهما السكر وأنا لم أقُلْ شيئاً مُسيئاً، وكنتُ متيقناً من أنهما يعرفانني. ماذا كانت؟ إنَّ تحية الأخويّة كانت مألوفة مثل «أعطني بعض الجلد[38]» أو «من فضلك، إنه رائع»

هرع صاحب الحانة من الطرف المقابل للبار، ومئزره الأبيض مُثبَّت بشدّ حبليه بحيث بدا أشبه بذلك النوع من البراميل المعدنية الذي يُحيط وسطه أخدود؛ وعندما رآني، بدأ يبتسم.

قال، ماداً يده، «لعنني الله إنْ لم يكن هذا الأخ الطيب. أين كنتَ مختبئاً، أيها الأخ؟»

قلت، شاعراً بموجة من الامتنان، «كنتُ أعمل في قلب المدينة»

قال صاحب الحانة «عظيم، عظيم!»

«هل أحوال العمل جيدة؟»

«أفضّل ألا أتحدث في هذا الأمر، أيها الأخ. أحوال العمل سيئة. بل سيئة جداً»

قلت «يؤسفني أنْ أسمع هذا. يُستحسن أنْ تقدِّم لي بيرة، بعد أنْ خدمت هذين السيدين». وراقبتهما من خلال المرآة.

قال صاحب الحانة، وهو يمسك بكأس ويتناول عبوة بيرة، «حاضر»، ثم قال للرجل الطويل «ماذا ستشرب، أيها العجوز؟»

قال الطويل «اسمع هنا، يا باريل، نريد أنْ نسألك سؤالاً واحداً. نريد أنْ نعرف إنْ كان في استطاعتك أنْ تخبرنا مَنْ يكون هذا الأخ هنا؟ لقد دخل إلى هنا تواً ويُخاطب الجميع بأخي»

38– «أعطني بعض الجلد»: هي الترجمة الحرفية لتحية بين الأصدقاء الشبان في الغرب حيث يضرب الصديقان كفيهما معاً بطريقة غريبة ثم يضربان قبضتيّ يديهما. – المترجم

قال باريل، حاملاً الكأس المُترعة بالزَبَد بين أصابعه الطويلة، «إنه أخي *أنا*. هل من خطب في هذا؟»

قلت من آخر البار «اسمع، يا هذا، هذه هي طريقة تخاطبنا. ولا أقصد أي سوء بمخاطبتك بأخي. يؤسفني أنك أسأتَ فهمي»

قال صاحب الحانة «هذه هي البيرة، يا أخي»

«إذن هو أخوك *أنت*، هه، باريل؟»

ضاقتْ عينا باريل وهو يضغط صدره على البار، وقد بدا عليه الحزن فجأة. قال بكآبة «أتستمتع بوقتك، يا ماكادمز؟ أعجبتك البيرة؟»

قال ماكادمز «طبعاً»

«هل هي باردة بالقدر الكافي؟»

«طبعاً، ولكن يا باريل –»

قال صاحب الحانة «أتحب الموسيقى المرحة الصادرة عن صندوق الموسيقى؟»

«نعم، كثيراً، ولكن –»

«ويعجبك مجلسنا الطيب، النظيف والودود؟»

قال الرجل «طبعاً، ولكن ليس هذا ما أتحدث عنه»

قال صاحب الحانة بكآبة «نعم، ولكن هذا ما أتحدث *أنا* عنه. وإذا أعجبك، *فليعجبك*، ولا تحاول أنْ تزعج زبائني الآخرين. إنَّ هذا الرجل هنا قدّمَ للمجتمع من الخدمات أكثر مما قد تفعل في حياتك كلها»

قال ماكادمز، وهو يُسدد عينيه عليّ، «*أي* مجتمع؟ لقد سمعت أنه مُصاب بالحمّى البيضاء وغادر...»

قال صاحب الحانة «أنت تقبل كل ما تسمع. هناك ورق في المرحاض. يجب أنْ تستخدمه لتنظِّف أُذنيك»

قال صديقه «كفى، ماك. انسَ الأمر. ألم يعتذر الرجل لك؟»

قال ماكادمز «أنا أقول دعك من أُذنيّ. أخبر أخاك أنَّ عليه أنْ ينتبه ممّن يدّعي أنهم أقرباء له. إنَّ بعضنا لا يهتم بأمثاله من السياسيين»

نقّلتُ بصري من أحدهما إلى الآخر. واعتبرتُ أنني تجاوزتُ مرحلة قتال

الشوارع، وأحد أسوأ الأشياء التي يمكن أنْ أفعلها بعد عودتي إلى المجتمع كان التورّط في شجار. نظرتُ إلى ماكادمز وأسعدني أنْ أرى الآخر يدفعه نحو طرف البار.

قال صاحب الحانة «إنَّ ذاك المدعو ماكادمز يعتقد أنه على صواب. إنه من النوع الذي لا يعجبه أحد. ولكن صراحة، لا يوجد الكثير من أمثاله هذه الأيام»

هززتُ رأسي موافقاً بإبهام. لم أكن قد قابلت من قبل خصومةً من ذلك النوع. قلت «ماذا حدث للأخ ماركو؟»

«لا أعلم، يا أخي. إنه لا يأتي بانتظام هذه الأيام. إنَّ الأحوال تتغيَّر هنا. المال أصبح شحيحاً»

قلت «الأحوال عصيبة في كل مكان. ولكن ماذا كان يحدث هنا، يا باريل؟»

«أوه، أنت تعرف، يا أخي؛ الوضع صعب وكثير ممّن حصلوا على عمل من خلالكم خسروه. أنت تعرف كيف تجري الأمور»

«تعني الأشخاص الذين في منظمتنا؟»

«عدد لا بأس به منهم. من أمثال الأخ ماركو»

«ولكن لِمَ؟ لقد كانوا يبلون بلاءً حسناً»

«طبعاً كانوا كذلك – ما دمتم كنتم تناضلون بالنيابة عنهم. ولكن حالما توقّفتم، بدأوا يطردون الناس إلى الشارع»

نظرتُ إليه، يقفُ أمامي ضخماً وصادقاً. كان أمراً لا يُصدَّق أنْ توقِف الأخوية عملها، ومع ذلك لم يكن يكذب. قلت «أعطني عبوة أخرى من البيرة»، ثم نادى أحدهم من الخلف عليه، وأحضر البيرة وذهب.

شربتها ببطْء، آملاً في أنْ يظهر الأخ ماركو قبل أنْ أُنهيها. وعندما لم يظهر لوّحت بيدي للنادل وغادرت أبغي المنطقة. علّي أنْ أجد تفسيراً عند الأخ تارب؛ أو على الأقل قد يُخبرني شيئاً عن كليفتون.

اجتزتُ المبنى المُظلم وانتقلت إلى الجادة السابعة ومشيت؛ كانت الأشياء قد بدأتْ تبدو خطيرة. على طول الطريق لم أر إشارة واحدة تدل

على نشاط الأخوية. وفي شارع فرعي حارّ صادفتُ اثنين يقدحان عيدان ثقاب على حافة الرصيف، راكعَين كأنهما يبحثان عن قطعة نقدية ضائعة، وكانت عيدان الثقاب تتوهج بضوء معتم يسطع على وجهيهما. ثم وجدتُ نفسي في مبنى مألوف بصورة غريبة وبدأتُ أتصبب عرقاً: كنتُ قد مشيت حتى اقتربت من باب منزل ميري، فاستدرت وأسرعت بالابتعاد.

كان صاحب الحانة باريلْهَاوس قد هيَّأني لاستقبال نوافذ المنطقة المُظلمة، ولكن ليس، بعد أنْ دخلت، لأهتف في الظلام دون جدوى مُنادياً على الأخ تارب. وانتقلتُ إلى الغرفة التي كان ينام فيها، لكنه لم يكن موجوداً؛ ثم انتقلتُ إلى الرواق المظلم إلى غرفة مكتبي القديمة وارتميتُ على كرسي الطاولة، مُرهقاً. شعرتُ كأنَّ كل شيء يتسرّب مني ولم أعثُر على أي عمل سريع مُستحوذ يتغلَّب على ذلك الشعور. وحاولت أنْ أفكر فيمَنْ أستطيع أنْ أتصل من بين أعضاء لجنة المنطقة أحصل منه على معلومات عن كليفتون، ولكن هنا أيضاً شعرت بالضياع. ذلك أنني لو انتقيت شخصاً يؤمن بأنني طلبتُ نقلي لأنني كرهت قومي فلن يعمل ذلك إلا على تعقيد المسائل. ولا شك في أنَّ هناك مَنْ يكرهون عودتي، لذلك كان من الأفضل أنْ أواجههم جميعاً دفعة واحدة من دون أنْ أُتيح لأي منهم الفرصة لتنظيم أيّة حملة عاطفية ضدي. كان أفضل حل هو أنْ أتكلّم مع الأخ تارب، الذي أثق به. وعندما يأتي يمكنه أنْ يعطيني فكرة عن حالة الأوضاع، وقد يُخبرني عن حقيقة ما حدث لكليفتون.

لكنَّ الأخ تارب لم يصل. فخرجت لأُحضر وعاءً من القهوة ورجعتُ لأمضي الليل أدقق في سجلات المنطقة. وعندما حلت الساعة الثالثة صباحاً ولم يصل، انتقلتُ إلى غرفته وألقيتُ نظرة على أرجائها. كانت خالية، حتى السرير لم يكن موجوداً. قلت لنفسي، أنت وحيد. لقد وقعَتْ أحداث كثيرة لا عِلم لي بها؛ ثمة شيء أعاقَ اهتمام الأعضاء بل وأبعدهم، وِفقاً للسجلات، جماعات. كان باريلهاوس قد قال إنَّ المنظمة كفّتْ عن النضال، وهذا هو التفسير الوحيد الذي استطعت أنْ أخرج به لمغادرة الأخ تارب. إلا إذا، طبعاً، كان على خلاف مع كليفتون أو مع بعض القادة الآخرين. ولدى عودتي إلى طاولتي لاحظتُ أنَّ صورة دوغلاس التي أهدانيها قد اختفت. تحسّست

داخل جيبي بحثاً عن حلقة السلسلة، على الأقلّ لم أنس أنْ آخذ هذه. نحّيتُ السجلات جانباً؛ إنها لم تُخبرني أي شيء عن سبب تحول الأمور بتلك الطريقة. رفعت سماعة الهاتف واتصلت برقم كليفتون، وسمعته يرن ويرن. وأخيراً تخليت عن الأمر وذهبتُ لأنام على الكرسي. ينبغي أنْ ينتظر كل شيء حتى انعقاد اجتماع الاستراتيجية. لقد كانت العودة إلى المنطقة أشبه بالعودة إلى مدينة الموتى.

عندما أفقتُ دُهِشتُ قليلاً لرؤية عدد كبير من الأعضاء في الرواق، ولمّا لم تكن لديّ توجيهات من اللجنة عن كيفية التصرّف قمتُ بتنظيمهم ضمن فِرَق من أجل البحث عن الأخ كليفتون. ولم يتمكن أي منهم من مدّي بأية معلومة مُحدَّدة. كان الأخ كليفتون قد ظهر في المنطقة كالمعتاد حتى وقت اختفائه. لم تحدث أية مشاجرات مع أعضاء اللجنة، وكان محبوباً كعهده دائماً. ولا وقعت أية مُصادمات مع راس الناصح – على الرغم من أنه خلال الأسبوع الأخير كان مُفرِط النشاط. أما بخصوص فقدان العضوية والنفوذ، فكان ذلك نتيجة برنامج جديد نادى بالتخلّي عن تقنيات تحريضنا القديمة. ودُهِشت إذ وجدتُ أنَّ هناك انتقالاً من التركيز على القضايا المحلية إلى تلك ذات السِمة الوطنية والعالمية أكثر، وشعرت برهة بأنَّ مصالح هارلم لم تعد لها الأولوية في الأهمية. لم أدرِ ماذا أفهم من ذلك، بما أنه لم يطرأ مثل هذا التغيير على برنامج قلب المدينة. لقد أصبح كليفتون في طي النسيان، وبدا أنَّ كل ما عليّ أنْ أفعل يعتمد على الحصول على تفسير من اللجنة، وانتظرتُ مع توتّرٍ متزايد تلقّي استدعاء من اجتماع الاستراتيجية.

في المعتاد كانت مثل تلك الاجتماعات تُعقَد عند حوالي الساعة الواحدة وكنا نتلقى إشعاراً بذلك قبلها بوقت طويل. ولكن بحلول الساعة الحادية عشرة والنصف لم أتلقَّ كلمة واحدة وتملكني القلق. وبحلول الثانية عشرة انتابني إحساس مزعج بالعُزلة. ثمة أمرٌ يُدبَّر له، ولكن ما هو؟ وكيف؟ ولِمَ؟ أخيراً اتصلت هاتفياً بالإدارة، ولكنْ لم أتمكن بالاتصال بأيّ من القادة. وتساءلت، ما هذا؛ ثم اتصلتُ بالقادة في المناطق الأخرى ولكن مع النتيجة نفسها. بعد ذلك بتُّ متيقناً من أنَّ الاجتماع قد عُقِد. ولكنْ لِمَ من دوني؟ هل حقّقوا في اتّهامات وريستروم وقرروا أنها صحيحة؟ بدا أنَّ الأعضاء قد

انسحبوا **فعلاً** بعد أنْ انتقلتُ إلى قلب المدينة. أم أنَّ المرأة هي السبب؟ مهما كان السبب، ليس ذلك هو الوقت المناسب لإبعادي عن الاجتماع؛ ثمة أمور ملحاحة جداً في المنطقة. وهرعتُ متوجهاً إلى مركز الإدارة.

عندما وصلت كان الاجتماع منعقداً، كما توقعت، وقد صدر أمرٌ بألا يزعجهم أحد. كان جلياً أنهم لم ينسوا أنْ يُعلموني بذلك. وغادرتُ المبني وأنا حانق. قلت في نفسي، حسن، عندما يُقررون أنْ يستدعوني عليهم أنْ يبحثوا عني. ما كان ينبغي أنْ أُنقَل أصلاً، والآن بعد أنْ أعادوني لكي أُرتِّب الفوضى عليهم أنْ يمدوا لي يد العون بأسرع وقت ممكن. لن أقوم بعد الآن بإدارة أمور قلب المدينة، ولن أقبل أي برنامج يُرسلونه من دون استشارة لجنة هارلم. ثم قررتُ، من بين الأمور كلها، أنْ أشتري حذاءً جديداً، وأتوجه إلى الجادة الخامسة.

كان الجو حاراً، والأرصفة مزدحمة بحشود الظهيرة العائدة على مضض إلى مراكز أعمالها. تابعت طريقي بمُحاذاة حافة الرصيف متجنّباً الارتطام بالآخرين والتغيُّرات المتوترة في الخُطى، والنسوة بالملابس الصيفية وهنَّ يُثرثرن، وأخيراً ولجتُ محلاً لبيع الأحذية يفوح برائحة الجلد المدبوغ، مع هواء مُكيَّف وإحساس بالارتياح.

أحسستُ بقدميّ خفيفتين بالحذاء الصيفي وأنا في طريق عودتي إلى الحرارة القائظة، وتذكّرتُ متعة عهد الفتوة البائد عندما كنتُ أرمي حذاء الشتاء لأستبدله بالحذاء الرياضي والتسابق بالركض في الحي الذي كان دائماً يلي ذلك، ذلك الإحساس بالخفّة، وبالسرعة، وبالطيران. قلت في نفسي، حسن، لم تعد تمارس تلك السباقات ويُستحسن أنْ تعود إلى المنطقة فقد تصلك مكالمة هاتفية. وبدأتُ أُسرِع خطاي، شاعراً بقدميّ أنيقتين وخفيفتين وأنا أتقدّم خلال الدفق المتواصل من الوجوه التي لفحتها أشعة الشمس. ولكي أتفادى الحشد في الشارع الثاني والأربعين انعطفتُ إلى الشارع الثالث والأربعين وهنا بدأتِ الأمور تحتدم.

فقد كانت عربة صغيرة لنقل الفاكهة متوقفة تحمل مجموعة مُنظّمة من الخوخ والإجاص عند حافة الطريق، فنظر البائع الجوّال ذو الأنف

المنتفخ والعينين الإيطاليتين السوداوين البرّاقتين إليّ نظرة العارف من تحت مظلته الضخمة ذات اللونين الأبيض والبرتقالي ثم إلى الحشد الذي كان قد تشكّل على طول المبنى عبر الشارع. تساءلت، ما خطبه؟ ثم عبرتُ الشارع وتجاوزت المجموعة الواقفة وظهورهم إليّ. فتلفّظ صوتٌ بنبرةٍ سريعةٍ ومقصودةٍ كلمات لم أتبيَّن معناها وأوشكتُ أنْ أتابع طريقي عندما رأيت الفتى النحيل والأسمر الذي تعرّفتُ عليه في الحال كصديق كليفتون المُقرّب، كان ينظر حينئذٍ بإمعان من فوق أعالي السيارات إلى حيث كان رجل شرطة يتقدّم من آخر المبنى على الرصيف المقابل بالقرب من مكتب البريد. تساءلت، لعله يعرف شيئاً، بينما كان يتلفّتْ حوله ليراني ثم توقف مُضطرباً.

باشرتُ بالقول «مرحباً، يا صاح»، وعندما اتجه نحو الحشد وصفَّر لم أفهم هل كان يطلب مني أنْ أفعل مثله أم يُشير إلى شخص آخر. استدرتُ فرأيته يتوقّف عند علبة كرتون كبيرة مُستقرة بجوار المبنى فحلَّ أشرطتها القماشية وعلّقها من كتفه وهو ينظر من جديد باتجاه رجل الشرطة، متجاهلاً إياي. تقدّمتُ من الحشد، محتاراً، وشققتُ طريقي إلى المقدمة حيث رأيتُ عند موطئ قدميّ قطعة مربّعة من الكرتون عليها شيء يتحرك بحركة غاضبة. كان أشبه بدُمية وألقيتُ نظرة سريعة إلى وجوه الناس المذهولة وإلى أسفل من جديد، وهذه المرة رأيته بوضوح. لم أكن قد رأيتُ أي شيء يُشبهه في حياتي. كانت دمية ترسم تكشيرة وكانت محارم من الورق برتقالية وسوداء وأقراص من الكرتون المُسطّح الرقيق تشكّل الرأس والقدمين وبفعل آليّة غامضة كانت تتحرك إلى أعلى وأسفل بمفاصل رخوة، تهزّ كتفيها، بحركة حسّية تُثير الغيظ، برقصةٍ منفصلة تماماً عن تعبير الوجه الأسود، الشبيه بالقِناع. تساءلت، إنها ليست دمية وثّابة، ولكن *ما هي*، وأنا أراها تتمايل في تحدٍ شرس لشخصٍ يؤدي فعلاً منحطاً أمام الملأ، ترقص وكأنها تستمدّ متعة منحرفة من حركاتها. ومن تحت ضحك الحشد المكبوت كنتُ أسمع حفيف رفرفة أوراقها، بينما ذلك الصوت يقول من زاوية فمه:

«ارقص! ارقص!

إنه سامبو، الدمية الراقصة، أيها السيدات والسادة.

هزّوه، شدّوه من رقبته وأجلسوه،

- وهو سيقوم بالباقي. نعم!

سوف يُضحككم، سيجعلكم تتنهدون، تتنهدووون.

سيجعلكم ترغبون في أنْ ترقصوا، وترقصوا -

ها هو، أيها السيدات والسادة، سامبو،

الدمية الراقصة.

اشتر واحدة لطفلك. خذه لحبيبتك وسوف تحبك، وتحبك!

سوف يُسليك، وسوف يجعلك تبكي بعذوبة -

من فرط الضحك.

هزّه، هزّه، لا يمكن أنْ تكسره

لأنه سامبو، الراقص، سامبو، الطافر،

سامبو، المؤدي، سامبو الدمية الورقية الراقصة.

وكل هذا بخمسة وعشرين سنتاً، بربع دولار...

أيها السيدات والسادة، سوف يُسعدكم، تقدّموا وقابلوه،

إنه سامبو الـ -»

كنتُ أعلم أنَّه عليّ أنْ أعود إلى المنطقة ولكنْ أعاقني القفز اللدن، الحيوي، للدمية المُكشّرة وتمزّقتُ بين رغبتي في الانضمام إلى الضحك وبين القفز عليها وتحطيمها بقدميّ الاثنتين، وفجأة إذا بها تنهار ورأيتُ طرفَ حذاء المتكلِّم يطأ قطعة الكرتون الدائرية التي تشكّل القدمين وهبطتْ يدٌ سوداء عريضة، وأمسكتْ أصابعها برشاقة رأسَ الدمية ورفعتها إلى أعلى، بمقدار ضعف طولها، ومن ثم جعلها ترقص من جديد. وفجأة لم يعُد الصوت يُرافق اليد. وكأنني خضتُ في بركة ضحلة وإذا بقاعها ينخفض وتنطبق المياه فوق رأسي. رفعتُ بصري.

باشرت بالقول «ليس أنت...»، لكنَّ عينيه تجاوزتاني وتجاهلتاني عمداً. شعرت بالشلل، وأنا أنظر إليه، عالماً بأنني لا أحلم، وسمعت:

«ما الذي يُسعده، ما الذي يجعله يرقص،
هذا السامبو، هذا القافز، هذا الفتى المرح؟
إنه أكثر من دمية، أيها السيدات والسادة، إنه سامبو، الدمية الراقصة، أعجوبة القرن العشرين.
انظروا إلى هذه الرومبا، هذه اللذيذة، إنه سامبو الراقص،
سامبو الراقص، لستَ مُضطراً إلى إطعامه، إنه ينام فوراً،
ويقضي على اكتئابك.
وعلى حرمانك من ممتلكاتك، إنه يقتات على إشراقة ابتسامتك السماوية
فقط بخمسة وعشرين سنتاً، بقطعتين صغيرتين من الدولار لأنه
يريد مني أنْ آكل.
يُسعده أنْ يراني وأنا آكل.
يكفي أنْ تمسك به وتهزّه... وهو يقوم بالباقي.
شكراً لك، سيدتي...»

كان كليفتون، يهتز بسهولة إلى الأمام وإلى الخلف على رُكبتيه، يثني ساقيه من دون أنْ يُحرّك قدميه، ويرتفع كتفه الأيمن بزاوية معيَّنة وذراعه تشير وهي متيبسة إلى الدمية القافزة وهو يتكلَّم من زاوية فمه.

ومن جديد صدرَ الصفير، ورأيته يُلقي نظرة سريعة نحو رقيبه، الفتى حامل علبة الكرتون.

«مَنْ أيضاً يريد سامبو الصغير قبل أنْ نأخذه إلى العربة؟ تكلموا، سيداتي سادتي، من يريد الصغير...؟»

ومن جديد سُمِع الصفير. «مَنْ يريد سامبو، الراقص، القافز؟ أسرعوا، أسرعوا، أيها السيدات والسادة. لا داعي للحصول على إجازة للحصول على سامبو، ناشر الفرح. لا أحد يدفع ضريبة على الفرح، فتكلموا، سيداتي سادتي...»

تقابلت عيوننا برهة فابتسم لي باحتقار، ثم عاد إلى الكلام. شعرت بأنني

تعرّضتُ للخيانة. نظرتُ إلى الدمية وشعرتُ بغُصّة. وتصاعد الحنق خلف البلغم وأنا أميل إلى الخلف ثم أنكفئ إلى الأمام. كان هناك ومضٌ أبيض ورذاذ كمطر غزير يضرب صحيفة ورأيتُ الدمية تميل إلى الخلف، وتذوي لتغدو خرقة متدلية من الورق المُهذَّب، والرأس الكريه ينقلب على رقبته الممطوطة ولا يزال يبتسم نحو السماء. والتفتَ الجمهور نحوي ساخطاً. وسُمِع الصفير من جديد. رأيتُ رجلاً قصيراً وكبير البطن ينظر إلى الأسفل، ثم عالياً إليّ بذهول وانفجر ضاحكاً، وهو يُشير إليّ وإلى الدمية، ويهتز. ابتعد الناس عني، ورأيت كليفتون يمشي مقترباً من المبنى حيث رأيتُ إلى جوار الفتى حامل الكرتونة صفاً كاملاً أشبه بالجوقة من الدُمى تنتفض مع زيادة منحرفة في الطاقة والحشد يضحك بهستيريا.

باشرت بالقول «أنت، أنت»، فرأيته يُمسك باثنتين من الدُمى ويتقدّم. لكنَّ المُراقِب اقترب. قال، مومئاً برأسه نحو رجل الشرطة المقترب، «إنه قادم»، وهو يجمع الدُمى، ويُسقِطها داخل الكرتونة ثم يبتعد.

هتف كليفتون «اتبعوا الصغير سامبو عند المنعطف، أيها السيدات والسادة. ثمة عرضٌ كبير سيبدأ...»

حدث ذلك بسرعة كبيرة حتى إنه خلال لحظة لم يتبقَ غيري بالإضافة إلى سيدة عجوز ترتدي ثوباً أزرق مُنقّطاً. نظرتْ إليّ ثم استأنفت سيرها، مبتسمة. ورأيتُ إحدى الدُمى. نظرت. كانت لا تزال تبتسم ورفعت قدمي لأسحقها، وأسمعها تبكي، «أوه، لا تفعل!». كان رجل الشرطة قد أصبح قبالتي فانحنيت وحملتها بدل ذلك، ومشيت بحركة واحدة. تفحّصتها، كانت خفيفة بصورة غريبة في يدي، أكاد أتوقّع أنْ أشعر أنها تنبض بالحياة. كانت مجرد قطعة ورق مُهذّبة. أسقطتها في الجيب التي أحمل فيها حلقة سلسلة الأخ تارب وانطلقت خلف الحشد المختفي. لكنني لم أتمكن من مواجهة كليفتون من جديد. لم أرغب في أنْ أراه. فقد أنسى نفسي وأهاجمه. وذهبت في الاتجاه المعاكس، نحو الجادة السادسة، متجاوزاً رجل الشرطة. تساءلت، ما أغرب هذه الطريقة في العثور عليه. ماذا حدث لكليفتون؟ لقد سار كل شيء بمسار خاطئ، غير متوقَّع على الإطلاق. كيف سقط بحق الله من الأخويّة إلى هذا الدرك في تلك الفترة القصيرة؟ وإذا كان لابد من سقوطه لِمَ كان لابد أنْ

يحمل المؤسسة كلها معه؟ ماذا سيقول غير الأعضاء؟ وكأنه كان خياره - كيف عبَّر عن ذلك في ليلة قتاله مع راس؟ - السقوط خارج *التاريخ*. توقفت في منتصف الرصيف مع هذه الفكرة. استخدم كلمة «الغوص». لكنه كان يعلَم أننا لا يمكن أنْ نصبح مشهورين إلا في الأخوية، ونتجنب أنْ نتحول إلى أشباه دمى سامبو الخاوية. يا لذاك التخبُّط الفاحش الذي سقطَ فيه كل شيء إنسانيّ! يا لله! وأنا الذي كنتُ قلقاً لأنني استُثنيتُ من الاجتماع! كم من مرة تجاهلته؛ مهما كان سبب استدعائي إليه. سوف أنسى أمره وأتمسّك بالأخوية بكل قوتي. ذلك أنَّ الانفصال عنها يعني الغرق... الغرق! وتلك الدُمى، أين عثروا عليها؟ ولِمَ اختار تلك الطريقة ليكسب ربع دولار؟ لِمَ لم يبع التفاح أو أغاني مكتوبة، أو مادة تلميع الأحذية؟

تجولت ماراً بالقطار النفقي وتابعت طريقي عند منعطف الشارع الثاني والأربعين، وذهني يُصارع بحثاً عن معنى. وعندما انعطفت وولجت الرصيف المزدحم تحت أشعة الشمس، كانوا يقفون صفاً واحداً على حافته ويُظللون وجوههم بأيديهم. رأيت السيارات تتحرك مع تغيُّر أضواء المرور، وعلى الطرف المقابل من الشارع كانت بضعة من المُشاة ينظرون إلى الخلف نحو مركز المبنى حيث تنهض أشجار متنزه براينت بمقدار طول رجلَين. رأيتُ سرباً من الحمام ينطلق من الأشجار بسرعة كبيرة ووسط ضجيج حركة المرور، وهذا كله حدث خلال اللحظة السريعة من حركة دورانه - لكنه بدا في ذهني كأنه شريط سينمائي بطيء الحركة من دون موسيقى تصويرية.

في أول الأمر حسبتُ أنه شرطي وصبي ماسح أحذية؛ ثم حدث انفراج في حركة المرور وبعد سكّتيّ حافلة التروللي اللتين تغمرهما أشعة الشمس لمحت كليفتون. كان رفيقه قد اختفى وكليفتون يُعلّق الصندوق على كتفه اليسرى والشرطي يتحرك ببطء في الخلف وعلى أحد جانبيه. كانا يقتربان ناحيتي، من أمام كشك بيع الصحف، ورأيتُ سكة الحديد على الأسفلت وخرطوم إطفاء الحريق عند حافة الرصيف والطيور المُحلّقة، وقلت في نفسي، يجب أنْ تتبعه وتدفع له قيمة الغرامة... بينما الشرطي يدفعه، وينخعه نحو الأمام وكليفتون يحاول أنْ يمنع الصندوق من الارتطام بساقه ويقول شيئاً باتجاه الخلف ويتقدَّم بينما انسابت إحدى الحمائم نحو الأسفل إلى

الشارع ثم ارتفعت من جديد، مُخلّفة ريشة تطفو بيضاء في ضوء شمس خلفي مُبهِر، ورأيتُ الشرطي يدفع كليفتون من جديد، متقدّماً بثبات إلى الأمام بقميصه الأسود، وذراعه تضرب بقسوة على رأسه ليتقدم متعثّراً إلى أنْ كفّ عن ذلك، قائلاً شيئاً باتجاه الخلف من جديد، والاثنان يتقدمان بما يُشبه المشية العسكرية التي كنتُ قد شاهدتها مرات عديدة، ولكن ليس مع أي شخص ككليفتون. ورأيتُ الشرطي يُصدر أمره بالتقدُّم بنباح قويّ، دافعاً ذراعيه إلى الأمام ولكن من دون بلوغ هدفه، وكاد يفقد توازنه عندما استدار كليفتون حول عقبيه وأطاح بذراعه اليمنى بحركة نخع قصيرة على شكل قوس، واندفع جذعه إلى الأمام واليسار في حركةٍ حلّتْ حزام الصندوق عندما انتقلت قدمه اليمنى نحو الأمام وتبعتها ذراعه اليسرى بلكمة موجهة من تحت إلى فوق جعلت قبعة الشرطي تسبح نحو الشارع وقدَمه تطير وتُسقِطه بقوة، مترنحاً يميناً ويساراً على الرصيف وكليفتون يرفس الصندوق ليربض جانباً مُصدراً صوتاً مكتوماً، وقدمه اليسري إلى الأمام – وفي مكان ما بين الهدير المملّ لحركة المرور والقطار النفقي المهتز تحت الأرض سمعتُ تفجيرات سريعة ورأيت كل حمامة تغوص بعنف وكأنما ضربها الضجيج، وكان الشرطي قد انتصب في جلسته، ونهضَ واقفاً ونظر بثبات إلى كليفتون، والحمائم تهبط بسرعة عمودياً إلى الأشجار، وكليفتون لا يزال يواجه الشرطي وفجأة انهار.

سقط إلى الأمام على رُكبتيه، كمَنْ يُصلي، في الوقت الذي تقدّم رجل ضخم الجثة ويضع قبعة ذات حافة مقلوبة نحو الأسفل من مكان كشك الصحف وصاح محتجاً. لم أتمكن من الإتيان بحركة. بدا كأنَّ الشمس تصرخ فوق رأسي بمقدار بوصة. وهتف أحدهم. كان بضعة رجال يندفعون إلى الشارع. وكان الشرطي عندئذٍ واقفاً وينظر نحو الأسفل إلى كليفتون وكأنه كان مندهشاً، والمسدس في يده. كنتُ أقف على مسافة بضع خطوات أمامهما، وكنتُ أسير بلا هدى حينئذٍ، بلا تفكير، لكنَّ عقلي يُسجّل المشهد بحيوية. عبرتُ الشارع نحو حافة الرصيف، لأرى عندئذٍ كليفتون عن قُرب، ممدّداً في الوضعية نفسها، على جنبه، وبقعة من الرطوبة تتّسع على قميصه، ولم أتمكن من تثبيت قدمي على الأرض. وانسابت السيارات قريبة خلفي،

لكنني لم أستطع أنْ أرفع قدمي لأرتفع إلى حافة الرصيف، وأنا أسمع صفيراً حاداً ونظرت باتجاه المكتبة العامة لأرى شرطيين يتقدمان مسرعَين، ببطنين كبيرين. نظرت خلفي إلى كليفتون، كان الشرطي يُلوح لي بمسدسه كي أبتعد، وصوته كصوت صبي يمر بمرحلة البلوغ.

قال «عُد إلى الرصيف المقابل». كان الشرطي الذي سبق أنْ مررتُ به في الشارع الثالث والأربعين قبل ذلك ببضع دقائق. كان فمي جافاً.

قلت، بعد أنْ وطأتُ حافة الرصيف أخيراً، «إنه صديقي، وأريد أنْ أقدم المساعدة...»

«إنه ليس في حاجة إلى مساعدة، أيها الصغير. اعبر الشارع!»

كان شعر الشرطي يتدلى على جانبي وجهه، وبذلته الرسمية قذرة، ورحتُ أراقبه بلا مشاعر، متردداً، أسمع وقع أقدام يقترب. وبدا أنَّ إيقاع كل شيء قد أبطأ. وأخذتْ بركةٌ صغيرة من الماء تتشكل على الرصيف. وعشيت عيناي. رفعتُ رأسي. نظر الشرطي إليّ بفضول. وفوق في المتنزه سمعت رفرفة الأجنحة الغاضبة؛ وشعرتُ على عنقي بضغط العيون المُسلّطة عليّ. التفتُّ. كان صبيٌ مستدير الرأس، متورد الخدين، وذو أنف كثيف النمش وعينين سلافيتين يميل عبر سياج المتنزه فوق، وعندما استدرتُ نحوه زعق بشيء للشخص الواقف خلفي، وقد أشرق وجهه بالنشوة... تساءلتُ، ملتفتاً من جديد نحو ما لم أرغب في رؤيته، ما معنى هذا.

أصبح هناك عندئذٍ ثلاثة من رجال الشرطة، واحدٌ يراقب الحشد والآخران ينظران إلى كليفتون. وكان الشرطي الأول قد اعتمر قبعته من جديد.

قال بوضوح شديد «اسمع يا فتى، لقد نلتُ ما يكفيني من المشاكل هذا اليوم – ألن تعبر إلى الطرف المقابل من الشارع؟»

فتحت فمي ولكن لم يخرج منه شيء. وكان أحد الشرطيين الآخرين قد ركع وأخذ يتفحّص كليفتون ويُدون ملاحظات على مجموعة أوراق.

قلت «أنا صديقه»، فرفع الذي يكتب نظره.

قال «إنه حمامة مطبوخة، يا ماك. لم يعد المرء يُقابل أصدقاء هذه الأيام»

نظرتُ إليه.

هتف الصبي من فوق «هيه، ميكي، الرجل لا يأتي بأية حركة!»

نظرت إلى أسفل. قال الشرطي الراكع «هذا صحيح. ما اسمك؟»

أخبرته. أجبتُ عن أسئلته حول كليفتون بأفضل ما استطعت إلى أنْ جاءت عربة الإسعاف. المرة الوحيدة التي تأتي فيها مسرعة. رحتُ أراقب فاقداً الحس بينما هم ينقلونه إلى داخلها، ومعه صندوق الدُمى. على الطرف المقابل من الشارع كان الحشد لا يزال يتكاثر. ثم انطلقت العربة ورجعتُ إلى النفق.

زعق صوت الصبي نحو الأسفل «قُل لي، يا سيد. إنَّ صديقك يعرف حقاً كيف يُحرك دُماه. بيف، بانغ! واحد، اثنان، وإذا بالشرطي ينقضّ عليه!»

أحنيتُ رأسي لذلك التقريظ الختامي، وانطلقت تحت أشعة الشمس أحاول أنْ أمحو المشهد من ذهني.

هبطتُ درج النفق لا أرى شيئاً، وذهني يغرق. كان النفق بارداً فاتكأتُ على عمود، أسمع هدير القطارات العابرة إلى الجهة الأخرى، شاعراً بهدير الهواء المتدفّق. لِمَ يغوصُ المرء عمداً خارج التاريخ وينشر الفسق، ظلَّ عقلي يشرد هكذا. لِمَ اختارَ أنْ يتجرّد من أسلحته، أنْ يتخلّى عن صوته ويغادر المنظمة الوحيدة التي تقدِّم له فرصة «ليعرف» نفسه؟ اهتزّت المنصّة ونظرتُ إلى أسفل. ثمة قطع صغيرة من الورق تدوِّم في مجرى الهواء، لتستقر بسرعة بعد عبور القطار. لماذا ابتعد؟ لِمَ اختار أنْ ينزل عن المنصّة ويسقط تحت القطار؟ لِمَ اختار أنْ يغوص في العدم، في خواء الوجوه الخالية من القسمات، في الأصوات الخالية من الصوت، ويرتمي خارج التاريخ؟ حاولتُ أنْ أبتعد وأنظر إلى الأمر بعيداً عن الكلمات المقروءة في الكتب، التي لا أكاد أتذكّرها. بالنسبة إلى سجلات التاريخ، إنَّ أنماط حياة الناس، كما تقول: هي مَنْ يُضاجع مَنْ وما هي النتيجة؛ ومَنْ حارب ومَنِ انتصر ومَنْ عاش ليكذب بعد ذلك حول ذلك كله. يُقال، إنَّ كل الأشياء مُسجّلة بصورة وافية – أي، كل الأشياء المهمة. ولكن هذا ليس دقيقاً، لأنَّ ما يُدوَّن هو فقط المعروف، والمرئي، والمسموع وتلك الأحداث التي يعتبرها المُدوِّن مهمة فقط، تلك الأكاذيب التي يُحافظ بها حُرّاسها على سلطتهم. لكنَّ الشرطي

هو مؤرِّخ كليفتون، وقاضيه، وشاهده، وجلاّده، وكنتُ الأخ الوحيد وسط الحشد المُراقب، شاهد الدفاع الوحيد الذي لا يعرف مدى ذنبه ولا طبيعة جريمته. أين هم المؤرخون اليوم؟ وكيف سيدونون هذا؟

وقفتُ هناك والقطارات تغوص داخلة وخارجة، تُطلقُ شرارات زرقاء. ما رأيها فينا نحن العابرين؟ أمثالي أنا الذين وُجِدوا قبل أنْ يعثروا على الأخوية - طيور الممر الذين كانوا مغمورين وخارج التصنيف العِلمي، وصامتين لا تسمعهم حتى أشد آلات التسجيل حساسية؛ ذوي طبائع شديدة الغموض حتى بالنسبة إلى أشد الكلمات غموضاً، وشديدي النأي عن مراكز القرار التاريخي بحيث لا يومئون أو حتى يُطرون الموقّعين على الوثائق التاريخية؟ نحن الذين لا نؤلف روايات، أو كتباً في التاريخ أو غيرها. وتساءلتُ، يتراءى لي كليفتون من جديد في خيالي، ماذا عنا نحن، وذهبتُ لأجلس على مقعد طويل مع هبوب نفحة هواء بارد خلال النفق.

وصل رهط من الناس إلى الرصيف، بعضهم من الزنوج. نعم، قلت في نفسي، ماذا عنا نحن الذين نندفع من الجنوب إلى المدينة المزدحمة كعفاريت علب مكسورة ومحلولة عن نوابضها - بفُجاءة كبيرة حتى إنّ مشيتنا تُصبح كمشية غوّاصي البحر العميق تعاني من الالتواء؟ وماذا عن أولئك المنتظرين بسكون وصمت هناك على الرصيف، ساكنين وصامتين إلى درجة أنهم يصطدمون مع الحشود بسكونهم نفسه؛ يقفون بضجيج وسط صمتهم نفسه؛ خشنين كصرخة رعب في هدوء؟ وماذا عن أولئك الفتية الثلاثة، القادمين الآن على طول الرصيف، طوال القامة والنحيلين، يمشون باستقامة مع تأرجح الكتفين ببذاتهم جيدة الكيّ، وشديدة الحرارة بالنسبة لفصل الصيف، وياقاتهم عالية ومشدودة حول أعناقهم، وقبعاتهم المتطابقة المصنوعة من اللباد الأسود الرخيص تستقر على قمم رؤوسهم بطريقة رسميّة حتى الصرامة فوق شعرهم المنتصب بقسوة؟ وكأنني لم أر شبيهاً لهم من قبل؛ يمشون بتمهُّل وأكتافهم تتهادى، وسيقانهم تتأرجح عند أكفالهم في البنطلونات التي تنتفخ من فوق أساورها وتشدّ حول كواحلهم؛ معاطفهم طويلة وعالية الخصور مع أكتاف عريضة أكثر مما ينبغي بالنسبة إلى الرجال الغربيين العاديين. بدت أجسادهم - ماذا كان أحد أساتذتي

قد قال لي؟ - «أنت أشبه بأحد تلك المنحوتات الإفريقية، مُشوّه لمصلحة التصميم». حسن، أي تصميم ولِمَنْ؟

حدّقتُ إليهم يتحركون كراقصين يؤدون ما يشبه شعائر جنازة، يتمايلون، يميلون إلى الأمام، وجوههم السوداء سريّة، يمشون ببطء على رصيف القطار النفقي، والأحذية الثقيلة مُصفّحة الأعقاب تُصدِرُ إيقاعاً مع كل خطوة. لابد أن كل شخص شاهدهم، أو سمع ضحكهم المكبوت، أو شمَّ رائحة زيت شعرهم القوية - أو ربما فشل في أنْ يراهم أصلاً. لأنهم كانوا يقعون خارج الزمن التاريخي، لا يُمسّون، ولا يؤمنون بالأخوية، وحتماً لم يسمعوا بها؛ أو ربما كانوا مثل كليفتون سيرفضون أسرارها بصورة غامضة؛ رجال انتقاليّون وجوههم جامدة.

نهضتُ واقفاً وتبعتهم. وعلى طول الرصيف اصطفت نسوة متسوقات يحملنَ لفائف ورجال نزقون يعتمرون قبعات من القش ويرتدون بذلات مُخطّطة لدى مرورهن. وفجأة وجدتني أفكّر، هل جاؤوا ليدفِنوا الآخرين أم لكي يُدفَنوا، ليهبوا الحياة أم ليتلقّوها؟ هل يراهم الآخرون، ويفكرون فيهم. حتى أولئك شديدو القُرب منهم ويمكنهم أنْ يُكلموهم؟ وإذا تبادلوا معهم الحديث، هل سيفهم رجال الأعمال النزقون وربات البيوت المُتعبات مع أغراضهن ما يقولون؟ ماذا سيقولون؟ ذلك أنَّ الفتية يتكلمون لغة عاميّة عابرة مملوءة بسِحر الريف، وفي رؤوسهم أفكار عابرة. وإنْ كانوا ربما يحلمون الأحلام القديمة نفسها. إنهم خارج الزمن - إلا إذا عثروا على الأخويّة. رجال خارج الزمن، سرعان ما سيختفون ويطويهم النسيان... ولكن مَنْ كان يعلم (هنا بدأتُ أرتجف بعنف حتى إني اتّكأتُ على حاوية قمامة) - أنهم المُنقِذون، القادة الحقيقيون، حاملو الشيء الثمين؟ إنّهم مُعدّو شيء مزعج، ثقيل الوطأة، يكرهونه لأنّهم يعيشون خارج نطاق التاريخ ولن يجدوا الإطراء الذي يستحقون وهم أنفسهم سوف يفشلون في فهمه. ماذا لو كان الأخ جاك على خطأ؟ ماذا لو أنَّ التاريخ مُقامِر، وليس قوة في تجربة مُختبَر، والفتية هم قوته الكامنة؟ ماذا لو أنَّ التاريخ ليس مواطناً عاقلاً، بل مجنون ممسوس بعقدة الاضطهاد وأولئك الفتية الثلاثة هم عملاؤه، مفاجأته الكبرى! أم انتقامه؟ لأنهم موجودون في الخارج، في الظلام مع سامبو، الدمية الورقية

الراقصة، يمتطون العربة مع أخي الساقط، تود كليفتون (تود، تود) يركضون ويراوغون قِوى التاريخ بدل أنْ يقفوا موقفاً مُهيمناً.

وصل قطار. تبعتهم إلى داخله. كان هناك العديد من المقاعد وجلس الثلاثة معاً. وقفتُ، متمسكاً بالعمود المركزي، أنظر نحو الأسفل إلى طول العربة. على الجانب رأيتُ راهبة بيضاء ترتدي السواد تحصي حبات مسبحتها، وأمام الباب عبر ممر بين المقاعد وقفتْ أخرى ترتدي البياض الكامل، في نسخة مُطابقة للأخرى ما عدا أنها كانت سوداء وقدماها السوداوان حافيتين. ولم تكن أيٌّ من الراهبتين تنظر إلى الأخرى بل إلى صليبها، وفجأة ضحكتُ وخطرتُ في بالي أبياتٌ من الشِعر كنتُ قد سمعتها قبل زمن بعيد في مرتع غولدن داي:

خبز وخمر،

خبز وخمر،

إنَّ صليبك ليس ثقيلاً

جداً كصليبي...

وبقيتِ الراهبتان على ما هما عليه برأسين مُنكّسين.

نظرتُ إلى الفتية. كانوا جالسين جلسة رسمية كما مشيتهما. وبين حين وآخر كان أحدهم ينظر إلى انعكاس صورته على النافذة وينقر حافة قبعته، والآخران يراقبانه في صمت، ويتواصلون بسخرية عبر عيونهم، ثم ينظرون أمامهم مباشرة. ترنّحتُ مع اندفاع القطار، شاعراً بالمراوح العلوية تنفثُ عليّ هواءً ساخناً. تساءلتُ، ماذا أنا بالنسبة إلى أولئك الفتية. لعلي حدثٌ طارئ، مثل دوغلاس. ربما كل مئة عام أو نحوه يظهر رجال مثلهم، ومثلي، في المجتمع، ينجرفون قُدُماً؛ ومع ذلك وَفقاً لمنطق التاريخ كله كان ينبغي علينا، عليّ، أنْ أختفي خلال الجزء الأول من القرن التاسع عشر، أنْ أُمحى من الوجود. ربما كنتُ، مثلهم، سلالة متأخرة، شِهاباً صغيراً بعيداً انطفأ قبل مئات السنين والآن أعيش بفضل الضوء المنطلق في الفضاء بسرعة فائقة بحيث لم يعُد أُحد يُدرِك أنَّ منشأه قد أضحى كتلة من الرصاص... ما أسخف هذه الأفكار. نظرتُ إلى الفتية؛ ضرب أحدهم بخفّة رُكبة آخر،

فرأيته يُخرِج مجلات ملفوفة من جيبه الداخلي، موزعاً اثنتين منها على الآخرَين ومُحتفظاً بواحدة لنفسه. تناول الآخران خاصتيهما في صمت وبدأوا يقرأون في استغراق تام. رفع أحدهم مجلته عالياً أمام وجهه ولبرهة من الزمن رأيت مشهداً حياً: سكة الحديد اللامعة، صنبور الحريق، رجل الشرطة الساقط، الطيور التي تغوص وعلى الأرض كليفتون، ينهار. ثم رأيتُ غلاف كتاب رسوم هزلية وفكّرتُ، كان كليفتون سيتعرّفُ عليها أفضل مني. كان دائماً يعرفها. رحتُ أتفحّصهم عن كثب إلى أنْ غادروا القطار، وأكتافهم تهتز، وأعقاب أقدامهم الثقيلة والمُصفّحة تبثُّ رسائل سرية، نائية خلال فترة الصمت الوجيزة من توقف القطار.

خرجت من القطار النفقي، ضعيفاً، أشقُّ طريقي وسط الحرّ كأنني أحمل حجراً ثقيلاً، وكأنني أحمل جبلاً على كتفيّ. وحذائي الجديد يؤلم قدميّ. والآن، وأنا أتغلغل بين الحشد على طول الشارع رقم 125، أعي بألمٍ وجود الرجال الآخرين الذين يرتدون ملابس فتية صِغار، وفتيات بجواربٍ قاتمة غريبة الألوان، وملابسهن تشكيلات سريالية من أزياء المدينة. لقد كانوا موجودين طوال الوقت، لكنني بصورة ما لم أرهم. لم أرهم حتى عندما كان عملي في أوج نجاحه. كانوا خارج روتين التاريخ، وكان عملي إدخالهم إليه، كلهم. نظرتُ في تركيبة وجوههم، كل واحد منهم كان يُشبه شخصاً عرفته هناك في الجنوب. وصدحت أسماءٌ منسيّة داخل رأسي كمشاهد منسية في أحلام. تحركتُ مع الحشد، والعرق يتصبّبُ مني، مُصغياً إلى هدير حركة المرور الطاحنة، وضجيج مُكبِّر الصوت في محل بيع الأسطوانات يزداد صخباً يبثُّ ألحان بلوز الواهنة. توقفت. هل هذا كل ما سيُسجَّل؟ أهذا هو التاريخ الحقيقي الوحيد للعصور، لحن على آلات الترومبيت، والترومبون، والساكسفون، والطبول، أغنية بكلمات طنّانة، غير وافية؟ وتدفقَ ذهني. وكأنني خلال تلك المسافة القصيرة اضطررتُ إلى المرور بكل مَنْ عرفته من دون أنْ يبتسم لي أي منهم أو يهتف باسمي. لم ينظر أي منهم في عينيّ مباشرة. ومشيتُ في عزلة محمومة. عند المنعطف اندفع اثنان من الفتيان من محل فايف أند تن بأقصى سرعة مع حفنة من قضبان الحلوى، وتسقط منهما على طول الرصيف في أثناء الركض ورجلٌ يركضُ في إثرهما مباشرة.

كانا قادمين نحوي، وتجاوزاني، وتغلّبتُ على حافز قوي لجعل الرجل يتعثّر واضطربتُ أكثر عندما مدّت امرأةٌ عجوز تقفُ على مسافة أمامي ساقها أمامه وانهالت عليه بحقيبتها الثقيلة. سقط الرجل، منزلقاً عبر الرصيف وهي تهزّ رأسها بانتصار. وأثقلَ كاهلي ضغط الإحساس بالذنب. وقفتُ على حافة الرصيف أراقبُ الحشد يُهدد بمهاجمة الرجل إلى أنْ ظهر رجل شرطة وفضَّ جمعهم. وعلى الرغم من علمي بأنَّه ليس في يد أحد أنْ يفعل أي شيء بهذا الشأن، شعرت بأنني المسؤول. إنَّ إنجازنا كله كان ضئيلاً جداً، لم يطرأ الكثير من التغيير. وكله خطأي. لقد فُتِنتُ بالحركة التي قمت بها ونسيتها لأقدِّر ما سيأتي. لقد كنتُ نائماً، أحلم.

-21-

عندما رجعتُ إلى المنطقة كفَّ جمعٌ صغير من الأعضاء الشبان عن المزاح لكي يُرحبوا بي، لكنني لم أستطع أنْ أزفّ إليهم النبأ. تابعت طريقي إلى غرفة المكتب مع إيماءة فقط، وأغلقت الباب درءاً لأصواتهم وجلستُ أحدِّقُ خلال الأشجار. الجزء الذي كان أخضر نضراً من الأشجار أصبح الآن قاتماً وينفق وفي مكان ما في الأسفل كان بائعٌ حبال غسيل جوّال يقرع جرسه ويُنادي. ثم، بينما كنتُ أقاوم هذا، تراءى لي المشهد من جديد – ليس مشهد الموت، بل الدُمى. تساءلتُ، لماذا فقدتُ صوابي وبصقتُ على الدمية. بمَ شعر كليفتون عندما رآني؟ لابد أنه كان يكرهني من خلف كلامه، ومع ذلك تجاهلني. نعم، وكان فرحاً بحماقتي السياسية. لقد فقدت السيطرة على أعصابي وتصرّفتُ بشكلٍ شخصيٍّ بدل أنْ أشجب مغزى الدُمى، هو، الفكرة الفاسقة، وانتهزتُ الفرصة لأُثقِّفَ الجمهور. لم نُضيِّع أية فرصة للتثقيف، وفشلت. كل ما فعلت هو أنني جعلتهم يضحكون بأعلى أصواتهم... لقد ساعدت التخلّف الاجتماعي وحرّضتُ عليه... لقد تغيَّر المشهد – انطرح تحت أشعة الشمس وهذه المرة شاهدتُ خيطاً ممتداً من الدخان خلّفته طائرةٌ تكتب على صفحة السماء، ووقفتِ امرأة ضخمة بثوب أخضر ضارب إلى الصُّفرة إلى جواري وقالت، «أوه، أوه!»...

التفتُّ وواجهت الخريطة، وأخرجت الدمية من جيبي ورميتها على طاولة المكتب. جاش بطني. ما أسخفَ أنْ نموت من أجل هذا الشيء! رفعتها مع إحساس بالقذارة، ونظرتُ إلى الورقة المُهذَّبة. القدمان الكرتونيتان المُثبّتتان بمفصل تتدليان، وتجذبان الساقين الورقيتين بتضاعيف مرنة، إنها تركيبة من مناديل الورق، والكرتون والصمغ. ومع ذلك شعرتُ بكراهية لها كأنها كائن

حيّ. ما الذي جعلها تبدو كأنها ترقص؟ كانت اليدان الكرتونيتان قد انطوتا وأصبحتا قبضتين، والأصابع مُحددة باللون البرتقالي، ولاحظتُ أنَّ لها وجهين، واحد على كلا جانبيّ القرص الكرتوني، وكلاهما يُكشِّر. وتناهى إليّ صوت كليفتون وهو يُلقي توجيهاته لها لترقص، أمسكتها من ساقها ومددتُ عنقها، فإذا بها تنهار وتنزلق إلى الأمام. حاولت من جديد، مُديراً وجهها الآخر. انتفضتْ بوهن، واهتزت وسقطت متكومة.

قلت، وأنا أمدها، «هيا، أمتعيني، كما أمتعتِ الجمهور»، وأدرتها. كان الوجهان يرسمان التكشيرة العريضة نفسها. كانت قد كشّرت لكليفتون كما كشّرت للجمهور، وكان استمتاعهم قد سبّبَ موته. كانت لا تزال تكشّر عندما لعبتُ دور الأحمق وبصقتُ عليها، وظلت تكشِّر عندما تجاهلني كليفتون. ثم رأيتُ خيطاً أسود دقيقاً فسحبته من الورقة المُهدَّبة. كانت هناك أنشوطة مُثبَّتة في الطرف. أدخلتها في إصبعي وأخذتُ أشدّها. وهذه المرة رقصتْ. كان كليفتون يجعلها ترقص طوال الوقت وكان الخيط الأسود غير مرئي.

تساءلت، ولِمَ لم تضربه؟ لمَ لم تُحاول أنْ تكسر فكّه؟ لِمَ لم تؤذه ومن ثم تنقذه؟ كان يمكن أنْ تفتعل شجاراً ويُلقى القبض عليكما كليكما من دون انْ يقع إطلاق رصاص... ولكن لِمَ قاوم رجل الشرطة في كل الأحوال؟ لقد سبق أنْ أُلقيَ القبض عليه؛ ويعرف إلى أي مدى يجب أنْ يتمادى مع رجل شرطة. ماذا قال الشرطي حتى أثار غضبه إلى درجة فقدان صوابه؟ وفجأة خطر لي أنه ربما غضبَ *قبل* أنْ يُقاوم، قبل حتى أنْ يرى الشرطي. وتسارعت أنفاسي؛ شعرت بالوهن. ماذا لو أنه صدَّقَ أنني ***حقاً*** خنت قومي؟ كانت فكرة تُثير الاشمئزاز. جلستُ أمسك نفسي وكأنما خشية أنْ أنكسر. ووزنت الفكرة برهة من الزمن، لكنها كانت أكبر من طاقتي. كان في استطاعتي أنْ أتقبّل مسؤولية الأحياء فقط، لا الأموات. وابتعد عقلي عن الفكرة. لقد كانت الحادثة سياسية الطابع. نظرتُ إلى الدمية، وفكرت. إنَّ المُعادل السياسي لمثل تلك التسلية هو الموت. لكنَّ هذا التعريف واسع جداً. وما مغزاه الاقتصادي؟ هو أنَّ حياة الإنسان تساوي بيع دمية تتألف من قطعتيّ ورق... لكنَّ هذا لم يقضِ على فكرة أنَّ غضبه ساعد في التعجيل في موته. ومع ذلك قاومها عقلي. إذ ماذا كان عليّ أنْ أفعل في الأزمة التي

قضتْ على نزاهته؟ ما كان عليّ أنْ أفعل منذ البداية بخصوص بيعه الدُمى؟ وأخيراً اضطررتُ إلى التخلي عن هذا أيضاً. فأنا لست مُحققاً، ومن الناحية السياسية، الأفراد لا معنى لهم. والآن لم يتبقَّ منه إلا عملية إطلاق النار، لقد اختار كليفتون أنْ يغوص خارج مسار التاريخ، وفيما عدا الصورة التي انطبعت في ذهني، لم تُسجَّل إلا عملية الغوص، وكان ذاك هو الشيء الأهمّ.

جلستُ ساكناً، كأنني أنتظر أنْ أسمع من جديد الانفجارات، أقاوم الثقل الذي يجرّني إلى أسفل. وسمعت جرس بائع حبال الغسيل الجوّال... ماذا سأقول لأعضاء اللجنة عندما تظهر التفاصيل في الصحيفة؟ فليذهبوا إلى الجحيم. كيف سأشرح أمر الدُمى؟ ولكن هل ينبغي أنْ أقول أي شيء؟ ماذا يمكن أنْ نفعل للدفاع عن أنفسنا. هذا شيء **يجب** أنْ أقلق بشأنه. وقرع الجرس من جديد في الفناء في الأسفل. نظرتُ إلى الدمية. لم يخطر في بالي أي تبرير لقيام كليفتون ببيع الدُمى، ولكن كان هناك تبرير كافٍ لإعداد جنازة عامة، وتمسّكت بالفكرة وكأنَّ حياتي متوقفة عليها. على الرغم من رغبتي في طرحها جانباً كرغبتي في إشاحة وجهي عن جثة كليفتون المُسجّاة على الرصيف. لكنَّ الظروف التي عاكستنا كانت كبيرة جداً أمام مثل ذلك الضعف. واضطررنا إلى استخدام كل سلاح سياسي فعّال ضدها؛ وقد فهم كليفتون ذلك. كان ينبغي أنْ يُدفَن ولم أكنْ أعرف أياً من أقاربه؛ وينبغي أنْ يحضر أحد عملية الدفن. نعم، كانت الدُمى شيئاً فاحشاً وتصرفه خيانة. لكنه كان مجرد بائع جوال، وليس المُخترِع، وكان ضرورياً أنْ نُعلن أنَّ مغزى موته أعظم من الحادثة أو من مُسبّبها. وكلاهما بمنزلة وسيلة للانتقام له أو لمنع وقوع ميتات مماثلة... نعم، ولجذب الأعضاء الضالين وإعادتهم إلى مراكزهم. سيكون ذلك أمراً قاسياً، لكنها قسوة في مصلحة الأخويّة، إذ إننا لا نملك إلا عقولنا وأجسادنا نواجه بها قوة الجانب المقابل الهائلة. ويجب أنْ نُحسِن استغلال ما لدينا. ذلك أنّه كان لديهم القُدرة على استغلال دمية من ورق، أولاً لتدمير نزاهته ومن ثم كمُبرِّر لقتله. حسن، إذن سوف نستغل جنازته من أجل إعادة نزاهته إلى نِصابها... ذلك أنها كانت كل ما يملك أو يرغب فيه. والآن أصبحت أرى الدمية بغموض وثمة قطرات من الرطوبة تسقط على ورقتها المُشبَّعة...

انحنيتُ، مُحدّقاً، وإذا بي أسمع قرعاً على الباب فقفزتُ كأنني سمعتُ طلقاً نارياً، واضعاً الدمية إلى جيبي، ومسحتُ عينيّ على عجل.

قلت «ادخل»

فُتِح الباب ببطء. تجمَّعَ رهطٌ من الأعضاء الشبان متقدمين، وعلى وجوههم سؤال. وكانت الفتيات يبكين.

قالوا «أصحيح ما سمعنا؟»

قلت، وأنا أنظر إليهم، «أنه مات؟ نعم»

«ولكن لماذا...؟»

قلت، وقد بدأتْ مشاعري تتحول إلى غضب، «كانت قضية استفزاز وجريمة قتل!»

وقفوا هناك، ووجوههم تسألني.

قالت إحدى الفتيات، بصوت خال من الاقتناع، «لقد مات، مات!»

قال شاب طويل «ولكن ماذا يعنون بأنه كان يبيع الدُمى؟»

قلت «لا أعلم، كل ما أعرف هو أنَّه أُردي قتيلاً. وهو أعزل. أنا أُقدِّر مشاعركم، لقد رأيته يسقط»

صرخت فتاة «أعيدوني إلى الوطن، أعيدوني إلى الوطن!»

خطوتُ إلى الأمام وأمسكتُ بها، كانت مخلوقاً صغيراً أسمر يرتدي جورباً قصيراً، وضممتها إليّ. قلت «كلا، لا نستطيع أنْ نعود إلى الوطن. لا أحد منا يستطيع. يجب أنْ نقاتل. أودّ أنْ أخرج إلى الهواء الطلق وأنسى الأمر، لو أنَّ ذلك في استطاعتي. إنَّ ما نريد ليس الدموع بل الغضب. ويجب أنْ نتذكّر الآن أننا مقاتلون، وفي مثل هذه الأحداث علينا أنْ نفهم مغزى كفاحنا. يجب أنْ نرد الصاع صاعين. أريد من كل واحد منكم أنْ يجمع كل ما في استطاعته من أعضاء. يجب أنْ نُعدّ لإعطاء جوابنا»

عندما خرجوا كانت إحدى الفتيات لا تزال تبكي بصورة تُثير الشفقة، لكنهم كانوا مُسرعين في حركتهم.

قالوا، وهم يأخذون الفتاة عن كتفي، «هيا بنا، شيرلي»

حاولتُ أنْ أتصل بالإدارة، ولكن من جديد لم أتمكن من التواصُل

مع أي عضو فيها. واتصلت بمركز «العالم السفلي» ولكني لم ألقَ جواباً. فاتصلتُ بكبار قادة لجنة المنطقة وتقدّمنا وحدنا ببطء. حاولتُ أنْ أعثر على الشاب الذي كان برفقة كليفتون، لكنه كان قد اختفى. وانتشر الأعضاء في الشوارع من أجل استعطاء المعونة المالية لإجراء جنازته. توجهت ثلاثة من نسوة اللجنة إلى المشرحة ليُطالبن بالجثة. ووزعنا منشورات ممهورة بشريط أسود، ندينُ فيها مبعوث الشرطة. وأُبلِغَ الوعّاظ بوجوب تحميل أفراد رعيتهم رسائل احتجاج إلى المُحافِظ. وانتشرت القصة. وأُرسِلَتْ صورة فوتوغرافية لكليفتون إلى الصحف الزنجية ونُشِرَت فيها. وتململ الناس وغضبوا. ونُظِّمَت اجتماعات الشوارع. وقلتُ كل ما في جعبتي من أجل إعداد الجنازة، وإنْ كنتُ أتحرك بما يُشبه التوقُّع الحذِر. لم أحظ بأي قدر من النوم على مدى يومين وليلتين، لكنني كنتُ أغفو قليلاً على طاولة مكتبي. ولم أكد آكل شيئاً.

أُعدَّت الجنازة بحيث تجذب أكبر عدد ممكن من الناس. وبدل إقامتها في كنيسة أو مصلًّى، اخترنا متنزه مونت موريس، ووُزِّعَ نداء يطلب من الأعضاء السابقين أنْ يجتمعوا من أجل موكب الجنازة.

جرى الأمر في يوم سبت، في حرّ بعد الظهيرة. كان غطاءٌ رقيقٌ من السحب يُغطي السماء، وتجمّعَ مئات الأشخاص من أجل الموكب. وأخذتُ أتنقّل وأُعطي الأوامر وأبثّ الشجاعة في ذهول محموم، ومع ذلك شعرتُ كأنني أراقب كل شيء من طرف قصيّ. ووصل إخوة وأخوات لم أكن قد رأيتُ أياً منهم منذ عودتي. وأعضاء من قلب المدينة والمناطق البعيدة. تابعتهم بدهشة وهم يتجمعون وتساءلت عن مدى عمق حزنهم مع بدء تشكُّل الطوابير.

كانت هناك أعلام شبه مُجعّدة ورايات سوداء، ولافتات ممهورة بالسواد تقول:

الأخ تود كليفتون

أملنا الذي صُرِع

وكان هناك فرقة مُستأجَرة من قارعي الطبول. وفرقة موسيقية مع ثلاثين آلة عزف. ولم تكن هناك سيارات وقليل من الأزهار.

كان موكباً بطيء التقدُّم وعزفت الفرقة الموسيقية ألحاناً حزينة، ورومانسية ومارشات عسكرية. وعندما سكتت بدأتْ فرقة الطبول تقرع إيقاع الخطوة على طبول بعصي مكتومة. كان الجو حاراً حتى الانفجار، وتجنب عمال التوصيل المرور من المنطقة وزاد عدد مفارز رجال الشرطة. وكان الناس على طول الشوارع يُطلون من نوافذ بيوتهم ويقف الرجال والأولاد على الأسطح تحت أشعة الشمس من خلال الغلالة الرقيقة. مشيتُ على رأس قادة المجتمع القدامى. كانت مسيرة بطيئة وعندما كنتُ أنظر خلفي بين حين وآخر أرى مرتدين بذلات الزوت، وأناساً عاديين، ورجالاً بزي العمل ومقامرين مدمنين ينضمون إلى الموكب. وكان رجال يخرجون من دكاكين الحلاقين والصابون لا يزال على ذقونهم، وغطاء العنق يتدلى عليهم، لكي يُتابعوا المشهد ويعلّقوا بأصوات هامسة. وتساءلتُ، هل جميعهم من أصدقاء كليفتون، أم فقط حباً في الظهور، وفي الموسيقى البطيئة؟ هبّت ريح حارة من خلفي، جالبة معها أعذب عبق عليل، كرائحة أناث كلاب مستعدة للتزاوج.

نظرتُ خلفي. كانت الشمس تشرق على حشد من الرؤوس المُعتمرة، وفوق الأعلام والرايات والقرون المشرقة رأيتُ التابوت الرمادي الرخيص مرفوعاً عالياً على أكتاف أطول رفاق كليفتون قامة، الذين كانوا بين فينة وأخرى ينقلونه بسلاسة إلى الأكتاف الأخرى. حملوه عالياً وبفخر وفي عيونهم حزن غاضب. وطفا التابوت كسفينة مُثقلة بحملها تمخر قنالاً ببطء من فوق الرؤوس المنحنية والغائصة. وسمعتُ القرع الثابت على طبول مطوَّقة مكتومة، أما باقي الأصوات فخيَّم عليها الصمت. وإلى الخلف، كان وطء الأقدام؛ وإلى الأمام، كانت الحشود تصطف على طول حافة الرصيف وعلى طول عدد من الأبنية. وكان هناك بكاء ونشيج مكتوم والعديد من العيون الحمراء، القاسية. ومشينا قُدُماً.

في أول الأمر مررنا بأشدّ الشوارع فقراً، تمثّل صورة سوداء للحزن، ثم انعطفنا إلى الجادة السابعة ومنها إلى لينكس. ثم هرعتُ بصحبة الإخوة

القادة إلى المتنزه بسيارة أجرة. كان أحد الإخوة قد أنشأ برجاً للمراقبة في بارك ديبارتمنت، ومدَّ رصيفاً ارتجالياً من ألواح الخشب ووضع أحصنة نشر تحت الجرس الحديدي الأسود، وعندما بدأ الموكب بولوج المتنزه كنا واقفين عالياً، ننتظر. وحالما أعطينا الإشارة أخذ يقرع الجرس، وشعرت بطبلتيّ أُذنيّ تنبضان بفعل القرع القديم، الضاجّ الذي يهزّ الأحشاء.

عندما نظرتُ أسفل رأيتهم يتقدمون على وقع الطبول المكتوم. وتوقف الأطفال عن لعبهم على بقعة من العشب ليتفرجوا، وخرجت راهبات من مستشفى قريب إلى السطح ليتابعن، وملابسهن البيضاء تتوهج تحت شمس أماطت لثامها كأزهار السوسن. واقتربت حشودٌ من المتنزه من الجهات كلها. كانت الطبول مكتومة الصوت حينئذ تارة تقرع بانتظام، وتارة أخرى ترسل ربتاً متواصلاً، ناشرة صمت الموتى في الجو، كصلاة على روح الجندي المجهول. وعندما نظرتُ نحو الأسفل شعرتُ بالضياع. ماذا يفعلون هنا؟ كيف عثروا علينا؟ ألأنهم كانوا يعرفون كليفتون؟ أم لأنّ مناسبة موته منحتهم فرصةً للتعبير عن احتجاجاتهم، وزماناً ومكاناً ليتجمعوا، ليقفوا ويتلامسوا ويتصببوا عرقاً ويتنفسوا وينظروا في اتجاه واحد؟ هل أي من التفسيرين كافٍ بحد ذاته؟ هل هذا يدل على الحب أم على الكراهية المسيَّسة؟ وهل في استطاعة السياسة أنْ تكون أبداً تعبيراً عن الحب؟

انتشر الصمت فوق المتنزه بفعل الربت المكتوم على الطبول، وطغى على سحق وطء الأقدام على الأرصفة. ثم في موقع ما من الموكب ارتفع صوت رجل عجوز، حزين، ذكوريّ، في أغنية، تتماوج، تتعثّر في الصمت، وحده في أول الأمر، إلى أنْ أخذت آلة بوق رخيم في الفرقة الموسيقية تبحث عن المقام الموسيقي ثم ملأتِ الجو، ويتناوبان في الارتفاع ثم يتبعه الآخر، كحمامتين سوداوين فوق مخزن حبوب ناصع البياض تهبطان وترتفعان في الهواء الأزرق، الساكن. وبعد عزف بضع نغمات اجتمع عزف البوق الصافي والعذب مع غناء الرجل العجوز الجهوري الأجش في ثُنائية وسط الصمت الثقيل الحارّ. «كم من آلاف رحلوا». تصارع شيء في حنجرتي وأنا واقف هناك عالياً في المتنزه. كانت أغنية من الماضي، ماضي الجامعة والماضي الأبعد في الوطن. ثم انضم إليهما بعض العجائز من الجمع. لم أكن قبل

ذلك قد فكّرت في أنْ تتحول المناسبة إلى مسيرة، أما الآن فكانوا يمشون على وقع الإيقاع البطيء، نحو أعلى التل. رحتُ أفتش عن عازف البوق فرأيتُ رجلاً أسود نحيلاً ذا وجه مرفوع باتجاه الشمس، يُغني عبر أجراس البوق المقلوبة رأساً على عقب. وإلى الخلف ببضع ياردات، وأنا أسير بجوار الشبان الذين يرفعون التابوت عالياً، نظرتُ في وجه العجوز الذي صدح بالأغنية وشعرت بوخز الحسد. كان وجهاً عجوزاً، مُتعباً وشاحباً، مُغمض العينين ورأيتُ ندب حزّ سكين حول عنقه المرفوع عالياً بينما حنجرته تُطلقُ الأغنية. كان يُغني بكامل جسمه، يُعبِّر عن كل بيت فطرياً وهو يمشي، وصوته يرتفع فوق الأصوات الأخرى كلها، ممتزجاً مع عزف البوق الصافي. راقبته، بعينين مُخضلّتين، وأشعة الشمس الحارة تحطّ على رأسي، وبُهرتُ من غناء الجمع. وكأنَّ الأغنية كانت هناك طوال الوقت وكان هو يعلم بذلك وعمل على استنهاضها؛ وكنتُ متيقناً من أنني أيضاً أعرفها وفشلتُ في غنائها جراء إحساس مُبهم، ومجهول بالخجل أو بالخوف. أما هو فعرفها وأطلقها. حتى الإخوة والأخوات من البيض انضموا إليها. نظرتُ إلى وجهه مباشرة، أحاول أنْ أسبر سرّه، لكنه لم يُخبرني أي شيء. نظرتُ إلى التابوت وإلى السائرين، أصغيتُ إليهم، لكنني أدركتُ أنني كنتُ أُصغي إلى شيء في داخلي، وسمعت برهة من الزمن ضرب قلبي القاتل. ثمة شيء عميق هزَّ الجمهور، والعجوز وعازف البوق هما اللذان أثاراه. لقد نقرا على وترٍ أعمق من الاحتجاج، أو من الدِين؛ لكنَّ صوراً للقاءات الكنيسة طوال حياتي تصاعدت حينئذٍ داخلي مع الكثير من الغضب المكبوت والمنسي. لكنَّها من الماضي، والعديد ممَّن كانوا يبلغون قمة الجبل الآن وينتشرون معاً لم يتقاسموها، وبعضهم وُلِدوا في بلاد أخرى. ومع ذلك تأثّر الجميع؛ لقد استنهضتهم الأغنية جميعاً. ليست الكلمات ما فعل ذلك، لأنها كلها كانت الكلمات نفسها التي نشأت من عهد العبودية؛ وكأنه غيَّر العواطف الكامنة تحت الكلمات بينما مشاعر الاشتياق، المُستسلِمة، المتسامية القديمة كانت لا تزال تصدح فوقها، وقد تعمّقتِ الآن بذلك الشيء الذي بسببه لم تمنحني نظرية الأخويّة اسماً. وقفتُ هناك أحاول أنْ أستوعب ذلك وهم يُدخِلون تابوت تود كليفتون إلى البرج ويرتقون به الدّرَج اللولبي ببطء. ووضعوه

على المنصة ونظرتُ إلى شكل التابوت الرمادي الرخيص وكل ما تذكّرت كان رنين اسمه.

كانت الأغنية قد انتهت. كانت قمة الجبل الصغير تعجّ بالرايات، وبالأبواق وبالوجوه المرفوعة عالياً. كان في استطاعتي أنْ أنظر مباشرة من الجادة الخامسة وحتى الشارع رقم 125، حيث رجال الشرطة يصطفون خلف مجموعة من عربات بيع السجق وعربات بيع المثلجات؛ وبين العربات رأيتُ بائع فول سوداني واقفاً تحت مصباح شارع تجمّع فوقه الحمام، ثم رأيتُه يمدّ ذراعيه وراحتاهما مقلوبتان نحو الأعلى، وفجأة أصبحَ مكسواً، رأسه، وكتفاه وذراعاه الممدودتان، بالطيور المُرفرفة، وأخذت تأكل.

لكزني أحدهم فأجفلت. لقد حان وقت إلقاء الكلمات الختامية. ولكن لم يكن لدي أية كلمات ولم أكُ قد ارتدتُ أية جنازة في الأخوية وليست لدي أية فكرة عن المراسم. لكنهم كانوا ينتظرون. وقفت هناك وحدي؛ لم يكن هناك مايكروفون ليدعمني، أمامي فقط التابوت على ظهور أحصنة النجّار المتذبذبة.

نظرتُ إلى الأسفل إلى وجوههم التي تجتاحها أشعة الشمس، أفتّشُ عن الكلمات، شاعراً بعقم كل شيء وبالغضب. من أجل هذا تجمعوا بالآلاف. ماذا ينتظرون أنْ يسمعوا؟ لماذا أتوا؟ لأي سبب آخر يختلف عن ذاك الذي كان قد أثار الفتى أحمر الوجنتين عندما سقط كليفتون على الأرض؟ ماذا أرادوا وماذا في استطاعتهم أنْ يفعلوا؟ لِمَ لم يأتوا عندما كان في استطاعتهم أنْ يوقفوا الأمر كله؟

فجأة هتفتُ، وموجات صوتي الغريبة تسري في الهواء الساكن، «ماذا تنتظرون مني أنْ أقول لكم؟ بمَ سيفيد ذلك؟ ماذا لو قلت إنَّ هذه ليست جنازة، وإنها احتفال في يوم عطلة، إنه إذا بقيتم هنا فسوف ينتهي الأمر بالفرقة الموسيقية إلى عزف «اللعنة، المرح يعمّ المكان»؟ أم هل تتوقعون أنْ تشاهدوا بعض ألعاب السِحر، كأنْ يستيقظ الموتى ويعودوا إلى السير من جديد؟ اذهبوا إلى بيوتكم، لقد مات وانتهى. هذه هي النهاية في البداية ولا مجال للإعادة. ليست هناك معجزات ولا يوجد أحد هنا يُلقي موعظة.

اذهبوا إلى بيوتكم، انسوه. إنه داخل هذا التابوت، مات حديثاً. اذهبوا إلى بيوتكم ولا تفكروا فيه. لقد مات ولديكم كل ما يُبرر أنْ تفكروا في أنفسكم».
وصمتُّ. كانوا يتهامسون ويرفعون أبصارهم إلى أعلى.

هتفت «قلت لكم تستطيعون أنْ تعودوا إلى بيوتكم، ولكنكم ما زلتم واقفين. ألا تعلمون أنَّ الجوّ حارّ هنا تحت الشمس؟ فماذا لو أنّكم تنتظرون الشيء القليل الذي أستطيع أنْ أخبركم به؟ هل أستطيع أنْ أقول في غضون عشرين دقيقة ما بُنيَ على مدى واحد وعشرين عاماً وانتهى في عشرين ثانية؟ ماذا تنتظرون، في وقتٍ كل ما أستطيع أنْ أخبركم به هو اسمه؟ وعندما أخبركم، ماذا ستعرفون أكثر مما عرفتم أصلاً، اللهم ما عدا اسمه؟»

كانوا يُصغون بانتباه، وكأنهم لا ينظرون إليّ، بل إلى منظومة صوتي مع الهواء.

«حسن، أصغوا أنتم تحت أشعة الشمس، وأنا سأجرّب أنْ أتكلّم تحت أشعة الشمس. ثم اذهبوا إلى بيوتكم وانسوا الأمر. انسوه. لقد كان اسمه كليفتون وأردوه قتيلاً. كان اسمه كليفتون وكان طويل القامة والبعض اعتبره وسيماً. وعلى الرغم من أنه لم يصدّق ذلك، فإنني أعتقد أنه كان كذلك. كان اسمه كليفتون وكان وجهه أسود وكان شَعره كثيفاً مع التفافات مشدودة – أو سمّوها زآبير أو فتائل. لقد مات، غير مُبال، والأمر لا يهم، إلا بعض الفتيات الصغيرات... هل فهمتم؟ أترونه؟ فكّروا في أخٍ لكم، أو في ابن العم جون. كانت شفتاه غليظتين مع انحناء عند الزاويتين نحو الأعلى، وكان له قلب. كان يفكّر في الأشياء ويشعر بعمق. أنا لا أسمّيه نبيلاً إذ ما دخل هذه الكلمة بأي منا؟ كان اسمه كليفتون، تود كليفتون، وكأي رجل، ولِدَ من امرأة لكي يعيش فترة قصيرة ثم يُردى قتيلاً. وهذه هي قصته حتى هذه الدقيقة. كان اسمه كليفتون وعاش بيننا فترة قصيرة وأنعشَ بعض الآمال في الرجولة الشابة للرجل، ونحن الذين عرفناه أحببناه وقد مات. فماذا تنتظرون؟ ها قد سمعتم كل شيء. فلِمَ تنتظرون المزيد، في حين أنَّ كل ما لدي هو تكرار ما قلت؟»

ظلوا واقفين؛ يُصغون. لا تندّ عنهم أية إشارة.

«حسن جداً، سوف أخبركم. كان اسمه كليفتون وكان شاباً وقائداً وعندما

سقط صريعاً كان هناك ثقب في كاحل جوربه وعندما ارتمى على وجهه لم يبدُ طويلاً كما وهو منتصب القامة. وهكذا مات؛ ونحن الذين أحببناه تجمّعنا هنا لنعبِّر عن حزننا عليه. الأمر بهذه البساطة والاقتضاب. كان اسمه كليفتون وكان أسود البشرة وأطلقوا النار عليه. ألا يكفي هكذا عنه؟ أليس هذا كل ما تحتاجون إلى معرفته؟ ألا يكفي هذا ليُطفئ ظمأكم إلى الدراما ويُعيدكم إلى منازلكم وتستغرقوا في نوم هانئ؟ اذهبوا وتناولوا مشروباً وانسوا الأمر. أو اقرأوا الخبر في صحيفة *ديلي نيوز*. كان اسمه كليفتون وأطلقوا النار عليه، وكنتُ حاضراً لأراه وهو يسقط. لذلك أعرف ما جرى ورأيته بأم عيني.

«وإليكم الحقائق. كان واقفاً وسقط. سقط وركع. ركع ونزف. نزف ومات. سقط كتلة واحدة كأي رجل وأُريقَ دمه كأي دم آخر؛ *أحمر* كأي دم، رطباً كأي دم ويعكس صورة السماء والأبنية والطيور والأشجار، أو وجهك إنْ كنتَ تنظر إلى مرآته المُعتمة - وجفّ في الشمس كما يجفّ الدم. هذا كل شيء. أراقوا دمه ونزف. أردوه ومات؛ تدفّق الدم على الرصيف وشكّل بركة، لمعَ برهة، وبعد قليل أصبح راكداً ثم مُغبرّاً؛ ثم جفّ. هذه هي القصة وهكذا انتهت. إنها قصة قديمة وفيها الكثير من الدماء لإثارتكم. ثم، إنه ليس مهماً إلا إذا كان يملأ أوردة الكائن البشري. ألم تملّوا مثل هذه القصص؟ ألم تشمئزوا من ذِكر الدماء؟ إذن لِمَ تُصغون، لِمَ لا ترحلون؟ الجو حارٌ هنا. ويفوح عبق سائل التحنيط. والبيرة باردة في الحانات، وسوف يكون عزف الساكسيفون رخيّاً في سافوي؛ وسوف تدور الأكاذيب المُضحكة في محال الحلاقة وصالونات التجميل؛ وسوف تُلقى مواعظ في مئة كنيسة في بردة المساء، وسوف يكون هناك ضحك كثير في دور السينما. اذهبوا واصغوا إلى «آموس وآندي» وانسوا ما حدث. هنا ليس لديكم إلا القصة القديمة نفسها. بل لا يوجد هنا حتى زوجة شابة ترتدي الأحمر حِداداً عليه. لا شيء هنا يُثير الشفقة، لا أحد ينهار ويصرخ. لا شيء يمنحكم ذلك الشعور القديم الجيد والمُخيف. إنَّ القصة بالغة القِصَر وشديدة البساطة. كان اسمه كليفتون، تود كليفتون، كان أعزل وكان موته بلا معنى وكانت حياته عقيمة. كافحَ من أجل الأخويّة عند عدد من منعطفات الشوارع واعتقد أنَّ ذلك سيجعل منه إنساناً أفضل، لكنه مات في الشارع كأي كلب.

هتفت، شاعراً باليأس، «حسن، حسن». لم يجرِ الأمر كما أردت له، لم يكن سياسياً. ربما ما كان للأخ جاك أنْ يُحبّذه على الإطلاق، ولكنني كنتُ مُضطراً إلى المتابعة قدر ما أستطيع.

هتفتُ «أصغوا إليّ وأنا أقفُ على ما يُسمّى بالجبل! دعوني أخبركم حقيقة ما حدث! كان اسمه تود كليفتون وكان ممتلئاً بالأوهام. لقد اعتقد أنه رجل في حين أنه كان مجرد تود كليفتون. أُطلِقَ عليه الرصاص لمجرد خطأ في الحُكم ونزف وجفَّ دمه وسرعان ما وطئ الحشد على بقع الدم. لقد كان خطأ عادياً عديدٌ من الأشخاص مذنبون بارتكابه: ظنَّ أنه رجل والرجال لا يُضطهَدون. لكنَّ الجوّ حارٌ في قلب المدينة ونسيَ تاريخه، نسي الزمان والمكان. لقد فقد سيطرته على الواقع. كان هناك شرطي وجمهور ينتظر لكنه كان تود كليفتون والشرطة منتشرة في كل مكان. الشرطة؟ وماذا عنه؟ هو كان شرطياً. مواطناً صالحاً. لكنَّ هذا الشرطي كان له إصبع متلهِّفة وأُذن مشتاقة لسماع كلمة على إيقاع كلمة «مقداح»، وعندما سقط كليفتون عثر عليها. فرقة الشرطة الخاصة ردّدت أبيات الأغنية واكتمل الإيقاع. فقط انظروا حولكم. انظروا إلى إنجازه، انظروا إلى داخلكم واشعروا بطاقته الهائلة. لقد كانت فطريّة مثاليّة. لقد جرى الدم كما لو أنَّ القتل حصل في مجلة هزليّة، في شارعٍ في مجلة هزلية في بلدةٍ في مجلة هزلية في يومٍ في مجلة هزلية في عالم مجلة هزلية.

«إنَّ تود كليفتون متّحد مع العصور. ولكن ما دخل هذا بكم وسط هذا الحرّ تحت هذه السماء التي تغطيها غلالة؟ الآن أصبح جزءاً من التاريخ، وحظيَ بحريته الحقّة. ألم يخطّوا اسمه على مجموعة من الورق ذي الحجم القياسي؟ عِرقه: ملوّن! ديانته: مجهولة، ربما وُلِدَ مُعمَّداً. مكان الولادة: الولايات المتحدة. في بلدة جنوبية. أقرباؤه «مجهولون. عنوانه: مجهول. عمله: عاطل. سبب الموت (بدقّة): مقاومة الواقع على شكل مسدس عيار طلقته 38 بيديّ ضابط إلقاء القبض، في الشارع الثاني والأربعين بين المكتبة العامة والنفق في حرّ بعد الظهيرة، مات متأثراً بجراح سبّبتها ثلاث طلقات، أُطلِقَتْ من مسافة ثلاث خطوات، واحدة دخلتْ بُطين القلب الأيمن، واستقرّت هناك، والأخرى سدّت العقدة الشوكيّة وانتقلت نحو الأسفل

لتستقرّ في الحوض، والأخرى اخترقت الظهر وانتقلتْ إلى حيث لا يعلم إلّا الله.

«هكذا كانت حياة الأخ تود كليفتون القصيرة والمريرة. والآن هو يرقد في هذا التابوت والبراغي شُدَّتْ. إنه في التابوت ونحن معه في الداخل، وبعد أنْ أخبرتكم هذا يمكنكم أنْ ترحلوا. لقد حلَّ الظلام في هذا التابوت وأصبح مزدحماً. إنَّ سقفه متصدِّع وهناك مرحاض مسدود في الرواق. فيه جرذان وصراصير، والسُكنى فيه مُكلِفة جداً جداً. والهواء فاسد وسوف يكون الجو شديد البرودة هذا الشتاء. إنَّ تود كليفتون مُزدحم ويحتاج إلى الحيِّز. «اطلب منهم أنْ يخرجوا من التابوت» هذا ما سيقول لو أنَّ في استطاعتكم أنْ تسمعوه. «اطلبْ منهم أنْ يخرجوا من التابوت ويذهبوا ليعلِّموا رجال الشرطة أنْ ينسوا تلك الأغنية. اطلبْ منهم أنْ يُعلِّموهم أنهم عندما يصفونكم بالزنوج (***nigger***) لكي تتوافق مع كلمة مقداح (***trigger***) إنما يجعلون المسدس يُطلِق النار عليهم»

«ها قد حصلتم على القصة. في غضون بضع ساعات سوف يُصبح كليفتون عِظاماً باردة في باطن الأرض. ولا تنخدعوا، لأنَّ تلك العِظام لن تنهض من جديد. سوف نبقى أنتم وأنا في التابوت. لا أدري إنْ كان لتود كليفتون روح. كل ما أعرف هو الألم الذي أشعر به في قلبي، إحساسي بالخسارة. لا أعلم إنْ كان لديكم روح. كل ما أعرف أنكم أناس من لحم ودم؛ وذلك الدم سوف يُراق واللحم سوف يبرد. ولا أدري إنْ كان رجال الشرطة شُعراء، لكنني أعرف أنَّ رجال الشرطة كلهم يحملون مسدسات لها مقادِح؛ اذهبوا إلى بيوتكم، ابقوا هادئين، وآمنين بعيداً عن أشعة الشمس. انسوه. عندما كان حياً كان أملنا، ولكن لِمَ نقلق على أملٍ مات؟ لذلك لم يتبقّ إلا شيء واحد أُخبركم به وقد قلته تواً. كان اسمه تود كليفتون، وآمن بالأخويّة، واستنهضَ آمالنا ومات»

لم أتمكن من المتابعة. في الأسفل، كانوا ينتظرون، يُظللون عيونهم بأيديهم وبالمناديل. ارتقى واعظ المنصة وقرأ شيئاً من الكتاب المقدَّس، ووقفتُ أنظر إلى الحشد مع إحساس بالفشل. لقد أخرجتُ ما عندي، وعجزتُ عن إثارة القضية السياسية. وقفوا هناك تضربهم أشعة الشمس

ويغسلهم العرق، يُصغون إليّ وأنا أُكرر ما كان معروفاً. كان الواعظ قد انتهى، وأشار أحدهم إلى قائد الفرقة الموسيقية فانبعثت موسيقى رصينة بينما حاملو بساط الرحمة يحملون التابوت ويهبطون الدّرَج اللولبي. وقف الحشد بسكون بينما كنا نشق طريقنا ببطء. شعرتُ بضخامة المناسبة وبمدى كونها مجهولة وبالتوتُّر المكبوت – لم أعلم إنْ كان من الدموع أو من الغضب. لكننا واصلنا هبوط أسفل التل إلى عربة الموتى، كنتُ أشعر بها. تصبّب الحشد بالعرق وأخذ يلهث، وعلى الرغم من الصمت السائد، فإنه كان هناك أشياء عديدة كانت توجَّه إليّ من خلال عيونهم. وعلى حافة الرصيف كانت عربة الموتى تتوقف مع بضع سيارات، وفي غضون بضع دقائق حمّلوه وكان الحشد لا يزال واقفاً، يُتابع النظر ونحن نبتعد بتود كليفتون. وعندما ألقيتُ نظرة أخيرة لم أرَ حشداً بل مجموعة من وجوه أفراد من الرجال والنساء.

ابتعدنا إلى أنْ توقفت السيارات عن الحركة أمام قبر فوضعناه فيه. تصبّب العرق من حفّاري القبور بغزارة وكانوا يُحسنون عملهم وكانت لكنتهم أيرلندية. ثم ردموا القبر بسرعة وغادروا. وأصبح تود كليفتون تحت التراب.

رجعت من خلال الشوارع مُتعباً كأنني كنتُ أحفر القبر بنفسي وحدي. كنتُ مُشوَّشاً وفاتر الهمّة أشقّ طريقي بين حشودٍ بدتْ كأنها تغلي وهي تسير داخل ما يُشبه الضباب، وكأنَّ الغيوم الرقيقة المُشبّعة بالرطوبة قد تكثّفتْ واستقرتْ مباشرة فوق رؤوسهم. أردتُ أنْ أذهب إلى مكان ما، إلى مكان بارد لأرتاح من دون أنْ أفكّر، ولكن كان لا يزال أمامي الكثير من العمل يتطلّب الإنجاز؛ خُططٌ يجب وضعها؛ ومشاعر جماهير يجب تنظيمها. تقدمت ببطء، أمشي المشية الجنوبية في الطقس الجنوبيّ، مُغمِضاً عينيّ بين وقت وآخر في وجه ألوان القمصان الرياضية والأثواب الصيفية المُبهرة الحمراء، والصفراء والخضراء. وزاد غليان الحشد، وتعرّقه، وجيشانه؛ نساء حاملات أكياس التبضُّع، ورجال بأحذية شديدة اللمعان. حتى هناك في الجنوب كانوا يُلمّعون أحذيتهم. ورنّت في أُذني عبارة «أحذية مُلمّعة، ولمعان أحذية». في الجادة الثامنة، كانت عربات السوق متوقفة صفاً واحداً على طول حافة الرصيف، مع مظلات مرتجلة تُظلل الفاكهة والخضروات الذابلة. وشممت

رائحة عفونة ملفوف متحلل. وثمة بائع بطيخ جوّال يقف في الظل بجوار شاحنته، رافعاً شريحة كبيرة من البطيخ البرتقالي اللون، ينادي على بضاعته بهتاف أجشّ يُثير الحنين إلى الوطن، وإلى ذكريات الطفولة، ومظلة خضراء وبرودة الصيف. وكانت ثمار برتقال، وجوز هند وأفوكاتو مُرتّبة بأناقة على طاولات صغيرة. تجاوزتها، شاقاً طريقي خلال الحشد الذي يتقدّم ببطء. وأزهار بائتة ذابلة، تنبذُ مركز المدينة، تتوهج ساطعة على عربة، كقطع رائعة تفسُد تحت رذاذ عقيم من وعاء عصير فاكهة مثقوب. كان الحشد أشكالاً تغلي مرئية عبر زجاج يكسوه البخار من داخل غسّالة؛ وفي الشوارع كانت مفرزة رجال شرطة راكبين يراقبون، عيونهم ملتبسة من تحت مقدمة خوذهم القصيرة المُلمّعة، وأجسادهم مائلة نحو الأمام، والأعنة متحفزة بارتخاء، ورجال وأحصنة من لحم يُقلّدون رجالاً وأحصنة من حجارة. قلت في نفسي، *تود يُقلِّد* تود كليفتون. وأصوات الباعة الجوالين تعلو فوق ضجيج حركة المرور وكأنني أسمعهم عن بُعد، لا أتبيَّن ما يقولون. وفي شارع فرعي كان أطفال مع دراجات ثلاثية الدواليب معوجّة يسيرون على الرصيف حاملين لافتة تقول «الأخ تود كليفتون، أملنا أُردي قتيلاً».

ومن خلال الضباب شعرت من جديد بالتوتر. لا مجال لتجاهله؛ كان ظاهراً وينبغي فعل شيء قبل أنْ يتفاقم فيّ الحرّ.

-22-

عندما رأيتهم بقمصانهم القصيرة الأكمام، يميلون إلى الأمام، قابضين بأيديهم على رُكبهم المتراكبة، دُهِشتُ. قلت في نفسي، تسعدني رؤيتكم، سوف يكون عملاً بلا عناء. وكأنني كنتُ أتوقَّع أنْ أجدهم هناك، كما في تلك الأحلام التي قابلتُ فيها جدّي وهو ينظر إليّ من المساحة غير المترامية لغرفة الأحلام. وبادلتهم النظر من دون إبداء دهشة أو مشاعر، على الرغم من معرفتي حتى في الحلم أنَّ الدهشة هي ردة الفعل الطبيعية وأنَّ غيابها يُثير الريبة، وهو بمنزلة التحذير.

وقفتُ داخل الغرفة، أراقبهم وأنا أخلع سترتي، أراهم متجمعين حول طاولة صغيرة عليها إبريق من الماء، وكأس ومنفضتا سجائر. كان نصف الغرفة مُظلماً ليس فيها إلا مصباح واحد مُضاء فوق الطاولة مباشرة. تأملوني في صمت، الأخ جاك مع ابتسامةٍ تغوص أعمق من مستوى شفتيه، ورأسه يميل إلى أحد الجانبين، يُدقق النظر فيّ بعينيه النافذتين؛ والآخرون بوجوه خالية من التعبير، ينظرون من عيون خالية من أي معنى وتُثير ارتياباً عميقاً. تصاعدَ الدخانُ بشكل لولبيّ من سجائرهم وهم يجلسون بهدوء تامّ، ينتظرون. قلت في نفسي، وأنا أرتمي على أحد الكراسي، ها قد أتيت أخيراً. أرحتُ ذراعي على الطاولة، ملاحظاً برودتها.

قال الأخ جاك، ماداً يديه المضمومتين عبر الطاولة وينظر إليّ ورأسه يميل جانباً، «حسن، كيف جرى الأمر؟»

قلت «لقد شاهدتُم الحشد. أخيراً نجحنا في إخراجهم»

«كلا، نحن لم نرَ الحشد. كيف كان؟»

قلت «لقد تأثّروا، وكان عددهم كبيراً. ولا أعرف أكثر من ذلك. كانوا معنا، ولكن لا أعلم إلى أي مدى...» وسمعتُ صوتي لبرهة يتردد صداه وسط هدوء الصالة العالية السقف.

قال الأخ توبيت «إذن! أهذا كل ما في جُعبة صاحب التكتيك البارع يُفضي به إلينا؟ في أي اتجاه تحرّكوا؟»

نظرتُ إليه، مُدركاً خَدَر مشاعري؛ لقد انصبّتْ في قناةٍ واحدة مسافة طويلة جداً وعميقاً جداً.

«هذا الأمر يُترك تقديره إلى اللجنة. لقد استُنهِضوا، هذا أقصى ما استطعنا إنجازه. لقد حاولنا الاتصال باللجنة مراراً وتكراراً طلباً للإرشاد ولكن لم نتمكّن»

«فماذا فعلتم؟»

«تابعنا طريقنا على مسؤوليتي الخاصة»

ضيَّقَ الأخ جاك عينيه. قال «ماذا قلت؟ مسؤولية مَنْ؟»

قلت «مسؤوليتي الخاصة»

قال الأخ جاك «مسؤوليته الخاصة. أسمعتم ما قال، أيها الإخوة؟ أسمعتموه جيداً. ومن أين حصلتَ عليها، أيها الأخ؟ هذا مُذهل، من أين حصلتَ عليها؟»

«من أ –» وأجفلتُ وكبحتُ نفسي في الوقت المناسب. قلت «من اللجنة»

سادت فترة صمت. نظرتُ إليه، كان وجهه يحتقن، وأنا أحاول أنْ أحافظ على توازني. وارتعشَ عصبٌ في مركز معدتي.

قلت، أحاول أنْ أُكمل الصورة، «الجميع حضروا. انتهزنا الفرصة واتّفق معنا المجتمع كله. من المؤسف أنكم لم تحضروا...»

قال الأخ جاك «أترون، إنه آسف لأننا فوّتنا المناسبة». رفع يده. لم أتمكن من رؤية الأسطر المحفورة على راحة يده بعمق. «إنَّ واضع التكتيك البارع العظيم حامل المسؤولية *الشخصية* يأسف لغيابنا...»

قلت في نفسي، ألا يتفهّم شعوري، ألا يتفهّم سبب قيامي بذلك؟ ماذا يُحاول أنْ يفعل؟ إنَّ توبيت أحمق، ولكن لِمَ يقوم هو بتولي الأمر؟

قلت، مُخرجاً الكلمات قسراً، «كان في استطاعتكم أنْ تتخذوا الخطوة التالية، لقد فعلنا ما في وسعنا...»

قال الأخ جاك، منكّساً رأسه وهو يتكلَّم، «على مسؤو-لي-تك الخاصة»

هنا كنتُ أنظر إليه بثبات. «لقد طُلِبَ مني أنْ أستعيد أنصارنا، وهذا ما حاولت أنْ أفعل. وتلك كانت الطريقة الوحيدة التي أعرف. ما انتقادك؟ ما الخطأ؟»

قال، وهو يدعك عينه بحركة دائرية رقيقة من قبضة يده، «إذن، واضع التكتيك العظيم يسأل إنْ كان ثمة خطأ. هل من الممكن أنْ يكون هناك خطأ؟ أتسمعون، أيها الإخوة؟»

سعل أحدهم. وصبّ آخر كأساً من الماء وسمعتُه يمتلئ بسرعة كبيرة، ثم السقوط السريع الشبيه بغرغرة الغدير للقطرات الأخيرة من أنبوب الإبريق في الكأس. نظرتُ إليه، وذهني يُحاول أنْ يجمع الأشياء معاً.

قال توبيت «أتعني أنه يعترف *بإمكانية* ارتكاب الخطأ؟»

«بتواضُع محض، أيها الأخ. التواضع المحض. لدينا هنا واضع تكتيك خارق، نابوليون الاستراتيجية والمسؤولية الشخصية. شِعاره «اضرب الحديد وهو حام». «اقبض على الفرصة من عنقها»، «أطلق النار على بياض عيونهم»، «اضربهم بالفأس، واضرب، واضرب» وما إلى ذلك»

نهضتُ واقفاً. «لا أدري ما معنى هذا كله، أيها الأخ. ماذا تحاول أنْ تقول؟»

«الآن هذا سؤال جيد، أيها الإخوة. اجلس، من فضلك، الجو حارّ. إنه يريد أنْ يعرف ماذا أحاول أنْ أقول. لدينا هنا ليس واضع استراتيجية خارق فقط، بل وذوّاقة في التعبير المُرهَف»

قلت «نعم، وفي السُخرية، إذا كانت جيدة»

«وماذا عن الانضباط؟ اجلس، من فضلك، الجو حارّ...»

قلت «وفي الانضباط. وفي تلقّي الأوامر والاستشارة إذا كانا ضروريين»

كشّر الأخ جاك. «اجلس، اجلس - وماذا عن الصبر؟»

قلت «عندما لا أكون نعسان ومُرهقاً، ولا أعاني الحرّ كما أنا الآن»

قال «سوف تتعلَّم. سوف تتعلم وسوف ترضخ له حتى في ظل تلك الظروف. *خاصةً* في ظل تلك الظروف؛ هذه هي قيمته. هذا هو فحوى الصبر»

قلت «نعم، أعتقد أنني أتعلَّمه الآن. *في هذه اللحظة*»

قال بجفاف «أيها الأخ، ليست لديك أدنى فكرة عن مقدار ما تتعلَّم – اجلس من فضلك»

قلت، وأنا أجلس من جديد، «حسن، ولكن بينما أنت تتجاهل ثقافتي الخاصة برهة أود منك أنْ تتذكَّر أنَّ الناس ليس لديهم أدنى صبر معنا هذه الأيام. ونستطيع هذه المرة أنْ نستخدمه بشكل مُثمر أكثر»

قال الأخ جاك «وأستطيع انْ أقول لك إنَّ السياسيين ليسوا أشخاصاً شخصيين، ولكن لن أفعل. كيف نستطيع أنْ نستخدمه بصورة مُثمرة أكثر؟»

«بتنظيم غضبهم»

«إذن من جديد ارتاحَ واضعُ تكتيكنا العظيم. واليوم هو رجل مشغول. أولاً ألقى خطبةً على جثمان بروتوس، والآن يُلقي خطبة حول صبر الشعب الزنجي»

كان توبيت مُستمتعاً. رأيتُ سيجارته ترتعش بين شفتيه وهو يقدح عود ثقاب ليُشعلها.

قال، وهو يُمرر إصبعه على ذقنه، «أقترح أنْ نُصدِر ملاحظاته في كُتيِّب. لابد أنها ستمثِّل ظاهرة طبيعية...»

قلت لنفسي، يجب أنْ يتوقف عند هذا الحدّ. كان رأسي يُصبح أخفّ وشعرتُ بضيقٍ في صدري.

قلت «اسمع، ثمة رجل قُتِلَ وهو أعزل. أخ لنا، عضوٌ قائد أُرديَ قتيلاً على يد شرطيّ. لقد خسرنا سمعتنا في المجتمع. وقد رأيتُ أنها فرصة جيدة لتنظيم الناس في مسيرة، كما فعلت. إنْ كان هذا تصرّف غير صحيح، إذن فقد ارتكبتُ خطأ، فقل هذا مباشرة من دون ذلك الهراء. إنَّ التعامُل مع الحشود في الخارج يتطلَّب أكثر من التهكُّم»

احتقنَ وجه الأخ جاك؛ وتبادلَ الآخرون النظرات.

قال أحدهم «يبدو أنه لم يقرأ الصُحف»

قال الأخ جاك «لقد نسيتَ، لم يكن ذلك ضرورياً؛ لقد كان حاضراً»

قلت «نعم، كنتُ هناك، إنْ كنتَ تشير إلى عملية القتل»

قال الأخ جاك «اسمعوا، أترون، كان في موقع الحدث»

دفع الأخ توبيت حافة الطاولة بكلتي راحتيّه. «ومع ذلك نظّمتَ مشهد الجنازة ذلك!»

دغدغني أنفي. التفتُّ نحوه عن عمد، مُجبراً نفسي على رسم تكشيرة.

«كيف يمكن إقامة مشهد جانبيّ من دونك أنت النجم صاحب الجاذبية، مَنْ سيزيح الستارة، أيها الأخ صاحب الستارة؟ ماذا كان خطب الجنازة؟»

قال الأخ جاك، وهو يفرق شعره، «ها أنت الآن تُحرز تقدُّماً. لقد أثار واضع الاستراتيجية سؤالاً مُثيراً جداً. إنه يسأل، أين الخطأ. حسن، أنا سأُجيب. في ظل قيادتك، إنَّ تاجر الألعاب الشرير الخائن، المُناهض للزنوج، العنصري المتعصّب تجاه الأقليات أُقيمتْ له جنازة بطل. أما زلت تسأل ما الخطب؟»

قلت «ولكن لم يفعل أحد أي شيء بشأن وجود خائن»

وقف نصف وقفة، قابضاً على خلفيّة كرسيه. «كلنا سمعنا اعترافك هذا»

«لقد ضخّمنا عملية قتل رجل أسود وأعزل»

رفع يديه. قلت في نفسي، اذهب إلى الجحيم. اذهب إلى الجحيم. لقد كان رجلاً!

قال الأخ جاك «إنَّ ذلك الرجل الأسود، كما تسميه، كان خائناً. خائناً!»

سألتُ، شاعراً باستمتاع غاضب وأنا أُحصي أصابعي، «ما هو تعريف الخائن، أيها الأخ؟ لقد كان رجلاً وزنجيّاً؛ رجلاً وأخاً؛ رجلاً وخائناً، كما تقول؛ ثم أصبح رجلاً ميتاً، وفي حياته وفي موته كان مترعاً بالتناقضات. مُترعاً إلى درجة أنه جذب نصف سكان هارلم ليخرجوا ويقفوا تحت أشعة الشمس استجابة لندائنا. فما هو تعريف الخائن؟»

قال الأخ جاك «إذن هو الآن يتراجع. انظروا إليه، أيها الإخوة. بعد أنْ وضع الحركة في موقف إجبار الناس على قبول خائن يسأل ما هو الخائن»

قلت «نعم، نعم، وكما تقول، إنه ليس سؤالاً عادلاً، أيها الأخ. بعض الناس ينعتونني بالخائن لأنني كنتُ أعمل في قلب المدينة؛ والبعض الآخر سوف ينعتونني بالخائن إذا كنتُ موظفاً رسمياً وغيرهم إذا جلستُ ببساطة في ركني ولزمت الهدوء. إنني حتماً اعتبرتُ ما فعل كليفتون –»

«وتدافع عنه!»

«ليس من أجل هذا. إنني لستُ أقلّ اشمئزازاً منه منك. ولكن اللعنة، أليس إطلاق الرصاص على رجلٍ أعزل أهمّ سياسياً من حقيقة أنه كان يبيع دُمى فاحشة؟»

قال جاك «وعليه مارستَ مسؤوليتكَ الشخصية»

«كان هذا كل ما توفر لدي لأواصل عملي. أنا لم أُدعَ إلى اجتماع الاستراتيجية، أيها العضو»

قال توبيت «أرأيتَ ما كنتَ تعبث به. أليس لديك أي احترام لشعبك؟»

قال أحد الآخرين «لقد ارتكبنا خطأً فادحاً بإعطائك الفرصة»

نظرتُ إليه. «في وسع اللجنة أنْ تسحبها مني، إذا شاءت. ولكن حتى ذلك الحين، ما سبب غضب الجميع؟ إذا نظر حتى عُشر الناس إلى الدُمى كما ننظر إليها، لأصبح عملنا أسهل بكثير. إنَّ الدُمى لا تعني أي شيء»

قال جاك «لا تعني أي شيء. إنَّ ذاك اللاشيء هو الذي يمكن أنْ ينفجر في وجوهنا»

تنهّدتُ. قلت «إنَّ وجوهكم آمنة، أيها الأخ. ألا ترى أنهم لا يفكرون بهذه الطريقة التجريدية؟ فلو أنهم فعلوا، فربما ما كان البرنامج الجديد قد أخفق. إنَّ الأخوية ليست فقط الزنوج؛ ولا التنظيم. إنَّ كل ما ترون في موت كليفتون هو أنه يمكن أنْ يؤذي سُمعة الأخوية. ترونه فقط كخائن. أما أهل هارلم فلديهم رأي آخر»

قال توبيت «ها هو الآن يخطب فينا حول ردود فعل الشعب الزنجي المُقرَّرة»

نظرتُ إليه. كنتُ شديد التعب. «وما هو مصدر مُساهماتك العظيمة في الحركة، أيها الأخ؟ عملك في مسرح المساخر؟ ومن معرفتك العميقة

بالزنوج؟ هل تنحدر من عائلة عريقة تمتلك مزرعة؟ وهل تتنقّل مربيتك السوداء ليلاً خلال أحلامك؟»

فتح فمه ثم أغلقه كسمكة. قال «أريد منك أنْ تعلم أنني متزوج من فتاة زنجية ذكية، وممتازة»

قلت في نفسي، عندما رأيتُ الضوء يمتد عليه بزاوية حادة ويرمي ظلاً على شكل إسفين تحت أنفه، إذن فهذا ما يجعلك مغروراً هكذا، إذن هذا هو السبب... وكيف خمّنتُ أنَّ في الأمر امرأة؟

قلت «أعتذر، أيها الأخ، لقد أسأتُ الحُكم عليك. أنت تعرفنا. في الحقيقة، لابد أنك أنت نفسك زنجي من الناحية العملية. أحدثَ ذلك بالغمر أم بالحقن؟»

قال، دافعاً كرسيه نحو الخلف، «والآن اسمع هنا»

قلت في نفسي، هيا، قُمْ بحركة. فقط حركة صغيرة أخرى.

قال جاك، وعيناه مُسلطتان عليّ، «أيها الإخوة، دعونا نركِّز على النقاش. لقد أثرتما فضولي. ماذا كنتَ تقول؟»

راقبتُ توبيت. حدّق إليّ بغضب. وكشّرت.

«كنتُ أقول إننا هنا نعلم أنَّ رجال الشرطة لم يأبهوا بأفكار كليفتون. لقد أُردي قتيلاً لأنه كان أسود ولأنه قاوم. وأولاً لأنه كان أسود»

تجهّم الأخ جاك. «ها أنت من جديد تركب موجة «العِرق». ولكن ما هو شعورهم من الدُمى؟»

قلت «إنني أركبُ موجة العِرق لأنني مُضطر إلى ذلك. أما الدُمى، فهم يعلمون أنه فيما يتعلّق بالشرطة فكان من الممكن أنَّ كليفتون كان يبيع أغاني مطبوعة، أو نسخاً من الكتاب المُقدَّس أو خبز فطير[39]. ولو أنه كان أبيض البشرة، لظلّ حياً. أو لو أنه قبِلَ اضطهاده...»

قال توبيت «أسود وأبيض، أبيض وأسود. هل نحن مضطرون إلى الإصغاء إلى هذا الهراء العنصري؟»

قلت «لستَ مُضطراً، أيها الأخ الزنجي. أنت تستقي معلوماتك الخاصة

39- خبز الفطير: يأكله اليهود خاصة في عيد الفصح. - المترجم

من المصدر مباشرة. هل هو مصدر خلاسيّ، أيها الأخ؟ لا تُجِبْ – إنَّ الشيء الخطأ الوحيد هو أنَّ مصدرك شديد الضيق. لا أظنك تعتقد حقاً أنَّ الحشد الذي خرج اليوم من أجل كليفتون كان عضواً في الأخوية؟»

سأل جاك، وكأنه يتهيَّأ للوثب إلى الأمام، «ولماذا خرج *حقاً*؟»

«لأنك منحته الفرصة للتعبير عن مشاعره، لإثبات ذاته»

عرك الأخ جاك عينه. قال «أتعلم أنك أصبحتَ مُنظِّراً مفوّهاً. إنك تذهلني»

قلت «أشكّ في هذا، أيها الأخ، ولكن لا شيء يُضاهي عزل رجل لجعله يُفكِّر»

«نعم، هذا صحيح؛ إنَّ بعضاً من أفضل أفكارنا وُلِدَتْ في السجن. الفرق هو أنك لم ترتد السجن قط، أيها الأخ، ولم تُستأجَر لتفكِّر. هل نسيتَ هذا؟ إذا كنت قد نسيت، فأصغي إليّ: أنتَ لم تُستأجَر لتفكِّر». كان يتكلَّم بتأنٍ شديد وقلت في نفسي، إذن... إذن هذا هو الأمر، عارٍ وعجوز وعفن. إذن فقد خرج إلى العلن الآن...

قلت «إذن أنا الآن أعرف موقعي، ومع مَنْ –»

«لا تُحرِّف ما أعني. إنَّ اللجنة تفكِّر بالنيابة عنا جميعاً. **جميعاً**. ونحن استأجرناك لتتكلَّم»

«هذا صحيح، أنا *مُستأجَر*. لقد كانت الأجواء أخويّة إلى درجة أنني نسيت موقعي. ولكن ماذا لو رغبتُ في التعبير عن فكرة ما؟»

«نحن نُعدُّ الأفكار كلها. لدينا بعض من الأفكار اللامعة. إنَّ الأفكار هي جزء من أدواتنا. فقط الأفكار الصحيحة للمناسبة الصحيحة»

«لنفرِض أنكَ أسأتَ الحُكم على المناسبة؟»

«إذا ما تصادف وحدث هذا، تلزم الصمت»

«على الرغم من أنني على صواب؟»

«أنت لا تقول أي شيء إلا من خلال اللجنة. وإلا أقترح أنْ تردِّد آخر شيء طُلِبَ منك قوله»

«وعندما يطلب مني جمهوري أنْ أتكلَّم؟»

«اللجنة سوف تُعطي الجواب!»

نظرتُ إليه. كان جو الغرفة حاراً، وهادئاً، ويعبقُ بالدخان. أخذ الآخرون ينظرون إليّ بطريقة غريبة. وسمعت ضجيج أحدهم المتوتر وهو يسحق سيجارة في منفضة من الزجاج. أرجعتُ كرسيّ إلى الخلف، وأنا أتنفّس بعمق، متمالكاً نفسي. لقد كنتُ أسير على درب خطرة وفكّرتُ في كليفتون وحاولتُ أنْ أنفض عني التفكير. لم أقُل شيئاً.

فجأة ابتسم جاك وانزلقَ عائداً إلى تلبُّس دوره الأبويّ.

قال «دع أمر التعامُل مع النظرية والاستراتيجية *لنا نحن*. نحن الخبراء. لقد تخرّجنا من الجامعة بينما أنت مجرد مُبتدئ ذكي تخطّيتَ عدداً من المراحل. لكنها مراحل مهمة، خاصة من أجل اكتساب معرفة استراتيجية. لأنَّه من الأهمية بمكان رؤية الصورة الكاملة. هناك أكثر مما تراه العين. ومع سواد الرؤية الطويلة الأمد والقصيرة الأمد والرؤية العامة، لعلك لن تقوم بتشويه الوعي السياسي لسكان هارلم»

قلت في نفسي، ألا يفهم أنني أحاول أنْ أخبرهم ما هو الحقيقي. هل عضويتي تمنعني من الشعور بأهل هارلم؟»

قلت «حسن، فليكن كما تشاء، أيها الأخ؛ ما عدا أنَّ الوعي السياسي في هارلم هو بالضبط الشيء الذي أعرف شيئاً عنه. وهذا الدرس لن يدعني أُلغيه. إنني أصفُ طرفاً من الواقع أعرفه»

قال توبيت «وهذا التصريح هو الأشد إثارة للريبة»

قلت، وأنا أُمرِّر إبهامي على طول حافة الطاولة، «أعلم. إنَّ مصدرك الخاص يُخبرك شيئاً مختلفاً. التاريخ يُصنَع في الخفاء، أليس كذلك، أيها الأخ؟»

قال توبيت «لقد حذّرتُك»

قلت «نصيحة من أخ لأخيه، أيها الأخ، حاول أنْ تختلط بالناس أكثر. فقد تتعلَّم أنَّ هذا اليوم كان المرة الأولى التي يُصغون فيها إلى نداءاتنا منذ أسابيع. وسوف أخبرك شيئاً آخر: إذا لم تتابع ما جرى اليوم، قد تكون هذه المرة الأخيرة...»

قال الأخ جاك «إذن، أخيراً بدأ يتنبّأ بالمستقبل»

«إنه مُحتمَل... وإنْ كنتُ آمل ألا يحدث»

قال توبيت «إنه يتواصل مع الله. الله الأسود»

نظرتُ إليه وكشّرت. كانت له عينان رماديتان وكانت حدقتا عينيه متسعتين جداً، والشارب يبرز على فكّيه. لقد قضيتُ على حذره وكان يترنّح بعنف.

أخبرته «ليس مع الله، ولا مع زوجتك، أيها الأخ. فأنا لم أُقابل أياً منهما. لكنني عملتُ بين الناس هنا. اطلبْ من زوجتك أنْ تأخذكَ إلى الحانات ودكاكين الحلاقين ومرابع الموسيقى والكنائس، أيها الأخ. نعم، وإلى صالونات التجميل في أيام السبت عندما يشوون الشعر. هناك يُروى كامل التاريخ غير المُدوَّن، أيها الأخ. قد لا تصدق هذا لكنه صحيح. اطلبْ منها أنْ تأخذك لكي تقف في ممر مبنى سكنيّ رخيص ليلاً وتُصغي إلى ما يُقال. ضعها عند المنعطف، ودعْها تُخبرك ما يُدوَّن. سوف تتعلَّم أنَّ الكثير من الناس غاضبون لأننا فشلنا في قيادتهم إلى مرحلة الفعل. سوف أعتمد على ذلك كما أعتمد على ما أشاهد وما أشعر به وعلى ما سمعت، وعلى ما أعرف»

قال الأخ جاك، وهو ينهض على قدميه، «كلا، سوف تعتمد على قرار اللجنة. لقد اكتفينا من هذا. اللجنة هي التي تصنع قراراتك، وليس عملها أنْ تولي أهمية غير مُستحقَّة لأفكار الناس الخاطئة. ماذا حدث لانضباطك؟»

«إنني لا أعارض الانضباط. إنني أحاول أنْ أكون مفيداً. أحاول أنْ أُبرِز طرفاً من الحقيقة يبدو أنَّ اللجنة غفِلَتْ عنه. نستطيع بمظاهرة واحدة أنْ –»

قال الأخ جاك «لقد قرّرت اللجنة ألا تحبِّذ مثل تلك المظاهرات. إنَّ مثل تلك الأساليب لم تعُد فعّالة»

شعرتُ كأنَّ شيئاً قد سُحِبَ من تحتي، ومن طرف عيني أدركتُ فجأة وجود أشياء على الجانب المُظلم من القاعة. قلت «ولكن ألم ير أحد ما حدث هذا اليوم؟ ماذا كان ذاك، أحلماً؟ ما الذي لم يكن فعّالاً في ذلك الحشد؟»

«إنَّ مثل تلك الحشود ليست أكثر من مادتنا الخام، إحدى موادنا الخام التي ينبغي تشكيلها حسب برنامجنا»

تلفّتُ حول الطاولة وهززتُ رأسي استنكاراً. «لا عجب في أنهم أهانوني واتّهموني بخيانتهم...»

حدثت حركة مُفاجئة.

صاح الأخ جاك، متقدماً خطوة إلى الأمام «كرر ما قلت»

«هذا صحيح، سوف أكرره. حتى بعد ظهيرة هذا اليوم كانوا يقولون إنَّ الأخوية خانتهم. أنا أُخبركم بما قيل لي، ولهذا السبب اختفى الأخ كليفتون»

قال الأخ جاك «هذا كذب محض»

هنا نظرتُ إليه ببطء، مفكّراً، إنْ كانت هذه هي النهاية، فهذه هي النهاية... قلت بنعومة «إياكم أنْ تصفوني بهذا. إياكم أنْ تصفوني بهذا، ولا واحد منكم. لقد أخبرتكم بما سمعت». عندئذٍ كانت يدي في جيبي، وحلقة سلسلة الأخ تارب تُحيط ببراجمي. نظرتُ إلى كلٍ منهم على حِدة، أحاول أنْ أكبح نفسي ولكن وأنا أشعر بأنها تفلت مني. كان رأسي يُدوِّم وكأنني أمتطي دوامة خيل فوق سمعيّة. نظر جاك إليّ، خلف عينيه اهتمام جديد، ويميل إلى الأمام.

قال «إذن سمعت ذلك. حسن جداً، إذن اسمع هذا: نحن لا نشكّل سياستنا على أساس أفكار رجل الشارع الخاطئة والصبيانية. إنَّ عملنا ليس أنْ *نطلب* منهم آراءهم بل أنْ *نُلقّنهم!*»

قلت «لقد قلتَ هذا، وهو أحد الأشياء التي في وسعك أنْ تقولها لهم بنفسك. مَنْ أنت، أصلاً، الأب الأبيض العظيم؟»

«ليس والدهم، بل قائدهم. وقائدك أنت. ولا تنسَ هذا»

«قائدي *أنا* فهمنا، ولكن ما هي صِلتك بهم بالضبط؟»

انتصب شعر رأسه الأحمر. «أنا القائد. قائد الأخوية، قائدهم»

قلت، وأنا أراقبه عن كثب، مُدركاً الصمت الحارّ وشاعراً بالتوتّر يجري مُسرعاً من أصابع قدميّ إلى ساقيّ وأنا أجرّ قدميّ بسرعة تحتي، «ولكن هل أنت واثق من أنك لستَ أباهم الأبيض الكبير؟ أليس من الأفضل إذا خاطبوك بجاك الأبيض؟»

باشر بالقول، قافزاً على قدميه ليميل عبر الطاولة، «والآن اسمع هنا»، فأدرتُ كرسيّ حول ساقيه الخلفيتين نصف دورة حين وقف بيني وبين

الضوء، قابضاً على حافة الطاولة، يتمتم ويتلعثم بلغة أجنبية، مختنقاً ويسعل ويهز رأسه وأنا أتوازن على رؤوس أصابع قدميّ، مستعداً للاندفاع نحو الأمام؛ وعندما رأيته مُنكباً عليّ والآخرون من خلفه شعرت فجأة كأنَّ شيئاً انفجر من وجهه. قلت في نفسي، أنت تتخيَّل أشياء، وسمعته يضرب بحدَّة الطاولة ويتدحرج بينما امتدت ذراعه بسرعة وانتزعتْ شيئاً بحجم كلَّة كبيرة الحجم ثم يُسقطه، بلوب! في كأسه، ورأيتُ الماء يندفع إلى أعلى بشكل متناثر، كاسراً للضوء ويعود ليقفز على دفعات سريعة عبر سطح الطاولة المكسو بالمشمّع. بدا كأنَّ الغرفة أضحت مُسطّحة. واندفعت إلى مستوى أعلى مُسطح فوقهم ثم سقطتُ، شاعراً بنخعة في آخر عمودي الفقري عندما ارتطمت أرجل الكرسي على الأرض. وزادت سرعة دوامة الخيل، وسمعتُ صوته لكنني لم أعُد أصغي. حدّقتُ إلى الكأس، لأرى كيف يسطع الضوء من خلالها، مُلقياً ظلاً شفافاً، مُحدداً بدقّة على السطح القاتم للطاولة، وهناك في قاع الكأس استقرّت عين. عين زجاجية. عين بيضاء ناصعة مُشوّهة بالأشعة الخفيفة. عينٌ تحدّقُ بثبات إليّ كأنما من خلال مياه مظلمة في بئر. ثم نظرتُ إليه مُهيمناً عليّ، يُحدد الضوء شكله أمام خلفية النصف المُظلِم من القاعة.

«... يجب أنْ تقبل الانضباط. فإما أنْ تقبل القرارات أو تخرج...»

حدّقتُ إلى وجهه، شاعراً بشيء من الحنق. كانت عينه اليُسرى قد انهارتْ، وثمة خط مسلوخ من الحُمرة يُظهِر الجفن الذي يرفض أنْ ينغلق، وتحديقه الذي فقد سيطرته. أخذتُ أُنقّل نظري بين وجهه وكأسه، مفكّراً، لقد شوّه نفسه لكي يُربكني... وكان الآخرون يعلمون ذلك. بل إنهم حتى لم يُدهَشوا. دقّقت النظر في عين جاك، واعياً أنه يذرع المكان جيئة وذهاباً، ويصيح.

«أيها الأخ، هل تسمعني؟» ثم سكت، مُنعماً النظر فيّ بغضب عنيف، «ما الأمر؟»

حدّقتُ إليه، عاجزاً عن الإجابة.

عندئذٍ فهم واقترب من الطاولة، مبتسماً بخبث. قال، وهو يجرع ما في الكأس ويجعل العين تنقلب في الماء وتبدو كأنها تُحدق إليّ من قاع الكأس

المطوَّق بحلقة، «إذن هذا هو الأمر. إنها تزعجك، أليس كذلك؟ أنت إنسان عاطفي». ابتسم، رافعاً الكأس إلى مستوى محجر عينه الفارغ، يُدير الكأس حول نفسه. «ألم تكن تعلم بهذا؟»

«كلا، ولم أرغب في معرفته»

ضحك أحدهم.

قال بفخر فاقمَ من غضبي، «أترى، إنَّ هذا يُبيِّن المدة التي أمضيتها معنا»، وأنزل كأسه. «لقد فقدتُ عيني وأنا أؤدي واجبي. فما رأيكَ في هذا؟»

«لا يهمني أنْ أعرف كيف فقدتها ما دمتَ تُبقيها مُستترة»

«ذلك أنكَ لا تُقدِّر معنى التضحية. لقد صدر إليّ الأمر بإنجاز عمل وأنجزته. أتفهم؟ على الرغم من أنَّ إنجازه كلَّفني فقدان عيني...»

عندئذٍ كان يرمقني بارتياح خبيث، رافعاً العين في الكأس وكأنها وسام شرف.

قال توبيت «لا يُشبه كثيراً ذلك الخائن كليفتون، أليس كذلك؟»

كان الآخرون مسرورين.

قلت «حسن، حسن! لقد كان إنجازاً بطولياً. وأنقذ العالم، فهلا أخفيتَ الآن ذلك الجرح المفتوح!»

قال جاك، وقد أصبح أشدّ هدوءاً، «لا تُغالي في تقديره. الأبطال هم الذين يموتون. أما هذا فلا شيء – بعد أنْ حدث. إنه درس صغير في الانضباط. وهل تعلم ما الانضباط، يا أخا المسؤولية الشخصية؟ إنه التضحية، *تضحية*، **تضحية!**»

ضرب الكأس بقوة على الطاولة، ناثراً رذاذ الماء على قفا يدي. فانتفضت كورقة نبات. قلت في نفسي، إذن هذا هو معنى الانضباط، إنه التضحية... نعم، والعمى؛ إنه لا يراني. إنه حتى لا يراني. هل أنا موشك على خنقه؟ لا أعلم. إنه حتماً لا يراني. ولكن ما زلتُ لا أعلم. أترى! الانضباط هو التضحية. نعم، والعمى. نعم. وأنا جالس هنا بينما هو يُحاول أنْ يُخيفني. هذا هو الأمر، بعينه الزجاجية العمياء اللعينة... هل ينبغي أنْ تبلغه بأنك فهمت؟ ألا ينبغي أنْ تفعل؟ ألا ينبغي أنْ يعلم؟ أسرِعْ! ألا ينبغي؟ انظر إليها هناك،

عمل جيد، تقليد مثالي تقريباً كأنه حيّ... ألا ينبغي أنْ تفعل، ألا ينبغي؟ لعله حصل عليها حيث تعلّم تلك اللغة التي تلعثم بها. ألا ينبغي؟ اجعله يتكلّم اللغة المجهولة، لغة المستقبل. ما خطبك؟ الانضباط. إنه التعلُّم، ألم يقُل هذا؟ أهو كذلك؟ أأنا واقف؟ أنت تجلس هنا، ألستَ كذلك؟ أنت صامد، ألست كذلك؟ إنه يتكلّم بالألغاز، ألا ينبغي أنْ نبيِّن له؟ إذن الجلوس بهدوء هو الطريقة، وتعلَّم، لا عليك من العين، إنها ميتة... حسن الآن، انظر إليه، انظر كيف يستدير الآن، إلى اليسار، إلى اليمين، إنه يقترب بساقيه القصيرتين مني. أتراه، هب! هب! إنه الشمّاس ذو العين الواحدة. حسن، حسن... هب، هب! الشمّاس قصير الساقين. حسن! ثبّته! الشمّاس الجدليّ المُخادِع... حسن. انتهينا، ها أنت تتعلَّم... تسيطر... الصبر... نعم...

نظرتُ إليه من جديد وكأنما للمرة الأولى، فرأيتُ شخصاً ضئيلاً مُشاكساً ذا جبين عالٍ ومِحجَر عين مسلوخ لا يقبل جفنه. هذه المرة نظرتُ إليه بعناية وكانت بعض البقع الحمراء قد بدأتْ تتلاشى وانتابني شعورٌ بأنني أستيقظ تواً من حلم. كنتُ منكمشاً على نفسي.

قال، كممثلٍ انتهى تواً من قيامه بأداء دورٍ في مسرحية وعاد يتكلَّم من جديد بصوته الطبيعي، «أنا أعرف كيف تشعر. أتذكّر المرة الأولى التي رأيتُ نفسي هكذا ولم يكن الأمر ممتعاً. ولا تظن أنني لا أفضّل ذاتي القديمة». تحسّس الماء بحثاً عن عينه، ورأيتُ شكلها نصف الكروي الأملس، شكلاً يكاد يكون غير منتظم ينزلق بين إصبعيه ويندفع في أرجاء الكأس وكأنه يبحث عن طريقة للخروج. ثم أمسك بها، ونفضَ عنها الماء ونفخ عليها وهو يعبر إلى الجزء المُظلم من الغرفة.

قال، مُعطياً ظَهره لِي، «ولكنْ مَنْ يدري، أيّها الإخوة، ربما لو أنجزنا عملنا بنجاح فسوف يُزوِّدني المجتمع الجديد بعين حيّة. إنَّ مثل هذا الشيء ليس غريباً على الإطلاق، على الرغم من أنني عشت من دونها مدة طويلة... بالمناسبة، كم الساعة الآن؟»

قلت في نفسي، عندما سمعت توبيت يُجيب «السادسة والربع»، ولكن أي نوع من المجتمع سوف يُمكّنه من رؤيتي.

قال، مقترباً عبر الغرفة، «إذن يُستحسن أنْ نغادر في الحال، أمامنا طريق طويلة يجب قطعها». كان عندئذٍ قد أعاد عينه إلى مكانها ويبتسم. سألني «ما رأيك في هذا؟»

أومأتُ برأسي، كنتُ شديد التعب. اكتفيت بالإيماء برأسي.

قال «عظيم. إنني آمل بكل صدق أنْ يحدث ذلك لك. صدقاً»

قلت «إنْ كان لابد من ذلك، فلعلك ستنصحني باللجوء إلى طبيب عيونك الخاص، فقد لا أرى نفسي حينئذٍ بعين الآخرين الذين يتجاهلونني»

نظر إليّ بصورة غريبة ثم ضحك. قال، وهو يرتدي سترته، «أترون، أيها الإخوة، إنه يمزح. إنه يشعر من جديد بطريقة أخويّة. ولكن مع ذلك، أتمنى ألا تحتاج إلى أحدهم. وحتى ذلك الحين اذهب وقابل هامبرو. سوف يضع الخطوط الأولى للبرنامج وسوف يُعطيك التعليمات. أما اليوم، فدع الأمور تسير. إنه تطور مهم فقط إذا جعلناه كذلك. وإلا فسوف يُنسى. وسوف ترى أنه أفضل. ينبغي على الأخويّة أنْ تتصرّف كوحدة متناسقة»

نظرتُ إليه. صرتُ أعي الروائح من جديد وكنتُ في حاجة إلى الاستحمام. كان الآخرون عندئذٍ واقفين ويتحركون نحو الباب. نهضتُ واقفاً، شاعراً بالقميص مُلتصقاً بظهري.

قال جاك، واضعاً يده على كتفي ويتكلَّم بهدوء، «شيء أخير. انتبه من ذلك الانفعال، ذلك انضباط، أيضاً. تعلَّم أنْ تدمّر خصومك من الأخوة بالأفكار، بالبراعة الجدلية العنيفة. الآخر هو من أجل أعدائنا. ادّخره لهم. واذهب وخُذ قسطاً من الراحة»

كنتُ قد بدأت أرتجف. لقد بدا أنَّ وجهه يتقدَّم ويتراجع، يتراجع ويتقدّم. هزّ رأسه ورسم ابتسامة كئيبة.

قال «أنا أعلم كيف تشعر. ومن المؤسف أنْ يذهب كل ذلك الجهد عبثاً. ولكنّ هذا بحد ذاته نوع من الانضباط. إنني أكلمك عما تعلّمت وأنا أكبر سناً منك بكثير. أسعدت مساءً»

نظرتُ إلى عينه. إذن هو يعرف ما أشعر. أي العينين هي في الحقيقة العمياء؟ قلت «أسعدت مساءً»

قال الجميع ما عدا توبيت «أسعدت مساء، أيها الأخ»

فكّرتُ في نفسي، وأنا أقول «أسعدتم مساء» للمرة الأخيرة، سوف يحلّ الليل، ولكن لن يكون ذلك جيداً.

غادروا وتناولتُ سترتي وذهبتُ وجلست على طاولة مكتبي. سمعتهم يهبطون الدّرَج من ثم يُغلقون الباب في الأسفل. شعرتُ كأنني كنتُ أشاهد مهزلة رديئة. لكنها حقيقية وكنتُ أعيشها وكانت الحياة الوحيدة ذات المغزى تاريخياً التي في استطاعتي أنْ أعيش. لو أنني تركتُها، لضعت. ميتاً وبلا معنى ككليفتون. تحسّست الدمية في الظل وأسقطتها على الطاولة. لقد مات حقاً، ولن ينتج عن تلك الميتة أي شيء الآن. كان عديم الفائدة حتى ككنّاس. لقد انتظر طويلاً، وتغيَّرت التوجيهات على حسابه. وبالكاد استطاع أنْ يفوز بجنازة. لا أكثر. الأمر كله لم يستغرق إلا بضعة أيام، لكنه أخفق ولم يكن في وسعي أنْ أفعل أي شيء. على الأقلّ لقد مات وخرج من الأمر.

جلستُ هناك برهة، أزدادُ غضباً وأكظمه. لم أستطع أنْ أغادر وكان ينبغي أنْ أحافظ على صِلاتي لكي أقاتل. لكنني سأتغيَّر. إلى الأبد. بعد هذه الليلة لن أعود كما كنت، ولن أشعر كالسابق. لم أعلم ماذا سأصبح؛ لن أستطيع أنْ أعود إلى ما كنتُ عليه – الذي لم يكن بالشيء الكثير – لكنني كنتُ قد فقدت الكثير بحيث لا يمكن أنْ أعود إلى سابق عهدي. وجزء مني أيضاً مات مع موت تود كليفتون. لذلك سوف أقابل هامبرو، مهما كانت ضآلة أهمية ذلك. نهضتُ واقفاً وخرجتُ إلى الصالة. كانت الكأس لا تزال على الطاولة فأطحتُ بها عبر الغرفة، وسمعتُ الضجيج والدحرجة في الظلام. ثم نزلتُ إلى الطابق السفلي.

-23-

كان البار في الأسفل حاراً ومزدحماً وكان يدور جدال عنيف استكمالاً لحادث إطلاق الرصاص على كليفتون. وقفتُ بالقرب من الباب وطلبت كأس بوربون. ثم لاحظتْ مجموعة وجودي، وحاولوا أنْ يضموني إليهم.

قلت «من فضلكم، ليس الليلة. لقد كان أحد أفضل أصدقائي»

قالوا «أوه، طبعاً»، وتناولت كأساً أخرى من البوربون ثم غادرت.

عندما وصلتُ إلى الشارع رقم 125، اقتربت مني مجموعة من العمال الذين يتمتعون ببعض الحريات توزّع عريضة تُطالب فيها بطرد رجل الشرطة المُذنب، وبعد مسافة أخرى حتى المرأة التي تعِظُ في الشوارع المألوفة كانت تهتف مُلقية عِظة عن ذبح الأبرياء. ومجموعة أكبر أيضاً بشكل لم أتصوره كانت تتململ حول قضية إطلاق النار. قلت في نفسي، عظيم، قد لا تموت القضية أبداً. وربما يُستحسَن أنْ أقابل هامبرو هذه الليلة.

كانت مجموعات صغيرة من الناس تتجمع على طول الشارع، وتقدّمتُ بخطوة أسرع إلى أنْ وصلتُ فجأة إلى الجادة السابعة وهناك تحت مصباح شارع كان راس الناصح يُحيط نفسه بأكبر مجموعة – كان آخر رجل في العالم أرغبُ في رؤيته. وحالما استدرتُ لأبتعد رأيته يميل من بين الأعلام، هاتفاً، «انظروا، انظروا، أيها السيدات والسادة السود! ها هو ممثّل الأخوية. أليس راس على صواب؟ هل هذا السيد يحاول أنْ يتجاوزنا دون أنْ نلاحظه؟ اسألوه هو عن الأمر. ما الذي تنتظرون، يا سيدي؟ ماذا تفعلون من أجل إطلاق الرصاص على أحد شبّاننا السود من أجل تنظيمكم المُخادع؟»

استداروا، ونظروا إليّ، وهم يقتربون. بعضهم جاؤوا من خلفي وحاولوا أنْ يدفعوني أكثر نحو الحشد. ومال راس إلى أسفل، مُشيراً إليّ، من تحت إشارة المرور الخضراء.

«اسألوه عمّا يفعلون بهذا الشأن، أيها السيدات والسادة. هل هم خائفون – أم أنَّ القوم البيض وعملاءهم من السود اجتمعوا معاً لكي يخونونا؟»

صرخت عندما عمد أحدهم إلى القبض على ذراعي «أبعد يديك عني»

سمعتُ صوتاً يسبّني بصوت خافت.

قال أحدهم «امنحوا الأخ فرصة ليُجيب!»

اقتربت وجوههم مني. أردتُ أنْ أضحك، لأنني أدركتُ فجأة أنني لا أعرف ما إذا كنتُ جزءاً من صفقة ما أم لا. لكنهم لم يكونوا في مزاج يسمح لهم بالضحك.

قلت «أيها السيدات والسادة، أيها الإخوة والأخوات. إنني أترفّع عن الاستجابة إلى هذا الهجوم. وبما أنكم جميعاً تعرفونني وتعرفون عملي، لا أعتقد أنَّ هذا ضروريّ. ولكن يبدو لي أنّه مما لا يُشرِّف استغلال الموت العاثر لأحد أفضل شباننا الواعدين ذريعة للتهجُّم على تنظيمنا الذي عمل على وضعٍ حدٍّ لمثل تلك الأعمال الشائنة. ما هو أول تنظيم وقف ضد عملية القتل تلكَ؟ إنها الأخوية! مَنْ أول مَنْ استنهضَ الناس؟ إنها الأخوية! مَن الذي سيكون دائماً الأول في عرض قضية الناس؟ من جديد هي الأخوية!

«أؤكد لكم أننا عملنا وسوف نعمل دائماً. ولكن بطريقتنا المنضبطة. وسوف نعمل بإيجابية. نحن نرفض أنْ نهدر طاقاتنا وطاقاتكم في أعمال فجّة سيئة الإعداد. نحن أميركيون. ونترك أمر الإساءة إلى اسم الموتى إلى السيد القابع هناك. إنَّ الأخويّة تحزن وتأسف بعمق لخسارة أخيها. وقد عزمنا على أنْ يكون موته بداية تغييرات عميقة ودائمة. من السهل أنْ ننتظر ريثما يُدفَن رجل ومن ثم نقف على سُلَّم ونقوم بتشويه ذكرى كل ما آمن به. أمّا خلق شيء يدوم من موته فيستغرق وقتاً وتخطيطاً متأنياً –»

صرخ راس «أيها السيد، ركِّز على القضية. أنت لا تُجيب عن سؤالي. *ماذا تفعلون بخصوص حادث إطلاق النار؟* »

اقتربتُ من حافة الحشد. إذا استمر هذا الوضع أكثر من ذلك، فالنتيجة كارثية.

قلت «كفى إساءة للميت من أجل أهدافكم الأنانية الخاصة. دعوه يرقد بسلام. كفى تمثيلاً بجثّته!»

أخذتُ أبتعد عندما تولاه الحنق، وأنا أسمع صراخاً «أخبره عن هذا!» و«يا سارقي القبور!»

لوّحَ الناصح بذراعيه مُشيراً إليّ، ويصرخ «إنَّ هذا الرجل عميل مأجور للمُستعبِد الأبيض! أين كان خلال الأشهر الأخيرة عندما كان أطفالنا السود ونساؤنا يُعانون –»

صرختُ، لدى سماعي أحدهم يهتف «عُد إلى إفريقيا، يا رجل. الجميع يعرفون الأخ»، «دعوا الميت يرقد بسلام»

قلت في نفسي، عظيم، عظيم. ثم سمعت حركة خلفي فاستدرتُ بسرعة لأرى رجلين يتوقفان فجأة. كانا من رجال راس.

قلت له «اسمع، اسمع، إذا كنتَ تعرف مصلحتك، فأبعِد رجالك المُستفزين. يبدو أنَّ اثنين منهم ينويان أنْ يُلاحقاني»

صرخ «وهذا كذب محض!»

«هناك شهود إذا ما وقع لي أي مكروه. إنَّ رجلاً ينبش ميتاً من قبره فور دفنه لا يتورع عن فعل أي شيء، لكنني أُحذّرك –»

تصاعدت صرخات الغضب من بعضهم ورأيتُ الرجال يستمرون في تجاوزي والحقد في عيونهم، تاركين الحشد يختفي عند المنعطف. عندئذٍ كان راس يُهاجم الأخويّة وآخرون يستجيبون له من بين الجمهور، وتابعت طريقي، عائداً إلى لينكس، ولدى مروري بدار للسينما قبضوا عليّ وأخذوا يوسعونني لكماً. ولكن في هذه المرة. انتقوا البقعة الخطأ، إذ تدخّل بواب دار السينما وهرعوا فارّين نحو اجتماع راس في الشارع وتابعت طريقي. كنتُ محظوظاً؛ لم يؤذوني، لكنَّ راس عاد إلى وقاحته. ولو أنَّ الحادث وقع في شارعٍ أقلّ كثافة لكان الأذى أكبر.

لدى وصولي الجادة توقفتُ على حافة الطريق وأشرت إلى سيارة أجرة

كانت مارة. وعبرت سيارة إسعاف، ثم سيارة أجرة أخرى منكِّسة علمها. نظرتُ خلفي. شعرتُ بأنهم يُراقبونني من موقع ما على الشارع لكنني لم أرهم. لِمَ لم تتوقف أية سيارة أُجرة! ثم وقف إلى جواري على حافة الطريق ثلاثة رجال ببذلات صيفية أنيقة بلون الكريم، وصدمني شيء فيهم كأنني ضُرِبتُ بمطرقة. كانوا جميعاً يضعون نظارات قاتمة. كنتُ قد رأيت مثلها آلاف المرات، ولكن فجأة إذا بما اعتبرته مجرد تقليد فارغ لبدعة هوليوودية يفيض بالمغزى الشخصي. وتساءلت، ولِمَ لا، لِمَ لا، واندفعتُ أعبر الشارع وألج برودة محلٍ تجاري مُكيَّف الهواء.

رأيتها على صندوق عليه واقيات للشمس، وشبكات للشعر، وقفازات من الجلد، وبطاقة من رموش مزيّفة، وأمسكتُ بأشد ما وجدت من العدسات قتامة. كانت من الزجاج الأخضر اللون الشديد القتامة إلى درجة أنه بدا أسود، ووضعتها في الحال على عينيّ، لأغرق في الظلام وأنتقل إلى الخارج.

كدتُ لا أرى أمامي؛ كان الظلام التام تقريباً قد حل، وساد الشوارع غموضٌ أخضر. مشيتُ ببطء لأقف بجوار النفق وأنتظر حتى تتعود عيناي. واصطخبت في داخلي موجة من الإثارة وأنا أُدقق النظر إلى الضوء المشؤوم. ثم مخرت دفقات الهواء الحارة القوية المنبعثة من قاطني تحت الأرض وشعرت بالقطارات تهز الأرصفة. توقفتْ سيارة أجرة لكي يترجل راكبها وكدتُ أستقلّها عندما ارتقت امرأة الدرَج ووقفت أمامي، مبتسمة. تساءلت، وأنا أراها واقفة هناك، تبتسم وهي بثوبها الصيفي الضيق، ماذا الآن؛ كانت امرأة شابة ضخمة تفوح بعبق عِطر كريسماس نايت ثم اقتربتْ.

قالت «راينهارت، حبيبي، أهذا أنت؟»

قلت في نفسي، راينهارت. إذن فقد نجحت. وضعتْ يدها على ذراعي وسمعتُ نفسي أُجيبها بأسرع مما ظننت، «أهذا أنت، يا حبيبتي؟» وانتظرتُ بأنفاس محبوسة.

قالت «حسن، إنها المرة الأولى التي تأتي فيها في الموعد المُحدَّد. ولكن لماذا أنت عاري الرأس، أين قبعتك الجديدة التي اشتريتها لك؟»

أردتُ أنْ أضحك. كان عِطر كريسماس نايت يكتنفني عندئذٍ ورأيتُ وجهها يقترب، وعينيها تتسعان.

«يا الله، أنت لستَ راينهارت، يا رجل. ماذا تحاول أنْ تفعل؟ بل إنك حتى لا تتكلَّم كراين. ما قصّتك؟»

ضحكت، وأنا أتراجع. قلت «أعتقد أنَّ كلانا ارتكبَ خطأً»

تراجعتْ وهي تقبض على حقيبتها، وتراقبني، مُضطربة.

قلت «إنني حقاً لم أقصد أي أذى. أنا آسف. مَنْ هذا الذي أخطاتِ وظننتني هو؟»

«إنه راينهارت، ويُستحسن ألا تجعله يُفاجئك وأنت تتظاهر بأنك هو»

قلت «كلا، ولكنكِ بدوتِ مسرورة جداً بلقائه إلى درجةِ أنني لم أستطع كبح نفسي. إنه حقاً رجل محظوظ»

قالت، وهي تتنحى جانباً، «وأنا كدتُ أُقسِم على أنك هو - ارحل يا رجل من هنا قبل أنْ تورطني في المشاكل»، وابتعدتُ.

كان أمراً غريباً. قلت في نفسي، وأنا أُسرِع الخُطى الآن وأبحث عن رجال راس، لكنَّ فكرة القبعة تلك جيدة. كنتُ أُبدِّد الوقت. ولجتُ أول محل لبيع القبعات أقابله واشتريتُ أشدّ القبعات غرابة في المخزن واعتمرتها. قلت لنفسي، بهذه سوف أبرز حتى وسط عاصفة ثلجية - لكنهم سوف يظنونني شخصاً آخر.

ثم رجعتُ إلى الشارع متوجهاً إلى النفق. وبسرعة تعوّدت عيناي؛ وتلبّس العالم كثافة خضراء قاتمة، وتوهجت أنوار السيارات كما النجوم، وأضحَت الوجوه ضبابيّة غامضة؛ واختُزِلَتْ لافتات دور السينما المبهرجة إلى شيء مشؤوم ناعم يتوهج. وعدتُ أدراجي إلى موقع اجتماع راس بخيلاء جريئة. كانت تلك هي التجربة الحقيقية، فإذا نجحتْ فسوف أذهب إلى هامبرو من دون المزيد من المشاكل. عندما تنتابني فترة الغضب التالية سوف أتمكن من الحركة.

اقتربَ رجلان، يقطعان أرض الرصيف بخطوات واسعة مرحة جعلت

قميصيهما الرياضيين الحريريين الثقيلين ينتفضان بإيقاع منتظم على جسديهما. هما أيضاً كانا يضعان نظارات قاتمة، وكانت قبعتاهما ترتفعان عالياً فوق رأسيهما، وقد رفعا حافتيهما إلى أعلى. حالما تكلَّما قلت لنفسي، إنهما من المتسكعين.

قالا «ماذا تفعل، أيها العجوز»

وقالا «راينهارت، بابا، أخبرنا ماذا تفعل»

قلت لنفسي، وأنا ألوّح بيدي وأتابع سيري، أوه، اللعنة، لعلهما من أصدقائه.

قال أحدهما «نحن نعلم ماذا تفعل، راينهارت. اعزف جيداً، أيها العجوز، اعزف جيداً!»

لوّحت بيدي من جديد وكأنني أشارك في المزاح. ضحكا خلفي. عندئذٍ كنتُ قد وصلت إلى نهاية مبنى، مُبللاً بالعرق. مَنْ راينهارت هذا وما الذي *كان* يفعل؟ يجب أنْ أعرف المزيد عنه لأتجنب المزيد من الخلط في الهويات...

مرّت سيارة وجهاز الراديو فيها يزعق بأعلى صوته. وأمامي سمعت صوت الناصح ينبح في الجماهير بخشونة. ثم اقتربت، وتوقفتُ بشكل واضح في المساحة المُخصّصة للمشاة لكي أتغلغل خلال الحشد. وفي الخلفية كانوا يقفون رتلاً واحداً عميقاً أمام واجهات المحال التجارية. وأمامي اندمج المُستمعون في الكآبة الملوّنة بالأخضر، والناصح يومئ بعنف، ويصبّ جام غضبه على الأخويّة.

صرخ «لقد حان وقت الفعل. يجب أنْ نلاحقهم ونطردهم من هارلم»، وحسبتُ لبرهة من الزمن أنه لمحني بنظرة سريعة من عينيه، وتوتّر.

«لقد قال راس طاردوهم. حان الوقت ليُصبح راس الناصح راس **المُدمِّر**!»

تصاعدت صرخات الموافقة ونظرتُ خلفي لأرى الرجال الذين لاحقوني وفكّرتُ، ماذا كان يعني بـ*المُدمِّر*؟

«أُكرّر، أيها السيدات والسادة السود، لقد حان وقت الفعل! أنا، راس المُدمِّر، أُكرّر: *لقد حان الوقت*!»

ارتعشتُ من فرط الإثارة؛ لم يُلاحظوني. قلت لنفسي، لقد نجحت

المحاولة. إنهم يرون القبعة، وليس أنا. إنَّ فيها سحراً. إنها تُخفيني وأنا أمام عيونهم... ولكن فجأة انتابني الشك. فمع هتاف راس يدعو إلى تدمير كل ما هو أبيض في هارلم، مَنْ يستطيع أنْ يُلاحظني؟ كنتُ في حاجة إلى اختبار أفضل. إنْ كنتُ أنوي أنْ أستمر في خطّتي... أية خطة؟ اللعنة، لا أعلم، هيا...

خرجتُ من بين الجماهير وابتعدتُ، قاصداً هامبرو.

لدى مروري حيّتني مجموعة من المتأنّقين. هتفوا «هيه، أيها العجــوز، مرحباً!»

قلت «مرحباً!»

وكأنما بارتداء ملابس معينة والمشي بطريقة معيّنة انضممتُ إلى أخويّة يتمّ التعرُّف عليّ فيها من نظرة واحدة – ليس من قسمات وجهي، بل من ملابسي، من الزي الرسمي، من المشية. لكنَّ هذا أثار شكاً آخر. إنني لستُ متأنّقاً، بل أشبه بالسياسي. أم هل كنتُ كذلك؟ ماذا يمكن أنْ يحدث في اختبار حقيقيّ؟ ماذا عن الأشخاص الذين كانوا مُهينين في حانة «جولي دولار»؟ كنتُ في طريقي إلى الجادة الثامنة وأنا أفكر في هذا عائداً أدراجي لأستقلّ الحافلة المتوجهة إلى قلب المدينة.

كان هناك العديد من الزبائن المنتظمين متجمعين حول البار. كان المكان مزدحماً وباريلهاوس يؤدي واجبه. عندما أملتُ قبعتي وحشرتُ نفسي بين الزبائن على البار شعرتُ بإطار النظارة يقطع جسر أنفي. نظر بتريلهاوس إليّ بفظاظة وهو يُبرِز شفتيه.

قال «أي نوع ستشرب هذه الليلة، يا بابا– اللافت للنظر؟»

قلت بصوتي الطبيعي «فليكن بالانتاين»

راقبتُ عينيه وهو يضع البيرة أمامي ويصفع البار بيد ضخمة ليتلقّى نقوده. ثم قمت، وقلبي ينبض بقوة، بحركتي القديمة لدفع النقود، بجعل قطعة النقود تدور على سطح البار انتظرت. واختفت قطعة النقد داخل قبضة يده.

قال، مبتعداً وتركني مُشوشاً، «شكراً لك، بابا». لأنه كان في صوته مسحة تعرُّف ولكن ليس على شخصي. لم يكن قط يُخاطبني بـ«بابا» أو «بابا – اللافت للنظر». قلت في نفسي، إنها تنجح، بل لعلها تنجح بتفوُّق.

كان هناك حتماً شيء يُمارَس عليّ وينجح، وبعمق. ومع ذلك كنتُ مرتاحاً. كان الجو حاراً. لعل هذا هو السبب. شربت البيرة الباردة وأنا ألقي نظرة خلفي إلى آخر المكان نحو الطاولات. كان حشد من الرجال والنساء يُثيرون ضجيجاً كأشكال في كابوس داخل ضباب من الدخان الأخضر. كان صندوق الموسيقى يهدر وكأنني أنظر إلى أعماق كهف مظلم. وعندئذٍ تحرَّكَ أحدهم جانباً ونظرتُ على طول منحنى البار بعد الرؤوس والأكتاف البارزة فرأيتُ صندوق الموسيقى مُضاءً ككابوس من الجحيم المُلتهب، يصرخ:

هلام، هلام

هلام،

طوال الليل.

وقلت في نفسي، وأنا أراقب أحد المُقامرين يُراهن، ومع ذلك هذا أحد الأماكن التي ولجتها الأخويّة من دون أدنى شك. فليشرح هامبرو هذا أيضاً، إلى جانب الأشياء الأخرى التي عليه أنْ يشرحها.

جرعت ما تبقّى في الكأس واستدرتُ لأغادر، وإذا بي أرى على نضد الطعام الأخ ماركو. تحركتُ باندفاع، ناسياً أنني مُتخفٍ حتى عليه تقريباً، ثم تفحّصتُ نفسي وأخضعتُ تنكّري للاختبار مرة أخرى. مددتُ يدي عبر كتفه تقريباً لأتناول لائحة الطعام اللزجة المستقرة بين وعاء السُكّر وزجاجة الصلصة الحارة وتظاهرت بقراءتها عبر نظارتي القاتمة العدسات.

قلت «كيف وجدتُ الأضلاع، بابا؟»

«لذيذة، على الأقلّ هذه التي أتناولها»

«أحقاً؟ ما مدى معرفتك بالأضلاع؟»

رفع رأسه ببطء، ناظراً إلى أسياخ الدجاج المشوي وهي تدور في وجه لهب المِشواة الأزرق والخافت. قال «أعتقد أنني أعرف عنها بقدر معرفتك أنت، وربما أكثر، بما أنني ربما كنتُ آكلها قبل أنْ تبدأ أنت بأكلها ببضع سنوات، وفي أماكن أخرى. على أية حال ما الذي يدفعك يا مثيلي إلى المجيء إلى هنا والعبث معي؟»

ثم التفتَ ونظر في وجهي مباشرة، متحدياً. كان مخدوعاً جداً وودتُ أنْ أضحك.

زمجرت «أوه، هوِّن عليك. ألا يمكن للمرء أنْ يطرح أسئلة؟»

قال، مستديراً دورة كاملة على كرسيه الدوّار، «ها قد حصلتَ على جوابك. والآن أعتقد أنت مستعد لشهر خنجرك»

قلت، مع رِغبة في الضحك، «خنجر؟ مَنْ أتى على ذِكر خنجر؟»

«هذا ما تفكر فيه. يقول أحدهم شيئاً لا يُعجبك وإذا بأمثالك يُشهرون مطاويهم. وعليه لا بأس، هيا اشهرها. إنني على استعداد للموت كاستعدادي للموت الآتي. أرنا، هيا!»

مدّ يده ليتناول وعاء السُكّر، وفجأة شعرتُ بأنَّ العجوز الواقف أمامي لم يكن على الإطلاق الأخ ماركو، بل شخصاً آخر مُتنكراً ليشوِّشني. كانت النظارة تعمل عملها على أكمل وجه. قلت لنفسي، إنه أخ عجوز مخدوع، لكنَّ هذا لن ينجح.

أشرتُ إلى طبقه. قلت «لقد سألتكَ عن أضلاع الدجاج، وليس عن أضلاعك أنت. مَنْ ذكر أي شيء عن وجود خنجر؟»

قال «لا عليك من هذا، فقط هيا اشهره، دعني أراك. أم أنك تنتظر مني أنْ أُدير لك ظهري. حسن، ها هو، ها هو ظهري» قال هذا وهو يُدير لي ظهره على عجل على الكرسي الدوّار ومن ثم يواجهني من جديد، وذراعه متهيئة لرمي وعاء السُكَّر.

كان الزبائن يلتفتون ليتفرجوا، بحركة واضحة.

قال أحدهم «ما الأمر، يا ماركو؟»

«لا شيء مما لا أستطيع معالجته؛ إنَّ ابن الحرام الجريء ذاك دخل إلى هنا ويخدع -»

قلت «على مهلك، يا عجوز، لا تدع لسانك يورِّطك في المشاكل»، وأقول لنفسي، لِمَ أتكلَّم هكذا؟

«لا تقلق بهذا الشأن، يا ابن الحرام، اشهر خنجرك!»

«اضربه يا ماركو، اضرب ابن القحبة!»

هنا تعرَّفت إلى موقع الصوت بالسماع، ملتفتاً بحيث أرى ماركو، المُحرِّض، والزبائن الذين يسدّون الباب. حتى صندوق الموسيقى كان قد توقف وشعرتُ بالخطر يزداد بسرعة حتى إنني تحركت من دون أنْ أفكِّر، وقفزت بسرعة وأمسكتُ بزجاجة البيرة، وجسمي يرتعش.

قلت «حسن، إنْ كان هذا ما تريد، حسن! الشخص التالي الذي سيتكلّم من دون إذن سيُضرَب بهذه!»

تحرّكَ ماركو وتظاهرتُ بالهجوم بالزجاجة، وهو يراوغ، وذراعه تستعد للرمي ومتوقفة فقط لأنني أحشره؛ رجل عجوز أسود يرتدي ملابس العمل ويضع قلنسوة من القماش الرمادي طويل المنقار، وكأنني كنتُ أراه في حلمٍ من خلال النظارة الخضراء.

قلت «ارمها، هيا» وقد غلبني جنون الموقف. هنا سوف أعمل على اختبار التنكُّر على صديق وكنتُ عندئذٍ مستعداً لضربه على رُكبتيه – ليس لأنني أردتُ ذلك بل بسبب المكان والظرف. حسن، حسن، كان شيئاً سخيفاً ومع ذلك حقيقياً وخطراً وإذا تحرك، سأضربه بأشدّ ما يمكن من وحشية. كان يجب أنْ أفعل لأحمي نفسي، وإلا تكاثر عليّ السكارى. كان ماركو مستعداً، ينظر إليّ ببرودة، وفجأة سمعت صوتاً ينفجر قائلاً «لن أسمح بأي قتال في حانتي!». كان باريلْهاوس. «اتركا معاً هذه الأشياء من يديكما، إنها تكلِّفُ نقوداً»

«اللعنة، باريلْهاوس، دعهما يتقاتلان!»

هتف «يمكنهما أنْ يتقاتلا في الشوارع، ليس هنا – هيه، أنتما الاثنين، انظرا هنا...»

هنا رأيته يميل إلى الأمام وفي يده الضخمة مسدس يستقر على البار.

قال بحزن «والآن ضعا معاً هذه الأشياء من أيديكما. لا أريد أنْ تُسيئا إلى ممتلكاتي»

أخذ الأخ ماركو يُنقّل بصره مني إلى باريلهاوس.

قلت «ضعه، أيها العجوز»، وفكّرت، لماذا أمثّل بدافع الكبرياء في حين أنَّ هذا ليس أنا؟

قال «وأنت دع الزجاجة من يدك»

«كلاكما اتركا ما في يديكما؛ وأنت راينهارت». قال باريلهاوس، مُشيراً إليّ بمسدسه، «اخرج من حانتي، أيها العجوز. لسنا في حاجة إلى نقودك هنا»

باشرت بالاحتجاج، لكنه رفع راحة يده.

قال باريلهاوس «أنا ليست لدي مشكلة معك، يا راينهارت، فلا تُسئ فهمي. لكنني لا أطيق المشاكل»

كان الأخ ماركو قد أعاد وعاء السكّر إلى مكانه ووضعت الزجاجة ورجعتُ بظهري إلى الباب.

قال باريلهاوس «ثم يا راين، لا تحاول أنْ تُشهِر مسدساً، لأنَّ هذا مشحون ومعي رخصة»

رجعتُ بظهري إلى الباب، وفروة رأسي تخز، وأراقب كليهما.

هتف ماركو «في المرة التالية لا تطرح أسئلة لا تريد جواباً عليها. وإذا أردتَ أنْ تنهي هذا الجدال فأنا هنا»

شعرت بهواء الخارج يتفجَّر من حولي ووقفتُ خارج الباب مباشرة وأنا أضحك بارتياح مفاجئ على النكتة بعد تذكّرها، وأنظر خلفي إلى العجوز المتحدّي بقلنسوته ذات المنقار الطويل وإلى عيون الجمهور البغيضة. ردَّدتُ في نفسي، راينهارت، راينهارت، أي نوع من الرجال راينهارت هذا؟

كنتُ لا أزال أضحك ضحكاً مكبوتاً عندما وقفتُ أنتظر، عند المبنى المجاور، تغيُّر أضواء إشارة المرور بالقرب من مجموعة من الرجال وقفوا عند المنعطف يمررون بينهم زجاجة من النبيذ الرخيص ويناقشون مقتل كليفتون.

قال أحدهم «ما نحتاج إليه هو أسلحة، العين بالعين»

«هذا صحيح، بل مدافع رشاشة. هات هذا النبيذ الرخيص، مكليروي»

قال رجل آخر «لولا قانون سليفان[40] لما كانت نيويورك هذه أكثر من مضمار لإطلاق الرصاص»

40- قانون سليفان: قانون صدر في مدينة نيويورك عام 1911 يحظر فيه حمل السلاح من دون ترخيص. - المترجم

«خذ النبيذ الرخيص، ولا تحاول أنْ تجعل من هذه الزجاجة منزلاً لك»
«إنها منزلي الوحيد، يا مكليروي. أتريد أنْ تحرمني منه؟»
«اشرب، يا رجل، ومرِّر الزجاجة اللعينة»
بدأتُ أتفاداهم، عندما سمعتُ أحدهم يقول «ما رأيك، سيد راينهارت، كيف حال قضيبك؟»
تساءلت، وقد بدأت أسرع خطاي، حتى هنا يقولون هذا[41]. ثم قلت، عارفاً الجواب على مثل ذلك السؤال، «ثقيل، يا رجل. ثقيل جداً». ضحكوا.
«حسن، سوف يُصبح أخفّ وزناً بحلول الصباح»
قال أحدهم، مقترباً مني، «اسمع، يا سيد راينهارت، ما رأيك في أنْ تمنحني عملاً؟»، فلوّحتُ له بيدي واجتزت الشارع، أسير بخُطى سريعة في الجادة الثامنة نحو موقف الحافلات التالي.
حينئذٍ كان الظلام قد اكتنف الدكاكين ومحال البقالة، وكان الأطفال يركضون ويصرخون على طول الأرصفة، متفادين الارتطام بالبالغين جيئة وذهاباً. مشيت، يغيرُ عليّ فيضٌ من الأشكال المندمجة كما أراها عبر النظارة. أيمكن أنْ تكون هذه هي الطريقة التي يظهر بها العالم لراينهارت؟ لكل مَنْ يضعون نظارات قاتمة؟ «لأننا الآن نرى كأنما من خلال نظارة قاتمة ولكن عندئذٍ – ولكن عندئذٍ» ولم أتذكّر الباقي.
كانت تحمل حقيبة تبضُّع وتمشي بحذر على قدميها. وقبل أنْ تلمس ذراعي حسبتُ أنها تكلِّم نفسها.
«أقول، عُذراً، يا بُنيّ، يبدو أنك تحاول أنْ تتجاهلني هذه الليلة. ما هو الرقم الختامي؟»
«رقم؟ أي رقم؟»
قالت، بصوت يرتفع وهي تضع يديها على وركيها وتنظر أمامها، «أنت تعرف ما أعني. أعني الرقم الأخير هذه الليلة. ألستَ راينهارت رجل المراهنات؟»
«راين رجل المراهنات؟»

41- يقصد أنَّ مثل تلك العبارات البذيئة لا تُقال إلا في الجنوب، موطنه. – المترجم

«نعم، راينهارت رجل المراهنات. أتحاول أنْ تخدعني؟»

«لكنَّ هذا ليس اسمي، مدام» قلت، متكلماً بدقّة متناهية وأبتعد عنها. «أنتِ مخطئة»

فغرت فاها. قالت بصوت مترع بالشك، «لستَ هو؟ في الواقع، أنت تشبهه كثيراً؟ أليس هذا غريباً. دعني أذهب إلى بيتي؛ وإذا رأيتُ حلمي، فسوف أذهب لأبحث عن ذلك الوغد. وأنا في حاجة إلى تلك النقود أيضاً»

قلت، مُدققاً النظر لأتمكن من رؤيتها، «آمل أنْ تربحي، وآمل أنْ يدفع لك»

«شكراً لك، يا بنيّ، لكنه سيدفع لي في كل الأحوال. إنني أُدرك الآن أنك لستَ راينهارت. أنا آسفة لأنني استوقفتك»

قلت «لا بأس»

«لو أنني نظرتُ إلى حذائك لعرفت...»

«لماذا؟»

«لأنَّ راين رجل المراهنات معروف بحذائه ذي المقدمة البارزة»

تابعتها وهي تبتعد بخطوتها العرجاء، تتمايل «**كسفينة صهيون القديمة**»[42] قلت لنفسي، لا عجبَ أنَّ الجميع يعرفونه. في مثل ذلك العمل يُضطر المرء إلى الظهور. للمرة الأولى صرتُ واعياً لحذائي الأبيض والأسود منذ حادثة إطلاق النار على كليفتون.

عندما اقتربت سيارة دورية الشرطة من حافة الطريق وأخذتْ تتقدم ببطء بمُحاذاتي عرفت ماذا سيحدث حتى قبل أنْ يفتح الشرطي فمه.

قال الشرطي الذي لم يكن قائد السيارة «هذا أنت، يا راينهارت، يا صاحبي!» كان أبيض. رأيت الشِعار يلمع على قبعته لكنَّ الرقم كان غير واضح.

قلت «ليس هذه المرة، أيها الضابط»

«ما تقوله هراء؛ مَنْ تحاول أنْ تخدع؟ هل هذا تعنُّت؟»

42- «**سفينة صهيون القديمة**»: عنوان ترتيلة مسيحية. - المترجم

قلت «أنت مُخطئ. أنا لستُ راينهارت»

توقفت السيارة، وسطع ضوء كشّاف على عينيّ ذات النظارة الخضراء. بصقَ على الشارع. قال «حسن، يُستحسن أنْ تكون كذلك في الصباح. ويُستحسَن أنْ تأخذ كلامنا على محمل الجد. مَنْ تعتقد نفسك بحق الجحيم؟» هتف بهذا ثم انطلقت السيارة تبتعد مسرعة.

وقبل أنْ أتمكن من الاستدارة هرع نحوي رهط من الرجال من صالة لعب البوله عند المنعطف. كان أحدهم يحمل مسدساً آلياً بيده.

قال «ماذا كان أولاد القحبة أولئك يفعلون معك، يا أبتِ؟»

«لا شيء، لقد اعتقدوا أنني شخص آخر»

«مَنْ أعتقدوا أنك؟»

تأمّلتهم – أهم مجرمون أم مجرد رجال عاديين تأثّروا بحادث إطلاق النار؟

قلت «شخص يُدعى راينهارت»

«*راينهارت* – هيه، أسمعتم هذا؟» هكذا قال صاحب المسدس بصوته الخشن. «راينهارت! لابد أنَّ أولئك الأيرلنديين قد أُصيبوا بالعمى الكامل. إنَّ أي شخص يمكنه أنْ يرى أنك لستَ راينهارت»

قال آخر، مُحدِّقاً إليّ وواضعاً يديه في جيبي بنطلونه، «لكنه يبدو حقاً أشبه براين»

«يبدو كذلك حقاً»

«ولكن يا رجل، لو أنه راينهارت لكان يقود سيارة الكاديلاك في مثل هذا الوقت من الليل. عمَّ تتكلَّم بحق الجحيم؟»

قال صاحب المسدس «اسمع يا هذا، لا تدع أحداً يتصرف كراينهارت. يجب أنْ تتصف بلسان زلق، وقلب معدوم الرحمة لكي تصبح مستعداً لأي شيء. ولكن إذا عاد أولئك الأيرلنديون إلى إزعاجك، فقط أعلِمنا. إنَّ هدفنا هو إيقاف ما يفعله بعض من أولئك المجانين»

قلت «طبعاً»

وقال من جديد «راينهارت، أليس هذا *أمراً غريباً*؟»

استداروا وعادوا إلى قاعة لعبة البوله وأسرعتُ أغادر الحي. ونسيت أمر هامبرو برهة. وبدل أنْ أتّجه غرباً اتجهتُ شمالاً. أردتُ أنْ أخلع النظارة لكنني عدلتُ عن ذلك. لعلّ رجال راس لا يزالون يجوسون المنطقة.

كان الجو قد أضحى أكثر هدوءاً. لم يعُد أحد يوليني أي انتباه، على الرغم من أنَّ الشارع كان يضجّ بالمُشاة، وكلهم يموجون بغموض داخل اللون الأخضر الغامض. لعلّي أصبحت أخيراً خارج المنطقة، وفكّرتُ وبدأتُ أحاول أنْ أضع راينهارت في سياق الأحداث. لقد كان حاضراً طوال الوقت، لكنني كنتُ أنظر في اتجاهٍ آخر. كان حاضراً مع آخرين مثله، لكنني تغافلتُ عنه إلى أنْ حرَّكَ مقتل كليفتون (أم هل كان راس؟) وعيي. ما الذي بحقّ الله كان يختبئ خلف مظهر الأشياء؟ إنْ كان في استطاعة نظارات قاتمة وقبعة بيضاء أنْ تطمسا هويتي بتلك السرعة، فما هي هوية أي شخص في الواقع؟

كان العِطر غريباً وبدا كأنه ينتشر على طول الرصيف خلفي عندما وعيتُ وجود امرأة تتمشى الهوينا خلفي.

قال صوت «كنتُ أنتظر حتى تتعرَّف عليّ، يا أبتِ. انتظرتُ وقتاً طويلاً»

كان صوتاً عذباً مع نبرة خشنة قليلاً والكثير من النعاس.

قالت «ألا تسمعني، يا أبتِ؟». وبدأتُ أتلفّت حولي، مُصغياً. «كلا، يا أبتِ، لا تنظر خلفك؛ فلعلّ والدي يُلاحقني. فقط تابع السير إلى جواري ريثما أُخبرك أين نلتقي. أُقسم على أنني ظننتُ أنك لن تأتي أبداً. هل تستطيع أنْ تقابلني هذه الليلة؟»

كانت قد اقتربت مني وفجأة شعرتُ بيدٍ تفتش داخل جيب سترتي.

«حسن، يا أبتِ، لستَ مُضطراً إلى مهاجمتي، ها هو؛ والآن هل ستقابلني؟»

وقفتُ لا أُبدي حِراكاً، قابضاً على يدها وأنظر إليها، كانت فتاة غريبة حتى من خلال النظارة الخضراء، تنظر إليّ مع ابتسامة اختفت فجأة. «راينهارت، *أبتِ*، ما الأمر؟»

قلت في نفسي، وأنا أضمّها بقوة، ها قد عُدنا من جديد.

قلت «أنا لستُ راينهارت، يا آنسة. وللمرة الأولى هذه الليلة أنا آسف صدقاً»

«ولكن أرجوك، يا أبتِ - راينهارت! لا أظنكَ تحاول أنْ تخذل طفلتك - يا أبتِ، ماذا اقترفتُ؟»

قبضت بحزم على ذراعي وصرنا واقفين وجهاً لوجه وسط الرصيف. وفجأة صرخت «أوووووه! أنت حقاً لستَ هو! وأنا أحاول أنْ أعطيك نقوده. اغرب عن وجهي، أيها النكرة الحقير. اغرب عن وجهي!»

تراجعت. كانت تقاسيم وجهها قد تشوّهتْ وهي تضرب حذاءها ذا الكعب العالي بالأرض وتصرخ. وسمعتُ خلفي أحدهم يقول «هيه، ما هذا؟» وتبعه صوت أقدام تركض بينما اندفعتُ مبتعداً واختفيت عند المنعطف عن صرخاتها. قلت في نفسي، يا لتلك الفتاة الجميلة، يا لتلك الفتاة الجميلة.

بعد قطع مسافة توقفت، مقطوع الأنفاس. مسروراً وغاضباً في وقت واحد. كم يمكن للناس أنْ يُصبحوا أغبياء؟ هل أصبح الجميع فجأة مجانين؟ تلفّتُ حولي. كان شارعاً برّاقاً، والأرصفة تزدحم بالناس. وقفتُ على حافة الرصيف أحاول أنْ ألتقط أنفاسي. في موقع متقدِّم من الشارع كان ثمة لافتة مع صليب يتوهج فوق الرصيف:

محطة الدرب المقدّس

انظروا الرب الحيّ

توهجت الأحرف باللون الأخضر وتساءلتُ إنْ كان ذلك بسبب النظارة أم هو اللون الفعلي لمصابيح النيون. مرَّ بي اثنان من السكارى وهما يتعثّران. تابعت طريقي إلى منزل هامبرو، ماراً برجلٍ جالس على حافة الرصيف ورأسه محنيّ بين رُكبتيه. ومرت سيارات. وتابعت طريقي. ومرَّ طفلان تبدو الرصانة على وجهيهما قدّما لي منشوراً رفضتُه في أول الأمر، ثم رجعت وأخذته. كان عليّ أن أعرف، قبل كل شيء، ما الذي يحدث في المجتمع. تناولت المنشور واقتربتُ من مصباح الشارع، وقرأت:

شاهدوا اللامرئي

سيهلكون أوه يا الله!

أراهم كلهم، أعرفهم كلهم، أُخبرهم كلهم، أُشفيهم كلهم.

سوف ترون العجائب الخفيّة.

المُحترَم ب. بي. راينهارت

الخبير الروحاني

القديم دائماً جديد

محطات الدرب في نيوأورلينز، منزل اللغز،

برمنغهام، نيويورك، شيكاغو، ديترويت، ولوس أنجلوس.

لا مشكلة تعصى على الله

تعالوا إلى محطة الدرب.

شاهدو اللامرئي!

احضروا قداساتنا، واجتماعات الصلاة ثلاث مرات في الأسبوع

انضموا إلينا في القيامة الجديدة

للدين!

شاهدوا المرئي اللامرئي

انظروا اللامرئي

أيها المُتعبون عودوا إلى البيت!

سأفعل ما تريدون أنْ يحدث! فلا تنتظروا!

رميت المنشور في المجرور وتابعت طريقي. مشيت ببطء، وأنفاسي لا تزال صعبة. *أيعقل؟* وسرعان ما وصلت إلى اللافتة. كانت مُعلَّقة فوق متجرٍ حُوِّلَ إلى كنيسة، وولجتُ البهو الصغير وعركتُ وجهي بمنديل. سمعتُ خلفي ارتفاع وانخفاض صلاة على الطريقة القديمة لم أكن قد سمعتُ مثلها منذ أنْ تركت الجامعة؛ ولكن أيضاً فقط عندما كان يُطلَب من الوعّاظ الريفيين الزائرين أنْ يُقيموا الصلاة. ارتفع الصوت وانخفض بترتيل مُنتظَم، كما الحلم - كان جزئياً عدداً من المحاولات الأرضية التي قام بها المُصلّون، وجزئياً عرضاً منتشياً من براعة الأداء الصوتي، وجزئياً ابتهالاً إلى الله. كنتُ لا أزال أعرك وجهي وأُدقق النظر في المشاهد التوراتية البسيطة المرسومة على الواجهات وإذا بسيدتين عجوزين تقتربان مني.

قالت إحداهما «يا للسماء، إنه المحترم راينهارت. كيف حال قسّنا العزيز في هذه الأمسية الدافئة؟»

قلت في نفسي، أوه كلا، ولكن ربما مُجاراتهما سوف تُسبّب مشاكل أقلّ من الإنكار، وقلت «مساء الخير، أيتها الأختان»، كاتماً صوتي بمنديلي ومتلقّياً عبق عطر الفتاة من يدي.

«هذه الأخت هاريس، أيها المُحترَم. لقد جاءت لتنضمّ إلى فرقتنا الصغيرة»

قلت، ممسكاً بيدها الممدودة، «بوركتِ، أخت هاريس»

«في الواقع، أيها المحترم، لقد استمعتُ ذات مرة إلى موعظتك قبل سنين عديدة. كنتَ فتى لا تتجاوز الثانية عشرة من العمر، في فيرجينيا. وها أنا ذي أتيتُ إلى الشمال لأجدك، المجد لله، لا تزال تبشِّر بالإنجيل، وتؤدي عمل الرب. لا تزال تبشّر بالديانة العريقة هنا في هذه المدينة الخبيثة -»

قالت الأخت الأخرى «أيتها الأخت هاريس، يُستحسن أنْ ندخل ونعثر على مقاعد. ثم يبدو أنَّ القسّ لديه أعمالٌ يؤديها. على الرغم من أنّك حضرتَ باكراً قليلاً، أليس كذلك، أيها المحترم؟»

قلت، «نعم»، وأنا أربّتُ على فمي بالمنديل. كانتا عجوزين حنونين من النمط الجنوبي وفجأة شعرتُ بيأس عصيّ على الوصف. أردتُ أنْ أخبرهما

بأنَّ راينهارت شخص زائف، ولكن تصاعد هُتاف من داخل الكنيسة وسمعت دفقاً صاخباً من الموسيقى.

«فقط أصغي إليها، أخت هاريس. هذا هو النوع الجديد من موسيقى الغيتار الذي أخبرتك أنَّ المحترم راينهارت أعدَّه لنا. أليس سماوياً؟»

قالت الأخت هاريس «المجد له، المجد لله!»

«عُذراً، أيها المحترم، يجب أنْ أقابل الأخت جدكنز بخصوص المال الذي جمعته من أجل تمويل المبنى. و، أيها المحترم، في الليلة الفائتة بعثُ عشرة تسجيلات من موعظتك المُلهِمة. بل إنني حتى بعثُ واحداً للسيدة البيضاء التي أعمل عندها.

وجدتني أقول بصوت مُثقل باليأس «بوركتِ، بوركتِ، بوركت»

ثم فُتِحَ الباب فنظرتُ بعد رأسيهما إلى غرفة صغيرة مزدحمة بالرجال والنساء الجالسين على كراسٍ قابلة للطيّ، إلى المقدّمة حيث تعزف امرأة نحيلة برداء أسود عتيق الطراز لحن بوغي-ووغي نشطاً على آلة بيانو عموديّ الأوتار بمرافقة شاب يضع قلنسوة ضيّقة يعزف أنغاماً صارمة على أوتار غيتار كهربائي موصول بمُكبِّر صوت مُعلَّق من السقف فوق منبر يلمع باللونين الأبيض والذهبي. وكان رجل برداء كاردينال أحمر أنيق وياقة عالية مُخرَّمة يقفُ متكئاً على نسخة ضخمة من الكتاب المقدس والآن بدأ يقود ترتيل ترنيمة قوية يؤديها المصلّون بلغة مجهولة. وفي الخلف وعالياً على الجدار فوقه نُقِشَت الكلمات التالية بأحرف من ذهب:

ليكُن نور!

تلوّى المشهد كله مبهماً وغامضاً في الضوء الأخضر، ثم أُغلِقَ الباب وسكت الضجيج.

كان ذلك فوق طاقة تحمُّلي. خلعتُ نظارتي وتأبطتُ قبعتي البيضاء بعناية ومشيتُ مبتعداً. قلت في نفسي، أيُعقل، أيُعقل حقاً؟ وكنتُ أعلم أنه

يُعقل. كنتُ قد سمعت به من قبل لكنني لم أقترب منه إلى ذلك الحد. ومع ذلك، أيمكن أنْ يكون هو هؤلاء كلهم: راين مدير المقامرة وراين المُقامِر وراين الراشي وراين العاشق وراينهارت القس المحترم؟ أيمكن أنْ يكون معاً القشرة واللب؟ ما هو الحقيقي على أية حال؟ ولكن كيف يمكنني أنْ أنكره؟ لقد كان رجلاً متعدد الجوانب، رجلاً مؤلَّفاً من أجزاء وكثير التنقُّل. راينهارت الجوّال. كان ذلك حقيقياً مثلي. كان عالمه ممكناً وكان يعلم ذلك. كان يتقدّمني بسنوات وكنتُ أحمق. ولابد أنني كنتُ مجنوناً وأعمى. والعالم الذي عشنا فيه كان بلا حدود. عالم من التدفّق، شاسع، حار، يغلي، وكان راين الوغد متآلفاً معه. لعلّ راين *وحده* كان يشعر بالألفة فيه. كان أمراً لا يُصدَّق، ولكن لعلَّ الذي لا يُصدَّق وحده يمكن تصديقه. لعلّ الحقيقة هي دائماً كذب.

ربما، فكّرتُ، على الأمر كله أنْ يسقط عني كما سقطت قطرة الماء عن عين جاك الزجاجية. يجب أنْ أفتش عن التصنيف السياسي المناسب، وأضع عليه علامة راينهارت وأنساه بسرعة. هرعتُ أبتعد عن الكنيسة بسرعة كبيرة حتى أنني وجدتني قد رجعتُ إلى المكتب قبل أنْ أتذكَّر أنني ذاهب إلى هامبرو.

كنتُ في وقت واحد مكتئباً ومفتوناً. أردتُ أنْ أتعرَّف إلى راينهارت ومع ذلك، فكّرتُ، كنتُ مُضطرباً لأنني كنتُ أعلم أنني لستُ مُضطراً إلى أنْ أعرفه، وأن مجرّد الوعي بوجوده، بعد أنْ خلطَ الناس بيني وبينه، يكفي لإقناعي بأنَّ راينهارت حقيقيّ. لم يكن ذلك ممكناً، لكنه حدث. ويمكن أنْ يحدث، وموجود، لأنه ببساطة مجهول. إنَّ جاك لا يمكن أنْ يحلم بهذه الإمكانية، ولا توبيت، الذي يعتقد أنه شديد القُرب. كان المعروفُ قليلاً، والكثير غائباً في غياهب الظلام. وتذكّرتُ كليفتون وجاك نفسه؛ كم من المعلومات معروف حقاً عن أي منهما؟ ما مقدار المعروف عني أنا؟ مَنْ تحدّاني من حياتي القديمة؟ وبعد مرور كل ذلك الوقت اكتشفتُ تواً أمر عين جاك المفقودة.

بدأ جسمي كله يحكّني، وكأنَّ قالباً من الجصّ أُزيل عني تواً وكأنني لستُ متعوداً على حرية الحركة الجديدة. في الجنوب كان الجميع يعرفونك، لكنَّ المجيء إلى الشمال كان بمنزلة قفزٍ إلى المجهول. كم يوماً تستطيع أنْ

تجوب شوارع المدينة الكبيرة من دون أنْ تقابل شخصاً يعرفك، وكم ليلة؟ في الحقيقة يمكنك أنْ تعيد خلق نفسك من جديد. كانت الفكرة مُخيفة، ذلك أنَّ العالم بدا الآن كأنه يتدفّق أمام عينيّ. لقد انهارت الحدود كلها، والحرية لم تكن فقط التعرُّف إلى الحاجة، بل التعرُّف إلى الإمكانية. وبينما كنتُ جالساً هناك أرتعش لمحتُ بنظرة خاطفة الإمكانات التي وضعتها شخصيات راينهارت المتعددة وأشحتُ ببصري. لقد كان شاسعاً ومُشوِّشاً بحيث لا يمكن التأمُّل فيه. ثم نظرتُ إلى عدستيّ النظارة الصقيلتين وضحكت. لقد كنتُ ببساطة أحاول أنْ أحوِّلهما إلى قِناع لكنهما تحوّلتا بدل ذلك إلى أداة سياسية؛ ذلك أنه إذا كان في استطاعة راينهارت أنْ يستخدمهما في عمله، فلا ريب في أنَّه كان في استطاعتي أنْ أستخدمهما في عملي. الأمر في غاية البساطة، ومع ذلك كانتا قد فتحتا تواً قِطاعاً جديداً من الواقع أمامي. ماذا يمكن لأعضاء اللجنة أنْ يقولوا في هذا الشأن؟ ماذا قالت لهم نظريتهم حول مثل هذا العالم؟ وتذكّرت تقريراً عن صبي ماسح أحذية تلقّى أفضل معاملة في الجنوب لأنه ببساطة اعتمر عمامة بيضاء بدل قبعة دوبس الأنيقة أو قبعة الكاوبوي اللباد المعتادة، وانفجرتُ في نوبة من الضحك. كان جاك سيثور لمجرد التلميح إلى مثل حالة الأشياء هذه. ومع ذلك كانت تنطوي على حقيقة؛ كان هذا هو حقيقة العماء التي اعتقد أنه كان يصِفها – الآن يبدو أن هذا حدث قبل زمن بعيد جداً... خارج الأخوية كنا خارج التاريخ؛ أما في داخلها فلم يكونوا يرونني. كان وضعاً فظيعاً، كنا ضائعين. أردتُ أنْ أخرج منه، ولكن مع ذلك أردتُ أنْ أناقشه، أنْ أستشير أحداً ليقول لي إنه وهم وجيز، انفعالي. أردتُ أنْ أُعيد دعم العالم. ولذلك كنتُ في حاجة إلى مقابلة هامبرو.

نهضتُ لأغادر، ونظرتُ إلى خريطة الجدار وضحكتُ على كولومبوس. أي هندٍ كان سيكتشف! بعد أنْ قطعت حوالي نصف القاعة تذكّرتُ ورجعت واعتمرتُ القبعة ووضعت النظارة. كنتُ سأحتاجهما لأقطع بهما الشوارع.

استقللت سيارة أجرة. كان هامبرو يقطن في ويست إيتيز، وحالما وقفت في الردهة تأبّطتُ قبعتي ووضعت النظارة في جيبي مع حلقة سلسلة الأخ تارب ودمية كليفتون. وامتلأ جيبي.

أُدخِلتُ إلى غرفة مكتب صغيرة كسا هامبرو جدرانها بأرفف من الكتب بنفسه. ومن جزء آخر من الشقة تناهى صوت طفل يغني «همبتي دمبتي»، مُثيراً لديّ ذكريات مُهينة عن برنامجي الأول في عيد الفصح وفيه وقفتُ أمام جمهور الكنيسة ونسيت الكلمات...

قال هامبرو «إنه ولدي يُعيق إيوائي إلى السرير. ذلك الولد مزعج حقيقي»

كان الولد يغني «هيكوري ديكوري دوك»، بسرعة كبيرة، عندما أغلق هامبرو الباب. كان يقول شيئاً عن الطفل ونظرتُ إليه بسخط مفاجئ. لماذا أتيتُ إلى هنا، وأنا لا أزال أفكّر في راينهارت؟

كان هامبرو مفرط طول القامة بحيث إنه عندما وضع ساقاً فوق ساق لمست قدماه معاً الأرض. لقد كان أستاذي خلال فترة تلقّي مبادئ الأخوية والآن أدركتُ أنه ما كان ينبغي أنْ آتي. كان عقل هامبرو كمُحامٍ شديد ضيق الأفق من الناحية المنطقية. لقد وجد ببساطة أنَّ راينهارت مجردُ مجرم، وأنَّ هوسي هو سقوطٌ في صوفيّة محضة... قلت لنفسي، يُستحسن أنْ تأمل في أنْ يراه هكذا. ثم قررتُ أنْ أسأله عن الأوضاع في أطراف المدينة وأرحل...

قلت «اسمع، أيها الأخ هامبرو، ماذا سيفعلون بشأن منطقتي؟»

نظر إليّ مع ابتسامة جافة. «هل أصبحتُ أحد أولئك المملين الذين يُكثرون الكلام عن أطفالهم؟»

قلتُ «أوه، كلا، الأمر ليس كذلك. لقد أمضيتُ يوماً شاقاً. أعصابي متوترة. فمع مقتل كليفتون والأوضاع السيئة جداً في المنطقة، أعتقد...»

قال، ولا يزال يبتسم، «طبعاً، ولكن ما سبب قلقك حول المنطقة؟»

«لكنَّ الأمور تخرج عن السيطرة. لقد حاول رجال راس أنْ يضربوني هذه الليلة وسلطتنا تزول باطّراد»

قال «هذا مؤسف، ولكن ليس هناك من حل لهذه المشكلة من دون الإخلال بالخطّة الكبرى. أمر مؤسف أيها الأخ، ولكن يجب التضحية بأصحابك الأعضاء»

كان الطفل البعيد قد توقف عندئذٍ عن الغناء، وساد الهدوء التام. نظرتُ

إلى زاوية وجهه الهادئ بحثاً عن الصدق في كلماته. شعرتُ بتغيُّر عميق. وكأنّ اكتشافي لراينهارت قد أحدثَ بيننا فجوة بالكاد كان صوتانا يفشلان في اجتيازها ويسقطان فيها، من دون إحداث أي صدى. حاولت أنْ أتخلّص منها، لكنَّ الفجوة، التي كانت شاسعة بحيث لم يتمكن أحد من لمس النبرة العاطفية في صوت الآخر، بقيتْ قائمة.

قال صوتي «تضحية؟ إنك تقولها بسهولة شديدة»

«مع ذلك، سيان، كل الذين يرحلون يجب اعتبارهم قابلين للزوال. ويجب أنْ تتلو التوجيهات الجديدة بصرامة»

بدا الأمر كلعبة غير حقيقية، تجاوبية. قلت «ولكن لمَ؟ لِمَ ينبغي تغيير التوجيهات في منطقتي في حين أنَّ الأساليب القديمة مطلوبة - خاصة الآن؟» بصورة ما لم أتمكن من شحن كلماتي بالإلحاح المطلوب، وتحت ذلك كله كان هناك شيء في راينهارت أزعجني، اندفعَ من تحت سطح عقلي؛ شيء يتعلَّقُ بي بصورة حميمة.

كان هامبرو يقول «الأمر بسيط، أيها الأخ. إننا نتحالف مؤقتاً مع مجموعات سياسية أخرى وينبغي التضحية بمصالح مجموعة من الإخوة لمصلحة الكل»

قلت «لِمَ لم أُبلَّغ بهذا؟»

«سوف تُبلَّغ، في الوقت المناسب، عن طريق اللجنة - التضحية ضرورية الآن -»

«ولكن ألا ينبغي أنْ تُقدَّم التضحية طوعاً من قِبَل الذين يعرفون ماذا يفعلون؟ إنَّ قومي لا يفهمون لماذا يُضحَّى بهم. إنهم حتى **لا يعلمون** أنه يُضحَّى بهم - على الأقلّ ليس بيدنا...». وظل عقلي يتساءل، ولكن ماذا لو كانوا راغبين في أنْ يُخدَعوا من قِبَل الأخوية كما على يد راينهارت؟

جلستُ أفكر في هذا ولابد أنَّ تعبيراً غريباً ارتسم على وجهي، لأنَّ هامبرو، الذي كان يُريحُ مِرفقيه على ذراعي الكرسي ويلمس أطرف أصابعه معاً، رفع حاجبيه وكأنه يتوقع مني أنْ أتابع كلامي. ثم قال «سوف يتفهَّم الأعضاء المُنضبطون هذا»

أخرجتُ حلقة سلسلة الأخ تارب من جيبي ووضعتها على براجمي. لكنه لم يُلاحظ. «ألا تُدرك أنه لم يتبقَّ لدينا إلا حفنة من الأعضاء المنضبطين؟ اليوم جلبتِ الجنازة المئات الذين سيبتعدون حالما يُدركون أننا لا نسير كما ينبغي. والآن نتعرَّض للهجوم في الشوارع. ألا تفهم؟ إنَّ مجموعاتنا توزِّع عرائض، وراس يدعو إلى العنف. إنَّ أعضاء اللجنة مُخطئون إذا اعتقدوا أنَّ هذه الجلبة ستهدأ»

هزَّ كتفيه. «إنها مُخاطرة يجب أنْ نقبلها. كلنا يجب أنْ نُضحّي من أجل المصلحة العامة. لقد تحقَّقَ التغيير من خلال التضحية. إننا نتبع قوانين الواقع، ولذلك نقدم التضحيات»

قلت «لكنَّ المجتمع يطلب المساواة في التضحية. نحن لم نطلب قط المعاملة الخاصة»

قال «الأمر ليس بهذه البساطة، أيها الأخ. علينا أنْ نحمي مكتسباتنا. من المُحتَّم أنَّ على البعض أنْ يُقدموا تضحيات أكبر من غيرهم...»

«وهذا» البعض «هم قومي...»

«في هذه الحالة، نعم»

«إذن على الضعفاء أنْ يُضحوا من أجل الأقوياء؟ أليس كذلك، أيها الأخ؟»

«كلا، بل يُضحَّى بجزء من الكلّ – وسوف يبقى الحال هكذا إلى ينشأ مجتمع جديد»

قلت «أنا لا أفهم. لا أفهم أبداً. إننا نبذل أقصى جهودنا في جعل الناس يتبعوننا وعندما يفعلون، عندما يتبيَّنون صِلتهم بالأحداث، نتخلَّى عنهم. أنا لا أفهم هذا»

ابتسم هامبرو بشرود. «لا ينبغي أنْ نقلق بشأن عِدائيّة الزنوجِ. ليس خلال الفترة الجديدة ولا في أية فترة. في الحقيقة، علينا الآن أنْ نُخفف من حماسهم لمصلحتهم. إنها ضرورة علمية»

نظرتُ إليه، إلى الوجه الطويل، البارز العِظام، كوجه لينكولن. فكّرتُ، كان يمكن أنْ أحبه. يبدو شخصاً لطيفاً حقاً وصادقاً ومع ذلك يستطيع أنْ يقول هذا لي...

قلت بهدوء «إذن فأنت تصدّق هذا حقاً»

قال «بكل نزاهتي»

حسبتُ للوهلة الأولى أنني سأضحك، أو سأرمى حلقة تارب. *نزاهة!* إنه يُحدثني عن *النزاهة!* لقد وصفتُ دائرة في الهواء، وحاولت آنْ أنشئ نزاهتي على أساس دور الأخوية وإذا بهذا كله يتحول إلى هباء، هواء. ما هي النزاهة؟ ما صِلتها بعالَم يمكن أنْ يوجَد فيه راينهارت وينجح؟

قلت «ولكن ما الذي تغيَّر؟ ألم أُجلَب إلى هنا لأستنهض روحهم العِدائيّة؟». أصبح صوتي حزيناً، يائساً.

قال هامبرو، وهو يميل قليلاً إلى الأمام، «في تلك الفترة. فقط في تلك الفترة»

قلت «وماذا سيحدث الآن؟»

نفخ حلقة من الدخان، ارتفعت الدائرة الزرقاء - الرمادية عالياً تغلي ضمن شكلها الفاحم، وحامت برهة ثم تفكّكتْ إلى خصلة تتمايل.

قال «ابتهج! سوف نتقدَّم. ولكن الآن عليهم أنْ يُبطئوا أكثر» ...

قلت في نفسي، كيف استطاع أنْ يخترق العدستين الخضراوين. وأنا أقول «أواثقٌ أنت من أنك لا تقول إنهم يجب أنْ يتراجعوا؟»

قهقه. قال «والآن، اسمع، لا تضعني على دولاب التعذيب القديم للجدل. أنا أخ»

قلت «تعني أنَّ التعذيب يجب أنْ يتم على دولاب التاريخ، أم هي دواليب صغيرة *داخل* الدولاب؟»

أصبح وجهه جدياً. «أعني فقط أنَّ عليهم أنْ يُبطئوا أكثر. لا يمكن السماح لهم بإشاعة الفوضى في إيقاع الخطة الرئيسة. التوقيت له كل الأهمية. ثم، أنت ما زلت تحتفظ بعملك، ولكن الآن سوف يُصبح ذا صِبغة تثقيفية أكثر»

«وماذا عن حادثة إطلاق النار؟»

«الساخطون سوف يُطرَدون والباقون سوف تعلّمهم...»

قلت «لا أعتقد أنَّ ذلك في استطاعتي»

«لماذا؟ إنه لا يقلّ أهمية»

«لأنهم ضدّنا؛ ثم، سوف أشعر كأنني راينهارت...» أفلت الاسم مني وأمعنَ النظر إليّ.

«كأنك مَنْ؟»

قلت «كأنني دجّال»

ضحك هامبرو. «حسبتُك تعلم بهذا، أيها الأخ»

نظرتُ إليه بسرعة. «أعلمُ ماذا؟»

«أنَّه من المستحيل *ألا* تستغلّ الناس»



«هذا مبدأ راينهارت – السخرية...»

«ماذا؟»

قلت «السخرية»

«ليست سخرية – بل واقعية. والخدعة هي الاستفادة منهم في أفضل مصالحهم»

جلست أميل إلى الأمام على كرسيي، وقد صرتُ فجأة أعي لا واقعية حديثنا. «ولكنْ مَنْ هو القاضي؟ جاك؟ اللجنة؟»

قال بصوت ينطوي على ابتسام، «نحن نحكم من خلال موضوعية عِلميّة مُهذِّبة»، وفجأة رأيتُ آلة المستشفى، وشعرتُ كأنني محبوس فيها من جديد.

قلت «لا تخدع نفسك. إنَّ الموضوعية العلمية الوحيدة هي آلة»

قال «إنها الانضباط، وليس الآلة. نحن علماء. ويجب أنْ نقبل مخاطر عِلمنا وإرادتنا للإنجاز. أتريد أنْ تبعث الرب لكي يتحمّل المسؤولية؟» هزَّ رأسه نفياً. «كلا، أيها الأخ، يجب أنْ نتخذ القرارات بأنفسنا. حتى وإنْ اضطررنا أحياناً إلى أنْ نبدو دجّالين»

قلت «أنت تنتظر بعض المفاجآت»

قال «ربما وربما لا. على أية حال، علينا من خلال موقعنا في الطليعة أنْ ننجز ونقول الأشياء الضرورية للحصول على أكبر عدد ممكن من الناس لكي يتقدّموا نحو ما فيه مصلحتهم»

فجأة لم أعُد أحتمل.

قلت «انظر إليّ! انظر *إليّ*! إنني أينما ذهبت أجد مَنْ يريد أنْ يُضحّي بي

لمصلحتي - وكانوا هم وحدهم المستفيدين. والآن ها نحن نبدأ بمتاهة التضحية القديمة. متى نتوقف؟ أهذا هو التعريف الحقيقي، هل الأخوية هي قضية التضحية بالضعيف؟ إذا كان الأمر كذلك، فمتى نتوقف؟»

بدا هامبرو وكأنني لستُ موجوداً معه. «في اللحظة المناسبة سوف يوقِفنا العِلم. وطبعاً نحن كأفراد يجب أنْ نفضح زيفنا بانتظام. على الرغم من أنَّ ذلك لا يفيد كثيراً. ولكن» وهزَّ كتفيه استخفافاً، «إذا تماديتَ في هذا الاتجاه لا يمكنك أنْ تدّعي القيادة. سوف تفقد ثقتك بنفسك. لن تؤمن بالقدر الكافي في صحّة قيادتك للآخرين. ولذلك عليك أنْ تثقَ بالذين يقودونك - بالحِكمة الجماعية للأخويّة»

غادرتُ وأنا في حالٍ أسوأ مما كنتُ عليه عندما أتيت. وبعد أنْ قطعتُ مسافة عدد من الأبنية سمعتُه خلفي يُناديني، وتابعته وهو يقترب شاقاً الظلام.

قال، «لقد نسيتَ قبعتك»، وهو يناولني إياها مع الصفحات المنسوخة من التوجيهات التي تضع الخطوط العريضة للبرنامج الجديد. نظرتُ إلى القبعة ثم إليه، مفكّراً في راينهارت وفي التنكُّر، لكنني علِمت أنها بالنسبة إليه بعيدة عن الواقع. ألقيتُ عليه تحية المساء وشققتُ طريقي في الشارع الحار المؤدي إلى سنترال بارك ويست، باتجاه هارلم.

فكّرت، التضحية والقيادة. بالنسبة إليه الأمر بسيط. وبالنسبة *إليهم* الأمر بسيط. ولكن اللعنة، أنا كلاهما. معاً المُضحّي والضحية. لم أتمكن من الهروب من هذا، وهامبرو لم يكن في حاجة إلى التعامل معه. إنَّ هذا أيضاً واقع، واقعي. لم يكن مُضطراً إلى وضع سكين إلى نحره. ماذا كان سيقول لو أنه هو الضحية؟

مشيت على طول المتنزه في الظلام. ومرت السيارات. وبين حين وآخر كان ضجيج أصوات، وضحك حادّ، يرتفع من خلف الأشجار والسياجات. وشممتُ رائحة العشب الذي حرقته أشعة الشمس. كانت صفحة السماء التي يعبث عليها مرشد إشعاع لاسلكي ما زالت مكفهرّة. فكّرتُ في جاك، وفي الناس في الجنازة، وفي راينهارت. لقد طلبوا منا خبزاً وأفضل ما استطعت أنْ أعطي كان عيناً زجاجية - وهي لا تشبه غيتاراً كهربائياً.

توقفتُ وتراخيتُ على مقعد خشبي. فكّرت، يجب أنْ أغادر. سيكون القيام بذلك هو التصرّف الصادق. وإلا لا يسعني إلا أنْ أطلب منهم أن يتمسكوا بحبال الأمل ويحاولوا أنْ يتمسكوا بالذين يُصغون. أهذا أيضاً ما كان عليه راينهارت، مبدأ الأمل الذي كان يسرّهم أنْ يدفعوا له نقوداً؟ وإلا فلن يبقى إلا الخيانة، وذلك يعني العودة إلى خدمة بليدسو، وإمرسون، والقفز من وعاء العبث إلى نار السُخف. وكلاهما خيانة للذات. ولكن لم يكن في استطاعتي أنْ أغادر؛ كنتُ مضطراً إلى الاستقرار مع جاك وتوبيت. كنتُ أُدين بذلك إلى كليفتون وتارب والآخرين. كان ينبغي أنْ أصمد... ومن ثم كنتُ أحمل فكرةً هزّتني من أعماقي: لستَ في حاجة إلى القلق بشأن الناس. إذا كنتَ قد تحمّلت راينهارت، فسوف ينسون وحتى معهم سوف تكون غير مرئيّ. استمرتْ معي فقط جزءاً من الثانية ومن ثم طرحتها في الحال؛ لكنها ومَضَتْ في سماء ذهني. كانت فقط هكذا. لم تكن شيئاً مهمّاً لأنهم لم يُدركوا ما حدث، لا أملي ولا فشلي. بالنسبة إليهم لم يكن طموحي ونزاهتي يعنيان لهما أي شيء وفشلي لا معنى له كفشل كليفتون. كان الأمر هكذا طوال الوقت. بدا أنه لا تتوفر فرصة لأمثالنا إلّا في الأخوية وحدها، مجرد بصيص ضوء، ولكن خلف واجهة عين جاك الصقيلة والإنسانية عثرتُ على شكل غير مُنتظَم وعلى فظاظة حمراء خشنة. وحتى هذا كان بلا معنى إلا بالنسبة إليّ.

حسن، كنتُ *موجوداً* وأيضاً كنتُ غير مرئيّ، ذلك كان التناقُض الأساسي. كنتُ موجوداً وغير مرئيّ. كان شيئاً مُخيفاً وأنا جالس وبينما أنا هكذا شعرت بوجود عالم آخر مُخيف من الإمكانات. ذلك أنني عندئذٍ وجدتُ أنني أستطيع أنْ أتّفق مع جاك من دون وجود اتّفاق. وفي استطاعتي أنْ أطلبَ من أهالي هارلم أنْ يتمسكوا بالأمل حيث لا أمل. وربما في استطاعتي أنْ أطلب منهم أنْ يتمسكوا بالأمل إلى أنْ أعثر على أساس شيء حقيقيّ، أساس راسخ للعمل يقودهم إلى سهل التاريخ. ولكن حتى ذلك الحين سوف يتوجب أنْ أُؤثّر فيهم من دون أنْ أتأثّر... يجب أنْ أقوم بدور راينهارت.

اتّكأتُ على جدار حجريّ يمتد على طول المتنزه، أفكّر في جاك وفي هامبرو وفي أحداث النهار وارتعشتُ من شدة الحنق. لقد كان كل شيء

خداعاً، خداعاً قذراً! لقد عمدوا إلى وصف العالم. ماذا يعرفون عنا، خلاف أنَّ أعدادنا هائلة، نقوم بأعمال معيَّنة، ونقدم العديد من الأصوات في الانتخابات، ونزوّد بالعديد من المتظاهرين في مسيرات احتجاج من إعدادهم؟ اتّكأتُ هناك، أتوق حتى الألم إلى إذلالهم، إلى تفنيدهم. والآن أضحت المذلات الماضية كلها أجزاء ثمينة من خبرتي، وللمرة الأولى، وأنا متّكئ على ذلك الجدار الحجري في الليل الشديد القيظ، بدأتُ أتقبّل ماضيَّ، ومع تقبُّلي له، شعرت بالذكريات تتصاعد داخلي. وكأنني تعلَّمتُ فجأة كيف أنظر في حنايا الزوايا؛ وَمَضَتْ صورٌ لمذلاتٍ ماضية في رأسي ورأيتُ أنَّها أكثر من مجرد تجارب منفصلة. كانت تمثّلني؛ تُعرِّفني. كنتُ أنا تجاربي وتجاربي هي أنا، وما كان يمكن لأي رجل أعمى، مهما بلغت قوته، حتى وإنْ قهر العالم أجمع، أنْ يتقبَّل هذا، أو أنْ يُغيِّر أية لهفة، أو سُخرية، أو ضحكة، أو بكاء، أو ندبة، أو وجع، أو حنق أو ألم منه. كانوا عمياناً، عمياناً تماماً، لا يتحركون إلا على هُدى أصداء رنين أصواتهم الخاصة. ولأنهم عميان سيدمرون أنفسهم وسوف أساعدهم في ذلك. ضحكت. هنا ظننتُ أنهم قبلوني لأنهم شعروا أنَّ البشرة الملوَّنة لا تشكل فرقاً، في حين أنَّهَ في الواقع لا يشكل ذلك فرقاً لأنهم لا يرون الرجال ولا اللون... لم يأبهوا، لقد كنا أسماء عديدة جداً مدوَّنة على أوراق اقتراع زائفة، يستخدمونها لِما يُناسبهم وعندما لا يحتاجون إليها يضعونها في إضبارات. كانت نكتة، نكتة سخيفة. والآن أنظر في حنايا زاوية في عقلي فأرى جاك ونورتون وإمرسون مندمجين في شكل أبيض واحد. كانوا متشابهين تماماً، وكل منهم يُحاول أنْ يفرِض تصوّره عن الواقع عليّ ولا أحد منهم يُبدي أي اهتمام بما تبدو عليه الأشياء لعيني. كنتُ مجرد مادة خام، مصدراً طبيعياً يجب استغلاله. كنتُ قد انتقلتُ من سُخف نورتون وإمرسون المتغطرس إلى نظيره عند جاك والأخوية، والنتيجة واحدة – ما عدا أنني الآن صرتُ أعي أنني غير مرئيّ.

إذن سوف أقبل ذلك، سوف أستكشفه، سوف أعرف كل شيء عن راينهارت، وأغوص فيه عميقاً وسوف يتقيأون. أوه كم سيتقيأون! لم أفهم ما عناه جدّي، لكنني كنتُ مستعداً لاختبار نصيحته. كنتُ قد تغلّبتُ عليهم برضوخي، ونسفتهم بابتساماتي العريضة؛ وافقتهم حتى الموت والدمار.

نعم، وجعلتهم يبتلعونني إلى أنْ تقيأوا أو انفجروا وتناثروا في كل مكان. فليتقيأوا على ما رفضوا أنْ يروا. فليختنقوا به. هذه إحدى المجازفات التي لم يحسبوا لها حساباً. وتلك المجازفة لم يحلموا بها في فلسفتهم، ولا عرفوا أنَّ في استطاعتهم أنْ يتواءموا مع التدمير، وأنَّ قول «نعم» يمكن أنْ يُدمرهم. آه، سوف أوافقهم، كم سأوافقهم! سأقول لهم نعم إلى أنْ يتقيأوا ويلفظوا كل شيء. إنَّ كل ما أرادوا مني هو تجشّؤ واحد يدل على الموافقة وسوف أتجشّأ بصوت عال. **نعم! نعم! نعم!** هذا ما كان أي شخص يريده منا، أنْ نُسمَع وألّا نُرى، بل أنْ نُسمَع مع هدير جوقة عُظمى تهتف نعم يا سيدي، نعم يا سيدي، نعم يا سيدي! حسن، سأقول نعم، نعم وoui، وoui وsi، si وأرى، أراهم أيضاً؛ وسوف أتنقّل داخل أحشائهم منتعلاً حذاءً طويلَ الرقبة بنعلٍ مُزوّدٍ بالمسامير. حتى داخل تلك الشخصيات البارزة جداً التي لم أرها قط في اجتماعات اللجنة. أرادوا آلة؟ حسن، سوف أُصبح مُصدِّقاً فائق الحساسية على مفاهيمهم الخاطئة، ولكي أحافظ على ثقتهم بأنفسهم سوف أحاول أنْ أكون جزءاً من العصر. أوه، سوف أخدمهم جيداً وسأجعل انعدام الرؤية محسوسة إذا لم أقُل مرئية، وسوف يتعلّمون أنه يمكن لذلك أنْ يكون مُلوِّثاً كجثّة متفسّخة، أو كقطعة من اللحم الفاسد في التبن. وإذا تأذّيتُ؟ حسن من جديد. ثم، ألا يؤمنون بالتضحية؟ إنهم المفكّرون المُرهفون – فهل سيكون ذلك خداعاً؟ هل هذه الكلمة تنطبق على رجل غير مرئيّ؟ هل يستطيعون أنْ يميِّزوا الاختيار في ما لا يُرى...؟

إنني كلما أمعنتُ التفكير في هذا غصتُ أعمق فيما يُشبه الافتتان المرضيّ بإمكانية تحقّقه. لِمَ لم أكتشفه باكراً؟ كم كانت حياتي ستُصبح مختلفة! بل مختلفة جداً! لِمَ لم ألاحظ لاحتمالات؟ إذا كان في استطاعة مُحاصِص[43] أنْ ينتسب إلى الجامعة بالعمل خلال فصول الصيف نادلاً وعاملاً في مصنع أو كموسيقيّ ومن ثم يتخرَّج ويُصبح طبيباً، فلِمَ ليس في الإمكان تحقيق كل تلك الأشياء في وقت واحد؟ أوَلم يكن ذلك العبد العجوز عالِماً – أو على الأقلّ سُمّيَ هكذا، وعُرِفَ هكذا – حتى عندما وقف وقبعته في يده، ينحني

43- المُحاصِص: مزارع يستغلّ الأرض لمصلحة المالك مقابل جزء من المحصول. – المترجم

ويجر قدمه بخنوع خرِف وبذيء؟ يا إلهي، كم توفر من احتمالات! وذلك المسار اللولبي، والتقدُّم أيضاً! مَنْ كان يعرف كل الأسرار؛ ألم أغيِّر اسمي ولم أتعرَّض للتحدي ولا مرة واحدة؟ وتلك الكذبة التي تقول إنَّ النجاح يرتفع ***نحو الأعلى***. أية كذبة رخيصة هيمنوا بها علينا. فليس في الإمكان أنْ تتحرك فقط نحو الأعلى إلى النجاح بل نحو الأسفل ***أيضاً***؛ إلى أعلى وإلى أسفل، إلى الخلف وإلى الأمام أيضاً، على غرار حركة السرطان وتقاطُع الطرق ودوران الدائرة، ومقابلة ذواتك القديمة رائحة وغادية وربما ذلك كله في وقت واحد. كيف فاتني هذا كل تلك الفترة الطويلة؟ ألم أنشأ في بيئةٍ من سياسيين مُقامرين، وقُضاة مُهرِّبين وعُمَد بلدات لصوص؛ نعم، ورجال عصابات عنصريين كانوا واعظين وأعضاء في جمعيات إنسانية؟ اللعنة، أوَلم يحاول بليدسو أنْ يُخبرني عن فحوى الأمر كله؟ لقد شعرت بأنني ميت أكثر مني حيّاً. كان يوماً حافلاً؛ ما كان يمكن أنْ يكون مُدمّراً أكثر من ذلك حتى ولو عرفت أنَّ الرجل الذي طالما ناديته والذي لم تكن تربطني به أية صِلة.

ذهبتُ إلى الشقّة وانطرحتُ على السرير وأنا بملابسي. كان الجو حاراً وليس للمروحة من تأثير إلا كتأثير حركة الحرارة في موجات ثقيلة بطيئة، استلقيتُ تحتها وأنا أعبث بالنظارة القاتمة وأراقب الومض المنوِّم للعدستين وأنا أحاول أنْ أضع خُططاً. سوف أُخفي غضبي وأُهدهدهم حتى يناموا؛ وأطمئنهم بأنَّ المجتمع يتفق بالكامل مع برنامجهم. وكبرهان على ذلك سوف أقوم بتزييف سجلات الحضور بملء بطاقات العضوية بأسماء وهمية – كلهم من العاطلين عن العمل، طبعاً، تفادياً لأية مُساءلة. نعم، وسوف أتنقّل في أنحاء المجتمع ليلاً وفي أوقات الخطر معتمراً قبعة بيضاء وواضعاً نظارة قاتمة. كان أملاً كئيباً لكنه وسيلة لتدميرهم، على الأقل في هارلم. ولم أجد أية إمكانية في تنظيم حركة صغيرة منشقّة، إذ ماذا ستكون الخطوة التالية «إلى أين سنذهب؟ ليس لدينا حلفاء ننضم إليهم بمساواة؛ ولا يتوفر وقت أو مُنظّرون ليضعوا برنامجاً شاملاً خاصاً بنا – على الرغم من أنني شعرت بأنّه في موقع ما بين راينهارت والتخفّي إمكانات هائلة. ولكن لم يكن في حوزتنا نقود، ولا أداة استخباراتية، لا في الحركة، ولا في العمل أو في نقابات العمال؛ ولا اتصالات مع قومنا إلا من خلال صحف غير متعاطفة،

وبضعة حمّالين في محطات القطار الذين يجلبون أخباراً ريفية من مدنٍ قصيّة ومجموعة من الخدم الذين ينقلون أخباراً عن الحياة الخاصة التي لا تُثير أي اهتمام لمُستخدميهم. ليت كان لدينا بعض الأصدقاء المُخلصين، ممَّن يعتبروننا أكثر من أدوات مناسبة لتشكيل رغباتهم الخاصة! ولكن فليذهب هذا كله إلى الجحيم، قلت في نفسي، سوف أبقى وأُصبح متفائلاً حسن الانضباط، وأساعدهم على الذهاب إلى الجحيم بمرح. وإذا لم أتمكن من مساعدتهم على رؤية حقيقة حياتنا فسوف أساعدهم على تجاهلها إلى أنْ تنفجر في وجوههم.

لم يكن يُزعجني إلا أمر واحد: بما أنني بتُّ أعلمُ الآن أنَّ أهدافهم الحقيقية لن يُكشَف النقاب عنها في اجتماعات اللجنة كنتُ في حاجة إلى قناة استخباراتية أستطيع من خلالها أنْ أعرف ما الذي يقود حقاً عملياتهم. ولكن كيف؟ ليتني قاومت عملية نقلي إلى قلب المدينة لكنتُ جمعتُ الآن ما يكفي من الدعم في المجتمع من أجل *الإصرار* على وجوب الكشف عن أنفسهم. نعم، ولكن لو أنني لم أُنقَل، لكنتُ لا أزال أعيش في عالم الوهم. أما الآن فبعد أنْ عثرتُ على طرف خيط الواقع، كيف أحافظ عليه؟ يبدو أنهم يعترضون طريقي عند كل منعطف، ويُجبرونني على أنْ أقاتلهم في الظلام. وأخيراً رميت النظارة على السرير وغرقت في غفوة متقطعة عشتُ خلالها من جديد أحداث الأيام القليلة الأخيرة؛ ولكن بدل أنْ أفقدَ كليفتون فقدتُ نفسي، وأفقتُ وأنا موهن، أتصبب عرقاً وأعي رائحة العِطر.

استلقيتُ على بطني، ورأسي مرتاح على ظاهر يدي أفكّر، من أين تأتي؟ وحالما وقعت عيني على النظارة تذكّرتُ كيف قبضتُ على يد فتاة راينهارت. بقيتُ مستلقياً لا تندّ عني حركة، وكأنها تجثم على السرير، كطائر برّاق العينين برأسها الصقيل وثديين يانعين، وكنتُ داخل غابة أخشى أنْ أُخيف الطائر فينفر ويطير. ثم اكتملت يقظتي ورحل الطائر وصورة الفتاة في ذهني. ماذا كان سيحدث لو أنني قدتها، إلى أي مدى كنتُ سأصل معها؟ فتاة شهية كتلك تُخالط راينهارت. وهأنذا أجلس مقطوع الأنفاس، أتساءل كيف كان راينهارت سيحل مشكلة المعلومات وجاءني الجواب جلياً في الحال: الأمر يتطلّب امرأة. زوجة، أو صديقة، أو سكرتيرة أحد

القادة، تكون راغبة في التحدث معي بحرية. وعاد بي التفكير إلى تجارب أولى في الحركة. قفزت إلى الذاكرة حوادث صغيرة، مُستحضِرة صوراً لابتسامات وإيماءات نساء قابلتهن بعد مسيرات وفي حفلات: لرقصي مع إيما في مركز «العالم السفلي»؛ قريبة مني وناعمة الملمس والتركيز السريع الحارّ لرغبتي وارتباكي عندما لمحتُ جاك يخطب في إحدى الزوايا، وتمسّك إيمّا بي بشدّة، وثدياها المُحكمان يضغطان عليّ، ونظراتها بذلك الضوء المُزعج في عينيها، وقولها «آه، الغواية» وبحثي اليائس عن جواب راقٍ من دون أنْ أتوصل إلا إلى قول «آه، لكنَّ الغواية موجودة دائماً» ومع ذلك دُهِشتُ وأسمعها تضحك، «touché! touché! (بالضبط! بالضبط!) يجب أنْ تأتي لتباريني ذات يوم». كان ذلك في الأيام الأولى التي شعرت خلالها بالقيود الشديدة وبامتعاض من جراءة إيما واعتقادها بأنه كان ينبغي أنْ تكون بشرتي أحلك سواداً لأقوم بدور القائد في هارلم. حسن، لم تتبقَّ هناك قيود، حرصت اللجنة على إزالتها. لقد كانت هي بمنزلة اللعبة النزيهة ولعلها وجدتني أصلاً أسود بالقدر الكافي. ثمة اجتماع ستعقده اللجنة غداً، وبما أنَّ عيد مولد جاك قد حل، سوف يتلو ذلك حفل في «العالم السفلي». وهكذا سأشنّ هجومي الثُنائي في ظل أشد الظروف ملاءمةً. كانوا يُجبرونني على تبنّي أساليب راينهارت، إذن أحضروا العلماء!

-24-

في اليوم التالي بدأتُ أوافقهم وفعلتُ ذلك بسلاسة. كان المجتمع لا يزال منشقاً. كانت حشود تتجمَّع بعد أية حادثة صغيرة، وتحطّم واجهات المحال التجارية وتندلع الاشتباكات في الصباح بين سائقي الحافلات والركّاب. وتأتي الصُحف على إيراد عدد من الحوادث المماثلة وقعت في أثناء الليل. وكانت إحدى الواجهات الزجاجيّة لأحد المتاجر في الشارع رقم 125 قد هُشِّمَت ومررت من هناك فرأيت مجموعة من الصِبية ينظرون إلى انعكاس صورهم المشوّهة وهم يتراقصون أمام الزجاج المكسور. واستمرت مجموعة من البالغين في النظر، رافضة أنْ تتزحزح من مكانها بأمرٍ من الشرطة، وتمتَمَ أفرادها بشيء عن كليفتون. لم يُعجبني ما يجري، على الرغم من رغبتي في رؤية اللجنة في حالة ارتباك.

عندما وصلت إلى المكتب، كان هناك أعضاء مع تقارير حول اشتباكات وقعتْ في أجزاء أخرى من المنطقة. لم يُعجبني ذلك على الإطلاق؛ فلا معنى للعنف الذي كان موجّهاً، بتزكيةٍ من راس، ضد المجتمع نفسه. وعلى الرغم من إحساسي بالمسؤولية المُنتهكة سُررت للتطورات ومضيتُ قُدُماً في خطتي. أرسلتُ أعضاءً ليختلطوا بالحشود ويحاولوا أنْ يُحبِطوا وقوع المزيد من أعمال العنف ويبعثوا رسالة مفتوحة إلى الصحف كلها يُعبرون فيها عن استهجانهم لها لأنها «تشوّه» حوادث جانبية وتعمل على تضخيمها.

في وقت متأخر من بعد ظهيرة ذلك اليوم في مركز الإدارة أبلغتهم بأنَّ تلك الأحداث تهدأ وبأننا نحصل على عدد أكبر من المُهتمين في المجتمع بإطلاق حملة تنظيف كل الأفنية، والممرات والأراضي البور من القمامة

والنفايات من أجل إبعاد الأذهان عن التفكير في كليفتون. كانت مناورات سافرة حتى إنني فقدت الثقة بكوني غير مرئيّ حتى وأنا أقف أمامهم. لكنهم أحبّوا الفكرة، وعندما قدّمتُ لائحتي الزائفة من الأعضاء الجُدد استجابوا بحماس. لقد بُرِّئوا؛ كان البرنامج صحيحاً، والأحداث تتقدم على مسارهم المُقدَّر، وكان التاريخ إلى جانبهم، وأهالي هارلم يُحبونهم. جلستُ هناك أبتسم في داخلي مُصغياً للملاحظات التي تلت. ورأيتُ الدور الذي كان عليّ أنْ ألعب بجلاءٍ كرؤيتي لشَعر جاك الأحمر. وقفزت أحداث من حياتي الماضية، المعروف منها والمُغفَل، كلها معاً في ذهني في قفزةٍ للوعي مُثيرة للسخرية أشبه بالبحث في أنحاء زاوية. كنتُ سأُعيَّن مُبرِّراً، مهمتي أنْ أُنكر العنصر الإنساني في هارلم كلها لكي يتجاهلوه عندما يتعارَض مع خُططهم. كان عليّ أنْ أُبقي أمام عيونهم دائماً صورةً للجماهير برّاقة، وسلبية، وودوداً، ومنفتحة وراغبة دائماً في قبول كل مُخطّط. وعندما يحدث أحياناً أنْ يستجيب آخرون بغضب مُستحق أقول إننا هادئون ومُسالمون (وإذا كان يُناسبهم أنْ نغضب، فمن السهل اليسير إحداث غضبٍ لنا بالتحدث عنه في دعايتهم؛ والحقائق غير مهمّة، غير حقيقية)؛ وإذا ما ارتبك الآخرون من مناوراتهم كان عليّ أنْ أطمئنهم *بأَنّنا* نفَذنا إلى الحقيقة ببصيرة حادة. وإذا أبدت مجموعات أخرى رغبتها في أنْ تُصبح ثرية، عليّ أنْ أُطمئن الإخوة والأعضاء المرتابين في المناطق الأخرى، بالقول *إننا* رفضنا الثروة لأنها فاسدة ومُفسِدة بالكامل؛ وإذا أحبّتْ أقليات أخرى البلد على الرغم مما تعرّضت له من ضيم، يجب أنْ أُطمئن اللجنة بأننا نحن، المنيعين ضد ردود الفعل الإنسانية والمختلطة بصورة سخيفة، نكرهها في المُطلَق؛ وأكبر التناقضات قاطبة حدثت عندما شجبوا المشهد الأميركي لأنّه فاسد ومنحطّ، وكان عليّ أنْ أقول إننا، على الرغم من أنّه مشهد مُعقّد في صميمه بصورة لا شفاء منها، فإننا في أتمّ صحة بصورة مُعجزة. نعم يا سيدي! نعم يا سيدي! وعلى الرغم من كوني غير مرئيّ سوف أكون صوت إنكارهم المُطمئن؛ سوف أتفوق على توبيت، أما بالنسبة إلى وريستروم القذر – حسن. وبينما أنا جالس هناك كان أحدهم يعمل على تضخيم أعضائي المزيفين ليُصبحوا رموزاً وطنية. كان الوهم يخلقُ وهماً مُضاداً. متى سينتهي؟ هل كانوا يُصدقون دعايتهم؟

بعد ذلك في «العالم السفلي» بقيَ الجو كما في الأيام الخوالي. كان عيد مولد جاك مناسبة شرب الشمبانيا وكانت الأمسية الحارّة أشدّ إثارة من المعتاد. شعرتُ بثقة قصوى بالنفس، ولكن هنا طرأ على خطتي خطأ بسيط. كانت إيما شديدة المرح والانفتاح، لكنَّ شيئاً في وجهها القاسي، والوسيم أنذرني بوجوب الابتعاد. فقد شعرتُ بأنه في حين أنها راغبة في الاستسلام (إرضاءً لنفسها) كانت أشدّ رقيّاً ومهارة في الخداع بكثير بحيث تعرِّض موقعها كخليلة لجاك للخطر بكشف أي أمر مهم لي. وهكذا بينما كنتُ أرقص مع إيما وأناوشها رحتُ أستعرض الحفلة بحثاً عن خيار آخر.

وجدنا نفسينا معاً على البار. كان اسمها سيبيل وكانت من أولئك الذين ادّعوا بأنَّ محاضراتي عن قضية المرأة قائمة على أساس معرفة حميمة أكثر منها سياسية وأشارت مرات عِدّة إلى رغبتها في تعزيز معرفتها بي. ولطالما تظاهرتُ بأنني لا أفهم، ذلك أنَّ تجربتي الأولى في هذا المجال ليس أنها لم تعلمني فقط أنْ أتجنّب مثل تلك المواقف، بل إنها في «العالم السفلي» كانت في المعتاد تسكر قليلاً وتصبح حزينة - كانت من نوع الزوجات المتزوجات اللائي، حتى وإنْ أثرن اهتمامي، جدير بي أنْ أتجنبهن كأنهن طاعون. أما الآن فإنَّ تعاستها وكونها زوجة لأحد المشاهير جعلا منها الاختيار المثالي. كانت تشعر بوحدة هائلة وجرى الأمر بسلاسة شديدة. وفي خضم حفل عيد الميلاد الصاخب - الذي كان مُقرراً أنْ يتبعه في الليلة التالية احتفال عامّ - لم يُلاحظنا أحد، وعندما غادرت في وقت مبكّر جداً من السهرة رافقتها إلى المنزل. كانت تشعر بالإهمال وكان هو دائماً كثير الانشغال، وعندما تركتُها أعددتُ لموعد معها في شقّتي في الأمسية التالية. سوف يكون جورج، الزوج، متواجداً في احتفال عيد الميلاد ولن يفتقدها أحد.

كانت ليلة حارة وجافة من شهر آب. وَمضَ البرق عبر صفحة السماء الشرقية وساد الجو الرطب توتر خال من الأنفاس. كنتُ قد أمضيت بعد الظهيرة أستعد، وتركتُ المكتب بدعوة المرض لأتفادى حضور الاحتفال. لم تكن لدي الرغبة ولا الزخارف، ولكن كانت هناك مزهرية أزهار السوسن الصينية في غرفة الجلوس، وأخرى تحتوي ورد الجمال الأميركي على

الطاولة المجاورة للسرير؛ وكنتُ قد حضّرت مخزوناً من النبيذ، والويسكي ومشروبات أخرى، وكمية فائضة من مكعبات الثلج، وتشكيلة من الفاكهة، والجبن، والجوز والسكاكر والأطايب الأخرى من الفاندوم. باختصار، حاولت أنْ أعدّ الأمور كما كان يمكن لراينهارت أنْ يفعل.

لكنني أتقنت الأمر منذ البداية. جعلتُ المشروبات قوية المفعول - وهو ما أحبّته كثيراً؛ وأثرتُ موضوع السياسة - وهو ما كرِهتْه كثيراً - في وقت مبكر جداً من الأمسية. وعلى الرغم من تعرُّضها للأيديولوجيا فإنه لم يكن لديها أي اهتمام بالسياسة ولا فكرة لديها عن الخُطط التي كانت تشغلُ زوجها ليلاً ونهاراً. كانت أكثر اهتماماً بالمشروبات، التي شاركتُها في شربها كأساً بعد كأس، وفي سرد الحكايات الصغيرة التي ألّفتها حول شخصيتيّ جو لويس وبول روبسون. وعلى الرغم من أنني لم أكنْ أتمتع بالبُنية ولا بالمزاج اللازمين لأداء أي من الدورَين، توقعت مني إما أنْ أغني «نهر الرجل العجوز» دون توقُّف، أو أنْ أؤدي حركات جميلة بعضلاتي. كنتُ مرتبكاً ومستمتعاً وتحول الأمر إلى منافسة مدهشة، فمن ناحيتي كنتُ أحاول أن نبقى معاً على صِلة بالواقع وكانت هي تعدّ لي أدواراً وهمية أقوم فيها بدور الأخ المُحرَّم الذي معه كل شيء ممكن.

كان الوقت قد تأخّر ودخلتُ الغرفة مع جولة أخرى من المشروب وأرخت هي شعرها وأؤمأتْ إليّ ودبوس شعرها الذهبي بين أسنانها، قائلة من مكان جلوسها على السرير، «تعال إلى الماما، أيها الجميل»

قلت «مشروبك، مدام» ماداً لها يدي بكأس وآملاً في أنْ يُحبِط المشروب المنعش أية أفكار جديدة.

قالت بحياء «هيا، يا عزيزي. أريد أنْ أطلب منك شيئاً»

قلت «ما هو؟»

«يجب أنْ تسمعه همساً، أيها الجميل»

جلستُ واقتربت شفتاها من أُذني. وفجأة خلّصتني من كل سلوك رسمي. ابتعدتُ. كان في طريقتها في الجلوس هناك شيء متكلّف، ومع ذلك قدّمتْ عرضاً متواضعاً حتى إنني انضممتُ إليها في أداء طقس مثير للتقزّز.

قلت «ما هذا!»، وكرّرتْ ما قلت. هل أضحت الحياة فجأة كرسوم ثربر[44] المجنونة؟

«أرجوك، افعل ذلك من أجلي، هلا فعلت، أيها الجميل؟»

«أأنت جادّة؟»

قالت «نعم، نعم!»

كان في وجهها حينئذٍ شيء أصيل لا يفسد زاد من اضطرابي، إذ لم تكن تمزح ولم تحاول أنْ تُهينني؛ ولم أتبيَّن إنْ كان رُعباً يُخاطبني بكل براءة، أم براءة تبرز نقيّة من خطة الأمسية الفاحشة. كل ما عرفت هو أنَّ الأمر كله خطأ. لم تكن لديها أية معلومات وقرّرتُ أنْ أُخرجها من الشقة قبل أنْ أُضطر إلى التعامل حتماً إما مع الرعب أو مع البراءة، في حين كان لا يزال في استطاعتي أنْ أتعامل مع الأمر باعتباره مزحة. وتساءلت، كيف يمكن لراينهارت أنْ يتصرّف في *هذا الموقف*، وعندما عرفت قررتُ ألا أدعها تستفزني وتدفعني إلى استعمال العنف.

«ولكن، يا سيبيل، كما ترين أنا لستُ كذلك. أنت تُثيرين فيَّ شغفاً رقيقاً، واقياً – اسمعي، إنَّ الجو هنا كالفرن، لِمَ لا نرتدي ملابسنا ونخرج لنتمشى في سنترال بارك؟»

قالت، رافعة ساقاً عن ساق ومعتدلة في جلستها بلهفة، «لكنني في حاجة إلى هذا. تستطيع أنْ تفعله، إنَّ الأمر شديد السهولة بالنسبة *إليك*، أيها الجميل. هدِّدني بالقتل إنْ لم أستسلم لك. بل، يمكنك أنْ تكلّمني بخشونة، أيها الجميل. قال لي أحد الأصدقاء إنَّ أحدهم قال «أنزلي سروالك»... و–»

قال «قال ماذا؟»

قالت «قال هذا فعلاً»

نظرتُ إليها. كانت تحمرّ خجلاً، ووجنتاها، بل وصدرها المكسو بالنمش، كلها كانت حمراء برّاقة.

قلت، بعد أنْ عادت إلى الاستلقاء، «تابعي، ثم ماذا حدث؟»

44- جيمس ثربر (1894–1961): رسّام كاريكاتير أميركيّ في صحيفة *النيويوركر*. – المترجم

قالت، مترددة بحياء، «حسن... أخذ ينعتها بألفاظ بذيئة». كانت فتاة بالغة نحيلة ذات شعر كستنائي متموج بصورة طبيعية مفروش على الوسادة. ومتوردة بحُمرة شديدة. أكان المقصود بذلك إثارتي، أم كان تعبيراً غير واع عن الاشمئزاز؟

قالت «بنعت شديد البذاءة. أوه كم كان بهيمياً، ضخماً بأسنان بيضاء، ويُسمونه «الفحل». وقال، «يا قحبة، أنزلي سروالك»، ومن ثم فعلها. وهي فتاة ظريفة، أيضاً، شديدة الرقّة ذات بشرة أشبه بالفريز والكريما. ولا يمكن تخيُّل أنه يمكن **لأحد** أنْ ينعتها بوصف كذاك»

هنا اعتدلت في جلستها، ومرفقاها على الوسادة وأخذت تتأمل وجهي.

قلت «ولكن ماذا حدث، هل ألقوا القبض عليه؟»

«أوه، طبعاً لا، أيها الجميل، إنها لم تُخبر بهذا إلا نحن صديقتَيْها. كان من المستحيل أنْ تجعل زوجها يسمع بمثل هذا الأمر. إنه... في الحقيقة، إنها قصة طويلة جداً»

قلت «شيء مُريع. ألا تعتقدين أنَّ علينا أنْ نذهب...؟»

«أليس هو كذلك؟ لقد بقيت في حالة مريعة على مدى أشهر...». اضطرب تعبير وجهها، وأصبح حاسِماً.

قلت، وأنا أخشى أنْ تبكي، «ما الأمر؟»

«أوه، كنتُ فقط أتساءل كيف شعرتْ حقاً. أتساءل حقاً» وفجأة نظرتْ إليّ بغموض. «هل أستطيع أنْ أأتمنك على سرٍ دفين؟»

اعتدلتُ في جلستي. «لا تقولي لي إنَّها كانت أنت»

ابتسمتْ. قالت وهي تميل إلى الأمام كمَنْ يُفضي بسرّ، «أوه، كلا، كانت تلك صديقة عزيزة عليّ. ولكن أتعلم، أيها الجميل. أعتقد أنني شبقة»

«أنتِ. كلاااا!»

«أه هاه. أحياناً تنتابني أفكار وأحلام. لكنني لا أستسلم لها أبداً، لكنني أعتقد أنني كذلك فعلاً. إنَّ امرأة مثلي يجب أنْ تخضع لانضباط صارم»

ضحكتُ في داخلي. قريباً سوف تُصبح كدجاجة بدينة مع لغدٍ صغير تحت ذقنها وخصر مُضاعَف ثلاث مرات. وسلسلة رقيقة من الذهب تُحيط

بكاحل قدمها الذي يزداد ضخامة. ومع ذلك كان وعيي يزداد بشيء فيها أُنثويّ بصورة دافئة، مُثير للغيظ. مددتُ يدي وداعبتُ يدها. قلت، عندما رأيتها تنهض وتنتزع شيئاً من زاوية الوسادة، مُخرِجة ريشة مُرقّطة ونازعة الزغب عن رمحها، «لماذا تحملين مثل تلك الأفكار عن نفسك؟»

قالت برقيّ عظيم «إنه القمع. لقد أفرط الرجال في قمعنا. ويُتوقَّع منا أنْ نرفض عدداً غفيراً من الكائنات البشرية. ولكن هل تعرف سراً آخر؟»

أحنيتُ رأسي.

«هل لديك مانع في أنْ أتابع، أيها الجميل؟»

«كلا، يا سيبيل»

«حسن، منذ أنْ سمعت بالأمر، حتى وأنا فتاة صغيرة جداً، رغبتُ في أنْ يحدث معي»

«تقصدين ما وقع لصديقتك؟»

«أه هاه»

«يا إلهي، يا سيبيل، هل سبق لك أنْ أخبرتِ هذا لأي شخص آخر؟»

«طبعاً لا، ما كنتُ لأجرؤ. هل صُدِمت؟»

«قليلاً. ولكن سيبيل، لماذا تُخبرينني بهذا؟»

«أوه، أعلم أنَّ في استطاعتي أنْ أثق بك. إنني ببساطة أعلم أنك تتفهَّم؛ أنت لا تشبه باقي الرجال. نحن متشابهان»

هنا ابتسمتْ ومدَّتْ يدها ودفعَتني برفق، وقلت في نفسي، ها قد بدأنا من جديد.

«استلقِ على ظهرك ودعني أنظر إليك وأنت على ذلك الغطاء الأبيض. أنت جميل، لطالما ظننتُ هذا. أبنوس دافئ على خلفيةٍ من الثلج الناصع – أترى ماذا فعلتَ، لقد جعلتني أقولُ شِعراً «أبنوسٌ دافئ على خلفية من الثلج الناصع»، أليس هذا شِعراً؟»

«إنني من النوع الحسّاس، لا ينبغي أنْ تسخري مني»

«بل أنتَ كذلك فعلاً، وأنا أشعر بأنني حرّة منطلقة وأنا معك. لن تتخيَّل إلى أي مدى»

نظرتُ إلى الأثر الأحمر المطبوع الذي خلّفته أشرطة صدريتها، متسائلاً، مَن الذي ينتقم من مَنْ؟ ولكن لِمَ الدهشة، ما دام هذا ما كانوا يسمعونه طوال حياتهم؛ عندما يُحققون السلطة العظمى ويتعلّمون عبادة أنماط السلطة كافة؟ وعلى الرغم من محاذيرها الكثيرة، يعمدُ البعض إلى الحصول عليها من باب التجربة. والقاهرون يُقهرون. لعل هناك عدداً كبيراً ممّن يرغبون فيها؛ ربما هذا هو السبب في صراخهم عندما تكون أبعد ما يمكن عن التحقّق –

قالت بحزم «يكفي. انظر إليّ هكذا؛ وكأنك ترغب في تمزيقي إرباً. أحبّ أنْ أراك تنظر إليّ هكذا!»

ضحكتُ ولمستُ ذقنها. لقد حاصرتني؛ شعرتُ كأنني سكران طينة، عجزتُ عن النطق أو عن إبداء الغضب. فكّرتُ في أنْ أحاضر فيها عن إبداء الاحترام لشريك المرأة في الفراش في مجتمعنا، لكنني لم أعُد أُضلل نفسي إما بأنني أعرف المجتمع أو بالموقع الذي يُناسبني فيه. ثم، فكّرتُ أنها تعتقد أنك هنا للتسلية. وهذا أمر آخر تعلّمنه.

رفعتُ كأسي وانضمَّتْ إليّ في الشرب، مُقتربة.

قالت، وشفتاها، اللتان بدتا عاديتين من دون مساحيق، بارزتان كما يفعل الأطفال، «سوف تفعل، أليس كذلك، أيها الجميل؟». فلِمَ لا أقوم بتسليتها، وتتصرّف كسيد محترم، أو كائناً ما كانت تتوقع منك – تُرى ماذا تعتبرك؟ مُغتصِباً مُدجَّناً، هذا واضح، وخبيراً في قضية المرأة. لعل هذا ما أنت عليه، مُروَّض تتمتع بقُدرة لفظية مناسِبة تسخّرها لتسلية السيدات. حسن، إذاً فقد نصبتُ هذا الفخ لنفسي.

قلت، وأنا أضع في يدها كأساً أخرى، «خذي هذا. سوف يُصبح الأمر أفضل بعد أنْ تشربي، وأشد واقعية»

شربتْ ما في الكأس ونظرتْ إلى أعلى متفكّرة، «أوه، نعم، هذا رائع. لقد سئمت حياتي هذه، أيها الجميل. قريباً سأصبح عجوزاً ولن يحدث معي أي شيء. أتعي معنى هذا؟ إنَّ جورج يُكثِر الكلام عن حقوق المرأة، ولكن ماذا يعلم عن حاجات المرأة؟ إنه يتباهى أربعين دقيقة ويهتاج عشر دقائق. آه، أنت لا تعلم الخدمة التي تقدّمها إليّ»

قلت وأنا أُعيد ملء الكأس «ولا أنت تعرفين الخدمة التي تُقدمينها إليّ، يا عزيزتي سيبيل». أخيراً بدأتْ كؤوس المَشروب تعمل عملها.

هزّت شعرها الطويل وفرشته على كتفيها ووضعت ساقاً فوق ساق، وهي تراقبني. وبدأ رأسها يترنّح.

قالت «لا تُفرِط في الشرب، أيها الجميل. إنه دائماً يحرم جورج من حيويته»

قلت «لا تقلقي. إنني أُحسِن الاغتصاب عندما أسكر»

بدت مصدومة. قالت «أووووه، إذن صُبَّ لي كأساً أخرى» وهي تتزود بدفعة من الحيوية. كانت مبتهجة كطفلة، رافعة كأسها بلهفة.

قلت «ما الذي يحدث هنا؟ أمولد جديد لأمّة؟»

«ماذا تقول، أيها الجميل؟»

قلت «لا شيء. مجرد نكتة رديئة. انسِيها»

قالت «هذا ما أحبُّ فيك، أيها الجميل. أنت لم تُخبرني أياً من تلك النكات السوقية. هيا، أيها الجميل، صبّ»

صببتُ لها كأساً ثم أخرى؛ في الحقيقة، لقد صببتُ لكلينا عدداً كبيراً. كنتُ بعيداً نائياً؛ لم يكن ذلك يحدث لي أو لها وشعرتُ بقدرٍ من الرثاء المُشوَّش لم أكن أرغب في أنْ ينتابني. ثم نظرتْ إليّ، بعينيها البرّاقتين من خلف جفنين مُضَيَّقين ونهضتْ وضربتني حيث يؤلِم.

قالت «هيا، انكحني، يا بابا – أنت – أيها الفحل الأسود الضخم. ما الذي يؤخّرك كل ذلك الوقت؟ أسرِع، اطرحني! ألا ترغب فيّ؟»

انزعجتُ إلى درجة أني وددتُ لو أصفعها. استلقتْ منفتحة بعِدائية، متورّدة، وسُرَّتها ليست منتفخة بل كوجرة في أرضٍ ضربها زلزال، تتلوى متوترة ومتمددة. ثم قالت «هيا، هيا!» وقلت «حاضر، حاضر» متلفّتاً حولي بجموح وبدأتُ أصبّ المشروب عليها ثم توقفتُ ولُجِمتْ مشاعري عندما رأيت أحمر شفتيها على الطاولة فأخذته وأنا أقول «نعم، نعم» وملتُ لأكتب بحركة مسعورة عبر بطنها بإلهام ثمل:

سيبيل، لقد اغتصبك

بابا نويل

مفاجأة

وتوقفت عند هذا الحدّ، وأنا أرتجف فوقها، ورُكبتاي على السرير و مي تنتظر بتوقُّع مُضطرب. كان أحمر شِفاه بلون قرمزي معدنيّ وبينما كانت تلهث بتوقٍّع تمدَّدت الأحرف وتلوّتْ، من أعلى التل إلى أسفل الوهد، وتوهّجت كلافتة مُضاءة.

قالت «أسرع، أيها الجميل، أسرع»

نظرتُ إليها، مفكّراً. فقط انتظري حتى يرى جورج هذا – إذا حدث وشاهد جورج هذا، فسوف يقرأ محاضرة حول إحدى أوجه قضية المرأة لم يُفكِّر فيه قط. رقدتْ مجهولة الهوية تحت عينيّ إلى أنْ رأيتُ وجهها، تُشكّله مشاعرها لم أتمكّن من تفسيرها، وقلت في نفسي، مسكينة يا سيبيل، لقد انتقت صبيّاً ليقوم بعملِ رجل ولم يجرِ أي شيء كما كان ينبغي أنْ يجري. حتى الفحل الأسود فشل في إنجاز العمل. عندئذٍ كانت قد فقدتِ السيطرة على سائلها وفجأة ملتُ وقبّلتها على شفتيها.

قلت «ششش، صمتاً، ليس بهذه الطريقة تتصرفين عندما تكونين –» فرفعت رأسها طلباً للمزيد وقبّلتها من جديد وهدّأتُ من روعها فأغفتْ وقرّرتُ من جديد أنْ أُنهي تلك المهزلة. مثل تلك الألعاب مُخصّصة لراينهارت، وليس لي. تعثّرت وأنا أخرج لأُحضِر منشفة مُبلّلة وأخذتُ أُزيل الدليل على جريمتي. كان الأثر متشبثاً كالإثم واستغرقت إزالته بعض الوقت. لم ينفع معه الماء، والويسكي له رائحة وأخيراً اضطررتُ إلى إحضار بنزين. ولحُسن الحظ لم تفق إلا بعد أنْ شارفت على الانتهاء.

قالت «هل فعلتها، أيها الجميل؟»

قلت «نعم، طبعاً. أليس هذا ما أردتِ؟»

«نعم، ولكن كأنني لا أتذكّر...»

نظرتُ إليها ورغبتُ في الضحك. كانت تحاول أنْ تراني لكنَّ عينيها

فشلتا في التركيز وظل رأسها يميل إلى الجنب، لكنها كانت تبذل جهداً كبيراً، وفجأة شعرتُ بالجذل.

قلت، محاولاً أنْ أفعل شيئاً بشَعرها، «بالمناسبة، ما اسمك، سيدتي؟»

قالت بسخط، وكادت تبكي، «إنه سيبيل، أيها الجميل. أنت تعلم أنني سيبيل»

«ليس عندما أمسكتُ بك. لم أكنْ أعرفه»

اتّسعت عيناها وامتدت ابتسامة عبر صفحة وجهها.

«هذا صحيح، لم تكن تعرف، أليس كذلك؟ أنت لم ترني من قبل». كانت مبتهجة، وكدتُ أرى الفكرة تتشكّل في رأسها.

قلت «هذا صحيح. لقد قفزت خارجاً من الجدار مباشرة. وسيطرتُ عليك في البهو الخالي - أتذكرين؟ وخنقتُ صراخك المرعوب.»

«هل قاتلتُ بقوة؟»

«كلبْوَة تدافع عن صِغارها...»

«لكنكَ كنتَ حيواناً ضخماً قوياً أجبرتني على الاستسلام. وأنا لم أرغب، أليس كذلك، أيها الجميل. أنت أجبرتني رُغماً عن إرادتي»

قلت، منتقياً قطعة ملابس من الحرير، «طبعاً، أنت أثرتِ الحيوان داخلي. أنا سيطرتُ عليك. ولكن ماذا كان في وسعي أنْ أفعل؟»

فكّرت في هذا قليلاً وللحظة من الزمن بدا أنَّ وجهها يتحرك كأنها ستبكي. ولكن بدل ذلك أزهرتْ هناك ابتسامة أخرى.

قالت، وهي تتأملني عن كثب، «أوَلم أكن شبقة جيدة؟ حقاً وفعلاً؟»

قلت «بصورة لا يمكن تخيّلها. ينبغي على جورج أنْ يُراقبك»

تلوّت من جنب إلى جنب بغضب. «أوه، اللعنة! إنَّ جورج البدين ذاك لا يعرف معنى شبقة حتى وإنْ نامت معه في السرير!»

قلت «أنتِ رائعة. أخبريني عن جورج. أخبريني عن صاحب العقل الجبّار في التغيير الاجتماعي»

ثبَّتت تحديقها، متجهمة. قالت، تنظر إليّ من عينٍ واحدة مُجهَدة، «مَنْ، جورجي؟ إنَّ جورجي أعمى كخُلد في جُحر ولا يعرف أي شيء عنه.

هل سبقَ لك أنْ سمعتَ عن مثل هذا، خمسة عشر عاماً! قُلْ لي، ما الذي يُضحكك، أيها الجميل؟»

قلت، وقد بدأتُ أزأر، «أنا، فقط أنا...»

«لا أعرف أحداً يضحك مثلك، أيها الجميل. إنها رائعة!»

أخذتُ أُلبِسها ثوبها بدءاً برأسها وكُتِمَ صوتها بقماش الثوب. ثم أنزلته حتى كفليها وتهادى وجهها المتورّد من خلال الياقة، وانسدل شَعرها مُشوَّشاً من جديد.

قالت، وهي تنفخ الكلمة «أيها الجميل، هلا أعدتَ الكرَّة في وقت آخر؟»

ابتعدتُ ونظرتُ إليها «ماذا؟»

قالت مع ابتسامة مترددة «أرجوك، أيها الجميل، أرجوك»

بدأتُ أضحك، قلت «طبعاً، طبعاً...»

«متى، أيها الجميل، متى؟»

قلت «في أي وقت. ما رأيك كل خميس في التاسعة؟»

قالت، وهي تعانقني على الطريقة القديمة، «أووووه، أيها الجميل. أنا لـم أقابل قط أحداً مثلك»

قلت «أحقاً؟»

«حقاً، لـم أقابل، أيها الجميل... يشع بالشرف... أتصدق؟»

قلت وقد رأيتها تتراخى عائدة إلى السرير، «طبعاً، جميل أنْ أكون مرئياً، ولكن يجب أنْ نذهب الآن»

زمّتْ شفتيها. قالت «أحتاج إلى قليل من شراب قبل النوم، أيها الجميل»

قلت «لقد شربتِ كفايتك»

«أه، أيها الجميل، فقط كأساً واحدة ...»

«حسن، واحدة فقط»

شربناً كأساً أخرى ونظرتُ إليها فعاد إليّ شعوري بالشفقة وبالاشمئزاز من نفسي وانتابتني الكآبة.

نظرت إليّ بجديّة، ورأسها يميل جانباً.

قالت «أيها الجميل، أتعلم بمَ تفكّر العجوز الضئيلة سيبيل؟ تفكّر في أنك تحاول أنْ تتخلّص منها»

نظرتُ إليها من إحساس عميق بالفراغ وأعدتُ ملء كأسها وكأسي. ما الذي ارتكبتُهُ في حقّها سمح لها أن تقول هذا؟ هل تسرّب كله إليّ؟ أهو تصرّفي... إحساسي - تشكّلتِ الكلمة المؤلمة بشكلٍ مُفكَّك كابتسامتها المترددة - أم إحساسي ***بالمسؤولية؟*** كلها؟ أنا غير مرئيّ. قلت «خذي، اشربي»

قالت «اشربْ أنت أيضاً، أيها الجميل»

قلت «نعم». وانتقلتْ لتستقرّ بين ذراعيّ.

يبدو أنني غفوت. ورحتُ أفكّر في الثلج داخلِ الكأس، في الرنين الحاد للأجراس. شعرتُ بحزن عميق، وكأنَّ الخريف حلَّ في غضون ساعة. كانت مستلقية، وشعرها الكستنائي منهمر، تراقب بعينيها الزرقاوين، المُظلَّلتين، المُثقلتين. ومن مكان ناءٍ تناهى صوت جديد.

قالت، «لا تُجِبْ، أيها الجميل»، وصلني صوتها فجأة، خارجاً من الزمن مع حركة فمها.

قلت «ماذا؟»

قالت، وهي تمد أصابعها المطليّة أظافرها بالأحمر، «لا تُجِب، دعه يرنّ»

تناولته من يدها، وقد فهمت السبب الآن.

قالت «لا تفعل أيها الجميل».

رنَّ الهاتف في يدي من جديد ودون أي سبب معروف عبرت ذهني كلمات صلاة من عهد الطفولة كجريان ماء سريع. ثم: قلت «ألو»

كان صوتاً مجهولاً، مسعوراً من المنطقة. قال «أيها الأخ، يُستحسَن أنْ تحضر في الحال إلى هنا -»

قلت «أنا مريض. ما الخطب؟»

«ثمة مشكلة، أيها الأخ، وأنت الوحيد الذي يستطيع -»

«أي نوع من المشاكل؟»

«مشكلة عويصة، أيها الأخ: إنهم يُحاولون أنْ –»

ثم تناهى إلى سمعي ضجيج عال لتكسُّر زجاج، بعيد، هش وصاف، تبعه تحطُّم وانقطع الخط.

قلت، عندما رأيتُ سيبيل تتهادي أمامي، «ألو»، وشفتاها تقولان «أيها الجميل»

ثم حاولت أنْ أتصل، فسمعتُ إشارة انشغال الخط: آمين–آمين–آه مين؛ جلستُ برهة. أهي خدعة؟ أيعلمون أنها معي؟ أعدتُ السماعة إلى مكانها. كانت عيناها ترنوان إليّ من ظلّهما الأزرق «أيها الجـ –»

والآن نهضتُ واقفاً وجررتها من ذراعها. «هيا بنا، سيبيل. إنهم في حاجة إليّ في المدينة» – مُدركاً عندئذٍ فقط أنني سأذهب.

قالت «كلا»

«بل نعم. تعالي»

سقطتْ مستلقية على السرير تتحداني. حرّرتُ ذراعها وتلفّت حولي، مشوّش الذهن. أي نوع من المشاكل في مثل هذه الساعة؟ ولِمَ ينبغي أنْ أذهب؟ راقبتني، وعيناها تتلاطمان برّاقتين في الظل الأزرق. وشعرت بقلبي مُكتئباً وحزيناً بعمق.

قالت «ارجع، أيها الجميل»

قلت «كلا، فلنستنشق بعض الهواء»

هنا، أمسكتُها من رسغيها، تفادياً لأظافرها المطليّة بالأحمر اللمّاع، ورفعتُها وجررتها نحو الباب. ترنحنا، وشفتاها تحفّ بشفتيّ ونحن نتهادى هناك. تشبّثت بي وتشبثتُ أنا بها، لبرهة، مع شعور بحزن هائل. ثم أخذت تفوِّق والتفتُّ نحو الغرفة ألقي عليها نظرة جوفاء. وانعكس الضوء على سائل كأسينا الكهرماني.

قالت «أيها الجميل، يمكن للحياة أنْ تكون مختلفة جداً –»

قلت «لكنها لا تكون كذلك أبداً»

قالت «أيها الجميل»

هدرتِ المروحة. وفي إحدى الزوايا، كانت حقيبتي مغطاة بذرات من الغبار كالذكريات – من ليلة الشجار الجماعي. شعرتُ بأنفاسها حارة عليّ

فدفعتها عني برفق وثبّتُها على إطار الباب، ثم ذهبتُ مُسرعاً كالصلاة التي تذكّرتها، وأحضرتُ الحقيبة، مُزيلاً الغبار عنها بساقي وشاعراً بالثقل غير المتوقَّع عندما تأبطتُها تحت ذراعي. وقرقع شيء داخلها.

كانت لا تزال تراقبني، وتوهجت عيناها وأنا أُمسك بذراعها.

قلت «كيف حالك، سيبيل؟»

قالت «لا تذهب، أيها الجميل. فليذهب جورجي. ممنوعة الخُطب هذه الليلة»

قلت، مُمسِكاً بذراعها بحزم، وجاراً إياها وهي تتنهّد، ووجهها الحزين يلتفتُ نحوي، «هيا»

مشينا بهدوء في الشارع. كان رأسي لا يزال مشوشاً بشدة من تأثير المشروب، وعندما نظرتُ إلى جوف الخواء الهائل للظلام شعرتُ برغبة في البكاء... ما الذي يحدث في المدينة؟ ولِمَ أقلق بشأن رجال بيروقراطيين، عُمي؟ أنا رجل غير مرئيّ. حدّقتُ إلى الشارع الهادئ، شاعراً بتعثّرها إلى جانبي، تُهمهمُ بلحنٍ قصير؛ لحن منعش، ساذج وبهيج. سيبيل، يا حبي المتأخّر جداً والمُبكِّر جداً... آه! وشعرتُ بغُصَّة. كانت حرارة الشارع تكتنفني. رحتُ أبحث عن سيارة أجرة ولكن لم تمرّ أي منها. أخذت تهمهم إلى جواري، وعطرها وهميّ في الليل. انتقلنا إلى المبنى التالي ولا أثر لأية سيارة. وحذاؤها عالي الكعب يسحق أرض الرصيف. استوقفتُها.

قالت «الجميل المسكين. لا أعرف اسمه...»

التفتُّ وكأنّني تلقّيتُ ضربة. «ماذا؟»

قالت، وعلى فمها ابتسامة مُرهقة، «حيوان مجهول الهوية وفحل جميل»

نظرتُ إليها، تنزلقُ برشاقة على كعبها العالي، **يسحق**، **يسحق** أرض الرصيف.

قلت، لنفسي أكثر مني لها، «سيبيل، أين سينتهي الأمر» ثمة شيء ألحَّ عليّ بالذهاب.

ضحكتْ. «آآآآآه، في السرير. لا تذهب، أيها الجميل، وسيبيل ستعتني بك»

هززتُ رأسي رفضاً. كانت النجوم هناك، عالية، عالية، تدور. ثم أغمضتُ عينيّ فانسابتا حمراوان خلف جفنيّ؛ ثم ثبتتا قليلاً فأمسكتُ بذراعها.

قلت «اسمعي، يا سيبيل، قفي هنا قليلاً بينما أذهب إلى الجادة الخامسة لأُحضِر سيارة أجرة. قفي هنا، يا عزيزتي، واثبتي»

ترنحنا أمام مبنى يبدو عليه العتق، نوافذه مظلمة. وبدل بقع الضوء على الواجهة ظهرت رصائع إغريقية ضخمة، فوق منظومة متاهة مُظلمة من الحجر، ودعمتُها على الرواق بما عليه من شكل حجري ضخم ومنحن. اتكأت هناك، بشعرها المُشوَّش، تنظر إليّ تحت ضوء الشارع، تبتسم. ظلّ وجهها يميل إلى أحد الجنبين، وعينها اليُمنى مُغمضة بعجز.

قالت «حاضر، أيها الجميل، حاضر»

قلت، متراجعاً، «سأعود في الحال»

هتفت «يا جميل، يا حبيبي الجميل»

قلت في نفسي، ها هو الحب الحقيقي، حب الدب بوغي، وأنا أبتعد. أكانت تناديني بالجميل أم بالدب بوغي، جميل أم السامي... ما معنى أي منهما؟ أنا غير مرئي...

خضتُ خلال هدوء الشارع المتأخّر، آملاً في أنْ تمرّ سيارة أجرة قبل أنْ أقطع المسافة كلها. وأمامي في الجادة الخامسة كانت الأضواء مُشرقة، وبضع سيارات تنطلقُ خلال فتحة فم الشارع وبعيداً وعالياً، كانت الأشجار – ضخمة، قاتمة وباسقة. تساءلت، ما الذي يجري. ما سبب استدعائي في مثل هذا الوقت المتأخّر جداً – ومَنْ؟

أسرعتُ متقدماً، بقدمين غير ثابتتين.

هتفت خلفي «يا جميييل، يا جميييل!»

لوّحت بيدي دون أنْ ألتفت. لن أفعل بعد الآن، كفى، كفى. وتابعت سيري.

في الجادة الخامسة مرّتْ سيارة أجرة وحاولت أنْ أستوقفها، لكنني لم أسمع إلا صوتاً مرتفعاً لشخص، عبرَ الصوت مرحاً، ونظرت على طول

الشارع المُضاء بحثاً عن أخرى، لأسمع فجأة صوت شدّ مكابح فالتفتُّ لأرى السيارة تتوقف وذراعاً بيضاء تومئ. تراجعت سيارة الأجرة، واقتربت، واستقرت مع قفزة. ضحكتُ. إنها سيبيل. تعثّرت وأنا أتقدَّم حتى وصلت إلى الباب. ابتسمت لي، ورأسها يطل من إطار النافذة، ولا يزال يميل إلى الجنب، وشعرها منسدل.

«اركب، أيها الجميل، وخُذني إلى هارلم...»

هززتُ رأسي رافضاً، شاعراً به ثقيلاً وحزيناً. قلت «كلا، لدي عمل يجب إنجازه، يا سيبيل. ينبغي أنْ تعودي إلى المنزل...»

«كلا، أيها الجميل، خُذني معك»

التفتُّ إلى السائق، ويدي على الباب. كان ضئيل الحجم، أسود الشعر ومُعترِضاً، وضوء أحمر مائل منبعث من ضوء الشارع يُلوِّن ذؤابة أنفه.

قلت «اسمع، خذها إلى المنزل»

أعطيته العنوان وآخر ورقة نقدية بقيمة خمسة دولارات بحوزتي. أخذها مُبدياً اعتراضة النكد.

قالت «كلا، يا جميل. أريد أنْ أذهب إلى هارلم، لأكون معك!»

قلت، متراجعاً عن حافة الرصيف، «ليلة هانئة»

كنا وسط ساحة ورأيتهما يبتعدان.

قالت «كلا، أيها الجميل. لا تذهب...» وظهر وجهها، ذو العينين المتسعتين والشاحب من الباب. وقفتُ مكاني، أراقب السائق يغوصُ سريعاً وبامتعاض بعيداً عن الأنظار وأثر الضوء خلفه أحمر كأنفه.

مشيتُ مُغمض العينين، وكأنني أطفو أحاول أنْ أُصفّي ذهني، ثم فتحتهما واجتزتُ جانب المتنزه، على طول بلاط الشارع. وفوقي عالياً كانت السيارات تدور وتدور على الطريق، وأضواؤها الأمامية تطغى. سيارات الأجرة كلها كانت مشغولة، وكلها تتجه إلى قلب المدينة. مركز الجذب. وتابعت طريقي أتهادى، ورأسي يدور.

ثم بالقرب من الشارع رقم 110 رأيتها من جديد. كانت تنتظر تحت

مصباح الشارع. لم أندهش؛ أصبحتُ قَدَرياً. اقتربتُ ببطء، وأنا أسمع ضحكها. كانت تتقدمني وبدأتْ تركض، حافية، بارتخاء، كما في حلم. تركض. بخطوة غير ثابتة ولكن بسرعة وأنا مُندهش وعاجز عن اللحاق بها، بساقين كالرصاص، أراها أمامي وأهتف «سيبيل، سيبيل!» راكضاً بقدمين متيبستين على طول رصيف المتنزه.

هتفت، ناظرة خلفها وتتعثّر في خطوتها، «هيا، أيها الجميل. أمسك بسيبيل... سيبيل» راكضة حافية وبلا حزام على طول المتنزه.

ركضتُ، متأبطاً حقيبتي الثقيلة. شيء ما أنبأني بأنَّ عليّ أنْ أذهب إلى المكتب... هتفت «سيبيل، انتظري!»

ركضتْ، وألوان ثوبها ترفرف كألسنة اللهب في المواقع البرّاقة وسط الظلام. حركة مع حفيف، وساقان تعملان بطريقة خرقاء تحتها وكعبا الحذاء الأبيضان يومضان، وأذيال الثوب ترتفع عالياً. قلت لنفسي، دعها تذهب. لكنها عندئذٍ كانت تعبر الشارع راكضة بجموح ووقعت عند حافة الرصيف ووقفت وتابعت طريقها من جديد بمؤخرة بارزة، غير متوازنة على الإطلاق، بما أنَّ زخمها قد انتهى الآن.

قالت مع اقترابي «أيها الجميل، اللعنة، أيها الجميل، أتضغط عليّ؟»

قلت بلا غضب «انهضي. انهضي» ممسكاً بذراعها الناعمة. نهضتْ واقفة، وذراعاها مفتوحتان واسعاً استعداداً لاستقبال عناق.

قلت «كلا، اليوم ليس الخميس. يجب أنْ أذهب إلى هناك... ماذا لديك خطّة لي، سيبيل؟»

«مَنْ، أيها الجميل؟»

«جاك وجورج... توبيت والجميع؟»

قالت «أنت تُرهقني، أيها الجميل. انسَ أمرهم... إنهم حفنة من الرؤوس الميتة... فارغة، كما تعلم. ليس نحن الذين نصنع هذا العالم العفن، أيها الجميل. انسَ –»

رأيتُ سيارة الأجرة في اللحظة المناسبة تقترب بسرعة من المنعطف،

ولاحت حافلة من طابقَين من مسافة ليست بالبعيدة إلى الخلف. نظر سائق سيارة الأجرة، وقد أخرج رأسه من النافذة من مجلسه خلف المقود وهو ينعطف بسرعة عند زاوية حادة ويتوقف عند الرصيف. بدا على وجهه تأثير الصدمة، وعدم التصديق.

قلت «هيا بنا الآن، سيبيل، ومن دون خدع»

قال السائق، وفي صوته نبرة القلق، «عفواً، أيها العجوز، ولكن لا أظنك ستأخذها إلى هارلم؟»

قلت «كلا، السيدة ستذهب إلى المدينة. اركبي يا سيبيل»

قالت للسائق، الذي نظر إليّ بصمت، وكأنني مجنون، «الجميل دكتاتور عجوز»

تمتم «إنه حصان سباق. أفضل حصان سباق!»

لكنها ركبتْ.

«إنه مجرد دكتاتور عجوز»

أمرته «اسمع، خذها مباشرة إلى المنزل ولا تسمح لها بمغادرة السيارة. لا أريد لها أنْ تتجول في أنحاء هارلم. إنها سيدة فخمة، وثمينة –»

قال «طبعاً، يا رجل، لا ألومك. حوادث خطيرة تقع هناك»

عندما هتفت «ما الذي يقع هناك؟»، كانت السيارة قد انطلقت.

هتف وهو يغيّر السرعات «إنهم يُحطمون المكان». راقبتهما يبتعدان ثم اتجهت نحو موقف الحافلات. قلت في نفسي، وأنا أُسرِع مُشيراً للحافلة وأركب، هذه المرة سوف أتيقّن. إذا عادت، فسوف تجد أنني قد رحلت. وأنا أعلم أكثر من أي وقت أنني يجب أنْ أُسرِع لكنَّ رأسي كان لا يزال شديد التشوُّش، ولم أتمكن من تمالك نفسي.

جلستُ قابضاً على حقيبتي، مُغمض العينين، شاعراً كأنَّ الحافلة تُبحر بسرعة من تحتي. قريباً سوف تصل إلى الجادة السابعة، قلت في نفسي، سامحيني يا سيبيل. وانطلقت الحافلة.

ولكن عندما فتحتُ عينيّ كنا ننعطف نحو ريفرسايد درايف. هذا

أيضاً قبلته بهدوء، فالليلة كلها كانت مُشتتة. لقد أفرطتُ في الشرب. ومرّ الوقت مُسرعاً، غير مرئيّ، وحزيناً. وأطللتُ فرأيتُ سفينة تتقدم عكس التيار، وأنوارها البرّاقة كنقاط في الليل. وصلتني رائحة البحر المنعشة وتغلغلت فيّ، متواصلة وقوية وسط ضباب القوارب الراسية المنقشع بسرعة، وتدفقت المياهُ الداكنة والأضواءُ مارة. وعبر النهر كانت تقع جيرزي وتذكرتُ ولوجي هارلم. قلت في نفسي، قبل زمن طويل، قبل زمن طويل. وكأنني غرقتُ في النهر.

إلى يساري وأمامي كان برج الكنيسة يسمقُ عالياً، يُتوّجه ضوء التحذير الأحمر. عندئذٍ كنا نمر من أمام ضريح البطل وتذكرتُ زيارتي له ذات مرة. ترتقي بضع دَرَجات وتلج وتنظر إلى مكان بعيد في الأسفل لتجده، يرتاح، مُجللاً بالأعلام...

سرعان ما وصلنا الشارع رقم 125. تعثّرت وأنا أترجّل، وسمعت الحافلة تبتعد وأنا أواجه المياه. كان الهواء عليلاً، ولكن هنا مع زوال الحركة عادت الحرارة، وتشبّثتْ. وإلى الأمام بعيداً داخل الظلام رأيتُ الجسر الضخم، وحبالاً من الأضواء عبر النهر القاتم؛ وأقرب، عالياً فوق خط الساحل، الأجراف الشاهقة، وحزنها الثوريّ ضائع داخل الأضواء المُشاغبة لسكك الحديد الأفعوانية. «لقد حان الوقت...» هكذا بدأتِ اللافتة على طول النهر، ولكن مع ثقل وطأة التاريخ عليّ بجزمته المُدجج نعلها بالمسامير، هكذا فكّرتُ وأنا أضحك، ما الداعي إلى القلق بشأن الزمن؟ اجتزتُ الشارع نحو نافورة الشرب، شاعراً بالمياه منعشة، وهي تهبط، ثم بلّلتُ منديلاً ومسحتُ به وجهي، وعينيّ. ومضَت المياه، وغرغرت، وانتثرت. مددتُ وجهي إلى الأمام، شاعراً بالبرودة الرطبة، وسامعاً فرح النوافير الطفولي. ثم سمعت الضجيج الآخر. لم يصدر عن النهر أو عن السيارات المنعطفة التي تنطلق مسرعة في الظلام، بل بدا كأنَّ حشداً بعيداً أو نهراً سريع التدفق عند مدّ فيضان.

تقدّمتُ، وعثرتُ على الدّرج وبدأتْ أهبط. تحت الجسر كان نهر الشارع الحجري القاسي يمتد، ونظرتُ برهة إلى أمواج بلاط الشارع وكأنني كنتُ أتوقّع مياهاً، وكأنَّ النافورة في الأعلى تستمد مياهها منه. ومع ذلك سوف

أدخل وأعبر إلى هارلم. وأسفل الدّرَج كانت سكّة حافلة الترولّلي تلمع كالفولاذ. أسرعتُ الخُطى، وأخذ الضجيج يقترب، بأصواته الغفيرة، يُهمهم، يكتنفني، يُخرِسُ الهواء، وأنا أهبط الدرج. وصلني، كسقسقة، كهديل، كهدير مكبوت كأنه يحاول أنْ يُخبرني بشيء، أنْ يسلّمني رسالة. توقفتُ، أتلفّتُ حولي؛ والعوارض الخشبية تمشي مبتعدة بانتظام داخل الظلام، وفوق بلاط الرصيف سطعتِ الأضواء الحمراء. ثم أصبحت تحت الجسر وبدا كأنهم كانوا في انتظاري أنا ولا أحد غيري - مخلصين ويتنحون جانباً لأجلي - وإلى الأبد. ونظرتُ عالياً باتجاه الضجيج، وذهني يُشكّل صورة لأجنحة، وإذا بشيءٍ يلطمُ وجهي ويمرّ بسرعة البرق، ثم شممتُ رائحة كريهة في الجو، ورأيتُ وابلاً مكسواً بطبقة، شاعراً به يرتطم بسترتي فرفعتُ حقيبتي فوق رأسي ورحت أركض، وسمعته يتناثر في المكان، منهمراً كالمطر. تحمّلتُ المحنة، مفكّراً، حتى الطيور؛ حتى الحمام والسنونو والنوارس اللعينة! ركضت من غير هُدى، أغلي من الغيظ واليأس والضحك الفظ. هارباً من الطيور إلى ماذا، لم أدر. ركضت. ما سبب وجودي هنا أصلاً؟

ركضتُ أمخر الليل، ركضتُ داخل نفسي. ركضت.



-25-

عندما وصلت مورننغسايد بدت حادثة إطلاق النار أشبه باحتفالٍ ناءٍ بالرابع من تموز، وتقدمتُ مُسرعاً. عند كنيسة القديس نيكولاس كانت أنوار الشارع مطفأة. وتصاعد ضجيج صاخب ورأيتُ أربعة رجال يركضون نحوي يجرون شيئاً أعاق سيرهم. كان خزنة.

باشرت قائلاً «ماذا»

«ابعِدْ عن الطريق!»

قفزت جانباً، نحو الشارع، وحدث توقّفٌ مفاجئ ولامع للزمن، كالفترة الفاصلة بين آخر ضربة للفأس وسقوط شجرة باسقة، كان هناك خلالها ضجيج صارخ تبعه صمتٌ صارخ. ثم ميَّزتُ أشكالاً تجثم أمام أبواب على طول حافة الرصيف؛ ثم انفجر الزمن وأصبحتُ منطرحاً في الشارع، واعياً ولكن عاجزاً عن النهوض، أكافح الشارع وأرى ومضاً ومسدسات تذهب إلى الخلف عند منعطف الجادة، واعياً إلى يساري الرجال ما يزالون يجرون بسرعة الخزنة الهادرة على طول الرصيف كدعم للشارع، وخلفي شرطيان، يكادان يكونان غير مرئيين بقميصيهما الأسودين، يُسددان بمسدسيهما اللذين يطلقان النار أمامهما. وأحد الذين يدفعون الخزنة غذّ خطاه، متقدماً أكثر، واجتاز المنعطف، وأصابت إحدى الطلقات إطار سيارة، وزعق الهواء المنبعث حاداً كحيوان ضخم يتألّم. تدحرجتُ أتخبط، أودّ لو أزحف أقرب إلى حافة الرصيف لكنني لم أستطع، شاعراً بدفءٍ رطب مُفاجئ على وجهي وأرى الخزنة تندفع بعنف إلى داخل تقاطُع الطرق والرجال يختفون في الظلام عند المنعطف، يُدمدمون، ويغيبون؛ ورحلوا، بينما الخزنة المنزلقة

تُدمدم مبتعدة عند نقطة تماس، وتنطلق إلى تقاطع الطرق وتستقر على سكة الحديد الثالثة مُطلِقة ستاراً من الشرر أضاء المبنى كحُلمٍ أزرق؛ حلم كنتُ أشهده ورأيتُ من خلاله الشرطيين يستعدان عند مجال التسديد، والقدم إلى الأمام، والأذرع الحرة على الخصر، يُطلقان النار بتسديد دقيق.

هتف أحدهما «أعلن حالة طوارئ!»، ورأيتهما يستديران ويختفيان حيث يغيب الومض الباهت لسكك حديد الترولّلي في الظلام.

فجأة دبّت الحياة في المبنى، والناس الذين بدا كأنهم ينهضون من الأرصفة كانوا يندفعون إلى واجهات المتاجر فوقي، وأصواتهم ترتفع من الإثارة. وهنا ارتفع الدم إلى وجهي وصار في إمكاني أنْ أتحرك، لأرتكز على رُكبتيّ بينما أخذ شخص من بين الحشد يُساعدني على الوقوف.

«أتتألّم، يا بنيّ؟»

«قليلاً – لا أعلم –» لم أتمكن من رؤيته بوضوح.

قال صوت «اللعنة! إنَّ في رأسه ثقباً!»

ومَض ضوءٌ في وجهي، واقترب. شعرتُ بيد قاسية على جُمجمتي ثم ابتعدت.

قال صوت «اللعنة، إنه مجرد جرح. إنها طلقة من نوع خمس وأربعين أصابت إصبعك الصغير وسقطت!»

هتفَ أحدهم من الرصيف «حسن، هذا الذي هنا سقط للمرة الأخيرة. لقد أصابوه في مقتل»

مسحتُ وجهي، ورأسي يطنّ. ثمة شيء مفقود.

قلت، ممعناً النظر في قسمات وجوههم المُعتمة، التي تلونها درجة من اللون الأزرق. نظرتُ إلى الرجل الميت. كان منبطحاً، والحشد يتجمع حوله. أدركتُ فجأة أنه ربما كنتُ أنا المنطرح هناك، شاعراً أيضاً بأنني سبق أنْ رأيته هناك من قبل، في وضح الظهيرة، قبل زمن بعيد... كم؟ قلت في نفسي، وتعرف اسمه، وفجأة اندفعت رُكبتاي إلى الأمام. جلستُ هناك، ويدي القابضة على الحقيبة مخدوشة من الشارع، ورأسي مرتخٍ نحو الأمام.

كانوا يتحركون حولي. سمعت مَنْ يقول «ابعد عن قدمي، يا رجل. كفاك تنقّلاً. هناك ما يكفي الجميع»

كان عليّ أنْ أقوم بعملٍ ما وكنتُ أعلم أنَّ نسياني ليس حقيقياً، كما يعلم المرء أنَّ تفاصيل حلمٍ ما المنسيّة ليستْ منسيّة حقاً بل يتفاداها. كنتُ أعلم، وفي ذهني كنتُ أحاولُ أنْ أخترق الستار الرمادي الذي بدا عندئذٍ أنه ينسدل خلف عينيّ بصورة شفّافة كالستار الأزرق الذي حجب الشارع عن الخزنة. زال الدوار ونجحت في النهوض، متشبثاً بحقيبتي وأضغط منديلاً على رأسي. في موقعٍ متقدّم من الشارع كان هناك ما يُشبه تكسُّر ألواح ضخمة من الزجاج ومن خلال الغموض الأزرق للظلام ومضَ الرصيفان كمرايا مُهشَّمة. كانت لافتات الشارع كلها مُطفأة، وفقدتْ أصواتُ النهار كله معناها الثابت. وفي مكان ما انطلقتْ صافرة إنذار تعلم عن وجود لص، بضجيج لا معنى له يتظاهر بأنه أسود، تبعه هتاف الفرح من اللصوص.

هتف أحدهم من مكان قريب «هيا»

قال الرجل الذي كان قد ساعدني «هيا بنا، يا صاح». أمسكني من ذراعي، كان رجلاً نحيلاً يحمل حقيبة ملابس ضخمة على كتفه.

قال «إنَّ شكلك لا يسمح لك بالبقاء هنا. إنك تتصرّف كأنك سكران»

قلت «إلى أين أذهب؟»

«أتسألني؟ إلى الجحيم، يا رجل. إلى كل مكان. يجب أنْ نتحرك، لا أعرف إلى أين –» ثم هتف «هيه، دوبريه!»

أجاب صوت «هيه، يا رجل – اللعنة! لا تهتف باسمي بصوت عالٍ. هنا، أنا هنا، أجلبُ بعض قمصان العمل»

قال «أحضر بعضاً منها لي، دو»

وصله الجواب «حسن، ولكن لا تظن أنني أبوك»

نظرتُ إلى الرجل النحيل، شاعراً بموجة من الصداقة. لم يكن يعرفني، ومساعدته لي كانت غير مُبالية...

هتف «هيه، دو، هل ستحضرها؟»

«اللعنة، نعم، حالما أحصل على تلك القمصان»

كانت الحشود تنشط ذهاباً وإياباً في المتاجر كنمل متجمِّع حول سُكَّر مسفوح. وبين حين وآخر يُسمع تحطُّم كأس، وإطلاق نار؛ وسيارات إطفاء من الشوارع البعيدة.

قال الرجل «كيف تشعر؟»

قلت «ما زلتُ أشعر بدوار، وبالضعف»

«دعني أرى إنْ كان لا يزال ينزف. نعم، سوف تكون بخير»

كنتُ أراه بشكل مبهم لكنَّ صوته كان جلياً.

قلت «طبعاً»

قال «يا رجل، أنت محظوظ لأنك لم تمُتْ. إنَّ أولاد الحرام أولئك يُحسنون إطلاق النار. في لينكس يُسددون إلى الهواء. لو استطعتُ أنْ أحصل على بندقية، لأريتهم!»، ثم قال «إليك، اشرب من هذا الويسكي الجيد»، وأخرج مقدار ربع زجاجة من جيبه الجانبي، «لدي مقدار صندوق كامل منه مخبّأ مما حصلت عليه من متجر المشروبات الذي هناك. هناك كل ما عليك أنْ تفعل هو أنْ تتنفّس، وتُصبح سكران، يا رجل. سكران! مئة نوع من الويسكي القياسي المحجوز في الجمارك يُسفَح كله في المجاري»

تناولت جرعة، وارتعشت مع هبوط الويسكي إلى جوفي ولكنني شكرت الصدمة التي أحدثها. كان حولي أناس يضجّون بحركة متفجرة، مُمزِّقة، وأشكال قاتمة بوهج أزرق.

قال، وهو ينظر إلى القِطاع المُظلِم من الحشد، «انظر إليهم وهم يأخذونه. أما أنا، فنالني التعب. هل ذهبتَ إلى لينكس؟»

قلت، وأنا أرى امرأة تمرّ بحركة بطيئة تحمل مكنسة جديدة من القش يتدلّى منها عدد من الدجاجات المذبوحة من أعناقها، «كلا»...

«اللعنة، كان ينبغي أنْ تشاهده، يا رجل. كل شيء ممزَّق. الآن تكون النساء قد عملتْ على تنظيفه. لقد رأيتُ امرأة عجوزاً تحمل على ظهرها ضلع بقرة كاملاً. يا رجل، لقد كانت ترزح تحت ثقله وهي تحاول الوصول إلى بيتها -» ثم قال، وهو ينطلق، «ها قد وصل دوبريه»

رأيتُ رجلاً ضئيلاً صلباً يخرج من بين الحشد حاملاً عدداً من الصناديق. كان يضع على رأسه ثلاث قبعات، وعدداً من حمالات البنطلونات تتدلى رخوة من كتفيه، وبينما هو يقترب منا رأيتُ أنه ينتعل جزمة من المطاط تصل حتى الردفين. وكانت جيوبه منتفخة ويحمل على كتفه كيساً من القماش يتدلى ثقيلاً خلفه.

قال صديقي، مُشيراً إلى رأسه، «اللعنة، يا دوبريه، ألم تُحضِر واحداً لي؟ من أي نوع؟»

توقف دوبريه ونظر إليه. «مع كل تلك القبعات التي في الداخل لن أخرج إلا بهذه؟ *أمجنون* أنت، يا رجل؟ وكلها جديدة، وألوانها زاهية؟ هيا، فلنذهب ونحصل على بعضها قبل أنْ تعود الشرطة. اللعنة، انظر إلى ذلك الشيء يتوهج!»

نظرت نحو ستار من اللهب الأزرق، ومن خلاله كان أشخاص مُبهمو الشكل يجتهدون. هتف دوبريه وإذا برهط من الرجال يخرجون من بين الحشد وينضمون إلينا في الشارع. وتحركنا، وصديقي (سكوفيلد، كما ناداه الآخرون) يقودني. كان رأسي يؤلمني، ولا يزال ينزف.

قال، مُشيراً إلى حقيبتي، «يبدو أنك خرجتَ ببعض الغنائم أيضاً»

قلت، «ليس الكثير»، مفكّراً، غنائم؟ *غنائم*؟ وفجأة عرفتُ لماذا كانت ثقيلة، متذكّراً حصّالة ميري المكسورة والقطع النقدية! وعندئذٍ وجدتني أفتح الحقيبة لأضع أوراقي كلها – أوراق انتسابي إلى الأخوية، الرسالة المجهولة المصدر، بالإضافة إلى دمية كليفتون – داخلها.

«املأها، يا رجل. لا تخجل. انتظر ريثما نعالج أحد محلات الرهن. لقد حصل صاحبنا دو على ملء كيس لجمع القطن من المسروقات. إنه جدير بأنْ يستمر في هذا العمل»

قال رجل يقف على مقربة مني «حسن، لعنني الله. لقد حسبتُ أنه كيس من القطن. من أين حصل على ذلك الشيء؟»

قال سكوفيلد «لقد أحضره معه عندما قدِمَ إلى الشمال، ودو يُقسِم على أنه عندما سيعود سيكون في حوزته الكثير من الأوراق المالية من فئة عشرة

دولارات. اللعنة، بعد هذه الليلة سوف يحتاج إلى مخزن يضع فيه كل الأشياء التي لديه. املأ تلك الحقيبة، يا صاحبي. احصل على شيء ما»

قلت «كلا، لدي ما يكفيني فيها». وعندئذٍ تذكرتُ بكل وضوح وجهتي ولكن لم أستطع أنْ أغادرهما.

قال سكوفيلد «لعلَّك على حق. ما أدراني، ربما تملأها بالأحجار الكريمة أو ما شابه. على الرجل إلا يكون جشعاً. وإنْ كان الوقت قد حان ليحدث مثل هذا»

تقدّمنا. هل ينبغي أنْ أغادر، وأذهب إلى المنطقة؟ أين هم، أفي احتفال عيد الميلاد؟

قلت «كيف بدأ هذا كله؟»

بدت الدهشة على سكوفيلد. «لعنني الله إنْ كنتُ أعلم، يا رجل. ثمة شرطي أطلق الرصاص على امرأة أو ما شابه»

اقترب رجلٌ آخر منا عندما سقطتْ قطعة ثقيلة من الفولاذ في مكان ما.

قال «اللعنة، ليس هذا ما بدأ الأمر، بل ذلك الشخص، ما اسمه...؟»

قلت «مَنْ؟ ما اسمه؟»

«ذلك الشاب!»

«في الواقع، لقد جنّ جنون الناس حول ذلك...»

فكّرتُ، إنه كليفتون. إنه من أجل كليفتون. ليلة من أجل كليفتون.

قال سكوفيلد «أوه، يا رجل، لا تُخبرني. ألم أشاهد ما حدث بأم عينيّ؟ عند حوالي الساعة الثامنة في لينكس في الشارع رقم 123 صفع ذلك الشرطي الأيرلندي طفلاً لأنه أمسك دمية ثم صفع الشرطي الأم التي أخذتها منه وهذا ما أثار الغضب»

قلت «أكنتَ هناك؟»

«كما أنا هنا. قال أحدهم إنَّ الطفل أثار جنون الشرطي لأنه أمسك بقطعة حلوى اسمها على اسم امرأة بيضاء»

قال آخر «اللعنة إنْ كان هذا ما سمعت. عندما اقتربت قالوا إنَّ امرأة بيضاء هي التي أثارت الأمر بمحاولتها خطف حبيب فتاة سوداء»

قال دوبريه «اللعنة على *الذي* أثار الأمر. كل ما أريد هو أنْ يستمر مدة أطول»

قال صوت آخر «كانت فتاة بيضاء، صحيح، ولكن ليس هذا ما حدث. لقد كانت ثملة –»

قلت في نفسي، ولكن لا يمكن أنْ تكون سيبيل؛ كان الأمر قد بدأ.

هتف رجل يحمل منظاراً مُكبّراً من واجهة محل الرهن، «أتريد أنْ تعرف مَنْ الذي أثار الأمر؟ أحقاً تريد أنْ تعرف؟»

قلت «طبعاً»

«حسن، لا داعي إلى الذهاب بعيداً. إنَّ الذي أثاره هو ذلك القائد العظيم، راس الناصح!»

قال أحدهم «مُطارد القرود ذاك؟»

«اسمع، يا ابن الحرام!»

قال دوبريه «لا أحد يعلم كيف بدأ الأمر»

قلت «لابد من وجود شخص يعلم»

قدّم لي سكوفيلد قارورة الويسكي. فرفضتها.

قال «اللعنة، يا رجل، لقد انفجر الأمر وكفى. هذه أيام الكلب»

«***أيام الكلب***[45]؟»

«طبعاً، هذا الجو الحارّ»

«أؤكد لك أنهم غضبوا بسبب ما حدث لذلك الشاب، ما اسمه...»

كنا نجتاز أحد المباني وسمعت صوتاً يهتف بشكل مسعور، «هذا متجر للملونين! متجر للملونين!»

قال صوت «إذنْ ضع علامة، يا ابن القحبة. لعلك عفن كالآخرين»

قال سكوفيلد «اسمع ما يقول ابن الحرام. إنه سعيد بكونه ملوّناً للمرة الوحيدة في حياته»

تابع الصوت المسعور «إنه متجر للملونين»

45– أيام الكلب: هي الترجمة الحرفيّة لِما يُسمّى باللغة العربية أيام الشّعرى، وهي الفترة الممتدة بين شهر تموز وأوائل أيلول وتتميَّز بشدّة القيظ والرطوبة. – المترجم

«هيه! أواثق من أنه ليس فيك دم أبيض؟»
قال الصوت «كلا، *يا سيدي!*»
«هل أُفجّره، يا رجل؟»
«ولِمَ؟ ليس في حوزته أي شيء. دع ابن القحبة وشأنه»
وبعد اجتيازنا عدداً من الأبواب الأخرى وصلنا إلى متجر للخردوات. قال «هنا موقفنا الأول، يا رجال»
قلت «ماذا سيحدث الآن؟»
قال، ناصباً رأسه ذا القبعات الثلاث، «مَنْ أنت؟»
باشرت بالقول «لا أحد، فقط فتى من الفتيان –»
«أمتأكّد أنت من أنني لا أعرفك؟»
قلت «متأكّد تماماً»
قال سكوفيلد «إنه طيب، يا دو. لقد أطلقَتِ الشرطة النار عليه»
نظر دوبريه إليّ ورفسَ شيئاً – مقدار رطل من الزبد، مُرسلاً إياه عبر الشارع الساخن. قال «نحن نعمل على القيام بما ينبغي القيام به. أولاً نحصل على مصباح بطارية للجميع... ولننظم أنفسنا، كلنا. إننا نصطدم بعضنا ببعض. هيا!»
قال سكوفيلد «ادخل، يا صاح»
لم أشعر بأية حاجة إلى قيادتهم أو إلى مغادرتهم؛ كنتُ سعيداً باللحاق بهم؛ شعرتُ بحاجة إلى معرفة المكان والشيء الذي يقودونني إليه. وطوال الوقت كنتُ أفكّر في الذهاب إلى المنطقة التي تنتظرني. ولجنا المتجر إلى الظلام الذي يلمع بالمعدن. تقدموا بحرص، وسمعتهم يفتشون، يرمون الأغراض على الأرض. ورنّ صندوق النقود.
هتف أحدهم «هنا توجد بعض مصابيح البطارية»
قال دوبريه «كم عددها؟»
«كثيرة، يا رجل»
«حسن، وزّعها على الجميع. هل تحتوي بطاريات؟»
«كلا، ولكن هناك الكثير منها أيضاً، هناك عدد من الصناديق»

«حسن، أعطني واحداً مع بطاريات لكي أستطيع أنْ أعثر على الغنائم. ثم أعط لكلٍ مصباحاً»

قال سكوفيلد «هنا توجد بعض الدلاء»

«إذن لم يبقَ أمامنا إلا أنْ نعثر على مكان حفظ الدلاء»

قلت «زيت؟»

«فحم، زيت، يا رجل»، ثم هتف «هيه، كلكم، إياكم والتدخين هنا»

وقفتُ بجوار سكوفيلد أُصغي إلى الضجيج وهو يتناول مجموعة من دلاء الزنك ويوزعها. هنا دبّت الحياة في المتجر بفعل الأضواء الساطعة والظلال الخفّاقة.

هتف دوبريه «أخفضوا الأضواء نحو الأرض. لا تلفتوا أنظار الناس لكيلا يتعرفوا علينا. عندما تحصلون على الدلاء قفوا صفاً واحداً وسوف أملأها»

«أصغِ إلى العجوز دو وهو يعمل – إنه ابن حرام، أليس كذلك، يا صاح؟ لطالما أحبّ أنْ يكون قائداً. ودائماً يقودني إلى المشاكل»

قلت «وإلى ما نحن نستعد لنفعل؟»

قال دوبريه «سوف ترى. هيه، أنت الذي هناك، اخرج من خلف ذلك النضد وخذ هذا الدلو، ألا ترى أنَّ صندوق الحساب خال، وأنه لو كان فيه شيء لاستوليتُ عليه بنفسي؟»

فجأة سكتتْ قعقعة الدلاء. انتقلنا إلى الغرفة الخلفية. وعلى ضوء المصباح رأيتُ صفاً من براميل الوقود مُعلّقة على مناصب. وقف دوبريه أمامها منتعلاً جزمة الأرداف الجديدة لكي يملأ كل دلو بالزيت. تحركنا ببطء. ملأنا دلاءنا، وخرجنا صفاً واحداً إلى الشارع. وقفتُ في الظلام شاعراً بالإثارة تتصاعد بينما أصواتهم تعزف من حولي. ما معنى ذلك كله؟ ماذا يجب أنْ أرى فيه، أو *أفعل* بشأنه.

قال دوبريه «بهذا الوقود يجب أنْ نمشي في وسط الشارع. المكان قريب من هنا»

ثم بينما كنا نتقدم ركضت مجموعة من الفتية بيننا وبدأ الرجال يستخدمون مصابيحهم، ليكشفوا الأشكال المندفعة التي تضع شعراً أصفر مستعاراً،

وأطراف أذيال المعاطف المسروقة تتطاير. وخلفهم جاءت عصابة مُسلّحة ببنادق دمية أُخِذَتْ من متجر الجيش والبحرية. ضحكتُ مع الآخرين، مفكِّراً: يوم عطلة لكليفتون.

أمرَ دوبريه «أطفئوا الأضواء!»

تناهى من خلفنا صياح، وضحك؛ ومن أمامنا وقعُ أقدام الفتية الراكضين، وصفير سيارات إطفاء بعيدة، تندفع مسرعة، وخلال فترات الهدوء، تناثُر الزجاج المُهشَّم المتواصل. وشممتُ رائحة الوقود وهو يُصبّ من الدلاء ويرتطم بأرض الشارع.

فجأة قبض سكوفيلد على ذراعي. «يا ربي، انظر هناك!»

رأيتُ حشداً من الرجال يركضون جارّين معهم عربة بوردن لتوزيع الحليب، وعلى قمتها جلست امرأة ضخمة الجثة تضع مئزراً قطنياً للأطفال، مُحاطة بصفٍ من أضواء سكك الحديد، جالسة تشرب البيرة من برميل يقبع أمامها. وكان الرجال يركضون بحنق بضع خطوات ثم يتوقفون، ليرتاحوا بين النوبات، ثم يركضون بضع خطوات ويرتاحون، يصيحون ويضحكون ويشربون من إبريق، وهي على القمة رافعة رأسها تصدح بكل حماس وبأعلى صوتها بجرس صوت مغنية بلوز:

«لو لا الحَكَم،
لما قُتِل جو لويس
الحَكَم جيم
بيرة للجميع!!»

– وصوت تحريك مغرفة البيرة.

تنحينا جانباً، مذهولين، وهي تنحني بكياسة من جانب إلى جانب كسيدة بدينة سكرى في استعراض للسيرك، والمغرفة كملعقة ثقيلة بيدها هائلة الحجم. ثم ضحكتْ وشربت بنهم وهي تمد يدها الحرة بحركة لا مبالية وترمي ربع غالون بعد ربع غالون من الحليب إلى الشارع. وطوال الوقت يركض الرجال بالعربة فوق البقايا. ومن حولي كان صياح الضحك والاستهجان.

قال سكوفيلد بشجاعة «يُستحسن أنْ يوقِف أحدهم هؤلاء الحمقى. هذا ما أسميه التمادي في الأشياء. اللعنة، كيف سيُنزلونها بعد أنْ تمتلئ بالبيرة؟ فليُجبني أحدكم. كيف سيُنزلونها؟ وهي هنا تسفح كل ذلك الحليب الطيب!»

أثارت المرأة الضخمة أعصابي. الحليب والبيرة – شعرت بالحزن، وأنا أراقب العربة تميل بشكل خطير عند المنعطف. وتابعنا المسير، متجنبين الزجاجات المكسورة والوقود يُراق على الحليب الشاحب اللون المسفوح. ما أكثر الأحداث التي وقعت؟ لماذا كنتُ ممزَّقاً؟ وانعطفنا عند إحدى الزوايا. ورأسي لا يزال يؤلمني.

لمسَ سكوفيلد ذراعي. قال «ها قد وصلنا»

وصلنا إلى مبنى سكنيّ ضخم.

قلت «أين نحن؟»

قال «هنا يُقيم مُعظمنا. هيا بنا»

هذا هو الأمر إذن، هذا هو الغرض من الوقود. لم أصدِّق، لم أصدق الجرأة التي يتمتعون بها. بدا كأنَّ النوافذ كلها فارغة. هم الذين أعتموها. عندئذ لم أكن أستطيع الرؤية إلا على ضوء المصباح أو اللهب.

قلت، أنظر عالياً، عالياً، «أين تعيش؟»

قال سكوفيلد «أتسمّي *هذه* حياة؟ إنها الطريقة الوحيدة للتخلّص منها، يا رجل...»

بحثتُ عن أي تردُّد في أشكالهم المبهمة. وقفوا ينظرون إلى المبنى الشامخ فوقنا، والظلام المائع للزيت يضطرب بفتور في بقع الضوء الشاردة التي سقطت على دلائهم، يميلون إلى الأمام، وأكتافهم منحنية. لا أحد قال «كلا»، بالكلام أو بالموقف. وفي النوافذ المُظلمة وعلى الأسقُف فوقها صرتُ أميِّز أشكالاً لنساءٍ وأطفال.

اقترب دوبريه من المبنى.

قال، ورأسه ذو القبعات الثلاث يبرز بصورة غريبة نحو أعلى رواق المدخل، «والآن انظروا جميعاً. أريد إخراج كل النساء والأطفال والعجائز

والمرضى. وعندما ترتقون الدرج مع الدلاء توجهوا إلى الأعلى مباشرة. وأعني بكلامي إلى *أعلى!* وعندما تصلون إلى هناك أريد منكم أنْ تفتشوا كل غرفة باستخدام مصابيحكم الكاشفة للتيقّن من أنه لم يتبقَّ أحد، وبعد أنْ تخرجوهم ابدأوا برش الوقود. وبعد أنْ ترشّوا الوقود سوف أصيح، وبعد أنْ أصيح ثلاث مرات أريد منكم أنْ تقدحوا أعواد الكبريت. وبعد ذلك فليتصرف كل على هواه!»

لم يخطر في بالي أنْ أتدخّل، أو أنْ أستفهم... لقد كانت لديهم خطّة. وكنتُ قد بدأتُ أرى النساء والأطفال يهبطون الـدّرَج. كان هناك طفل يبكي. وفجأة توقّفَ الجميع، وأخذوا ينظرون بعيداً إلى الظلام. في مكان ما قريب هزَّ صوت رهيب الظلام، مطرقة من الهواء تضرب بقوة كمدفع رشّاش. توقفوا بحساسيّة أيل يرعى، ثم عادوا إلى عملهم، وتحرّكت النساء والأطفال من جديد.

قال دوبريه «لا بأس عليكم، جميعاً. فلتمشِ النساء على الطريق نحو الجماعة التي سيقمن معها. واحتفظوا بالأطفال!»

ضرب أحدهم ظهري بقوة فاستدرتُ بحركة سريعة إلى الخلف، لأرى امرأة تندفع وتتجاوزني وترتقي لتقبض على ذراع دوبريه، وامتزج شكلاهما بينما ارتفع صوتها، رفيعاً، مرتعشاً ويائساً.

قالت «أرجوك، يا دوبريه، *أرجوك*. أنت تعلم أنَّ وقتي قد أزف... ***تعلم*** هذا جيداً. إذا فعلت ذلك، إلى أين سأذهب؟»

ابتعد دوبريه وارتقى إلى درَجة أعلى. نظر نحو الأسفل إليها، هازّاً رأسه ذا القبعات الثلاث. قال بصبر «الآن ابعدي عن طريقي، لوتي. لماذا تُثيرين الموضوع الآن؟ لقد خُضنا فيه بما يكفي وأنت تعلمين أنني لم أتغيَّر». ثم قال، وهو يمد يده إلى جزمته التي تصل إلى فخذه ومُخرِجاً مُسدساً مُلبَّساً بالنيكل ومُلوّحاً به، «وانظروا أنتم الباقين كلكم هنا، لا تعتقدوا أنه سيكون هناك أي تغيير في الفكر. ولا أسعى إلى إثارة أي جدال»

«أنت على حق، دوبريه. نحن معك!»

قال «لقد توفي طفلي متأثراً بمرض السُل في بؤرة الموت هذه، لكنني

أراهن على أنّه لن ***يولَد*** هنا أحد بعد اليوم. والآن، يا لوتي، اذهبي في طريقك واتركينا نحن الرجال نعمل»

تراجعت وهي تبكي. نظرتُ إليها، وهي بحذاء المنزل، منتفخة الثديين، وبطنها ثقيل وكبير. استلمَتْها يدا امرأة من بين الحشد وأبعدتْها، وعيناها الكبيرتان المُخضلتان تلتفتان برهة نحو الرجل ذي الجزمة المطاطية.

أي نوع من الرجال هو، ماذا يمكن أنْ يكون رأي جاك فيه؟ جاك. ***جاك؟*** وما دخله في هذا؟

قال سكوفيلد، وهو يلكزني، «هيا بنا، يا صاح». تبعته، مملوءاً بإحساس بزيف جاك المُثير للحنق. ودخلنا، مرتقين الـدّرَج، على هُدى أضواء المصابيح الكاشفة. أمامي رأيتُ دوبريه يتقدّمنا. كان من النوع الذي لم يُعلِّمني أي شيء في حياتي أنْ أراه، أو أفهمه، أو أحترمه، رجلاً خارج المُخطط حتى الآن. ولجنا الغرف التي تنتثر على أرضها آثار الإخلاء السريع. كانت حارة، وضيّقة.

قال سكوفيلد «هذه شقّتي. سوف يُفاجأ بقّ الفراش!»

أرقنا الوقود في أرجاء الشقّة، على الحشيّة القديمة، على طول الأرضيّة؛ ثم انتقلنا إلى الرواق، مُستخدمين ضوء المصباح الكاشف. وصدر عن أرجاء المبنى كله وقع أقدام، وإراقة الوقود، وأحياناً احتجاج متوسل من أحد العجائز الذين أُجبِروا على المغادرة. كان الرجال يعملون في صمت، كمناجذ تحفر عميقاً في الأرض. وكأنَّ الزمن قد توقّف. لا أحد كان يضحك. ومن الأسفل جاء صوت دوبريه.

«حسن، يا رجال. لقد أخرجنا الجميع. والآن بدءاً بالطابق العُلوي أريد منكم أنْ تقدحوا عيدان الكبريت. حذار من أنْ تُضرموا النار في أنفسكم...»

كان قد تبقّى بعض الوقود في دلو سكوفيلد ورأيته يلتقط خرقة ويُسقِطها فيه؛ ثم تناهت فرقعة عود ثقاب ورأيتُ الغرفة تنتفض ويغزوها اللهب. وعمّت الحرارة وتراجعت. ووقفَ هو هناك وجانب وجهه أمام اللهب الأحمر، ينظر إلى اللهب، ويهتف:

«لعنة الله عليكم يا أولاد الحرام العفنين. لم يخطر في بالكم أنَّ

في إمكاني أنْ أفعل هذا وها أنا قد فعلت. لا يمكن إصلاح الأمر. والآن انظروا ما أجمله»

قلت «فلنذهب!»

إلى الأسفل منا كان الرجال يهبطون الدّرَج كل خمس درجات أو ست دفعة واحدة، يتحركون على الضوء الغريب للّهب في امتدادات حلم طويلة. ولدى مروري بكل طابق كان اللهب والدخان يتصاعدان. وهنا تملّكني إحساس ضار بالنشوة. قلت في نفسي، لقد فعلوها. نظّموا الأمر ونفّذوه وحدهم؛ القرار قرارهم والتنفيذ تنفيذهم. إنهم قادرون على التصرّف بأنفسهم...

ثم صدر هدير من وقع الأقدام فوقي، وهتف أحدهم «أسرع يا رجل، الجحيم مُستعر في الطوابق العليا. لقد فتح أحدهم الباب المؤدي إلى السطح وتصاعد اللهب»

قال سكوفيلد «هيا بنا»

أسرعت، شاعراً بأنَّ شيئاً قد انزلق وكنتُ في منتصف الطريق إلى مطلع الدرج التالي عندما أدركتُ انَّ حقيبتي مفقودة. ترددتُ لحظة، لكنها كانت قد بقيت معي مدة كافية ولا يمكن أنْ أتخلّى عنها.

هتف سكوفيلد «هيا بنا، يا صاح، لا يمكننا أنْ نعبث»

قلت «انتظر لحظة»

كان الرجال يندفعون مارّين. انحنيت وأنا أمسك بالدرابزين وشققتُ طريقي إلى أعلى الدّرَج، مُستعيناً بالضوء الكاشف مع كل خطوة، عائداً ببطء، وعثرتُ عليها. كانت آثار خطوات ملوّثة بزيت الوقود تختلط بقطع من الجص تظهر على جانب الجلد؛ وبعد أنْ حصلت عليها استدرت لأهبط الدرج مسرعاً. فكّرتُ بانزعاج، لن يزول الزيت بسهولة. ولكن هذا هو الحال، لم أكنْ أعلم أنه يخرج من زاوية عقلي المُظلمة، عرفته وحاولتُ أنْ أنقله إلى أعضاء اللجنة وتجاهلونني. هبطتُ وأنا أرتعش من فرط الإثارة. عند المنسبط رأيتُ دلواً ممتلئاً حتى منتصفه بزيت الوقود فحملته، وأطحتُ به بتهوّر إلى غرفة تتلظى باللهب.

اندفعتُ نحو الهواء وأصوات الليل المتفجّرة، ولم أدرِ إنْ كان الصوت صوت رجل، أم امرأة أم طفل، لكنني وقفتُ برهة عند المدخل والباب الأحمر خلفي وسمعتُ صوتاً يُناديني باسمي في الأخويّة.

شعرتُ كأنني أفقتُ من النوم ووقفتُ هناك برهة أنظر، وأصغي إلى الصوت الضائع تقريباً وسط صخب الهتاف، والصراخ، وصفارات إنذار اللصوص والإسعاف.

هتف «أيها الأخ، أليس رائعاً. لقد قلتَ إنك ستقودنا، أنت قلت هذا...»

هبطتُ إلى الشارع، بخُطى بطيئة لكنها مُفعمة بحاجة داخلية محمومة إلى الابتعاد عن ذلك الصوت. أين ذهب سكوفيلد؟

كانت مُعظم عيونهم، البيضاء وسط الظلام المغسول باللهب، تنظر نحو المبنى.

ولكن عندئذٍ سمعتُ مَنْ يقول «يا امرأة، مَنْ قلتِ هذا يكون؟» فكررت بفخر ذكر اسمي.

«إلى أين يذهب، إلحق به، يا رجل، إنَّ راس يريده!»

تغلغلتُ داخل الحشد، أمشي بخُطى بطيئة، منساباً بسلاسة داخل الحشد القاتم، وكامل سطح جسمي متيقّظ، وظهري بارد، أنظر، أُصغي إلى أولئك المتحركين يجيشون ويتصببون عرقاً ومن حولي طنين الأحاديث واعياً أنّني بعدما أصبحت الآن أريد أنْ أراهم، وأحتاج إلى رؤيتهم، لا أستطيع فعل ذلك؛ شاعراً بهم، كتلة سوداء تتحرك في ليلٍ أسود، نهراً أسود يشق طريقه في أرض سوداء؛ يمكن لراس أو تارب أنْ يمرا بجواري من دون أنْ أعلم. كنتُ متّحداً مع الجماهير، أتقدّم في الشارع المكسو بالبقايا فوق برك من زيت الوقود والحليب، وشخصيتي مُهشَّمة. ثم أصبحت في المبنى التالي، أدخل وأخرج، أسمعهم في مكان ما بين الحشد خلفي؛ أتقدّم خلال ضجيج صفارات الإسعاف وإنذار اللصوص لأنتقل إلى حشدٍ أسرع في تدفّقه وأتقدّم، بين ركض ومشي، أحاول أنْ أنظر خلفي متسائلاً أين ذهب الآخرون. عندئذٍ كان هناك إطلاق نار في الخلف، وعلى كلا جانبيّ كانوا يرمون صناديق القمامة، وحجارة القرميد وقِطعاً من المعدن إلى الواجهات

الزجاجية. وتقدمت، وكأنَّ قوة هائلة توشك أنْ تنفجر. شققتُ طريقي بصعوبة إلى الرصيف ووقفتُ عند ممر أحد الأبواب وراقبتهم يتحركون، شاعراً بقدرٍ من التبرير وأنا أفكر عندئذٍ في الرسالة التي جلبتني إلى هنا. مَن الذي استدعاني، أكان أحد أعضاء المنطقة أم أحد المُحتفلين بعيد مولد جاك؟ مَنْ أراد حضوري إلى المنطقة بعد فوات الأوان؟ حسن، الآن سأذهب. سوف أرى ما هو رأي أصحاب العقول الجبّارة الآن. أين هم على أية حال، وأية نتائج عميقة توصلوا إليها؟ أية دروس ***ex posto facto*** (متأخّرة) في التاريخ استمدوا؟ وصوت التحطُّم الذي سمعت عبر الهاتف، أكان البداية، أم أنَّ جاك أسقط ببساطة عينه؟ ضحكت كالسكران، وتسبّب الانفجار في ألمٍ في رأسي.

فجأت توقف إطلاق النار وتخلل الصمتَ ضجيجُ الأصوات البشرية، ووقعُ الأقدام، والجهدُ المبذول.

قال أحدهم إلى جانبي «مرحباً، يا صاح. إلى أين أنت ذاهب؟». كان سكوفيلد.

قلت «إما لأركض أو لأُدهس. حسبتُ أنك ما زلت هناك»

«انفصلت عنهم، يا رجل. ثمة مبنى قريب استعرت فيه النيران واضطروا إلى استدعاء سيارات الإطفاء... اللعنة! لولا الضجيج لأقسمت بأنَّ تلك الرصاصات هي بعوض»

حذّرته، وأنا أُبعده من حيث كان رجلٌ يستند إلى عمود، ويربط ذراعه بجرحها البليغ بضمادة مشدودة، «حذار!»

سلّطَ سكوفيلد ضوءه عليه ولبرهة من الزمن رأيت رجلاً أسود، شاحب الوجه من شدَّة الصدمة، يُراقب الدفق المنبجس لدمه على أرض الشارع. ثم اضطررتُ إلى مدّ يدي وشدّ الضمادة، شاعراً بالدم دافئاً على يدي، ورأيتُ النزف يتوقف.

قال أحد الشبان، وهو ينظر إلى أسفل، «لقد أوقفته»

قلت «خذ، أمسك به أنت، وحافظ عليه مشدوداً. أحضر له طبيباً»

«ألستَ طبيباً؟»

قلت «أنا؟ *أنا؟* أمجنون أنت؟ إذا أردتَ له أنْ يعيش، أبعده من هنا»

قال الفتى «إنَّ ألبرت لا يخصّني. ولكن حسبتُ أنه يخصك. أنت –»

قلت، وأنا أنظر إلى يديّ المُلطّختين بالدم، «كلا، ولا أنا. أمسك به بشدّة إلى أنْ يأتي الطبيب. أنا يمكنني شفاء صداع»

وقفتُ أمسح يديّ على الحقيبة، وأنظر إلى أسفل إلى الرجل الضخم، وظهره مُستند إلى العمود ومُغمض العينين، والفتى يُمسك بيأس الضمادة المشدودة المصنوعة مما بدا أنه ربطة عنق جديدة وبرّاقة.

قلت «هيا بنا»

قال سكوفيلد بعد أنْ ابتعدنا «قُل لي، أليس أنتَ مَنْ كانت المرأة تناديه ***بالأخ*** هناك؟»

«أخ؟ كلا، لا بد أنها كانت تعني شخصاً آخر»

قال «أتعلم، يا رجل، أعتقد أنه سبق لي أنْ رأيتك في مكان ما. ألم تذهب إلى ممفيس قط...؟ انظر مَن القادم» قال وهو يُشير، فنظرت خلال الظلام لأرى جماعة من رجال الشرطة ذوي الخوذ البيضاء يتقدمون ثم يلتمسون الاحتماء عندما ينهال وابلٌ من حجارة القرميد من أعالي الأبنية. بعض ذوي الخوذ البيضاء، في أثناء تسابقهم للجوء إلى ممرات الأبواب، أصبحوا بلون النار، وسمعت سكوفيلد يزمجر ويهبط إلى أسفل فنزلت إلى جواره، وأنا أرى انفجار النيران وأسمع الصراخ الحادّ، كالغوص المنحني، يمتد من الأعلى لينتهي إلى السحق، بصوت مكتوم على أرض الشارع. وكأنه استقرّ في معدتي، مُثيراً اشمئزازي، وجثمت، أنظر إلى أسفل متجاوزاً سكوفيلد، الذي كان يستلقي على مسافة مني، لأرى الشيء القاتم المسحوق الذي هبط من السطح؛ وأبعد منه، كان جسد شرطي، وخوذته تشكّل ركاماً صغيراً أبيض مُضيئاً في الظلام.

ثم انتقلتُ لأرى إنْ كان سكوفيلد قد أُصيب، يتلوى ويسبّ رجال الشرطة الذين كانوا يُحاولون أنْ يُنقِذوا الشرطي المُصاب، وصوته ينم عن حنق، وهو مُمدّد على طوله يُطلق النار عشوائياً من مسدسه المكسو بالنيكل كالذي لوَّحَ به دوبريه.

زعق نحو الخلف «ابتعد من هنا، يا رجل. منذ زمن طويل وأنا أرغب في القضاء عليهم»

قلت «كلا، ليس بهذا الشيء. هيا نبتعد من هنا»

قال «اللعنة، يا رجل، أنا أستطيع أنْ *أستخدم* هذا الشيء»

اختبأتُ خلف ركام من السِلال المملوءة بالدجاج الذي أصبح عفناً، وإلى اليسار مني، على حافة الرصيف المكسو بالفضلات، جثمت امرأة مع رجل خلف عربة تسليم بضائع مقلوبة.

قالت «دهارت، دعنا نرتقي التل يا دهارت. إلى أعلى مع الأشخاص المُحترمين!»

قال الرجل «اللعنة، اللعنة! بل سنبقى ها هنا. إنَّ الأمر بدأ تواً. إذا تحول إلى سباق في الشغب أريد أنْ أكون هنا حيث سينشب قتال»

خرجت الكلمات كوقع رصاصات أُطلِقَتْ من مسافة قريبة، ونسفت كل إحساس لديّ بالرضا. وكأنَّ الكلمة المنطوقة أضفتْ معنى إلى الليل، بل كأنها خلقته، أخرجته إلى الوجود في اللحظة التي اهتزّتْ أنفاسه بشكلٍ خفيف في وجه الجو الصاخب، المشحون. وبتحديده الغضب، وتنظيمه له، شعرت بأنه يُصيبني بالدوار، واستعدتُ في ذهني الأيام الماضية منذ مقتل كليفتون... أيمكن أنْ يكون هذا هو الجواب، أيمكن أنْ يكون هذا ما خطّطت له اللجنة، الجواب على التساؤل لماذا تخلينا عن نفوذنا لمصلحة راس؟ فجأة سمعت الانفجار المدويّ لطلقٍ ناريّ، ونظرت إلى ما بعد مسدس سكوفيلد اللامع إلى الشكل الرابض على السطح. كان انتحاراً، من دون مسدسات كان انتحاراً، ولا حتى محال الرهن هنا لديها مسدسات للبيع؛ ومع ذلك علِمتُ برعب مُدمِّر أنَّ الدويّ الذي دلّ للوهلة الأولى بشكل رئيس إلى اصطدام الرجال بأشياء – بمتاجر، بأسواق – يمكن أنْ يتحوّل بسرعة إلى تصادم رجال برجال آخرين وبغالبية المسدسات والأعضاء على الجانب الآخر. صرتُ أرى ذلك الآن، أراه بوضوح وبضخامة مطّردة. لم يكن الأمر انتحاراً، بل جريمة قتل. خطّطَ لها أعضاء اللجنة. وأنا قدّمتُ يد المساعدة، كنتُ

الأداة المُنفِّذة. أداة في اللحظة التي ظننتُ خلالها أنني حرّ. إنني بتظاهُري بالموافقة إنما وافقتُ فعلاً، جُعِلتُ مسؤولاً عن ذلك الشكل الرابض ويُنيره اللهب وومض إطلاق الرصاص في الشارع، وعن الآخرين كلهم الذين كان الليل عندئذٍ يعدّهم للموت.

تدلّت الحقيبة ثقيلة من ذراعي وأنا أركض، مبتعداً، مُخلّفاً سكوفيلد ورائي يسبّ لخلوّ وفاضه من الطلقات، أركضُ بهياج، وأنا أضرب بحقيبتي بقوة كلباً كان يقفز عليّ من بين الحشد، وأبعدته وهو يئن. وإلى يميني امتدَّ شارع سكنيّ هادئ تنمو فيه أشجار، وولجته، متوجهاً إلى الجادة السابعة، ومنه إلى المنطقة، التي كان قد عمّها عندئذٍ الرعب والكراهية. قلت في نفسي، سوف يدفعون الثمن، سوف يدفعون الثمن. سوف يدفعون الثمن!

كان السكون المُطبق يسود الشارع تحت ضوء القمر الذي تأخّر ظهوره، وتناهى صوت إطلاق الرصاص واهياً، ونائياً، برهة. وبدا كأنَّ الشغب يجري في عالم آخر. وقفتُ قليلاً تحت شجرة منخفضة، كثيفة الأوراق، أنظر إلى أسفلَ إلى الأرصفة المرتّبة والمُظلَّلة المارة من أمام المنازل التي يرين عليها الصمت ونوافذها كلها مُظللة، كاللاجئين من فيضان مرتفع. ثم سمعت وقع الأقدام الوحيد يقترب بعناد مني في الليل، وقعاً صافعاً مُخيفاً تبعه هتاف واضح وهستيريّ –

«الزمن يطير
والأرواح تموت
ومجيء الرب
يقترب!»

– وكأنه يركض منذ أيام طويلة، أو سنين عديدة. خبَّ متجاوزاً مكان وقوفي تحت الشجرة، قدماه الحافيتان تصفعان الرصيف وسط الصمت، قطعَ بضعة أقدام ومن ثم عاد الصياح المرتفع – الهستيري من جديد.

هرعتُ إلى الجادة حيث شاهدتُ على وهج اشتعال متجر مشروبات ثلاث نساء عجائز يركضن بخطى قصيرة وسريعة نحوي رافعات أطراف أثوابهن الممتلئة بالأطعمة المحفوظة.

قالت إحداهن «لا يمكنني أنْ أتوقف الآن، ولكن ارحمني، يا رب. ارحمني، يا يسوع، ارحمني، يا يسوع الحبيب...»

وتابعت طريقي، ودخان الكحول واحتراق القطران يملأ أنفي. وعلى الجادة إلى يساري كان مصباح شارع وحيد لا يزال يُضيء في الموقع الذي كان عنده مبنى طويل إلى يميني يتقاطعُ مع أحد الشوارع، ورأيتُ حشداً يهجم على متجر يقع قبالة تقاطُع الطرق، ويدخله، وينقضّ على الأطعمة المُعلَّبة، وسجق السلامي، ونقانق الكبد، ورؤوس الخنازير وأنواع أخرى من السجق التي كانت تُقذَف إلى الموجودين في الخارج وكيس من الدقيق ينبجس وينهمر أبيض عليهم؛ وهنا خرج من ظلام تقاطُع الطرق اثنان من رجال الشرطة الراكبين واقتربا خبّاً، يهتزان ضخمين بأعقاب أقدام ثقيلة، مندفعَين نحو الجمع المُحتشِد. ورأيتُ رئتَيّ الحصانين المنتفختين الكبيرتين وانفراط عقد الحشد وتراجعه كموجة، إلى الخلف، يصرخون ويسبّون، وبعضهم يضحكون – يتراجعون ويدورون وينتشرون على الجادة، يتعثّرون ويتدافعون، بينما الحصانان، برأسيهما المرفوعين وقطع من الزبد تتطاير من فميهما، يرتقيان حافة الرصيف لكي يستقرا بقوائم متيبسة ثم ينزلقا على الرصيف الخالي وكأنهما على مزلجتين ويتحركان عندئذٍ، مدفوعين بعزم الزخم، بشكل جانبيّ، بقوائم متيبسة، تُطلقُ شرراً، إلى حيث حشدٌ آخر ينهب متجراً آخر. انقبضَ قلبي عندما عاد الحشد الأول بهدوء لاستئناف النهب مع صراخ ساخر، كطيور زمّار الرمل تتهادى لتلتقط الفضلات عن الشاطئ بعد موجة انسحاب حانقة.

تابعت المسير متفادياً مشواة من الفولاذ مُنتَزَعة من واجهة محل رهونات وأنا ألعن جاك والأخوية، ورأيت شرطيّ الدورية يخبّان عائدين ثم يرفعان الحصانَين من أجل حشدِ زخم جديد، متجهِّمين وماهرين بخوذتين بيضاويتين من الفولاذ، وبدأ الزخم. هذه المرة سقط رجل ورأيتُ امرأة تطيحُ بمقلاة لامعة بقوة إلى كفل الحصان والحصان يصهل ويبدأ بالانقضاض. قلت في نفسي، سوف يدفعون الثمن، سوف يدفعون الثمن. اتجه نحوي وأنا أركض حشدٌ من الرجال والنساء حاملين صناديق البيرة، والجبن، وحلقات طويلة متّصلة من السجق، والبطيخ، وأكياس السُكّر، ولحم الخنزير، ودقيق

الذُرة، ومصابيح الوقود. ليت هذا يتوقف هنا، هنا؛ هنا قبل أنْ يأتي الآخرون مع بنادقهم. وركضت.

لم يكن هناك إطلاق نار. تساءلت، ولكن متى، بعد كم من الوقت سيبدأ؟

هتفت امرأة «أحضِرْ ضلعاً من اللحم المُقدد، يا جو. أحضِرْ ضلعاً من اللحم المُقدد، من ماركة ويلسون»

هتف صوت أسود من الظلام «يا الله، يا الله، يا الله»

تابعت المسير، وغمرني إحساس بالعزلة المؤلمة لدى وصولي الشارع رقم 123 واتّجهتُ شرقاً. مرّت فرقة من رجال الشرطة الخيالة خابّة. كان رجال مُسلحون برشاشات نصف آليّة يحرسون أحد المصارف ومتجراً لبيع المجوهرات الكبيرة. وانتقلت إلى منتصف الشارع، وأنا أركض على طول خط حديد الحافلة.

كان القمر قد بلغ كبد السماء عندئذٍ وأمامي الزجاج المُهشَّم يتلألأ في الشارع كمياه نهر فائض ركضتُ على سطحه وكأنما على جدول، متفادياً بفعل القدر وحده الأشياء المشوّهة التي جرفها الفيضان. وفجأة شعرتُ كأنني أغوص، أُسحَب إلى أسفل: أمامي الجسم مشنوقاً، أبيض، عارياً، وأُنثوياً بصورة مريعة، من عمود النور. شعرتُ بأنني أدور حول نفسي مرعوباً وكأنني قمت بحركة شقلبة كابوسيّة. أُصبتُ بدوار، ولا أزال أتحرك عكسياً، أعود من حيث أتيت وتوقفت ثم كان هناك آخر فآخر – سبعة – كلهم مشنوقون أمام واجهة متجر مُخرَّب. تعثّرت، وأنا أسمع تقصُّف عِظام تحت قدمي ورأيتُ هيكلاً عظمياً يخصّ طبيباً مُهشَّماً على الطريق، والجمجمة تتدحرج مبتعدة عن العمود الفقري، وبينما أمضيتُ وقتاً طويلاً أُدقِّق النظر لكي ألاحظ اليباس غير الطبيعي للمشنوقين أمامي. كانوا تماثيل لعرض الأزياء – «دُمى!» قلتها بصوت مرتفع، بلا شعر، صلعاً وأنثويين بصورة عقيمة. وتذكّرتُ الفتية بالشعر المستعار الأشقر، متوقعاً ضحك الارتياح، لكنني فجأة أُصِبتُ بصدمة أكبر بسبب الفكاهة أكثر من الرعب. وتساءلت، ولكن هل هم غير حقيقيين؛ هل هم ***كذلك***؟ ماذا لو أنَّ أحدهم، ولو ***واحداً*** فقط حقيقيّ – لو أنه... سيبيل؟ حضنتُ حقيبتي، مبتعداً، ثم ركضتُ...

تحركوا كتلة واحدة متراصّة، حاملين العصي والهراوات، والمسدسات والبنادق، يتقدمهم راس الناصح الذي أصبح راس المُدمِّر مُعتلياً صهوة جواد ضخم أسود. كان راس جديداً ذا هيبة متغطرسة، سوقيّة، يرتدي زي رئيس قبيلة حبشيّة؛ مُعتمراً قلنسوة من الفرو، ويحمل ترساً على ذراعه، ويضع حول كتفيه رداءً من جلد حيوان ضار. كشخصية مأخوذة من حُلم وليس من هارلم، وليس حتى من ليل هارلم هذا، ومع ذلك كان حقيقياً، مُفزِعاً.

خاطب مجموعة واقفة أمام أحد المتاجر «ابتعدوا عن ذلك النهب الأحمق. تعالوا وانضموا إلينا لنقتحم مخزن الأسلحة ونحصل على المسدسات والذخيرة!»

عندما سمعتُ صوته فتحتُ حقيبتي ورحت أبحث عن نظارتي الداكنة، التي تُشبّهني براينهارت، وأخرجتها فرأيتُ أنَّ العدستين قد تحطمتا ووقعتا في الشارع. قلت في نفسي، راينهارت، راينهارت! والتفتُّ. كان رجال الشرطة خلفي؛ إذا بدأ إطلاق النار سوف أعلق وسط تبادل الرصاص. تحسّست داخل حقيبتي، فلمست الأوراق، وقطعة الحديد المُكسورة، والقطع النقدية، وأطبقتْ أصابعي على سلسلة قيد ساق تارب، ولبستها على براجمي؛ أحاول أنْ أفكِّر. أنزلتُ اللسان، وأغلقته. مع اقترابهم أخذ مزاج جديد يحلّ عليّ، كان حشداً أكبر من أي عددٍ سبق لراس أن اجتذب، تقدَّمت بهدوء، قابضاً على الحقيبة الثقيلة لكنه تقدُّمٌ مع إحساس خاص جديد بالذات، رافقه إحساس يقترب من الارتياح، مع تنهّد. وفجأة أدركتُ ما عليّ أنْ أفعل، عرفته حتى قبل أنْ يتكوَّن بصورة تامة في ذهني.

هتف أحدهم، «اسمع!»، ومال راس من فوق صهوة حصانه، رآني ورمى، دون الأشياء كلها، رمحاً، وانكفأتُ نحو الأمام بفعل حركة ذراعه، فاستندتُ على يديّ كما يفعل البهلوان، وسمعتُ ارتطامه وهو يخترق إحدى الدُمى المُعلَّقة. نهضتُ واقفاً، وحقيبتي معي.

صرخ «خائن!»

قال أحدهم «إنه الأخ». أخذوا يحيطون بالحصان متوثبين ولكن من دون أنْ يتوصلوا إلى قرار، وواجهته، عالِماً بأنني لستُ أسوأ منه، ولا أحسن،

وبأنَّ كل أشهر الوهم وليل العماء لم تتطلّب أكثر من بضع كلمات بسيطة، وعمل صامت معتدل، بل متواضع، من أجل تنقية الجو. لإيقاظهم وإيقاظي.

صرخت «أنا لم أعُد أخاهم. إنهم يُريدون إثارة شغب عِرقيّ وأنا ضدّه. وكلما قُتِلَ المزيد منا، كان ذلك لمصلحتهم –»

صرخ راس «تجاهلوا لسانه الكاذب. اشنقوه ليكون درساً للشعب الأسود، ولن يكون هناك المزيد من الخونة. ولا الخانعين. اشنقوه هناك مع تلك الدُمى البغيضة!»

صرخت «ولكنَّ الأمر شديد الوضوح. صحيح، لقد خانني الذين اعتقدتُ أنهم أصدقاؤنا – لكنهم اعتمدوا على هذا الرجل، أيضاً. لقد احتاجوا إلى هذا *المُدمِّر* ليقوم بعملهم. لقد تخلوا عنكم لكي ينال منكم اليأس وتلحقوا بهذا الرجل إلى دماركم. ألا ترون؟ يُريدون أنْ يتّهموكم باغتيال أنفسكم، بتضحيتكم بأنفسكم!»

صاح راس «اقبضوا عليه!»

تقدَّم ثلاثة رجال فمددتُ يدي من دون تفكير، في الحقيقة كانت إيماءة بليغة يائسة تدل على الاعتراض والتحدي، وأنا أصرخ «كلا!» لكنَّ يدي ضربت الرمح وانتزعته، وأمسكتُ به من منتصفه، ووجهته نحو الأمام. قلت «هذا ما يريدون أنْ يحدث. لقد خطّطوا له. إنهم يريدون من الرعاع أنْ يأتوا إلى المدينة مع المدافع الرشاشة والبنادق. يريدون أنْ يتدفق الدم في الشوارع؛ دماؤكم، دم السود ودم البيض، لكي يُحوّلوا موتكم وحزنكم وهزيمتكم إلى دعاوى سياسية. الأمر بسيط، وأنتم تعرفونه منذ زمن طويل. ومفاده، «استغلّ أسود من أجل القبض على أسود آخر». حسن، لقد استغلّوني للنيل منكم والآن يستغلّون راس ليتخلصوا مني ويُعدّوا لتضحيتكم. ألا تدركون؟ أليس الأمر جلياً...؟»

صاح راس «اشنقوا الخائن الكاذب. ماذا تنتظرون؟»

ورأيتُ جماعة من الرجال تقترب مني.

قلت «انتظروا، ثم اقتلوني من أجلي أنا، من أجل خطأي، واتركوا الأمر عند ذلك الحد. لا تقتلوني من أجل أولئك الذين في المدينة يضحكون على الخدعة التي أعدّوها –»

ولكن حتى وأنا أتكلَّم كنتُ أعلم أنه لا فائدة. لم أكنْ أحظى بالكلمات المناسبة ولا أتمتع بالفصاحة، وعندما زأر راس «اشنقوه!» بقيتُ واقفاً هناك أواجههم، وبدا الموقف غير واقعي. واجهتهم وأنا أعلم أنَّ المجنون بالزي الغريب كان حقيقياً وأيضاً غير حقيقيّ، وأعلم أنه كان يريد حياتي، وأنه يعتبرني مسؤولاً عن كل الليالي والأيام وعن كل المعاناة وعن كل ما عجزت عن التحكّم فيه، وأنا لستُ بطلاً، بل قصير القامة وقاتم البشرة أتمتع بقدر ضئيل من الفصاحة وبمقدرةٍ لا حدود لها على أنْ أكون أحمق بحيث يمكن تمييزي عن الباقين؛ رأيتهم، وأخيراً عرفت أنهم الذين خذلتهم وأصبحتُ عندئذٍ، عندئذٍ فقط، قائدهم، على الرغم من أنَّني كنتُ أقودهم، أتقدّمهم، فقط في وهمي المحض.

نظرتُ إلى راس معتلياً جواده وإلى العدد القليل من بنادقهم ولاحظتُ سُخف الليلة كلها والمزيج البسيط ولكن المُعقّد بشكل مُربِك للأمل والرغبة، والخوف والكراهية، الذي جلبني إلى هنا وما زال موجوداً، وبما أنني صرت أعرف حينئذٍ مَنْ أنا وأين أنا وأعرفُ أيضاً أنني لم أعُد مُضطراً إلى أنْ أهرع إلى أمثال جاك وإمرسون وبليدسو ونورتون أو أهرب منهم، بل فقط من فوضاهم، ونزقهم، ورفضهم أنْ يُميِّزوا السُخف الجميل لهويتهم الأميركية وهويتي. وقفتُ هناك، مُدركاً أنني بموتي، بشنقي على يد راس في هذا الشارع في هذا الليل المُدمِّر قد أُقرِّبهم ولو خطوة لعينة قصيرة جداً من معرفة أنفسهم ومعرفة مَنْ أنا الآن وماذا كنتُ في السابق. لكنَّ المعرفة كانت ستكون ضيِّقة جداً؛ لقد كنتُ غير مرئيّ، وشنقي لن يجعلني مرئياً، حتى لعيونهم، لأنهم يريدون موتي ليس لنفسي وحدها بل من أجل حالة المطاردة التي انخرطتُ بها طوال حياتي؛ بسبب الطريقة التي ركضتُ بها، وطورِدتُ، ولوحِقت، وعوملتُ، وطُهِّرت - على الرغم من أنّه لم يكن في استطاعتي إلى حد بعيد أنْ أفعل شيئاً آخر، بسبب عماهم (ألم يتحمّلوا راينهارت وبليدسو؟) وكوني غير مرئيّ. ووجوب موتي، أنا الأسود الصغير صاحب الاسم المُنتَحَل لأنَّ رجلاً أسود ضخماً حاقداً ومُشوشاً حول طبيعة واقع لا يتحكّم فيه إلا البيض الذين أعرف أنهم لا يقلّون عنه عمى، كان شيئاً عبثياً إلى أقصى الحدود وبصورة شائنة. وكنتُ أعلم أنّه من الأفضل أنْ

يُعايش المرء سخفه الخاص على أنْ يموت بسبب سخف الآخرين، سواء من أجل راس أم جاك.

إذن عندما صرخ راس «اشنقوه!» أطلقتُ الرمح وشعرت للحظة بأنني تخلّيتُ عن حياتي وبدأتُ بالعيش من جديد، وأنا أراقبه يُصيبه عندما أدار رأسه لكي يصرخ، مُخترقاً وجنتيه معاً، ورأيتُ الجمود المندهش للحشد بينما راس يُصارع الرمح الذي أغلقَ فكّيه. بعض الرجال رفعوا مسدساتهم، لكنهم كانوا شديدي القُرب بحيث لا يمكن أنْ يُطلقوا الرصاص فضربتُ أولهم بحلقة سلسلة تارب والثاني في المنتصف بحقيبتي، ثم ركضتُ من خلال متجر منهوب، أسمع صفّارة الإنذار بوجود سارق عندما ارتطمتُ متعثراً بأحذية مبعثرة، وبخزانات عرض مقلوبة، وبكراس – عائداً إلى حيث رأيتُ ضوء القمر من خلال الباب الخلفي الذي أمامي. لحقوا بي كدفق من اللهب وتقدمتهم متملصاً إلى الجادة، ولو أنهم أطلقوا النار لأصابوني، ولكن كان من المهم بالنسبة إليهم أنْ يشنقوني، بل أنْ يعدموني من دون محاكمة، بما أنَّ تلك كانت الطريقة التي يتّبعونها، وتعلّموا أنْ يتّبعوها. يجب أنْ أموت مشنوقاً وحدي، وكأنَّ الشنق وحده يحل الأمور، وحتى الحقد. لذلك ركضتُ متوقعاً الموت إما بطعنة أتلقاها بين كتفيّ أو من خلف رأسي، وبينما أنا أركض كنتُ أحاول بلوغ منزل ميري. لم يكن ذلك قراراً اتُّخِذَ بعد تفكير بل شيئاً أدركته فجأة في أثناء الركض على برك الحليب في الشارع المُظلِم، متوقفاً لأُسدد ضربات بحقيبتي الثقيلة وبحلقة سلسلة الساق، متملصاً ومنزلقاً من بين أيديهم.

ليت كان في استطاعتي أنْ أستدير وأُخفِض ذراعيّ وأقول «اسمعوا، يا رجال، تمهّلوا قليلاً، إننا معشر السود كلنا معاً... ولا أحد يهتمّ». على الرغم من أنني بتّ أعلم الآن أننا *نحن* نهتم، هم أبدوا أخيراً اهتماماً وتحرّكوا – هكذا كنتُ أفكّر. ليت كان في استطاعتي أنْ أقول «اسمعوا، لقد مارسوا علينا خدعة، الخدعة القديمة نفسها بتنويعات جديدة – فلنكفّ عن الركض وليحترم كل منا الآخر ويحبّه...» ليتني أفعل – فكّرتُ، وأنا أخترق حشداً آخر مُعتقداً أنني نجوت، وإذا بي أتلقّى لكمة على فكّي عندما اقترب أحدهم صائحاً، وأشعر بحلقة سلسلة السائق تثب عندما ارتطمتُ برأسه واندفعتُ

إلى الأمام، انعطفتُ خارج الجادة لأصدم برذاذ من الماء كأنه هبط من فوق. كان عرض البحر قد انبجس، رامياً ستارة عنيفة من الرذاذ إلى الليل. كنتُ قاصداً منزل ميري لكنني كنتُ أتحرك إلى قلب المدينة خلال الشوارع التي تقطر وليس إلى خارجها، وفي أثناء ذلك اقتحم الرذاذ رجل شرطة راكباً على حصان أسود يقطر ماءً يتقدم يلوح ضخماً وغير حقيقي، يصهل ويخب عبر الرصيف مُقبلاً عليّ عندما انزلقت على رُكبتيّ ورأيتُ الكتلة الضخمة النابضة تتقدم مني وفوقي، ووقع الحوافر والصراخ واندفاع المياه يخترق المسافة البعيدة وكأنني جالس في مكان ناءٍ في غرفةٍ مُبطّنة، ثم يمرّ شعر الذيل كسوط من نار عبر عينيّ، من فوقي، ويكاد يتجاوزني. وأتعثّر ضمن دوائر، أُطيح بالحقيبة بلا هدى، وصورة ذيل الشهاب الناري يحرقُ جفنيّ المتألّمين؛ أتلفّت وأرمي بحقيبتي وبحلقة سلسلة الساق لا أرى شيئاً وأسمع الخبّ يبدأ وأنا أتخبّطُ بعجز؛ ثم اتجهتُ بشكل مستقيم نحو زخم تدفّق المياه القوي والعاري، شاعراً بقوته كاللكمة، رطباً ومكتوم الصوت وبارداً، ثم اخترقته وتمكنتُ جزئياً من رؤية حصان آخر مندفعاً ومُقتحماً، وصياداً يقتحم حاجزاً، والراكب يتراجع مائلاً، والحصان ينهض، ثم تضربه موجة الرذاذ العالية وتبتلعه. تعثّرتُ وأنا أمشي على الطريق، وذيل الشهاب في عينيّ، وقد أصبحت عندئذٍ أرى بصورة أفضل ونظرتُ خلفي لأرى الماء ينشر رذاذه كنبع حار مجنون تحت ضوء القمر. قلت في نفسي، إلى ميري، إلى ميري.

كانت هناك صفوف من السياجات الحديدية تدعمها سياجات منخفضة من النبات أمام المنازل ورحت أتعثّر خلف أحدها وتمددتُ وأنا ألهث لكي أرتاح من قوة المياه الساحقة. ولكن ما كدتُ أستقر، ورائحة السياج الجافة في اليوم القائظ في أنفي، حتى رأيتهم يتوقفون أمام المنزل، ويميلون عبر السياج. كانوا ينقّلون زجاجة بينهم وبدت أصواتهم مُنهكة من فرط الانفعال.

قال أحدهم «يا لها من ليلة. أليست مُرهِقة؟»

«إنها كغيرها من الليالي»

«لِمَ تقول هذا؟»

«لأنها مملوءة بالإزعاج والقتال وشرب الخمر والكذب - أعطني تلك الزجاجة»

«نعم، ولكن في هذه الليلة شاهدت أشياء لم أشاهدها من قبل»

«أتظن أنك رأيتَ شيئاً مختلفاً؟ اللعنة كان ينبغي أنْ ترى ما جرى في لينكس قبل ساعتين. أتعرف ذلك الضخم راس المُدمِّر؟ حسن، يا رجل، لقد كان يبصقُ دماً»

«ذلك المجنون؟»

«اللعنة، نعم، يا رجل، كان يمتطي جواداً أسود ضخماً ويعتمر قلنسوة من الفرو ويضع ما يشبه جلد أسد عتيقاً على كتفيه وكان يُثير جحيماً. اللعنة إذا لم يكن مظهره *غريباً*، ويهتز إلى أعلى وإلى أسفل، كما تعلم، في مشهد فريد يجذب عربات الخضار، ووضع سرج كاوبوي ومهمازاً في حذائه»

«أوه، كلا، يا رجل!»

«اللعنة، نعم! راكباً يتبختر في طول المبنى وعرضه وهو يصيح «دمّروهم! دمّروهم! احرقوهم! أنا، راس، آمركم. أحضروا ذلك الرجل. أنا، راس آمركم - أنْ تدمروهم حتى آخر قطعة من السمك العفن!» وفي تلك اللحظة أبرزَ شخصٌ مُضحك بصوت عال ذي لكنة جورجيا القديمة رأسه من إحدى النوافذ «امتطيهم، أيها الكاوبوي. وأشعل جحيماً»، ويا رجل، إذا بابن الحرام المجنون ذاك يُخرِج مُسدساً عيار 45 ويُطلق النار على تلك النافذة - وأنت، يا رجل، تتكلّم عن ترك هذا الأمر! في غضون لحظة لم يتبقَّ هناك غير راس العجوز على صهوة ذلك الحصان مع جلد الأسد يمتد خلفه. إنه مجنون، يا رجل. إنَّ الجميع يحاولون أنْ يحصلوا على بعض الغنائم وهو ورجاله يسعون وراء سفك الدماء!»

استلقيتُ كمَنْ أُنقِذَ من الغرق، أُصغي، وأنا لا أزال غير متيقّن من أنني على قيد الحياة.

قال صوت آخر «أنا كنتُ هناك. ألا تراه عندما تلاحقه الشرطة؟»

«اللعنة، كلا... خذ، تناول جرعة»

«حسن، *عندئذٍ* يجب أنْ تراه. عندما رأى الشرطة الراكبة مدّ يده إلى خلفية سرجه وأخرج ما يُشبه الترس القديم»

«*ترس*؟»

«اللعنة، نعم! ترساً يتوسطه مسامير. وهذا ليس كل شيء؛ عندما يرى الشرطة يُنادي على أحد تابعيه الملاعين لكي يناوله رمحاً، فيهرع رجل قصير وقميء إلى الشارع ويُعطيه واحداً. كما تعلم، أحد الأنواع التي ترى الأفارقة يحملونها في الأفلام السينمائية...»

«أين كنتَ، يا رجل؟»

«أنا؟ أنا كنت أقف جانباً حيث اقتحم أحد الفحول متجراً وأخذ يبيع بيرة باردة من النافذة - انخرط في العمل، يا رجل» وضحك الصوت. «كنتُ أشرب البيرة وأقوم بالنهب - وإذا بالشرطة تصلُ إلى الشارع، راكبين كالكاوبوي، يا رجل؛ وعندما رآهم العجوز راس الذي لا أعرف اسمه أطلقَ زئيراً كالأسد وتراجع وبدأ يهمز قفا ذلك الحصان ليُسرع كما تسقط قطع النيكل في القطار النفقي في ساعة العودة إلى المنزل - واللعنة! حينئذٍ يجب أنْ تراه! هات، أعطني جرعة من هذا، يا صاح.

«شكراً. ويأتي خابّاً حاملاً ذلك الرمح يوجهه إلى الأمام وذلك الترس على ذراعه، يستجمع زخمه، يا رجل. ويصرخ بكلام باللغة الإفريقية أو الهند الغربية أو ما شابه ويُخفض رأسه كأنه يعرف ما يفعل أيضاً، يا رجل؛ منطلقاً كإيرل ساند[46] في المضمار الخامس في جامايكا. وأطلقَ الحصان الأسود العجوز صهيلاً وأخفض رأسه أيضاً - لا أعلم من *أين* حصل على ابن الحرام *ذاك* - ولكن، أيها السادة، أُقسِم! عندما شعر بذلك الفولاذ على مؤخرته العالية جاء كمُحارب وكأنَّ رُفاته سيذروه الريح! وقبل أنْ يعلم رجال الشرطة ما ألمّ به إذا براس يقفُ بينهم وأراد أحد رجال الشرطة أنْ يقبض على ذلك الرمح فاستدار راس وضربه على رأسه فسقط الشرطي ووقف الحصان على قائمتيه الخلفيتين ونهض راس وحاول أنْ يضرب

46- إيرل هارولد ساند (1898-1968): مُدرب بارع على ركوب الخيل انتقل ليُصبح راكب خيل يشترك في المسابقات ونال عدداً من الجوائز وتوج بطلاً في عدد منها. - المترجم

بالرمح شرطياً آخر وأخذ الشرطة يتدافعون وراس يحاول أنْ يضرب شرطياً آخر، لكنه كان شديد القُرب وأخذ الحصان يرفس وينخر ويبول ويتغوط، وهم يترنحون من حوله والشرطي يلوح بمسدسه وكلما فعل ذلك كان راس يرفع ترسه بإحدى ذراعيه ويضربه بالرمح بالأخرى، ويا لله، كان في استطاعتك أنْ تسمع ذلك المُسدس يُصيب بطلقاته الترس كمَنْ يُسقِطُ إطار دولاب من حديد من نافذة في الطابق الثاني عشر. وأنت تعلم كيف يتصرف راس العجوز عندما يرى أنه شديد القُرب ولا يمكن أنْ يضرب بالرمح، لقد استدار بالحصان وابتعد قليلاً ثم استدار وواجهه وضربه من جديد – كان يسعى إلى سفك الدم، يا رجل! لكنَّ الشرطة هذه المرة نالها الإرهاق من ذلك الهراء وبدأ أحدهم يُطلق الرصاص. وكانت *تلك* هي الضربة القاضية! فلم يتمكن راس من شهر المسدس ففر هارباً مع ذلك الرمح وكان في استطاعتك أنْ تسمعه ينخر العجوز ويقول شيئاً عن قوم ذلك الشرطي ومن ثم انطلقَ هو والحصان في الشارع يقفز مثل هايهو، الفضي اللعين!»

«يا رجل، من أين أتيت *أنت*؟»

«إنها الحقيقة، يا رجل، ها هي يدي اليُمنى»

كانا يضحكان خارج السياج ويُغادران وأنا أستلقي متشنجاً، راغباً في الضحك ومع ذلك أعلم أنَّ موضوع راس ليس مُضحكاً، أو ليس مُضحكاً فقط، بل خطر أيضاً، خاطئ لكنه مُبرَّر، مجنون لكنه عاقل ببرود... لِمَ جعلاه يبدو مُضحكاً، مضحكاً *فقط*؟ تساءلت. لكنني كنتُ أعلم أنَّ الأمر كذلك. كان أمراً مُضحكاً وخطِراً وحزيناً. لقد واجهه جاك، أو تعثّر به واستخدمه لكي يُعدّ أُضحية. واستخدمني كأداة. لقد كان جدّي مُخطئاً في مُجاراتهم حتى الموت والدمار أو أنَّ الأمور تغيَّرتْ بشكل جذريّ منذ ذلك اليوم.

لم تكن هناك إلا وسيلة واحدة لتدميرهم. نهضتُ من خلف السياج تحت ضوء القمر الواهن، مُبللاً وأرتعش في الهواء الحارّ وانطلقتُ أبحث عن جاك، ولا أزال ألتفت حولي بحثاً عن اتجاهي. تقدمت في الشارع، مُصغياً إلى الضجيج النائي لأعمال الشغب وأرى بعين عقلي صورة عينين في قاع كأس مُهشَّم.

لازمت الجانب المُظلم من الشوارع والمناطق الهادئة، مفكّراً في أنّه إنْ كان قد رغب حقاً في إخفاء استراتيجيته فسوف يظهر في المنطقة، ربما مع سيارةٍ شاحنة متينة، ليقوم بدور الناصح الودود ومعه وريستروم وتوبيت.

كانوا بملابس مدنية، وقلت في نفسي، الشرطة - إلى أنْ رأيتُ هراوة لعبة البيسبول وبدأتُ أستدير، أسمعُ «هيه أنت!»

تردّدت.

قالوا «ماذا يوجد في تلك الحقيبة؟»، ولو أنهم سألوني حول شيء آخر لتوقفت. ولكن لدى سماع السؤال اجتاحتني موجة من الإحساس بالخزي والحنق هزّتني وركضت، ولا أزال أقصد جاك. لكنني كنتُ حينئذٍ في منطقة غريبة وقام أحدهم، لسبب ما، بإزالة غطاء المجرور ووجدتني أغوص إلى أسفل، وأسفل؛ في سقوط طويل انتهى فوق حملٍ من الفحم أثارَ سحابة من الغبار، واستقررت في الظلام الحالك على الفحم الأسود ولم أعد أركض، أو أختبئ أو أقلق، وسمعت تناثُر الفحم، ومن مكان ما فوق أصواتهم انساب إليّ:

«أترى الطريقة التي نغوص فيها إلى أسفل، زوووم! كنتُ أوشك أنْ أنال من ابن الحرام»

«أضربته؟»

«لا أدري»

«قُلْ لي، يا جو، أتعتقد أنَّ ابن الحرام قد مات؟»

«ربما. لكنه مع ذلك يقبع في غياهب الظلام. إنك حتى لا تستطيع أنْ ترى عينيه»

«زنجي على كومة من الفحم، هه، جو؟»

صاح أحدهم إلى داخل الحفرة. «هيه، أيها الفتى الأسود. اخرج. نريد أنْ نرى ماذا في تلك الحقيبة»

قلت «انزل أنت وخُذها»



«ماذا يوجد في تلك الحقيبة؟»

قلت، وقد بدأتُ أضحك فجأة، «أنت، ماذا تحتوي في اعتقادك؟»

«أنا؟»

قلت «كلكم»
قال «أنت مجنون»
«ومع ذلك ما زلتُ أحتفظ بكم في هذه الحقيبة!»
«ماذا سرقت؟»
قلت «ألا ترى؟ اقدح عود ثقاب»
«عمَّ يتكلّم، يا جو؟»
«اقدح عود ثقاب، ذلك القذر مجنون»

رأيتُ في الأعلى لهباً ضئيلاً ينبجس إلى ضوء. وقفوا ورؤوسهم نحو الأسفل، وكأنهم يؤدون صلاة، غير قادرين على الرؤية في الفحم.

قلت «انزلوا إلى تحت. ها! ها! إنني أحتفظ بكم داخل حقيبتي طوال الوقت ولم تعرفوني حينئذٍ ولا تستطيعون أنْ تروني الآن»

هتف أحدهم، حانقاً «يا ابن القحبة!». ثم انطفأ عود الثقاب وسمعتُ شيئاً يسقط بنعومة على الفحم بجواري. كانوا يتحدثون في الأعلى.

هتف أحدهم «أنت يا ابن القحبة الزنجي الأسود اللعين، انظر إنْ كان هذا يُعجبك» وسمعتُ الغطاء ينطبق على الفتحة مع قعقعة مكتومة. وانهالت قطع صغيرة من القذارة عندما وطئوا الغطاء وانزلقتُ برهة على الفحم من عزم المفاجأة، وأنا أنظر إلى أعلى، عالياً خلال المسافة السوداء إلى حيث غاص ضوء عود الثقاب الباهت لثانية من خلال دائرة من الثقوب في الفولاذ. ثم فكّرت، هكذا هو الحال دائماً، الفرق الآن هو أنني أعرفه – واسترخيت على ظهري، وقد هدأتُ، متوسداً حقيبتي. في إمكاني أنْ أفتحها في الصباح، وأزيح الغطاء. أما الآن فأنا مُتعب، بل شديد التعب؛ وعقلي يعتزل، وصورة العينين الزجاجيتين وهما تجريان معاً ككتلتين من الرصاص المُذاب. هنا بدا كأنَّ الشغب قد انتهى وشعرتُ بوطأة النعاس، وكأنني أعوم على مياه سوداء.

فكّرت، كأنه موت من غير شنق، موت حيّ. في الصباح سوف أزيح الغطاء... ميري، كان ينبغي أنْ أذهب إلى منزل ميري. سوف أذهب الآن إلى منزل ميري بالطريقة الوحيدة الممكنة... كنتُ انتقل على سطح المياه السوداء، عائماً، أتنهّد... نائماً لا مرئيّاً.

ولكن لم يُقدَّر لي قط أنْ أصل منزل ميري، وكنتُ مفرط التفاؤل بشأن إزاحة غطاء الفولاذ في الصباح. غمرتني أمواج عظيمة لا مرئيّة من الزمن، لكنَّ ذلك الصباح لم يأت قط. لم يكن هناك صباح ولا ضوء من أي نوع ليوقظني وبقيتُ نائماً إلى أنْ أيقظني الجوع أخيراً. عندئذٍ نهضتُ في الظلام أتحسس حولي، أتلمّس الجدران الخشنة والفحم يتباعد من تحتي مع كل خطوة كرملٍ غادر. حاولتُ أنْ أرتفع نحو الأعلى لكنني لم أعثر إلا على الفضاء، متواصلاً ولا يمكن اختراقه. ثم حاولتُ أنْ أعثر على السلَّم المعتاد الذي يؤدي إلى خارج كل فتحة، ولكن لم أجد أيّ سلّم. كنتُ في حاجة إلى ضوء، وأنا أجثو على يديّ ورُكبتيّ، وأقبض على حقيبتي بإحكام، وفتشت الفحم إلى أنْ عثرتُ على حامل عيدان الثقاب الذي رماه الرجال – منذ كم من الوقت حدث ذلك؟ – ولكن لم يكن يحتوي إلا على ثلاثة منها ولكي أوفّرها بدأتُ أفتش عن قطعة من الورق أصنع منها مشعلاً، متحسساً حولي ببطء على ركام الفحم. كنتُ في حاجة فقط إلى قطعة من الورق لأضيء طريقي إلى خارج الحفرة، ولكن لم أعثر على شيء. بعد ذلك بحثت في جيوبي، ولم أعثر حتى على ورقة فاتورة، أو على منشور دعائي، أو على كرّاس للأخوية. لمَ تخلّصتُ من نشرات راينهارت؟ حسن، لم يبقَ إلا شيء واحد أقوم به إذا أردتُ أنْ أصنع مشعلاً. سوف أُضطر إلى فتح حقيبتي. ففيها الأوراق الوحيدة التي في حوزتي.

بدأتُ بشهادة المرحلة الثانوية، قادحاً عود ثقاب نفيساً مع إحساس بسخرية شاردة، بل ومبتسماً وأنا أرى الضوء السريع ولكن الضعيف يزيح الظلمة. كنتُ في قبو عميق، مملوء بأغراض لا شكل لها انتشرت إلى أبعد من مجال بصري، وأدركتُ أنني لكي أُضيء طريق خروجي سوف أُضطر إلى حرق كل ورقة في الحقيبة. وأخذتُ أتحرك ببطء نحو الظلام الأشدّ حلكة، أُضيء طريقي بوساطة تلك المشاعل الضعيفة. التالي كانت دمية كليفتون، لكنَّ احتراقها كان عنيداً جداً إلى درجة أنني مددتُ يدي إلى داخل الحقيبة بحثاً عن شيء آخر. وعلى ضوء احتراق الدمية الذي نفثَ الكثير من الدخان أخرجتُ ورقة مطوية. كانت الرسالة المجهولة المصدر، التي احترقت بسرعة كبيرة بحيث إنني عندما التهمها اللهب أسرعت إلى إخراج

أخرى: كانت تلك المُزقة التي خطَّ عليها جاك اسمي في الأخوية. كان لا يزال في استطاعتي أنْ أشمّ عِطر إيما حتى وأنا وسط رطوبة القبو. عندئذٍ عندما رأيتُ خط الكتابة على الورقتين على ضوء اللهب الملتهم أحرقتُ يدي وانزلقتُ على رُكبتيّ، مذهولاً، أراقب اللهب يلتهمها. وكونه، أو أي شخص آخر، استطاع أنْ يُسمّيني ويجعلني أركض بجرَّة قلم واحدة، كان شيئاً لا يُحتَمَل. وفجأة بدأتُ أصرخ، مرتقياً إلى أعلى أتلمّس حولي بهياج، وأرتطم بالجدران، مُبعثراً الفحم، ووسط ثورة غضبي استهلكت الضوء الضعيف.

ولكن بقيتُ أدور وأتلفّت في الظلام، مرتطماً بالجدران الخشنة لممرٍ ضيِّق، أضربُ رأسي بما يُشبه الحاجز وأتقدّم، وأنا أسعل وأعطس، نحو غرفة أخرى مجهولة الأبعاد، حيث استمررت في التدحرج على الأرض وأنا حانق. لا أدري كم من الوقت استمر ذلك. ربما أياماً، أو أسابيع؛ لقد فقدت كل إحساس بالزمن. وفي كل مرة توقفت لأستريح انتعش حنقي وانفجر من جديد. وأخيراً، عندما خارقت قِواي، كأنّ أحداً قال لي، «يكفي هذا، لا تقتل نفسك. لقد هربتَ بما يكفي، أخيراً تخلَّصتَ منهم» وانهرتُ، منبطحاً على وجهي، وارتميتُ من فرط الإرهاق، لا أقوى على إغماض عينيّ من شدة التعب. كانت حالة لا هي بالحلم ولا باليقظة، بل ما بينهما، علقتُ فيها كطائر أبو زريق الخاص بتروبلود الذي شلّته السترة الصفراء تماماً ما عدا عينيه.

لكنَّ الأرض كانت حينئذٍ قد تحولتْ بصورة ما إلى رمال والظلام إلى نور، وأصبحتُ سجين جاك وإمرسون العجوز وبليدسو ونورتون وراس ومدير المدرسة وعدد من آخرين لم أميِّزهم، ولكن كلهم استغلوني، والآن يكتنفونني من كل جانب وأنا مُلقى بجوار نهر من المياه السوداء، بالقرب من المكان الذي يمتد فيه جسرٌ مُصفَّح بعيداً إلى حيث لا أرى آخره. وكنتُ أحتج على ضغطهم عليّ ومُطالبتهم بأنْ أعود إليهم وكانوا منزعجين من رفضي.

قلت «كلا، لقد سئمت أوهامكم كلها وأكاذيبكم؛ سئمت الهرب»

قال جاك بصوت أعلى من مُطالبات الآخرين الغاضبة، «ليس كثيراً، لكنكَ ستسأم قريباً، إلا إذا رجعت. ارفضْ وسوف نُحرِّرك من أوهامك كما تريد»

قلت، وأنا أكافح لأنهض من رمال القطع، «كلا، شكراً؛ سوف أُحرر نفسي بنفسي»

ولكن الآن أخذوا يتقدمون حاملين سكاكين، ليُمسكوا بي؛ وشعرت بالألم الأحمر البرّاق وأخذوا كتلتيّ الدم ورموا بهما عبر الجسر، وبعيداً عن ألمي رأيتُهم يرتفعون بحركة منحنية ويُمسكون بأسفل قمة قوس منحنى الجسر، ليعلّقاهما هناك، وهما تقطران خلال أشعة الشمس إلى المياه الحمراء القانية. وبينما الآخرون يضحكون كان العالم بأسره يتحول ببطء، أمام عينيّ اللتين جعلهما الألم حادّتين إلى اللون الأحمر.

قال جاك، مُشيراً إلى منيي الذي يُهدَر في الهواء، «ها قد تحرّرتَ من الأوهام الآن. ما شعورك بعد أنْ تحرّرتَ من أوهامك؟»

ونظرتُ عالياً من خلال ألمي الذي أضحى الآن شديداً إلى درجة أنَّ الهواء بدا كأنه يزأر بقعقعة المعدن، وأنا أسمع مَنْ يقول، ما هو شعورك بعد أنْ تحرّرت من أوهامك...

والآن أجبتُ، «متألّماً وفارغاً»، وأنا أشاهد فراشة متلألئة تدور ثلاث مرات حول أجزائي الحمراء بلون الدم، هناك فوق أسفل قوس منحنى الجسر. قلت وأنا أشير، «ولكن انظروا». ونظروا وضحكوا، وفجأة عندما رأيتُ وجوههم الراضية وتفهّمهم، ضحكتُ في وجه بليدسو، وأذهلتهم. وتقدَّمَ جاك، يحدوه الفضول.

قال «لِمَ تضحك؟»

قلت «لأنني أرى الآن ما لم أتمكّن من رؤيته ودفعت الثمن»

قالوا «ماذا يعتقد أنه يرى؟»

واقترب جاك، مُهدداً، وأنا أضحك. قلت «أنا لم أعُد خائفاً الآن. ولكن إذا نظرتم فسوف ترون... إنه ليس خفياً...»

قالوا «نرى ماذا؟»

«أنَّ ما يتدلّى هناك ليس فقط أجيالي المهدورة فوق الماء -» وهنا تصاعد الألم ولم أعُد أراهم.

قالوا «ولكن ما هو؟ تابع»

«لكنَّ شمسكم...»

«نعم؟»

«وقمركم...»

«إنه مجنون!»

«وعالمكم...»

قال توبيت «كنتُ أعلم أنه مثالي متصوِّف!»

قلت «ومع ذلك، هناك كونكم، وذلك القطر على الماء الذي تسمعون هو كل التاريخ الذي صنعتم، وكل ما سوف تصنعون. والآن، اضحكوا، أيها العلماء. دعونا نسمع ضحككم!»

وعالياً فوقي بدا الجسر كأنه يتحرك مبتعداً إلى حيث لا أستطيع أنْ أراه، بخُطى هائلة كإنسان آلّي، كإنسان حديديّ، ساقاه الحديديتان تقعقعان بشكل مشؤوم. ومن ثم جاهدتُ لأرتقي، يملؤني الحزن والألم، «كلا، كلا، يجب أنْ نوقفه!»

ثم استيقظت وأنا وسط السواد.

بعد أنْ تمَّ استيقاظي، بقيتُ مستلقياً هناك ببساطة كالمشلول. ولم يخطر في بالي أي شيء آخر أفعله. سوف أحاول لاحقاً أنْ أجد لي مخرجاً، أما الآن فليس أمامي إلا أنْ أتمدد على الأرض وأستعيد الحلم. كانت وجوههم حيّة جداً حتى كأنهم يمثلون أمامي تحت بقعة من الضوء. كانوا كلهم هناك في مكان ما في الأعلى، يُثيرون الفوضى في العالم. حسن، فليفعلوا. لقد انتهيت منهم، وعلى الرغم من الحلم، كنتُ متماسكاً.

وهنا أدركتُ أنه ليس في استطاعتي أنْ أعود إلى منزل ميري، أو إلى أي جزء من حياتي الماضية. لم يكن في استطاعتي أنْ أقاربه إلا من الخارج، وكنتُ لا مرئياً لميري كما كنتُ للجامعة أو للأخوية، أو لأهل بيتي، لم يكن

أمامي إلا أنْ أتقدَّم أو أبقى هنا، تحت الأرض. لذلك سوف أبقى هنا إلى أنْ يبدأ البحث عني. هنا، على الأقلّ، يمكنني أنْ أقلّب التفكير في الأمور بسلام، أو، إنْ لم يكن بسلام، فبهدوء. سوف أسكن تحت الأرض. لقد كانت النهاية تقع في البداية.

الخاتمة

وها أنتَ قد عرفت كل ما هو مهم. أو على الأقلّ *تقريباً* عرفته. أنا رجل غير مرئيّ وهذا ما جعلني في حفرة - أو بيَّنَ لي الحفرة التي كنتُ فيها، إذا شئت - وقد قبلتُ هذه الحقيقة على مضض. أي شيء آخر كان في استطاعتي أنْ أفعل؟ فما إنْ يتعوّد المرء على أمر، حتى يُصبح الواقع حتمياً كضربة هراوة، وأنا تلقّيت ضربة أنزلتني إلى القبو قبل أنْ أتمكّن من فهم الفكرة. لعل هذا ما كان ينبغي أنْ يكون؛ لا أعلم. ولا أعلم إنْ كان ينبغي أنْ أقبل الدرس الذي وضعني في الخلف أو في *الطليعة*. لعل ذاك درسٌ للتاريخ، وسوف أدع مثل هذه القرارات لجاك وأمثاله بينما أحاول أنا في وقت متأخّر أنْ أحفظ درس حياتي.

فلأكن صريحاً معك - وهذا، بالمناسبة، عملٌ أجده في غاية الصعوبة. عندما يكون المرء غير مرئيّ يرى مسائل كالخير والشر، والصدق والخداع، ذات قوام غير مستقرّ وتجعله يخلط بينها، اعتماداً على الشخص الذي يتصادف أنْ يكون في تلك اللحظة ينظر من خلاله. حسن، لقد كنتُ الآن أحاول أنْ أنظر من خلال نفسي، وفي هذا مُخاطرة. إنني لم أكن يوماً مكروهاً أكثر مني وأنا صادق. أو عندما، كما فعلتُ تواً، حاولت أنْ أعبِّر بوضوح عن شعوري بمعنى الحقيقة. لا أحد يرضى - ولا حتى أنا. من ناحية أخرى، لم أكن محبوباً وأتلقّى الاستحسان أكثر مّا حدثَ معي وأنا أحاول «أنْ أُبرِّر» وأُشدد على معتقدات أحدهم الخاطئة؛ أو عندما حاولت أنْ أعطي أصدقائي الأجوبة السخيفة، غير الصحيحة، التي يحبون سماعها. في حضوري كانوا يستطيعون أنْ يتحدثوا ويتوافقوا مع أنفسهم، وكان العالم ثابتاً، وأحبّوه كما هو. كان لديهم إحساسٌ بالأمان. ولكن كانت هناك مشكلة: فغالباً، لكي أُبرِّر

موقفهم، كنتُ أُضطر إلى خنق نفسي إلى أنْ تجحظ عيناي ويتدلّى لساني كبابِ منزلٍ خالٍ في وجه ريح عاتية. آه، نعم، كانوا يسعدون وكنتُ أشعر بالاشمئزاز. ثم صرت أشعر بالاشمئزاز من الموافقة، من قول «نعم» في حين أنَّ كلمة «لا» تستقرّ داخلي - وفي ذهني.

بالمناسبة، هناك منطقة تكون فيها مشاعر الإنسان أكثر عقلانية من عقله، وفي تلك المنطقة بالذات تتجاذب إرادته اتجاهات مختلفة في وقت واحد. قد تسخر من كلامي هذا، لكنني أعلم الآن. كنتُ أنجذب إلى هذه الجهة وتلك زمناً طويلاً لا أتذكّر مقداره. وكانت مشكلتي هي أنني دائماً حاولت أنْ أسير على درب غيري وليس على دربي أنا. وكنتُ أُسمَّى بأسماء شتى دون أنْ يرغب أحد في أنْ يعرف ما أسمّي نفسي. وهكذا بعد مرور سنين من محاولة التطابُق مع آراء الآخرين تمرّدتُ أخيراً. إنني رجل غير مرئيّ. وهكذا قطعتُ طريقاً طويلة ورجعت على الطريق نفسها من النقطة في المجتمع التي صبوتُ إليها في الأصل.

لذلك تعوّدتُ على القبو؛ سبّتُّ فيه. ابتعدت عن كل شيء. لكنَّ ذلك لم يكن كافياً. لم أستطع أنْ أبقى ساكناً حتى وأنا في حالة سُبات. لأنه، اللعنة، هناك العقل، *العقل*. إنه لا يدعني أرتاح. لا يكفي الشراب، وموسيقى الجاز والأحلام. والكتب ليست كافية. والاستحسان المتأخّر للنكتة الفظّة التي جعلتني في حالة هرب دائم لم يكن كافياً. وأخذ عقلي يدور ويدور عائداً إلى جدّي. وعلى الرغم من المهزلة التي أنهتْ محاولتي أنْ أقول «نعم» للأخوية، ما زلت مُبتلياً بنصيحته لي وهو على فراش الموت... لعلّه أخفى المعنى أعمق مما تصوّرت، لعلّ غضبه ضلّلني - لا أستطيع أنْ أُقرِّر. أيمكن أنْ يكون قد عنى - اللعنة، ***لابد*** أنه كان يعني المبدأ، أنَّ علينا أنْ نُشدد على المبدأ الذي قام على أساسه البلد وليس على البشر، أو على الأقلّ ليس على البشر الذين أحدثوا أعمال العنف. هل عنى أنْ أقول «نعم» لأنه كان يعلم أنَّ المبدأ أعظم من البشر، أعظم من الأعداد والقوة الغاشمة وكل الأساليب التي استُخدِمَتْ لتشويه اسمه؟ هل عنى أنْ يُشدّد على المبدأ، الذي هم أنفسهم حلموا بأنه خرج من حالة عماء وظلام الماضي الإقطاعي، وانتهكوه واختزلوه إلى درجة السُخف حتى في عقولهم الفاسدة؟ أم هل عنى أنَّ علينا

أنْ نتحمّل المسؤولية عن كل شيء، البشر والمبدأ، لأننا الورثة الذين يجب أنْ يستخدموا المبدأ لأنه ليس هناك غيره يتلاءم مع حاجاتنا؟ ليس من أجل السلطة أو التبرير، بل لأننا، بسبب أصلنا، لا نبلغ السموّ إلا بهذه الطريقة؟ أم أنَّ علينا دون الجميع، نحن، فوق كل شيء، أنْ نُشدد على المبدأ، المُخطَّط الذي عوملنا باسمه بوحشية وتمّت التضحية بنا - ليس لأننا سنكون دائماً ضعفاء ولا لأننا كنا خائفين أو انتهازيين، بل لأننا كنا أكبر سناً منهم، من ناحية المدة التي يستغرقها العيش في العالم من الآخرين ولأنهم استنزفوا فينا بعضاً - ليس الكثير، بل بعضاً - من الطمع الإنساني والضآلة، نعم، والخوف والتطيُّر الذي دفعنا إلى الركض. (آه، نعم، هم أيضاً يركضون، يركضون في أرجاء أنفسهم) أم هل كان يعني أنَّ علينا أنْ نفرِض أنفسنا لأننا، على الرغم من أنه ليس ذنبنا، مرتبطون بكل الآخرين في العالم الصاخب، المُضطرب شبه المرئي، العالم الذي لا يراه جاك وأمثاله إلا كحقلٍ مُجدِب يجب استغلاله، وينظر إليه بتكبُّر نورتون وأمثاله، الذين ملّوا كونهم مجرد أدوات في لعبة «صناعة التاريخ» العقيمة؟ هل رأى أيضاً أننا بالنسبة إلى هؤلاء أيضاً علينا أنْ نقول «نعم» للمبدأ، خشية أنْ ينقلبوا علينا لكي يدمروه ويُدمرونا أيضاً؟

كان جدّي قد نصحني قائلاً «وافقهم حتى الموت والدمار». اللعنة، ألم يكونوا بمنزلة موتهم ودمارهم ما عدا أنَّ المبدأ عاش فيهم وفينا؟ وهنا زبدة النكتة: ألم نكن جزءاً منهم وأيضاً منفصلين عنهم ومُعرَّضين للموت عندما يموتون؟ إنني لا أفهم؛ الجواب يتملّص مني. ولكن ما الذي أريده *أنا* حقاً، تساءلتُ. حتماً ليس التحرُّر من راينهارت أو من سُلطة جاك، وليس ببساطة حريّة ألا أهرب. كلا، بل الخطوة التالية التي لم أستطع أنْ أتّخذها، لذلك بقيتُ في تلك الحفرة.

انتبه، أنا لا ألوم أحداً على وضع الأمور هذا؛ ولا أكتفي بالهتاف *mea culpa* (الذنب ذنبي). إنَّ الحقيقة هي أنك تحمل داخلك جزءاً من مرضك، على الأقلّ هذا ما أفعله أنا بوصفي رجلاً لا مرئياً. لقد حملتُ مرضي وعلى الرغم من محاولتي على مدى زمن طويل أنْ أُخرِجه إلى العالم الخارجي، فإنَّ محاولة تدوينه تبيّن لي أنَّ نصفه على الأقلّ يقع داخلي. لقد فهمت الأمر

ببطء، كذلك المرض الغريب الذي يُصيب السود الذين تراهم يتحولون من اللون الأسود إلى الأمهق[47]، ويختفي خضابهم وكأنما تحت تأثير أشعة قاسية، لا مرئيّة. وتمضي في طريقك على مدى سنين عديدة وأنتَ تعلم أنَّ ثمة خطباً، وفجأة تكتشف أنك شفافٌ كالهواء. في أول الأمر تقول لنفسك إنَّ الأمر كله نكتة قذرة، أو إنَّ مردَّه إلى «الوضع السياسي». ولكن في أعماقك تشكّ في أنكَ يجب أنْ تلوم نفسك، وتقفُ عارياً ترتعش أمام ملايين العيون التي تنظر خلالك ولا تراك. *ذلك* هو مرض الروح الحقيقيّ، الرمح المغروز في الخاصرة، الجرّ من العنق في أرجاء البلدة التي يسودها غضب الدهماء، التفتيش العام، عِناق الحسناء، التمزُّق في البطن وخروج الأحشاء، والرحلة إلى غرفة الغاز القاتل التي تنتهي إلى الفرن النظيف بدرجة صحيّة – إلّا أنه أسوأ لأنك تستمر في العيش بكل حماقة. لكنك يجب أنْ تعيش، وفي استطاعتك إما أنْ تمارس الجنس السلبي مع مرضك أو أنْ تحرقه وتنتقل إلى مرحلة التناقض التالية.

نعم، ولكن ما هي المرحلة التالية؟ كم من مرة حاولت أنْ أعثر عليها! لقد صعدتُ مراراً وتكراراً لأفتش عنها. ذلك أنني باشرت، كما يفعل كل شخص تقريباً في بلدنا، بنصيبي من التفاؤل. آمنتُ بالعمل الكادّ وبالتقدُّم وبالحركة، أما الآن، بعد أنْ كنتُ أولاً «مع» المجتمع ومن ثم «ضده»، لا أُحدِّد لنفسي أية مرتبة أو حدود، ومثل هذا الموقف يُناقض بشكل مباشر مسار العصر. لكنَّ عالمي أصبح ذا إمكانات غير محدودة. يا لها من عبارة – لكنها عبارة جيدة وتمثّل موقفاً جيداً من الحياة، ولا ينبغي للإنسان أنْ يقبل غيره بديلاً؛ كل هذا تعلّمته في القبو. إلى أنْ نجحتْ عصابةٌ في إلباس العالم سترة مجانين، اسمها الإمكانية. اخطُ خارج الحدود الضيّقة لِما يسميه الناس الواقع وتكون بذلك قد خطوتَ إلى العماء – اسأل راينهارت، إنه متمكِّن في هذا المجال – أو المُخيّلة. وهذا أيضاً تعلّمته في القبو، وليس بإماتة حسّ الإدراك عندي؛ أنا غير مرئيّ، ولستُ أعمى.

حقاً لا، إنَّ العالم صلب، ومُشاكس، وشرير ورائع بسموّ كما كان سابقاً،

47– الأمهق: الشخص اللبنيّ البشرة وذو عينين قرنفليتين. – المترجم

ما عدا أنني الآن أصبحتُ أفهم صِلتي به وصِلته بي. لقد ابتعدتُ كثيراً عن تلك الأيام التي عشتُ خلالها، مع كثير من الوهم، حياةً عامة وحاولتُ أنْ أعمل تحت افتراض أنَّ العالم صلبٌ ويحتوي العلاقات كلها. أما الآن فبتُّ أعرف أنَّ الناس مختلفون وأنَّ الحياة كلها مُقسَّمة وأنَّ الصحة الحقيقية لا توجد إلا في التقسيم. وهكذا من جديد بقيتُ في حفرتي، لأنَّ هناك في الأعلى رغبة متزايدة لجعل الناس يتطابقون مع النمط. وكما رأيت في كابوسي، إنَّ جاك ورجاله ينتظرون شاهرين سكاكينهم، يفتشون عن أقلّ ذريعة لـ... حسن، لـ «يضربوا ضربتهم»[48]، وأنا لا أشير إلى خطوة الرقصة، على الرغم من أنَّ ما يفعلونه هو أنْ يجعلوا النسر العجوز يرقص بصورة خطرة.

على أية حال، من أين أتى كل ذلك الحماس للتطابُق؟ – الجواب هو التنوُّع. دَع الإنسان يحتفظ بأجزائه المتعددة ولن ترى دولاً متسلطة. في الواقع، إذا تبعوا مسألة التطابُق هذه فسوف ينتهي بهم الأمر إلى إجباري، أنا الرجل اللامرئي، على أنْ أُصبح أبيض، وهذا ليس لوناً بل افتقار إليه. هل ينبغي أنْ أكافح لبلوغ حالة اللالون؟ ولكن لنكن جدّيين، وبلا عنجهية، فكِّر فيما سيخسره العالم إذا ما حدث هذا. إنَّ أميركا منسوجة من جدائل عديدة؛ سوف أميّزها وأُبقي عليها. إنَّ الحقيقة الكبرى في بلدنا أو في أي بلد هي أنَّ «الفائز لا ينال شيئاً». إنَّ الحياة يجب أنْ تُعاش، لا أنْ تُكبح؛ والإنسانية تُكتَسَب بالاستمرار في اللعب حتى بعد وقوع هزيمة. إنَّ قدرنا هو أنْ نُصبح متَّحدين، وفي الوقت نفسه متعدِّدين – هذه ليست نبوءة، بل وصف. وهكذا تُصبح إحدى أعظم نكات العالم هي مشهد البيض منهمكين في الهروب من السواد ليُصبحوا أشد سواداً كل يوم، والسود يكافحون ليُصبحوا بيضاً، فيصبحوا باهتي اللون تماماً ورماديين. يبدو أنَّ لا أحد منا يعلم مَنْ هو أو إلى أين هو ذاهب.

وهذا يُذكّرني بأمر وقع معي في يوم قريب في القطار النفقي. في أول الأمر رأيتُ فقط سيداً عجوزاً بدا للوهلة الأولى تائهاً. كنتُ متأكّداً من أنه تائه، إذ بينما كنتُ أنظر على طول الرصيف رأيته يقترب من عدد من الأشخاص

48- عبارة Ball the Jack تعني، من بين ما تعني، عنواناً لرقصة شائعة. – المترجم

فاستدرتُ ولم أتكلَّم. قلت في نفسي، إنه تائه، وسوف يظل يقترب إلى أنْ يراني، وعندئذٍ سوف يسأل عن الجهة التي سيذهب إليها. لعله يشعر بالحرج من الاعتراف لشخص أبيض بأنه تائه. ربما إذا فقدَ المرء الإحساس ***بمكان*** وجوده فهذا يعني ضمناً وجود خطر فقدان معرفة ***نفسه***. قلت في نفسي، لابد أنَّ هذا هو الأمر – إنَّ فقدان الاتجاه يعني فقدان وجهك. إذن ها هو ذا قادم ليسأل التائه، اللامرئي، عن وجهته. حسن جداً، لقد تعلّمتُ أنْ أعيش من دون اتجاه. دعه يسأل.

ولكن عندما أصبح على مسافة بضعة أقدام تعرَّفتُ عليه؛ إنه السيد نورتون. كان السيد العجوز قد أصبح الآن أشد نحولاً وغزته التجاعيد لكنه نشيط كعهده دائماً. ولبرهة من الزمن أحيَتْ رؤيتي له حياتي القديمة كلها، وابتسمتُ والدموع تخز عينيّ. ثم انتهى الأثر، مات، وعندما سألني كيف يمكن الوصول إلى شارع سنتر، تأمّلته مع مشاعر متضاربة.

قلت «ألا تعرفني؟»

قال «أينبغي أنْ أعرفك؟»

قلت، أراقبه عن كثب، «ألا تراني؟»

«طبعاً – هل تعرف الطريق إلى شارع سنتر، يا سيدي؟»

«إذن. المرة الأخيرة كانت حانة غولدن داي، والآن هو شارع سنتر. لقد انكمشتَ، يا سيدي. ولكن ألا تعرف مَنْ أنا؟»

قال، مُحيطاً أُذنه بتجويف يده، «أيها الشاب، أنا مستعجل. ولِمَ ينبغي أنْ أعرفك؟»

«لأنني قَدَرُك»

حدَّقَ إليّ بحيرة، وقد ابتعد قليلاً، «أقلتَ، قَدَري؟ هل أنت على ما يُرام، أيها الشاب؟ أي قطار قلتَ إنني يجب أنْ أستقلّ؟»

قلت، وأنا أهزّ رأسي نفياً، «أنا لم أقُل. والآن، ألا تخجل من نفسك؟»

قال ساخطاً «أخجل؟ أخجل!»

ضحكتُ، وقد استولت عليّ الفكرة فجأة. «لأنه، يا سيد نورتون، إذا

كنتَ لا تعرف *أين* أنت، فغالباً أنت لا تعرف *مَنْ* تكون. إذن أتيتَ إليّ بدافع الشعور بالخجل. أنت تشعر بالخجل، ألستَ كذلك؟»

«أيها الشاب، لقد عشتُ طويلاً في هذا العالم ولم أعد أخجل من أي شيء. هل تشعر بخفّة في عقلك بسبب الجوع؟ كيف عرفت اسمي؟»

قلت، مُقترباً منه لأراه وهو يستند إلى عمود، «ولكن أنا قَدَرك، أنا صنعتُك. فلِمَ لا أعرفك؟» تلفّتَ حوله كحيوان مُحاصَر. كان يحسب أنني مجنون.

قلت «ألا تخاف، يا سيد مورتون؟ هناك حارس في آخر الرصيف. أنت في أمان. استقلّ أي قطار؛ كلها تذهب إلى غولدن داي –»

هنا كان أحد قطارات الإكسبريس قد ولج المحطة تواً فاختفى العجوز برشاقة تامة داخل أحد أبوابه. وقفتُ هناك أضحك بهستيريا. ضحكتُ طوال طريق عودتي إلى حفرتي.

ولكن بعد أنْ انتهيت من الضحك انكفأتُ من جديد إلى أفكاري – كيف حدث هذا كله؟ وتساءلت إنْ كان الأمر كله مُجرد مزاح ولم أعرف الجواب. ومنذ ذلك الحين تغمرني رغبة جامحة أحياناً في العودة إلى «قلب الظلام» ذاك عبر خط ميسون–ديكسون، ومن ثم تذكّرتُ أنَّ الظلام الحقيقي يكمن في عقلي، والفكرة تضيع وسط الكآبة. ومع ذلك تلحّ الرغبة. أحياناً أشعر بحاجة إلى إعادة التأكيد على كل شيء، على كامل المنطقة التعيسة وكل الأشياء المحبوبة والمكروهة فيها، ذلك أنها كلها تشكّل جزءاً مني. ولكن حتى الآن، هذا أقصى ما حصلتُ عليه، ذلك أنَّ كل حياة تُرى من حفرة الفردية هي عبث.

إذن لماذا أكتب، وأُعذّب نفسي في تدوينها؟ لأنني تعلَّمت رُغماً عني بعض الأشياء. من غير إمكانية العمل، تأتي المعرفة إلى المرء تحت عنوان «ضعها في إضبارة وانسها»، وأنا لا أستطيع أنْ أضعها في إضبارة ولا أنْ أنساها. ولم تنسني بعض الأفكار؛ إنها لا تكفّ عن التوافُد في أثناء سُباتي، في أثناء رضاي عن نفسي. لِمَ أكون أنا مَنْ يُراوده مثل هذا الكابوس؟ لِمَ يجب أنْ أُكرَّس وأوضَع جانباً – نعم، إذا لم يكن على الأقلّ لأُخبر عدداً ضئيلاً من الناس عن الأمر؟ يبدو أنه لا مهرب. هنا صرتُ أرمي غضبي

في وجه العالم، أما الآن وبعد أنْ حاولتُ أنْ أدوّنه كله يعود الوله القديم بلعب دور، وأُسحَب من جديد إلى أعلى. بحيث إنني حتى قبل أنْ أنتهي أكون قد فشلت (لعلَّ غضبي أثقل مما ينبغي؛ لعلي، بما أنني مُتحدِّث مفوَّه، استخدمت أكثر مما ينبغي من الكلمات). لكنني فشلت. ومُحاولة تدوين كل شيء بحد ذاته شوّشتني وأبطلَتْ بعضاً من الغضب ومن المرارة. وأصبحتُ أشجب وأدافع، أو أشعر بأنني مُستعد للدفاع. إنني أُدين وأُشدد، أقول لا وأقول نعم، أقول نعم وأقول لا. إنني أشجب لأنني، على الرغم من كوني متورطاً ومسؤولاً جزئياً، تأذّيتُ إلى درجة الألم الذي لا يُطاق، تأذّيتُ إلى درجة الاختفاء. وأدافع لأنني وجدتُ أنني عاشق، على الرغم من كل شيء. لكي أُدوِّن بعضاً منه *عليَّ* أنْ أعشق. إنني لا أُغريك بالغفران الزائف. أنا رجل يائس – لكنَّ قسماً كبيراً من حياتك سوف يضيع، سيضيع معناه، إلا إذا قاربتَه بالحب كما بالكراهية. وهكذا أنا أُقاربه عبر التقسيم. هكذا أشجب وأدافع وأكره وأُحبّ.

لعلَّ هذا يجعل مني قليلاً إنساناً مثل جدّي. لقد اعتقدتُ ذات مرة أنَّ جدّي غير قادر على التفكير في الإنسانية، لكنني كنتُ مُخطئاً. ما الذي يدعو عبداً عجوزاً إلى استخدام عبارة مثل «إنَّ هذا وهذا أو هذا جعل مني أكثر إنسانيّة»، كما قلت في خطاب حلبة المصارعة؟ اللعنة، لم تكن لديه أية شكوك حول إنسانيته – ترك هذا الأمر لذرّيته «الحرّة». لقد تقبّل إنسانيته تماماً كما تقبَّلَ المبدأ. إنه له، والمبدأ يستمرّ بكل تنوّعه الإنساني والسخيف. وهكذا الآن وقد حاولتُ أنْ أدوّنه جرّدتُ نفسي في أثناء ذلك من أسلحتها. لن تؤمن بكوني لا مرئياً ولن ترى كيف أنَّ أي مبدأ ينطبق عليك يمكن أنْ ينطبق عليّ. ولن ترى ذلك على الرغم من أنَّ الموت ينتظر كلينا إذا لم تره. ومع ذلك، فإنَّ تجردي من الأسلحة أدى بي إلى اتخاذ قرار. لقد انتهى السُبات. يجب أنْ أنزع عني جلدي القديم وأخرج لأتنفّس. لقد أصبح الهواء فاسداً، وقد يكون مردُّ ذلك، من هذه المسافة تحت الأرض، رائحة إما الموت أو الربيع – آمل أنْ يكون الربيع. ولكن لا تدعني أخدعك، هناك **فعلاً** موت في رائحة الربيع وفي رائحتك كما في رائحتي. وقد علَّم كوني غير مرئيّ أنفي، إنْ كان يُعلِّم أي شيء، أنْ يُصنِّف أنواع روائح الموت الكريهة.

إنني بنزولي تحت الأرض، مسحتُ كل شيء ما عدا عقلي، *العقل*. والعقل الذي وضع خطة للعيش ينبغي ألا يغيب عن ناظريه العماء الذي وُضِعَت تلك الخطة على أساسه. وهذا ينطبق على المجتمعات كما على الأفراد. وهكذا، بعد أنْ حاولتُ أنْ أُضفي نظاماً على العماء الكائن في نظام أفكارك اليقينية، يجب أنْ أخرج، يجب أنْ أبرز. وما زال هناك صراع داخلي: إنَّ نِصفي يقول مع لوي آرمسترونغ: «افتح النافذة واطرد الهواء الفاسد»، بينما النصف الآخر يقول، «كانت الذرة خضراء نضرة قبل الحصاد». طبعاً كان لوي يمزح، *فهو* ما كان ليطرد الهواء الفاسد، لأنَّ ذلك كان سيُقاطع الموسيقى والرقص، ولأنَّ الموسيقى الجيدة هي التي كانت تخرج من فوهة بوق الهواء الفاسد وهي الأهمّ. إنَّ صاحب الهواء الفاسد العجوز ما زال موجوداً مع موسيقاه ورقصه وتنوّعه، وأنا سأخرج وأتجول مع خاصتي. وكما قلت من قبل، لقد اتُّخِذَ القرار. سوف أنزع الجلد القديم عني وسوف أتركه هنا في الحفرة، وسوف أخرج، وما زلتُ غير مرئيّ من دونه، لكنني سأخرج مع ذلك. وأعتقد أنه المناسب جداً. حتى السُبات يمكن المُغالاة فيه، إذا فكّرت فيه. لعلّ هذه هي جريمتي الاجتماعية الكبرى، لقد أطلتُ السُبات، بما أنَّ هناك إمكانية في أنْ يكون حتى للرجل غير المرئي دور مسؤول اجتماعياً يمثّله.

أكاد أسمعكَ تقول «أه، إذن كان الأمر كله توليفة لإثارة ضجرنا بثرثرته العفنة. إنَّ كل ما أراد منا هو أنْ نُصغي إلى هذيانه!». لكن هذا صحيح فقط جزئياً: فبما أنني غير مرئيّ وبلا جوهر، مجرد صوت بلا جسد، فأي شيء آخر كان في وسعي أنْ أفعل؟ أي شيء غير أنْ أحاول أنْ أحكي لك ما كان يحدث فعلاً عندما كانت عيناك تنظران من خلالي؟ وهذا بالذات ما يُخيفني:

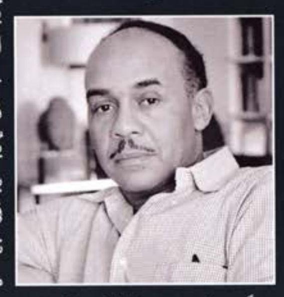
مَنْ يعلم غير أنني إنما أتكلَّم بالنيابة عنك، بنبرة منخفضة؟



– انتهى –

أنا إنسانٌ غير مرئيّ. كلا، لستُ شبحاً من تلك الأشباح التي تسكن إدغار ألن بو؛ ولستُ أحد تشكيلاتك السينمائية الهوليووديّة الهلاميّة. أنا إنسان ملموس، من لحم وعِظام، وأنسجة وسوائل - ويمكن القول أيضاً إنني أمتلك عقلاً. أنا غير مرئيّ، أتفهم، لمجرد أنَّ الناس يرفضون أنْ يروني. وكالرؤوس التي بلا أجساد التي تراها أحياناً في العروض الثانوية في السيرك، أبدو كأنني مُحاط بمرايا من زجاج قاسٍ، مُشوِّه. عندما يقتربون مني لا يرون إلا ما يُحيط بي، أي أنفسهم، أو قِطعاً من مخيلتهم - في الحقيقة أنهم يرون كل شيء وأيّ شيء إلا أنا.

وكوني غير مرئيّ لا يعود بالضبط إلى حادث كيميائي حيوي وقع لبشرتي. إنَّ هذا النوع من الاختفاء الذي أشير إليه يحدث بسبب حَوَلٍ من نوع معيَّن يحدث لعيون الذين أتصل بهم. إنها مسألة تتعلّق بتكوين عيونهم الداخليّة، تلك العيون التي ينظرون بها من خلال عيونهم الماديّة إلى الواقع. أنا لا أتذمَّر، ولا أحتجّ. فمن التميُّز ألا تكون مرئياً، على الرغم من أنه يُرهِق الأعصاب. ودائماً ما يرتطم بك أصحاب النظر الضعيف أيضاً. أو ينتابك الشك أيضاً في أنك موجود حقاً. تتساءل ما إذا كنتَ مجرد شبح في أذهان الآخرين. فلنقُل، شكلاً في كابوس يُحاول النائم بكل قِواه أنْ يُدمره. عندما تشعر هكذا، بدافع الاستياء، تبدأ ترتطم بدورك بالناس. ودعني أعترف لك، أنك تشعر هكذا في أغلب الأحيان. تتوجّع من شدّة الحاجة إلى إقناع نفسك بأنك موجود حقاً في العالم الواقعي، بأنك جزءٌ من كل الأصوات والآلام، وتضرب قبضتيّ يديك معاً، وتلعن وتسبّ لكي تجعلهم يرونك. ولكن للأسف، نادراً ما تنجح المحاولة.



ربما تُعتبَر رواية «الرجل اللا مرئي» أشهر رواية تتناول وضع السود في أميركا؛ فهي لا تناقش فقط أوضاع السود الجائرة، بل الصراعات السياسية بين الأحزاب السوداء والقيادات المتنازعة والخيانات التي تتعرض لها قضية السود في أميركا أيضاً. صدرت الرواية عام ١٩٥٢ ، وفي عام ١٩٥٣ نالت الجائزة الوطنية للأدب.

مؤلف الرواية رالف إليسون (١٩١٣ - ١٩٩٤) روائي وناقد أدبي أميركي. رواية «الرجل اللا مرئي» هي أشهر إنتاج له.

له مجموعات من المقالات الأدبية والسياسية كان ينشرها في النيويورك تايمز.


9 789933 926298